

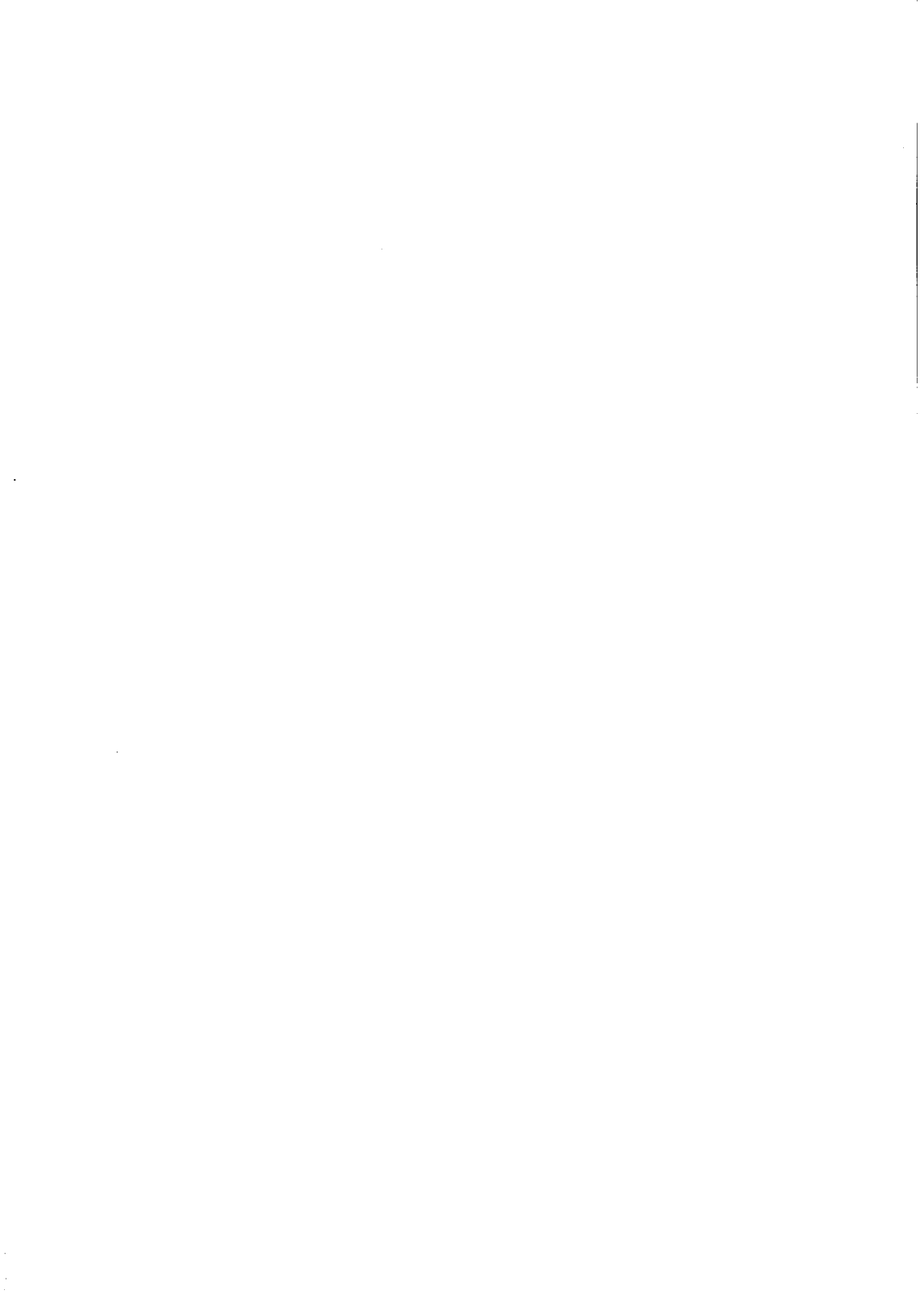
إدوارد جيبون

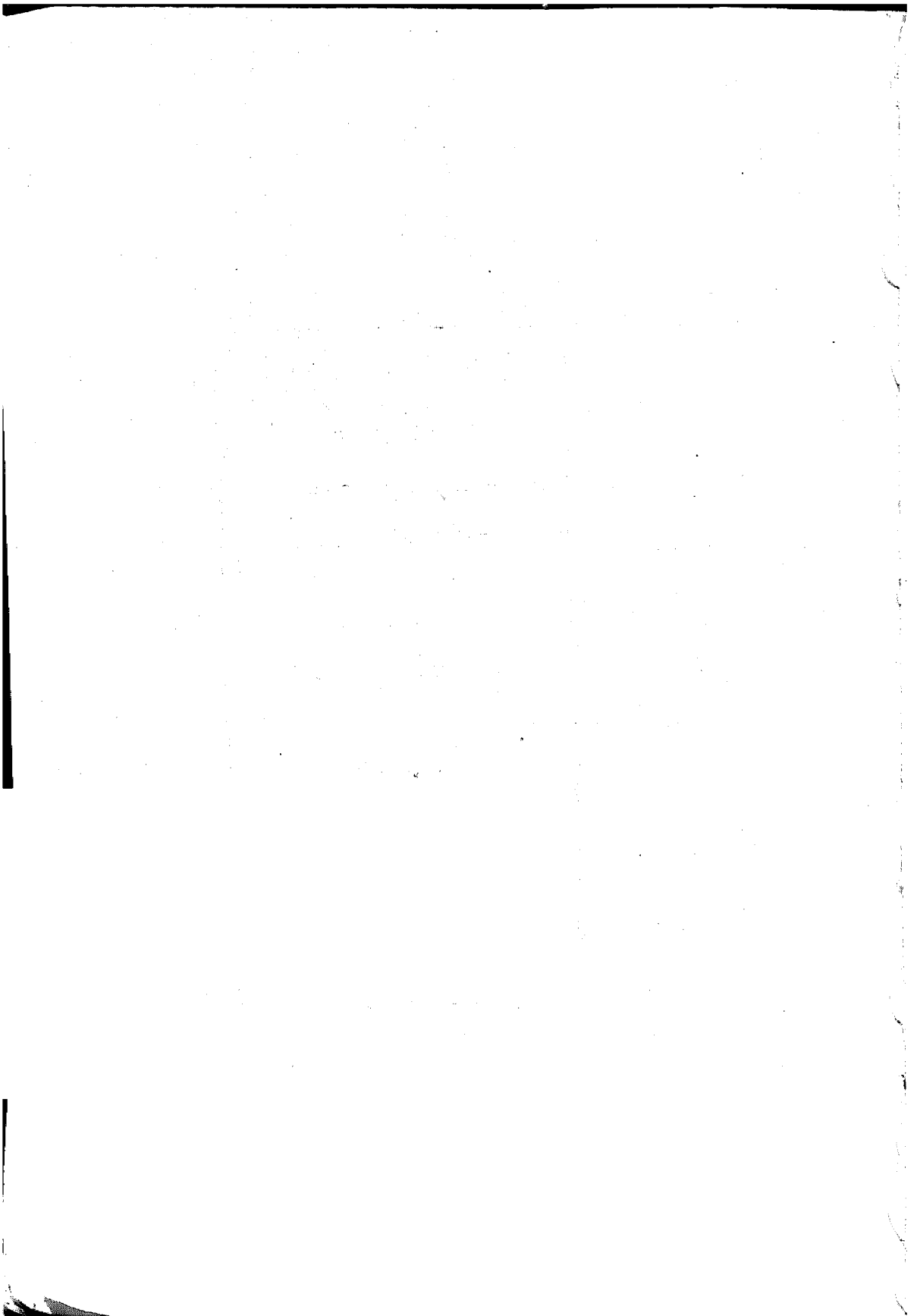
اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول



Bibliotheca Alexandrina  
0115379





## الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

محسنة عطية

26260

# اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الأول

تأليف إدوارد جيبيون  
ترجمة محمد علي أبودرة

937 06

2008

٧١

مراجعة وتقديم

أحمد نجيب هاشم

|                                 |        |
|---------------------------------|--------|
| الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية |        |
| رقم التصنيف                     | 937.06 |
| رقم الترخيل                     | ٧٧٥٢   |
| رقم الترخيل                     | ٧٧٥٥   |

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية المختصر كتاب

*EDWARD GIBBON'S  
DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE'*

الذي أعده

D. M. Low

## فهرس

( الفصل الثامن والتاسع حذفاً من الطبعة المختصرة لتتقدم معلوماتهما )

الموضوع \* الصفحة

|    |                             |
|----|-----------------------------|
| ٩  | مقدمة الطبعة العربية الأولى |
| ٢٩ | مقدمة الطبعة الانجليزية     |
| ٣٩ | اعتراف بالفضل               |

### العصر الذهبي للأنطونيين

|    |       |
|----|-------|
| ٤٣ | تمهيد |
|----|-------|

#### الفصل الأول ( ٩٨ - ١٨٠ م )

|    |                                     |
|----|-------------------------------------|
| ٤٨ | امتداد الامبراطورية الرومانية       |
| ٥٥ | فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية |

#### الفصل الثاني ( ٩٨ - ١٨٠ م )

|    |   |
|----|---|
| ٥٦ | الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية |
| ٦٢ | الولايات  |
| ٦٨ | الآثار الرومانية                                    |
| ٧٥ | تحسين الزراعة                                       |

#### الفصل الثالث ( ٩٨ - ١٨٠ م )

|    |                                 |
|----|---------------------------------|
| ٨٢ | دستور الامبراطورية الرومانية    |
| ٩٠ | فكرة عامة عن النظام الامبراطورى |

## تحدى النظام القديم

## الفصل الرابع ( ١٨٠ - ١٩٢ م )

١٠٢ . . . . . عصر كومودس

تمو الأوتوقراطية العسكرية وتدفق الروح الشرقية

## الفصل الخامس ( ١٩٣ - ١٩٧ م )

١١٧ . . . . . البريتوريون يبيعون الامبراطورية

١٢١ . . . . . سبتيوس سيفيروس

## الفصل السادس ( ٢١١ - ٢٣٥ م )

١٢٦ . . . . . أسرة سيفيروس

١٢٩ . . . . . كاراكلا وجيتا

١٣٦ . . . . . الاجابالوس

١٣٩ . . . . . الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

## تفكك الامبراطورية

## الفصل السابع ( ٢٣٥ - ٢٤٨ م )

١٤٧ . . . . . امبراطور من المتبربرين

١٥٤ . . . . . الجورديانيون

١٦١ . . . . . فيليب العربي

## الفصل العاشر ( ٢٥٣ - ٢٦٨ م )

١٦٣ . . . الكوارث العامة فى عهد فاليريان وجالينوس

١٦٨ . . . غارات القوط

١٧٥ . . . غزو الفرس لأرمينيا ، وأسر فاليريان

## انحسار المد

## الفصل الحادى عشر ( ٢٦٨ - ٢٧٥ م )

١٨٩ . . . . . زنوبيا ومملكة تدمر

١٩٦ . . . . . انتصارات أوريليان ووفاته



## النظام الإمبراطوري الجديد

## الفصل الثالث عشر ( ٢٨٥ - ٣١٣ م )

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| ٢٠٥ | حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة |
| ٢٠٩ | انتصاره ونظامه الجديد         |
| ٢١٤ | نشوء مراسم البلاط             |
| ٢١٦ | اعتزال دقلديانوس ووفاته       |
| ٢٢١ | اضمحلال الفنون                |

## الفصل الرابع عشر ( ٣١٥ - ٣٢٣ م )

|     |                    |
|-----|--------------------|
| ٢٢٤ | قسطنطين في روما    |
| ٢٢٦ | اصلاحاته التشريعية |

## ظهور المسيحية

## الفصل الخامس عشر

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٢٣١ | خمسة أسباب لنمو المسيحية         |
| ٢٧٥ | الظروف المواتية لتقدمها          |
| ٢٨٢ | اعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم |

## الفصل السادس عشر ( ٢٥٨ - ٣١٣ م )

|     |  |
|-----|--|
| ٢٨٨ | سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين |
| ٢٩٦ | موقف الأباطرة من المسيحيين             |
| ٣١٠ | استشهاد سبيريان                        |
| ٣١٥ | تنوع سياسة الارهاب                     |
| ٣٢٣ | الكنيسة في عهد دقلديانوس وخلفائه       |
| ٢٣٥ | مرسوم جالوريوس للتسامح                 |

## الاتجاه نحو الشرق

## الفصل السابع عشر ( ٣٢٤ - ٣٣٤ م )

|     |                               |
|-----|-------------------------------|
| ٢٤٥ | روما الجديدة                  |
| ٢٥٠ | تأسيس القسطنطينية             |
| ٢٥٦ | تدشين القسطنطينية             |
| ٢٥٦ | نظام الحكومة الجديد           |
| ٢٥٨ | القناصل والبطاركة ( النبلاء ) |

| الصفحة                             | الموضوع                                    |
|------------------------------------|--|
| ٣٦١                                | رؤساء الحرس • البروقنصل • الحكام           |
| ٣٦٧                                | وزراء القصر السبعة                         |
| ٣٧٢                                | بدء الدولة البوليسية                       |
| الفصل الثامن عشر ( ٣٢٤ - ٣٣٧ م )   |  |
| ٣٧٥                                | شخصية قسطنطين                              |
| ٣٧٨                                | أسرة قسطنطين                               |
| ٣٨٥                                | وفاة قسطنطين                               |
| ٣٨٨                                | نهوض فارس في عهد شاپور الثاني              |
| الفصل التاسع عشر ( ٣٥٥ - ٣٥٩ م )   |  |
| ٣٩٠                                | عهد جوليان                                 |
| ٣٩٢                                | الادارة المدنية في الفغال                  |
| ٣٠٤                                | حبه لمدينة باريس                           |
| الاعتراف بالمسيحية • بداية الهرطقة |  |
| الفصل العشرون ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م )      |  |
| ٣٩٩                                | تحول قسطنطين الى المسيحية                  |
| ٤٠٢                                | مرسوم التسامح                              |
| ٤٠٧                                | رؤيا قسطنطين                               |
| ٤١٢                                | تعميد قسطنطين                              |
| ٤١٦                                | اقرار المسيحية بمقتضى القانون              |
| ٤١٨                                | التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية |
| الفصل الحادى والعشرون              |  |
| ٤٣٠                                | مذهب آريوس                                 |
| ٤٣٣                                | مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة                |
| ٤٣٨                                | الاباطرة والجدل حول مذهب آريوس             |
| ٤٤٥                                | أخلاق اثناسيوس ومغامراته                   |
| ٤٥٣                                | مجالس آرل وميلان                           |
| ٤٦١                                | الطابع العام للطوائف المسيحية              |

## مقدمة الطبعة الأولى العربية

صدر كتاب ادوارد جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، أى أنه قد أوشك أن ينقضى على ظهوره لأول مرة نحو قرنين من الزمان ، ومع ذلك ظل حتى يومنا هذا ، يحتل بين أسفار التاريخ وذخائر الأدب مكانا ملحوظا ، فكم أعيد طبعه كاملا أو مختصرا في مجموعة من المجلدات أو في مجلد واحد ، كما ترجم الى معظم اللغات الأوربية ، وكم علق عليه النقاد والمؤرخون ، وكم رجع اليه الباحثون واستقى منه الدارسون !!

### تعريف بالمختصر :

والكتاب الذى نضعه اليوم بين أيدي قراء العربية ترجم عن مختصر في ثلاثة مجلدات أصدره فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٦٠ الدكتور د. م. لو D. M. Low الذى كان محاضرا فى الدراسات القديمة بجامعة لندن . ثم أعيد طبعه فى ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ فى مجلد واحد يضم نحو ألف من الصفحات ، وأوضح فى مقدمته التى أثبتناها بنصها ، النهج الذى سار عليه فى مختصره هذا ، والحق أنه التزم فيه جانب الحكمة والدقة ، فهو لم يغير كلمات المؤلف وإنما حذف من الأصل فصولا برمتها رأى أن حذفها لا يؤثر فى السياق العام لفكرة جييون أو منهجه فى كتابه ، ولا ينتقص من قيمة موضوعه بصفة عامة ، لأن هذه الفصول المحذوفة تعالج تفصيلات قد لا تهتم القارئ العام ، كذلك حذف صاحب المختصر أجزاء قليلة من الفصول التى أبقى عليها فى مختصره ، وفى الوقت نفسه أوجز المحذوف فى سطور قليلة أبقت عليها الترجمة العربية فى مواضعها .

ولما كان من العسير أن تفصل التاريخ عن مؤلفه أو المؤلف عن عصره .. فيجدر بنا أن نلم أولا بسيرة حياة ادوارد جيبيون والعوامل التي شكلت شخصيته واثرت في كتاباته . والجدير بالذكر أن جيبيون دون سيرة حياته وخلجات نفسه في كتاب آخر له : « مذكرات عن حياتي وكتاباتي Memoirs of my Life and Writings » ، وفيه الكثير مما يشوق القارئ ، ومما يدعو الى الاعجاب ، وما يمكن أن تكون فيه عظة وعبرة .

### نشأة جيبيون :

ولد ادوارد جيبيون في ٢٧ أبريل ١٧٣٧ في بلدة بنتي Putney في مقاطعة سري Surrey بجنوب انجلترا من أسرة غنية عريقة نشأت أصلا في بلدة رولفندن Rolvendon بمقاطعة كنت Kent وكان أبوه آنذاك عضوا في البرلمان الانجليزي ، ويشير مؤرخنا الى مولده فيقول : « خليق بي أن أذكر ما حبتني به الطبيعة ، فقد ولدت في بلد تزدهر فيه الحضارة ، في عصر يشع فيه نور العلم والمعرفة ، في أسرة ذات مكانة رفيعة ابتسم لها الحظ » ، وكان ادوارد جيبيون الأخ الأكبر لخمس من الأخوات وأخ واحد ، ماتوا جميعا في سن الطفولة . أما هو فكان حتى السادسة عشرة من عمره ضعيف البنية هزيل الجسم الى درجة غير عادية ، غالبا ما انقطع معها الرجاء في بقائه على قيد الحياة . ومن أجل ذلك تعثر في دراسته الأولى ، وكثيرا ما اتعده المرض عن مواصلة تعليمه في انتظام أو عن مواظبته على مقاعد الدرس ، وهنا تبرز منذ اللحظة الأولى أروع عبرة في حياته ، تلك هي أنه علم نفسه بنفسه ، وبنى مجده وشهرته بجهوده وحدها ! .

### حياته الدراسية ، ولعه بالقراءة :

بدأ جيبيون تعلم القراءة والكتابة والحساب في البيت ، ثم بدأ تعلم اللاتينية على يد مدرس خاص اسكتلندي اسمه جون كيركبي ، ولما بلغ الثامنة من عمره التحق لأول مرة بمدرسة بنتي ، ثم انتقل منها في العام التالي الى مدرسة داخلية هي مدرسة كنجرتن على نهر التيمز وعكف على دراسة اللغة اللاتينية ، ولكنه لا يتحدث في ابتهاج عن دراسته ولا عن المدرسة نفسها فهو يقول في مذكراته : « لقد اشتهرت معرفة النحو اللاتيني بئني باهظ من دموع ذرفت ودماء نزلت » ، وأولع في هذه المدرسة بقراءة ترجمة الشاعر بوب Pope لأعمال هوميروس وترجمة درايدن Dryden لأعمال مرجيل ، كما قرأ كتاب الف ليلة

وليلة مترجما الى الانجليزية ، ولكنه لم يمكث في هذه المدرسة أكثر من عام فقد توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه الى مقاطعة هامشير Hampshire .

### فضل خالته عليه :

وبقى جيبون في بيت جده لأمه ، تحت رعاية خالته كاترين بورتين Catherine Porten ويبدو أنه في العامين اللذين تضاهما في كنف هذه الخالة العزيزة زاد ولعه الشديد بالقراءة ، ذلك الولوج الذي لازمه وملك عليه نفسه طوال حياته ، مستفيدا الى أكبر حد من مكتبة جده ، وشجعته خالته على ذلك ، وهو نفسه يعترف بأن هذه الفترة تميزت « بأنها اقدرت بأعظم التوفيق في نمو عقله وفكره » ، وانه ليوفى هذه الخالة حقها فيقول : « انى مدين لها ببقتاى على قيد الحياة ، وبتحسن صحتى في باكورة أيامى ، فقد كنت طفلا هزيلا أهملت أمه ، وغفلت مربيته عن تغذيته ، وأولته من الرعاية أقلها ، حتى لم يكن يرجى من وجودها الى جانبه اى خير ، ولولا سهر هذه الخالة الكريمة ويظننها وعنايتها — وتلك مظاهر الأمومة الحقة — اكنت اليوم رهين الثرى ، أو لعشت معتلا كسيحا ، شقيا سييء الخلق ، ولأصبحت عبئا ثقيلا على نفسى وعلى الناس ، وبفضل توجيهاتها رضعت أول مرة لبان المعرفة ، وأعملت العقل ، وتذوقت القراءة التى لا تزال أكبر متعة لى في حياتى ودعامة مجدى . انى لم أتلن عنها اللغة أو العلوم ، ولكنها وأيم الحق ، أكثر من لغيت من المعلمين نفعا » .

وفي أواخر سنة ١٧٤٨ انشأت هذه الخالة بيتا يقيم فيه طلاب مدرسة وستمنسرت بلندن فكانت تديره بنفسها ، فرافقها جيبون والحق بالمدرسة ذاتها في يناير ١٧٤٩ ، ولكن ما لبث أن عاوده المرض والهزال فأرسلته خالته للاستشفاء تارة في مدينة باث وتارة أخرى في مدينة ونشستر ، وتنقل من معلم الى معلم بل من طبيب الى آخر ، ولكن بثبت الكتب معلمه الأول والأخير ، وازداد غرامه بالتاريخ ، وتفتحت شهيته للاستزادة منه ، فجال فيه وصال دون ترتيب أو نظام ، وقرا كل ما وصلت اليه يداه من مختلف العصور ، فقرأ هوراس Horace ومرجيل Virgil ، وترينس Terence بل وأوفيد Ovid ، والم الماما واميا بتاريخ الشرق ، وبذل غاية جهده في تصفح المجلدات الضخمة التى نشرها باللاتينية المستشرق بوكوك Pococke الذى ترجم من العربية بعض كتب المؤرخ أبى الفرج ( أسقف حلب في منتصف القرن الثالث

عشر) — وفي إحدى زيارته لأبيه وقع لأول مرة على كتاب يعالج الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية .

### التحاقه بجامعة أكسفورد :

وفي الثالث من أبريل ١٧٥٢ ، وهو يستقبل عامه السادس عشر، أبل من مرضه وتحسنت صحته . والتحق بكلية مجدلين Magdalen College بجامعة أكسفورد بوصفه طالبا غير مقيد على منحة ، لأنه لم يكن قد تدرج بانتظام في مراحل وسنى الدراسة المقررة في ذاك العصر، ومن أطرف ما كتبه هو في مذكراته بهذه المناسبة قوله : « التحقت بها ( جامعة أكسفورد ) وعندى حصيلة من العلم والمعرفة تحير أى علامة ، ولكن على قدر من الجهل يندى له جبين أى طالب » . والحق أنه كره الكلية وكره معلميهها وهاجم الجامعات الانجليزية ، حتى لقد وصف في مذكراته تلك الشهور الأربعة عشر التى قضاها في أكسفورد بأنها أشد فقرات حياته خمولا وعمقا .

### اعتناقه الكاثوليكية :

بيد أنه في أكسفورد اتجه الى الاكثار من قراءته في الدين ، ولعله تأثر أكثر ما تأثر بكتابات القس الانجليزى ميدلتن Middleton ( ١٦٨٣ — ١٧٥٠ ) والفيلسوف الفرنسى بوسويه Bossuet ( ١٦٢٧ — ١٧٠٤ ) وانتهى به الأمر الى أن تحول عن مذهب الكنيسة الانجليزية الى المذهب الكاثوليكي ، ولما أعلن تحوله هذا في رسالة الى والده غضب الوالد أشد الغضب ، وود لو عرف اسم الشخص الذى أغرى ابنه بهذه الفعلة الفكرة في نظره لينزل به أشد العقاب ، وخاصة لأن توانين انجلترا كانت آنذاك صارمة ضد الكاثوليك ، ويكفى للدلالة على ذلك أنه لما قامت في انجلترا بعد ذلك ببضع سنوات حركة للتخفيف من شدة تلك القوانين تظاهرت الجماهير في لندن وأحرقت بعض الأحياء سخطا واحتجاجا .

### ايفساده الى لوزان :

ولم تمض على تحول جيون الى الكاثوليكية عشرة أيام حتى أوصدت أبواب جامعة أكسفورد في وجهه ، وقرر والده نقله الى لوزان بسويسرا ، وعهد به الى قسيس يدعى بافيار Pavillard أحد رجال الكنيسة الكلفنية ، وقد وصف هذا تلميذه جيون بأنه صبي نحيل الجسم كبير الرأس يتميز بقدره بالغة على المناقشة ، مع إيراد كل الحجج التى استخدمت للدفاع عن المذهب الكاثوليكي .

وربما أحسن الفتى بشيء من الضيق في أيامه الأولى في لوزان ، في بلد غريب ، نزع اليه نتيجة طرده من الجامعة وغضب أسرته عليه ، وليس له فيها أصدقاء ، ولن يتيسر له عيش ناعم ، أو طعام شهى ، أو ملابس أنيقة لقاء المبلغ الزهيد الذي يرسله أبوه لنفقات اقامته في دار القس بافيار ، الى جانب انه كان يجهل الفرنسية لغة أهل لوزان ، ومن ثم بدأ في تعلمها بحكم الضرورة وبات بعد خمس سنوات يفكر تلقائيا بهذه اللغة التي تأثر بها أسلوبه أيما تأثر ، وقرأ لبعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين أمثال فولتير ومونتسكيو .

### ارتداداه الى البروتستنتية !

مهما يكن من أمر ، فان القسيس بافيار أدرك ما عليه الصبي من ذكاء ، فكان يتحدث اليه كلما أدرك فيه ميلا الى الحديث ، كما كان يحترم صمته اذا لمس فيه الرغبة في التزام الصمت ، وحاول في رفق أن يعيده الى مذهبه البروتستنتي ووفق في ذلك ، فلم تمض سنتان حتى هجر جييون الكاثوليكية وتقبل القربان المقدس في الكنيسة الكالفنية في يوم عيد الميلاد سنة ١٧٥٤ . على أنه لا بد من الاشارة الى أن جييون اكتسب في لوزان فلسفة دينية لم يجد عنها قط ، فلسفة تقوم على الايمان بوجود الله ، والشك فيها عدا ذلك ، وانه حين اصدر الجزء الأول من كتابه « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » اتهمه كثيرون بالزندقة ونعته الكاتب بوزول بأنه « احمق كافر » .

### فضائل القس بافيار في تدريبيه :

واستطلاع بافيار بما أوتى من علم وحصافة وذوق أن يدرّب جييون على طرائق البحث ومناهجه ، دون أن يحشو هو ذهنه ، أو يحدد له مجالاً معيناً ، فأبدى التلميذ رغبته في دراسة الثقافة اللاتينية في كتابات المؤرخين والشعراء والخطباء والفلاسفة ابتداءً من الكتاب المسرحي بلوتس Plautus ( ٢٥٠ - ١٨٤ ق.م ) والمؤرخ سالوست Sallust ( ٨٦ - ٣٤ ق.م ) حتى اضمحلال لغة روما وامبراطوريتها ، فشجعه على المضي في ذلك ، وقضى جييون أربعة عشر شهراً في متابعة هذا العمل ، كذلك ساعده بافيار في دراسة اللغة اليونانية ، فأتم قراءة نصف الياذة هوميروس وقدرها كبراً من كتابات هيرودوت وزينوفون ، وكان جييون يقرأ وقلمه في يده ليبدو ما يعن له من مذكرات أو ملاحظات ، وتابع الى جانب ذلك كله دراسة اللغة الفرنسية ، وبلغ من حرصه على اجادتها أنه كان يترجم شيشرون من اللاتينية الى الفرنسية ، ثم

يعود فيترجم ما كتبه من الفرنسية الى اللاتينية ، ليطباق الترجمة على الأصل ويختبر بذلك قدرته .

وفي أثناء اقامته في لوزان ، التقى جيبون بأعز أصدقاء العمر : الشاب السويسري ديفردن Dyverdun والشاب الانجليزي هولريد Holryd الذي أصبح فيما بعد لورد شيفلد والذي تولى نشر مؤلفاته ، كما كان لقاؤه لأول مرة مع شخصية العصر الفريدة فولتير ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) ، وعن طريقه أولع جيبون بالمرح الفرنسي ، وهو يشير في مذكراته الى أن هذا المسرح قتل من اعتزازه بعبقريته شكسبير ، ذلك الاعتزاز الذي شب عليه منذ صباه ، بوصفه الواجب الأول لكل شاب انجليزي .

### تعرفه على سوزان كورشو :

وفي لوزان أيضا وقع جيبون في أول وآخر غرام له في حياته ، فقد أعجب بفتاة تدعى سوزان كورشو Suzanne Curshod ابنة راعي كنيسة كلفنية في بلدة كراسي الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية ، وكانت مواهب الفتاة تزيد من قيمة مفاتها الشخصية ، واتفقنا على الزواج ، ولكن كان عليه أن يحصل على موافقة أبيه أولا .

### عودته الى إنجلترا :

وهكذا رخص له في ١٧٥٨ بالعودة الى لندن بعد غيبة دامت قرابة خمس سنوات ، وتلقاه أبوه بهزيد من العطف الذي لم يكن يتوقعه ، وترك له حرية اختيار المكان الذي يقيم فيه ، والرفاق الذين يصطحبهم ، والوان المسرة والتسلية التي يرتضيها . وحقيقة الأمر أنه كان له في العودة الى لندن مآربان : أولهما أن يعرض على أبيه موضوع زواجه من سوزان كورشو ، أما الثاني فان أباه كان قد تزوج ، وخشى جيبون أن يثر هذا الزواج نسلا يشاركه ثروة أبيه التي كانت قد بدأت تنقلص ، واطمأن قلبه لما تبين له أن زوجة أبيه سيدة رفيعة طيبة القلب ولا ينتظر أن تنجب ، وعندئذ تحدث الى أبيه في مشروع زواجه من الفتاة الفرنسية ، ولكن أباه عارض هذا الزواج معارضة شديدة . وهنا يقول جيبون في مذكراته : « لقد تنهدت تنهد العاشق الولهان ، وامتثلت كما يجب أن يفعل الابن البار » .

وكان جيبون اذ ذاك في الحادية والعشرين من عمره ، وبذلت بعض المساعي للاحاقه بوظيفة في السلك الدبلوماسي ولكنها أخفقت ، وأشارت عليه زوجة أبيه بدراسة القانون ، ولكنه لم يجد في نفسه



ميلا الى هذه الدراسة ، ولم تكن مياهج الحياة في لندن تستهويه ، وطاب له أن يقضى وقته في بيت أبيه في بورمتن بمقاطعة هامشير في المتزود من المعرفة والعلم ، وعكف الى جانب دراسته للأدب القديم على قراءة أديسون وسويفت وغيرهما من الكتاب الانجليز ، يصدوه الأمل في تنقية لغته الانجليزية مما علق بها من آثار الاساليب الأجنبية ، وحاول أبوه أن يثير فيه حب الزراعة ، ولكنه لم ينجح الا في حمله على مصاحبته في بعض الجولات التي كان لا بد منها لكبار المقيمين في الريف .

### أول مؤلف يشره جيبون :

وفي سنة ١٧٦١ نشر جيبون باللغة الفرنسية أول مؤلف له هو « بحث في دراسة الأدب » Essai sur l'Étude de la Literature وكان قد كتب جزءاً منه في لوزان ثم أكمله في لندن ، وربما كان من الجائز أن يؤجل جيبون اخراج هذا الكتاب ، ولكن والده استحث نشره لعل ظهوره يوجه الأنظار الى مؤلفه ومواهبه الأدبية ، ويكون له منفذا الى الحياة العامة والشهرة ، وقد رحب أهل الثقافة والفكر في فرنسا وسويسرا وهولندا بهذا الكتيب وقرظوه ، ولكنه لما نشر في انجلترا باللغة الانجليزية لم يثر اهتماما كبيرا في أوساطها ، وجدير بالذكر أن جيبون نادى في بحثه هذا بأنه لكي يستسيخ المرء الأدب القديم لابد له أن يلم الماما وافيا بمجريات الأمور في العصر الذي كتب فيه وبالحوافز التي دفعت اليه ، ويضرب لذلك مثلا أن فرجيل كتب مؤلفه في فن الزراعة Georgics بناء على طلب الامبراطور أوغسطس ، كى يحول نشاط معارضيه من زعماء الحرب الأهلية القدامى الى نشاط سلمى ، ويقنعهم بمزايا الاشتغال بالزراعة ، وبذلك لم يكن فرجيل مجرد كاتب يصف حرفة الزراعة ، بل كان أشبه بالأسطوري أورفيس Orpheus الذي كان يلعب على قيثارته لينزع من القبائل الهجبية وحشيتها ، ويوحدها داخل مجتمع سلمى مترابط .

### جيبون يلتحق بالخدمة العسكرية :

وفي تلك الأثناء التحق جيبون بالخدمة العسكرية برتبة نقيب بالفرقة الرابعة في هامشير ، وكانت انجلترا في ذلك الوقت مشغولة بحرب السنين السبع وتعرضت لخطر الغزو ، وكان هذا العمل بعيدا كل البعد عن ميول جيبون واتجاهاته ، حيث قضى على حد تعبيره عاما ونصف عام - من مايو ١٧٦١ الى ديسمبر ١٧٦٢ - في

حياة عسكرية شاقّة ، ولكنه لم يستطع في تلك الفترة أن يقلع عن مألوف عاداته فحاول أن يوفق بين الجندي وطالب العلم ، وتعرف على نظم الجيش وحياة الجنود ، ولسكنه دأوم على قراءاته الواسعة ، وظل يحتفظ بنسخة من هوراس يحملها معه أينما سار .

### رحلته في أوربا : باريس ، ولوزان :

وهكذا فإن شخصية المؤرخ وكتّابة التاريخ كانتا دأوما تداعبان خياله ، وما أكثر ما اختار من موضوعات للكتابة فيها ، ولكن لم يستقر قراره على واحد منها . وتوقفت مشروعاته كلها بسبب زيارته للقارة حيث رأى والده أن القيام بجولة في أوربا أمر ضروري لاستكمال تعليم ابنه بوصفه شابا إنجليزيا ، وتلك كانت عادة العصر ، وبعد شهر من تسريح جيبون من الجيش كان في طريقه إلى باريس حيث سبقته إليها شهرة كتابه « بحث في دراسة الأدب » ، ولقى في باريس ما طبأت له نفسه من الترحيب بوصفه رجلا من رجال الأدب ، وهناك قضى أربعة عشر أسبوعا التقى فيها بقيادة الفسك ورجال الأدب الفرنسيين من أمثال ديدرو Diderot ودامبيرير D'Alembert ورينال Raynal ودارنو D'Arnaud ثم تابع جولته إلى لوزان ليزور أصدقاءه ومعارفه القدامى ، وهناك تلقى من حبيبته اللدنية سوزان كورشو رسالة تؤكد له فيها بقاءها على حبه ، وظننت هي أنه سوف يتزوجها — رقم فسسخ خطبتها منذ سنتين ، وطلب أصدقاؤها إلى جان جاك روسو أن يتحدث في ذلك إلى جيبون ، ولكن روسو رفض أن يتوسط قائلا أن جيبون شاب ذو مزاج بارد ، وأن سوزان لن تكون سعيدة معه ، ولعله أنصف فإن سوزان تزوجت بعد قليل من نكر Necker وزير مالية فرنسا الشهير الذي دعا مجلس طبقات الأمة قبيل الثورة الفرنسية ، وأنجبا في سنة ١٧٦٦ ابنة أصبحت فيما بعد مدام دي ستاي Madame de Staël ( ١٧٦٦ — ١٨١٧ ) الكاتبة الروائية المعروفة .

والواقع أن جيبون في هذا الموقف كانت تعوزه الشجاعة ، فضلا عن أنه امتثل لرأى والده ، ثم انه فضلا عن ذلك علم أن سوزان كانت محوطة بعدد من المعجبين ، وانها كانت تميل إلى بعضهم ، فعلق على ذلك في مذكراته « اذا كانت الخيانة ضعفا أحيانا فإن الرياء رذيلة دائما ، ان هذه الفترة كانت ذات نفع كبير لي ، لأنها بصرنتني بأخلاق النساء ، ولسوف تحميني دوما من اغراء الخب » ، ولعله لم يفكر بعد ذلك في الزواج اطلاقا ، ومن الطريف انه كتب مرة إلى زوجته

صديقه لورد شيفلد يقول : « ترى هل تدهشين يا سيدتى ، اذا انا تزوجت ! قد يبدو غريبا أن أذكر لك أن مشروعنا من هذا النوع هو اليوم أقل احتمالا مما كان يبدو لى أنا نفسى منذ سنة مضت ، لقد دار بخلدنا — صديقى ديفردن وأنا — أن بيتنا مثل بيتنا سوف يسوده النظام وتدب فيه الحياة والبهجة اذا وجدت فيه سيدة وديعة ، ولكن كلا منا يود لو أن زميله قام بهذه التضحية وحده ، اننى منذ أقيمت هنا تعرفت على أنسات كثيرات ، واكتشفت أن نحو ست منهن يصلحن زوجات ، ولكل منهن مزايا ترضينى فى نواح مختلفة ، فواحدة منهن تصلح لأن تكون رفيقة فائنة ، وثانية لأن تكون مضيافة مسامرة ، وثالثة لأن تكون صديقة وديعة مخلصه ، ورابعة لأن تتصدر المائدة فى مهابة ورشاقة معا ، وخامسة لأن تكون ربة بيت مدبرة حازمة ، وسادسة لأن تكون ممرضة يقظة نافعة ... ولو أنى وجدت هذه الصفات والمزايا مجتمعة فى امرأة واحدة لما ترددت فى طلب يدها ، ولما ترددت هى فى رفض طلبى ! » .

#### سفره الى ايطاليا :

والواقع أن جيبون وقع فى غرام من نوع آخر ، فبعد ان قضى سنة فى لوزان واصل سفره الى ايطاليا ووصل الى روما فى خريف ١٧٦٤ . وهو يشير فى قصة حياته الى المشاعر والأحاسيس القوية التى ملكت عليه عقله وقلبه حين اقترب من المدينة الخالدة وحين دخل إليها ، فيقول : « لقد سكرت بهذه المشاعر والأحاسيس عدة أيام قبل أن تهذا نفسى ، وأخذ الى الدرس ، والبحث » . وكتب فى الوقت ذاته الى ابيه يقول : « لقد وفقت الى مورد خصب يلذ لذهن مؤهل له ، بما يعرف عن الرومان ، اننى الآن فى حلم ! ومهما زودتنا الكتب بالمعلومات فانها أقل بكثير مما تحدثنا به الأطلال » . هكذا رآته منظر روما وملك عليه لبه ، وحدد على الفور أساس شهرته ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله : « ففى روما فى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما كنت جالسا أتأمل فى أطلال العاصمة ، على حين كان الرهبان العراة الأقدام يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبتر الذى هو الآن كنيسة الفرنسيسكان — نبتت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال مدينة روما وسقوطها » ، وظاهر من كلامه هذا أن فكرة الكتابة عن « المدينة الخالدة » كانت وليدة الأحاسيس التى طافت بذهنه وهو جالس بين أطلالها ، ولولا أنه بعد ذلك وسع نظره وأجال فكره لما خرج علينا الا بكتاب رقيق عن آثارها ، لا بمؤلف رائع عن تاريخ الامبراطورية الرومانية .

ولكن لا بد لنا هنا من وقفة قصيرة ، حيث يبدو أن جيبون بالغ في هذا القول ، فإنه لم يكتب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لمجرد أنه زار روما ، ولا لأنه ذكر في موضع آخر من مذكراته أنه كان قد قرأ قبل تلك الزيارة بثلاث عشرة سنة كتابا عن تاريخ الامبراطورية الرومانية في عصرها الأخير ، ولكن حقيقة الأمر أنه اتجه هذا الاتجاه وأولع بالتاريخ الروماني منذ طفولته ، قال في رسالة كتبها وهو في الثالثة عشرة من عمره : « وفي طريق عودتنا الى البيت شاهدنا أطلال معسكر روماني قديم فشعرت بسعادة غامرة » . ثم ان قراءته الواسعة منذ حداثته تشير الى ميوله واتجاهاته .

### عودته الى لندن :

وفي يونية ١٧٦٥ نقل جيبون عائدا الى لندن . ولم يقع في السنوات الخمس التالية ما يستحق الذكر سوى أنه عاون صديقه ديفردن في اخراج مجلدين من مجلة في الأدب البريطاني . لتنتشر في القارة باللغة الفرنسية ، كما أنه نشر مقالا بامضاء مجهول ضمنه نقده للكتاب السادس من الانبادة ، وكان طيلة هذه المدة معتمدا على أبيه ، رغم أنه كان في الثلاثين من العمر ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ حيث توفي والده ، وشغل بعض الوقت بتسوية الميراث ، ثم أصبح مطلق التصرف في وقته ، معتمدا على نفسه .

### جيبون ينضم للنادى الأدبي :

وكان اسمه في عالم الأدب قد بدأ في الظهور ، فأصبح عضوا في النادى الأدبي الذى أسسه صمويل جونسون في لندن سنة ١٧٦٥ ، وكان هذا النادى يضم عددا من الشخصيات البارزة أمثال يوزويل Boswell عدو جيبون اللدود ، وجوشا رينولدز Joshua Reynolds الرسام الشهير ، وأوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وادموند بيرك Edmund Burke ودافيد جارك David Garrick الممثل القدير ، وشارل جميس فوكس Fox السياسى البارع ، وريتشارد شريدان Sheriden الروائى السياسى ، وادم سميث Adam Smith الاقتصادى الذائع الصيت .

### عضويته في البرلمان البريطانى :

وفي سنة ١٧٧٤ فاز جيبون بمقعد في مجلس العموم البريطانى ، واحتفظ بعضويته فيه طيلة ثمانى سنوات ، ولكن حياته البرلمانية

اتسمت بالصمت والخمول ، فلم يلق خطابا واحدا في المجلس رغم أنه كان عضوا في الفترة التي شغلت فيها انجلترا بحربها مع مستعمراتها الأمريكية التي كانت تنشد الانفصال والاستقلال ، واكتفى جيبون بأن أدلى بصوته تأييدا لسياسة لورد نورث ، مضحيا بأفكاره ومبادئه هو ، ولاء منه لرئيس حزبه ولحزبه ، ولكنه اقتنع في النهاية بخطأ هذه السياسة .

### جيبون يعكف على كتابة مؤلفه — ظهور المجلد الأول :

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت هذه الفترة التي قضاها عضوا في مجلس العموم أخصب فترات حياته وأوفرها إنتاجا ، حيث عكف فيها جيبون على كتابة تاريخه الشهير الذي بين أيدينا ، وكانت فكرته تدور في رأسه لعدة سنين ، فقرأ كل ما يمت إليه بصلة ورجع وقلمه في يده الى المصادر الأصلية اليونانية واللاتينية ابتداء من ديون كاسيوس *Dion Cassius* الى أميانوس ماركلينوس *Amnians Marcellinus* واستوعب السير التي دونها الرواة القدامى عن الأباطرة من دقلديانوس الى قسطنطين ، واستعان كذلك بما كتبه المؤرخ الفرنسي تلمون *Tillemont* ( ١٦٣٧ — ١٦٩٨ ) عن تاريخ الأباطرة ووصفه بالدقة والعمق ، وتأثر جيبون بعدد من الفلاسفة والمؤرخين الأجانب أمثال بيل *Bayle* ( ١٦٤٧ — ١٧٠٦ ) ومونتسكيو *Montesquieu* ( ١٦٨٩ — ١٧٥٥ ) الفرنسيين ، وجيانوني *Giannone* ( ١٦٧٦ — ١٧٤٨ ) الإيطالي الذي كتب « التاريخ المدني لنابولي » وهاجم فيه سلطة رجال الدين . وشق جيبون طريقه في ظلمات العصور الوسطى في حوليات إيطاليا وأثارها ، وقرأ قوانين تيودوسيوس لا بوصفها فقها قانونيا ولكن بوصفها أدبا ، وكان في البداية محاذرا متثددا ، وما أن انتهى من بضعة الفصول الأولى حتى انطلق قدما وظهر المجلد الأول من تاريخه هذا في ١٧ فبراير ١٧٧٦ ولقى نجاحا لم يسبق له مثيل حتى لقد أعيد طبعه مرتين آخرين ، ولما ينقض العام . ولكن في غمرة الاحتفاء به تلقى من هيوم ، الفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي المعاصر تحذيرا بأن ما ورد في كتابه عن تقدم المسيحية ونموها لابد أن يثير كثيرا من المشادة والجدل ، وهذا ما حدث بالفعل فقد تصدى لمعارضته كثيرون واضطر جيبون الى أن ينشر في سنة ١٧٧٩ دفاعا رد فيه على كل من هاجموه .

## ظهور المجلدين الثاني والثالث

من مؤلفه عن الامبراطورية الرومانية :

وفي أبريل ١٧٨١ أصدر جيبون المجلدين الثاني والثالث من تاريخه وقوبلا بالترحيب ولكنهما لم يثيرا ضجة ، وفي يونيه من العام نفسه ترك جيبون مجلس العموم وحلت به ضائقة مالية باع معها كل ما يملك فيما خلا مكتبته ، واتجه تفكيره الى مدينته الأثيرة لوزان ، وكان يطوى في نفسه رغبة دفينة ، تلك هي أن يكون مرتع شبابه ومنبع معرفته الأولى ، اي لوزان ، ملجأه الذي يأوى اليه في أخريات أيامه ، حيث يتهيأ له فيها ، مع دخل متوسط ، كل اسباب الدعة والهدوء والحرية والاستقلال ، وفي سبتمبر ١٧٨٣ ودع جيبون انجلترا ووصل الى لوزان بعد نحو عشرين عاما من رحيله الأخير عنها .

اتمام مؤلفه في لوزان :

وبعد قرابة عام من مقامه في بيت فسيح ذى حديقة غناء على شاطئ بحيرة ليمان ( دار صديقه ديفردن ) انتهى من المجلد الرابع من تاريخه ، وبعد ذلك بنحو عامين أكمل جيبون مشروعه الضخم في تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوبلها بكتابة مجلدين آخرين . وانه ليتحدث عن ذلك في مذكراته فيقول : « في اليوم السابع والعشرين من يونية ١٧٨٧ ، فى الكشك الحصى بالحديقة ، فيما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساء ، دونت السطور الأخيرة في الصحيفة الأخيرة من الكتاب ، ثم نهضت للتريض في الماشى المفروشة التى تشابكت فوقها فروع اشجار السنط ، والتي تطل على منظر رائع ، حيث يمتد البصر الى الريف والبحيرة والجبال ، وكان النسيم عيلا ، والسماء صافية ، ونسوء القمر ينعكس على مياه البحيرة ، وكل الطبيعة من حولى هادئة ساكنة ، وان أنس فلا أنس ما غمرنى لأول وهلة بعد الفراغ من كتابة هذا المؤلف . — ما غمرنى من احساسيس الغبطة والفرح لاسترداد حريتى — وربما لبناء شهرتى ، ولكن سرعان ما انطفات جذوة الزهو ورائت الكآبة على قلبى ، وخيم على فؤادى حزن عميق ، حين تذكرت أننى ساودع الى الأبد ، رفيقى القديم الانيس ، وأنه مهما يكن من أمر هذا «التاريخ» فى المستقبل ، فان حياة المؤرخ نفسه لا بد أن تكون قدسيرة مزعزعة » .

## عودته الى لندن :

وحمل المؤرخ مخطوطاته وعاد الى لندن ، وهناك خرجت الى السوق في أبريل ١٧٨٨ المجلدات الثلاثة الأخيرة التي دونها جيبون في تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . وقد تجدر الإشارة هنا الى أن جيبون قضى في عمله الضخم هذا عشرين سنة ، وأن المجلد الأول صدر قبل الأخير بنحو اثني عشر عاما .

وعاد جيبون بعد ذلك بقليل الى لوزان حيث فجع بوفاة صديق حياته ، بل رفيق حياته ، ديفردن الذي توفي في يولية ١٧٨٩ ، وكانت الوصية التي تركها الصديق الحميم ترخص لجيبون في الاقامة بنفس الدار المطلة على بحيرة ليمان ، وهناك دون جيبون سيرة حياته : « مذكرات عن حياتي وكتاباتي » ، ثم عاد الى لندن في اوائل صيف سنة ١٧٩٣ ، واشتدت عليه علة أجريت له من أجلها عمليات جراحية ، ولكن شمس حياته أذنت بالمغيب وأسلم الروح في ١٦ يناير ١٧٩٤ ، ودفن بمقبرة أسرة صديقه لورد سيفلد في بلدة فلتشنج Fletching بمقاطعة سسكس Sussex وبقيت ذكراه خالدة بفضل تاريخه الذي أعيد طبعه مرارا وتكرارا .

## ماذا ضمن جيبون تاريخه :

ولا يقتصر كتاب جيبون على تاريخ روما من عصر الأباطرة الأول حتى نهاية الامبراطورية في الغرب ، بل انه يعالج كذلك تاريخ الامبراطورية الشرقية التي قدر لها البقاء قرابة الف سنة بعد سقوط الامبراطورية الغربية ، وكذا تاريخ جميع الشعوب المتدينية والنتبريرة التي كانت تنظن على حدود الامبراطورية ، ثم ظهور الاسلام وقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة والحروب الصليبية ، وقصارى القول : هو تاريخ الغرب وما يتصل به من تاريخ الشرق ، من القرن الأول الى القرن الخامس عشر الميلادي .

وقد أوضح جيبون ذلك في المقدمة التي كتبها بيده والتي لم ترد في طبعة هذا المختصر ، فقال انه في حوالي ثلاثة عشر قرنا قوضت سلسلة من الثورات والغارات دعائم العظمة الانسانية وقضت في النهاية عليها ، ويمكن حصر هذه السلسلة في ثلاث فترات :

فالفترة الأولى يمكن تتبعها من عصر تراجان والانطونيين حين بدأت الامبراطورية الرومانية التي كانت قد بلغت ذروة قوتها ، في التردى الى مهاوى الضعف والانحلال ثم الى الدمار على يد

جماعات المتبريرين من ألمانيا واسكنديا ، وهؤلاء هم الأسلاف الجفافة لأكثر شعوب أوروبا الحديثة حضارة وثقافة ، وقد تمت هذه الثورة العاتية التي أخضعت روما لسلطان فاتح قوطى ، حوالى بداية القرن السادس الميلادى .

ويمكن أن نفترض أن الفترة الثانية فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية تبدأ بعهد جستنيان ( ٤٨٣ - ٥٦٥ م ) الذى أعاد للامبراطورية الشرقية ومضة عابرة من المجد بفضل قوانينه وانتصاراته مما ، وتشمل هذه الفترة غزو المبارديين ليطاليا ، وفتح العرب المسلمين للولايات الآسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى ضد حكام القسطنطينية الضعاف ، ثم ارتقاء شارلمان الذى أقام فى سنة ٨٠٠ م الامبراطورية الرومانية المقدسة .

أما الفترة الأخيرة ، وهى أطول الفترات جميعا - فانها تطوى نحو ستة قرون ونصف قرن ، وتبدأ باحياء الامبراطورية الغربية ، وتنتهى باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية وفناء سلالة الأمراء المنحليين الذين ظلوا يتخذون لانفسهم لقب « قيصر » ، و « أوغسطس » بعد أن تقلص ظل ملكهم الى حدود مدينة واحدة ، نسيت فيها منذ أمد طويل لغة الرومان القدامى وآداب سلوكهم . ريشيف جيبون قوله : « ان المؤرخ الذى يأخذ على عاتقه سرد أحداث هذه الفترة ليجد نفسه مضطرا الى الخوض فى التاريخ العام للحروب الصليبية بقدر ما أسهمت تلك الحروب فى سقوط الامبراطورية الشرقية ( البيزنطية ، أو اليونانية كما كان ينعنها ) ، كما لا يمكن أن يتحاشى التعرض لبحث أحوال مدينة روما فى فترة ظلام العصور الوسطى وما سادها من فوضى وفساد » .

ويطلب جيبون الى قارئه أن يقل من اللوم اذا هو لاحظ أن المؤرخ عالج فى أكثر من نصف سفره الضخم تاريخ أربعة القرون الأولى ، على حين أنه تناول فى جزئه الباقي وهو أقل من النصف تاريخ تسعة قرون ، وأوضح أنه لم يعالج التاريخ البيزنطى فى تفصيل وإسهاب ، وإنما وضع جل همه فى عصر جستنيان وفتوحات المسلمين ثم العصر الأخير فى القسطنطينية ( الحروب الصليبية والأتراك العثمانيون ) باعتبار أن هذه الأمور كلها مرتبطة بنشأة أوروبا الحديثة ، ومن ثم فقد اقتضب فى حديثه عن الفترة التى تمتد من القرن السابع الى القرن العاشر ، وحصر بحثه فى الأحداث التى رأها هامة وطريفة .



## رأى العلامة بيورى في جييون وتاريخه :

ولعل خير من كتب عن جييون وأنصفه هو المؤرخ البريطانى الشهير جون باجنل بيورى John Bagnell Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) الذى كان استاذا بجامعة كمبردج ، فقد أشرف على اخراج أحسن طبعة صدرت لمؤلف جييون « أضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وذلك بين ١٨٩٦ - ١٩٠٠ ، وتكرر طبعتها بعد ذلك حيث انها امتازت بمقدمة رائعة كتبها بيورى ، كما تميزت بتعليقاته التى أضافها فى ضوء ما جد من أبحاث ، ومن المفيد لنا هنا أن نلخص آراءه :

لقد أوضح بيورى أن جييون يمتاز بأنه بذل جهدا كبيرا فى الرجوع الى المصادر الأصلية لموضوعه ، وأنه راعى فى كتابته دقة بالغة تثير الدهشة ، ولكن اذا قلنا ان جييون كان دقيقا فليس معنى هذا أنه كان مصيبا دائما ، ذلك لأن الدقة مسألة تتناسب مع الفرص والمواد المتاحة للمؤلف ، فقد كشفت فى السنوات المائة التالية لظهور مؤلف جييون ، مواد جديدة استطاع العلماء فى ضوئها تعديل بعض الآراء التى أوردها . ولو أنه عاد اليوم لمراجعة تاريخه لاختلف اختلافا ملموسا ، ولكننا نعسود فنقول انه بفضل حاسته التاريخية أصاب فى استخدام ما توفر له من مصادر فى اطار ثقافة العصر الذى عاش فيه ، أى قبل الكشف عن مصادر جديدة ( علم النميات مثلا ) وقبل وضع الأسس العلمية السليمة لدراسة تلك المصادر والافادة منها . وقد بدأت هذه فى القرن التاسع عشر . فان الأبحاث التى قام بها عدد من العلماء الأجلاء أمثال مومسن الألمانى Mommsen ، وديورانث الروسى Muralt عدلت الكثير من أفكارنا عن النظم الرومانية والتاريخ الدستورى للامبراطورية من عصر دقلديانوس الى ما بعده ، ومع ذلك يقول بيورى ان وصف جييون لتحول الامبراطورية Principate الى ملكية مطلقة ، وكذا حديثه عن نظام دقلديانوس ووصفه نظام قسطنطين - كل أولئك ما يزال يحتفظ بقيمته العالية .

ويضيف بيورى أنه من الملامح المميزة لمؤلف جييون هذا ، بصفة عامة ، أنه يقدم لنا درسا فى وحدة التاريخ ، فان عنوانه يوضح الحقيقة الأساسية بأن الامبراطورية التى أسسها أوغسطس سقطت فى منتصف القرن الخامس عشر وأن كل التغيرات التى حولت أوربا التى عاش فيها ماركوس أوريليوس الى أوربا التى عاش فيها ارزمس لم تلغ اسم الامبراطورية وذكرها ، ومهما استخدم جييون من ألفاظ مهينة فى وصف

الامبراطورية واتحلالها ، وسواء أنعتها بالامبراطورية السفلى أم  
الامبراطورية اليونانية . . . فان عنوان كتابه قد صحح المفهوم الخاطيء  
الذى قد تحمله مثل تلك التسمية ، حيث تعتمد وحدة كتابه على  
استمرار الامبراطورية الرومانية .

ويأخذ بيورى على جيبون أن روايته للتاريخ الداخلى للامبراطورية  
بعد عصر هرقل لم تكن رواية سطحية فحسب . . بل انها كذلك تنقل  
للقارئ فكرة خاطئة ، ولو أن جيبون استطاع أن يستغل المصادر كما  
فعل عدد من العلماء فيما بعد - لما عجز عن أن يتبين أن تحت المؤامرات  
والجرائم التى سادت فى القصر وقتئذ كانت هناك أسباب أعمق تعمل  
عملها ، وأن وراء ثورات العاصمة عوامل أعم وأشمل ، فان محطى  
الايقونات Iconoclasts كانوا يناضلون لشيء أكثر من مجرد مقاومة عبادة  
الصور ، بل كان نضالهم من أجل تجديد الامبراطورية وانعاشها . خذ  
مثلا آخر ، هو أن مفتاح تاريخ القرنين العاشر والحادى عشر كان فى  
النضال بين العرش الامبراطورى وبين كبار ملاك الأراضى فى آسيا  
الصغرى ، ويتضح انتصار هذه الفئة الأخيرة من اعتلاء الكسيس  
كومنينس العرش ، كذلك يأخذ بيورى على جيبون قوله بأن الامبراطورية  
فى عصرها الأخير انها كانت تمثل قصة متجانسة للضعف والبؤس . .  
لأنه قول غير صحيح وحكم لا يجوز أن يصدر عن هذا المؤرخ المفكر  
الكبير ، فقد كانت الامبراطورية قبل ثورة ١٢٠٤ قلعة حصينة حمت  
الغرب . وهذه حقائق أوضحها العلماء الذين جاءوا فيما بعد أمثال فينلى  
Finlay وهيرش Hirsch ورامبو Rambaud وكرومباخر Krumbacher .

وأخيرا يذكر بيورى أن جيبون كانت تعوزه المصادر عن القسطنطينية  
ومبانيها وعن تاريخ الشعوب السلافية ، ومن ثم كان مقلا فى حديثه  
عنها .

ومهما يكن من شيء ، فان بيورى يقرر أن جيبون هو واحد من قلة  
من الكتاب الذين يحتلون مركزا ممتازا فى تاريخ الأدب الانجليزى وفى  
تأمة كبار المؤرخين ، وأنه يمكن أن يوضع فى مرتبة تيوسويديس ،  
وتاسيتس من حيث صفاء أسلوبه وحرصه على مراعاة الدقة ، وهذا  
هو سر بقاء كتابه ، فهو تاريخ وأدب معاً ، وقد بلغ من حرصه على  
روعة أسلوبه أنه عدل فى الطبعة الثانية لمؤلفه عبارات شتى لا لشيء  
الا لزيادتها تهذيبا ، وعندما صدرت طبعته الثانية أورد بخط يده على

عدد قليل من صفحاتها بعض التعليقات والتصحيحات ، مثال ذلك أنه بعد العبارة التي تحدث فيها عن موت ماركس أنطونيويس كتب ما يلي :

« ألم يكن جديرا بى أن أشرح تاريخ هذه الفترة الزاهرة التي جاءت بين عهدين جديدين ؟ ألم يكن لزاما على أن أستخلص انحلال الامبراطورية من الحروب الأهلية التي تلت سقوط نيرون ، أو حتى من الطغيان الذي جاء فى أعقاب عصر أوغسطس ؟ وأأسفاه ! ما قيمة المعرفة اذا جاءت بعد فوات الوقت ! لا ينفع الندم اذا ما استحال تصحيح الخطأ » .

والى جانب دقته وروعة أسلوبه ، يتميز جيبون كذلك بوصفه المتع الأخاذ لشخصياته ، وولعه بالسخرية ، ولكنه على خلاف كثير من المؤرخين ، لم يخف أهواءه ، فنراه يتحمس فى لوم امبراطوره المحب اليه جوليان ، وفى مدح الأسقف أناسيوس .

ويبرز جيبون فى سخريته شيئا من حكم الحياة . فهو يتحدث عن دقلديانوس حين اعتزل الحكم وقضى الأعوام التسعة الأخيرة من عمره فى الاشتغال بالزراعة وفلاحة البساتين ، فى موطنه فى مدينة سالونا بولاية داشيا ، ويروى كيف أن زميله مكسيميان الذى كان قد أشركه معه فى حكم الامبراطورية ، توصل اليه فى العودة الى العرش وارتداء الحلة الأرجوانية ، وكيف أن دقلديانوس أصر على رفضه ، قائلا فى سخرية لازعة : « لو أن مكسيميان استطاع أن يبصر بعينه الكرنب الذى زرعه بيدي فى سالونا ، فانه لن يعود يصفى لأى اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة » . ويضيف جيبون أن دقلديانوس كثيراً ما اعترف لأصدقائه فى مناقشاته معهم بأن أشق فن فى الحياة هو فن الحكم . وتلك هى خلاصة تجربته الطويلة وخبرته الأصيلة .

### جيبون وايمانه بحرية الفرد والحرية السياسية :

وخلاصة القول ان جيبون كان مفكرا حرا ، ومؤرخا هادئا ، يحرص الحرص كله على حرية الفرد وعلى استقلال الشعوب . وهو اثر من آثار حياته فى سويسرا الى جانب آثار قراءاته ، فقد أعجب بكفاح الولايات السويسرية من أجل استقلالها وحريتها وكان قد شرع فعلا فى وضع مؤلف عن نضال هذا الشعب المجيد ولكنه عدل عن اتمام مشروعه . كذلك دافع جيبون عن الحرية السياسية التي يرى أنه بدونها لا يمكن للفرد أن يطمئن على مستقبله ، كما يتضح من حكمه على

عصر نرفا وخلفائه حتى وفاة ماركوس أوريليوس ( الفصل الثالث من هذا الكتاب ) فهو عصر يمثل في رأيه فترة من التاريخ نعم فيها الجنس البشرى بالسعادة والازدهار ، ولكنه يضيف الى قوله هذا نقطتين أوضح فيهما ما كان يشوب هذه السعادة من نقائص فقال : « ان مثل هؤلاء الحكام كانوا يستحقون شرف استعادة الجمهورية لو ان الشعب الروماني في أيامهم استطاع أن يتمتع بالحرية » . كما أوجز وصفه لحكام القسطنطينية في آخر القرن الرابع الميلادي ( الفصل ٣٢ من هذا المؤلف ) ، فقال :

« وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التي فرضوها على شعبيهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبي يضعف كل ملكات العقل ويورثها الانحطاط » .

لقد كانت الحرية في رأيه عنصرا أساسيا وشرطا لا غنى عنه لسعادة البشرية ، وهى القياس الذى أقام عليه جييون حكمه على الماضى . يقول في حديثه عن أعراض الاضمحلال فى الامبراطورية النفرية ( الفصل ٣٥ ) : « كانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما ومقتنا فى نظر رعاياها ، فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم الضيق العام ، وكلما ألحت الحاجة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الاغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، والقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من يؤسهم فى بعض الأحيان ، وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ثم الى مصادرة أملاكهم وتعذيب أشخاصهم ، كل أولئك أرغم رعايا فالنتينيان على ايثار البرابرة مع طفغيانهم الأيسر احتمالا ، أو على الفرار الى الغابات والجبال ، أو على الهبوط الى مراتب الخدم والمرترقة رغم خستها وحقارتها ، حتى وصل بهم الأمر الى التبرم بلقب « المواطن الروماني » والى التبرؤ منه ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمع ..

« وإذا كانت روما قد ظلت قائمة ، فانها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف » .

وكان جييون فوق هذا وذاك متشبعا بالروح الانسانية التى ميزت العصر المستنير فى القرن الثامن عشر ، فكان يكره القسوة والعنف والاضطهاد بأية صورة من الصور ، وفضلا عن أن كتابه هذا حافل

بالشواهد على ذلك ، فقد تجلت هذه الروح الانسانية في سخطه على  
تجارة الرقيق ، رغم أن صديقه لورد شفيلد كان من أنصار الإبقاء  
عليها ، وكم اغتبط جيبون حين اتخذ البرلمان الانجليزى سنة ١٧٩٢  
الخطوات الأولى لالغاء هذه التجارة وتحريمها .

هذا هو جيبون .. وهذا هو كتابه الخالد ، بل ملحمته المنثورة  
وسمفونيته الرائعة ... أضعه بين أيدي قراء العربية . وان أنس  
فلا أنس هنا أن أسجل مع الشكر والتقدير فضل وزارة الثقافة ،  
والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر في العمل على اثناء المكتبة  
العربية بالتراث الانسانى والذخائر العالمية ، فكان في مخططها هذا  
العام نشر هذا الكتاب .

والله ولى التوفيق

أحمد نجيب هاشم

1. The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that proper record-keeping is essential for the company's financial health and for providing reliable information to stakeholders.

2. The second part of the document outlines the specific procedures for recording transactions. It details the steps involved in the accounting process, from identifying the transaction to posting it to the appropriate accounts.

3. The third part of the document discusses the importance of reconciling accounts. It explains how regular reconciliations help to identify and correct errors, ensuring that the company's books are always balanced and accurate.

4. The fourth part of the document discusses the importance of maintaining proper documentation. It emphasizes that all transactions should be supported by valid evidence, such as invoices and receipts, to ensure the integrity of the financial records.

5. The fifth part of the document discusses the importance of reviewing and auditing the financial records. It explains how regular reviews and audits help to ensure that the company's financial statements are accurate and reliable.

6. The sixth part of the document discusses the importance of maintaining proper internal controls. It explains how internal controls help to prevent and detect errors and fraud, ensuring the accuracy and reliability of the financial records.

7. The seventh part of the document discusses the importance of maintaining proper communication. It emphasizes that all financial transactions should be properly documented and communicated to the relevant departments and stakeholders.

8. The eighth part of the document discusses the importance of maintaining proper security. It explains how proper security measures help to protect the company's financial records from unauthorized access and theft.

9. The ninth part of the document discusses the importance of maintaining proper compliance. It emphasizes that the company's financial records must be maintained in accordance with applicable laws and regulations.

10. The tenth part of the document discusses the importance of maintaining proper transparency. It explains that transparency in financial reporting helps to build trust and confidence among stakeholders.

11. The eleventh part of the document discusses the importance of maintaining proper accuracy. It emphasizes that all financial transactions must be recorded accurately and completely.

12. The twelfth part of the document discusses the importance of maintaining proper timeliness. It explains that financial records should be updated and reconciled on a regular basis to ensure that they are current and accurate.

13. The thirteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper consistency. It emphasizes that the same accounting principles and methods should be used consistently over time to ensure that the financial records are comparable and reliable.

14. The fourteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper objectivity. It explains that financial records should be prepared and reported objectively, without bias or manipulation.

15. The fifteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper integrity. It emphasizes that the company's financial records should be maintained with the highest level of integrity and honesty.

16. The sixteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper confidentiality. It explains that financial records should be kept confidential and only shared with authorized personnel.

17. The seventeenth part of the document discusses the importance of maintaining proper security. It emphasizes that financial records should be protected from unauthorized access and theft.

18. The eighteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper compliance. It emphasizes that the company's financial records must be maintained in accordance with applicable laws and regulations.

19. The nineteenth part of the document discusses the importance of maintaining proper transparency. It explains that transparency in financial reporting helps to build trust and confidence among stakeholders.

20. The twentieth part of the document discusses the importance of maintaining proper accuracy. It emphasizes that all financial transactions must be recorded accurately and completely.

## مقدمة الطبعة الانجليزية

( د . م . ل )

وضع مختصر « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » على أمل ان يكسب الكتاب قراء جددًا ، وعلى أمل أن يزود أولئك الذين درجوا عليه والفوه بخلاصة له ، اذ قلما يتيسر الحصول عليه في أقل من ستة مجلدات ان لم يكن أكثر .

وسيزل اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها الحدث التاريخي الفذ في أوربا والشرق الأدنى . وليس ثمة سجل يقص مجرى هذه الأحداث خير من مؤلف جيبون ، وأنه لمن نافلة القول ان نذكر أنه جماع براعة واطلاع واسع ، يندر أن يكون لهما مثل ، مع مهارة أدبية لا تبارى . ولا يكاد يعرف أى هذه الصفات أوفر حظًا أو ابرز فيه أثرًا . ولقد ألف جيبون كتابه هذا منذ زمن طويل ( ١٧٧٦ - ١٧٨٨ ) ، وكمن من أشياء كشفت وكتبت منذ ذلك التاريخ ، ولكن هناك رغم ذلك اتفاقاً تاماً على أن كتاب جيبون ما يزال يحتفظ بمكانته ، بل ويزداد الاقبال على قراءته لما ينفرد به من فن وجمال . ولو أن كتاب « الاضمحلال والسقوط » فقد قيمته التاريخية ، لكان من اللعيب ان نتعلق بالامل في قراءته ، أكثر ما تكون القراءة ، من أجل أسلوبه فحسب ، اللهم الا أولئك المتخصصون في الأدب الذين يتناولونه بالتشريح والتحليل ، ومن ثم كانت الحاجة الى « مختارات » منه ، تهدف الى ابراز هاتين الصفتين معا . أما اللجوء الى اقتطاع شذرات منه وضمها بعضها الى بعض لمجرد سرد الحقائق وابراز القيمة الفعلية ، فانه يسئ الى هذا العمل الجليل ، ويحجب عن القارئ تفوقه وميزاته الحقيقية . فيجدد أن ينظر الى الكتاب على أنه كل ، على أن يؤخذ في الاعتبار موضوع انقاص حجمه قدر الامكان ، دون الانتقاص من الاحساس بأنه يصدر عن كيان متكامل .

أما الفصلان العظيمان الخامس عشر والسادس عشر اللذان يعالجان « ظهور المسيحية » فقد احتفظ بهما كابلين . فقد خيف هنا أن يشعر الاقتضاب بأن المحرر ينصب نفسه حكما بين جييون وقارئه في هذه السيرة الحيوية . ومنذ كتب جييون في ١٧٧٦ أول مجلداته الأربعة ، وفيه هذا الفصلان اللذان بلغ فيهما المؤلف ذروة المهارة والحذق ، ظل هذا الجزء - لسوء الحظ - أكثر ما كتب جييون عن المسيحية عرضة للتشهير وسوء السمعة ، ولو أن كثيرا من الناس اعتبروه في الواقع شيئا عاديا مألوفا ، ولهذا أبقينا على أجزاء كثيرة من الفصول الأخيرة التي تناولت التطورات اللاهوتية والكنسية . وليس من الميسور فهم غزوات المتبريرين والتاريخ الداخلى للإمبراطورية دون الإشارة الى تقدم مذهب آريوس (١) ونظرية التثليث . ونظرية التجسد . وقد يكون الوقت الآن مناسبا لتذكر ما ذكره كاردينال نيومان في حسرة وأسى من أن جييون كان المؤرخ الوحيد للكنيسة . ولكن الزمن والجهد قد عالجا ذلك . فان أعظم مؤرخى الكنيسة قيمة متفقون مع جييون ، رغم ذلك ، في استنكار التصديق الأعمى ، والخرافات الساذجة والخداع المتعمد ، وفي الحزن على تنكب المثل العليا البدائية والانزلاق الى الأطماع الدنيوية ، مما يشوب تاريخ الدين كثيرا . وكان جييون أول من جعل من التاريخ الدينى دراسة علمانية . ولم يختلف عنه خلفاؤه في معظم الأحوال الا في طريقة تناولهم للموضوع وفي لهجتهم . وهنا يجب أن نقول شيئا : فقد حلوا ويسهل على بعض الكتاب أن يتحدثوا عن عداء جييون للمسيحية . والحق أنه أورد في شيء من الطيش أشياء نبذها وترفع عنها في عصرنا هذا «جلبرت مرى Gilbert Murray» على أنها « حثالات دنيئة » . ولكن جييون لا يهاجم قط « السنن القويم للإنجيل » ، وهو لا يتحدى الأخلاقيات المسيحية كما فعل بعض « اللادريين » (٢) من بعد . بل انه كان دائما يجمل الاخلاص والتمسك الجرىء بالمثل العليا . خذ مثلا كلامه عن القديس كبريان Cyprian أسقف قرطاجة ( في القرن الثالث الميلادى ) وعن أثناسيوس ، وكريزوتوم ( أحد آباء الكنيسة اليونانية في القرن الرابع ) ، تدبر كذلك تهكمه الذى تناول به تناولا نزيها آراء جوليان (٣) الدينية وطقوسه

(١) "Arianism" مذهب آريوس Arius الذى يقول بأن المسيح ليس من نفس مادة الرب ولكنه أحسن ما خلق الله - ( المترجم ) .  
(٢) "Agnastics" ( الغنوصيون ) الذين لا يعتقدون بكفاية العقل لفهم الوحي الالهى - ( المترجم ) .

(٣) Julian the Apostate امبراطور روما ٣٦١ - ٣٦٢ .



ومن السخف كذلك ، الزعم بأن جييون كان يميل ميلا خاصا الى الحياة الروحية ، فقد ابتلا عقله بفلاسفة القارة ( أوربا ) الذين قال عنهم ليتون ستراتشي Lytton Strachey في مقالته عن مدام دي دفان Mme, du Devand ان مذهب المتشككين في هذا الجيل لمن اعنف واعند ما عرف العالم ، فانه لم يتكلف حتى مشقة الإنكار بل عمد في سيطرة الى التجاهل ، وكان بمثابة حجاب كثيف من الاستهتار بأسرار الكون ، وبحلولها وكشف غوامضها على حد سواء . وتعلم جييون من بسكال Pascal « التهكم اللاذع والمعتدل » واستخدمه استخداما مدعما ، فاذا كان هذا التهكم قد اصبح على طول المدى مملا شيئا قليلا ، فيجب ان نتذكر — كما تذكر ج. ب. بيوري J. B. Bury — ان تناول الموضوع بأسلوب غير مباشر كان لونا من الحيطة اللازمة في القرن الثامن عشر ، فلربما صحت الكنيسة آنذاك من مرقدتها الوثير لانزال أشد العذاب والعقاب بالمجدين في الدين .

ان رجال الدين في عصر جييون ، بالإضافة الى بغض العلمانيين ، لم يدركوا ، وما كان في مقدورهم ان يدركوا ، ما كان يصنعه هذا الرجل ، بل انهم لم يحاولوا شيئا من ذلك . لقد طاش صوابهم وفقدوا اعصابهم لما اعتبروه في نظرهم تهجما على نظام مرتبط بالطبيعة المستقرة للأمور ، فلما كانوا يفتقرون الى حجة دامغة عمدوا الى الأسلوب التقليدي القديم في تجريخ من يدافع عن خصمهم . وكان الهدف لأول وهلة سهلا . لأن جييون كان بدينا مثاقفا ، ولم تكن العقلية الانجليزية لتعترف بسهولة اجتماع هاتين الصفتين . واستطال الداب على تحقيق شخصه ونشويه سمعته واخلاقه قرنا من الزمان ، وتكشف بعد ذلك تقييم أكثر رشادا وسدادا لصفات الرجل امام اعيان أولئك الذين كلفوا انفسهم ان يتدبروا القول : اذا كان لنا ان نسخر بعد من غرابة الرجل وشذوذه — وقد يكون من قبيل الصلف والكبرياء الا نفعل ذلك — افلا يجدر بنا في نفس الوقت ان نؤكد ان جييون كان رجلا متكامل العقل والخلق معا ، كما كان — على حد اعتراف اصدقائه الاقربين — يتحلى بروح انسانية فياضة ! والحق ان تلك صفات كانت تسود تاريخه .

ومن الطبيعي ان تعتد موازنة بين مجرى الامبراطورية الرومانية وبين مجرى التاريخ الأوربي الحديث . وفي ظروف الحياة الناعمة السعيدة منذ ٦٠ عاما عقد لورد بريس Bryce ( مؤرخ انجليزي ١٨٣٨ — ١٩٢٢ ) موازنة مشوقة بين فتوح القيصر أوغسطس وبين الامبراطورية البريطانية . واليوم قد يجد أولئك الذين يحسون بانهم يعيشون وسط مدنية متداعية الأركان — يجدون في قصة اضمحلال

الإمبراطورية الرومانية مادة غزيرة للمقارنة ، وأنا لنترك للقراء أن يقارنوا لأنفسهم ما شاءوا . وثمة تعليق أو إثبات على موقف جيبون من الموضوع الذى اختار الكتابة فيه . وقد لا يكون التعليق أمرا ثابيا ، بل ان هذا موضعه .

شرح جيبون فى تأليف كتابه بعد فترة شباب ثم رجولة مبكرة عكف فيها على دراسة الآداب القديمة ، وخاصة اللاتينية ، ومن ثم تحكم فى نظراته ما وجد فى تلك الآداب القديمة من مقاييس ومثل ، فقرأه فى معظم ثابايا مؤلفه يكتب كما لو كان عضوا مثقفا فى السناتو ( مجلس الشيوخ ) فى أزهى أيام الامبراطورية ، وهنا تكون فكرته عن الإضمحلال والسقوط أمرا طبيعيا لمثل هذا الشيخ عضو السناتو ، على افتراض أن عصر الأنطونيين كان عصرا ذهيبيا حقا ، ولا يضعف من هذا الافتراض ما أظهرته الأبحاث مؤخرا من حقيقة مؤداها أن الاستقرار الاقتصادى كان تمويها . فلما أخذ جيبون نفسه بنظرية الإضمحلال ، لا من ناحية الرخاء فحسب ، بل على أساس المقاييس الأدبية والفلسفية القديمة كذلك ، فإنه تابع قصته ، على الأقل حتى سقوط الامبراطورية فى الغرب ، دون تناقض صارخ . ولم يمنعه حزنه التقليدى ورثاؤه لفقدان الحرية السياسية من أن يسجل فى بصيرة وفطنة الشئ الكثير من المبتكرات السياسية والإدارية ، ابتداء من أعمال أوغسطس الى تنظيمات دقلديانوس وقسطنطين ، وقد يرى القارئ مصادفة أن نيسوره من مراسم البلاط ( الامبراطورى ) — تلك الى نشأت فى آسيا واقتبسها دقلديانوس وخلفاؤه ، ثم انتشرت مؤخرا فى كل أوروبا — لم يكن أقل وضوحا من استهتاره بالدين .

ومن الطبيعى أن يرى جيبون ، بحكم اتجاهه الرومانى أو السناتورى ، فى غزوات المتبربرين شيئا أقل من أنها كانت موجات من التخريب والتدمير . ولكن يمكن من زاوية أخرى مختلفة ، كما فعل بيورى أن ندرك أن الغزاة لم يكونوا يسعون دائما الى التخريب ، بل يهدفون الى الاندماج فى الرحاب الجميل للمدنية القديمة . ومثل هذا التباين فى وجهات النظر لابد أن يؤدى الى الاختلاف فى الحكم على استيطان الشعوب الجرمانية داخل الحدود الامبراطورية . أضف الى ذلك أن هؤلاء الناس جلبوا معهم كثيرا من المبتكرات التى زادت من نعيم الحياة الأوربية ، مما لم تكتشفه دنيا اليونان والرومان قط .

ولكن الأدهى والأمر أن نظرية جيبون فى الإضمحلال ضلت به اسريق الى تاريخ الحضارة البيزنطية ، ومن ثم يجدر اللجوء هذا الى المؤلفين

المحدثين ، علاجا لهذا الضلال أو تريباقا ضده . ولا يتبقى أمام القارىء الا سؤال واحد وهو : كيف يتسنى أن يقال في جبهة واحدة : ان القسطنطينية في حالة اضمحلال مستمر على حين بنيت هذه المدينة حصنا لأوربا لفترة تزبو على الف عام ؟ .

ومهما يكن من أمر ، فيستظل الحقيقة قائمة ، وهى أن الامبراطورية في الغرب والشرق قد آذنت بزوال . ولقد شغل المؤرخون المحسدثون أنفسهم بالبحث عن أسباب هذا السقوط ، أكثر منهم برواية أنبائه فحسب . وليس هناك اتفاق معين بين هؤلاء الباحثين والمحققين . فاذا وليت وجهك شطر جييون وملاحظاته الهادئة عن فناء الامبراطورية في الغرب لوجدته لا يفتش كثيرا عن أسباب السقوط ، قدر ما يعبر عن دهشته وعجبه من بقاء هذا التنظيم المعقد لعدة قرون ، وقد نمتدح نحن الذين رأينا تفكك ما كان ينظر اليه باعتباره نظما امبراطورية قوية - في بضع سنين - نمتدح حكمة جييون ونشاطه الدهشة والعجب .

وما دام المقام يتسع لكل شيء فلنذكر انها كانت ميزة ومكرمة . وليست علة أو نقيصة ، أن جييون اقام وسيط دئيا الرومان ليكتب قصصه الذى اقتحم به الى قلب العالم الرومانى ليزودنا بسيرة اصيلة خالصة مستمدة من المراجع القديمة في تفصيل كامل ، لا يمكن الوقوع على مثله في أى مؤلف حديث آخر . والحق أن كتاب جييون يسمى على تفاصيل الامبراطورية الرومانية . لقد ساد الاعتراف بأن الكتاب بلحمة منثورة استعرضت فيها كل خبرة التاريخ . على مستوى عام شامل ، واذا كان جييون قد نظر الى التاريخ على أنه « سجل لجرائم الجنس البشرى وسقطاته ونكباته » فإن رؤياه هذه ، في سعتها وحنوها ، تضعه في منزلة أدنى قليلا من منزلة كبار الشعراء .

وينهج هذا المختصر نهج النص الاصلى لكتاب جييون ، اللهم الا في استثناء واحد جدير بالملاحظة ، وهو قطعة الافتتاحية التى جاءت تحت عنوان « تمهيد » ، فقد أخذت هذه القطعة من نهاية الفصل الثالث ، حيث رثى أنها تشكل فاتحة أفضل من بداية الفصل الأول . ولم يكن ثمة مسحة لاختيار القطعتين معا . وقد عمدنا الى هذا الاستثناء الوحيد من ترتيب النص الاصلى دون أن نقصد الاستعلاء على رأى المؤلف . ولما كان كل فصل من الكتاب يشكل قطعة اجساد المؤلف تصورهما وأخراجها - أو قل حركة فيما أسلفنا وصفه بأنه سمفونية عظيمة . ولما كانت هذه الحركات كلها تنتهى الى خاتمة مقرررة مؤثرة ، فقد وضعنا نصب أعيننا أن نثبت فصولا برمتها ما استطعنا الى ذلك سبيلا . وقد

Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

Handwritten text or signature in the lower right quadrant.



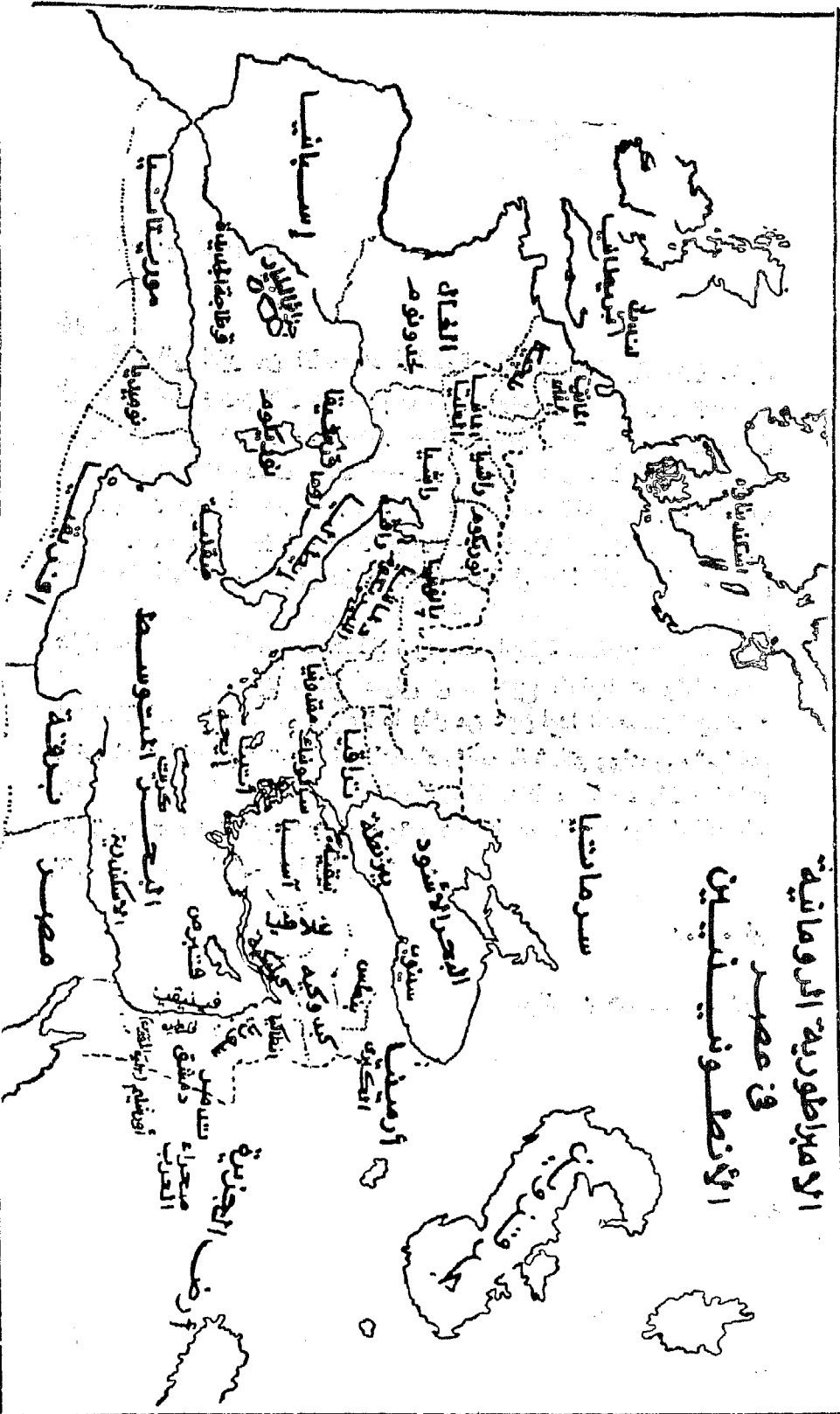
## اعترافى بالفضل :

قدم الى كثير من الاصدقاء المشورة والنصح خالصين دون مقابل فى عملى هذا ، ولم يفتر حماسهم فى حفزى ودفعى فيه . ولو قبلت كل مقترحاتهم لخرجت بنص كامل لكتاب « الاضمحلال والسقوط » . ويستحق مستر فرانك ف . مورلى اجزل الشكر واعظم الامتنان ، لا لجرد تشجيعه الحكيم الرصين فحسب ، بل كذلك لاستعداده التام وسهره الدائب على انجاز المهمة الكبيرة ، الا وهى قراءة التجارب . ويجل عن التقدير كذلك ما قدمت لى زوجتى من مساعدة قيمة فى هذا المضمار . وانى ليطيب لى ان اذكر الحماس والفتنة والبراعة التى ابدتها مستر كولن هايكرافت Mr. Colin Hayeraft فى المراجعة النهائية للمختارات، واعدادها للطبع ، وكانت له يد صناع طولى فى تصحيح العنوانات والمخصصات المتداخلة فى صلب الكلام ، ولولا ما بذل من عون لبدا العمل ثقيلًا . وانى لادين اخيرا باعمق الشكر لاعضاء مؤسسة شاتو ووندس وشركاهم Chatto & Windus Ltd. بالنسبة لهذا الكتاب وغيره منذ سنوات كثيرة مضت ، لعنايتهم واهتمامهم وتدبرهم لكل مرحلة من مراحل الاعداد لتل هذا النوع المعقد من اعمال النشر .

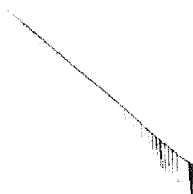
د . م . لو

كرافن هل ١٩٦٠

# الإمبراطورية الرومانية في مصر الألفاظ والنقائين



العصر الذهبي للأزطونيين





## تمهيد (★)

إذا طلب الي انسان أن يحدد الحقبة من تاريخ العالم التي بلغت فيها أحوال الجنس البشرى ذروة السعادة والأزدهار لحددها دون تردد بالفترة التي انقضت بين موت دوميتيان (١) Domitian واعتلاء كومودس (٢) Commodus العرش . وكانت الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف تحكمها القوة المطلقة على هدى من الفضيلة والحكمة . وكبح جماح الجيوش أيد حازمة بثبته ، وفي نفس الوقت وديعة رفيعة ، لأربعة من الأباطرة تعاقبوا على العرش ، فرضت سلطنتهم وشخصياتهم الاحترام فرضا . وحافظ نرفا وتراجان وهادريان والأنطونينيون في عناية تامة ، على أشكال الإدارة المدنية ، وكانوا يقيمون عيونا بطيف الحرية ، ويبتهجون إذ يعتبرون أنفسهم حماة للقوانين مسئولين عنها . ان هؤلاء الأمراء ليستحقون شرف استعادة الجمهورية لو ان المواطنين الرومان على أيامهم كانوا قادرين على التمتع بحرية تتسم بالتعقل .

ولقد وفيت أعمال هؤلاء الحكام حقها بهذا الجزاء الوفاق الذى اقترن بنجاحهم ، أو قل بهذا الاعتراف الصادق بالفضيلة والسرور البالغ بما غفر الناس من سعادة كانوا هم صانعيها . ولكن خاطرا مشروعا وحزينا معا كدر أنبل ما يتمتع به الانسان ، فانهم لا يبدؤا كثيرا ما يسترجعون أنه لا ثبات ولا استقرار لسعادة تعتمد على شخصية

(★) مقبوس من الفصل الثالث .

(★★) يلاحظ أن أرقام الفصول هنا هي نفسها أرقام الفصول في النص الاصلى الذى

دونه جيبون .

(١) امبراطور روما ٨١ - ٩٦ م .

(٢) امبراطور روما ١٨٠ - ١٩٢ م .

رجل واحد ، فربما اقتربت اللحظة المشئومة التي يستغل فيها الى حد الدمار ، شاب داعر أو طاغية حائد تلك القوة المطلقة التي استخدمها أولئك الحكام لمصلحة شعبيهم . فقد تجدد، ضوابط السناتو المثالية ، وتجدد القوانين ، في نشر الفضائل ، ولتتها لا يمكن أن تقضى على مساوئ الامبراطور وردائله . وكانت القوة العسكرية أداة للظلم عمياء تتعذر مقاومتها ، ويمكن أن يخلق فساد الخلق الرومانى على الدوام طائفة من المنافقين الذين يتلهفون على الاستحسان والتصفيق ، من الوزراء المسنعين لخدمة سادتهم ، في ساعة الخوف أو الجشع ، والشهوة الجامحة أو القسوة العاتية .

وكان في تجارب الرومان ما يبرر بالفعل هذه المخاوف والظنون الكثيرة . ذلك أن ابتداء الاباطرة تقدم صورة قوية واضحة مدباينة للطبيعة الانسانية ، من العيب أن تلتبسها في الشخصيات المشوبة المشكوك فيها في التاريخ الحديث ، ومن اليسير أن نتعقب تطرف الفضيلة والزديلة في سلوك هؤلاء الحكام ، وتترسم فيهم أعظم الكمال وأخط الانتكاس في صنوف جنسنا البشرى ، فقد سبق العصر الذهبي لتراجان والأنطونيين عصر حديدي . وقد يكون ناقلة من القول أن نعدد من لا يستحقون الذكر من خلفاء أوغسطس ، فان ردائلهم المنقطعة النظير والمسرح الفخم الذي مثلت عليه ردائلهم ، أبقى على ذكرهم واندقدهم من التردى الى زوايا النسيان . فقد دمع بالفضيحة والعار ابد الدهر نيبيروس Tiberius الجبار الغامض ، وكاليجولا Caligola الشرس ، وكلوديوس Cladius الضعيف ، ونيرون Nero المبذر الغاشم وفيتليوس Vitellus البهيمى الكريه ، ودرميتيان الجبان الغليظ القلب . ورزحت روما طوال ثمانين عاما ( فيما عدا فترة توقف قصيرة مشكوكا فيها أيام حكم نسيان Vespasian ) تحت نير من الطغيان لم تخب ناره أو يهدأ أواره ، أباد الأسرات القديمة في الجمهورية ، وكاد يكون ضربة قاضية لكل فضيلة وكل مقدرة أو نبوغ ظهر في هذه الفترة المنكودة .

واقترن استعباد الرومان تحت حكم هؤلاء الجبابرة بظرفين خاصين ، نجم الأول عن الحرية التي تمتع بها الرومان من قبل ، وثشا الثاني نتيجة توسعهم في الفتوح ، حتى غدوا في حالة رهيبية من التوسع التي لم يقدر لأية فريسة من ضحايا الطغيان أن تعانيها في أي بلد آخر وفي أي عصر آخر . واستتبع هذان العاملان

١ - حساسية شديدة لدى المظلومين .

٢ - واستحالة الامتلات من يد الظالمين .

١ - كان يحكم الفرس حكام من نسل الصفوى ، وهم جماعة من  
الأمراء ، كثيرا ما لطخت قسوتهم الفاشمة الفاجرة ديوانهم ومبادئهم  
وفراشهم بدم خالصاتهم ، حتى انه ليؤثر عن شاب من النبلاء قوله :  
انه ما انصرف مرة من حضرة السلطان دون ان يقنع نفسه بان رأسه  
لا يزال فوق كتفيه . وتكاد خبرة الحياة اليومية تبرر شكوك الفرد  
هناك ، على انه يبدو أن السيف البتار المتدلى فوق الراس من خيط  
رفيع واحد ، لم يقض مضجع المواطن الفارسى أو يكرر صفو هدوئه ،  
فقد علم حق العلم أن عبوس الملك يطرح به الى الأرض ميتا ، ولكن  
البرق قد يصعقه ، وقد تودى به كذلك نوبة من السكتة القلبية ،  
وكل أولئك ضربات قاضية على حد سواء . ومن ثم كان على الرجل  
العاقل أن ينسى البلاء النازل والقضاء المحتوم في حياة الانسان  
عندما يخلو الى شئ من متاع الدنيا في ساعة عابرة . لقد كرموه  
بقولهم انه عبد الملك ، وربما كانوا قد اشتروه من ابوين مجهولين  
في بلد لم يعلم هو من أمره شيئا قط ، ونشأ منذ نعومة أظفاره في ظل  
النظام الفاسى في قصر السلطان . وكان اسمه وراثته وأبجاده كلها  
هبة من عند سيده ، ومن حق هذا السيد أن يسترد ما وهب ، دون  
أن يكون في ذلك مجافاة للعدالة ، ولا تجدى المعرفة عند العبد ،  
إذا تيسر له شئ منها ، الا في تثبيت عاداته عن طريق الآراء الفجة ،  
ولم تنم الفاظه عن أى شكل من أشكال الحكومة اللهم الا الملكية  
المطلقة . ولقد أنباه تاريخ الشرق أن تلك كانت دوما حال البشر (١) .  
كما أن القرآن ، ومفسرى هذا الكتاب المنزل من عند الله ثرروا له أن  
السلطان كان من نسل النبى ، وأنه نائب عن الله ، وأن الصبر أول  
فضيلة ينبغى أن يتحلى بها المسلم ، وأن الطاعة العمياء هى أهم  
واجبات الرعية (٢) .

ولكن أذهان الرومان كانت مهيأة للعبودية بشكل يختلف عن  
هذا كل الاختلاف ، لقد كانوا يعانون من الظلم الوانا تحت وطأة

(١) يقول شاردين Chardin ان بعض الرحالة الاوربيين نشروا بين الفرس  
بعض الافكار عن الحرية والاعتدال فى حكومتنا . وقد أساءوا اليهم بذلك ايما اساءة .  
(٢) التزمنا هنا كل الامانة والدقة فى نقل كلام المؤلف بحروفه وقد لا يقتضى  
الأمر أن نعلق عليه باكثر من أن القرآن الكريم والتفسير بريثان من هذه الاباطيل ، وتعاليم  
الاسلام الصحيح أبعد ما تكون عن هذا الذى حشره المؤلف هنا حشرا - ( المترجم )

الفساد الذى تردوا فيه هم أنفسهم ، وتحت وطأة العنف العسكرى ، ولكنهم احتفظوا لزمين طويل باحسانهم - او على الأتمل بفكرتهم ، بأسلافهم الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا . لقد كان تعليم هلفيديوس Helvicius وتاسيتس Tacitus وتراسيا Turasea وبليني Plini هو نفس تعليم كانوا وشيئرون . لقد نهلوا من معين الفلسفة اليونانية انبل الآراء وأكثرها ثخرا عن كرامة الطبيعة الانسانية وعن منشأ المجتمع المدنى . وتعلموا من تاريخ بلادهم أن ينظروا بعين الاحترام الى حكومة جمهورية خزة فاضلة منتصرة ، وأن ييغضوا الجرائم الناجحة التى اقترنفا قيصر واوغسطس ، وأن يزدروا فى أعماق نفوسهم هؤلاء الطغاة الذين عبدوهم عبادة منافقة . لخط ما يكون النفاق . وكان مرخصا لهم ، بوصفهم قضاة وشيوخا ، فى الدخول الى المجلس الموقر الذى كان يوما يملئ القوانين على العالم ، والذى ظل اسمه ضمانا وسندا لتصرفات الملك أو الحاكم ، والذى كثيرا ما انتهكت حرمة سلطته لخدمة أذنا أغراض الطغيان ، وحاول تييريوس والاباطرة الذين نهجوا نهجه واعتنقوا مبادئه أن يخفوا جرائم القتل التى يقترفونها تحت ستار من مراسم العدالة وشكلياتها ، بل ربما غمرهم شعور خفى من الإغتياب بأنهم جعلوا من السناتو شريكا متواطئا معهم ، وفريسة لهم سواء بسواء . وقد أذان هذا المجلس أواخر الرومان بجرائم وهيبة كانت فى واقع الأمر فضائل حقة ، وانتحل المدغون الشاكون المقوتون لأنفسهم لغة المحبين لوطنهم المستقلين بأرائهم ، الذين يستدعون المواطن الخطر الى ساحة المحكمة فى بلده لاستجوابه ، وكان موظفو الدولة يجزون الثروة والتكريم . وكان القضاء الأذلاء يعلنون أنهم يؤكدون جلال وعظمة الدولة التى تمتن كرامتها فى شخص الحاكم الأول ، الذى كان الناس يمتدحون فيه الرأفة والرحمة أيضا مديح ، فى نفس الوقت الذى ترتعد فيه فرائصهم أشد رعدة لما يحيق بهم من قسوته التى لا ترحم ولا تلين . وقد نظر الطاغية الى خستهم ونذالتهم فى ازدراء عادل ، وواجه مشاعر المقت والبغض الخفية فيهم بكراهية خالصة علنية لهيئة السناتو بأسرها .

٢ - انتهى تقسيم أوربا الى عدد من الدول المستقلة ، التى يربطها بعضها ببعض ، على أية حال ، ذلك التشابه العام فى الدين وفى اللغة والسلوك - انتهى الى خير النتائج وأكثرها احسانا الى حرية الجنس البشرى . ان الطاغية الحديث الذى لا يجد رادعا من نفسه أو مقاومة من شعبه ، سرعان ما يلقى وازعا هادئا فى المثل الذى يقدمه

نظراؤه ، وفي الخشية من لوم الساعة ، وفي نصح حلفائه وفي توقع الشر من أعدائه . وكان من اليسير على من يغضب عليه الطاغية — وقد خرج من الحدود الضيقة لمملكته — أن يجد في بيئة أسعد حالا ، ملجأ آمنا ، وقد يتسهم له من جديد حظ يكافئ استحقاقه ، أو تتوفر له حرية الشكوى ، وربما تيسرت له وسائل الانتقال . ولكن الإمبراطورية الرومانية ملأت آفاق الأرض ، فما أن وقعت هذه الإمبراطورية بين يدي فرد واحد حتى أصبح العالم بأسره سجنا آمنا كئيبا لأعداء هذا الفرد . وكان كل عبد لهذا الجور الإمبراطوري يرتقب في يأس صامت ما يخبئه له القدر ، سواء قضى عليه أن يجسر سلسلته المذهبة في روما أو في السيناتور ، أو يفنى حياته في المنفى على الصخور المجذبة في سريفيوس Seriphus أو على الشواطئ المتجمدة للدانوب (١) . وكان في المقاومة هلاكه ، وكان الهرب أمرا مستحيلا ، ففي كل ناحية كانت تطوقه مساحة شاسعة من البر أو البحر ، لا يمكن أن يراوده الأمل في عبورها في مأمن من اكتشافه والقبض عليه وأعادته إلى سيده الهائج . أما وراء الحدود فلن تقع عيناه المتلهفتان إلا على المحيط ، أو على الصحراء القاحلة ، أو على القبائل المتبربرة المعادية ، ذوى الشراسة واللغة المجهولة ، أو الملوك الأتباع الذين يسعدهم أن يشتروا حماية الإمبراطور بالتضحية بأى لاجئ ممقوت (٢) . أو كما قال شيشرون لمارسيليس Marcellus وهو في منفاه : «تذكر أنك في قبضة الفاتح وتحت سلطانه أينما كنت» .

(١) سريفيوس Seriphus جزيرة صخرية صغيرة في بحر إيجه ، كان سكانها محتقرين لجهلهم وخمول ذكركم . أن المكان الذي نرى إليه أوليفيد (الشاعر) معروفنا تماما عن طريق عريته وبكائه ، والذي لا يليق برجل ، ويبدو أنه تلقى أمرا بمغادرة روما في بضعة أيام معدودة ، والانتقل إلى تومي Tomi ، (حصن على البحر الأسود) ولم تقتض الضرورة حراسا أو سجانين (في المنفى) .

(٢) حاول فارس روماني الهرب إلى بارتيا (مملكة قديمة في الجنوب الشرقي من بحر قزوين) في أيام تيبيريوس ، ولكنه أوقف في مضائق سفلية ، وبدا الخطير من أن يخذل الناس حذوه ، حتى أن أشد الطغاة حقا احتقر أن يعاقبه .

## الفصل الأول

(٩٨ - ١٨٠ م)

### امتداد الامبراطورية الرومانية ، شكراً عامة عنها

تمت الفتوحات الرومانية الهامة في عهد الجمهورية ، وقنع الأباطرة في معظم الأحوال بالاحتفاظ بهذه الممتلكات ، التي تم احرازها بفضل سياسة السناتو ، وتسابق القناصل ، والحماس العسكري في الشعب . وقد زخرت القرون السبعة الأولى بتتابع الانتصارات السريعة ، ولكن قدر على أوغسطس أن ينبذ مشروع الطمع في إخضاع العالم بأسره ، وينفخ روح الاعتدال في المجالس العامة . وكان يميل الى السلام بطبيعته وبحكم موقفه ، ولذلك كان من اليسير عليه ان يكتشف أن أمل روما - بمكانتها الرفيعة الحالية - في امتشاق الحسام أقل كثيراً من تهيئها له ، وأن مواصلة القتال في الحروب الثأرية كانت عبئاً يزداد في كل يوم مشقة وعناء ، بقدر ما يزداد الشك في النتيجة ، ويتخلخل الاستقرار في الممتلكات ، ويقل نفعها . وزادت تجربة أوغسطس من قيمة هذه الآراء السديدة ، وأقنعتة بالفعل أنه يفضل نصائحه القوية الحكيمة ، يسهل على روما ان تحصل من هؤلاء المتبربرين المروعين على كل ما تتطلبه سلامتها وكرامتها من تنازل أو اذعان ، فتوصل بمقتضى معاهدة مشرفة - بدلا من تعريض نفسه وقواته لسهام البارثيين - الى استعادة الاعلام والأسرى الذين أخذوا في هزيمة كراسوس .

وحاول قواده ، في مسنهل حكمة ، إخضاع اثيوبيا والجنوب العربي ، وساروا نحو الف ميل الى الجنوب من مدار السرطان ، ولكن حرارة الجو ردت الغزاة على أعقابهم ، وحثت السكان غير المحاربين في هذه الأقاليم المنعزلة . أما دول أوروبا الشمالية فكانت لا تكاد تستحق عناء الغزو ونفقتة . وكانت غابات ألمانيا وبطاحها

تموج بقبيلة ذات بأس شديد من المتبريرين الذين كرهوا الحياة  
إذا لم تقترن بالحرية . وبدا أنهم استسلموا لأول ضربة تحت ضغط  
القوة الرومانية ، ولكنهم رغم ذلك ، سرعان ما استردوا استقلالهم  
بعد محاولة يائسة مستميتة ، وذكروا أوغسطس بتقلبات الحظ . وعند  
وفاة هذا الامبراطور قرئت وصيته علنا في السناتو ، فاذا به قد أوصى  
لخلفائه من بعده بتراث قيم ، ذلك أنه قدم لهم النصيح ببقاء  
الامبراطورية ، داخل تلك الحدود التي يبدو أن الطبيعة نفسها قد  
جعلت منها حصونا وحدودا ثابتة دائمة للامبراطورية : اعنى المحيط  
الأطلسي غربا ، والراين والدانوب شمالا ، والفرات شرقا ، وصحراء  
العرب وصحراء افريقية جنوبا .

ولحسن الحظ ، ولطمانينة الجنس البشرى وهدوئه ، نجد أن  
أسلوب الاعتدال الذى انبثق عن حكمة أوغسطس ، انتهجه خلفاؤه  
المباشرون على أساس من مخاوفهم ورذائلهم . فقد انغمس القياصرة  
الأول في اللهو وانصرفوا الى الظلم والظغيان ، ومن ثم ندر ظهورهم  
مع الجيوش ، أو في الولايات ، كما أنهم لم يكونوا مستعدين ليروا  
في لوعة أن هذه الانتصارات التى أهملها خمولهم وتراخيهم قد يفتصبها  
قوادهم بفضل تدبيرهم وجرأتهم وشدة بأسهم . وكانت الشهرة  
العسكرية لآى فرد من الرعية تعتبر عدوانا صارخا على الامتيازات  
أو الحقوق الامبراطورية ، ومن ثم كان من واجب أى قائد رومانى أن  
يحمى الحدود التى هو مكلف بحراستها ، دون التطلع الى فتوح قد يثبت  
أنها ليست أقل خطرا على شخصه منها على المتبريرين المهزومين .

ولم يزد على الامبراطورية الرومانية في القرن الأول المسيحى سوى  
ولاية بريطانيا ، وهذه هى المرة الوحيدة التى أغرى فيها خلفاء قيصر  
وأوغسطس بأن يحذوا حذو الأول أكثر منهم باتباع وصية الثانى .  
ويبدو أن قرب بريطانيا من شواطئ الغال هو الذى استحث القتال ،  
كما أسال اللعاب وحرك الأطماع أبناء سعيدة ، قد تكون مشكوكا  
في صحتها ، عن وجود مصائد اللؤلؤ . ولما كان ينظر الى بريطانيا  
على أنها عالم متميز منعزل ، فإن فتحها لم يكد يشكل أى استثناء  
للأسلوب العام لاجراءات الغزو داخل القارة . وخضع معظم  
الجزيرة للنير الرومانى بعد حرب دامت نحو أربعين سنة ، حرب بداها  
أفبى الاباطرة ، واستمر فيها أكثرهم فسقا وفجورا ، وأنهاها أشدهم  
جنا . وكانت مختلف قبائل البريتون ذوات بأس شديد ، ولكن دون

تدبير أو قيادة ، كما تملكهم حب الحرية دون روح الوحدة ، فقد يشهرون أسلحتهم في وحشية عاتية ، وقد يضعونها ، أو يسددونها الى صدور بعضهم بعضا ، وكل أولئك في قلب سريع طائش ، فلما قاتلهم الرومان وهم على هذه الحال من الفرقة ، أمكن إخضاعهم تباعا . ولم يجد بأس كاراكتاكوس Caractacus ( أحد رؤساء القبائل ) أو استماتة الملكة بوديكا Boadicea ، أو تعصب الدروود Druids ( مذهب الكلت الدينى قبل المسيحية ) - لم يجد كل أولئك نفعا في الحيلولة دون استعباد بلادهم أو في مقاومة التقدم المطرد للقادة الإمبراطوريين الذين حافظوا على المجد الوطنى ، على حين تلوثت كرامة العرش ولحقه العار بجلوس أرذل بنى الانسان وأضعفهم عليه . وفي نفس الوقت الذى قبع فيه دوميتيان فى قصره شاعرا يما أشاعه من رعب وارهاب ، هزمت جيوشه تحت إمرة أجريكولا الفاضل ما تجمع من قوات كاليدونيا ( الاسم القديم لاسكتلنده ) عند سفح تلال جرابيان ، وقامت أساطيله - عندما غامرت بارتياح طريق بحرى خطير مجهول - باستعراض الأسلحة الرومانية حول الجزيرة البريطانية بأسرها واعتبر فتح بريطانيا أمرا مقروغا منه . وكانت خطة أجريكولا ، استكمالا وتوكيدا لنجاحه ، أن يغزو أيرلنده ، وتلك مهمة يسيرة يكفى لها - فى رأيه - فيلق واحد وقليل من القوة المساعدة ، ومن الميسور اصلاح أحوال هذه الجزيرة الغربية لتصبح درة ثمينة فى الممتلكات الرومانية ، وعندئذ يكون البريتون أقل ضجرا وابتعاضا بالأغلال والقيود التى وضعت عليهم ، اذا أزيح من أمام أعينهم ، أينما اتجهت أبصارهم ، نموذج الحرية ومنظرها .

ولكن سرعان ما اقتنضت مقدرة أجريكولا الفائقة ابعاده عن حكومة بريطانيا ، واختفى بذلك الى الأبد مشروع الفتح المعقول والضخم معا . وعمل هذا القائد الحازم قبل رحيله على استتباب الأمن والسيطرة سواء بسواء ، وكان قد لاحظ أن الجزيرة تكاد تقسم الى قسمين غير متساويين ، بالخلجان المتقابلة التى يطلق عليها الآن مضائق اسكتلنده ، فأقام فى نحو ٤٠ ميلا من الجزء الداخلى الضيق خطا من المحطات العسكرية التى جرى تحصينها فيما بعد ، فى عهد أنطونينوس بيوس Antoninus Pius ، بحاجز أخضر مشيد على أساس من الحجر . وتقرر أن يكون سور أنطونينوس هذا ، وهو على مسافة قصيرة وراء المدينتين الحديثتين أدنبره وجلاسجو ، حدا للولاية الرومانية . واحتفظ أهل كاليدونيا فى الأطراف الشمالية من



الجزيرة ، باستقلالهم المهجى ، الذى لم يكن الفضل فيه لغزهم أقل منه لبسالتهم . وكثيرا ما صدت غاراتهم وعوقبوا عليها ، ولكن لم يتم إخضاع بلادهم قط . وانصرف سادة أجمل بقاع الأرض مناخا وأكثرها رخاء ، فى احتقار وازدراء ، عن هذه التلال الكثيفة التى نتجачها عواصف الشتاء ، وعن البحيرات التى تختفى تحت الضباب الأزرق ، وعن المروج الباردة الموحشة التى كانت جماعات المتبربرين العرأة تطارد فوقها غزلان الغابات .

تلك كانت حال الحدود الرومانية ، وتلك كانت مبادئ السياسة الإمبراطورية ، منذ موت أوغسطس حتى اعتلاء تراجان العرش . وتلقى هذا الأمير الفاضل النشيط تعليما عسكريا ، وتجلت فيه صفات القائد . وقطعت مشاهد الحرب والغزو أسلوب السلام الذى انتهجه أسلافه ، وأبضرت القوات بالإمبراطور العسكري على رأسها بعد سكون طويل الأمد . ووجهت أول أعمال تراجان الباهرة ضد الداشيين Dacians ، وهم محاربون أشداء كانوا يقطنون فيما وراء الدانوب ، نالوا من هيبة روما ، وجرحوا كبرياءها فى عهد دوميتيان دون أن يلقوا جزاءهم ، وقد جمعوا إلى قوة المتبربرين ووحشيتهم ، احتقارا للحياة نابعا من اقتناعهم الشديد بخلود الأرواح وتناسخها . وارتضى ديكيبالوس Decebalus ملك داشيا أن يكون خصما جديرا بتراجان ، كما لم يتطرق إلى نفسه اليأس من حظه هو أو حظ شعبه عامة ، حتى استنفد — باعتراف أعدائه — كل موارد من البسالة والسياسة . واستمرت هذه الحرب المشهودة خمس سنوات ، مع توقف قصير جرت خلاله بعض المناوشات . ولما كان الإمبراطور يستطيع دون رقابة أن يستغل كل إمكانات الدولة ، فقد انتهت هذه الحرب بخضوع المتبربرين خضوعا تاما . وكانت ولاية داشيا الجديدة هى الاستثناء الثانى من وصية أوغسطس وناموسه . وكان محيطها يبلغ نحو ١٣٠٠ ميل . وكانت حدودها الطبيعية هى نهر الدنيستر ، والثيس ، والدانوب الأدنى ، والبحر الأسود . وما تزال بعض آثار الطريق الحربى باقية يمكن تتبعها من ضفاف الدانوب إلى أرباض بندر Bender — وهو مكان مشهور فى التاريخ الحديث — وهو الحد الفعلى للإمبراطوريتين التركية والروسية .

وكان تراجان يطمع فى الشهرة ، وطالما داب البشر على المبالغة فى التحليل لحظيه أكثر منه للمحسنين اليه ، فسيظل القمصان إلى المجد العسكري سيئة أعظم الشخصيات المجدة ، ولقد أذكى نار الغيرة الخطيرة فى قلب تراجان ما رده الشعراء والمؤرخون على مر الزمان

من مديح الاسكندر والثناء عليه . وحذا امبراطور الرومان حذو الاسكندر ، فأنفذ حملة الى أمم الشرق ، ولكن ذهبت نفسه حشرات على أن تقدمه في العمر لا يكاد يدع له فسحة من الأمل في أن يضارع ابن فيليب ( الاسكندر ) في شهرته . على أن نجاح تراجان ، مهما كان عابراً ، فإنه كان كذلك سريعاً لا يدل مظهره على مخبره . فان البارثيين المنحطين الذين حطمهم النزاع الداخلي ولوا الادبار أمام قواته . وأخذ تراجان طريق دجلة من جبال أرمينيا الى الخليج الفارسي ( خليج العرب ) وحظي بشرف كونه أول قائد روماني — وآخر قائد روماني كذلك — يمخر عباب هذا البحر السحيق ، نهبت أساطيله شواطئ بلاد العرب ، وعبنا زين تراجان لنفسه أنه كان يقترب من حدود الهند . وكان السناتو المذهول يتلقى كل يوم أبناء عن أسماء جديدة وأمم جديدة اعترفت بسلطانه عليها . كما ترامت اليهم الأنبياء بان ملوك البسفور وكولكيس Colchis وأيبيريا والباينا وأسرهين Osraene ، وحتى ملك بارثيا نفسه ، وارتضوا أن يتسلموا تياجانهم وعروشهم من يد الامبراطور ، وأن القبائل المستقلة في تلال ميديا وكردوش توسلت اليه لبيسط حمايته عليها ، وأن البلاد الغنية : أرمينيا ، وما بين النهرين ( ميزوبوتاميا ) وأشور قد أصبحت ولايات تابعة له ، ولكن ، سرعان ما أفتتت هذه الصورة الرائعة بموت تراجان ، وكان حقا توجس الخيفة من انتقاص كثير من الأمم البعيدة وخلصها هذا النير الذي لم تألفه ، بعد أن تراخت قبضة اليد القوية التي فرضته حول الرقاب .

وتقول اسطورة قديمة انه حين أسس أحد ملوك الرومان الكابيتول فان الاله ترمينوس Terminus ( الذي رابط على راس الحدود ، وكان يمثله طبقا لأسلوب ذاك الزمان حجر كبير ) هذا الاله وحده — دون الآلهة التي هي أقل شأنًا — هو الذي كان يرفض التخلي عن مكانه للاله جوبيتر نفسه . وقد اتخذ من عناد ترمينوس دليل مقبول فسرته العرافون على أنه نبوءة أكيدة بأن حدود سلطان الرومان لن تتقلص قط ، وكانت النبوءة على مر العصور تسبم في مدى تحققها هي نفسها ، كما هي العسادة . ولكن الاله ترمينوس الذي قاوم عظمة جوبيتر استسلم لسلطان الامبراطور هادريان . وكان أول مظاهر عهده التخلي عن كل فتوحات تراجان في الشرق . فأعاد الى بارثيا حق اختيار ملك مستقل ، وسحب الحاميات الرومانية من ولايات أرمينيا وميزوبوتاميا وأشور . وتمشييا مع تاموس أوغسطس ، جعل الفرات مرة أخرى حدا للامبراطورية .

ومن ثم ضاعت في زوايا النسيان لهجات ايطاليا القديمة ، مثل لهجة السابين Sabine (قبائل سكنت جبال الابنين في وسط ايطاليا) ، ولهجة اتروريا ، ولهجة فينيسيا ، ولكن الولايات كانت في الشرق اقل منها في الغرب تقبلا لتوجيه معلمهم الظافرين . وكشف هذا الفارق البارز بين شطرى الامبراطورية عن تباين في الالوان كان مختلفا نوعا ما في ذروة الازدهار ، ولكنه تكشف واستبان مع الأيام حين بدأ الليل يسدل أستار الظلام على دنيا الرومان . لقد بعثت الحضارة في أقطار الغرب على أيدي من أخضعوها ، وما أن أخذ المتبربرون الى الطاعة حتى تفتحت أذهانهم لكل طارق من الوان المعرفة والتهديب ، وعمت لغة فرجيل وشيشرون ، مع شيء من خليط لا مفر منه ، افريقياسا واسبانيا والغال وبريطانيا وبانونيا Pannonia ( ولاية رومانية قديمة كانت تقع بين نهري الدانوب والساف ) الى حد أن الآثار الباهتة لمصطلحات اللغتين البونية ( الفينيقية ) والكلتية لم يعد لها وجود الا في الجبال أو بين الفلاحين . وكان للتعليم والدراسة فعلاهما في استلهم أهل تلك البلاد لمشاعر الرومان وعواطفهم دون أن يحسوا . وعملت روما على تكيف أهل الولايات اللاتينية وتشكيلهم ، كما زودتهم بالقوانين . ولشد ما هفت نفوسهم الى الحرية والى امجاد الدولة ، وما كان أيسرها منالا لهم ! . وعززوا الكرامة الوطنية بالكلية وبالسلاح ، وأخيرا صنعوا من شخص تراجان امبراطورا لم يكن آل اسكيو Scipios ليتخلوا عنه لو احد من أبناء جلدتهم . وكان موقف الاغريق يختلف عن موقف المتبربرين . فلقد طال عهد الأولين بالمدنية وبالفساد . وكان بهم ميل شديد الى هجر لغتهم ، ولكن الفرور استبد بهم الى حد العزوف عن اقتباس أية نظم اجنبية . واحتفظوا بما كان يملك أسلافهم من روح التحيز بعد أن فقدوا فضائلهم ، ومن ثم تصنعوا احتقار ما كان للرومان الفاتحين من سلوك خشن غير مصقول ، على حين اضطروا الى احترام قوتهم وحكمتهم السامية ( ١ ) . وكذلك لم تكن العواطف واللغة اليونانية محصورة في النطاق الضيق لهذا البلد الذى ذاعت يوما شهرته . ذلك أن امبراطوريتهم — اليونان — امتدت عن طريق المستعمرات والفتوح من الأدرياتيك الى الفرات والى النيل ، وامتألت آسيا بالمدن اليونانية . وأحدث الحكم المقدونى الطويل في سوريا ومصر انقلابا صامتا ، ولقد

(١) ليس هناك ، فيما اعتقد ، من ديونيسيوس Dionysus الى ايبانيوس Libanius واحد من النقاد اليونانيين ذكر فرجيل أو موراس . وكانى بهم يجهلون أن بين الرومان كتابا كبارا .

واتجه اللوم الذي ينصب عادة على الأعمال العامة والبواعث الخاصة للحكام ، اتجه الى أن يرجع الى الشعور بالحققد تصرفا كان يمكن نسبه الى حزم هادريان واعتداله ، وكانت شخصية هادريان متعددة الجوانب ، فهو قدير ، تنقلب عليه نوبات من أحط المشاعر وأثبلها ، الأمر الذي يفسر الشك نوعا ما ، ومهما يكن من أمر ، فإنه ما كان في مكنته أن يبرز تفوق سلفه بشيء أكثر من اعترافه بأنه غير أهل لهيمة الدفاع عن فتوح تراجان .

ان روح تراجان العسكرية الطموحة لتشكل تباينا فريدا مع اعتدال خلفه . على أن النشاط القلق عند هادريان لم يكن أقل اعتبارا اذا قيس بالسكون الهادىء عند أنطونينوس بيوس ، وتكساد حياة الأول تكون رحلة متواصلة ، وطالما أوتى مواهب الجندى ورجل الدولة ، والرجل العالم ، فقد أشبع فضوله وحبه للاستطلاع في النهوض بأعباء واجبه . وما كان ليأبسه بالاختلاف بين الفصول والأجواء ، فمشى على قدميه عارى الرأس فوق ثلوج كاليدونيا ، والسهول اللافحة في صعيد مصر ، ولم تنب في الامبراطورية طوال حكمه ولاية لم تحظ بشرف قدوم الامبراطور اليها ، على حين قضى أنطونينوس بيوس حياته الناعمة في أحضان ايطاليا . وفي السنوات الثلاث والعشرين التى قضاهما في ادارة البلاد ، لم تطل رحلة هذا الأمير المحبوب لأكثر من المسافة بين قصره في روما وبين فيلا لانوفيا حيث يستريح ويستروح .

ورغم هذا الاختلاف في سلوكهم الشخصى ، انتهج هادريان والامبراطوران الانطونينيان ، بنفس القدر ، الأسلوب العام لأوغسطس ، وأتبعوه حذو النعل بالنعل ، فاستمسكوا بخطة المحافظة على هيبة الامبراطورية وكرامتها دون محاولة منهم لتوسيع حدودها . فتذرعوا بكل وسيلة شريفة لمصادقة المتبريرين ، وحاولوا اقناع بنى الانسان بأن القوة الرومانية تتسامى على شهوة الفتح ، وأنها لا تعمل الا حبا في اقرار النظام والعدالة . وكللت أعمالهم الفاضلة بالنجاح طوال فترة طويلة امتدت الى ثلاثة وأربعين عاما . واذا استثنينا بعض المناوشات البسيطة التى افادت في تهرين فرق الحدود ، فان حكم هادريان وأنطونينوس بيوس يقدم صورة جميلة للسلام العالمى . وأصبح اسم الرومان موضع اجلال واحترام لدى أبعد أهم الأرض . وكثيرا ما بسط أشد المتبريرين وهشية خلافاتهم للامبراطور لتحكيمه فيها . ونبئنا مؤرخ معاصر أنه رأى سفراء يتوسلون للترخيص لهم في أن يكون لهم شرف المواطنة ، فلم يسمح لهم بهذا الشرف .

## فكرة عامة عن الامبراطورية الرومانية (★)

ان هذا الثبت الطويل من الولايات التي تكون من فئاتها كثير من الممالك القوية ، غالبا ما يحملنا على أن نغفر للأقديين غرورهم أو جهلهم . ولقد سمح الأباطرة لأنفسهم - وقد بهر أبصارهم اتساع النفوذ ، والقوة الجبارة ، والاعتدال الحقيقي أو المصطنع - أن يحتقروا أو ينسوا أحيانا تلك الأقطار النائية التي تركت لتتمتع باستقلال همجي . ثم انهم ، شيئا فشيئا ، اغتصبوا الحق في الخلط بين الملكية الرومانية والكرة الأرضية جمعاء . ولكن فطرة المؤرخ الحديث وعلمه معاً يتطلبان لغة أدق وأرشد . فقد يرسم لعظمة روما صورة أعدل ، فيقول ان الامبراطورية كانت تبلغ أكثر من ألفي ميل عرضا ، من سور أنطونينوس والحدود الشمالية لداشيا الى جبال أطلس ومدار السرطان ، وانها امتدت طولا لأكثر من ثلاثة آلاف ميل ، من المحيط الأطلسي الى الفرات ، وانها كانت واقعة في أجمل بقاع المنطقة المعتدلة، بين خطي عرض ٢٤ و ٥٦ من خطوط العرض الشمالية ، وانها كانت تضم مساحة قدرها مليون وستمائة ألف ميل مربع ، معظمها أرض خصبة يكسوها احسن الزرع .

(★) حذف الكلام هنا عن القوات المسلحة والولايات .

## الفصل الثانى

( ٩٨ - ١٨٠ م )

### الاتحاد والازدهار الداخلى فى الامبراطورية الرومانية

#### الولايات والآثار ، تحسين الزراعة

ليس لنا ان نقيس عظمة روما بسرعة الفتوح ومدى اتساعها فقط ، فان ملك الصحراء الروسية يسيطر على جزء من الكرة الأرضية أكبر من الامبراطورية الرومانية ، كما أن الاسكندر اقام فى الصيف السابع من عبوره مضيق الدردنيل ، النصب التذكارية على ضفاف عيفاسس Hyphasis فى مقدونيا . وفى أقل من قرن شن جنكيزخان الجبار وأمراء المغول من بنى جلده هجماتهم العنيفة الكاسحة المدمرة وأقاموا امبراطوريتهم العابرة من بحر الصين الى حدود مصر وألمانيا . ولكن حكمة العصور هى التى رفعت قواعد الصرح الثابت للقوة الرومانية ، وهى التى حافظت عليه . فقد وحدت القوانين بين الولايات الطبيعية على عهد تراجان والأنطونيين ، كما ازدهرت فيها الفنون ، وربما عانت الولايات أحيانا من استغلال غير نزيه للسلطة المخولة لبعض حكامها ، ولكن المبدأ العام للحكومة كان مبدأ حكيما بسيطا خيرا ، ولقد تمتعوا بممارسة دين أسلافهم ، على حين أنهم بالنسبة للوان التكريم والمزايا المدنية كانوا يتمتعون بمراتب ودرجات عادلة ، الى حد التساوى مع الغزاة الفاتحين .

١ - كانت سياسة الأباطرة والسناطو فيما يتعلق بالدين تظاهر فى ارتياح تام ، سواء بسواء ، آراء المستثيرين وعادات ذوى الخرافات من الرعايا ، تلك التى كانت جزءا لا يتجزأ من حياتهم . واعتبر الناس فى دنيا الرومان أن مختلف الوان العبادة صادقة حققة على قدم المساواة ، كما اعتبرها الفلاسفة باطلة كاذبة على قدم المساواة كذلك ،

كما تساوت جميعها في أعين الحكام على أنها مقيدة . ومن ثم لم يؤد هذا التسامح الى السماح المتبادلة فحسب ، بل الى وثام ديني كذلك .

ولم تكن ثمة أخلاط من ضغائن أو حزازات لاهوتية تنفص دنيا الخرافة ( العقائدية ) عند الشعب ، كما أنه لم تصد منها أية قيود يفرضها أى أسلوب من أساليب التأمل . وكان المشرك الورع يسلم بكل أديان العالم عن اعتقاد راسخ ، رغم التزامه الشديد بشعائره وطقوسه الوطنية الخاصة . وكان الخوف وعرفان الجميل والفضول ، والحلم أو الفأل ، والاضطراب الشاذ أو الرحلة البعيدة ، كل أولئك كان يحمله على الاكثار من أصول عقيدته والاستزادة من عدد حماته ( معبوداته ) . وكان النسيج الرفيع للميثولوجيا الوثنية منسجراً ببواد مختلفة ولكنها غير متنافرة ، ولما أساغوا القول بأن الحكماء والأبطال الذين عاشوا أو قضوا نحبهم في سبيل مصلحة بلادهم قد سمو الى مرتبة القوة والخلود ، ساد الاعتراف بأنهم جديرون على الأقل باحترام الجنس البشرى واجلاله ، ان لم يكونوا جديرين بالعبادة . وكان كل اله من آلهة الآلاف من الغابات والأنهار يحتفظ في هدوء بنفوذه المحلي الخاص به . فلم يكن الروماني الذي يستعبد من غضب الثيبير ، يستطيع أن يسخر من المصري الذي يقدم الثريان للنيل لعبقريته الخيرة . وكانت القوى المرئية للطبيعة والكواكب والعناصر هي هي نفسها في أنحاء الكون بأسره ، أما حكام دنيا الأخلاق غير المرئيين فقد صبوا بالضرورة في قوالب متشابهة من الخيال والمجاز . وكانت كل فضيلة ، بل قل وكل رذيلة ، تتطلب ممثلاً الهيا لها ، كما تطلب كل فن وكل حرفة حامياً وراعياً ، وقد اشتقت منذ أقدم العصور خصائصهم وصفاتهم جميعاً ، على نسق واحد ، من أخلاق المتعلقين بهم . ومثل هذه الجمهورية من الآلهة المتعارضين في الأمزجة والطباع والمصالح كانت تتطلب ، بكل الوسائل ، يدا ملطفة لحاكم أعلى أسبغ عليه بالتدريج ، وتبعاً لتقدم المعرفة والتمنن في التملق ، الكمال الفائق لأب أزلى وملك على كل شيء قدير . تلك كانت روح الاعتدال في العصر القديم ، حتى ان الأمم آنذاك كانت أقل التفاتاً الى وجوه الخلاف ، منها الى وجوه الشبه ، بين عباداتها الدينية . ولقد سهل على الاغريق والرومان والمتبربرين — عندما كانوا يقفون — كل أمام مذبحه الخاص — ان يقنعوا انفسهم بأنهم جميعاً يعبدون نفس الآلهة ، وان تعددت الأسماء والطقوس ، وقد أضفت أساطير هوميروس الطريفة على تعدد الآلهة في العالم القديم شكلاً جميلاً يكاد يكون قياسياً .

ولقد استنيط فلاسفة اليونان أخلاقياتهم من طبيعة الانسان أكثر منها من طبيعة الله . انهم ، على أية حال ، تأملوا طويلا في الطبيعة الالهية بوصفها موضوعا للتأمل بالغ الغرابة والاهمية ، كما انهم في استقصائهم العميق عرّضوا لمواطن القوة والضعف في ادراك الانسان . ومن بين المدارس الأربعة المشهورة ، حاول الرواقيون والأفلاطونيون أن يوائموا بين المصالح المتنافرة للعقل والتقوى ، وقد خلفوا لنا أروع البراهين على وجود « العلة الأولى » وضروب الكمال فيها . ولكن لما استحال عليهم ادراك خلق المادة ، بات « الصانع » في فلسفة الرواقيين غير متميز الى حد كاف عن الصنعة ، على حين أنه على النقيض من ذلك ، كان « الاله الروحي » عند أفلاطون وتلاميذه ، فكرة أكثر منه مادة . أما الأكاديميون ( النظريون ) والأبيقوريون فان المسحة الدينية في آرائهم كانت أقل ، ولكن في الوقت الذي فيه حمل الأولين علمهم المتواضع على الشك في وجود « العناية الالهية في حكم أعلى » ، حرض الآخرين جهلهم الأكيد على انكار ذلك . وأدت روح الاستقصاء - وقد أفكتها المنافسة والتفاخر ودعمتها الحرية - الى انقسام أساتذة الفلسفة الى تشكيلة من الفرق المتنازعة . ولكن الشيباب الذكي الذين نزحوا الى أثينا وإلى مراكز الدراسة في الإمبراطورية الرومانية ، لقنوا جميعا في كل مدرسة أن ينكروا ويزدورا دينانة علامة الناس . قل لي بريك كيف كان يمكن أن يتقبل فيلسوف قصص الشعراء التافه أو التقاليد القديمة المفككة المتنافرة على أنها حقائق الهية ، أو يعبد ، على أنها آلهة ، هذه الكائنات الناقصة المعيبة التي احتقرها على أنها رجال ؟ ولقد ارتضى شيشرون أن يشرع سلاح العقل والبيان ضد هؤلاء الخصوم الذين لا قيمة لهم . ولكن هجاء لوثيان كان سلاحا أكثر ملاءمة ومضاء في وقت معا . ومن المؤكد أن أي كاتب مطلع على العالم ما كان ليجرؤ على تعريض آلهة بلده للتسفيه العام ، الا اذا كان الآلهة انفسهم موضع زراية خفية بين الطبقات المهذبة المستنيرة في المجتمع .

وكانت مصالح الكهنة وسلامة نوايا الناس وسرعة تصديقتهم موضع الاحترام ، رغم ما كان سائدا من الكفر وعدم التدين على عهد الأنطونيين . فقد أكد الفلاسفة القدامى في كتاباتهم ومحادثاتهم المقام المستقل للعقل ، ولكنهم لبوا في تصرفاتهم داعى القانون والعرف . وفي ابتسامة تنم عن الاشفاق والتعاضى عن مختلف أخطاء الرعاع ، نشطوا في تادية طقوس آبائهم ، وعكفوا في تقى وورع في معابد الآلهة ، بل لقد ارتضوا أحيانا أن يمثّلوا دورا على مسرح الخرافة . وكانى بهم ،



في هذا كله أخفوا مشاعر الاحاد تحت رداء الكهنوت . ولا يكاد يميل من يتطبعون بهذا الطبع الى المحاجة في صنوف معتقداتهم أو عباداتهم الخاصة بهم ، ولم يكونوا يكثرثون ، بل كان يستوى عندهم أى شكل من الحماسة يأخذ الجمهور انفسهم به ، ومن ثم تصدوا — مع ما يخفون في انفسهم من احتقار ، ما يبدون في الظاهر من اجلال — قصدوا الى هذبح الاله جوبيتر في ليبيا أو في أولمبيا أو في الكابيتول في روما .

وليس من اليسير أن ندرك لماذا برزت روح الاضطهاد في المجالس العامة الرومانية ، وماذا كانت بواعثها . وما كان التعصب الاعمى ، مهبا كان مخلصا ، ليستفز الحكام ، لانهم كانوا هم انفسهم فلاسفة ، كما أن مدارس الفكر في اثينا زودت السناتو بالقوانين . وما كان الطموح أو الجشع ليسوقهم الى شيء ، لأن السلطتين الزمنية والدينية كانتا متحدثين في قيضة واحدة . وكان الاحبار يختارون من بين الممتازين من أعضاء السناتو ، أما منصب الحبر الأعظم فإن الإباطرة انفسهم كانوا يشغلونه . ولقد عرفوا وقدروا مزايا الدين بوصفه متصلا بالحكومة المدنية ، وشجعوا الاحتفالات العامة التي تصقل الشعب وتهذب خلقه ، وأخذوا بأنماط الكهانة والعرافة بوصفها أداة مناسبة من أدوات السياسة . ونظروا بعين التقدير والاحترام ، وكأنه أوثق رباط في المجتمع ، الى ما وقر في الأذهان من اعتقاد يقيني نافع بأن آلهة الانتقام ستعاقب جريمة شهادة الزور أو الحنث في اليمين ، أن عابجا أو آجلا ، في الحياة الدنيا أو في الحياة الثانية . ولكننا نجد أنهم بينما سلموا بالمزايا العامة للدين ، اقتنعوا كذلك بأن مختلف أشكال العبادة إنما تعاون بنفس القدر على تحقيق نفس الأغراض السليمة . وأن لون الخرافة الذي أجازره واقصره الزمن والاختيار في كل بلد ، هو أحسن ما يصلح للمناخ والسكان فيه . وكثيرا ما سلب الجشع والتدوق الأمم المقهورة التماثيل الرشيقة لألهتها والزخارف الثمينة لمعابدها . ولكنهم في ممارسة الديانة التي أخذوها عن أسلافهم ، نعموا دواما بتسامح الفاتحين من الرومان بل وبحمايتهم . ويبدو أن ولاية الفال — والواقع أنها تبدو فقط — هي الوحيدة التي شذت عن قاعدة التسامح العام الشامل هذا ، ذلك أن الامبراطورين تيبيريوس وكلوديوس قمعوا من السلطان الرهيب الذي كان لطائفة الدردو Druids ( ديانة الكلت في فرنسا وبريطانيا وايرلندا قديما ) بحجة زائفة هي ابطال تقديم القرابين من البشر . ولكن الكهنة انفسهم وآلهتهم ومذابحهم عاشوا في غموض وخفاء وهدوء حتى قضى على الوثنية قضاء نهائيا .

وزخريت روما ، عاصمة الملكة العظيمة ، دوما بالرعايا والغريباء من كل أرجاء العالم ، الذين كانوا ينعمون فيها ويدخلون اليها خرافاتهم المحببة اليهم في أوطانهم . وكان لكل مدينة في الامبراطورية حق المحافظة على نقاوة احتفالاتها القديمة وأصالتها ، وكان السناتو الرومانى ، بما له من حق عام ، يعترض في بعض الأحيان ليحول دون طفيان الطقوس الأجنبية . وطالما حرمت الخرافات المصرية ، من بين أدنا الخرافات وأجدرها بالزراية ، كما هدمت معابد سيرابيس Serapis ( اله العالم السفلى ) وايزيس ، وأبعد عبادهما عن روما وايطاليا . ولكن حماس التعصب تغلب على الجهود الفاترة الهزيلة للسياسة ، فعاد المنفيون ، كما تضاعف عدد المريدين ، وأعيدت المعابد أكثر ضخامة وفخامة ، وتبوا سيرابيس وايزيس في النهاية مكانهما بين الآلهة الرومانية . ولم يكن هذا التساهل خروجاً على سنن الحكم القديم ، فكم دعيت سيبييل Cybele الهة الطبيعة ( واسكولابوس Aesculapius ( اله الطب والشفاء ) في أزهى عصور الجمهورية ، عن طريق بعثات وقورة . وكان من المؤلف اغراء حماة المدن المحاصرة بالوعد بأن يختصوا بألوان من التكريم أفضل مما في بلادهم ، وأصبحت روما يوماً بعد يوم المعبد المشترك لرعاياها جميعاً ، وأسبغت حرية المدينة على كل آلهة الجنس البشرى .

٢ - ان النظرة الضيقة لسياسة الاحتفاظ بنقاوة دم المواطنين القدامى دون أن يشوبه أى دم أجنبى ، عوقبت أثينا واسبرطة ، وعجلت بفنائهما . ولكن العبقرية المتطلعة في روما ضحت بالفور في سبيل الطموح ، وقدرت أنه من دواعى الكياسة والحزم والشرف معا أن تقتبس الفضيلة والموهبة حيثما وجدتا : بين الرقيق أو الغريباء أو الأعداء أو المتبريرين على حد سواء . ولقد تناقص عدد المواطنين يوماً بعد يوم في أبهى عصور الجمهورية في أثينا من ثلاثين الى واحد وعشرين ألفاً . وعلى النقيض من ذلك ، نجد - اذا درسنا نمو الجمهورية الرومانية - أنه على الرغم من مطالب المستعمرات والحروب التى لا تنقطع ، لم يزد عدد المواطنين طبقاً للاحصاء الأول الذى أجراه سرفيوس توليس Servius Tullus ، عن ثلاثة وثمانين ألفاً ، ثم تضاعف قبل بداية الحرب الاجتماعية ، الى أربعمائة وثلاثة وستين ألفاً من الرجال القادرين على حمل السلاح في خدمة بلدهم . ولما طالب حلفاء روما بنصيب متساو في التكريم والامتيازات ، آثر السناتسو في الواقع فرصة التسلح على مجرد التنازل المذل ، ودفع السامانيون Samnites واللوكانيون Lucanians لتهورهم واندفاعهم ثمناً باهظاً ، أما سائر

الولايات الإيطالية ، وقد عادت الى سابق عهدنا تبعاً ، فقد رخص لها في الدخول الى رحاب الامبراطورية ، وسرعان ما أسهمت في القضاء على الحرية العامة . ان المواطنين ليمارسون سلطات السيادة في الحكومة الديمقراطية ، ولا بد ان يساء استخدام هذه السلطات في البداية ، ثم تضيع فيما بعد ، اذا وضعت في يد جمهور لا يحسن استعمالها . ولما عطلت سياسة الأباطرة المجالس الشعبية بتوليهم هم أنفسهم زمام الحكم ، لم يكن الفزاة القاهرون يتميزون عن القهورين الا بأن لهم الصدارة وانهم أشرف الرعايا ، لم يعد تكاثرهم ، مهما كان سريعاً ، معرضاً لنفس الأخطار . على أن أوفر الأبراء عقلاً ، أولئك الذين ترسموا خطى أوغسطس ومبادئه ، وجهوا أشد العناية الى المحافظة على كرامة روما وحسن سمعتها ، ونشروا « حرية المدينة » بروح من التحرر تتسم بالحزم والكياسة .

وامتدت امتيازات الرومان على مر الأيام لتشمل كل سكان الامبراطورية ، ولكن فارقاً هاماً استمر قائماً بين ايطاليا والولايات ، ذلك أن الأولى — ايطاليا — اعتبرت نواة الوحدة العامة ومركزها ، والدعامة الراسخة للدستور ، وقالت ايطاليا انها مولد الأباطرة ، أو انها على الأقل مقر الأباطرة والسناو . وكانت ضياع الايطاليين معفاة من الضرائب ، كما كانوا هم أنفسهم معفين من السلطة التفسيرية للحكام . وكانت الهيئات البلدية — وهي مشكلة أحسن تشكيل على نسق ما في العاصمة — مخولة حق تنفيذ القوانين ، تحت الاشراف المباشر للسلطة العليا . وكان كل أهالي ايطاليا ، من سفوح الالب الى آخر حدود كالابريا ، يعتبرون من مواطني روما ومواليدها . فالفيت الفوارق الجزئية بينهم ، والتأمو ، بطريقة غير ملموسة ، بالأمة الكبرى التي وحدتها اللغة والسلوك والنظم المدنية ، والتي تعدل في ثقلها امبراطورية قوية ، وتالق مجد الامبراطورية في كرم سياستها ، وكثيراً ما لقيت خير الجزاء في مواهب وفي خدمات هؤلاء الذين اتخذت منهم أولاداً لها . ولو انها استمرت على حبس امتياز الفرد الروماني وجعله وقفاً على الأسرات القديمة داخل جدران المدينة ، لحرم الاسم الخالد من شيء من أبهى زينته وأثمن حليته . الم يكن الشاعر فرجيل Virgil من أهالي مانتوا Mantua ( مدينة في شمال ايطاليا ) ، الم يكن هوراس يميل الى الشك في أنه يجب أن يكون من أهل أبوليسا أو من أهل لركانيا . ولقد وجد في بادوا نفسها مؤرخ جدير بأن يسجل السلسلة الرائعة الجليلية من انتصارات الرومان . ونزحت أسرة كاتو التي اشتهر أفرادها بالوطنية من تسكول

Tusculum وكان مدينة أربينوم Arpinum الصغيرة فخر مزدوج في انجاب ماريوس وشيرون ، وقد اعتبر أولهما ثالث مؤسسي روما بعد روميلوس Romulus وكاميلس Camillus ، أما الثاني فانه ، بعد انقاز بلده من مشروعات كاتلين Catiline . ( أحد القتل في القرن الأول ق.م. ) ، مكن لها من أن تنازع أثينا على عرش الفصاحة والبيستان . . .

### الولايات

وكانت ولايات الامبراطورية ( كما أسلفنا وصفها في الفصل السابق ) خالية من أية قوات عامة ، ومن أية حريات دستورية . فان السناتو عنى أول ما عنى ، في اتروريا ( مملكة قديمة الى الغرب من وسط ايطاليا ) واليونان والغال ( فرنسا ) - عنى بأن يحطم هذه البلاد الموحدة الخطيرة التي علمت الانسان أن الأسلحة الرومانية يمكن مقاومتها بالاتحاد ، بعد أن انتصرت وسادت بالفرقة والانقسام . ولقد قدر لبعض الأمراء - نتيجة التظاهر بمرقان الجميل أو بالكرم - أن يمسكوا بصولجان الملك مزمعا في أيديهم بعض الوقت ، وسرعان ما طردوا عن عروشهم بعد أن ادوا مهمتهم المقررة ، الا وهى تهيئة الأمم المغلوبة للنير الرومانى . وكوفئت الولايات والمدن الحرة التي ظاهرت روما بتحالف اسمى ، ثم أغرقت دون أن تدرى في خضم العبودية . وكان وزراء السناتو ووزراء الامبراطور يمارسون السلطات العامة في كل مكان ، وكانت هذه السلطات مطلقة لا رقيب عليها ولا ضابط لها . ولكن الأساليب الحكومية الناجمة التي وفرت السلام والطاعة في ايطاليا - امتدت الى الفتوحات النائية . فتكونت في الولايات شيئا فشيئا أمة الرومان بوسيلة مزدوجة : تكوين المستعمرات ، واسباغ حرية روما ( الرعوية الرومانية ) على أكثر أهل الولايات اخلاصا وامتيازاً وجدارة .

وقد أكدت التجربة والتاريخ تلك الملاحظة الصائبة التي ادلى بها سنكا الحكيم حيث قال « حيثما غزا الرومانى أقام » . وكان أهل ايطاليا يستخفهم الفرح أو تغريهم المصلحة بالتمتع بشمار النصر . وقد نشير هنا الى أنه بعد أربعين عاماً من اخضاع آسيا ، ذبح ثمانون ألفاً من الرومان في يوم واحد ، تنفيذاً للأوامر الوحشية التي اصدرها مترياداتس ( ملك بلاد بنطس فى آسيا الصغرى فى القرن الأول ق.م. ) وما امثل المنفيون بمحض ارادتهم الا بقصد التجارة

أو الزراعة أو جمع المال عن طريق الالتزام . قلما أقام الأباطرة الفرق العسكرية في الولايات إقامة دائمة عمرت الولايات بعنصر الجنود ، وكان من عادة هؤلاء الجنود القدامى — سواء تلقوا جزاء خدمتهم أرضاً أو مالا — أن يستقروا أو يستوطنوا في الأرض التي قضوا فيها زهرة شبابهم بمجلىين مكرمين . وخصصت أخصب البقاع وأفضل المواقع في مختلف أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة الأجزاء الغربية على الأغلب ، لإنشاء المستعمرات التي كان لبعضها طابع مدنى ، ولبعضها الآخر طابع عسكري . وكانت هذه المستعمرات صورة صادقة لأهلها العظيمة في آداب سلوكها وفي سياستها الداخلية . فلما كرمهم الأهالى بها وثقوا معهم من وشائج الود والتحالف ، نشروا بطريقة فعالة الاحترام لاسم الرومان وأحاطوه بالتبجيل والاحلال وأثاروا رغبة قل أن خابت في المشاركة في أمجاد هذا الاسم ومزاياه ، في الوقت المناسب . وتساوت المدن البلدية ، كذلك بطريقة ملموسة ، مع المستعمرات مرتبة وجلالا ، حتى لقد ثار الجدل في عهد هادريان أى هذه المجتمعات أفضل حالا : أهى تلك التي انبثقت من روما ، أو تلك التي ارتمت في أحضانها ؟ ومنحت بعض المدن حق المواطنة أو الرعوية الرومانية (Right of Latium) فأضفى عليها هذا الحق حظوة خاصة ، واكتسب الحكام فقط ، بعد انتهاء خدمتهم صفة « المواطن الرومانى » . ولكن لما كانت هذه المناصب سنوية ، فقد تداولتها الأسرات الكبيرة في مدى سنوات قليلة ، وكان أبناء الولايات الذين يراخض لهم في حمل السلاح في الفرق العسكرية ، أو في تولى أية وظيفة مدنية ، أو في إيجاز ، كل من أدى خدمة عامة أو أظهر مواهب شخصية — كل أولئك كانوا يجزون مكافأة تناقصت قيمتها بالتدرج نتيجة لتزايد تساهل الأباطرة . على أنه — حتى في عصر الأنطونيين — عندما كانت حرية المدينة تمنح لأكبر عدد من رعاياهم ، ظلت هذه المنحة تقتصر بمزايا حقيقية ثابتة . وحصلت غالبية الناس في ظل هذا اللقب ، على نعماء القوانين الرومانية ، وخاصة هذه المواد الهامة المتعلقة بالزواج والوصية والوراثة . وكان طريق الحظ معبدا مفتوحا أمام أولئك الذين تدعم مزاعمهم الحظوة أو الجدارة . وتولى أحفاد الغالين الذين حاصروا يوليوس قيصر في اليزيا Alesia ، قيادة الفرق العسكرية ، وحكموا الولايات ، ورخص لهم في عضوية السناتو في روما . وبذلك ارتبط طموحهم ارتباطا وثيقا بأمن الدولة وعظمتها ، بدلا من أن يتجه الى تكدير صفو الهدوء فيها ، وبلغ احساس الرومان بأثر اللغة في آداب السلوك القومية حثا بذلوا معه قصارى عنايتهم وجهدهم لنشر استخدام اللغة اللاتينية حيثما تقدمت قواتهم المسلحة ،

جمع هؤلاء الأمراء في بلاطهم الفخم بين أنيقة أثينا وترف الشرق ، وحذت الطبقات العليا من الرعية حذو البلاط مع فارق يسير . وهكذا كان التباين بصفة عامة بين اللغتين اللاتينية واليونانية أو بين من يتحدثون بهما في الإمبراطورية الرومانية ، ويمكن أن نضيف فارقاً آخر ، يميز مجموع الأهالي في سوريا ، ويميز بوجه أخص أهل مصر . فإن بقاءهم على لهجاتهم أو لسانهم القديمة حال بينهم وبين الدخول في علاقات إنسانية عامة . وباء أهل سوريا لطراوتهم ورفقتهم ( لتخنتهم الرقيق ) باحتقار الفزاة الفاتحين ، كما أثار المصريون كراهيتهم لشراستهم وكآبتهم . وقد خضعت هذه الأمم لنير الرومان واستسلمت لقوتهم ، ولكنها لم ترغب يوماً — أو قل أنها لم تكن تستحق — في حرية المدينة ، وقد لوحظ أنه قد انقضى بعد انتهاء حكم البطالمة أكثر من مائتين وثلاثين عاماً قبل السماح لأى مصرى بعضوية السناتو في روما .

وثمة ملاحظة صادقة ولكنها تافهة ، تلك هى أن روما نفسها استسلمت لفسون الإغريق . وسرعان ما أصبح أولئك الكتاب الخالدون — الذين ما فتئوا يستحذون على أعجاب أوربا الحديثة — أصبحوا موضوعاً محبباً للدراسة والمحاكاة في إيطاليا وفي الولايات الغربية . ولكن الرومان لم يكونوا يطبقون أن يتدخل لهوهم الجميل في النهج القويم لسياستهم ، فتراهم يعترفون بمفاتيح اللغة اليونانية ، ولكنهم فى الوقت نفسه يؤكدون مكانة اللغة اللاتينية ويرفعون من شأنها ، مفرض استخدامها استخداماً شاملاً لا هوادة فيه ، في الإدارتين المدنية والعسكرية على حد سواء في الحكومة . وكانت اللغتان كلتاهما في نفس الوقت تمارسان ولايتهما الشرعية كل في نطاقها داخل الإمبراطورية ، فكانت الأولى ، اليونانية ، اللغة الطبيعية للعلم ، والثانية اللغة الرسمية للمعاملات العامة ، أما أولئك الذين جمعوا بين الأدب والعمل فكانوا ملينين بهما بنفس القدر . وكان يكون من المستحيل في أية ولاية أن يكون أحد الرعايا الرومان ممن تلقوا تعليماً متحرراً ، غير ملم بأحدى اللغتين اليونانية واللاتينية .

وعن طريق مثل هذه النظم ذابت أمم الإمبراطورية ، دون أن تحس ، في اسم روما وشعبها ، ولكن تبقى بعد ذلك وسط كل ولاية وكل أسرة بعض حالات تعيسة لأفراد تحملوا أعباء المجتمع دون أن ينعموا بخيراته ، فقد تعرض العبيد المحليون في الولايات الحرة القديمة لأشد الوان الظلم ، وسبق الاستقرار الكامل للإمبراطورية

الرومانية عهد من العنف والسلب والنهب . وكان العبيد هم — في الكثير الغالب — أسرى المتبريرين ، الذين يؤخذون بالآلاف نتيجة للحروب ، ويشترون بثمن بخس ، وقد رأوا أنفسهم وسط حياة تتسم بالاستقلال ، ومن ثم تلهفوا على تحطيم قيودهم وعلى الانتقام من واضعها . وقد يكون في القانون العظيم ، قانون المحافظة على النفس ، ما يبرر أكثر التعليمات تشددا وأقسى المعاملة ضد هؤلاء الأعداء الداخليين الذين قربت ثوراتهم اليائسة المستميتة الجمهورية من حائسة الهاوية أكثر من مرة . فلما دانت الأمم الرئيسية في أوربا وآسيا وأفريقيا للقوانين التي سنها ملك واحد ، أصبح المدد الأجنبي ( من العبيد ) أقل وفرة ، فلجأ الرومان الى أسلوب للتكاثف أكثر اعتدالا ولكنه أكثر مشقة ، وشجعت اسرات كثيرة ، وبخاصة في الريف ، الزواج من عبيدها . وساعدت أحاسيس الطبيعة ، وعادات التعليم واقتناء نوع من الممتلكات غير المستقلة ( المشتركة ) ، ساعد كل أولئك على التخفيف من محنة العبودية . لقد بات وجود العبد أمرا له قيمته العظمى ، وكانت سعادة العبد لا تزال تتوقف على طبع سيده وظروفه ، الا أن السيد لم يعد يكبت شعوره الانساني نتيجة الخوف من أن يقابل العبد الاحسان بالاساءة ، بل أنه شجع هذا الشعور نتيجة الاحساس بمصلحته . وزادت فضائل الأباطرة أو حسن سياستهم من معدل السرعة في ارتقاء العادات والآداب العامة . وامتدت الحماية التي تفرضها القوانين الى أدنى طبقات الناس بفضل مراسيم هادريان والانطونيين . ونزع حق التحكم في حياة العبيد وفي موتهم — وكان هذا قوة طال عهد ممارستها واساءة استعمالها — نقول نزع من الأيدي الخاصة أى من السادة المباشرين ، ووضع في أيدي الحكام وحدهم . وحرم السجن تحت الأرض أو في الأقبية ، حتى اذا تقدمت شكوى صادقة عادلة من سوء المعاملة كان جوابها حصول العبد المظلوم على حريته أو انتقاله الى سيد أقل شسوة .

وما كان باب الأمل موصدا قط في وجه العبد الروماني — وفي التعلق بالأمل أكبر عزاء وسلوى وسط حياته التعسة — فاذا واثته الفرصة ليجعل من نفسه شخصا ناهعا أو مقبولا ، كان من الطبيعي أن يعلل نفسه ، في بضع سنين ، بنعمة الحرية ، وهي نعمة تجل عن التقدير ، جزاء وفاقا لجده واخلاصه ووفائه . وكثيرا ما كانت أدنى بادرة من الفرور والجشع تستهوي السيد الى الاحسان وتثير فيه الأريحية ، الى حد أن القوانين وجدت من الضروري أن تحدد أكثر من أن تشجع السرف وعدم تحرى الدقة في هذا التحرير

الذى قد ينجح الى سوء استغلال خطير . وكان من مبادئ التشريع القديم أن العبد لا ينتهى الى وطن معين ، فإذا ما حصل على حريته حصل معها على رخصة باللاحاق بالمجتمع السياسى الذى ينتهى اليه سيده . وربما أساعت نتائج هذا المبدأ الى امتيازات المدنية الرومانية وجعلتها نهيا مباحا لأخلاق وضيعه من الناس . فوضعت لهذا بعض ضوابط ملائمة بحيث تكون هذه الميزة المشرفة مقصورة على أولئك العبيد الذين يجدر أن يحرروا تحريرا قانونيا مهيبا ، لأسباب عادلة صادقة ، برضا من الحاكم . وحتى هؤلاء العبيد الذين وقع عليهم الاختيار ليعتقوا لم يكونوا ليحصلوا على أكثر من الحقوق الخاصة للمواطنين ، وكانوا محرومين حرمانا صارما من كل الوظائف المدنية والعسكرية . وبهما توفر لأبنائهم ( أبناء العبيد المحررين ) من جدارة أو حظ ، كان ينظر اليهم ( كما كان ينظر الى آبائهم ) على أنهم غير جديرين بمقاعد السناتو . وما كانت بصمات الأصل الوضع ، أو منبت الخضوع والاسترقاق ، لتمحى تماما الا فى الجيل الثالث أو الرابع . وهكذا ، دون القضاء على التمييز بين المراتب ، كانوا يلوحون بصورة بعيدة للحرية والشرف ، حتى الى أولئك الذين يابى عليهم الغرور والتحيز أن يحشروا فى عداد الأنواع البشرية احتقارا لهم وزراية بهم .

واقترح يوما أن يميز العبيد بلباس خاص ، ولكن خيف بحق أن يكون هناك بعض الخطر من تعريف العبيد بعددهم هم أنفسهم . وقد نجرؤ على القول — دون اللجوء الى الحساب الدقيق بأرقام الآلاف وعشرات الآلاف — بأن نسبة العبيد الذين يدخلون فى حساب الحيازة أو الملكية كانت أكثر بكثير من نسبة الخدم الذين كانوا يعتبرون عبئا . وكانت البراعم الناشئة المبشرة تلقن الفنون والعلوم ، وكانت أثمانهم تحدد بقدر مهارتهم ومواهبهم . وكانت كل المهن والحرف — ذهنية أو ميكانيكية — تكاد تكون متوفرة فى معية السناتور الثرى . وتضاعف عدد الحشم بدرجة تفوق مفهوم الترف الحديث ، وانهمكوا فى الشهوات والملذات وأحاطوا أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمية . وكان أدنى الى مصلحة التاجر أو صاحب المصنع أن يشتري عماله من أن يستأجرهم . أما فى الريف فقد كان العبيد يستخدمون فى الزراعة بوصفهم أرخص الآلات وأكثرها عملا . ولتخرب بعض أمثلة منوعة خاصة توكيدا لهذه الاشارة العامة ، ولخضابة عدد العبيد . فقد اكتشف فى مناسبة تدعو الى الأسى والحزن أن قسرا واحدا فى روما كان يضم أربعمائة من العبيد . ومثل هذا



العدد بالضبط كان ملحقا بضيعة تنازلت عنها لابنها أرملة أفريقية كانت لها مكانة عادية جداً ، على حين احتفظت هى لنفسها من ممتلكاتها بنصيب أكبر كثيراً من الضيعة ومن فيها وما فيها . أضف الى ذلك أن عبدا أعقق أيام أوغسطس ، وعانى من الحروب الأهلية أفدح الخسائر ، ولكنه رغم ذلك خلف وراءه ثلاثة آلاف وستمئة من الثيران ، ومائتين وخمسين ألف رأس من صغار الماشية ، ويكاد يندرج تحت وصف هذه الماشية أربعة آلاف ومائة وستة عشر من العبيد .

ولا يتيسر الآن ، الى حد الدقة التى يقتضيه المقام والهدف ، أن نحصى عدد الرعايا الذين اعترفوا بقوانين روما ، سواء فى ذلك المواطنين أو أهل الولايات أو العبيد . وقد قيل ان الامبراطور كلوديوس جين قام بعملية الاحصاء ، قسدر المواطنين الرومان بستة ملايين ومائة وخمسة واربعين ألفا ( ٦١٤٥٠٠٠ ) ويرتفع هذا الرقم الى نحو عشرين مليوناً من الأنفس اذا أدخلنا النساء والأطفال فى الحساب . أما عدد جموع الرعايا ذوى المرتبة الدنيا فكان متقلبا غير مؤكد . ولكن اذا أدخلنا فى حسابنا كل الظروف التى كان لها تأثير فى الميزان لوجدنا انه من المحتمل أن عدد أهل الولايات فى عهد كلوديوس كان ضعف عدد مواطنى روما من الجنسين من كل الأعمار ، وان عدد العبيد كان على الأقل مساويا لعدد السكان الأحرار فى دنيا الرومان . وقد يصل المجموع الكلى لهذا الحساب غير الدقيق الى نحو مائة وعشرين مليوناً من الأنفس ، وهذه درجة من كثافة السكان قد تفوق مثيلتها اليوم فى أوربا الحديثة ، كما انها تشكل أكبر عدد لمجتمع توحد فى ظل أسلوب واحد من الحكم .

وكان الهدوء الداخلى والاتحاد نتيجتين طبيعيتين للسياسة المعتدلة الشاملة التى انتهجها الرومان . فاذا ولينا وجوهنا شطر ممالك آسيا لوجدنا حكما مطلقا فى الوسط وضعفا فى الأطراف البعيدة : فهناك تحصيل الأموال أو ادارة القضاء ، بحكم وجود جيش ، وهناك المتبررون ، وهم اقوام معادون استقروا فى قلب البلاد ، وهناك صغار الطغاة من الحكام الوراثيين الذين كانوا يغتصبون الولايات ( ويحاولون الاستقلال بها ) ، وهناك الرعايا الذين كانوا يميلون الى الثورة والتمرد ولكنهم عاجزون عن الحريسة أو غير أهل لها . ولكن الطاعة فى دنيا الرومان كانت أمرا مطردا اختياريا ثابتا . وودعت الأمم المتهورة — بعد ان انصهرت فى شهب كبير واحد — ودعت الأمل ، ان لم تكن تخلت عن الرغبة — فى استرداد استقلالها ، وقلما اعتبرت

وجودها شيئاً يفترق أو يتميز عن وجود روما . وطوق سلطان  
الاباطرة الوطيد ، دون جهد منهم ، جميع اطراف ممتلكاتهم ، وكانوا  
يمارسونه بنفس القدر من السهولة واليسر على ضفاف التاميز  
والنيل او على ضفاف النيبير . وكان مقدرا أن تعمل الفرق العسكرية  
ضد العدوان المشترك ، وقلما احتاج الحكام المدنيون الى عون عسكري .  
وفي مثل هذه الحالة التي يسود فيها الأمن العام ، كان الأمراء والشعب  
على حد سواء يوجهون فراغهم ورخاءهم وثراءهم معا للنهوض  
بالامبراطورية الرومانية وازدهارها .

### الأثار الرومانية

كم من الأثار التي لا يحصيها العد للعمارة الرومانية لم يسجلها  
التاريخ ؟ وما أقل ما صمد منها لعوادي الزمن وغارات المتبربرين !  
ومهما يكن من أمر ، فان البقايا الرائعة المجيدة التي لا تزال مبعثرة  
هنا وهناك في ايطاليا وفي الولايات ، كافية لأن تثبت أن هذه البلاد  
كانت يوما مقرا لامبراطورية قوية مهذبة . فان جلالها وحده ،  
أو جمالها ، قد يكون جديرا بأن يسترعى انتباهنا ويجذب أنظارنا .  
ولكن يضيف الى أهميتها عاملان هامين يربطان بين التاريخ المألوف  
للفنون وبين التاريخ الذي هو أشد نفعا وهو تاريخ السلوك  
الانسانى . وقد شيد كثير من هذه الأثار بأموال خاصة ، ولكنها  
تكاد تكون كلها قد قصد بها الخير العام .

وطبيعى أن يذهب بنا الظن الى أن الجزء الأكبر من العمارة  
الرومانية وأضحها أقامه الاباطرة الذين كانوا يتحكمون في معين  
من المال والرجال بلا حدود ، وكان من عادة أوغسطس أن يباهى بأنه  
جاء الى عاصمة من الأجر وأنه تركها من الرخام . وكان الإقتصاد  
الدقيق عند فسبازيان Vespasian مصدر عظمته وجلاله ، كما كانت  
أعمال تراجان تحمل طابع عبقريته ، ولم تقم الأثار العامة التي زين  
بها هادريان كل ولاية في الامبراطورية ، بأمر منه فحسب ، بل تحت  
رقابته المباشرة كذلك ، فقد كان هو نفسه فنانا أغرم بالفنون  
لأنها كانت ركيزة لمجد الملك . وكان الأنطونينيون يشجعون الفنون  
لأنها تسهم في اسعاد الشعب . ولكن اذا كان الاباطرة سباقين فنانهم  
لم يكونوا الوحيدين في مضمار العمارة والهندسة في جميع أنحاء  
الامبراطورية . لقد احتذى مثالهم في كل مكان رعاياهم الأصليون

الذين لم يخشوا أن يعلنوا على الملأ أن لهم بصيرة تعى ، ولديهم ثروة تحقق أنبل المنجزات ، وما كاد الكوليزيوم Coliseum الفاخر يهدى روما ، حتى أقيمت على شاكلته ، وان تكن أصغر منه ، في مدينتى كابوا وفيرونا مبان على نفقتهما ومن أجلهما . وتشير الكتابات المنقوشة على جسر ( القنطرة Alcantara ) المقام على نهر التاجه ( في أسبانيا ) ، الى أن بعض جماعات من أهل لوزيتانيا ( في شبه جزيرة أيبيريا ) أسهمت في إقامته . ولما عهد لى بلىنى بحكم ولايتى بيثينية وبنطس Pontus — وما كانتا بأية حال أغنى ولايات الامبراطورية أو أهمها — وجد أن المدن الداخلة في نطاق سلطانه ينافس بعضها بعضا على احراز قصب السبق في الاعمال العامة النافعة وفي تجميل البلاد ، مما ينتزع اعجاب الأجانب ويشير فضولهم ويستحق شكر المواطنين وتقديرهم ، وكان من واجب بلىنى بوصفه حاكم الولاية أن يكمل ما قصرت عنه المدن ، أو يوجه أدواقهم أو يخفف أحيانا من حدة الغيرة فيما بينهم . أما الأثرياء من أعضاء السناتو في روما وفي الولايات ، فكانوا يرون في العمل على بهاء عصرهم وأبهة بلادهم شرفا لهم ، ان لم يكن التزاما عليهم . وكان تأثير الطراز السائد يعوض عن النقص في الذوق أو في السخاء . ويمكن أن نذكر من بين العدد العديد من ذوى الفضل من عامة القوم ، هيرود أتيكس Herodes Atticus وهو مواطن أثينى عاش في عصر الأنطونيين ، ومهما يكن من أمر الباعث على سلوكه أو اعماله ، فان عظمته أو جلال اعماله أمر جدير بأعظم الملوك .

وقد أرجع أصل أسرة هيرود — على الأقل بعد أن استعدها الحظ — الى سيمون Cimon وملتيادس Miltiades ونيسايوس Theseus وسيكربس Cecrops وايكس Aecus وجوبيتر Jupiter ذرية هؤلاء الآلهة والأبطال الكثيرين ترددت فى أسوأ مهارى الخسة والحفارة . من ذلك أن جده وقع بين يدى العدالة ، وان اباه يوليوس أتيكس ، لو أنه لم يكتشف كنزا كبيرا مدفونا تحت جدران بيت عتيق — وهو آخر ما بقى من تراث آبائه — لفضى آخر أيامه معدما محتقرا . وربما كان من الجائز للامبراطور بقوة القانون ، ان يثبت دعواه فى هذا الكنز مستندا الى صرامة القانون ، ولكن أتيكس الحازم تحاشى — باعتراف صريح — فضول المبلغين أو تعرض المتشككين . على ان نرفا العادل ، الذى كان يعتلى العرش آنذاك ، رفض أن يحصل على أى جزء من الكنز ، وأمره ان ينتفع دون تردد بالكنز الذى اهداه اليه الحظ . ولكن الأثينى الحريص ما فتىء مصرا على أن الكنز أكبر من

أن يختص به فرد من الرعية وأنه لا يدري كيف يستخدمه . فقال الملك ، في تبرم رقيق : تصرف فيه كيف شئت ( أسىء استخداميه ) لأنه ملك لك . وقد يكون من رأى كثير من الناس أن أتيكس أطاع آخر تعليمات الامبراطور بنصها حيث انه قد أنفق في الخدمات العامة الجزء الأكبر من ثروته التى زيدت كثيرا نتيجة لزواج رابع . وكان قد حصل لابنه Herod على منصب حاكم المدن الحرة فى آسيا . ولحظ الحاكم الشاب اهبالا وتراخيا فى تزويد مدينة ترواس Troas بالماء . فهز أعطاف هادريان ، وحصل منه على ثلاثة ملايين درهم ( نحو مائة ألف جنيه ) ليحفر قناة جديدة للماء . ولكن تكاليف انجاز هذا العمل جاوزت ضعف ما كان مقدرها لها ، مما أثار تدمير مأمورى الدخل ، الى أن أخرس أتيكس الكريم السنتهم الشاكية بأن التمس أن يرخصوا له فى أن يتعهد هو شخصيا بكل النفقات الاضافية .

ودعى أقدر المعلمين فى أثينا وآسيا للقيام بتعليم هيروود الصغير مقابل مكافآت سخية ، وسرعان ما أصبح تلميذهم خطيبا ذائع الصيت ، طبقا لأساليب البلاغة العقيمة التى سادت فى ذلك العصر ، والتى حصرت نفسها داخل المدارس فترفعت عن الدخول الى السنااتو أو الساحة ( الفورم Forum ) . وعين فى وظيفة القنصل فى روما تكريما له . ولكنه قضى معظم حياته منصرفا الى الفلسفة فى أثينا وفى الريف المجاور ، محوطا دائما بجماعة من السفسطائيين الذين اعترفوا ، على غير كره منهم ، بتفوق المنافس الثرى الكريم . ولقد تلاشت الآثار التى أبدعتها عبقرته ، ولكن هناك اطلالا وخرائب تخلد شهرته وذوقه وكرمه . وقام بعض السائحين الحديثين بقياس يتايا الملعب ( استاد ) الذى شاده فى أثينا للألعاب الأولمبية ، فوجد أنه يبلغ ستمائة قدم طولاً ، وأنه مبنى كله من الرخام الأبيض ، وأنه يتسع للشعب جميعه ، وقد استغرق بناؤه أربع سنوات عندما كان هيروود رئيسا للألعاب فى أثينا . ثم بنى ، تخليدا لذكرى زوجته رجيللا Regilla ، مسرحا لا يكاد يوجد له نظير فى الامبراطورية ، كله من خشب الأرز المحفور أعجب حفر ، ولم يستخدم فى البناء أى نوع آخر من الخشب . وكان الأوديوم Odeum الذى خصصه يريكليز Pericles لعزف الموسيقى وتمثيل الروايات الجديدة شاهدا على انتصار الفنون وتفوقها على عظمة المتبربرين ، ولكن الأخشاب التى استخدمت فى بنائه كانت أصلا من أخشاب سوارى السفن الفارسية . ولقد تهدم هذا البناء القديم ثانية رغم الإصلاحات التى تفضل بها فيه أحد ملوك كبادوكيا Cappadocia ، ولكن هيروود أعاد اليه ما كان

عليه من جمال وجلال . ولم ينحصر كرم هذا المواطن الممتاز بين جدران أثينا . فان أفخم الزخارف التي قام بها في معبد نبتيون في البرزخ ، والمسرح الذي شيده في كورنثه ، والملاعب في دلفى ، والجمام في ترموبيل ، والقناة المائية في كنوزيوم canusium في ايطاليا - نقول ان هذه كلها لم تكن كافية لاستنفاد ثروته . ولكم حظى أهل ألبوروس ، وتاليا ، ويوبيا ، وبوشيا ، والبلوبونيز بجوده وفضله . وثمة نقوش كثيرة في مدن اليونان وآسيا تضىء ، مع الشكر والتقدير ، على هيرود أتيكس لقب الراعى المحسن .

وان بساطة البيوت وتواضعها في جمهوريتى أثينا وروما لتنبىء بأن حالة الحرية كانت متساوية فيهما ، بينما تمثلت سيادة الشعب في المباني الفخمة التي خصصت للنفع العام ، ولكن الروح الجمهورية لم تخمد بتدفق الثروة أو قيام الملكية . لقد تظاهر أفضل الإباطرة وأعفهم بأن يعرضوا عظمتهم وجلال ملكهم في أعمال المجد الوطنى والنفع العام . ولقد أثار قصر نيرون الذهبى سخطاً له ما يبهره ، ولكن رقعة الأرض الشاسعة التي كان قد اغتصبها بحكم ما استأثر به لنفسه من بذخ وترف - نقول ان هذه الأرض قد أقيم عليها في العقود التالية الكوليزيوم وحمامات تيتس ورواق كلوديوس والمعابد التي أهديت لآلهة السلم وعبقرية روما . ولقد زينت وجملت آثار العمارة هذه ، والتي هى ملك للشعب الرومانى ، بأجمل النتاج اليونانى من النقش والرسم والتصوير والنحت ، وكان في معابد السلام مكتبة زاخرة مفتوحة أمام العلماء الباحثين وعلى مقربة من هذه المباني كانت توجد ساحة تراجان ( الفورم ) ، وكانت محوطة برواق شاهق قائم على أعمدة ذوات شكل رباعى ، وله مدخل وجيه غسيح يتكون من أربعة من أقواس النصر ، وفي وسطه عمود من الرخام يعلو الى مائة وعشر من الأقدام ، مما يدل على ارتفاع التل الذى قطع منه البناء . وما يزال هذا العمود يحتفظ بجماله القديم ، ويمثل أدق تمثيل انتصارات داشيا ، تلك التي أحرزها من أقامه .

مقد أمعن الجندى المحنك النظر فى قصة الحملات التي شنها ، ثم ما كان أيسر ، بعد ذلك ، على المواطن المسالم أن يرسم فى خياله صورة لكبرياء الوطن وعظمته يربط بينها وبين أمجاد النصر . ويمثل هذا الشعور النبيل بالابهة العامة دبجت ربوع العاصمة وسائر ولايات الامبراطورية ، وزخرت بالدرجات والمسارح والمعابد والأروقة وأقواس النصر والحمامات وقنوات المياه ، وقد أنجزت

كلها ، بشكل أو بآخر ، من أجل صحة أقل المواطنين شأنًا أو تعبهه أو ممارسة مباحجه ومسرته . ويستحق منا آخر ما ذكرنا من هذه المباني عناية خاصة ، ذلك أن قنوات المياه تعد من أنبل وأعظم آثار عبقرية الرومان وقوتهم ، لما اتسمت به مشروعات هذه القنوات من جرأة ، وما اتسم به انجازها من متانة ، وما نتج عنها من فوائد . وقد تزهو وتتفوق قنوات المياه في العاصمة بحق على مثيلاتها . ولكن من الطبيعي أن يخلص السائح المستطلع عندما يتفحص الأبنية الرومانية في سبوليتو Spoleto ، وفي Metz ، وفي سيجوفيا Segovia يخلص ، دون الرجوع الى التاريخ ، الى أن هذه المدن البلدية كانت قديما مقر ملك قدير . وكانت قفار آسيا وأفريقية يوما مغطاة بالمدن المزدهرة التي استمدت كثافة السكان فيها ، بل حقيقة وجودها ، من هذا المعين الذي لا ينضب من المياه العذبة من هذه الجارى الصناعية للمياه .

قدرنا الآن عدد السكان ، وتأملنا الأشغال العامة في الإمبراطورية الرومانية . وقد يكون في الكلام عن عدد مدن الإمبراطورية وعن عظمتها ما يؤكد عدد السكان ، وما يضاعف من الأشغال العامة . وقد لا يبعث على السلام أن نعرض لبعض أمثلة متصلة بهذا الموضوع ، دون أن ننسى على أية حال أن غرور الأمم وفقير اللغات أديا الى اطلاق اللفظة الغامضة « المدينة » ، دون مبالاة أو تكرات ، على روما وعلى لورنتوم Laurentum .

١ - المقول انه كان في ايطاليا القديمة ١١٩٧ مدينة ، ومهما كان من أمر مساحتها قديما ، فليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن السكان في عصر الأنطونيين كانوا أقل منهم في عهد روميلوس Romulus . لقد كانت امارات لاتيوم الصغيرة Latium داخلة في نطاق عاصمة الإمبراطورية ، روما ، التي جذبت بفضل ما لها من نفوذ سام أنظار هذه الامارات اليها . أما أجزاء ايطاليا التي انحطت ورزحت طويلا تحت نير الطغيان الخامل للكهنة والحكام ( نواب الملك ) فلم يصبها الا بعض كوارث كان من الميسور احتمالها نتيجة للحروب ، وقد عوضتها التحسينات ( الإصلاحات ) السريعة التي ادخلها الغاليون المطلون على الألب تعويضا كافيا ، مما كانت تعاني من النذر الأولى للانهييار . وانه لمن الممكن أن نتعقب عظمة فيرونا فيما بقى بها من آثار ، ومع ذلك كانت فيرونا أقل شهرة من أكويليا أو بادوا أو ميلان أو رافنا .

٢ - وتخطت روح التجسين والاصلاح اجدود الالب ، حتى  
لقد باتت مملوسة في غايات بريطانيا ، التي اجتثت تدريجاً لتفسيح  
المجال للاسكان المريح الأنيق . وكانت يورك مقر الحكومة ، أما لندن  
فقد انتعشت بالتجارة ، أما باث Bath فقد اشتهرت بالفوائد  
الصحية لمياهها المعدنية . كما كان لبلاد الغال أن تزهو تيهها  
بمدنها التي يبلغ عددها مائتين ألفاً . وكان كثير من مدن الشمال  
- بما فيها باريس نفسها - لا يعمدو أن يكون أكبر قليلاً من  
مرافئ صغيرة بدائية متواضعة لشعب ناشئ ، لكن ولايات الجنوب  
كانت تحكى ايطاليا ثروة وأناقاة . والحق أن كثيرا من مدن الغال  
- مرسليليا ، آرل Arles ، نيزم Nism ، ناربون ، تولوز ، بوردو ،  
أوتون ، فيين ، ليون لانجر ، تريف ، لتصمد أمام مقارنة حالتها  
قديما بحالتها الراهنة اليوم ، فتتعادل الكفتان ، وربما رجحت كفة  
الأولى . أما أسبانيا فقد انتعشت أيام كانت مجرد ولاية ، ولكنها  
تدهورت منذ أصبحت مملكة . فقد أرهقتها سوء استغلال سلطانها .  
كما أرهقتها أمريكا ، وأنهكتها الخرافات ، وقد نخدش من كبرياتها  
إذا ففتشنا عن مدنها التي بلغ عددها ثلثمائة وستين مدينة ، كما ذكرها  
بلينى على عهد فسبازيان .

٣ - وكانت هناك في أفريقية ثلثمائة مدينة اعترفت بسيادة  
قرطاجه ، وليس من المرجح أن يكون قد تناقص عددها تحت حكم  
الاباطرة ، فقد صحت قرطاجه نفسها من كبوتها وتالق مجدها من  
جديد ، وسرعان ما استردت هذه العاصمة - مثل ما استردت  
كابوا وكورنثه - كل المزايا التي كان يمكن فصلها عن السيادة  
المستقلة .

٤ - أما ولايات الشرق فانها تبرز الفارق بين عظمة الرومان  
وهمجية الأتراك . ان الخرائب المبعثرة على الأرض غير المزروعة ،  
والمنسوبة جهلا الى قوى السحر - هذه الخرائب لا تكاد تزود  
الفلاحين المظلومين او العرب الرحل ببلجاً او مأوى . وكانت في  
آسيا الأصلية وحدها على عهد القياصرة خمسمائة مدينة مكتظة  
بالسكان ، حبقتها الطبيعة بكل خيراتها ، وازدانت بأروع نتاج  
الفن . ولقد تنافست احدى عشرة مدينة في آسيا على اهداء معبد  
الى الامبراطور تيبيريوس ، فأجرى السناتو مفاضلة بينها ليرى أيها  
أجدر بهذا الشرف ، فتقرر على الفور رفض أربع منها لأنها لا تتكلم  
مع هذا العبد ، وكان من بينها مدينة اللاذقية التي لا تزال خرائبها

نشهد بعظمتها وبهائها . وكانت اللاذنية تجنى دخلا كبيرا من مراعى الضان التي اشتهرت بنعومة أصوافها ، وكانت قد ورثت قبل هذه المنافسة بقليل ، أكثر من أربعمئة ألف جنيه (١) أوصى لها بها مواطن كريم . فاذا كانت هذه هي درجة فقر اللاذنية ، فماذا كانت ثروة المدن الأخرى التي فضلت عليها ، وعلى الأخص ماذا كانت درجة ثراء بيرجاموس ، وأزمير وانسوس Ephesus ، تلك التي كانت تتنازع بعضها بعضا على مكان الصدارة في آسيا ؟ أما عاصمنا سوريا ومصر فكانت لهما في الامبراطورية مكانة سامية مرموقة ، وكانت أنطاكية والاسكندرية تنظران بعين الأزراء الى عديد من المدن التابعة ، ولكنهما سلمتا على مفض بعظمة روما ذاتها .

واتصلت هذه المدائن جميعها بعضها ببعض وبالعاصمة بشبكة من الطرق العامة كانت تبدأ من الساحة في روما ، وتخرق ايطاليا ، وتنتشر فى الولايات ، وتنتهى عند حدود الامبراطورية . فاذا تتبعنا بدقة المسافة من سور أنطونينوس الى روما ، ومنها الى اورشليم لوجدنا أن هذه الشبكة العظيمة من المواصلات من شمال غرب الامبراطورية الى جنوبها الشرقى ، تمتد نحو ثمانين وأربعة آلاف من الأميال الرومانية . وكانت هذه الطرق العامة مقسمة تقسيما دقيقا بشواخص المسافات أو علامات الأميال . وكانت تجرى في خطوط مستقيمة بين المدن ، لا تقيم للعقبات الطبيعية أو الممتلكات الخاصة وزنا يذكر ، وكانوا ينقبون الجبال أو يقيمون القناطر القوية على أوسع وأسرع الجارى المائية . وكان الجزء الأوسط من الطريق يرتفع الى سطحية تشرف على القرى المجاورة ، وتكون عدة مصاطب أو طبقات من الرمل والحصى والأسمت ، وكان يرصف بالأحجار الكبيرة ، وبالجرانيت في بعض الأماكن قرب العاصمة . وهكذا كان البنيان المتين للطرق الرومانية ، وهكذا كانت صلابتها التي لم تستسلم كل الاستسلام لعوامل الزمن طيلة خمسة عشر قرنا . ولقد وجدت هذه الطرق بين الرعايا في أقصى الولايات بمواصلات ميسورة مألوفة . ولكن هدفها الأساسى كان تيسير تحركات القوات العسكرية . فما كان هناك بلد يقال انه

(١) لم يكن لفظ جنيه مستعملا كاسم وحدة نقدية فى ذلك الزمان .

— وعن العملة عند الرومان يرجع الى عبد اللطيف أحمد على ( دكتور ) مصادر التاريخ الرومانى ، ص ص ١٢٤ - ١٤٥ .



اخضع اخضاعا تاما الا اذا أصبح من الميسور على القوات المسلحة وعلى سلطات الغزو اختراقه في أي جزء من أجزائه . وأغرى النفوس الذي يعود من تلقى الأنباء المبكرة ، ومن خفة الحركة في نقل الأوامر والتعليمات - أغرى الإباطرة بإنشاء نظام دقيق للبريد في طول ممتلكاتهم الواسعة وعرضها - ولهذا الغرض بنوا استراحات لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى بأكثر من خمسة أو ستة أميال ، وزودت كل منها دائما بأربعين من الجياد ، وبفضل هذه المراحل أو المحطات سهل السفر لمسافة مائة ميل في اليوم على هذه الطرق الرومانية . وكان استعمال البريد مخصصا به لمن يحمل أمرا إمبراطوريا بذلك . وكان البريد في الأصل مقصورا على الخدمات العامة ، ولكنه رغم ذلك كان يستخدم أحيانا لخدمة الناس أو قضاء حاجاتهم . ولم تكن المواصلات البحرية في الإمبراطورية الرومانية أقل حرية وانطلاقا من المواصلات البرية فيها ، فقد أحاطت الولايات بالبحر المتوسط وطوقته ، وتوغلت إيطاليا - وهي أشبه برأس ضخم - الى وسط هذه البحيرة الكبيرة . وسواحل إيطاليا ، بصفة عامة ، خالية من الموانئ الآمنة ، ولكن مهارة الإنسان عوضت النقص في الطبيعة . فان المرفأ الصناعي في أريستيا - بالذات - الذي أنشاه الإمبراطور كلوديس على مصب التيبر ، كان أثرا نافعا شاهدا على عظمة الرومان . وكان هذا المرفأ على بعد ستة عشر ميلا فقط من العاصمة ، ومنه كانت الريح المواتية في الغالب تدفع السفن الى اعهدة هرقل (1) في سبعة أيام ، وفي تسعة أيام او عشرة الى الاسكندرية في مصر .

### تحسين الزراعة

ومهما يكن من امر المساوىء التي يلصقها العقل او الحماس بإمبراطورية مقرامية الأدلراف ، فان قسوة روما اقتترنت دائما ببعض النتائج التي أدت الى خير الجنس البشرى . ولا بد من القول بأن حرية الاتصال التي مدت في جبل الرذائل ، ساعدت بالمثل على تحسين الحياة الاجتماعية . وكان العالم في الأزمنة السحيطة مقسما تقسيما غير متكافئ فكان الشرق ينعم بالفنون والترف مما لا يذكره التاريخ أو تعيه الذاكرة ، على حين كان يقطن العرب التبربرون الحاربيون القساة الجفاة ، الذين كانوا يحتقرون الزراعة ، أو قل انهم لم

(1) Columns of Hercules : مضيق جبل طارق .

يعرفوها بتاتنا ، ولكن أمكن شيئا فشيئا في ظل حكومة مستقرة ثابتة الأركان ، ادخال منتجات المناخ الأطيب وصناعات الأمم التي هي أكثر مدنية ، الى بلاد غرب أوروبا ، وتشجيع المواطنين ، عن طريق التجارة المفتوحة الرابحة ، على مضاعفة ذلك الانتاج وتحسين هذه الصناعة . وقد يكون من المستحيل تعداد السلع الحيوانية أو النباتية التي كانت ترد تباغا الى أوروبا من آسيا ومن مصر ، ولكنه جدير بالسفر التاريخي ، بالنسبة لقيمته ، وأقل منه بالنسبة لنفعه ، أن يعرض للجوانب الرئيسية عرضا خفيفا .

١ - تكاد تكون معظم الأزهار والأعشاب والفواكه التي تنمو في حدائق أوروبا من أصل أجنبي تنم عنه أسماؤها في معظم الأحيان . فالتفاح فاكهة ايطالية ، فلما ذاق الرومان ما هو أطيب منه نكهة من المشمش والخوخ والرمان والليمون والبرتقال ، قنعوا بأن يطلقوا على كل هذه الفواكه الجديدة تسمية مشتركة هي فصيلة التفاح ، مع تمييز بعضها عن بعض بنعت اضافى هو اسم البلد الذي جاءت منه .

٢ - وفي زمن هوميروس كانت الكروم البرية تنبت في جزيرة صقلية وما جاورها في الغالب ، ولكن مهارة السكان المتوحشين لم تتناولها بالتحسين ، ولم تزودهم الكروم بشراب سائغ لديهم . ولكن استطاعت ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، ان تتيه زهوا وعجبا بأن أكثر من ثلثي أفاخر الأنبذة وأشهرها ، ويصل عددها الى ثمانين نوعا ، هي من نتاج التربة الايطالية . وسرعان ما انتقلت البركة الى الولاية الجنوبية في الغال ، ولكن البرد كان قارصا في شمال هضبة السفن ( جنوب وسط فرنسا ) حتى ظن في أيام سسترايون ( العالم الجغرافى اليونانى في القرن الأول ) أنه من المستحيل نمو الكروم في تلك الأجزاء من بلاد الغال . وذلك هذه الصعوبة على مر الأيام . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن كروم برجندى تمتد في القدم الى عصر الأنطونيين .

٣ - وسارت زراعة الزيتون في دنيا الغرب في أعقاب تقدم السلام ، حتى لقد اعتبروا الزيتون رمزا له ، ولم تكن ايطاليا وأفريقية تعرفان هذا النبات المفيد ، حتى بعد قرنين من تأسيس روما . ثم أدخل وتأقلم فيهما حتى انتقل أخيرا الى قلب أسبانيا والغال . وقد قضت المثابرة والتجربة بطريقة غير ملحوظة على خطأ الأقدمين وتببيهم ، فيما ذهبوا اليه من أن الزيتون يحتاج الى درجة معينة من الحرارة ، وأنه لا يوجد الا في الأماكن المجاورة للبحر .

٤ - انتقلت زراعة الكتان من مصر الى الغال ، وعادت بالغنى والثروة على البلاد بأسرها ، مهما قيل من أن الكتان قد يفقر أو يجذب نفس الأرض التي يزرع فيها .

٥ - أصبح استخدام الحشائش غير البرية أمرا مألوفا لدى فلاحي ايطاليا والولايات ، وبخاصة حشائش لوسرن (١) Media Cagocative التي استمدت اسمها وأصلها من ميديا . وضاعف من قطعان الغنم والماشية ، هذا الزاد الصحى الوفير المحقق وجوده من الطعام فى الشتاء ، كما ساعد وجود هذه القطعان على زيادة خصوبة الأرض . ويمكن أن نضيف الى كل هذه التحسينات ، الدأب على العناية بالمناجم ومصايد الأسماك ، وقد استخدم فيها الكثير من الأيدى العاملة المجدة . مما أدى الى زيادة سعادة الموسرين وسد حاجة المعوزين . ويصف كولوملا Columella فى رسالة لطيفة تقدم الزراعة فى أسبانيا فى عهد تيبيريوس . وجدير بالذكر أن تلك المجاعات التى كثيرا ما اجتاحت الجمهورية الناشئة ، قل أن شهدتها ، أو لم تشهدنا قط ، امبراطورية روما المترامية الأطراف ، فاذا ما نزلت باحدى الولايات كارثة طارئة من مائة أو عوز أو جذب سارع جيرانها الذين هم أسعد حظا الى تخفيف ويلاتها بما أوتوا من وفرة ويسار .

والزراعة أساس الصناعات ، لأن منتجات الطبيعة هى المواد اللازمة للفن .

ولقد تنوعت وتعددت أعمال الشعب العبرى المجد النشط فى الامبراطورية الرومانية ، ولكن هذه الأعمال لم تكن يوما الا خدمة الأغنياء . فلقد جمع الموسرون المحظوظون فى ملابسهم وموائدهم وبيوتهم واثاثهم ورياشهم - جمعوا بين الراحة والأناقة والعظمة فى أروع ما وصل اليه التفنن فيها ، مما يرضى غرورهم أو يشبع نزواتهم . ولقد نعى رجال الأخلاق فى كل عصر على هذا التمتع وهاجموه بشدة بوصفه ترفا ممقوتا . على أن هذا الترف ربما أدى - أكثر ما يؤدي ، الى الفضيلة والى سعادة الجنس البشرى ، شريطة أن تتوافر الضروريات للجميع ، والا يعيش احد على فضلات الحياة وفتاتها فحسب . ولكن الترف مهما كان مبعثه الرذيلة أو الحماقة ، كان يبدو أنه الوسيلة الوحيدة لعلاج سوء توزيع الثروة ( الملكية ) فى المجتمع الحالى المعيب . ذلك أن الميكانيكيين المهرة

(١) حشائش ذات جذور طويلة لها ازهار كازهار البرسيم ، تسمى فى الولايات المتحدة « الفس الفس » .

والهنانين البارعين كانوا يتقاضون ضريبة اختيارية من ملاك الأرض وكان هؤلاء بدافع من مصلحتهم ينشدون تحسين ضياعهم ليشتروا بنتاجها مزيدا من البهجة والحبور ، وهذه عملية ملموسة آثارها المحققة في كل مجتمع ، ولكنها كانت أكثر انتشارا وقوة في دنيا الرومان . ولو أن صناعة الكماليات وتجارتها لم تستعيدا ، بطريقة غير ملحوظة للرعايا الكادحين المبالغ التي ابتزها منهم جيش روما وسلطتها لنفدت ثروة الولايات ، وما دامت هذه الدورة محصورة داخل نطاق الامبراطورية ، فانها تغذى الآلة السياسية بدفعة متجددة من النشاط ، ولن تكون لها نتائج وبيلة ، بل ربما كان من ورائها بعض الخير أحيانا .

ولكنه ليس يسيرا أن نحصر القرف داخل نطاق الامبراطورية فلقد نهبت أقصى العالم القديم بغية توفير الأبهة واللذة لروما . فجاء الفراء الثمين من غابات سكيثيا Scythia ( بلاد قديمة في الجنوب الشرقى من أوربا وآسيا ) . وكان يؤتى بالكهرمان عبر الأرض من شواطئ البلطيق الى الدانوب ، وكان المقبريون يقفون مشدوهين من الثمن الذى يتقاضونه مقابل هذه السلعة التى لا فائدة منها . وكان الطلب كبيرا على سجاجيد بابل وغيرها من مصنوعات الشرق . ولكن أهم صنوف التجارة وأقلها شعبية ذلك الذى كان يجرى مع بلاد العرب والهند . ذلك أنه كان يبحر عند الانقلاب الصيفى ( فى شهر يونيه ) من كل عام اسطول من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز Myos Hormz فى مصر ، عبر البحر الأحمر ، ثم تندفع الرياح الموسمية فيقطع المحيط فى أربعين يوما ، حتى يلقي مراسيه فى ساحل مالابار أو جزيرة سيلان . وفى هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار من أقصى أطراف آسيا ، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدرجها فى شهر ديسمبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولتها الثمينة فوق ظهور الجمال من البحر الأحمر الى النيل ، وفيه تنقل الى الاسكندرية حتى تتدفق دون ابطاء على عاصمة الامبراطورية . وكانت هذه التجارة الشرقية فاخرة ، ولو أنها تافهة عديمة النفع ، ومنها الحرير الذى لا تقل قيمة الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب ، ومنها الأحجار الكريمة وفيها اللؤلؤ الذى كانت له المكانة الأولى بعد الماس ( ١ ) ، ثم تشكيلة العطور التى كانت تستخدم

(١) كانت أعظم مصائد اللؤلؤ كما هى الآن فى هرمز ورأس كورمورين ، ومادام من الممكن مقارنة الجغرافيا القديمة بالحديثة فان روما كانت تزود بالماس من منجم جوملبور Jumelpur فى البنغال ، وقد ورد وصفه فى رحلات تافرنيه Tavernier .

في الطقوس الدينية وفي اسباغ الأبهة والعظمة على الجفازات . وكان الربح الوفير الذي لا يكاد يصدق يعوض عن مشاق الرحلة ومخاطرها . ولكن هذا الربح كان يستخلص من الرعايا الرومان . وكانت فئة قليلة من الناس توسر على حساب مجموع الشعب . وبينما كان العرب والهنود قانعين بمنتجات بلادهم ومصنوعاتها كانت الفضة هي أداة التعامل الأساسية ، ان لم تكن الوحيدة عند الرومان ، وثمة شكوى ترددت ، وكانت جديرة بهمة السناتو وحكمته . ذلك أن أموال الدولة كانت تضيق هباء دون تعويض الى الأمم الأجنبية والمعادية في حالة شراء حلى النساء مما قدره كاتب مدقق ناقص بخسارة سنوية تربو على ثمانمائة ألف جنيه استرليني . وفي هذا تعبير عن السخط على شبح الفقر الذي كان يقترب ويهدد البلاد . على أننا اذا قارنا نسبة الذهب الى الفضة ، كما كانت في أيام بلينى ، وكما حدث في عهد قسطنطين ، لوجدنا زيادة كبيرة في هذه الفترة وليس هناك البتة ما يدعو الى الظن بأن الذهب أصبح أندر من الفضة . ومن هنا يتضح أن الفضة هي التي غدت أكثر شيوعا واستعمالا الى حد أن الصادرات العربية والهندية بالغة ما بلغت كميتها ، كانت أبعد ما تكون عن أن تستنزف ثروة دنيا الرومان ، وأن انتاج المناجم كان من الوفرة بحيث يغطي حاجات التجارة ( التعامل ) .

وعلى الرغم من نزوع الانسان الى امتداح الماضي وذم الحاضر ، فان أهل الولايات والرومان أنفسهم أحسوا احساسا قويا واعترفوا اعترافا صادقا بحالة الهدوء والرخاء التي سادت الإمبراطورية ، « وأدركوا أن المبادئ القومية للحياة الاجتماعية ، والقوانين ، والزراعة ، والمعلوم — تلك المبادئ التي ابدعتها في البداية حكمة ائينا — قد دعمتها وأرست قواعدها قوة روما التي اتحد ، في ظل نفوذها الموفق ، أكثر المتبربرين وحشية ، عن طريق الحكومة الواحدة واللغة المشتركة . انهم يؤكدون أن الجنس البشرى تضاعف عدده بشكل ملحوظ نتيجة لتقدم الفنون ، كما يشيدون بازدياد عظمة المسن وفخامتها ، وبجمال وجه الريف الذى أشرق وتالق بعد أن زرع وازدان حتى أصبح يحكى حديقة واسمعة ثناء ، ويشيدون بالعهد الدائم للسلام الذى نعمت فيه أهم كثيرة ، بهدوء طويل وقد نسيت الضغائن والحزازات القديسة ، وتخلصت من التفكير فى أى خطر مقبل قد يدهمها » . ولا يفوتنا أن نذكر أن هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الحقائق التاريخية ، مهما كان من جو البلاغة والحماسة الذى يطق فيه .

وكاد يكون من المتعذر على أعين المعاصرين ، وسط الهنساء الشاملة ، أن تكشف العلل الدفينة للاضمحلال والفساد . فقد نفت طول العهد بالسلام ، ووحدة النمط في الحكومة الرومانية في مراكز الحيوية في الامبراطورية ، سما بطيئا خفيا . فانحطت عقول الناس الى مستوى واحد ، وانطفأت شعلة العبقرية ، وخمدت جذوة الروح العسكرية . وكان أهل أوروبا شجعانا أشداء ، وكانت أسبانيا والغال وبريطانيا والليريكوم Illyricum ( ولاية قديمة في غرب ايطاليا ) تزود القوات المسلحة الرومانية بجنود ممتازين ، وكانت تشكل القوة الحقيقية للملكة . لقد احتفظوا بشجاعتهم الشخصية ولكنهم لم يعودوا يتحلون بروح الشجاعة العامة ، تلك الروح التي يغذيها وينعشها حب الاستقلال والشعور بالشرف الوطنى ، واحداق الخطر ، وعادة السيطرة والقيادة . ذلك لانهم تلقوا القوانين واستقبلوا الحكام من لدن مليكهم ووفق ارادته ، وعهدوا بالدفاع عنهم الى جيش من المرتزقة ؟ "نقنع نسل أشجع قادتهم وأعظمهم بأن يكونوا مجرد مواطنين أو رعايا . كما انزوى أكثر القوم طموحا وتطلعا في بلاط الأباطرة أو تحت لوائهم ، وانزلت الولايات المهجورة المحرومة من القوة السياسية ومن الوحدة — انزلت الى الحياة الخاصة التي تتسم بالوهن وعدم الاكتراث .

وكان الولوج بالأدب ، الذى يكاد يقترن بعهود السلام والتهذيب شيئا مألوفيا بين الناس في عصر هادريان والأنطونيين الذين كانوا هم أنفسهم رجال علم واطلاع ، وقد انتشر على امتداد الامبراطورية ، حتى لقد تذوقت البلاغة قبائل البريتون في أقصى الشمال ، كما كان هوميروس وفرجيل يسجلان ويدرسان على ضفاف الرين والدانوب وكانت الجوائز السخية تجد في أثر أقل بادرة لموهبة أدبية . لقد نجح اليونان في وضع علم الفيزياء وعلم الفلك . وقام بعض الناس بدراسة ملاحظات بطليموس وكتابات جالينوس Galen ( عالم الطب ) وتحسين اكتشافاتها وتصحيح أخطائهما . ولكننا باستثناء لوشيان (1) Lucian الذى لا يبارى ، نجد أن عصر الخمول هذا من دون أن ينبغ فيه كاتب ذو عبقرية أصيلة ، أو كاتب برز في فنون الانشاء الأنيقة . وكان سلطان أفلاطون وأرسطو ، وزينو وأبيقور لا يزال يتحكم ويسيطر في المدارس . وانتقلت آراؤهم ومبادئهم من جيل الى جيل من التلاميذ ، في انقياد أعمى ، كان من شأنه أن

(1) كاتب يوناني تهكمى عاش في القرن الثانى الميلادى — ( المترجم ) .

يحول دون أية محاولة كريمة لتحكيم العقل الانساني أو توسيع آفاقه . ولم تلهب روعة التسعراء والخطباء القرائح حتى تجود بشيء من مثل هذه الروعة ، بل دفعت فقط الى شيء من المحاكاة الفاتره المهينه ، أما اذا جرؤ أحد على أن يحيد عن هذه النماذج ، فانه كان في نفس الوقت ينحرف عن طريق اللياقة والذوق السليم . وجاءت النهضة الأدبية ، فايظأ أوربا وابتعثت عبقريتها قوة الخيال الفتية بعد طول الخمود ، والغيرة الوطنية ، والدين الجديد واللغات الجديدة والعلم الجديد . ولكن أهل الولايات التابعة لروما ، الذين تلقوا تعليماً اجنبياً نظيفاً نمطياً مصطنعاً كانوا مشغولين بمنافسة غير متكافئة مع أولئك القدامى الشجعان الذين عبروا عن عواطفهم الأصلية بلغتهم المحلية ، فأحرزوا بذلك قصب السبق وثبأوا مراكز الشرف ، وكاد لفظ « الشاعر » أن ينسى ، واغتصب السفسطائيون لأنفسهم لقب « الخطيب » وظهرت طائفة من النقاد والمؤلفين والمعلقين . فكانت بمثابة غيوم أريد وأسود معها وجه العلم . وسرعان ما جاء فساد الذوق في ركاب انحطاط الذكاء والعبقرية .

ويلحظ الفيلسوف العظيم لونجينوس Longinus ( في القرن الثالث الميلادي ) الذي عاش في فترة متأخرة نوعاً ، في بلاط إحدى ملكات سوريا واحتفظ بروح أثينا القديمة يلحظ وينعى على معاصريه ذلك الانتكاس الذي أفسد مشاعرهم وثبط عزائمهم وأخمد مواهبهم فيقول : « قد تبقى أطراف الأطفال حبيسة منكشمة كل الإنكماش ، ومن ثم تقف عن النمو ، ويصبح الأطفال أقراباً ، وهذا هو حال عقولنا الغضة وهي مكبله بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته ، فانها تصبح عاجزة عن التفتح والاتساع ، وعن بلوغ مستوى العظمة التي كنا نعجب بها في الأقدمين الذين عاشوا في ظل حكومة شعبية وتمتعوا بحرية القول والفعل معا » (١) واسترسالاً في المجاز أو التشبيهي . يمكن القول بأن القوام الضئيل للإنسان كان يهبط يوماً بعد يوم دون المستوى القديم ، وان عالم الرومان كان حقاً يقطنه جنس من الأقرام في الوقت الذي انطلق فيه عمالقة وأصلحوا الذرية الناقصة النمو ، فاستعادوا روحاً قوية وثابتة من الحرية وبعد ثورة دامت عشرة قرون ، أصبحت الحرية أباً سعيداً عطوفاً للذوق والعلم .

(١) وهنا كذلك يمكن أن نقول عن لونجينوس : ان المثال الذي أورده يدعم كل قوانينه « ويدلنا أن يظهر مشاعره في جراءة ورجولة ، نراه يوحى بها في حذر بالغ ، ويلقى بها على لسان صديق . وطبقاً لما يمكن استنتاجه من النص الموش نراه يتباهى هو نفسه بدحضها وتفنيدها .

## الفصل الثالث

( ٩٨ - ١٨٠ م )

### دستور الامبراطورية الرومانية

#### فكرة عامة عن النظام الامبراطوري

يبدو أن التعريف الواضح لأية ملكية هو أنها دولة يعهد فيها الى فرد واحد مهما كان لقبه ، بتنفيذ القوانين والتصرف في الموارد وقيادة الجيش ، فان لم يطمع على حماية الحرية حراس شداد يقظون ، فسرعان ما ينقلب سلطان هذا الحاكم المارد الى حكم استبدادي جائر . وقد ينتفع في عصور الخرافة بالكهنة ورجال الدين في تقرير حقوق الانسان ، ولكن العلاقة بين العرش والمذبح كانت وثيقة الى حد أن راية الكنيسة قلما كانت ترى في صف الشعب . ولن يقوم توازن قادر على الاحتفاظ بدستور حر يقف في وجه هذا الملك وتطلعاته ونزواته ، الا اذا ارتكز هذا التوازن على اشراف محاربين . . وعلى ممثلين للشعب يتسمون بالعناد والصلابة ويتمسكون بالملكية ، ويجتمعون في مجالس دستورية ويمتلكون السلاح .

لقد حطمت الأطماع العريضة للدكتاتور كل حصون الدستور الروماني ( أو ضمائنه ) ، وبطشت اليد القوية لحكومة الثلاثة بكل حاجز ويات مصير دنيا الرومان بعد معركة اكتيوم ، رهن ميثيئة أوكتافيوس الذي سمي قيصر عندما تبناه عمه ، ثم خلع عليه السناتور اسم أوغسطس نفاقاً وملتاً منه . وكان الفاتح على رأس قوة قوامها أربع وأربعون فرقة من المحاربين المحنكين ، وكان يدرك كل الادراك مبلغ قوتهم ، كما يدرك ضعف الدستور ، وقد أمعن هؤلاء طوال عشرين سنة من الحرب الأهلية في أعمال القتل والقمع ، وأخلصوا في حماس لبيت قيصر ، ومن ثم تلقوا منه وحده وتوقعوا أسخى



الجزء . وكانت الولايات قد طال بها العهد بالظلم على يد وزراء الجمهورية . . فتطلعت في حسرة وأسى الى حكومة فرد واحد يكون سيدا مسيطرا على هؤلاء الطفافة الصغار . لا تحريكا متواطئا معهم . وغمر شعوب روما سرور خفى وهم يشهدون اذلال الأرستقراطية ، فلم يطالبوا الا بالخبز وبالحفلات العمامة ، وسارعت يد أوغسطس السخية الى تحقيق هذه الرغبات . أما أهل ايطاليا الأغنياء المهذبون الذين اعتنق معظمهم فلسفة أبيقور ، فقد تمتعوا الآن بنعمة الراحة والهدوء ، ولم يسمحوا لذكريات حريتهم القديمة المشوشة أن تعكر عليهم صفو حياتهم . وفقد السناتو قوته ووقاره . وانقرض كثير من أشرف الأسرات القديمة ، وهلك خير الجمهوريين روحا ومقدرة في ميدان القتال أو بيد الجلاذ ، أو بالتجريد من حياية القانون أو بالنفى ، وفتح باب المجلس عمداً لخليط من الأفراد يربو على الألف ، ممن جلبوا العار على الوظيفة التي يتبوؤونها ، أكثر مما اكتسبوا منها الشرف .

وكان اصلاح السناتو اولى الخطوات التي تخطى فيها أوغسطس عن شخصية الطاغية أو نحاها جانبا ، واتخذ فيها صفة الأب لبلاده ، وانتخب أوغسطس رقيباً Censor ، فعهد بالاتفاق مع رجله المخلص الأمين أجريبا Agrippa (١) الى تفحص قائمة أعضاء السناتو ، فطرد منهم أعدادا قليلة ممن كان عنادهم ومساوئهم صارخة يضرب بها المثل ، وأغرى نحو مائتين من الأعضاء بأن يتقوا فضيحة الطرد بالانسحاب طوعا . ورفع نصاب العضو الى نحو عشرة آلاف جنيه ، وخلق عددا وفيرا من الأسرات النبيلة ، وقبل لنفسه لقب الشرف « أمير » السناتو ، وهو اللقب الذي كان يمنحه الرقيب لأعظم المواطنين أمجادا وخدمات . ولكنه اذ أعاد للسناتو وقاره ، حطم استقلاله . ان سيادة الدستور الحر لتضيع بلا رجعة اذا تولت السلطة التنفيذية تعيين السلطة التشريعية .

وأمام هذا المجلس الذي شكل وأعد على النسق الذي أسلفنا ،لقى أوغسطس خطابا مدروسا أبرز وطنيته لكن أخفى طموحه . « فلقد حزن لسلكه السابق ولكن التمس لنفسه فيه عذرا ، ذلك ان واجب الطاعة والاحترام حتم على الابن أن يكون على يديه النار لقتل أبيه ، وأن روح الانسانية التي فاضت بها نفسه أخلت السبيل أحيانا للأحكام العسامة للضرورة الملحة ، ولصداقة مفروضة تسرا

(١) سياسى وقائد رومانى ( ٦٣ - ١٢ ق م ) ، انتصر على انطونيو وكليوباترة فى معركة أكتيوم ٣١ ق م .

بين زميلين حقيرين غير متناسبين : فما دام أنطونيني حيا ، حرمت عليه الجمهورية أن يتخلى عنها الى رومانى منحىل وماكسة من المتبريرين ، أما الآن فهو مطلق الحرية فى الفهوض بواجبه وتحقيق ميوله . والآن ، وقد أعاد فى هيبة ووقار للسنااتو والشعب حقوقهم القديمة ، فهو انما يرغب فى الاختلاط والامتزاج بجموع رفاقه المواطنين ، ويشارك فيما جلب لبلاده من خير ونعيم .

وما كان اجدر من قلم تاسيتس ( لو كان حاضرا فى هذا المجلس ) بوصف مختلف أحاسيس السنااتو ، ما ظهر منها وما بطن ! . وكان من الخطر الوثوق بأخلاص أوغسطس ، ولكن عدم الايمان به كان أشد خطرا . وطالما فرقت مزايا كل من الملكية والجمهورية بين الباحثين المدققين . فان العظمة المشهودة الآن للدولة الرومانية وفساد الآداب العامة وفجور الجنود أهدت المدافعين عن الملكية بحجج جديدة ، وانحرفت هذه الآراء العامة فى نظام الحكم مرة ثانية بأمال كل فرد ومخاوفه . ولكن جواب السنااتو كان جماعيا حاسما وسط فوضى المشاعر هذه ، فقد فرضوا اعتزال أوغسطس ، وناشدهوه الأيترك الجمهورية التى أنقذها . وأذعن الطاغية الدائية لأوامر السنااتو بعد مقاومة رزينة هادئة ، وارتضى أن يتولى حكومة الولايات والقيادة العامة للجيش الرومانية ، مع اللقب المشهور « البروقنصل » و « الامبراطور » على أن يكون ذلك لمدة عشر سنوات فقط . وكان يأمل ، حتى قبل انقضاء هذه الفترة ، أن تلتئم تماسها جراح الخلافات الأهلية ، وأن تكون الجمهورية ، بعد أن تعود سبيرتها الأولى من السلامة والقوة ، فى غير حاجة الى الوساطة الخطيرة من جانب حاكم غير عادى . وتكررت هذه المسرحية الهزلية عدة مرات فى عهد أوغسطس ، وخذل ذكراها الى أواخر أيام الامبراطورية ، تلك الأبهة التى كان يسبغها دائما ملوك روما الأبديون على السنوات العاشرة من حكمهم بنوع خاص .

وكان قائد الجيش الرومانية يستطيع ، دون خسر ق ابادىء الدستور ، أن يتولى ويمارس سلطة تكاد تكون مطلقة ، على الجنود وعلى الأعداء وعلى رعايا الجمهورية . أما فيما يتعلق بالجنسود فسان الغيرة على الحرية ، حتى فى العصور الأولى لروما ، أذعنتم الأمل فى الفتوحات ، ولشعور صادق بالنظام العسكرى ، وكان للدكتاتور أو القنصل الحق فى أن يجند الشباب الرومانى ، وأن ينزل أشد العقوبات ردعا وقسوة بالمخالفين عنادا أو جبنا ، وذلك بحذف أسماء الأثمين من سجل المواطنين ومصادرة ممتلكاتهم ، وبمهم بيع الرقيق .

فكان الارتباط بالعسكرية يعطل أقدس حقوق الحرية التي أكدتها قوانين بورشيا وسمبرونيوس وكان القائد يمارس في مملكته سلطة مطلقة على الحياة والموت ، ولم يكن قضاؤه محدودا بأية قواعد أو ضوابط للمحاكمة أو الاجراءات ، وكان الحكم يتمذورا ، وليس له من استئناف . وكانت الهيئة التشريعية هي التي تختار وتقرر بانتظام من هم أعداء روما ، وكانت اهم قرارات الحرب والسلم تناقش في السناتو مناقشة جدية . ثم يصدق عليها الشعب وسط مظاهر الهيئة والوقار ، فما أن تنأى القوات بأسلحتها الى مسافات بعيدة عن ايطاليا حتى ينتحل القواد لأنفسهم حرية توجيه السلاح الى أى شعب وبأى شكل ، تبعا لما يتراءى لهم أنه أوفق وأفضل للمصلحة العامة . فكانوا يلتمسون شرف النصر وأمجاد الظفر في نجاح مخابراتهم وتصرفاتهم لا من عدالتها وأحقيتها . ولجأوا في استفلال انتصاراتهم الى حد الاستبداد المطلق بلا قيود ، وخاصة بعد أن بعدت عنهم أعين مبعوثى السناتو . ولما تولى بومبي Pompey القيادة في الشرق ، كافأ جنوده وحلفاءه ، وخلق الأمراء عن عروشهم وقسم الممالك ، وأسس المستعمرات ، ووزع كنوز متريدانس . ولدى عودته الى روما فاز بالتصديق العام الشامل على كل تصرفاته بمقتضى قرار واحد من السناتو والشعب . وهكذا كانت السلطة على الجنود وعلى أعداء روما ، سواء خولت لقواد الجمهورية أو انتطوهم لأنفسهم . وكانوا في نفس الوقت حكاما للولايات المفتوحة أو قل ملوكا عليها . فجمعوا في أشخاصهم بين الطابع العسكى والشخصية المدنية ، وتولوا القضاء والشئون المالية والسلطتين التشريعية والتنفيذية في البلاد .

وقد يكون من الميسور ، مع ما أسلفنا ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب ، تكوين فكرة عن جيوش أغسطس والولايات التي وقعت تحت حكمه . ولما كان يستحيل عليه أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه في عدة جبهات بعيدة ، أجاز له السناتو — كما كان الحال مع بومبي من قبل — أن يفوض عددا كافيا من النواب أو الوكلاء في تنفيذ المهام الضخمة لمنصبه . ولم يبد أن هؤلاء الضباط كانوا أقل في الرتبة والسلطة من الولاة القدامى ، ولكن مراكزهم كانت تابعة مزعزعة ، فقد يتقلدون وظائفهم ويقومون بعملهم تحت رحمة رئيس كان ينسب قانونا لنفوذ الميمون المبارك ، كل فضل لهم في أعمالهم . وكان هؤلاء ممثلين للإمبراطور ، وكان الإمبراطور هو القائد الأوحد للجمهورية ، وكانت ولايته المدنية والعسكرية ،

تمتد لتشمل كل فتوحات روما . بيد أن السناتو وجد نوعا من الترضية في أن الإمبراطور كان دائما يفوض سلطاته لأعضاء هذا المجلس . أما نواب الإمبراطور فكانوا من مرتبة القناصل أو الحكام ، كما كان يتولى قيادة الفرق أعضاء من السناتو ، أما منصب والى مصر فكان المنصب الهام الوحيد الذى يعهد به الى أحد الفرسان الرومان .

ويعد ستة أيام من اضطراب أوغسطس الى الرضا بهذه المنحة السخية ، قرر أن يرضى غرور السناتو بتضحية يسيرة . ذلك أنه أبدى لهم أنهم منحوه من السلطات حتى أكثر مما تدعو اليه الظروف السيئة آنذاك ، وأنهم لم يتركوا له فرصة ليمتنع عن قبول العبء الشاق ، عبء قيادة الجيوش والجيهاث ، ولكنه يصر اصرارا على أن يرخص له فى إعادة الولايات التى هى أكثر وداعة وأمنا بين أيدي حكام مدنيين يديرونها ادارة رفيقة . ولم يغفل أوغسطس فى تقسيمه للولايات أمر قوته هو ، وأمر كرامة الجمهورية ، بل احتياط للأميرين وحسب لكل حسابيه . وحظى الولاة المختارون من السناتو ، وعلى الأخص ولاة آسيا واليونان وأفريقية ، على مرتبة أكبر من نواب الإمبراطورية الذين حكموا فى بلاد الغسال وفى سوريا . وكانت حاشية الأولين من الضباط ، والآخرين من الجنود ، وصدر قانون ينص على أنه حيثما كان الإمبراطور حاضرا فان ما يتمتع به من تفويض خارق يجب أية ولاية شرعية عادية للحاكم ، وابتدع عرف جديد يقضى بأن تكون الفتوحات الجديدة من نصيب الإمبراطور وسرعان ما استبان أن قوة « الأمير » ، وهو اللقب الأثير لأوغسطس كانت هى بنفس القدر فى مختلف أرجاء الإمبراطورية .

وحصل أوغسطس فى مقابل هذا التنازل الوهمى أو الاذعان الصورى ، على ميزة هامة جعلته سيدا على روما وعلى إيطاليا ، ذلك أنه استثناء من المبادئ القديمة — وهو استثناء خطير — خول حق الاحتفاظ بالقيادة العسكرية مدعمة بعدد كبير من الحرس حتى فى زمن السلم ، وفى قلب العاصمة . حقا كانت امرته مقصورة على المواطنين الذين التحقوا بالخدمة بمقتضى اليمين العسكرية ، ولكن تلك كانت نزع الرومان الى العبودية ، حتى ان السناتو والحكام والفرسان كانوا يقسمون اليمين ، الى أن انقلب الانسياق مع النفاق الى اعلان سنوى مدو مهيب عن الولاء والاخلاص .

وكان أوغسطس يرى فى القوة العسكرية أقوى ركيزة ، ولكنه رغم ذلك أنكر عليها فى حكمة وتبصر ، أن تكون أداة ممقوتة

للحكيم . وكان أكثر التثاما مع مزاجه ومع سياسته في وقت معا ،  
يحكم تحت ظل الأسماء الوقورة لألوان الحكم القننيم ، على أن  
يجمع في شخصه ، بمهارة ودهاء ، كل الخيوط المبعثرة للسلطة  
المدنية ، وعلى هذا الأساس سمح للسناتو أن يمنحه مدى الحياة  
سلطات الوظائف الفنصلية والتربيونية ، وقد بقيت هذه السلطات  
على هذا النسق ، لجميع خلفائه . وكان القنصل قد سموا الى مرتبة  
ملوك روما — ومثلوا كرامة الدولة وجلالها . فرأسوا الاحتفالات  
الدينية ، وحشدوا الفرق وتولوا قيادتها . واستقبلوا السفراء  
الأجانب ، ورأسوا اجتماعات السناتو والمجالس الشعبية ، كما عهد  
ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سمح لبعض مدن الولايات أن  
الفراغ ما يتولون فيه القضاء بأنفسهم ، لكنهم كانوا رغم ذلك  
يستبرون الحماية الأعلى للقانون والعدالة والسلام العام . تلك كانت  
حدود ولايتهم الشرعية العادية ، أما اذا فوض السناتو العاهل الأول  
في السهر على سلامة الجمهورية والذود عن حياتها ، فانه كان  
يرتفع بمقتضى هذا القرار فوق القانون ، وكان يمارس ، من أجل  
الدفاع عن الحرية ، سلطانا مطلقا بصفة مؤقتة . وكانت شخصية  
التربيون Tribune تختلف عن شخصية القنصل من كل النواحي ،  
فكان الأول يتسم في مظهره بالبساطة والتواضع ، ولو أن شخصه  
كان مقدسا لا يمس . وكان له أن يعارض ويناهض أكثر من أن يعمل  
أو يبيت في الأمر . وأنشئ منصب التربيون للدفاع عن المظلومين  
والصنح عن الاساءات ، ولاستجواب أعداء الشعب ، ولوقوف  
اجراءات الحكومة كلها ، بكلمة واحدة منه ، اذا رأى أن الضرورة  
تقضى بذلك . وطيلة أيام الجمهورية كانت ثمة قيود هامة تحد من  
النفوذ الخليلر لكل من القنصل والتربيون ، ذلك النفوذ الذي كانت  
تسببه عليهم وطلائفهم . من ذلك أن سلطتهم كانت تنقضى بانقضاء  
السنة التي انتخبوا فيها ، وكانت الوظيفة الأولى — القنصل —  
موزعة بين شخصين ، والثانية بين عشرة أشخاص . ونظرا لتعارض  
المصالح الخاصة والعامة لكل من الفريقين — القنصل والتربيون —  
فان الصراع بينهما أدى ، أكثر ما أدى ، الى تدعيم التوازن  
الدستوري ، لا الى تحطيمه . ولكن حين اتحدت وظيفتا القنصل  
والتربيون ، وخولت سلطتهما مدى الحياة لفرد واحد ، حين كان  
قائد الجيش هو نفسه رئيس السناتو وممثل الشعب الروماني  
فقد كان من المستحيل عايه ألا يمارس الحق الإمبراطوري أو يمين  
حدوده ومداه .

وسرعان ما أضافت سياسة أوغسطس الى هذه الوظائف التي تجتمعت له ، وظيفتين عظيمتين هامتين في وقت معا : الحبر الاعظم والرتيب ، فبالأولى تسولى أمور السدين ، وبالثانية يكتسب حقا قانونيا في الرقابة على ملوك الشعب الرومانى وفي البحث عن ثرواته . واذ لم تلتئم هذه السلطات المتييزة المستقلة بعضها مع بعض التناما تاما ، فان السناتو — ادبا منه ولطفا — كان على استعداد ليعالج أى نقص بالرخص والتنازلات الكثيرة الخارقة الى أبعد حد . وتحرر الأباطرة بوصفهم الرؤساء الأول في الدولة من التزامات وعقوبات كثير من القوانين المضايقة ، وكان لهم حق دعوة السناتو للاجتماع ، واجراء عدة اقتراحات في نفس اليوم ، وتقديم أسماء المرشحين لوظائف الدولة ورتبها ، وتوسيع حدود المدينة ، والتصرف في الدخل حسب تقديرهم واعلان الحرب والسلم ، والتصديق على المعاهدات ، واخيرا كانوا يفوضون ، بقرار شامل جاسح أن يفعلوا ما يرونه نافعا للامبراطورية ، متفتحا مع الجلال والعظمة ، في الخاص والعام ، والانسانى واللاهوتى من الأمور .

وحين انتقلت هذه الصلاحيات التنفيذية المختلفة للحكومة الى شخص « الحاكم الامبراطور » ، قبع الحكام العاديون في الجمهورية في أركان مظلمة خاملين بل عاطلين عن العمل في الغالب . واحتفظ أوغسطس بكل أسماء وأشكال الادارة القديمة في أبلغ عناية ولهفة . وكان العدد المألوف من القناصل ومساعدتهم Praetors ومن التربيون يزودون في كل عام بشعارات وأعلام ووظائفهم ، وقد استمروا على القيام بأتفه مهامهم . وكانت هذه الشعارات والأوسمة لا تزال تشير في نفوس الرومان طموحا وغرورا ، وحتى الأباطرة أنفسهم ، رغم ما منحوا من سلطان القنصل مدى الحياة ، كثيرا ما تشوفوا الى هذا التكريم السنوى ، وقد تنازلوا فارتضوا أن يشاركوا فيه أكثر مواطنيهم امتيازاً وسموا . وقد أتاح انتخاب هؤلاء الحكام ، في عصر أوغسطس ، للشعب فرصة اظهار كل متاعب الديمقراطية الفجة الساذجة ، وما كان هذا الأمير الداھية الماكر لتظهر عليه أقل أمارات الضجر أو الضيق بهذا الذى يتولون ، بل انه بدلا من ذلك ، كان يتنبه الى كل هذه المتاعب ، وكان بكل تواضع يوجه نظر زملائه اليها ، ثم يؤدى — في دقة وأمانة — واجبه كأي مرشح عادى . ولكن يمكن ، في شيء من الجرأة ، أن ننسب الى مجالسه أول اجراء انخذه العهد الذى أعقبه ، وهو الاجراء الذى أدى الى انتقال هذه الانتخابات الى السناتو . فالغيت المجالس الشعبية الى الأبد ، وبذلك تخلص

الأباطرة من التجمع الخطير الذى كان يمكن - إذا لم ترد له حريته - أن يهز أركان الحكومة الوطيدة أو يعرضها للخطر ويعصف بها .

ولقد حطم ماريوس وقيصر دستور البلاد حين أعلننا أنها حماة الشعب . ولكن سرعان ما اتضح أن السناتو الذى يضم خمسمائة أو ستمائة عضو ، أصبح بعد أن أخضع وأذل وجرده من قوته - أصبح أداة للسيطرة أنفح وأساس قيادا . ومن هنا يمكن القول بأن أوغسطس وخلفاءه انبأ شادوا امبراطوريتهم الجديدة على حساب السناتو ، وما كان له من مقام ومكانة . وكانوا يتظاهرون فى كل مناسبة بأنهم يقتبسون لغة النبلاء ورجال السناتو ومبادئهم . وكثيرا ما التمسوا الراى والمشورة عند هذا المجلس الوطنى الأوقر فى تادية مهام وظيفتهم ، وبدأ أنهم يرجعون الى قراراته أو يأخذون بها فى أهم قضايا الحرب والسلم . وكانت روما وايداليا والولايات الداخلة خاضعة للسلسلة القضائية للسناتو مباشرة . فكان هو بمثابة محكمة الاستئناف العليا بالنسبة للأحوال المدنية . أما فيما يتعلق بالجنايات فكان هو ، أى السناتو ، محكمة مشكلة للنظر فى الجرائم التى يرتكبها الموظفون العامون فى الدولة أو التى تكدر السلم أو تسيء الى كرامة الشعب الرومانى وعلمته ، فأصبحت ممارسة السلطة القضائية هى الشغل الشاغل للسناتو وأخطر المهام التى يضطلع بها ، وكنت ترى فى السناتو ، عند فلور القضايا الكبرى التى تستأنف اليه ، ترى آخر منبر للبلاغة القديمة . وكانت السناتو ، بوصفه مجلسا للدولة ومحكمة للقضاء ، امتيازات هامة ، أما بالنسبة لقوة التشريع ، فكان المقرر أو المعترف به أن حقوق السيادة كانت مركزة فى هذا المجلس الذى كان مفروضا فيه أنه فى الحقيقة يمثل الشعب . ان أية قوة كانت تستمد من سلطته ، ولا يجاز أى قانون الا بتصديق منه . وكان السناتو يعقد اجتماعات دورية فى ثلاثة أيام معينة هى الأول والتاسع والخامس عشر من كل شهر . وكانت المناقشات تدار فى حرية تتسم بالوقار والحشمة ، وكان الإبادة للذين تالقوا فى مقاعد الشيوخ ، يأخذون أماكنهم ويصوتون مع زملائهم من الأعضاء أو يخالفونهم .

## فكرة عامة عن النظام الإمبراطوري

يمكن في عبارة موجزة ، اجمال نظام الحكومة الإمبراطورية ، كما وضعه أوغسطس ، واحتفظ به أولئك الأمراء الذين أدركوا مصالحهم الخاصة ومصالح الشعب - بأنه ملكية مطلقة مستترة وراء اطارات جمهورية ، وقد لف سادة دنيا الرومان ، عروشهم في غلالات من الخبوض والظلام ، وأخفوا قوتهم القاهرة الغلابة ، وأعلنوا في خشوع وتواضع أنهم الوزراء المسئولون للسنانو الذي أملاهم أوامره العالية ثم أطاعوها .

وكان مظهر البلاط يطابق المظاهر الخارجية للحكومة . وباستثناء أولئك الطعامة الذين انتهكوا حرمة كل قوانين الطبيعة والوقار بحماقتهم الخرتاء ، نجد أن الأباطرة كانوا ينفرون من كل مراسم الأبهة والعظمة التي قد تسيء الى مواطنيهم ، والتي لا تجديهم هم أنفسهم نفعا ولا تزيد في قوتهم شيئا . فتظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم في كل ما يهمهم من أمور الحياة ، وتبادلوا معهم سلسلة من الزيارات والحفلات المنتظمة . ولم يسموا في ملابسهم وقصورهم وموائدهم عن مرتبة عضو ميسور من أعضاء السنانو . أما أتباع الإمبراطور أو معيته ، مهما بلغ من وفرة عددها ومن سنانها ، فكانت تتكون كلية من عبيده المحليين والمعتقين (1) ، وربما كان أوغسطس أو تراجان يستحي ويخجل من استخدام أقل الرومان سنانا في مثل هذه الوظائف الحقيرة التي يلتبسها ويسيل لها لعاب أكثر النبلاء البريطلانيين غرورا ، في حاشية ملك صغير أو في غرفة نومه .

وكان تقديس الأباطرة الى حد العبادة هو الأمر الوحيد الذي خرجوا فيه عن مألوف فطنتهم وتواضعهم . وكان الاغريق الأسيويون أول من ابتدعوا هذا اللون الذليل الملحد من المداهنة والرياء ، وكان خلفاء الاسكندر أول هدف لهذا التقديس . وما كان أيسر امتداد هذا التقديس أو التأليه من الملوك الى الحكام في آسيا ، وكثيرا ما كان الحكام الرومان يعبدون بوصفهم آلهة محايين ،

(1) كان أتباع الإمبراطور الضعيف يسيطرون عليه ويسيطرونه ، وكانت قوة العبيد وسيطرتهم تضاعف من سوءات الرومان وتزيدهم عارا . وكهم احتفى السنانو بالشبان المغفونين والشبابات الجميلات من هؤلاء الأتباع . وكانت الفرصة مواتية ليدخل أحد المقربين المحظيين الجدد في عداد السادة المهذين الاجلاء .



بكل ما تقتضيه العبادة من أبهة المذابح والمعابد والأعياد والقرايين .  
وحان من السبيعي الا يابى الاباطرة على انفسهم ما ارضاه الساصل  
والولاء ، ولا شك في أن هذه الامجاد الالهية التي كان يتلقاها  
هؤلاء وهؤلاء كانت اقرارا باستبداد روما أكثر منها بعبوديتها .  
ولكن سرعان ما قلد الغزاة الفاتحون الأمم المقهورة في افانين الملق  
والرياء ، فسهل على القيصر الأول ، وهو على قيد الحياة مع  
ما ركب فيه من عنو وغطرسة ، أن يرتضى له مكانا بين الآلهة الأوصياء  
الحراس على روما . ولم يتعلق خلفه ذو المزاج الأرق بمثل هذا  
المطمع الخطير ، الذى لم يحيه قط من جديد الا جنون كاليجولا  
ودوميتيان . والواقع أن أوغسطس سمح لبعض مدن الروايات أن  
تقيم المعابد تكريما وتمجيذا له ، شريطة أن يربطوا عبادة روما بعبادة  
الملك ، وتسمح في بعض الخرافات الخاصة التي قد تدور حول  
شخصه ، ولكنه قنع بأن يكون اجلال السناتو والشعب له على  
اساس شخصيته الانسانية ، وفي حكمة وتبصر ترك لخلفه مهمة  
التاليه العام . واستحدث عرف جديد ، ذلك أن السناتو كان يصدر  
عند وفاة الامبرطور الذى لم يحك في حياته أو مماته سيرة  
الطاغية - يمدد قرارا خطيرا بادراجه في عداد الآلهة . وكان الاحتفال  
بضمه الى الآلهة يخلط بمراسم دفنه . وكان مبدأ الشرك وتعدد  
الآلهة ، بما اتسم به من سهولة وبساطة يتقبل ، في غير ما ضجة ،  
هذا الامتهان القانونى الذى يبدو غريبا طائشا ، كما يبدو  
بنيفيسا مثبتا كل البغض والمقت في نظر مبادئنا التي هي أشد  
حرامة ودقة ، ولكنه كان يتقبل على أنه لون من نظم السياسة ،  
لا الدين . وانا لنحصد من قدر فضائل الانطونيين اذا قارناها  
برذائل هرقل أو جوبيتر . بل ان شخصية قيصر أو أوغسطس كانت  
تسبو كثيرا على شخصية الآلهة المحليين ، ولكن من سوء حظ  
الأولين انهما عاشا في عصر مستثير ، وان أعمالهما دونت بأمانة  
سمحت بمثل هذا الخليط من الخرافة والغموض الذى أرادته عبادة  
السوقة والسمامة وولاؤهم . وما ان تقررت الوهيتهم بمقتضى القانون  
حتى انحدرت الى زوايا النسيان ، دون أن تضيف شيئا الى شهرتهم  
او الى مكانة خائفهم .

وكثيرا ما أردنا ، في الحديث عن الحكومة الامبراطورية ، ذكر  
المؤسس الداهية تحت اللقب الذائع « أوغسطس » ، الذى لم يسبق  
عليه الا عندهما كاد الصرح ان يكتمل . أما الاسم الخامل المهجور  
« أوكتاويوس » فقد أخذه عن أسرة ونسبته في المدينة الصغيرة

أريتشيا Aricia ، وكان ملطخا بدم حكم الاعدام ، ومن ثم كان مثلها ما أمكن على محبو أية ذكريات لحياته الأولى . أما اللقب اللامع « قيصر » فقد كسبه بوصفه ابن الدكتاتور بالتبني . ولكنه أوتى من سعة العقل ما جعله لا يأمل في أن يقترن بهذا الرجل الخارق أو يرغب في أن يقارن به . واقترح في السناتو تكريم وزيره بتسمية جديدة ، واختير ، بعد مناقشة حامية اسم « أوغسطس » من بين عدة أسماء . لأنه أصدق تعبيراً عن طبيعة السلام والطهر التي اصطنعها روما . ومن هنا كان أوغسطس امتيازاً شخصياً ، أما قيصر فهو امتياز تابع من الأسرة ، وكان من الطبيعي أن ينقضى الأول بانقضاء حياة الأمير الذي أسبق عليه ، ومهما يكن من أمر انتشار اللقب الأخير — قيصر — عن طريق التبنى أو تحالف الأسرات ، فان نيرون كان آخر أمير يستطيع أن يدعى أي حق وراثي في أمجاد فرع يوليوس . ولكننا نجد عند وفاته أن ما تم على مدى قرن من الزمان قد أحكم الصلة بين هذه التسميات وبين المقام الامبراطوري الجليل ، كما حافظ عليها تعاقب طويل لأباطرة من الرومان واليونان والفرنجة والألمان ، منذ سقوط الجمهورية الى وقتنا هذا . على ان فارقنا واحداً أدخل ، ألا وهو الاحتفاظ باللقب المقدس « أوغسطس » لشخص الملك ، أما اسم « قيصر » ، فكثيراً ما انتقل في حرية أكثر الى ذوى قرباه . ومنذ عهد هادريان — على الأقل — خصص هذا الاسم الأخير للشخص الثاني في الدولة ، الذي كان يعتبر الوريث المحتمل للامبراطورية .

ويمكن تفسير الاحترام الهزيل الذي أبداه أوغسطس للدستور الحر الذي حطمه ، بالتأمل الدقيق الواعي في شخصية هذا الطاغية الداهية المحتال . لقد كان رصينا هادئ الطبع ذا قلب لا يتأثر ، نزاعاً الى الجبن والتهيب ، كل أولئك مسكن له في سن التاسعة عشرة من أن يلبس قناعاً من النفاق لم يتخل عنه بعدها قط . فتراه يوقع بنفس اليد ، وأغلب الظن بنفس الروح ، الحكم بالاعدام على شيشرون ، وقرار العفو عن سسنا Cinna . وكانت فضائله ، بل وحتى رذائله ، متكلفة مصطنعة ، وكان في بداية الأمر عدواً للعالم الروماني ، ثم غداً في النهاية أباً له ، وكل أولئك خطرات من املاء مصلحته (1) . ولما وضع النظام الخبيث للسلطة الامبراطورية كان

(1) عندما ارتقى اكتافيرس الى مرتبة القياصرة ، كان بمثابة حرباء تلتون بالوان كثيرة : صفراء شاحبة في البداية ، ثم حمراء ، وبعد ذلك سوداء ، وفي النهاية تقمص ارواح الهة الربيع والاخوات الثلاث الهات مسرات الحياة ومباهجها . تلك هي الصورة =

اعتداله منبعا من مخاوفه . فأراد أن يخدع الشعب بطيف الحرية المدنية كما يخدع الجيوش بصورة الحكومة المدنية .

١ - لقد كان موت قيصر ماثلا أبدا أمام عينيه ، فأغدق المال والرتب على أتباعه وأتباعه ، ولكن أخلص الأصدقاء المقربين الى عمه كانوا في عداد المتأمرين . وقد يجدى إخلاص القوات المسلحة في التصدي للعصيان أو التمرد السافر على سلطته ، ولكن يقظتهم لن تنقذ شخصه من طعنة خنجر من يد جمهورى متشدد ، ولا بد أن الرومان الذى مجدوا ذكرى بروتس ، سيتمدحون ويصفقون لمن يفعل فعلته . لقد تعجل قيصر مصيره بفعل مفاخرته بقونه وبفعل قوته على قدر سواء . ولربما كان قد حكم فى سلام وهدوء لو أنه اكتفى بمنصب القنصل أو التربيون . غير أن طمعه فى أن يكون ملكا أعطى الرومان سلاحا يستخدمونه فى قتله . وكان أغسطس يدرك أن البشر تفرهم الألقاب ، كما أنه لم يكن مخدوعا فى توقعه أن السناتو والشعب لا بد أن يستكينوا ويستسلموا ، شريطة أن يؤكد لهم فى احترام واجلال أنهم لا يزالان ينعمون بحريتهم القديمة . . وكان السناتو الضعيف والشعب الذى وهنت عزائمته يقنعون مبهتهجين بهذا الهم السار ، طالما كان يعتمد على فضيلة خلفاء أوغسطس ، أو حتى على حكمتهم . والحق أنه كان دافعا من دوافع الإبقاء على الذات ، لا مبدءا من مبادئ الحرية ، ذلك الذى أثار المتأمرين ضد كاليجولا ونيرون ودوميتيان ، فقد تصدروا لشخص الطاغية ولكنهم لم يسددوا ضربتهم الى سلطة الإمبراطور .

ويبدو فى الواقع أن هناك مناسبة واحدة جديرة بالذكر ، قام فيها السناتو بعد سبعين سنة تذرع فيها بالصبر ، بمحاولة عقيمة لاسترداد حقوقه التى طال عليها عهد النسيان . ذلك أنه عندما خلا العرش ، بقتل كاليجولا ، دعا القناصل هذا المجلس الى الاجتماع فى الكابيتول ، ونددوا بذكرى القياصرة ، وأعطوا كلمة السر « الحرية » للفئة القليلة من الفرق العسكرية التى التفت فى فتور حولهم ، ثم تصرفوا ( القناصل ) لمدة ثمان وأربعين ساعة وكانهم

---

= التى رسمها جوليان فى قصته البارعة ، وهى صورة صادقة رشيقة . ولكنه حين يتسبب تغلب شخصيته الى قوة الفلسفة ، انما يولى الفلسفة ويولى أوكتافىوس شرقا أكثر مما ينبغى . ( « القياصرة » تاليف لوشيان - وهو كاتب يونانى عاش فى القرن الثانى الميلادى ) .

رؤساء مستقلون لجمهورية حرة . وفي الوقت الذي كانوا يتدبرون فيه الأمر في روية . كان رجال الحرس الإمبراطوري قد حزموا أمرهم ، واستقر قرارهم ، بل وكان كلوديوس الفبي شقيق جرمانيكس في معسكرهم في حلة الإمبراطورية الأرجوانية مستعدا لتثبيت انتخاياه بحد السيف . وهنا تبخر حلم الحرية ، وفتح السناتو عينيه على فظائع العبودية التي لا مفر منها . وأرغم هذا المجلس الهزيل ، وقد تخلى عنه الشعب وهددته القوة العسكرية ، أرغم على اقرار ما اختاره الحرس ، والاستفادة من العفو العام الذي اقتضت فطنة كلوديوس أن يعرضه ، كما اقتضى كرمه أن يتنبه إليه .

٢ - وأثارت سفاهة الجيش وصلفه في نفس أوغسطس مخاوف تفائق نذيرها على مر الأيام . وبلغ بالمواطنين القنوط الى حد أنهم لم يحاولوا الا أن يعرفوا ماذا تستطيع قوة الجنود أن تفعل في أى وقت . وكم كان سلطانه ( أى أوغسطس ) مزعزا غير مأمون على قوم لقنهم هو أن ينتهكوا حرمة كل واجب اجتماعى ! لقد سمع من قبل صخبهم المثير للفتنة ، كما توجد خيفة من لحظات تألمهم الهادئة . وقد يمكن شراء ثورة واحدة لقاء ثمن باهظ ، ولا بد أن يكون هذا الثمن مضاعفا لشراء الثورة الثانية ، لقد أعلن الجنود أشد التعلق ببيت قيصر ، ولكن تعلق الجماهير متقلب غير ثابت ، ولكن أوغسطس أهاب لمعونته بكل ما تبقى في تلك العقول من أهواء وتحيزات رومانية ، وفرض نظاما صارما بقوة القانون ، ووضع هيئة السناتو بين شقى الرعى : الإمبراطور والجيش . ثم جمع أطراف شجاعته وطالب بولائهم له بوصفه الحاكم الأول للجمهورية .

ومنذ أقيم هذا الأسلوب البارع الماكر حتى وفاساة كومودس Commodus ، أى طيلة فترة امتدت مائتين وعشرين سنة ، توقفت الى حد كبير الاخطار الملازمة للحكومة العسكرية ، فقلما كان الجنود يوقفون الى حد الاحساس بخطورة قوتهم ، وبضعف السلطة المدنية ، ذلك الضعف الذى كان ، من قبل ومن بعد ، نتيجة لمثل هذه الكوارث الرهيبة . لقد ذبح كل من كاليجولا ودوميتيان في قصره بيد خدمه ، وكانت الهزة التي أصابت روما بسوت الأول محصورة بين جدران المدينة ، ولكن وفاة نيرون هزت أركان الإمبراطورية بأسرها . وفي مدى ثمانية عشر شهرا هلك أربعة من الأمراء بحد السيف ، وانتفضت دنيا الرومان لهذا الصراع المحتدم بين الجيوش المتنازعة . وباستثناء اهدام هذه المنازعات العسكرية القصيرة ، ولكن العنيفة ، فان القرنين من الزمان - من أوغسطس

الى كومودس - لم تلتخطها دماء الحروب الأهلية أو تكدر صفوها  
أية ثورات . فكان الإمبراطور ينتخب بمقتضى ما للسناو من سلطة ،  
وبرضا من الجيش . واحترمت القوات يمين الاخلاص الذى كانوا  
يؤدونه . ويتطلب الأمر فحصا دقيقا لسجلات التاريخ الرومانى  
للاهتمام الى ثلاث ثورات تافهة أخدمت فى بضعة شهور ، دون المخاطرة  
بالدخول فى معركة .

ان ساعة خلو العرش فى الملكية الانتخابية محفوفة بالخطر منذرة  
بالسوء . ومن ثم اتجهت رغبة أباطرة الرومان الى أن يجنبوا الفرق  
العسكرية فترة الترقب والبلبله هذه ، ويجنبوهم الاغراء باختيار  
شاذ ، ولذلك زدوا الشخص الذى يقصدون أن يكون خلفا لهم  
بنصيب كبير من سلطتهم الراهنة ، بالقدر الذى يستطيع معه ، بعد  
وفاتهم أن يستحوذ على ما تبقى من سلطة دون أن تعانى الامبراطورية  
مشقة ادراك التغيير فى الحكام . ومن هنا نرى أن أوغسطس بعد  
أن اختطفت منه تطلعاته التى هى أكثر ازدهارا بأحداث الموت التى  
جاءت فى غير أوانها ، ركز آماله الأخيرة على تيبيريوس ، وحصل  
لابنه بالتبنى على سلطات الرقيب والتربيون ، ثم فرض قانونا زود الأمير  
المنتظر بسلطة مساوية لسلطته هو ، على الولايات والجيش . وكذلك  
كبح فسبازيان التطلع الجامح لابنه الأكبر ، وكان تيتس معبود  
الفرق العسكرية الشرقية التى أتمت مؤخرا ، تحت امرته ، فتح أرض  
يهودا Judea . وكان مرهوب الجانب . وكانت تشوب فضائل مسحة  
من طيش الشباب ، ولذلك كانت مشروعاته موضع الشك والريبة .  
وبدلا من الاصغاء الى هذه الريب التافهة ، عمد الملك الفطن  
( فسبازيان ) الى اشراك تيتس فى السلطات الامبراطورية كاملة .  
وأثبت الابن الشكور دائما أنه الوزير المخلص المتواضع للأب  
اللطيف المتساهل .

والحق أن ادراك فسبازيان السليم أدى به الى أن ينشغل باتخاذ  
اجراء لتدعيم هذا الارتقاء المزعزع حين تبوأ العرش حديثا . لقد  
كانت اليمين العسكرية كما كان اخلاص القوات ، وفقا للعادات التى  
تأصلت لمدة مائة عام وقفاً على اسم قيصر وأسرته . يتطلع الرومان  
فى شخص نيرون ، يجلبون حفيد جرمانيكوس والخليفة الوراثى  
لاوغسطس ، على الرغم من أن هذه الأسرة لم تستمر فى الوجود  
الا بهذه السنة الملققة ، ألا وهى سنة التبنى . ولم يكن اقناع الحرس  
الإمبراطورى وتحريضه للتخلي عن الطاغية أمرا خاليا من الندم

والمضايقة . وقد علم التسقوط السريع لجالبا Otho و Galba وفيتيلوس Vitellius علم الجيوش أن تنظر الى الأباطرة على أنهم من صنع ارادتها ، وأدوات لسلطانها . لقد كان فسبازيان من أصل وضع ، كان جده جنديا خاصا ، وأبوه مأمورا صغيرا للدخل ، وقد رفعتة مواهبه الخاصة الى مرتبة الإمبراطور ، ولكن مواهبه كانت نافعة أكثر منها لأمعة مشرقة ، وتلوثت فضائله ببخله الشديد الدنيء . وقد رعى هذا الأمير مصلحته الحقيقية باشتراك ابنه الذى يمكن أن تصرف شخصيته العظيمة المحبوبة الأنظار العامة عن الأصل المظلم الى ما ينتظر فى المستقبل من أمجاد لببت فلافيوس Flavius وفى ظل الاعتدال الذى اتسمت به ادارة تيتس استروح عالم الرومان نسيما عابرا من الغبطة والهناء ، حتى لقد غطت ذكراه العاطرة المحببة ، لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، سيئات أخيه دوميشيان .

وما كاد نرفا Nerva يتسام طياسان الملك من قتله دوميتيان حتى تبين له أن تقدمه فى السن يجعله عاجزا عن صد تيار الفوضى الجارف الذى استشرى طيلة حكم سلفه الطاغية . وكانت ميولاه الطيبة موضع تقدير كرام القوم ، ولكن الرومان الذين دب فيهم الانحلال كانوا يتطلبون شخصية أصلب وأقسى ، حتى تلقى عدالتهما الرعب فى قلوب المجرمين ، وكان لديه العديد من ذوى قرياه ، ولكن وقع اختياره على رجل غريب ، فتبنى تراجان الذى كان آنذاك فى الأربعين من العمر ، والذى كان تحت امرته جيش قوى فى ألمانيا السفلى ( فى الجزء الجنوبى من ألمانيا ) . وبمقتضى قرار من السناتو ، أعلن نرفا على الفور تراجان زميلا له وخلفا له فى الإمبراطورية . وأنه لما بيعت حقا على الأسى ، أنه فى الوقت الذى نشقى فيه بالسرد الممل الكريه لجرائم نيرون وحماقاته ، نجد أنفسنا مضطرين الى جمع أعمال تراجان من شتات موجز أو مخلفات مديح مريب . على أن هناك مديحا واحدا يرتفع عن الشبهات وعن مظنة الملق . ذلك أنه بعد مرور مائتين وخمسين عاما على موت تراجان وفى غمرة الهتاف والتهليل المألوف لمناسبة اعتلاء امبراطور جديد على العرش ، تمنى السناتو للعاهل الجديد أن يبرز أوغسطس فى هناءة عهده ، وأن يبرز تراجان فى فضائله .

وقد نكون على استعداد للقول بأن أبا البلاد تردد فيما اذا كان يذنبى له أن يعهد الى شخص قريبه المتقلب المريب هادريان ببعض السلطات الملكية . فلما حانت منيته استخدمت الإمبراطورة بلوتينا

Plotina دهاءها وحيلها في اخراج تراجان من حيرته ، أو أنها تجاسرت غلفت له امرا لم يأمن بغبة الجدل فيه . وامتتهى الأمر بالاعتراف في سلام بهادريان خلفا شرعيا لتراجان . ونعمت الامبراطورية على عهده — كما أسلفنا — بالسلام والرخاء ، وقد شجع الفنون وأصلح القوانين ، وأقر النظام العسكري ، وزار كل الولايات بنفسه . كما وجه ذكاه الواسع الفعال ، بنفس القدر ، الى كل كبيرة وصغيرة في مجال السياسة المدنية . ولكن الزهو والفضول كانا يملكان عليه جوانب نفسه فكليا لها عليه ، وكلما ثارا لشيء أو لآخر ، انقلب هادريان بدوره من أمير ممتاز الى سفسطائي يدعو الى السخرية ، والى طاغية تأكل الغيرة قلبه . لقد كان الرجل يستحق الثناء لما تميز به الطابع العام لسلوكه من انصاف واعتدال ، ومع ذلك ففي الأيام الأولى اعدم أربعة من أعضاء السناتو القناصل ، كانوا اعداء الداء له ، وكانوا جديريين بمنصب الامبراطورية . وكان يعاني من داء عضال ، جعل منه في النهاية رجلا شريرا قاسيا . وحرار السناتو هل يدعوها الها أو طاغية . ولم يتقرر تمجيد ذكره الا نتيجة لتوسلات انطونينوس النقي .

وأثرت نزوات هادريان وشذوذه في اختيار خلفه . ويعد ان عمل فكره في عدة رجال من ذوى المواهب البارزة ، الذين كان يقدرهم ويبغضهم في وقت معا ، اختار أليوس فيروس Aelius Verus وهو شخص مرح داعر من الأشراف ، أوصى به جمال ساحر لدى هادريان عشيق انطونينوس . وبينما كان لاهيا ناعما بما يكال له من مديح وتقريظ ، وبتهليل الجنود الذين حصل على موافقتهم بما أشفق عليهم من هبات ضخمة ، اختطف القيصر الجديد من بين يديه موت مفاجيء . وقد ترك ولدا وحيدا ، أوصى به هادريان الانطونيين خيرا ، فقد تبناه انطونينوس بيوس ، كما زود بنصيب من السلطة الملكية مساو لنصيب ماركوس عند اعتلائه العرش . والى جانب رذائله الكثيرة كان فيروس الصغير يتحلّى بفضيلة واحدة : الاحترام والامتثال لزميله الذى هو أرجح عقلا ، الذى ترك له رغبا مشقة المهام الجسام في الامبراطورية . وعض الامبراطور الفيلسوف الطرف عن حماقاته ، وحزن لونه المبكر وأسدل ستارا وقورا على ذكره .

وعندما اشبعت رغبة هادريان أو خابته ، صمم على ان يتقاضى شكر الأعباب باجلاس اعظم الموهوبين المبجلين على العرش الروماني ، فوقعت عينه الفاحصة على سناتور في نحو الخمسين من العمر ،

لم تلصق به في أي من وظائف الحياة شائبة ، وعلى شاب في نحو السابعة عشرة تبشر سنو نضجه الفادمة بامارات الفضيلة ، واعين أولهما ابنا وخلفا له شريطة أن يتبنى هذا الشخص الأول نفسه الشاب الثاني على الفور . وحكم هذان الاثنان الانطونيين ( ونحن هنا إنما نتحدث عن الأنطونيين ) دنيا الرومان طيلة اثنين وأربعين عاما بروح ثابتة لم تتغير من الحكمة والفضيلة . وكان لأنطونينوس بيوس ابنان ، ولكنه رغم ذلك أثر مصلحة الإمبراطورية على مصلحة أسرته ، فزوج ابنته فوستينا من ماركوس الشاب ، وحصل من السنين على سلطات التربيون والقنصل ، وفي احتقار كريم منه ، بل قل في جهل منه بمشاعر الغيرة والحق ، أشركه معه في كل أعمال الدولة . واحترم ماركوس ، من جهة أخرى وبجل الرجل الذي أسدى إليه الخير على أنه والد له ، وأطاعه بوصفه مليكا وسيدا له ، فلما قضى ، سار في ادارته على مثال سلفه ونهج على مبادئه . وربما كانت فترة هذين الحاكمين المتحدين هي الفترة الوحيدة في التاريخ التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هي الهدف الأوحد للحكومة .

وقد نعت تيتس أنطونينوس بيوس بأنه نوما Numa ثانياً ( ثاني ملوك روما في القرن السابع ق.م . ) . فقد كان حبا للدين والسلام هو الخاصة المميزة لهذين الأميرين كليهما . وربما أفسح موقف المتأخر منهما ( أنطونينوس ) مجالا أكبر لممارسة هاتين الفضيلتين . لقد استطاع نوما فقط أن يحول دون أن تسطو بضع قرى متجاورة على محصولات بعضها بفضا . ولكن أنطونينوس نشر النظام والهدوء في أكبر رقعة من الأرض . وتفرد حكمه بميزة نادرة ، تلك هي قلة المواد التي زود بها التاريخ الذي لا يعدو أن يكون شيئا أكثر من سجل لجرائم البشر وحمقاتهم ونبكاتهم ، وكان في حياته الخاصة رجلا طيبا محبوبا . وكانت البسطة الفطرية لفضائله لا تلتئم مع أي زهو أو تكلف . ولقد تمتع متعة طابعها الاعتدال بما أتاحه له حظه من وسائل ، وبما تيسر في المجتمع من مسرات بريئة ، وتمثلت طيبة نفسه في طبع هادئ ينبض بالبشر والبهجة .

أما فضائل ماركوس أوريليوس أنطونينوس فكانت من طراز آخر أكثر عنفا وازهاقا ، كانت حصيلة مكتسبة اكتسابا جادا من كثير من مؤتمرات العلماء ، والمحاضرات التي يتجلد المرء للاستماع إليها ، ومن طول السهر في التحصيل والطلب . فقد اعتنق ، وهو في



الثانية عشرة من صوره مذهب الرواقين الصالح الذي علمه ابن  
يخضع جسده لعقله وهواه لمنطقة ، وأن الفضيلة هي الخير كله ،  
وأن الرذيلة هي الشر كله ، وأن يعتبر الأشياء المظهرية ، ( الخارجية )  
أشياء لا تستحق الاهتمام . وما تزال « تأملاته » التي وضعها وسط  
ضجيج المعسكر وصخيه باقية ، بل أنه تنسازل فأعطى دروسا في  
الفلسفة بطريقة علمية أعم وأكثر مما قد يتفق مع تواضعه بوصفه  
حكيمًا ، أو مع وقاره بوصفه إمبراطورا . ولكن حياته كانت أنبل  
تعبير عن نواميس زينون مؤسس المدرسة الرواقية - القرن  
الرابع ق.م. لقد كان عنيفا مع نفسه ، متسامحا مع عيوب الآخرين ،  
عادلا خيرا مع جميعهم . وكهم أسف وحزن لأن أفيدوس  
كاثيس الذي أثار تمردا في سوريا مات طواعية واختيارا ، فحرمه  
بذلك مما يجد من لذة وسرور في تحويل عدو الى صديق ، وأكد  
صدق عواطفه بالتخفيف من حدة السناتو بإزاء أتباع الخائن .  
وكره الحرب باعتبارها كارثة الطبيعة البشرية والعار انلاصق بها ،  
ولكن عندما دعا داعى الحرب الى امتشاق الحسام من أجل دفاع  
عادل ، بادر على الفور فقاد بنفسه ثمانى حملات في الشتاء على  
ضفاف الدانوب المتجمدة ، مما لم تحتل بنيته الضعيفة مساوتها .  
فمضى فيها نجبه . وقد مجدت الأجيال الشاكرة العارفة لفضله  
ذكراه . واحتفظ كثير من الناس ، لأكثر من قرن من الزمان بعد موته ،  
بصورة ماركوس أوريليوس بين صور آلهتهم المحليين .

\*\*\*

The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that proper record-keeping is essential for the integrity of the financial system and for the ability to detect and prevent fraud. The document also highlights the need for transparency and accountability in all financial dealings.

The second part of the document outlines the various methods used to collect and analyze financial data. It describes the use of statistical techniques to identify trends and patterns in the data, and the importance of using reliable sources of information. The document also discusses the challenges of data collection and analysis, and the need for ongoing research and development in this field.

The third part of the document focuses on the application of financial data in various contexts. It discusses the use of financial data in decision-making, and the importance of understanding the underlying factors that influence financial outcomes. The document also explores the role of financial data in policy-making and in the development of financial regulations.

The fourth part of the document discusses the future of financial data analysis. It highlights the potential of new technologies, such as artificial intelligence and machine learning, to revolutionize the way financial data is analyzed. The document also discusses the need for continued research and development in this field, and the importance of staying up-to-date on the latest developments.

تحریر کے النظام القديم



## الفصل الرابع

( ١٨٠ - ١٩٢ م )

عيسى توموس

كان اعتدال ماركوس الذى لم نجد المبادئ الرواقية الصارمة في اقتلاعه منه ، يشكل في نفس الوقت أحب الجوانب في خلقه والنقيصة الوحيدة في شخصيته . وكان قلبه الطيب الذى لا يميل الى الشك ، كثيرا ما يخدع ادراكه الممتاز . واتصل به نسر من الدهاء المحتالين الذين يدرسون هوى الأمراء ، ويخفون مشاعرهم هم أنفسهم ، متكرين في طهارة الفلسفة وقداستها ، ينشدون الثروة والمجد عن طريق التظاهر باحتقارهما والتعفف عنها . وتجاوز افراطه في التسامح مع أخيه وزوجه وابنه حدود المعاملة الطيبة اللائقة بهم ، حتى صار اساءة عامة شاملة ، لأن رذائلهم أصبحت نموذجا يحتذى ، وكأنت لها نتائج وبيلة .

واشتهرت فوستينا ، ابنة بيوس وزوجة ماركوس بگرامياتها ومجونها قدر ما اشتهرت بجمالها . وقدر خطأ أن ما في الفيلسوف من بساطة وقورة رزينة قد تشغل وتغضى رعونتها الطباغية ، وتكبح جماح اللهفة غير المحدودة على التغيير والتنوع ، وهى نزوة كثيرا ما تكتشف جدارة خاصة في أخط بنى البشر . وكان كيوييد الأقدمين لها عاطفيا عامة ، أما عشاق الامبراطورة ، الذين توددت هى اليهم وارخصت نفسها لهم فقلما كانوا يستشعرون أية لذة عاطفية . وكان ماركوس الشخص الوحيد في الامبراطورية ، الذى يبدو أنه كان جاهلا أو غير شاعر بمساوىء فوستينا التى كانت — كما هو مألوف في كل عصر — تعكس العار والفضيحة على الزوج المنكوب . ورمى ماركوس نفرا من عشاقها الى مراكز تضى شرفا ومجدا وتدر مالا . ولم ينقطع عن أن يقدم لها طيلة ثلاثين عاما الدليل تلو الدليل على ثقته الكريمة بها واحترامه لها ، وهو احترام ام ينهه بوفاتها ، فنى « تأملاته » نراه يشكر الآلهة التى وهبته زوجة مخلصه وديعة

محتلية يمثل هذه البساطة في سلوكها (1) . وأعلن السناتو الخنوع بعد توسل حار منه وضعها في مصاف الآلهة . وكانت تمثل في معابدها بصورا جينو وفينوس وسيريز Ceres . وتقرر أن يقسم الشباب من الجنسين ، عند الزواج يمين الوفاء أمام مذبحها بوصفها حاميتهم أو حارستهم العفيفة الطاهرة .

والقت ردائل الابن الرهيبه ظللا على نقاوة فضائل الوالد . وقد أخذ على ماركوس أنه ضحى بسعادة الملايين في سبيل التحيز الجارف لولد غير أهل له ، وأنه اختار خليفة له في أسرته هو ، لا في الجمهورية ، ومهما يكن من أمر ، فإن الوالد القلق ورجال العلم والفضل الذين إهاب بهم لمساعدته ، لم يدخروا جهدا في تعليم كومودس وتوسيع مداركه الضيقة ، وفي تقويم ردائله الناشئة ليجعلوا منه شخصا جديرا بالعرش الذي أعد له . ولكن قل أن تكون قوة التوجيه والتعليم ذات فعالية كبيرة إلا مع الميول والاستعدادات الطيبة حيث يكون التعليم نافذة لجرد التزويد . ومن ثم فإن الدرس الكريه الذي كان يلقيه الفيلسوف الجراد سرعان ما كانت تمحوه وتطمسه في لحظة واحدة همسات أقران السوء . وقد أفسد ماركوس نفسه ثمار هذا التعليم الذي جهد وكد فيه ، حين أشرك ابنه في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، اشراكا تاما في السلطة الامبراطورية . وعاش بعد ذلك أربعة أعوام ، ولكنه في الواقع قضى وقتا كافييا يعض بنان الندم على الخطوة الطائشة التي قفزت بابنه الشاب المتهور عن حدود العقل وقيود السلطة .

ان معظم الجرائم التي تعكر صفو الأمن الداخلي في المجتمع تنجم عن القيود التي فرضتها قوانين الملكية ، تلك القوانين الضرورية غيز المتكافئة مع شهوات الانسان ، وهي قيود تخص القلة من الناس بملكية ما تطمع الكثرة في الاستحواذ عليه أو اقتنائه . ومن بين كل ما تتفتح له الشهية أو تهفو له الشهوة ، قد يكون حب السلطة أكثرها طغيانا وجفاء ، وبعدا عن الروح الاجتماعية . ففي هذه الحالة يتطلب غرور الفرد الواحد خضوع الجماهير ، وفي غمرة الخلافات الداخلية تفقد قوانين المجتمع قوتها . وقل أن تحل محلها قوانين الانسانية . وعندئذ تساعد حدة النزاع وزهو النصر ، واليأس من النجاح ، وذكريات المساوية والأضرار السابقة ، والخوف من أخطار لاحقة - تساعده هذه

(1) لقد سخر العمام من سلامة نية ماركوس . ولكن مدام داسيه Dacier تؤكد لنا ( وقد نصدق سيده ! ) أن الزوج سيخضع إذا ارتضت الزوجة أن تناق .

كلها على اثاره العقول وكنم اصوات الرحمة والاشفاق . ومن جراء مثل هذه البواعث تكاد تكون كل صفحات التاريخ ملطخة بدماء الحروب الأهلية . ولكننا لا نجد في هذه البواعث كلها تفسيراً لفظائع كومودس الذى لم يثر حفيظته شيء ، والذى أوتى كل شيء ، ونعم بكل شيء ، مما ليس بعده زيادة لمستزيد . لقد خلف الابن الحبيب أباه ماركوس وسط هتاف السناتو والجيش ، وجلس الشاب السعيد على العرش فلم ير حوله منافسا يقضى عليه أو أعداء ينزل بهم العقاب . وكان من الطبيعي حقا في مثل هذا المركز الرفيع الهادىء أن يؤثر حب الناس على أن يضر لهم الكراهية والبغض ، وأن يؤثر العظمة الوادعة في عهد أسلافه الخمسة على المصير الشائن المخزى لغيره ودوميتيان .

ولكن كومودس لم يكن — كما يصورونه — وحشا ولد وبه ظمأ لا يرتوى قط الى دم البشر ، قادرا منذ نعومة أظفاره على الاتيان بأى عمل غير انساني . لقد شكلت فيه الطبيعة استعدادا ضعيفا أكثر من أن يكون خيئا شريرا . وجعلت منه بساطته وجبته عبدا أسيرا لأتباعه الذين أفسدوا عليه عقله يوما بعد يوم ، فان قسوته التى كانت في بداية الأمر اطاعة لأوامر الآخرين تحولت الى عادة ، وأصبحت في النهاية غاية الهوى في نفسه .

وجد كومودس نفسه ، بهوت أبيه ، مثقلا بقيادة جيش ضخم ، وشن حرب ضروس ضد قبائل كوادى Quadi وماركومانى Marcomanni ( في غرب ألمانيا ) . وسرعان ما استعاد الشباب الذليل الخليع الذين كان ماركوس قد أقصاهم ، مكانتهم ونفوذهم لدى الإمبراطور الجديد ، فهولوا وبالفوا له في أمر المشاق والمخاطر المتوقعة في حملة في بلاد متوحشة وراء الدانوب ، وأكدوا للأمبر الكسول الخامل أن الرعب الذى يبثه اسمه في النفوس وأسلحة قواده كافية لاتمام غزو هؤلاء المتبربرين المرتعبين ، أو لاقرار الأمور بشكل أكثر جدوى من الغزو والحرب . وأثاروا نزواته الشهوانية بطريقة ماهرة مأكرة ، ثم قارنوا له بين الهدوء والأبهة وصفو المسرات في روما وبين الصخب في معسكر بانونيا حيث لا فراغ ولا ترف . وأصفى كومودس الى هذه النصيحة السارة ، وفيما هو متردد بين ميله الخاص وبين الرهبة التى كان لا يزال يحتفظ بها لمستشارى أبيه ، ولى الصيف دون أن يحس ، وتأجل دخوله الظافر الى العاصمة الى الخريف . ونال حظوة الجماهير لرشاقته وتلفه المحبوب وقضائه الموهومة . وعم الفرح بالصلح المشرف الذى تفضل به على المتبربرين . واعتز

الناس بأن ينسبوا تلهفه على العودة الى روما الى حبه لبلاده .  
أما لهوه الفاجر فقد أنكروه انكارا خافتا على أمير في سن التاسعة  
عشرة .

وفي السنوات الثلاث الأولى من حكم كومودس احتفظ المستشارون  
الأمناء الذين كان ماركوس قد أوصاهم بآبائه ، بكل أشكال  
الإدارة السابقة ، بل حتى بروحها كذلك ، وكان كومودس  
لا يزال يحتفظ في غصاة ، بشيء من التقدير لهؤلاء المستشارين  
وحكمتهم ونزاهتهم وتمرغ الأمير الشاب وخلصاؤه الفجار وعربدوا  
فى بحبوحة الملكية وسلطانها ، ولكن يديه لم تلتخا بعد بالدماء ، بل أنه  
أظهر من كرم العاطفة ما كان يحتل أن يتأصل حتى يصبح فضيلة  
راسخة ، ولكن حادثا فظيما حسم له شخصيته المتقلبة .

فى ذات مساء ، بينما كان الإمبراطور عائدا من المدرج الى  
قصره ، عبر رواق ضيق مظلم ، اندفع نحوه قاتل كان يرقب مروره ،  
وبيده سيف مسلول وصاح بصوت عال : « ان السناتو يبعث بهذا  
اليك » . وحال التهديد دون ارتكاب الجريمة ، وأطبق الحراس  
على القاتل ، وكشفوا النقاب فى الحال عن مدبرى المؤامرة .  
ولم تكن المؤامرة من تدبير الدولة ، بل نسجت خيوطها داخل جدران  
القصر ، ذلك أن لوتشلا Lucilla أخت الإمبراطور ، وأرملة لوتشيس  
فيروس ، وهى تتحرق لهفا على المرتبة الثانية فى الإمبراطورية ،  
وغيره وحقدا على الإمبراطورة الحاكمة ، هى التى زودت القاتل  
بالسلاح للقضاء على أخيها . ولم تجرؤ على أن تطلع على خطتها  
الرهيبه ، زوجها الثانى كلوديوس بومبيانوس ، وقد كان عضوا  
فى السناتو ذا مواهب ممتازة وولاء لا يتزعزع ، ولكنها وجدت  
بين جمهور عشاقها ( وكانت تقلد فى ذلك فوستينا ) رجالا ذوى  
مستقبل يائس ومطامع جامحة ، مستعدين لخدمة أهوائها العنيفة  
والرقيقة فى وقت معا ، وواجه المتآمرون صرامة العدالة ، وعوقبت  
الأميرة المنبوذة بالنفى أولا ، ثم بالموت أخيرا .

ولكن كلمات القاتل حفرت لها مجرى عميقا فى ذهن كومودس ،  
وتركت فيه شعورا ثابتا لا يتزعزع بالخوف والكراهية لكل هيئة  
السناتو . وكانت ثمة طائفة من الوزراء اللجوجين الذين كان يرهب  
جانبيهم ، وفراه الآن يزتاب فيهم على أنهم أعداء مستترون .  
وكانت هناك جماعة الهمازين المشائين - وكانت قد كسرت شوكتهم  
ووثبطت عزائمهم فى العهود الماضية ، ولكنهم وجدوا الفرصة سانحة  
لرفع رعوسهم واسترداد هيبتهم حين رأوا فى الإمبراطور ميلا الى



الكشف عن الخيانة والسخط في السناتو . وكان هذا المجلس الذي اعتبره ماركوس المجلس الأعلى في الأمة ، يتشكل من أفضل الرومان وأكثرهم امتيازاً . وسرعان ما أصبح أى امتياز فى أية ناحية جريمة ، وحفز التلطف على الثراء هؤلاء المشائين النيامين الى العمل . فاعتبرت الفضيلة الحقة لوما صامتا مساوية كومودس ، والخدمات العظيمة موهبة غائقة تنذر بالخطر ، وصدائقة الوالد تحولوا عن الابن . وكان مجرد الشك مساويا للدليل القاطع ، والمحاكمة مساوية للادانة . وكان اعدام عضو محترم يستتبع قتل كل من يرثى لمصيره أو يثار له . وما أن تذوق كومودس طعم الدم البشرى مرة ، حتى بدا عاجزا عن استشعار الرحمة أو الندم .

ومن بين الضحايا البريئة للطفيان كان الحزن أشد ما كان على الأخوين مكسيموس وكنديانوس — من أسرة كوينتيليا *Quintilia* — اللذين لم يتطرق النسيان الى اسميهما قط ، لما كان يربط بينهما من عزى المحبة الأخوية التى خلدت ذكرهما فى الأجيال اللاحقة . فقد ظلّا صنوين فى الدراسة والمهنة والمطالب والمسرات ، وفى ادارتهما لضبيعة كبيرة لم يسلمها قط بأن لآى منهما فيها مصلحة منفصلة عن مصلحة الآخر ، وما تزال توجد شذرات من رسالة اشتركا فى تأليفها ، وكان ملحوظا فى كل عمل من أعمال الحياة أنهما جسمان تحركهما روح واحدة . وكان الأنطونينيون يقدرون مزاياهما ويتهجون لاتحادهما ، ولذلك رفعوهما الى مرتبة القنصل فى نفس العام . وعهد اليهما معا ماركوس بعد ذلك بالادارة المدنية فى بلاد اليونان ، وبقيادة حملة عسكرية هامة انتصرا فيها انتصارا مشهودا على الألمان . هكذا اجتمعا فى حياتهما ، حتى جاء كومودس فجمعت قسوته الرحيمة بينهما فى الممات !

وبعد أن سفك كومودس أكرم الدماء فى السناتو ، نكص فى النهاية الى الأداة الرئيسية لقسوته . ذلك أن كومودس غرق فى الدم وانغمس فى اللهو والترف ، وترك أمر الدولة كله بين يدى برنيز *Perennis* ، وهو وزير ذليل طموح ، قفز الى منصبه بقتل سلفه . ولكنه أوتى حظا وافرا من النشاط والمقدرة . وقد جمع ثروة ضخمة بطريق الاكراه وعن طريق ضياع الأشراف المصادرة والمرهونة اشباعا لجشعه ، وكان الحرس الإمبراطورى تحت امرته المباشرة ، وكان ابنه — الذى أظهر فجأة عبقرية عسكرية ، على رأس فرق الليريا *Illyria* عند ذلك هفت نفس برنيز الى الإمبراطورية

او انه كان قادرا على التطلع اليها ، الامر الذى بدأ فى عينى كومودس  
انه الجريمة بعينها . فحيل بينه وبين منية نفسه وأخذ على غرة  
وأعدم . وسقوط الوزير حادث تافه فى التاريخ العام للامبراطورية ،  
ولكن الذى عجل به هو ظرف غير عادى ، وأثبت فعلا الى أى حد  
تراخت أوصال النظام ، فلم تكن القوات فى بريطانيا راضية عن  
ادارة برنيز فأرسلوا نيابة عنهم ألفا وخمسمائة رجل شخصوا الى  
روما ليبسطوا شكواهم للامبراطور . واستطاع هؤلاء الشاكون  
العسكريون — الذين حزموا أمرهم فألهبوا فرق الحرس ، وبالغوا  
فى قوة الجاش البريطانى ، وأثاروا مخاوف كومودس — استطاعوا  
أن يطالبوا برأس الوزير ، علاجا وحيدا لدرء ما لحق بهم من ضيم  
وأذى ، وكان لهم ما أرادوا . فكانت جراءة هذا الجيش الذى هو  
فى أقصى الأرض ، وكشفه عن ضعف الحكومة نذيرا أكيدا بأخطر  
الفتن والاضطرابات .

وسرعان ما امتضح بعد ذلك أمر الاهمال فى الادارة العامة  
نتيجة اضطراب جديد ، فكان بمثابة نار فتجت عن أصغر الشرر .  
ذلك هو الهرب من الجيش الذى بدأ يشكل ظاهرة عامة بين القوات ،  
ولم يلمس الهاربون النجاة فى الفرار أو الاختفاء ، بل أنهم قطعوا  
الطرق العامة واعملوا السلب والنهب . وجمع ماترنوس Maternus  
وهو جندى خاص ذو جراءة نادرة تفوق مركزه — جمع هذه  
العصابات من اللصوص وكون منها جيشا صغيرا ، وفتح أبواب  
السجون ، ودعا العبيد لإعلان حريتهم ، وعاث فسادا ونهباً ، دون  
حسيب أو رقيب ، فى المدن الغنية المعزلة فى الفال واسبانيا .  
وأخيرا ، وازاء تهديدات الامبراطور ، أفاق بعد طول تراخ وتقاعدس ،  
حكام الولايات الذين طال وقوفهم موقف المتفرج على هذه الغارات ،  
أن لم يكن موقف الشريك فيها . ورأى ماترنوس أنه قد أحيط به  
وأنه لابد مغلوب على أمره ، فنثر آخر ما فى جعبته فى محاولة  
يائسة ، ذلك أنه أمر أتباعه بالتفرق ، ويعبور جبال الألب فى جماعات  
صغيرة متكرين فى أشكال مغايرة بعضها لبعض ، والتجمع فى روما ،  
فى غمرة الهرج والمرج فى عيد القديسة سييل . وكان اللص العسائى  
يظلم فى قتل كومودس واعتلاء العرش ، والتأمت خطواته فى براعة ،  
حتى ملأت قواته بالفعل شوارع روما ، ولكن حقق أحد شركائه  
المواطنين معه أماط اللثام عن هذا المشروع الشاذ الغريب وحطمه  
فى اللحظة التى آذن فيها بالتنفيذ .

ومن عادة الأمراء الذين تملأ الريبة والشكوك قلوبهم ، أنهم

كثيراً ما يرفعون من مرتبة احط بنى البشر ، حيث يفريهم الوهم بأن هذا الذى لا يعتمد الا على حظوته لدى سيده ، لن يتعلق الا بشخص هذا السيد الذى اكرمه ، ولن يحب الا اياه . ومن هنا نرى كلياندر Cleander ، وهو من اهل فريجيا ( مملكة قديمة وسط آسيا الصغرى ) ، وكان فيهم من الخسة والعناد ما لا يجدى معه الا كيل الضربات لهم . وارسل كلياندر من موطنه الى روما بوصفه عبداً . والتحق بالقصر الامبراطورى بهذه الصفة ، ووضع نفسه رهن اشارة سيده ، وسرعان ما قفز الى اعلى مرتبة يمكن ان يحظى بها واحد من الرعية ، وكان تسلطه على عقل كومودس اقوى بكثير من نفوذ سلفه ، لان كلياندر لم يكن له من المقدرة او المزايا ما يثير حفيظة كومودس او يزعزع ثقته فيه . وكان الشره هوى نفسه وأساس ادارته . وكانت وظائف الفناصل والنبلاء ، وعضوية السناتو ، مفتوحة للبيع والشراء . وكان الامتناع عن شراء هذه الامجاد العقيمة المهينة بأكبر جزء من الثروة يعتبر ضرباً من النفور والبغض . وكان الوزير يشارك الحاكم فيما يفنمه من الشعب فى الوظائف والأشغال التى ندر بها . وكان تنفيذ القوانين امراً تعسفياً تتدخل فيه الرشوة ، وكم استطاع المجرم الثرى ، لا مجرد الغاء الحكم الذى صدر عليه عدلاً وحققاً فحسب ، بل كذلك انزال أى عقاب تطيب له نفسه بمن اتهمه وبالشهود والقاضى .

وبهذه الوسائل استطاع كلياندر فى سنوات ثلاث ، ان يجمع من الثروة اكثر مما تيسر لعبد معتق قط . وكسان كومودس راضياً غاية الرضا بالهدايا الفاخرة التى كان نديه يضعها تحت قدبيه فى انسيب الأوقات . وليحول كلياندر عن شخصه نظرات الشعب الحاقدة الحاسدة ، شيد باسم سيده ، الحمامات والأروقة والملاعب لخدمة الجمهور ، وكان يبنى نفسه بان الرومان المبهورين المظلمين بهذا السخاء الظاهر ، لابد ان يكونوا اقل تأثراً بالمشاهد الدورية التى تقع تحت بصرهم كل يوم ، وأن ينسوا موت بيرثيس Byrthus ، وكان شيخاً فى السناتو ، زوجة الامبراطور احدى بناته جزاء مواهبه الفائقة ، وان يصفحوا عن اعدام آريوس انطونينوس آخر من مثل اسم الانطونينين وشعائلهم الطيبة . وكان الأول قد حارل فى نزاهة اكثر منه فى حزم ، ان يظهر صهره على حقيقة شخصية كلياندر . وكان الثانى ، وهو يشغل وظيفته البروقنصل فى آسيا ، قد أصدر حكماً ضد مخلوق نافه من رجال صاحب الحظوة ( يتصد كلياندر ) ، فكان فى اصدار الحكم تضاع عليه هو نفسه . وبعد سقوط برنيز

اتخذت فظائع كومودس ، لفترة قصيرة ، مظهر الرجوع الى الفضيلة ، حيث نقض أشنع تصرفاته ، وحشا ذاكرته بلعنات الجمهور ، ونسب الى هذا الوزير ونصائحه الخبيثة كل الأخطاء التي ارتكبت عندما كان الامبراطور شابا يافعا غير محنك . ولكن نمده لم يدم أكثر من ثلاثين يوما ، وكثيرا ما بات عهد برنيز أمرا مبكيا مأسوفا عليه ، الى جانب طغيان كلياندر .

وبلغ الطاعون والقحط بروما أقصى ذروة الكارثة . وعزى الأول - الطاعون - الى سخط الآلهة فقط ، أما المجاعة فقد اعتبر السبب المباشر لها ، احتكار القمح بعون من الوزير وثروته وقوته . عندئذ انفجر السخط عاليا بين الجموع في الميادين ، بعد أن ظل طويلا لا يعدو أن يكون همسا هنا أو هناك . وعزف الناس عن مسراتهم المفضلة الى مسرة البذ وانشهى وهى الانتقام ، واندفعت جموعهم الى قصر في الضواحي ، كان يقضى فيه الامبراطور خلواته ، وطالبوا في صيحات غاضبة برأس عدو الشعب . فأمر كلياندر ، بوصفه قائد الحرس البريتورى ، فرقة من الفرسان بالاسراع الى مهاجمة الجموع المتمردة وتفريقهم . واندفعت الجموع هاربة الى المدينة ، وذبح كثيرون ومات أكثر منهم تحت الأقدام ، ولكن عندما دخل الفرسان المدينة عاق تقدمهم في شوارعها وابل من الحجارة والنبال أمطروا به من سطوح المنازل ونوافذها ، وانجاز الى جانب الشعب الحراس المشاة الذين كانوا من قديم ينقمون على الفرسان امتيازاتهم ووقاحتهم . وأصبح الهياج عاما شاملا ، وأنذر بمذبحة عامة . واستسلم الفرسان آخر الأمر ، وقد غلبتهم الكثرة ، وعادت فورة الشعب أشد عنفا ، واندفع الناس الى ابواب القصر الذى تبع فيه كومودس غارقا في ألوان الترف ، وكأنه الوحيد الذى لم يدر من أمر الحرب الأهلية شيئا . وكان شبح الموت يقترب من شخصه بهذه الأنباء السيئة . وكاد الهلاك يكون مصيره ، وهو مستلق في مأمنه لولا أن امرأتين - فادلا Fadille أخته الكبرى ومارتشيا Marcia أحب خليلاته اليه - تجاسرتا فاقتمتا عليه الباب ، وارتمتا تحت قدميه وقد خنقتهما العبرات ، وشعث شعر رأسيهما ، وبكل ما أوتيتا من فصاحة أملاها منطق الفرع ، كسفا للامبراطور المرتعب عن جرائم الوزير ، وغضب الشعب ، والخراب المحقق الذى قد يحيق في بضع دقائق ، بقصره وشخصه . وفاق كومودس من سكرته وأمر بأن تلقى رأس كلياندر الى الشعب ، وهذا المشهد المأمول - مشهد رأس الوزير - من سورة الهياج ، وربما كان في مقدور ابن ماركوس بعد ، أن يستعيد ثقة رعاياه به وجهم له .

ولكن كل أحاسيس الفضيلة والانسانية كانت خامدة في نفس كومودس . فانه في الوقت الذي ترك فيه مقاليد الأمور لهؤلاء المقربين غير الجديرين بشيء ، نراه لم يقدر من قوة السيادة شيئا أكثر من حرية الانغماس بلا حدود في ملذاته الشهوانية . فكان يقضى ساعاته في بيت الحريم الذي يضم ثلاثمائة من جميلات النساء ، وكثيرا من الغلمان من كل مرتبة ومن كل ولاية ، وحينما لم تجد كل أفانين الاغواء والاعزاء ، لجأ الوحش العاشق الى استعمال العنف . وكما أسهب وأفاض المؤرخون القدامى في ذكر مثل هذه المشاهد المقوطة من العهر والفجور ، تلك المشاهد التي لم ترع حرمة لاية ضوابط من الطبيعة أو من الاحتشام ! . ولكن ليس من اليسير أن نترجم أوصافهم الأمانة الدقيقة في وقار لغتنا الحديثة . وكانت أوقات اللهو تعج بأحط ألوان التسلية . ولم يفلح قط أثر أى عصر مهذب أو أية تربية يقظة في صب أبسط قطرة من العلم فى مخه البهيمى الغليظ . وكان أول امبراطور رومانى لم يتذوق لذة المعرفة . لقد تفوق نيرون نفسه ، أو تظاهر بأنه متفوق ، فى فنون الموسيقى والشعر الجميلة ، وليس لنا أن ننقص من قدر تطلعاته ، لولا أنه حول لذة الراحة فى ساعات فراغه الى الأعمال والأطماع الرهيبة لحياته . ولكن كومودس ، منذ صباه المبكر ، تبين فى نفسه نفورا شديدا لكل ما هو معقول أو كريم ، وتعلقنا شديدا بالتسلية والمسرات الشعبية ، مثل ألعاب السيرك والمدرجات المجالدة وصيد الوحوش . وكان يستمع الى المعلمين الذين رتبهم له أبوه فى مختلف الفروع ، فى شروود وضجر ، على حين وجد فيه العرب والبارثيون الذين كانوا يديرونه على الرماية بالقوس والنشاب ، تلميذا فرحا مبتهجا بعمله ، سرعان ما تعادل مع أمرهم فى ثبات العين وخفة اليد .

وكان الجمهور الخنوع الذى اعتمد مصيره على رذائل سيده ، يصفق ويهلل لهذه التصرفات الشائنة . وأعاد صوت الملق الغدار الى ذاكرته أن هرقل الاغريقى حظى بمكان بين الآلهة ، وبذكرى خالدة بين الناس ، يمثل هذه المآثر ، ويقهر أسد نيميا ( واد فى بلاد اليونان ) ويقتل خنزير اريمانثوس البرى . ولكن غاب عن أذهانهم أنه فى العصور الأولى للمجتمع حين كانت هذه الحيوانات المفترسة كثيرا ما تنازع الانسان السيطرة على الأرض غير المسكونة ، كان النزاع مع هذه الوحوش يعتبر من أنبل الأعمال البطولية البريئة النافعة ، أما فى حالة الامبراطورية الرومانية المتحضرة ، فان هذه الحيوانات المتوحشة

قد ولت الأدبار من وجه الانسان ومن الاماكن المجاورة للهدن الآهله بالسكان . أما مفاجأة هذه الحيوانات في مأواها المنزول وحملها الى روما ليزبحها الامبراطور بيده وسط مظاهر الأبهة والعظمة ، فكانت عملا سخيفا من جانب الامبراطور ، صعب الاحتمال على الشعب (١) . وجهلا منه بهذه الفوارق ، عمد كومودس الى التشبه بهذا المجد ، ولقب نفسه ( كما نقرأ حتى اليوم على أوسمته ) « بهرقل الرومان » . ووضع الهراوة وجلد الأسد الى جانب العرش وسط الشعارات الملكية ، وأقيمت التماثيل التي تصور كومودس في شخصية وقى خواص الآله الذي حاول كومودس في البرنامج اليومي لمسرته الشرسة - ان ينافسها .

وقرر كومودس - وهو يزهر ويتيه عجا بهذا المديح الذي قتل في نفسه كل شعور دفين بالخزي والعار - ان يعرض هذه الألعاب أمام أنظار الشعب الروماني - وكانت حتى تلك اللحظة ، وقارا واحتشاما منه ، محصورة بين جدران قصره لا يشهدا الا فئة قليلة من المقربين . وجذبت مختلف بواعث الملق والخوف والفضول الى المسرح المدرج جهورا لا يحصى من المتفرجين وحظيت مهارة الامبراطور الخارقة في اللعب بشيء من الاستحسان الذي تستحقه . وأينما طعن في رأس الحيوان أو قلبه كان الجرح محققا مهيتا سواء بسواء . وكثيرا ما ضيق كومودس الخناق استعدادا للعمل الخاطف ، وكان يعاجل العنق العظمى الطويل للنعامة ، بسهم صنع رأسه على شكل هلال ، فيطرحها الى الأرض ، وكان يطلق سراح نمر ، وينتظر رامي السهم حتى يهجم النمر على مجرم يرتعد فرقا ، وفي اللحظة عينها ينطلق السهم فيردى الحيوان قتिला ، دون أن يصيب الرجل أى اذى . وكانت حظائر المسرح المدرج تموج على الفور بمائة من الأسود التي صرعتها من نبال كومودس ، وهى تجرى هائجة حول العرين . ولم تحم ضخامة جسم الفيل أو جلد الخرتيت الأحرش هذا أو ذلك ضد ضرباته . وجادت أثيوبيا والهند بنتائجها ، وكفى في المدرج من حيوانات قتلت لم يكن لها أى وجود من

(١) كانت الأسود فى أفريقيا - اذا عضها الجوع - تغير على القرى المكتشفة والأراضى المنزرعة ، دون حساب . أما حيوان الملك فكان مخصصا لمنمة الامبراطور والناصة . وكان الفلاح المنكود يتعرض لعقاب شديد اذا هو قتل واحدا منها ، ولو دفاعا عن نفسه ، وقد خفف هونوريوس من قوانين اللعبة هذه ، ثم الغاما جيستينيان نهائيا .

قبل الا فى تصاوير الفن أو ربما فى الخيال ! (1) . واتخذت فى كل هذه العروض أشد الاحتياطات لحماية شخص « هرقل الرومان » من أية مينة يائسة من حيوان مفترس قد لا يحسب حسابا لحرمة الامبراطور أو قدسية الاله .

ولكن احط الناس قدرا من بين الرومان كانوا يستشعرون الفضيحة والحطلة حين يرون مليكهم يدخل الحلبة بوصفه مجالدا ويتالق فى حرفة دمفتها القوانين والآداب الرومانية بأعدل أمارات العار والفجور . واختار الامبراطور لنفسه ملابس السكوتر Secutor وسلاحه ، ذلك الذى يشكل صراعه مع الربياريوس Retiarius أجمل مناظر الألعاب الدامية فى المسرح المدرج . وكان السكوتر بخوذة وسيف وقرص ، أما غريمه العارى فكان يتسلح بشبكة كبيرة ورمح ذى ثلاث شعب ، بالأولى يحاول أن يحتبل عدوه ويعرقله ، وبالثنى يفتك به . فإذا أخطأ الرمية الأولى اضطر الى الفرار من تعقب « السكوتر » له حتى يهيبء شبكته لجولة ثانية . وصارع الامبراطور على هذا النسق سبعمائة وخمس وثلاثين مرة . وكانت هذه المنجزات المجيدة تسجل بعناية ضمن الأعمال العامة للامبراطورية . وحتى لا يترك بابا للسفالة والانحطاط دون أن يطرقه ، كان الامبراطور يتقاضى من الاعتمادات العامة المخصصة للمجالدة راتبا باهظا حتى لقد أصبح ضريبة جديدة شسائنة حقيرة يدفعها الشعب الرومانى . ومن الميسور أن يذهب بنا الظن الى أن سيد العالم كان فائزا على طول الخط فى هذه المياريات فى المدرج . أما اذا مارس مهارته فى مدرسة المجالدين أو داخل قصره ، فكثيرا ما تشرف منازلوه التعساء بضربة قاتلة من يده ، وبهذا يبصمون ملقهم بخاتم من دمائهم . وعند ذاك كان يحتقر اسم « هرقل » ولم تكن أذناه تطرب الا لاسم بولوس Paulus وهو اسم مجالد « سكوتر » مشهور . وكان هذا الاسم محفورا على تماثيله الضخمة ، ومكررا فى الهتافات الكثيرة للسنانو المهلل الذى يرثى لحاله . وكان كلوديوس بيبيانوس ، زوج لوتشيليا الفاضل هو السنانور الوحيد الذى حافظ على شرف مكانته ، فسمح لأبنائه — بوصفه والدا — بارتياح المدرج حفاظا على سلامتهم ، وأعلن — بوصفه رومانيا — أن حياته تحت تصرف امبراطوره ، ولكنه لن يشهد قط ابن ماركوس وهو يمتهن شخصه ووقاره . وأفلت بيبيانوس من غضب الطاغية ، وأوتى من الحظ السعيد ما أمكن معه الابقاء على حياته ، وعلى شرفه .

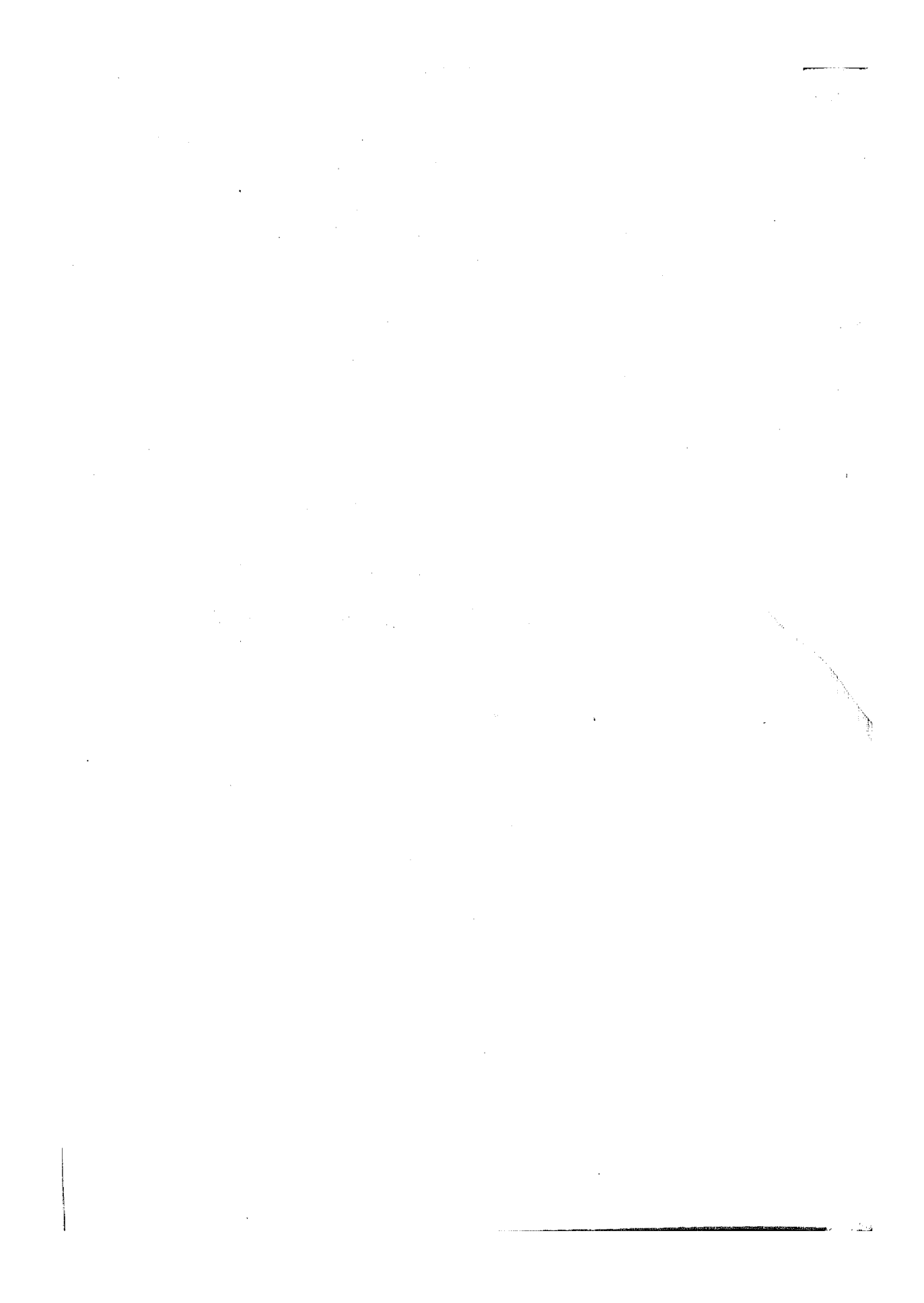
(1) قتل كومودس الزرافة ، وهى أطول الحيوانات الكبيرة ذوات الأربع وأكثرها وداعة وأقلها نفعا . ولم تر أوروبا هذا الحيوان الغريب الذى يستوطن الأجزاء الداخلية فى افريقيا بعد ذلك حتى عهد النهضة وحاول مسيو دى بفر M. de Buffon وصفه فى كتابه « التاريخ الطبيعى » المجلد الثامن ، ولكنه لم يجرؤ على رسم الزرافة .

وبلغ كومودس الآن ذروة الرذيلة والعار . وكان ، وسط تهليل حاشية مرائية متبلقة ، عاجزا عن أن يخفى عن نفسه أنه استحق احتقار ويغض أى انسان أوتى ذرة من الفضيلة فى الإمبراطورية ، وأهاج روح الشراسة فيه وعيه لهذه الكراهية وحقده على أية شئمة فاضلة ، وتوقعه الحقيقى للخطر ، وعادة القتل التى مارسها فى مسراته اليومية . واحتفظ التاريخ بقائمة من الشيوخ القناصل الذين ضحيت حياتهم على مذبح ريبة الإمبراطور الطائشة ، التى كانت تفتش فى لهف زائد عن هؤلاء الأشخاص المنكودين الذين تربطهم صلة القربى ، مهما كانت بعيدة ، بالأنطونيين ، ولم يفلت منهم حتى الوزراء الذين كانوا أدواته فى جرائمه وفى ملاحيه . وأثبتت تساوته فى النهاية أنها لا بد قاضية عليه . لقد سفك أنبل دماء روما دون رقيب أو حسيب ، ولكنه هلك حين تولاه الفزع فأوجس خيفة من معيته ، ذلك أن مارتشيا خليلته المقزبة ، واكليكسوس Eiectus حاجبه ، وليتوس Laetus رئيس حرسه ، كل أولئك أزعجهم وأنذرهم مصير أقرانهم وأسلافهم ، ليتفادوا الدمار المحقق بهم فى كل ساعة ، نتيجة نزوات الطاغية المجنونة أو السخط المفاجئ للشعب ، فانتهزت مارتشيا فرصة تقديم جرعة من النبيذ لعشيقها بعد أن عاد متعبا مكدودا من صيد الوحوش . وأوى كومودس الى فراشه ، ولكن بينما كان يتلوى بفعل السم والخمر ، اقتحم غرفته شاب مفتول العضلات — يحترف المصارعة — وقتله خنقا دون مقاومة . ونقل الجثمان سرا خارج القصر ، قبل أن تظهر فى المدينة ، أو حتى فى البلاط أية بادرة من الريبة فى موت الإمبراطور ، وهكذا كان مصير ابن ماركوس ، وهكذا كان من السهولة بمكان تحطيم الطاغية البغيض الذى أمعن ، بسلطاته الحكومية المصطنعة ، على مدى ثلاثة عشر عاما ، أمعن فى ظلم الملايين الكثيرة من الرعايا الذين كان الواحد منهم يستوى مع سيدهم فى القوة وفى القدرات الشخصية .

يعتمد جييون ، فى كلامه عن كومودس ، على الإشاعات المتواترة التى أثارها سلوك الإمبراطور ، ولم يكن كومودس رومانيا فى تفكيره ، وقد تحدى الآراء التقليدية عن الحرية . وبدأ يهبط بروما من ذرى شموخها الأصيل . وبوصفه « هرقل الرومانى » ، و « الشمس المشرقة » ، تخلى الحدود ووجد الطقوس الوطنية القديمة ، ومهد الطريق لأنسة سيفيروس Severus ، وكان قتلته يمثلون القوات الرجعية . وقدم هؤلاء المتآمرون الملك الى برتيناكس Pertinax وهو سناتور معمر محافظ ، ولكنه قتل بيد الحرس البريتورى بعد أن حاول القيام ببعض الإصلاحات ، وبعد حكم دام ستة وثمانين يوما .



نمو الأوتوقراطية العسكرية  
وتدفق الروح الشريفة



## الفصل الخامس

( ١٩٣ - ١٩٧ م )

### البريتوريون يبيعون الامبراطورية

#### قيام سبتيميوس سيفيروس

ان الاحساس بقوة السيف لهو اكثر وأوضح في المملكة المترامية الأطراف منه في الجماعة الصغيرة . ولقد حسب أقدر السياسيين أنه ليست هناك دولة تستطيع أن تحتفظ بأكثر من واحد من مائة من أفرادها مسلحين ولكن خاملين لا يعملون ، دون أن ينتابها الارهاق السريع . وقد يكون هذا التقدير النسبي قياسيا ، ولكن رغم ذلك ، يختلف أثر الجيش على بقية المجتمع تبعا لدرجة قوته الايجابية . ولن تتحقق مزايا العلوم العسكرية والنظام العسكري الا اذا توحد عدد مناسب من الجنود في هيئة واحدة تحركها روح واحدة . ويكون هذا الاتحاد عقيما اذا قامت عليه حفنة من الرجال ، واذا كان الجيش أضخم من أن يسلس مسار اتحادا غير عملي ، فان قوة الآلة تتحطم بالمصغر المتناهي أو الثقيل المفرط في زباركها سواء بسواء . ولتوضيح هذه الملاحظة ، يكفى أن نشير الى أنه ليس هنالك من تفسوق القوة الطبيعية ، أو الأسلحة الصناعية ، أو المهارة المكتسبة ، ما يتمكن به رجل واحد من اخضاع مائة من أقرانه اخضاعا دائما ، وسرعان ما يكتشف الطاغية في مدينة واحدة أو في اقليم صغير أن مائة من أتباعه المسلحين لن يشكلوا الا دفاعا ضعيفا في مواجهة عشرة آلاف من المواطنين أو الفلاحين . ولكن مائة ألف من جنود أحسن تنظيمهم يمكن أن يسيطروا بسيطرة مطلقة على عشرة ملايين من الرعايا ، كما أن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفا من الحرس لابد أن يلقوا الرعب في قلوب أكبر عدد من السكان ازدحم في شوارع عاصمة ضخمة .

وجدير بالذكر أن هذه العصابات البريتورية — التي كان عنفها الفاجر أول أعراض اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسببه — قل أن بلغت هذا العدد الذي أسلفنا ذكره . وبدأ انشاؤها في عهد أوغسطس . كان هذا الطاغية الماكر يدرك أن القوانين قد تضى على ملكه المغتصب لونا ما ، ولكن قوة السلاح وحدها هي التي تستطيع المحافظة عليه ، ولهذا شكل بالتدريج هيئة قوية من الحرس ، على استعداد دائم لحماية شخصه ، وارهاب السناتو ، وتحول اما دون أية بادرة للثورة أو تقوم بسحقها . وميز هذه الفرق المحظية بأجر مضاعف وامتيازات هائلة ، ولكن لما كان مظهرها الرهيب قد يرعب الشعب الروماني أو يستفز ، فقد اكتفى بإبقاء ثلاث كتائب منهم فقط في العاصمة ، ووزع الباقي على المدن القريبة في ايطاليا . ولكن بعد خمسين عاما من السلام والعبودية ، أقدم تيبيريوس على اتخاذ اجراء حاسم كان من شأنه أن يحكم الى الأبد الأغلال في بلده . ذلك أنه تذرع بادعاءات منمقة قوامها الرغبة في تخليص ايطاليا من عبء الأحياء العسكرية الثقيل بادخال نظام أكثر صرامة في الحرس ، ومن ثم جمعهم في روما في معسكر دائم تم تحصينه بعناية بارعة ، وأقيم في موقع متحكم .

ومثل هؤلاء الخدم الأشداء ضروريون دوما ، ولكنهم في الغالب يشكلون خطرا فتالا على عروش الاستبداد . وبقام الحرس البريتوري ، بهذا الشكل ، على التقصر وعلى السناتو ، علمهم الامبراطور كيف يدركون قوتهم ويقفون على ضعف الحكومة المدنية ، وكيف يشهدون مساوىء سادتهم في احتثار مألوف ، وكيف يطرحون جانباً رهبة التوقير التي لا يبقى عليها في النفوس نحو القوة المتصورة سوى البعد والغموض . ووسط الخمول المتزف في مدينة غنية كان شعور الحرس بقوتهم التي لا تقاوم ، يغذى غرورهم ، كما أنه لم يكن من الميسور أن يخفى عليهم أن شخص الملك وسلطة السناتو والخزانة العامة وعرش الامبراطورية ، كل أولئك كان بين أيديهم وتحت تصرفهم . واضطر أكثر الأباطرة حزما وأكثرهم استقرارا ، من أجل صرف هذه العصابات البريتورية عن مثل هذه التأملات الخطيرة — اضطر الى مزج الأوامر بالملاطفة والثواب بالعقاب أو الى تملق غرورهم والانغماس في ملذاتهم ، والتفانى عن مخالفتهم ، والى شراء اخلاصهم المزعزع بالعطايا اللسبية التي أصبحت منذ عهد كلوديوس حقا مشروعا لهم عند جلوس امبراطور جديد على العرش .

وحاول المدافعون عن الحرس أن يبرروا بالحجة والبرهان تلك القوة التي قرروها لأنفسهم بحد السيف . فقالوا أن موافقة الحرس

على تعيين الامبراطور ضرورة أساسية بمقتضى أتيوم مبادئ الدستور. ومهما كان من أمر اغتصاب السناتو مؤخرا لانتخاب القناصل والقواد والقضاة ، فان هذا الانتخاب كان حقا قديما غير مشكوك فيه للشعب الرومانى . ولكن أين يوجد الشعب الرومانى ؟ لن نجده ، على التحقيق وسط الجمع المختلط من العبيد والغرباء الذى ملا شوارع روما ، وهم سوقة اذلاء لا روح لهم ولا يمتلكون شيئا . أما المدافعون عن الدولة والذائدون عن حياضها فكانوا يختارون من بين زهرة شباب ايطاليا ، ويدربون على استخدام الأسلحة وممارسة الفضيلة ، ومن ثم كانوا الممثلين الأصلاء للشعب ، وخير المؤهلين لانتخاب الرئيس العسكرى للجمهورية . ومهما اعوزت الحكمة والعقل هذه الادعاءات فانه لم يكن من الميسور دحضها ، فعندما زاد البريتوريون الأشداء من وزنهم بوضعهم أسلحتهم فى كفة الميزان ، كما فعل المتبربر الذى غزا روما .

لقد انتهك البريتوريون حرمة العرش بشتلهم برتيناكس شر قتلة ، كما أساءوا الى جلاله بسلوكلهم بعد ذلك . وكان المعسكر بلا قائد ، بل ان لانوس ، الذى كان قد أثار العاصفة زاع عن السخط العام . ووسط هذه الفوضى الرهيبة ، وفيما كان سلبشيانوس *Sulpicianus* وهو حمو الامبراطور وحاكم المدينة الذى أرسل الى المعسكر عند أول انذار بالتمرد - يحاول تهدئة سورة الجماهير ، أخرسته العودة الصاخبة لقتلة برتيناكس وهم يحملون رأسه فوق حربة . ولو أن التاريخ تسد علينا أن نلاحظ كل مبدا وكل عاطفة تستسلم لأحكام الطمع العائنية ، الا أننا لا نكاد نصدق أن سلبشيانوس ، فى هذه اللحظات الرهيبة المليئة بالفزع ، كان يمكن أن يتطلع الى عرش تادخل بدم حديث لوحد من ذوى قرباه الأقربين ومن أفضل الأمراء . ولكنه شرع بالفعل فى استخدام الحجة القاطعة ، والمفاوضة من أجل المنصب الامبراطورى ، ولكن واحدا من أحزم البريتوريين توقع أنهم بمثل هذا التعاقد الخاص قد لا يحصلون على ثمن عادل لهذه السلعة القيمة ، فأسرع الى الأسوار وأعلن بأعلى صوته أنهم لن يتخلوا عن العالم الرومانى الا لمن يدفع أعلى ثمن فى مزاد عام .

وأثار هذا العرض الدنى ، وهو أوتج ما وصل اليه تطسرف السيطرة العسكرية - أثار فى المدينة غما وعارا واستياء عاما ، ووصل فى النهاية الى مسامع ديدىوس جوليانوس *Didius Julianus* وهو سناتور غنى كان منصرفا الى شهوات بطنه ، دون اعتبار لهذه الكوارث العامة . وسهل على زوجه وابنته ومعقيقه وأذنايه أن يقنموه بأنه جدير بالعرش ، وناشدوه فى حماس أن ينتهز هذه الفرصة

السعيدة . وأسرع الرجل العجوز العابث الى معسكر البريتوريين ، حيث كان سلبشيانوس لا يزال يفاوض الحرس ، ودخل في المزاك ضده ، من أسفل السور . وأجريت المفاوضات غير اللائقة عن طريق رسل أمعاء تنقلوا بالتناوب من طالب الى آخر ، ليبلغوا كلاما منهم بالعرض الذى قدمه منافسه . وكان سلبشيانوس بالفعل قد وعد كل جندى بخمسة آلاف درهم ( أكثر من مائة وستين جنيها ) ، ولكن جوليان المتلهف على المنصب قفز على الفور الى ستة آلاف ومائتين وخمسين درهما ( أكثر من مائتى جنيها استرلينى ) . وفتحت في الحال أبواب المعسكر للمشتري ، وأعلن امبراطورا ، وتلقى يمين الولاء من الجنود الذين عادوا الى شىء من الانسانية الى حد أنهم اشترطوا عليه أن ينسى ويغفر لسلبشيانوس منافسته اياه .

وكان حتما على البريتوريين أن ينفذوا الآن شروط البيع . فوضعوا مليكهم الجديد ، الذى خدموه واحتقروه معا ، وسط صفوفهم ، وأحاطوه من كل جانب بدروعهم ، وقادوه في نظام دقيق لاختراق الشوارع الخالية في المدينة . وصدرت الأوامر الى السناتو بالاجتماع . ووجد اصدق اصدقاء برتيناكس ، أو الأعداء الشخصيون لجوليان أنه من الضروري أن يتظاهروا بقدر أكثر من عادى من الرضا بهذه الثورة السعيدة . وبعد أن ملأ جوليان دار المجلس بالجنود المسلحين ، أفاض في الكلام عن الحرية التى اقترن بها انتخابه ، وفي شمائله العالية وفي تأكده التام من تعلق السناتو به . وأظهر المجلس الخنوع (بفتح الخاء) غيبته وغبطة الناس عامة ، وقدموا له ولاءهم ، ومنحوه كل السلطات الامبراطورية على اختلاف أنواعها . وتوجه جوليان في نفس الموكب العسكرى من السناتو الى القصر ليضع يديه عليه . وكان أول ما استرعى نظره فيه جذع برتيناكس الذى ترك بالقصر والمائدة المتواضعة التى أعدت لعشائه . فنظر الى الواحد دون اكتراث ، والى الآخر باحتقار ، ثم أعدت ، بناء على أوامره ، وليمة فاخرة ، ثم تسلى الى ساعة متأخرة من الليل بلعب النرد وبمشاهدة الراقصة الشهيرة بيلادس Pylades . على أنه لوحظ أنه ، بعد أن انصرف حشد المتملقين وشركوه للظلام والوحدة والتأمل الرهيب ، قضى ليلة لم يذق فيها طعم النوم ، ومن المحتمل أنه أخذ يقرب في نفسه حماقتة المتهورة ، ومصير سلفه الفاضل ، وحق التملك الخطير المشكوك فيه لامبراطورية ، ذلك الحق الذى لم يكسبه عن جدارة ، بل اشتراه بالمال .

وحق له أن ترتعد فرائصه ، فقد وجد نفسه على عرش العالم وحيدا بلا صديق أو حتى مرافق ، بل ان الحرس أنفسهم عراهم الخجل من

الأمير الذي أغراهم جشعهم بقبوله ، كما أنه لم يكن ثمة مواطن لم ينظر بعين الجزع الى اعتلائه العرش على أنه آخر وصية لاسم الرومان . أما الأشراف الذين اقتضت مكانتهم البارزة و ثروتهم الطائلة أشد الحرص ، فقد وضعوا كبرياءهم في جيوبهم وتصنعوا عواطفهم وقابلوا ما تظاهر به الامبراطور من لطف ورقة بابتسام الرضا وبما يقتضيه المقام من واجب الحفاوة . أما الشعب فقد وجد في كثرة عدده وخمول ذكره مأمناً للتنفيس الحر عما يجيش في صدره . ورددت الشوارع والمحال العامة في روما صدى الصيحات واللعنات ، وجابه الشعب الحائق جوليان بالاساءة وأبوا عليه سخاءه ، وادراكا منهم لعالية استيائهم ، استدعوا علانية فرق الحدود لتؤكد جلال الامبراطورية الذي انتهك وأسىء اليه .

**أعلنت قوات بانونيا Pannonia سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus امبراطورا ، فصر الألب ، وأقره السناتو على العرش ، ثم أعدم جوليانوس ، وهزم سيفيروس منافسيه المطالبين بالعرش وهما بسكنيوس نيجر Pescennius Niger حاكم سوريا ، وألبينوس Albinus حاكم بريطانيا .**

### سبتيميوس سيفيروس

ان المصلحة الحقيقية لاي حاكم مطلق لتتفق بصفة عامة مع مصلحة شعبه ، فان أعدادهم و ثروتهم ونظامهم وأمنهم لهي أفضل الأسس ، وهي الدعائم الوحيدة لعظمته الحقيقية . واذا كان مجردا من الفضيلة ، فان الحزم قد يعوض عنها ، وقد فرض نفس قواعد السلوك . واعتبر سيفيروس الامبراطورية الرومانية ملكا خاصا له ، فما أن استتب له الملك حتى أولى هذا الملك العظيم عنايته لاصلاحه وتحسينه ، وسرعان ما صححت القوانين الصالحة التي نفذت في عزم لا يلين ، معظم المساوىء التي انتابت — منذ موت ماركوس — كل ناحية في الحكومة . وفي ولاية القضاء تميزت أحكام الامبراطور بالتبصر والغلظة وعدم التحيز ، وما انحرف يوما عن الطريق المستقيم للعدالة الا كان هذا بصفة عامة مجاملة للفقراء والمظلومين ، ولم يكن في الحقيقة صادرا عن معنى من ممانى الانسانية أكثر منه عن ميل طبيعي في الحاكم المطلق ليذل غرور السلطة ، ويهبط بجميع رعاياه الى نفس المستوى العام من التبعية

المطلقة . وكان تذوقه الباهظ الثمن لاقامة المباني والحفلات الفخمة ، وفوق كل شيء توزيعه المستمر السخي للغلال والمؤن — كل أولئك كان أنجح الوسائل الأكيدة لانتزاع حب الشعب الروماني له وتعلقه به . وزالت مساوىء الفتن الأهلية . ونعمت الولايات مرة أخرى بهدوء السلام والازدهار . واستردت أريحية سيفيروس وسخاؤه كثيرا من المدن ، فدخلت في عداد مستعمراته ، وأظهرت اغتباطها وامتنانها بما شيد من آثار عامة . وأحيا ذلك الامبراطور المحارب الموفق شهرة القوات الرومانية ، وكان يزهو بحق بأنه تسلم الامبراطورية منهوكة بالحروب الخارجية والمحلية ، ثم خلفها مستقرة في سلام تام شامل مشرف .

وبدا أن كل جراح الحرب الأهلية قد التأمت تماما ، ولكن سمومها الثابتة كانت لا تزال تكمن في جوهر الدستور . ولقد أوتى سيفيروس قدرا كبيرا من العزم والقدرة ، ولكن جراءة القيصر الأول أو عمق سياسة أوغسطس لم تتكافأ مع مهمة الحد من وقاحة القوات المنتصرة وصلفها . وأغرى سيفيروس بارخاء قبضة النظام والتخفيف من قيوده ، أما عرفانا للجميل ، أو نتيجة لسياسة مضللة ، أو لما بدا أنه ضرورة حتمية . وأشبع غرور جنوده وزاد زهوهم بما تطولوا به من خواتم من ذهب ، واكتملت أسباب الراحة بالترخيص لهم بالعيش مع زوجاتهم داخل الثكنات في دعة وخمول ، ورفع رواتبهم فوق ما كانت عليه من قبل . وعلمهم أن يتوقفوا — وسرعن ما طالبوا — بعهطايا غير عادية في أية مناسبة عامة ، احتفالا كانت أو خطرا داهما . والآن وقد انتفخت أوداجهم بما أصابوا من نجاح ، ووهنت عزائمهم بما أترفوا فيه ، ورفعتهم امتيازاتهم الخطيرة فوق مستوى أفراد الرعية ، فقد أصبحوا عاجزين عن احتمال أى جهد عسكري ، كما أصبحوا عالة على البلاد مرهقين لها ، وضاقوا ذرعا بأية تبعية عادلة معقولة . وأكد ضباطهم سمو الرتبة بالاسراف في الكماليات والأناقسة . وهناك رسالة ما تزال باقية من رسائل سيفيروس ، يرثى فيها لحالة الفوضى نتيجة للسيطرة الجيش ، ويحض فيها أحد قواده على المبادرة بالاصلاح الضرورى ابتداء من التربيون نفسه ، حيث — كما لاحظ بحق — أن الضابط الذى يفقد مكانته ويبتهن كرامته لا يستطيع أن يفرض طاعته على جنوده . ولو استرسل الامبراطور في تأملاته لتبين له أن السبب الأساسى في هذا الفساد العام ، ربما كان راجعا ، لا الى القدوة ( الضابط ) في الواقع ، بل الى التسامح المعيب الخطير من جانب القائد الأعلى نفسه ، على أية حال .



ونال البريتوريون الذين قتلوا امبراطورهم وباعوا امبراطوريتهم جزء عادلا لقاء خيانتهم فسرعان ما وضع سيفيروس لنظام الحرس ، ذلك النظام الضروري رغم خطورته ، اساسا جديدا . وزاده الى اربعة امثال عدده القديم . وكانت فرق الحرس تجند قديما في ايطاليا ، ولما تشربت الولايات المجاورة شيئا فشيئا أساليب روما ، التي هي اكثر رقة ونعومة ، امتد تجنيد هذه الفرق الى مقدونيا ونوريكوم ( جزء من النمسا الحالية ) . واسبانيا وقرر سيفيروس ، بالنسبة لهذه الفرق الأنيقة التي كانت الابق بأبهة البلاط منها بالاستخدام في الحرب ، قرر أن يختار بين الحين والحين ، من بين قوات الحدود أكثر الجنود امتيازا لقوتهم وبسالتهم واخلاصهم ، ويرقوا الى صفوف الحرس ، وهي الابق بهم ، تشريفا ومكافأة لهم . وبهذا النظام تحول الشباب الايطالى عن خدمة الجيش واستعمال السلاح، وروعت العاصمة بجموع المتبربرين وبسلوكهم ومناظرهم الغريبة ، ولكن سيفيروس كان يعلل النفس بأن قوات الجيش سوف تعتبر أن هؤلاء البريتوريين المختارين يمثلون التشكيل العسكري بأسره ، وأن العون الحالى الذى يتألف من خمسين ألفا متفوقين فى السلاح والرواتب ( من الحرس ) على أية قوة يؤتى بها الى الميدان ضدهم ، لابد أن يقضى الى الأبد على أى أمل فى العصيان ، ويؤمن الامبراطورية له ولذريته من بعده .

وسرعان ما أصبحت قيادة هذه الفرق ذوات الحظوة والبأس المنصب الأول فى الامبراطورية . فلما انحدرت الحكومة الى استبدادية عسكرية . وضع قائد البريتوريين — الذى لم يكن فى الأصل الانقيا فى الحرس ، وضع — لا على رأس الجيش فحسب ، بل على رأس الخزانة والقانون كذلك . ومثل فى كل أقسام الادارة شخص الامبراطور ومارس سلطاته . وكان بلوتيانوس Plautianus — الوزير الأثير المقرب الى سيفيروس — أول قائد تمتع بهذه السلطة الواسعة واستغلها أسوأ استغلال ، طيلة عهده الذى دام أكثر من عشر سنوات ، حتى زوج ابنته من أكبر أبناء الامبراطور ، وكان يبدو أن فى هذا الزواج ضمانا لحسن مستقبله ، ولكن ثبت أنه كان ايدانا بسقوطه (1) وأهاجت أحتاد القصر أطماع بلوتيانوس وأثارت مخاوفه ، ومن ثم هددت باحداث ثورة ، وأجبرت الامبراطور الذى لا يزال يحبه على الموافقة على قتله ، على غير رضا

(1) من أكثر تصرفاته نزقا وجراة خصى مائة من أحرار الرجال الرومان ، بينهم المتزوج وفيهم رب الأسرة لا لشيء الا أن يكون فى ركاب ابنته عند زواجها من الامبراطور الصغير حاشية من « الخصيان » ، مما هو جدير بملكة شرقية .

منه . وبعد موت بلوتيانوس عين الحامى العظيم المشهور بابنيان  
Papinian فى المنصب الزاهى ، منصب رئيس الحرس البريتورى .  
والمشاهد انه حتى عصر سيفيروس تميزت فضيلة الأباطرة ، أو  
حسن ادراكهم باحترامهم الحقيقى أو المصطنع للسنانو ، وفى الرعاية  
الكريمة للطائر الجميل للسياسة المدنية التى وضعها أغسطس . ولكن  
سيفيروس كان قد درج طوال سنى شبابه على الطاعة العمياء فى  
المسكرات ، وقضى اعوامه الاكثر نضوجا فى استبداد القيادة العسكرية ،  
فلم تستطع روحه المتعالية العنيدة أن تكتشف ، أو قل لم تعترف ، بميزة  
الابقاء على قوة وسط ، مهما كانت صورية ، بين الامبراطور والجيش .  
فاحتقر أن يعترف بأنه خادم لمجلس أضر البغض لشخصه على حين  
كانت ترتعد فرائسه فرقا لمجرد عبوسه ، فأصدر الأوامر حيثما ثبت  
أنها تنضى مآربه . وسلك سلوك الملك والفاتح ونهج منهجها ، ومارس  
دون استخفاء السلطتين التشريعية والتنفيذية معا .

وكان الانتصار على السنانو أمرا ميسورا تافها معينا لا يتسم بأى  
مجد ، ألم تكن كل العيون وكل الأحاسيس موجهة الى الحاكم الأعلى  
الذى تملك الجيش والمال فى الدولة ؟ على حين أن السنانو الذى لم  
ينتخبه الشعب ، ولم تحمه القوات العسكرية ، ولم تنعشه الروح  
العامة — هذا السنانو أقام سلطته المتداعية على أساس واه محطم من  
وضعه القديم ؟ واختفت النظرية الجميلة عن الجمهورية بطريقة غير  
محسة وأخلت مكانها لمشاعر الملكية ، وهى مشاعر طبيعية أساسية  
الى حد أكبر . ولما أسبغت حرية روما وأمجادها تباعا على  
الولايات ، حيث كانت الحكومة القديمة غير معروفة ، أو كان  
ذكرها يقترب بالوقت والذم ، محيت معها تدريجا كل تقاليد المبادئ  
الجمهورية ، ويلاحظ المؤرخون اليونانيون فى عصر الأنطونيين ،  
فى اغتباط خبيث ، أن ملك روما — على الرغم من أنه ، مسايرة  
لهوى مندثر ، كان يجفل من لقب الملك ويتورع عنه — لكنه مع  
ذلك ، كان يتمتع بالسلطة الملكية فى أبعاد حدودها . وامتلا مجلس  
السنانو على عهد سيفيروس بعبيد فصحاء مصقولين جاءوا من الولايات  
الشترتية ، وبرروا الملق الشخصى بمبادئ نظرية نبعت من العبودية .  
وفرح البلاط ، على حين كان الشعب ينفذ صبره عند الاستماع الى  
هؤلاء المدافعين الجدد عن الامتيازات ، حين كانوا يقررون واجب الطاعة  
الصيياء ، ويسهبون القول فى المساوىء المحتومة للحرية . واتفق المحامون  
والمؤرخون على تلقين الناس أن الامبراطور لم يتول السلطة نتيجة  
لنفويضه بهذه المهام ، بل نتيجة الاستسلام القاطع والتنازل التام من

جانب السناتو . وبأنه متحرر من قيود القوانين المدنية ، وبأنه يستطيع التصرف في حياة رعاياه وثرواتهم ، والتخلص من الامبراطورية كما لو كانت ميراثا خاصا له . وترعرع أبرز هؤلاء المحامين المدنيين ، وخاصة بابنيان ، ويولوس والبيان في ظل بيت سسيفيروس . وقد افترض أن الفقه الروماني بلغ غاية النضج والكمال ، منذ أن ارتبط ارتباطا وثيقا بنظام الملكية .

وغفر معاصرو سيفيروس له ضروب القسوة التي استهل بها عهده، حين نعموا بالسلم والمجد بعد ذلك . ولكن الاعقاب الذين خبروا الآثار الفتاكة لبادئهم ولن هذا حذوه ، اعتبروه ، حقا وعدلا ، «المنشئ» أو المخطط الأساسي لاضمحلال الامبراطورية الرومانية .

## الفصل السادس

( ٢١١ - ٢٢٥ م )

### أسرة سيفيروس

كارا ا كلا وجيتا • ايلاجابالوس الاسكندر سيفيروس

#### نمو نفوذ المرأة في البلاط

قد يبتعث ارتقاء سلم المجد ، مهما كان الارتقاء وعرا ، خطيرا ، في الإنسان روحا وثابة تعى قوتها وتمارسها . ولكن امتلاك عرش ، أى عرش ، لن يستطيع أن يشبع في النفس الطامحة قناعة دائمة . وقد أحس سيفيروس بهذه الحقيقة المحزنة واعترف بها . لقد سما به حظه ومواهبه من الحضيض الى أسنى مكان بين بنى الانسان ، أو كما قال هو في نفسه : « لقد كان هو كل شيء ، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر » . والآن وقد ساورته الهوم ، لا من أجل الحصول على امبراطورية ، بل من أجل المحافظة عليها ، وأرهقته الشيخوخة والعلل ، وعزف عن الشهرة ، وأتخم بالسلطة ، وضاعت به سبل الحياة . فانه لم يبق من مطامعه ومن حنانه الأبوى الا الرغبة في الحفاظ على مجد الأسرة وعظمتها أمدا طويلا .

وأولع سيفيروس — مثل معظم الأفريقيين — بالدراسات العقيمة في السحر والالهيات . وكان خبيرا عليهما بتفسير الأحلام والنذر ، كما كان على دراية تامة بالتنجيم الشرعى ، وكل أولئك كان يملك عقل الانسان في كل زمان ، فيها خلا عصرنا هذا . وقد فقد زوجته الأولى عندما كان حاكما على اقليم ليون في الغال . وجرى في اختيار زوجته الثانية وراء ارتباط بذات حظ سعيد . وما أن اكتشف أن سيدة شابة من حصص في سوريا قد خبأت لها النجوم طالعا ملكيا ، حتى أسرع في التوسل اليها وحظى بالزواج منها . وكانت جوليا دونا Julia Donna .

( وكان هذا اسمها ) تستحق كل ما يمكن أن تعد به النجوم ، فقد وهبت ، حتى عندما تقدمت بها السنون ، كل مقائن الجمال ، وجمعت بين روعة الخيال ورسانة العقل وقوة الحكم ، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها . ولم يكن لهذه الصفات الحميدة أثر عميق قط في المزاج الكئيب الحقود لزوجها . ولكنها على عهد ابنها ، تولت المهام الرئيسية في الإمبراطورية ، في فطنة دعمت سلطته ، وفي اعتدال صحح في بعض الأحيان من حماقاته الهيجية . وانصرفت جوليا الى الأدب والفلسفة فأصابت فيهما بعض النجاح ، وأحرزت أكبر شهرة . وكانت ترعى كل فن ، وتشجع كل نبوغ ، وكان تهلق العلماء لها ، اعترافا منهم بفضلها ، سببا في تمجيد سمائلها ، ولكن اذا كان لنا أن نصدق افتراء التاريخ القديم ، لكانت العنة أبعد من أن تكون أبرز صفات الإمبراطورة جوليا .

وكانت ثمرة هذا الزواج ولدين هما كازاكلا وجيتا الوريثان المحتومان للإمبراطورية . وسرعان ما خابت الآمال العريضة للوالد وللعالم الروماني في هذين الشابين العائنين اللذين استنما الى حياة الاطمئنان الخامل لامراء وراثيين ، مفترضين أن الحظ سيعوض عن الجدارة والمثابرة . وتجردا من المنافسة في الفضائل أو المواهب ، ولكنها اكتشفا ، حتى منذ طفولتهما على الأغلب ، جفوة عاتية راسخة في الواحد منهما نحو الآخر .

وثبتت السنون جذور الكراهية، وأهاجتها أمانين الخلان المغرضين، حتى انفجرت بينهما منافسات صبيانية ، زادت حدتها على مر الأيام ، مناقشات شطرت المسرح والمعب والسيرك والبلاط الى حزبين تحركهما آيال ومخاوف القائمين على الأمر في كل منها . وتذرع الإمبراطور البرزين بكل ضروب النصح والسلطان ليهديء من هذه العداوة المتزايدة . وغشى هذا الخلاف المنكود بين ولديه كل تطلعاته بسحب من الكأبة ، وهدد بسقوط العرش الذي أقامه بالكثير من الجهد والكد ، ودعمه بالكثير من الدماء ، وذاد عنه بقوة السلاح والمال . وفي غير ما تحيز ، وحفاظا على التوازن الدقيق بينهما وزع بينهما رعايته وحظوته بالعدل والقسطاس ، فحبا كلا منهما بمرتبة « أوغسطس » مع الاسم المعظم « أنطونينوس » . وبذلك شهد العالم الروماني لأول مرة ثلاثة أباطرة في وقت معا . ومع ذلك فانه حتى هذه المساواة لم تجد الا في اذكاء النار بينهما ، واستمسك كازاكلا الشرس بحق الابن البكر ، على حين استندر جيتا المعتدل عطف الشعب والجنود ، وفي ألم مبرح تنبأ الوالد اليائس سيفيروس بأن الابن الأضعف سيقع فريسة لابنه الأقوى الذي لا بد ، بدوره ، أن يخز صريع رذائله هو نفسه .

وفي تلك الأثناء جاءت أنباء حرب نشبت في بريطانيا، وغزو المتبريرين في الشمال لهذه الولاية ، وتلقى سيفيروس هذه الأنباء بسرور ، وصمم ، على الرغم من أن يقظة قواده ربما كانت كافية لصد هذا العدو البعيد ، على انتحال مبرر نبيل لانتزاع ولديه من أحضان الترف في روما ، ذلك الترف الذى أوهن عقليهما وأثار عواطفهما ، كما صمم على أن يعرك شبابهما ويعودهما على مشاق الحرب والحكم . ورغم تقدمه في السن ( كان آنذاك قد تجاوز الستين ) ، ورغم داء النقرس الذى كان يستلزم حمله على محفة — خرج بنفسه الى هذه الجزيرة النائية يتبعه ولداه وكل حاشيته وجيش قوى . واجتاز من فوره أسوار هادريان وأنطونينوس ، ودخل بلاد الأعداء مصمما على اكمال فتح بريطانيا الذى طالما جرت محاولته من قبل . وتوغل الى الطرف الشمالى من الجزيرة دون أن يقابل عدوا . ولكن كمائن الاسكتلنديين Caledonians المختفية التى اطبقت على جناحى جيشه ومؤخرته ، وبرودة الجو ، وقسوة الشتاء الذى حل بتلال اسكتلنده وبطاحها ، كل أولئك ، على ما قيل ، كبد الرومان أكثر من خمسين الفا من الرجال . . واستسلم الاسكتلنديون في النهاية لهذا الهجوم القوى العنيد ، وتوسلوا للصلح ، وسدوا جزءا من أسلحتهم ورقعة كبيرة من أراضيهم ، ولكن خضوعهم الظاهرى لم يدم لأكثر من فترة أزمة الرعب الراهنة ، وحالما انسحبت القسوات الرومانية ، استأنفوا استقلالهم العدائى . وحفزت روحهم القلقة المتبرمة سيفيروس الى ارسال جيش جديد الى كاليدونيا ( اسكتلنده ) ، مع كل الأوامر المشددة ، لا باخضاع السكان ، بل بآبادتهم . ولم ينقذهم الاموت عدوهم المتعجرف .

ولا تستحق منا حرب كاليدونيا أى اهتمام ، حيث لم تتميز بأية أحداث حاسمة ، ولم تنجم عنها أية نتائج هامة ، ولكن المظنون ، مع شئ كبير من الاحتمال ، أن غزو سيفيروس يرتبط بالبع فترة في التاريخ البريطانى أو الأساطير البريطانية . ويقال ان فنجال Pingal الذى أحيأ شهرته وشهرة أبطاله وشعرائه في لغتنا الإنجليزية أحد المؤلفات الحديثة . قائد الاسكتلنديين في هذه الفترة العصيبة المشهورة ، وأنه ضلل قوات سيفيروس ، وأنه انتصر في معركة مشهورة على ضفاف نهر كارون ، ثم فيها كراكول ابن « ملك الدنيا » من جيشه الى مراتع زهوه وخيلائه . وما تزال بعض سحائب الشكك تعلق بهذه الروايات الاسكتلندية ، ولو أنه لا يمكن لأدق النقاد الحديثين نقضها نقضا تاما . ولكن اذا استطعنا أن نسلم مطمئنين بالمزاعم السارة بأن فنجال عاش ، وأن أوسيان Ossian أنشد ، فقد يكون في المفارقة الأخاذة بين موقف

وسلوك الأمتين المتنازعتين بعض التسلية للعقلية الفلسفية . ولن تجدى المقارنة شيئاً لصالح الشعب الذى هو أكثر تحضراً ، إذا قارنا انتقام سيفيروس الشديد بالصفح الكريم من جانب فنجال ، وقسوة كاراكلا الوحشية المتهيبة ، بالشجاعة والوداعة والعبقرية الرقيقة من جانب أوسيان ، والرؤساء المرتزقة الذين خدموا فى ظل الراية الامبراطورية ببواعث من الخوف أو المصلحة ، بالمحاربين الذين ولدوا احرارا الذين هرعوا الى أسلحتهم تلبية لنداء ملك مورفن Morven ، أو بعبارة موجزة إذا تأملنا الأسكتلنديين الجهال وقد تألقوا فى فضائل الطبيعة والفترة ، والرومان المنحطين وقد تلوثوا بأحط رذائل الثروة والعبودية .

## كاراكلا وجيتا

أذكى تدهور صحة سيفيروس ومرضه الأخير نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء فى نفس كاراكلا . وضاق ذرعاً بأى إبطاء فى تقسيم الامبراطورية ، فحاول غير مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده ، وجهد دون جدوى فى احداث فتنة بين الجنود . وكثيراً ما عاب الامبراطور العجوز على ماركوس ترفقه المضلل ، حيث كان فى مقدوره ، بتصرف عادل واحد منه ، أن يخلص الامبراطورية من طفليان ابنه التافه . فلما وضع سيفيروس فى هذا الموقف أدرك كيف تذوب صرامة القاضى فى زفق الوالد . لقد اطلال التفكير فى الأمر ، ثم هدد ، ولكنه لم يستطع الى العقاب سبيلا . وكان هذا المثال الوحيد والأخير من الرحمة أشد فتكا بالامبراطورية من سلسلة طويلة من ضروب القسوة . وحرك اضطراب ذهنه آلام جسمه ، حتى تمنى الموت بفارغ الصبر ، وعجل قلقه ونفاد صبره بساعته الأخيرة . وقضى نحبه فى يورك فى سن الخامسة والستين ، وفى السنة الثامنة عشرة من حكمه مجيد موفق . وفى لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاق والوثام ، كما أوصى الجيش بهما . ولم تنفذ النصيحة النافعة الى قلب الثسابين العنيدين ، بل لم تصل الى ادراكهما . ولكن القوات التى هى أكثر انصياعاً ، والتى تذكر جيداً يمين الولاء كما تذكر سلطة سيدها المتوفى . قاومت توسلات كاراكلا ، وأعلنت كلا من الأخوين امبراطورا على روما . وترك الأميران الجديان فى الحال كاليدونيا فى سلام ، وعادا الى العاصمة ، واحتفلا بدفن والدهما وسط مظاهر التكريم الالهية ، واعترف بهما السناتو والشعب والولايات فى ابتهاج ومرح ، ويبدو أنه

قد أسبغ على الأخ الأكبر شيء من مرتبة أرفع . ولكن كليهما تسولى  
الإمبراطورية بسلطة متكافئة مستقلة .

وكان حتما أن يؤدي مثل هذا التوزيع فى الحكومة الى نشوب  
الخلاف بين أحب أخوين . وكان من المستحيل أن يدوم طويلا بين عدوين  
حقوقين ، لم يرغبوا فى التراضى أو يستطيعا الاطمئنان اليه . وكان من  
الواضح أن واحدا منهما فقط يستطيع أن يتولى الحكم ، وأن الثانى  
لا بد أن يسقط . وأن كلا منهما ، وهو يحكم على نوايا غريبه بمقياس  
نواياه ، كان يحمى حياته فى أشد يقظة حاقدة ، ضد الهجمات المتكررة  
بالسهم أو بالسيف . وأظهرت رحلتها السريعة عبر الغال وإيطاليا ، تلك  
الرحلة التى لم يجلسا فيها الى مائدة واحدة للأكل ، أو يأويا الى مكان  
واحد للنوم — أظهرت للولايات على المنظر الكريه للشقاق الأخوى .  
ولدى وصولهما الى روما عمدا على الفور الى تقسيم القصر الإمبراطورى  
الفسيح . ولم يسمح بأى اتصال بين مسكنيهما ، وحصنت كل الأبواب  
والممرات ، وتسلم الحراس مواقعهم أو انصرفوا بنفس الصرامة التى  
تتبع فى مكان محاصر ضيق عليه الحصار . ولم يأتق الإمبراطوران الا فى  
مناسبة عامة ، وفى حضرة أمهما المفجوعة ، يحوط كلا منهما فوج كبير  
من الأتباع المسلحين ، وحتى فى هذه المناسبة الرسمية ، لم يكن نفاق  
الحاشيتين ليخفى ما تنطوى عليه القلوب من أضغان .

وكان من شأن هذه الحرب الأهلية الخفية أن توقع الحكومة بأسرها  
فعلا فى حيرة ، عند اقتراح أى مشروع يبدو أنه يحقق نفعاً متبادلاً  
للأخوين المتناجزين ، ولما كان من المتعذر التوفيق بينهما فقد اقترح  
الفصل بين مصالحيهما وتقسيم الإمبراطورية بينهما . وصيغت بالفعل  
بنود المعاهدة بدقة . واتفق على أن يحتفظ كاراكلا ، بوصفه الأخ  
الأكبر بأوروبا وغرب أفريقيا ، وأن يترك آسيا ومصر لأخيه جيتا ، الذى  
يمكن أن يتخذ مقرا له فى الاسكندرية أو فى أنطاكية ، وهما لا تقبلان  
كثيرا عن روما ذاتها من حيث الثروة والعظمة ، وعلى أن تعسكر دائما  
قوات كبيرة على ضفتى البسفور فى تراقيا لتحمى حدود الملكتين  
المتنافستين ، وعلى أن يعترف أعضاء السناتو الذين هم من أصل أوربى  
بإمبراطور روما ، ويتبع أهل آسيا ملك الشرق . وقطعت دموع جوليا  
الإمبراطورة الأم تلك المفاوضات التى ملأت فكرتها الأولى صدر كل  
رومانى دهشة وبسخط . وكان الزمن والسياسة قد ربطا بين الكتلة  
القوية التى كونتها الفتوحات ، فى وجدة وثيقة الى حد أنها كانت تتطلب  
أشد العنف قسرا لفصم عراها . وكان للرومان كل البعذر فى أن يوجبوا



خيفة من عودة سريعة لهذه الاوصال الممزقة الى يدي سيد واحد نتيجة حرب أهلية ، ولكن اذا استمر الفصل ، فان تقسيم الولايات لا بد أن ينتهي الى ذوبان الامبراطورية التي لم تمس وحدتها حتى الآن ، وهذا أمران أحلاهما مر ، ( الحرب الأهلية أو ذوبان الامبراطورية ) .

ولو أن المعاهدة وضعت موضع التنفيذ لسارع ملك أوربا توا الى غزو آسيا . ولكن كاراكلا أحرز انتصارا أيسر ، ولكنه أشد اجراما . فقد أصفى في احتيال ودهاء الى توسلات أمه ، ورضى ببقاء أخيه في بيتها على أساس من المصالحة والتراضي ، وفيما هما يتحدثان اندفع جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيف مسلولة وانهاوا بها على جيتا المسكين . وحاولت الأم المضطربة أن تحببه بين ذراعيها ، ولكن عبثا كانت تكافح . وجرحت يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر ، بينما رأت الأكبر يستحث الفاحين ويعاونهم ، وما أن فعل فعلته حتى أسرع الخطى والفرع يرتسم على محياه ، الى معسكر البريتورين بوصفه الملجأ الوحيد له ، وارتقى على الأرض تحت تمائيل الآلهة حماته . وحاول الجنود أن يرفعوه من الأرض ويسروا عنه ، وفي كلمات متقطعة تهوشة أبلغهم عن الخطر العظيم المحدق به ، وعن هربه الموفق ، محاولا أن يقر في أذهانهم أنه حال دون تنفيذ خطط عدوه ، وأعلن تصمييه على الحياة أو الموت برفقة جنوده المخلصين . وكان جيتا أثيرا لدى الجنود ، ولكن ماذا تجدى الآن الشكوى ؟ والانتقام محفوف بالخطر ، وهم لا يزالون على اجلالهم لابن سيفيروس . وتبخر استياؤهم في شيء من تذير خافت ، وسرعان ما أقتنعهم كاراكلا بعدالة قضيته ، حين أجزل لهم العطاء فوزع عليهم الاموال التي جمعها أبوه طيلة حكمه . وكانت للمشاعر الحقيقية للجنود وحدها أهميتها من أجل قوته أو سلامته . وتحكم الاعلان الذي أصدره لصالحه في موقف السناتو مما يجب عليه بحكم وظيفته . وكان المجلس الخنوع مستعداً دائماً للرضاء بما قسم به الحظ . ولكن كاراكلا كان راغبا في التخفيف من بسواد الاستياء العام ، ومن ثم أحبط اسم جيتا بكل وقار . وأضفى على جنازته كل مظاهر التكريم الواجب لكل امبراطور روماني . ورثى خلفه لسوء حظه فأسدل الستار على مساوئه . وأنا لنعتبر هذا الأمير الشاب ضحية بريئة لطمع أخيه ، دون أن نستعيد الى الذاكرة أنه هو نفسه أراد القوة ، لا الميل ، لانهاء محاولات الثار والقتل هذه نفسها .

ولم تطو الجريمة دون عقاب . ذلك أن العمل واللهو والتملق لم تجم كاراكلا من وخزات الضمير الآثم ، وقد اعترف هو ، في نوبة كرب

وضيق المت بعقله المعذب ، ان خياله المضطرب صور له أباه وأخاه يعودان الى الحياة ليهدهاه ويؤنباها . وكان الأجدر أن يغريه شعوره بجريمته باقناع الناس ، عن طريق مزايا حكمه ، بأن هذه الفعلة الشنيعة أكرهته عليها ضرورة ملحة . ولكن ندم كاراكلا لم يسوح اليه بشيء اللهم الا أن يمحو من الوجود كل ما يذكره باثمه ، أو يعيد الى الأذهان ذكرى أخيه القتل . ووجد ، لدى عودته من السناتو الى القصر أمه وسط جمع من النسوة النبيلات يبكين الابن الصغير الذى لقي حتفه قبل أوامه . فهددهن الامبراطور الحقود بالموت فوراً ، بل انه نفذ تهديده بالفعل فى فاديليا ، ابنة الامبراطور ماركوس الوحيدة الباقية ، وحتى جوليا المنجوعة نفسها، فانها اضطرت الى أن تكتم نحيبها وآهاتها، وتستقبل السفاح بابتسامة الرضا والفرح . وقدر عدد الذين أعدموا بحجة غامضة ، هي أنهم أصدقاء جيتا ، بأكثر من عشرين ألفاً من الجنسين ، كان من بينهم حراسه ومعنقوه ، ووزراؤه ومعاونوه فى مهمته ، ومرافقوه فى أوقات فراغه ، الذين اقتضت مصلحته اسناد بعض الوظائف اليهم فى الجيش والولايات ، وكل السلسلة الطويلة ، من الاتباع الذين ارتبطوا بهؤلاء جميعاً . كل أولئك حشروا فى قائمة الأعدام التى حاولت أن تصل الى كل من ارتبط أقل ارتباط بجيتا ، أو حزن لموته ، أو حتى ذكر اسمه . وراح هلفيوس برتيناكس Helvius Pertinax ، وهو ابن امبراطور بهذا الاسم ، ضحية نكتة فى غير أوامها وكانت الجريمة الوحيدة الكافية لادانة ترازيا بيسكس Thrasea Pisci أنها انحدرت من أسرة بدا أن حب الحرية صفة وراثية فيها . واستنفدت أخيراً الأسباب الخاصة والوشاية للرئاسة غرضها ، فاذا اتهم أحد أعضاء السناتو بعدائه الخفى للحكومة ، تنع الامبراطور بالدليل العام المائع وهو أنه من أصحاب الثروة والفضيلة . وانطلاقاً من هذا المبدأ الراسخ كثيراً ما انتهى الامبراطور الى أخطر الاستنتاجات .

ذرف الأصدقاء والأسرات الدموع خفية حزناً على اعدام هؤلاء المواطنين الأبرياء ، وهم أكثر ، ولكن موت بابنيان ، رئيس الحرس البريتورى ، كان محزناً بوصفه كارثة عامة ، فقد تقلد أهم مناصب الدولة فى السنوات السبع الأخيرة من حكم سيفيروس ، وبنفوذ ، المفيد الناجح ، قاد خطوات الامبراطور فى طريق العدل والاعتدال . وكان سيفيروس ، وهو على سرير الموت ، لتاكده التام من قدراته وفضائله ، قد أوصاه بالسهر على وحدة الأسرة الامبراطورية ورفاهيتها . ولكن جهود بابنيان المخلصة لم تفلح الا فى اذكاء شعور البغض السذى

كان يضمه كاراكلا لوزير أبيه . وبعد مقتل جيتا ، تلقى بابنيان أمرا بأن يفرغ كل ما أوتى من مهارة وفصاحة في تلمس الأعداء لهذه الفعلة النكراء . وكان الفيلسوف سنكا قد تنازل وقبل اعداد رسالة مماثلة للسناطو ، باسم ابن أجريينا Agrippina وقتله . فما كان الجواب العظيم لبابنيان ، الذي لم يتردد في أن يؤثر فقدان حياته على ضياع شرفه ، إلا أن قال : « ان ارتكاب جريمة قتل الوالدين ايسر من تبريرها » . ومثل هذه الشيم الفاضلة الجريئة التي خرجت نقية سليمة من برائن الدسائس في البلاط ، ومن خطايا العمل ومكائد المهنة ، تعكس على ذكرى بابنيان بهاء ورواء أكثر مما تعكسه وظائفه العالية وكتاباتة الكثيرة ، وشهرته الذائعة التي ظل يتمتع بها في كل عصور التشريع الرومانى بوصفه محاميا أو من رجال القانون .

لقد كان كل ما يغتبط له الرومان بنوع خاص ، أو يخنف عنهم في أحلك العصور ، حتى الآن ، هو نشاط جاسب الفضيلة في الأباطرة وخمود جانب الرذيلة فيهم . فقد شخص أوغسطس وتراجان وهادريان وماركوس بأنفسهم الى مختلف أنحاء ممتلكاتهم الواسعة ، وتميز تقدمهم بما أتوا من أعمال تتسم بالحكمة والبر . وكان طفيان تيبيريوس ونيرون ودوميتيان - الذين أقاموا على الأغلب دائما في روما أو في الريف المجاور لها - منصبا على طوائف السناتو والفروسية وحدها . ولكن كاراكلا كان العدو المشترك للبشرية جمعاء . وغادر العاصمة ( ولم يعد اليها قط ) بعد حوالى عام من مقتل جيتا . وقضى بقية سننى حكمه في مختلف ولايات الامبراطورية وبخاصة في الولايات الشرقية ، وكانت كل ولاية بدورها مسرحا لسلبه ونهبه وقسوته . وكان أعضاء السناتو مضطرين ، بدافع الخوف الى مصاحبته في كل تحركاته ، واقامة الحفلات اليسومية له باهظ التكاليف ، تلك الحفلات التي كان يتركها في احتقار لحرسه ، والى تشييد القصور والمسارح الفخمة في كل مدينة ، فكان يحتقر زيارتها أو يأمر بهدمها في الحال . وحل الخراب بأغنى الأسرات نتيجة الغرامات الظالمة التي تفرض عليها أو مصادرة أموالها . وأرهق السواد الأعظم من الرعية بالتفنن في جمع الضرائب الثقيلة منهم . ووسط الهدوء الشاسل بالاسكندرية ، في مصر ، ولأنفه بادرة من الاستفزاز ، أمر بمذبحة عامة ، شهدها وأدارها من مكان آمن في معبد سيرابيس ، وراح ضحيتها عدة آلاف من المواطنين والغرباء دون أن يتبين عددهم أو جرائمهم ، حيث ان كل الاسكندريين - كما أبلغ هو السناتو في برود - من مات منهم ومن قتل ، مجرمون على حد سواء .

ولم تترك توجيهات سيفيروس الحكيمه أى أثر دائم قط فى عقل ولده الذى لم يكن مجردا من الخيال والفصاحة ، ولو أنه عاطل بامتثل عن التمييز والانسانيه . وتمه مبدأ خطير جدبى بالطاغية كان يذكره كاراكلا ويستغله ، وهو « كسب محبة الجيش ، والنظر الى بقتيسة رعاياه على انهم قليلو الاهمية » . ولكن سخاء والده كانت له ضوابط من الحرص والروية ، كما كان تسامحه مع القوات العسكرية مقرونا بالحزم والسلطة . أما تبذير الابن بغير حساب فكان طابع سياسيه حكمه ، وكان فيه الخراب المحتوم للجيش والامبراطورية معا . وتبددت عزائم الجنود وهمهم فى بذخ المدن ، بدلا من تدعيمها بالنظام الصارم فى المعسكرات . وارهقت الدولة لاثراء العسكريين بالاسراف فى زيادة رواتب الجنود واغداق المنح عليهم ، على حين أن فى الفقر المشرف أحسن ضمان لاحتشامهم فى اوقات السلم وخدماتهم فى زمن الحرب . وكانت الغطرسة والزهو طابع سلوك كاراكلا ، ولكنه مع الجنود نسى حتى الوقار الواجب لمرتبه ، فشجع رفع الكلفة ، والألفة الوقحة بينه وبينهم ، وأهمل الواجبات الأساسية للقائد ، فتصنع تقليد الجندى العادى فى زيهِ وسلوكه .

وكان من المستحيل أن يوحى بالحب أو التقدير مثل هذا الخلق ومثل هذا السلوك ، ولكن كاراكلا كان يأمن خطر الثورة طالما كانت رذائله ومساوئه خيرا على الجيوش ، ولكن حقدده هو نفسه كان سببا فى اثاره مؤامرة خفية قاتلة للطاغية . ذلك أن رياسة البريتوريين كانت موزعة بين وزيرين ، فتولى الشئون العسكرية احدهما ، وهو أدفنتوس *Adventus* ، وذن رجلا محنكا أكثر منه عسكريا قديرا . وتولى الشئون المدنية أوبليوس مكرينوس *Opilius Macrinus* الذى استطاع أن يسمو بنفسه فى هواده ورفق الى هذا المركز الرفيع بفضل براعته فى عمله . ولكن مصلحته تعارضت مع نزوات الامبراطور ، وربما تعلقت حياته بأوهن خيط من الشك أو بأى ظرف مفاجيء أكثر ما تكون المفاجأة . وجادت قريحة رجل أفريقي ذى خبرة عميقة فى أمور المستقبل والغيب ، نكايه أو تعصبا ، بنبوءة خطيرة ، تقول انه مقدر لمكرينوس ولده ، أن يحكما الامبراطورية . وسرعان ما انتشر النبا فى الولاية وجرى بالرجل الى روما مكبلا بالسلاسل ، وظل يؤكد صدق نبوءته فى حضره حاكم المدينة . وتلقى حاكم المدينة تعليمات مشددة بأن يبلغ بنفسه عن « خلفاء » كاراكلا - فنقل على الفور نتائج التحقيق مع الأفريقي واختباره الى البلاط الامبراطورى الذى كان يقيم آنذاك فى سوريا ، ولكن رغم يقظة الرسل العامين استطاع أحد اصدقاء مكرينوس أن يجد

وسيلة لظهاره على جلية الخطر المحدق به . وتلقى الامبراطور الرسائل من روما ، ولما كان آنذاك مشغولا بسباق العجلات ، فقد سلم الرسائل دون أن يفتحها الى رئيس الحرس البريتورى ، وكلفه بترك المسائل العادية جانبا ، واعداد تقرير عما قد تحتويه الرسائل من مسائل أكثر أهمية . وقرأ مكربنوس فيها مصيره ، وعقد العزم على تجنبه . وأهاج مكربنوس سخط بعض صفار الضباط ، واستخدم مارتياالس Merialis وهو جندى يائس أبوا عليه رتبة « ضابط مائة » . ودفع التقى والورع كاراكلا الى الحج من اذاسا Idessa ( مدينة أورفة الحالية فى تركيا ) الى معبد القمر فى مدينة كاره Carrhae (مدينة شران الحالية) وكانت تتبعه كوكبة من الفرسان ، قلما توقف فى الطريق لضرورة طارئة ، بقى الحرس على مسافة محترمة منه ، واقترب مارتياالس من شخص الامبراطور مدعيا أنه انما يؤدى واجبه ، وطفنه بخنجر . وسرعان ما سدده رماح سكوذى من الحرس الامبراطورى رمحه الى القاتل الجريء ، فأرداه قتيلًا . تلك كانت نهاية المارد الجبار الذى لظخت حياته الطبيعة الانسانية بالمسار ، والذى عيل صبر الرومان بحكمه . ونسى الجنود العارفون لفضله مساوئه ، ولم يذكروا الا سخاءه المتيز عليهم ، فأرغموا السفاتو على أن يسء الى نفسه ويمتهن كرامته وكرامة الدين بمنح الامبراطور القتل مكانا بين الآلهة ، وكان البطل الوحيد الذى اعتبره هذه الاله ( كاراكلا ) فى حياته جديرا باعجابيه هو الاسكندر الاكبر ، ولذلك اتخذ لنفسه اسمه وشعاراته ، وكون فرقة مقدونية من الحرس ، واضطهد تلاميذ أرسطو ، وتفاخر فى حماس صبيانى سخيف ، بالحاسة الوحيدة التى اكتشف بها أى اهتمام بالفضيلة أو العظمة . ومن الميسور علينا أن ندرك أنه بعد معركة نارفا وغزو بولنדה ، كان شارل الثانى عشر « ملك السويد ١٦٨٢ — ١٧١٨ » ( ولو أنه كان لا يزال فى حاجة الى منجزات أفخم تليق بابن فيليب الذى هو أفخم وأروع ) يستطيع أن يفخر بأنه نافس كاراكلا فى بأسه وشهامته ، ولكن كاراكلا ، فى أى عمل فى حياته ، لم يتشبه أقل شبيهه ببطل مقدونيا الا فى قتل عدد كبير من أصدقائه وأصدقاء والده .

**اجلس البريتوريون مكربنوس على العرش ، ولكن محاولاته لاصلاح الجيش جعلته غير محبوب ، وادعت جوليا ميسا — أخت زوجته — أن حفيدها هو ابن كاراكلا ، وأعلن امبراطورا باسم أنطونينوس . وهزم مكربنوس وقتل . ورحل أنطونينوس وحاشيته الى روما .**

## الاجبالوس

كان أتنه إوان اللهو والتسلية يشد انتباه الإمبراطور الجديد ، ومن ثم اضاع عدة شهور في انتقاله الذى اقترن بكل ترف وبذخ من سوريا الى روما . وقضى في نيقوميديا أول شتاء له بعد الانتصار ، وأجل دخوله الظافر الى العاصمة الى حلول الصيف . ومهما يكن من شىء ، فان الصورة الأيمنة التى سبقت وصوله ، والنمى وضمت بأمر غورى منه فوق مذبح النصر في دار السناتو ، قد حملت الى الرومان شيها صادقا ، ولكن غير لائق ، بين شخصه وخلقه . وقد رسمت له الصورة وهو يرتدى يابا كهنوتية من الحرير والذهب على غرار زى الميديين والفينيقيين الفضفاض المنساب ، وفوق رأسه تاج مثلث سامق ، ورصعت أساوره وأطواقه الكثيرة بجواهر ثمينة لا تقدر قيمتها ، وقد زججت حواجبه بالسواد ، وصبغ خداه بلون غير طبيعى من الأحمر والأبيض . واعترف شيوخ السناتو ، وهم يصعدون الزفرات ، بأن روما بعد أن لاقت أفسى طفيان أبناء جلدتهم طويلا ، ارتكست أخيرا تجرع الذلة والهوان في ظل الترف المخنث للحكم الشرقى المستبد المطلق .

وكانوا في حمص Emesa يعبدون الشمس تحت اسم الاجبالوس ، وكانوا يمثلونه على هيئة حجر مخروطى الشكل ، كان يسود الاعتقاد بأنه سقط من السماء الى هذه البقعة المقدسة . ولأمر ما نسب أنطونينوس ارتقااه العرش الى حامى الحمى ، الى هذا الاله . وكان الشغل الشاغل له في حكمه هو اظهار امتنانه الخرافى وعرفانه لجميله ، وكان انتصار اله حمص على جميع ديانات الأرض موضعا عظيما لزهوه وغروره ، وكان اسم الاجبالوس ( وقد قرر أن يتخذ هذا الاسم المقدس بوصفه حبراً أعظم ، ومن المقربين ) أعز لديه من لقب الجلالة الإمبراطورية وفى موكب مهيب اخترق شوارع روما المغطاة بالثبر ، ووضع الحجر الأسود ، وقد رصع بالجواهر الثمينة ، على عربة تجرها ستة جياد بيضاء فى لون اللبن مطهمة بأبهى الحلوى ، وأمسك الإمبراطور النقى بأعنتها ، وهو يتحرك الى الوراى فى أناة ، يعاونه وزراؤه ، حتى ينعم دائما ببهجة الحضرة الالهية وكانت القرابين التى تقدم للاله الاجبالوس فى معبده فى تل بالاتين Palatine Mount باللغة غاية القيبة والقداسة . فكانت تنثر على مذبحه أندر الأنبذة وأعلى الضحايا وأحسن العطور فى اسراف شديد . وكانت فرقة من العذارى السوريات تقدم رقصاتها الداعرة حول المذبح ، على حين قام أكبر شخصيات الدولة والجيش ،

وقد ارتدوا الملابس الكهنوتية الفينيقية بادناً الحركات ، وهم يصنعون الحماس ، ويخفون السخط والاستياء .

وحاول الامبراطور المتعصب أن ينقل الى هذا المعبد ، بوصفه المركز العام للعبادات الدينية ، كل التماثيل المقدسة التي ترمز لعبادة نوما ، ولحق حشد كبير من الآلهة الصغرى ، باله حمص في جلاله وعظمته ، بدرجات متفاوتة . ولكن حاشيته لم تكن قد اكتملت بعد ، حتى سمح لانثى رفيعة الشأن بقرانه . واختيرت في أول الأمر بالاس Pallas ( الالهة اثينا - الهة الحكمة ) زوجة له . ولكن خيف أن تزعج فظائعها الحربية رقة الاله السوري ونعومته ، وقدر أن الهة القمر التي كان يعبدها الافريقيون تحت اسم « عشتارت » قد تكون رفيقا اليق بالشمس ، فحمل تماثلها من قرطاجة الى روما مع كل ما احتوى معبدها من نفائس وهدايا لتكون صداقا للزواج . وأصبح يوم هذا الزواج الرمزي الغامض عيداً عاماً في العاصمة وفي سائر أنحاء الامبراطورية .

وقد يلزم الانسان شره معتول ، مع احترام ثابت ، لكل ما تمليه الطبيعة من سنن معتدل ، مما يعمل على تحسين لذات الحواس عن طريق المخالطة الاجتماعية وتعزيز الروابط ، والتشكيك الرقيق للذوق والخيال . ولكن الاجابالوس ( أعنى الامبراطور المسمى بهذا الاسم ) ، وقد أفسده شبابه وبلده وحظه ، أسلم نفسه الى أغلظ اللذات بلا حدود ، وسرعان ما أحس الضجر والتخمة وسط هذا النعيم . ودعى الى نجدته أشد قوى الفن اثارة ، واستخدم لتحريك شهيته وشهواته الفاترة جموع مختلطة من النساء ، ومجموعات من مختلف الأنبيذ واللوان الطعام ، وتشكيلة مدروسة من الأوضاع وعصارات التوابل ، حتى لقد تميز عصره بأسماء جديدة وبدع جديدة في هذه الفنون ، وهى الأشياء الوحيدة التي تمهدها ورعاها الملك بنفسه (1) ، ثم حملت عساره وفضائحه الى الأجيال من بعده . وعوض التبذير الجنونى عن الفخر فى الذوق والرشاقة ، وبينما بعثر الاجابالوس كنوز شعبه ذات اليمين وذات الشمال فى اسراف بالغ ، كان هو ومثقلوه يرددون أصوات الاستحسان ويمتدحون روح العصر وعظمته ، مما لم تألفه وداعسة أسلافه . وكان من الذى تسليته ومسرته أن يشوه نظام الفصول والمناخ ، وأن يداعب أهواء رعاياه وحزازاتهم ، وأن يقلب قوانين الطبيعة وقواعد

(1) كوفى بسخاء اختراع جديد من « عصارات التوابل » . ولكنه لم يكن مستطاباً ، فأرغم المخترع على الا ياكل شيئاً غيره ، حتى ابتدع نوعاً آخر أساغه ذوق الملك .

الحشمة والوقار . ولم يكف لاشباع شهواته البهيمية فوج كبير من الخيليات ، وتعاقب سريع من الزيجات ، كان من بينهن عذراء بتول انتزعت من ماواها المقدس . وتظاهر سيد دنيا العالم بمحاكاة النساء في زيهن وسلوكهن ، وآثر القرناس ( صنارة المغزل ) على الصولجان ، وامتنع المهام الرئيسية للامبراطور فوزعها على حبيباته الكثيرات ، فخلع على واحدة منهن علنا لقب الامبراطور وسلطته او — بشكل أدق — سلطة زوج الامبراطورة ، كما سمي هو نفسه .

ويبدو من المحتمل أن ردائل الاجابالوس قد دبجها الخيال وسودها التحيز ، ولكننا اذا اقتصرنا على المشاهد العامة التي كانت تعرض على الشعب الرومانى ، والتي أكدها المؤرخون الجادون المعاصرون ، لوجدنا أن عارها الذى لا يوصف ، يجاوز مثيله في أى زمان ومكان . ان الأسوار العالية لبيت حريم أى ملك شرقى لتحجب ردائله عن عيون أى متطفل أو محب للاستطلاع . ولقد أدخلت احساسيس الشهامة والشرف ، تهذيب المذات والاهتمام بالحشمة والوقار واحترام الرأى العام في البلاط الحديث للموك أوربا ، ولكن نبلاء روما الفاسدين الكثيرين اغتبطوا لكل رذيلة اقتبسوها من التدفق الجارف للأمم والعادات . وطالما كانوا بمأمن من العقاب ، لا يأبهون للوم أو التوبيخ ، فقد عاشوا ، دون قيود ولا حدود ، في المجتمع الذليل الصبور ، مجتمع العبيد والاتباع ، فلما رأى الامبراطور ، بدوره هذا الاستهتار الشائن المعيب فى الشعب على مختلف طبقاته ، دعم من امتيازته الملكى فى الجشع والبسوخ .

ولن يتورع أحط بنى الانسان عن أن ينكر على غيره ما يجيزه لنفسه من نقائص . ويجد في الحال مارقا لطيفا في العمر أو الخلق أو المكانة ليبرر به هذا التمييز غير النزيه . وكان الجنود الفجار هم الذين رفعوا الابن المنحل لكاراكلا على العرش ، والآن نراهم وقد احمرروا خجلا من هذا الاختيار المخزى ، وولوا وجوههم ، في ضيق وضجر ، عن هذا المارد ليتأملوا في سرور الفضائل المفتحة في ابن خالته الاسكندر بن ماميا Mamaea . ولما احسنت مايسا Maesa الداهية المحققة بأن حفيدها الاجابالوس لا بد أنه سيحطم نفسه برذائله ، قدمت لأسرتها دعامة أخرى أشد ثباتا . فأغرت الامبراطور الصغير ، في لحظة مواتية من لحظات الغرام والاخلاص ، بأن يتبنى الاسكندر ويخلع عليه لقب قيصر ، حتى لا تعود مهامه الالهية تضطرب لانشغاله بهموم الدنيا ، وقد أصبح الأمير المحبوب الرجل الثانى فى الدولة ،



كسب محبة الشعب وأثار حقد الطاغية الذي صمم على وضع حد لهذه المنافسة الخطيرة ، بأن يفسد على قريبه خططه أو يقضى على حياته . ولم تنجح أساليبه ، وفضحت حماقته الثرثرة مشروعاته العابثة ، فأحبطها أولئك الخدم الأمناء الأفاضل الذين اقتضى حرص ماميا أن تحيط بهم ابناها ، وفي نزوة انفعال سريعة وطد الاجابالوس العزم على أن ينفذ بالقوة ما عجز عن تنفيذه بالاحتيال والغش . وأصدر حكما جائرا جرد بك ابن خالته من لقب قيصر ومن أمجاده ، وتلقى السناتو الرسالة في صمت ، ولكنها أثارت حمية المعسكر وغضبه . فقد أقسم الحرس البريتورى على حماية الاسكندر ، والثار لكرامة العرش التي امتهنت ، وصرفتهم عن سخطهم العسادل دموع الاجابالوس المرتعد ووعوده ، ولم يكن يرجو الا الابقاء على حياته ، مع هيروكليز Hierocles المحبوب ، وقنعوا بتفويض رؤسائهم بالسهر على سلامة الاسكندر ومراقبة سلوك الامبراطور .

وكان من المتعذر أن تدوم هذه المصالحة ، أو أن تتقبل نفس الاجابالوس الدنيئة حكم الامبراطورية على أساس شروط التبعية المذلة هذه . وسرعان ما دخل في تجربة قاسية لاصلاح الجنود وتقويمهم . وذاع نبا وفاة الاسكندر ، فاشتد هياجهم لموته ولارتياهم الطبيعى فى أنه مات قتيلًا ، ولم تهدأ العاصفة فى المعسكر الا بحضور الشاب المحبوب ، وبنفوذه هو نفسه ، فاستفز الاجابالوس وأثاره هذا المثال الجديد لتعلقهم بابن خالته واحتقارهم لشخصه ، ومن ثم أقدم الامبراطور على معاقبة بعض قادة الفتنه . ولكن ثبت على الفور أن شدته التي جاءت فى غير أوانها ، كانت وبالا على أتباعه وعلى أمه وعلى شخصه ، فقد ذبحه البريتوريون الساخطون ، وجروا جثته المشوهة فى شوارع المدينة ، وألقوا بها فى نهر التيرير . ووصم السناتو ذكراه بالعار الأبدى ، وصدق الأعتاب على عدالة هذا القرار .

### الاسكندر سيفيروس يتولى العرش

رفع الحرس البريتورى الاسكندر على العرش مكان الاجابالوس . وكانت علاقته بأسرة سيفيروس ، التي اتخذ اسمها لنفسه ، هى هى علاقة سلفه بها ، وعززت فضائله وخطره بالفعل مكانته لدى الرومان ، وأغدق عليه السناتو المثلث السخى فى يوم واحد مختلف القباب وصلاحيات السدة الامبراطورية ، ولكن لما كان الاسكندر شابا يافعا

متواضعا طيعا في سن السابعة عشرة ، فقد وضع زمام الحكم في أيدي سيدتين : أمه ماميا وجدته ماميسا . وبعد موت هذه الأخيرة التي لم تعمر الا قليلا بعد توليه العرش ، بقيت ماميا وصية على ابنها وعلى بلاد آل سسكيبيو . .

وكان أعقل الجنسين ، أو قل أقواهما ، في كل عصر وفي كل بلد ، يغتصب سلطة الدولة ، ويحصر الجنس الآخر في مشاغل الحياة المنزلية وملاهيها ، ومهما يكن من أمر ، ففى الملكيات الوراثية ، وخاصة في أوربا الحديثة ، عودتنا روح الشهامة في الفروسية ، وقانون اعتلاء العرش أن نسمح باستثناء واحد ، وكثيرا ما اعترف بامرأة لتكون سيدة مطلقة لملكة عظيمة ، قد نحسب أنها غير قادرة على أصغر المهام المدنية أو العسكرية . فلما كان الأباطرة الرومان لا يزالون يعتبرون القسادة والحكام في الجمهورية ، فان زوجاتهم وأمهاتهم ، رغم تميزهن بلقب « أوجستا » ، لم يشتركن قط في مهامهم الشخصية ، ولهذا ، ربما بدا حكم النساء عى أنه هول لا يفتقر في أعين الرومان البدائيين الذين تزوجوا دون حب ، أو أحبوا دون لذة أو احترام . وتطلعت أجرينسا Agrippina المتغترسة ، فعلا الى المشاركة في أمجاد الامبراطورية التي خلعتها على ابنها ، ولكن أطماعها الجنونية التي كرهها كل مواطن يستشعر مكانة روما ، خابت أمام الحزم البارح الذى أظهره سينيكا Seneca وبرهوس Burhus ومنع الأمراء المتعاقبين حسن ادراكهم . أو قل استهتارهم ، من الاساءة الى الآراء غير الناضجة لرعاياهم ، واحتفظ للفاجر الاجابالوس بأن يشين قرارات السناتو باسم أمه سواميا التي أجلست جنبا الى جنب مع القناصل ، ومهتت قوانين الهيئة التشريعية بوصفها عضوا منتظما . ورفضت أختها التي كانت أشد منها حرصا وروية ، هذا الامتياز الكريه الحقيم ، وسن قانون صارم استبعد النساء من السناتو الى الأبد ، ونذر للآلهة الخبيثة رأس اللعين الذى يخرق هذا القانون . وكان طمع الرجولة في ماميا يهدف الى جوهر السلطة لا الى أبهتها وجمال منظرها . وكانت لها سيطرة مطلقة مستمرة على عقل ولدها ، ولم تكن لتطبيق صبرا على من يزاحمها في حبها له وتعلقها به . وتزوج الاسكندر بموافقته من ابنة أحد النبلاء ، ولكن احترامه لصوره أو لزوجه الامبراطورة لم يكن ليتفق مع حنان ماميسا ومصالحتها . أما النبيل ( الصهر ) فقد أعدم بتهمة الخيانة المدبرة ، أما زوجة الاسكندر فقد أخرجت من القصر بالعار ثم نفيت الى أفريقية . وعلى الرغم من هذا التصرف الشائى الذى ينم عن الحقد ، وغيره من أعمال الجشع التي اتهمت بها ماميا ، فان طابع ادارتها كان خير

ابنها وخير الامبراطورية سواء بسواء واختارت بموافقة السناتو ستة عشر من ارجح شيوخه عقلا وافضلهم ، وشكلت منهم مجلسا دائما للدولة تناقش امامه اهم مسائل الساعة ويبت فيها ، وكان على رأسهم البيان Ulpian المشهور الذى تميز بحسن درايتته وباحترامه لقوانين روما . وقد اعاد حزم هذه الهيئة الأرستقراطية الحريصة المتبصرة النظام والسلطة الى الحكومة ، وسرعان ما طهر المدينة من الخرافة والبذخ الغسريين عنها ، اى مما خلفته نزوات طغيان الاجابالوس ، ثم لجأ الى ابعاد تلك المخلوقات الدنيئة من وظائف الادارة العامة ، وأحل محلهم رجالا من ذوى الكفاية والفضل . وأصبح التعليم وحب العدالة هما المؤهلين الوحيدين للوظائف المدنية ، والشجاعة وحب النظام للوظائف العسكرية .

ولكن تكوين شخصية الامبراطور الصغير كان اهم ما يشغل بال ماميا ومستشاريها ، حيث كانت سعادة العالم الرومانى أو شقاؤه يعتمد فى النهاية عليها . وعاونت التربية الخصبة - أو قل الاستعداد الطيب - على الغراس ، بل كفت ايدى الفارسين عن الافراط فى الجهد . ذلك أن الاسكندر سرعان ما اقتنعه حسن الادراك بمزايا الفضيلة ولذة المعرفة وضرورة العمل وبذل الجهد ، كما ان الطبيعة حبتة رقة واعتدالا فى المزاج عملا على حمايته من نزوات الانفعال واغواء الرذيلة ، كما وقى احترامه الذى لم يتحول لأمه وتقديره لألبيان الحكيم شبابه غير المجرب من سعم الملح والنفاسق .

ويبرز السجل اليومى لاعماله العادية صورة بهيجة لامبراطور متهذب ، وقد تكون جديرة ، مع التسامح فى بعض فوارق السلوك ، بأن يقلدها امير حديث . كان الاسكندر يستيقظ من نومه مبكرا ، ويخصص وقت البكور لتعبده الخاص ، حيث كان معبده فى القصر زاخرا بصور اولئك الأبطال الذين ارتقوا بالحياة الانسانية أو اصلحوها ، ومن ثم استحقوا اجلال اعقابهم واعتراهم بجميلهم . ولكنه اعتبر خدمة الناس أكثر عبادة تقبولا لدى الآلهة ، فمضى معظم ساعات الصباح فى مجلسه ، حيث ناقش الشؤون العامة ، وبت فى القضايا الخاصة ، فى سبر وحصانة تفوقان سنه ، وكانت روائع الأدب تخفف من شقوة العمل ، فقد كان دائما يخصص جزءا من وقته لدراساته المحببة فى الشعر والفلسفة ، وشكلت مؤلفات فرجيل وهوراس وجمهوريتا افلاطون وشيشرون ذوقه ووسعت مداركه ، وزودته بأنبى الكفر عن الانسان والحكومة ، وسمت رياضة جسمه الى رياضة عقله . وتفوق الاسكندر ، الطويل النشيط الفتول العضلات ، على لداته فى الالماب



فكر الإمبراطورية



## الفصل السابع

( ٢٣٥ - ٢٤٨ م )

### امبراطور من المتبربرين • الجورديانيون • فيليب العربي

من بين مختلف اشكال الحكومة التي سادت العالم ، يبدو ان الملكية الوراثية ، هي التي تمثل اليق مجال بالهزء والسخرية . وهل يمكن القول ، دون ابتسامة ساخطة . انه عند موت الاب - تؤول ممتلكات الامة - وكأنها ارث من قطيع من الثيران - الى ابنه الطفل الذي لم يعرفه الناس ، ولم يعرف هو نفسه بعد ، ومن ثم يتنحى أشجع المحاربين واحكم السياسيين عن حقهم الطبيعي في تولى الحكم ، ويقتربون من المهد الملكي راكعين مظهرين اخلاصهم المكين ؟ وقد يصور الهجوم والنقد مثل هذه الموضوعات الواضحة بالوان تبهر العيون ، ولكننا قد نحترم ، في تفكير أكثر جدية ورزانة ، أى تحيز نافع يقرر قاعدة للتعاقب على الحكم بعيدة عن أهواء الانسان . وسنرتضى بكل سرور أية وسيلة تحرم الجماهير من هذه السلطة المحفوفة بالخطر ، والمثالية حقا ، وهي سلطتهم في تنصيب سيد عليهم .

وقد يسهل علينا في استجمامة هادئة أن نبتكر اشكالا خيالية للحكومة ، ينسلم فيها الصولجان دائما لأجدر فرد ، عن طريق الانتخاب الحر النزيه للجماعة بأسرها ، ولكن التجربة تهدم هذه التلفيقات الوهمية ، وانها لتعلمنا أن انتخاب حاكم في مجتمع كبير لا يمكن قط أن يؤول الى أعقل أفراد الشعب أو الى أكبر جزء منه . والجيش هو الفئة الوحيدة من الرجال الذين يتحدون بدرجة كافية ليلتقوا بعضهم مع بعض في نفس المشاعر ، والذين تبلغ قوتهم حدا يستطيعون معه أن

يفرضوا هذه المشاعر على سائر مواطنيهم . ولكن طبيعة العسكريين التي الفت الضعف والاستعباد معا ، تجعلهم حراسا أو حماة غير صالحين لأى دستور شرعى أو حتى مدنى ، فالعدالة أو الانسانية أو الحكمة السياسية انما هى صفات ليس لهم بها كبير دراية فيما بينهم وبين انفسهم ، الى حد أنهم لا يقدرونها فى الآخرين ، ان شدة البأس تكسب تقديرهم ، والسخاء يشتري أصواتهم . ولكن أولى هاتين الخلتين غالبا ما تكون مودعة فى أشد الصدور قسوة ، وليس للثانية وجود الاعلى حساب الشعب ، ويمكن أن تنقلب كلتاها على رأس صاحب العرش نتيجة لطمع منافس جسور .

اما الامتياز الأسمى وهو امتياز المولد ، اذا توفر له ضمان من الزمن ومن رأى الشعب ، فهو أبسط الامتيازات وأقلها أثارة للبغضاء لدى بنى الانسان . فان الحق المعترف به يهدم آمال الفتنة ، والطمأنينة الواعية تجرد الحاكم من قسوته . وانا لمدينون بالتوارث السلمى للعرش فى الملكيات الأوربية وباداتها الوادعة . أما ما يشوب هذه الفكرة من نقص فلا بد لنا ان ننسبه الى تلك الحروب الأهلية الكثيرة التى يضطر فيها حاكم مستبد مطلق من آسيا ، التى إن يشق طريقه نحو عرش آبائه . ان مجال التصارع حتى فى الشرق ، محصور عادة فى أمراء البيت الملك ، وحالما يقضى المنافس الذى هو أسعد حظا على آخرته بحسد السيف أو بالقوس والنشاب ، فإنه لا يعود يستشعر أى حقد أو غيرة من رعاياه الذين هم ادنى مرتبة . ولكن بسبب موت سلطة السناتور الى الحضيض أصبحت الامبراطورية الرومانية مسرحا للفوضى والاضطراب ، وسيقت الأسرات الملكية وحتى الأسرات النبيلة فى الولايات لمهد طيل سوقا ظافرا أمام عجلة الجمهوريين المتعالمين . وسقطت الأسرات القديمة فى روما صريعة طفيان القياصرة . وبينما غلت أيدى أولئك الأمراء بأشكال الحكومة الجمهورية ( الحكم الذاتى ) فى مجموعة الأمم الرومانية ، وخابت آمالهم بما أصاب ذريتهم من فشل متكرر ، كان من المتعذر أن تتأصل جذور فكرة التوارث فى أذهان رعاياهم . فنادى كل حق العرش لنفسه جدارة واستحقاقا ، لأن أحدا لم يستطع أن يطالب به بحق المولد . وتحللت آمال المطامع الجامحة من القنود السلمية للقانون ، ومن ثم قد يتعلق أخط بنى الانسان ، دون أن يكون فى ذلك أى حسيق من جانبه — يتعلق بأهداب الأمل فى أن ترفعه شجاعته وحظه الى مرتبة فى الجيش ، حيث تمكنه جريمة واحدة يقترفها من انتزاع صولجان الملك من سيد ضعيف غير محبوب . وبعد قتل الاسكندر سيفيروس واعتلاء مكسيمين Maximin لم يعد أى امبراطور يظن أنه آمن فسوق عرشه ،



وربما تطلع كل فلاح من المتبريرين على الحدود الى هذا المركز الرفيع  
المحفوف بالخطر — الى العرش .

وقبل هذا الحادث بنحو اثنتين وثلاثين سنة ، توقف الامبراطور  
سيفيروس ، وهو عائد من حملته في الشرق ، في تراقيا ، ليحتفل بعيد  
ميلاد ابنه الأصغر جيتا ، بإقامة بعض الالعاب العسكرية ، وجاء الناس  
افواجا ليشهدوا مليكهم ، وبرز من بينهم شاب من المتبريرين ، ضخم  
الجسم وتوسل في لهجة خشننة أن يسمح له بالاشتراك في حلبة المصارعة  
بغية الحصول على الجائزة ، وخيف أنذاك من امتهان النظام واختلاله  
إذا تغلب فلاح من تراقيا على جندي روماني ، فسمح له بدخول  
المباراة مع أقوى رجال المسكر ، فطرح منهم ستة عشر على الأرض  
تباعا ، ولكنه كوفى على فوزه ببعض جوائز تافهة ، وبالسماح له  
بالانخراط في سلك الجيش . وفي اليوم التالي أظهر المتبرير السعيد  
امتيازا وتفوقا على حشد من أقرانه المجندين حين كانوا يرقصون  
ويمرحون وفقا لتقاليد بلدهم ، وما أن أدرك أنه قد جذب انتباه  
الامبراطور حتى لحق في الحال بجواده ، وجرى وراءه في سرعة فائقة  
لمسافة طويلة دون أن يظهر عليه أى أثر لاجهاد أو كلل . فقال سيفيروس  
في دهشة : « ايها التراقي ، هل تهيل الى المصارعة بعد هذا السباق ؟ »  
فأجاب الشاب الذى لم يكن قد نال منه التعب بعد : « بكل سرور  
يا سيدى » . وفي طرفة عين صرع سبعة من أقوى الجنود في الجيش ،  
فكان جزاؤه على نشاطه وبأسه الذى لا يبارى طوقاً من الذهب ، وعين  
فى الحال فى الحرس الراكب الذى يلازم الملك نفسه .

وانحدر مكسيمين — وهذا هو اسمه — من عرق مختلط من  
المتبريرين ، ولو أنه ولد بالفعل في بقعة من بقاع الامبراطورية . وكان  
والده من القوط ، ووالدته من أمة العلاني ، وقد أظهر في كل مناسبة  
جرأة تتعادل مع قوته . وسرعان ما خفت حدة شرسته الفطرية  
أو استتريت ، بازدياد معرفته بالعالم . وحصل على مرتبة « ضابط  
مائة » في حكم سيفيروس وولده ، مع تقديرهما له وعطفهما عليه ،  
حيث كان أولهما حكما ممتازا على الجدارة والموهبة ، ومنع مكسيمين  
عرفانه للجميل من اللحاق بخدمة قاتل كاراكلا ، وعلمه الشرف أن يتنزه  
عن اساءات الاجابالوس المخنثة ، وعاد الى البلاط عند اعتلاء الاسكندر  
العرش ، فوضعه الأمير في مركز يمكن أن ينتفع فيه بجهوده ، وهو كذلك  
مشرف لشخصه ، وسرعان ما أصبحت الفرقة الرابعة التى عين فيها في  
وظيفة تربيون ، أحسن فرق الجيش نظاما بفضل عنايته . ونتيجة

لامتداح الجنود له امتداحا عاما شاملا - حتى لقد أضفوا عليه لقب  
أجاكس وهرقل ، بلغ مكسيمين أرفع مرتبة عسكرية . ولولا أنه ظل  
محتفظا بشيء كثير من أرومته الوحشية ، فلربما زوج الإمبراطور أخته  
من ابن مكسيمين .

وعملت هذه الرعاية والمنن على اذكاء روح الطمع - بدلا من الإبقاء  
على الاخلاص والولاء ، في قلب فلاح تراقيا ، الذي حسب أن حظه  
لا يكفى استحقاقه ، طالما أكره على الاعتراف برئيس أعلى منه . ورغم  
أنه كان دخيلا على الحكمة الحقيقية ، إلا أنه كان له من دهائه الذاتى  
ما أوضح له أن الإمبراطور قد فقد حب الجيش له ، وعلمه أن يعمل  
على زيادة الاستياء في الجيش من أجل مصلحته هو ( مكسيمين ) .  
وإنه لمن اليسير أن تنفث الوحشية والفتنة سمومها في ادارة أحسن  
الأمراء ، وأن تنتهم فضائلهم عن طريق خلطها في دهاء بتلك الرذائل التي  
تكون لها بها أقرب علاقة وأصفى الجنود ببتجهين الى رسل مكسيمين .  
وخجلوا لصبرهم المخزى لمئة ثلاث عشرة سنة ، ذلك الصبر الذي مكن  
لهذا النظام الملىء بالمضايقات . والذي فرضه عليهم هذا السورى  
المخنث ، والعيذ الجبان لأمه وللسناتو ، وهنا ارتفعت أصواتهم بأنه  
قد حان الوقت ليتذفوا بهذا الشبح العقيم ، شبح السلطة المدنية ،  
وينتخبوا كأمر وقائد لهم جنديا حقيقيا تعلم في المعسكر وتمرس في  
الحرب ، يستطيع أن يؤكد مجد الإمبراطورية ويوزع عليهم كنوزها .  
وكان هناك آنذاك جيش متجمع على ضفاف الراين تحت قيادة  
الإمبراطور نفسه ، الذي اضطر بعد عودته من الحرب الفارسية الى أن  
يتقدم نحو المتبربرين في ألمانيا . وكانت مهمة تدريب الجنود واستعراض  
الفرق الجديدة - وهي مهمة خطيرة - موكولة الى مكسيمين . فلما  
دخل هذا ذات يوم ميدان التدريب ، ما كان من الجنود ، نتيجة  
دافع مفاجيء أو مؤامرة مدبرة ، إلا أن رحبوا به إمبراطورا ، وأسكتت  
هتافاتهم العالية رفضه العنيد ، وأنهوا ثورتهم بقتل الاسكندر  
سيفيروس .

واختلفت الروايات في ظروف موته ، فيقول الكتاب الذين يظنون  
أنه مات وهو يجهل مطامع مكسيمين وجحوده ، أنه آوى الى فراشه  
بعد أن تناول وجبة بسيطة من الطعام على مرأى من جيشه وإنه في  
الساعة السابعة صباحا ، اقتحم جزء من الحرس الخيمة الإمبراطورية ،  
وطعنوا أميرهم الفاضل المطمئن عدة طعنات حتى مات . وإذا كان لنا أن  
نصدق كاتبنا آخر ، وقد تكون روايته في الواقع أرجح ، فإن ثلة كبيرة  
من الجيش ، على مسافة عدة أميال من مقر القيادة ، قد خلعت على

مكسيمين الحلة الامبراطورية ، وانه كان على ثقة من النجاح نتيجة  
للرغبات الخفية ، اكثر منه للاعلان العام للجيش الكبير . وكان لدى  
الاسكندر وقت كاف لايقاظ شعور هزيل من الولاء في قواته ، ولكن  
اقرارهم بالاخلاق سرعان ما تبدد لدى ظهور مكسيمين الذى اعلن  
نفسه صديقا ونصيرا للعسكرية ، واعترفت به القوات المصفقة بالاجحاج  
امبراطورا على الرومان ، فما كان من ابن ماميا ، المنبوذ المعدور ، ازاء  
ذلك ، الا ان انسحب الى خيمته ، وهو راغب على الاقل فى الابتعاد  
بمصيره المقرب من امانات الجموع المحتشدة . وسرعان ما تبعه  
تربيون وبعض ضباط المقاتل - وهم رسل الموت ، ولكنه بدلا من تلقى  
الضربة المحتومة بعزلة الرجال ، تعالت صرخاته وتوسلاته العقيمة  
فشوهت آخر لحظات حياته ، وحولت الى احتقار جزءا من الاشفاق  
الصادق الذى كانت توحى به براعته ونكباته . اما امه ماميا التى اتهم  
كبرياؤها وجشعها بانهما سبب دماره ، فقد هلكت مع ابنها ، وراح  
أصدق اصدقائه ضحية الفورة الاولى للجنود ، وابقى على آخرين  
ليكونوا طعاما مقصودا لقسوة الغاصب . اما هؤلاء الذين لقيا ارق  
المعاملة فقد فصلوا من وظائفهم ، وأبعدوا بطريقة مضنية عن البلاط  
والجيش .

لقد كان الطغاة السابقون جميعا : كاليجولا ، وثيرون ، وكومودس ،  
وكاراكلا - شبانا منطليين غير مجربين ، تلقوا تعليمهم فى أحضان العز  
وأبهة الملك ، وأفسدهم زهو الامبراطورية وبذخ روما وصوت اللق  
الغدار . ولكن قسوة مكسيمين كانت من منبع آخر ، ذلك هو الخوف  
من الازدراء به . فانه رغم ملازمته للجنود الذين احبوه لما يتطلى به من  
فضائل من جنس فضائلهم ، كان يفرك أن أصله المتبرير الوضيع  
ومظهره الوحشى وجهله المطبق بفنون الحياة المدنية ونظمها ، كل أولئك  
شكل مفارقة شديدة جدا مع الخلق الرضى المحبوب عند الاسكندر  
النعس . وتذكر انه أيام حظه المتواضع كثيرا ما كان يقف على أبواب  
أشراف روما المنطرسين ، وقلما كانت تسمح له وقاحة غبيدهم  
بالدخول . كما تذكر صداقة أفراد قلائل انتشلوه من وهدة الفقر ،  
ومدوا يد المساعدة لأماله المتفتحة . ولكن هؤلاء الذين ترفعوا عن فلاح  
قراقيا ، وهؤلاء الذين بسطوا له أجنحة الحماية والرعاية - كانوا  
مذنبين لجريمة واحدة بعينها ، تلك هى معرفتهم بوضاعة منبته وخمول  
فكره أصلا . وسيق الى الموت بهذه الجريمة كثيرون ، وكأنى بمكسيمين ،  
وقد أعدم كثيرا من المحسنين اليه ، قد سطر بالدم صفحات تاريخ  
خسسته وجحوده .

وكانت نفس الطاغية المظلمة الجوانب المتعظمة للدم مفتحة لاية ريبة تحوم حول أولئك الذين ارتفعت أقدارهم بحكم مولدهم أو مواهبهم من بين رعاياه ، فلم يطرق سمعه يوما نذر خيانة الا امعن في القسوة بلا حدود وبلا رحمة . واكتشف ، أو توهم ، يوما ، مؤامرة على حياته قيل ان مدبرها هو ماجنس Magnus السناتور القنصل ، ودون شهود أو محاكمة أو فرصة للدفاع اعدم ماجنس وأربعة آلاف ظن انهم متواطئون معه . وملئت ايطاليا والامبراطورية بأسرها بالجواسيس والمخبرين . وكان أنبل الرومان الذين حكموا الولايات وقادوا الجيوش ومنحوا أرفع أوسمة القناصل والانتصارات يساقون مكبلين في الأغلال في العربات العامة ليعجل بهم الى حضرة الامبراطور . وكانت مصادرة الأموال أو النفي أو مجرد الموت ، تعتبر أمثلة شاذة لرفقه ورافته . فقد كان يأمر بأن يخاطب بعض هؤلاء المعذبين المنكودين داخل جلود الحيوانات المذبوحة ويلقى بآخرين الى الحيوانات المفترسة ، ويضرب فريق آخر بالنبائيت حتى الموت . ورفض طوال سنى حكمه الثلاث أن يزور روما أو ايطاليا ، وكان معسكره الذى ينتقل من حين الى حين بين ضفاف الراين والدانوب هو مقر حكمه المطلق الكالج الذى داس كل مبادئ القانون والعدالة ، والذى كانت تدعمه قوة واحدة معترف بها هي قوة السيف . ولم يطق أن يرى الى جانبه رجلا كريم المحتد ، أو ذا أعمال جلييلة ، أو ذا دراية بالشئون المدنية . وبعثت حاشية امبراطور الرومان الفكرة القديمة عن رؤساء العبيد والجلادين ، الذين خلقت قوتهم الوحشية أثرا عميقا من الارهاب والكرهية .

وطالما كانت قسوة مكسيمين مقصورة على مشاهير رجال السناتور ، أو حتى على المغامرين الجسورين في الجيش أو البلاط ، الذين عرضوا أنفسهم لنزوات الحظ ، فقد نظر جمهور الشعب الى ما يكابدونه في استهتار ، أو قتل في سرور ومرح ، ولكن رغبات الجنود التى لا تشبع أهاجت جشع الطاغية حتى سطا في النهاية على الأموال العامة . ذلك انه كان لكل مدينة في الامبراطورية مورد مستقل مخصص لشراء الغلال من أجل الجمهور ، أو لتغطية نفقات الألعاب والحفلات ، فعمد الطاغية بقرار واحد من قرارات السيادة الى مصادرة كل الثروة في الحال لمصلحة الخزانة الامبراطورية . فانتزع من المعابد ائمن الهدايا والقرايين من الذهب والفضة ، وصهرت تماثيل الآلهة والأبطال والإباطرة وسكتا نقودا . ولم تنفذ هذه الأوامر الفاجرة دون شغب أو مذابح ، حيث آثر الشعب في أماكن كثيرة أن يموت دفاعا عن معابده ، على أن يرى المدائن معرضة في هدوء للسلب والنهب وفضائع الحرب . وحتى الجنود الذين

وزعت عليهم هذه الأسلاب المدنسة تقبلوها في خجل ، كما أوجسوا خيفة ، وهم الذين تحجرت قلوبهم بأعمال العنف ، من التأنيب العادل من أصدقائهم وأقربائهم ، ودوت في العالم الرومانى صيحة الاستياء العام ، تهيب بالانتقام من العدو المشترك للجنس البشرى ودفعت الى الثورة دفعا ولاية مسالمة عزلاء من السلاح ، بسبب قرار ظالم خاص بها .

ذلك أن مراقب افريقية كان خادما يليق لمثل سيده الذى اعتبر تغريم الأثرياء ومصادرة اموالهم من أغنى مصادر الدخل الامبراطورى . وصدّر ضد جماعة من الشبان الأثرياء حكم جائر ، لو تم تنفيذه لتجردوا من الجزء الأكبر من ثروتهم . وفى غمرة اليأس صح عزيمهم على أمر قد يكون فيه انقاذهم أو القضاء المبرم عليهم . ذلك أنه أمكنهم الحصول بعد لآى من الصراف الجشع على مهلة قدرها ثلاثة أيام جمعوا فيها عددا كبيرا من العبيد والفلاحين من ضياعهم ، وهؤلاء العبيد والفلاحون ينصاعون لأوامر ساداتهم انصياعا أعمى ، ويحملون أسلحة ساذجة من النيابيت والبلط ، فلما سمح لزعماء المؤامرة بالدخول على الحاكم ، أعلوا فيه الطعن بخناجرهم المخبأة تحت ملابسهم واستطاعوا بمعونة الجموع المشاغبة أن يستولوا على المدينة الصغيرة تسدروس Thysdrus ( كانت سوقا تجارية فى تونس ) ورفعوا راية العصيان ضد سيد الامبراطورية الرومانية ، وبنوا آمالهم على كراهية الناس لمكسيمين . فاعتزموا فى فطنة وترو أن يضربوا الطاغية البغيض بامبراطور حظيت مزاياء فعلا بتقدير الرومان وحبهم ، كما أن سلطانه فى الولاية لا بد وأن يضى على المشروع وزنا وتمكينا ، لقد وقع اختيارهم على جورديانوس البروقنصل ، ولكنه رفض فى ابياء خالص لا تصنع فيه ، هذا الشرف المحفوف بالخطر ، وتوسل اليهم وهو يذرف الدمع أن يسمحوا له بأن ينهى حياته الطويلة البريئة فى هدوء دون أن يلطخ أيامه الأخيرة بدم الانسان ، ولكنه — ازاء تهديداتهم — قبل الحلة الامبراطورية ، والحق أنه لم يكن الا القبول ملجأ له من قسوة مكسيمين الحاقدة ، تمشيا مع منطق الطغاة الذى يقول : انها يستحق الموت من هم فى نظر الناس جديرون بالعرش ، أما أصحاب العقول المفكرة فهم فى نظره ثوار » .

## الجورديانيون

كانت أسرة جورديان من أبرز الأسر فى السناتو الرومانى . ويمتد أصله من جهة أبية الى جراكى ، ومن جهة أمه الى الإمبراطور تراجان ، وكانت له ضيعة كبيرة مكنته من تدعيم كرم محتده ، وقد أظهر فى مباشرتها نوقا عالما ونزعة خيرة . وكانت أسرة جورديان ، لعدة أجيال مالكة لقصر روما الذى سبق أن أقام فيه يومبى الكبير ، وكان القصر مشهورا بالأنصاب التذكارية القديمة للانتصارات البحرية ، ومزداننا بالرسوم الحديثة . أما فيلا جورديان — على الطريق الى برانست Pareneste فقد اشتهرت بحماماتها الفريدة فى جمالها واتساعها ، وبثلاث حجرات فخمة طول الواحدة منها مائة قدم ، وبرواق ضخمة مقام على مائة عمود من أعلى وأروع أنواع الرخام الأربعة . وكان يبدو أن الحفلات التى أقيمت على نفقته الخاصة ، والتي ظهر فيها مئات من المجالدين والحيوانات المتوحشة ، تتجاوز حدود ثروة فرد من الرعية . وعلى حين لم يتعد سخاء الحكام الآخرين إقامة بعض حفلات وقسوة فى روما ، تكررت حفلات جورديان الضخمة مرة كل شهر فى روما عندما كان مكلفا بالأشغال العامة ، واهتدت الى مدن إيطاليا الرئيسية عندما كان قنصلا ، وقد رفع الى هذه المرتبة مرتين على عهد كاراكلا والاسكندر ، لأنه كان ذا موهبة خارقة فى كسب تقدير الأمراء الأفاضل ، دون أن يثير حفيظة الطغاة . وقضى حياته الطويلة ببساطة فى دراسة الآداب وفى الأعمال السلمية المجيدة فى روما ، ويبدو أنه رفض فى حرص قيادة الجيوش أو حكم الولايات ، حتى عين « بروقنصل » فى أفريقيا بناء على رأى السناتو وموافقة الاسكندر . وكانت أفريقية سعيدة طوال حكم الاسكندر ، تحت ادارة ممثله الممتازة فلما اغتصب مكسيمين المتبربر العرش ، خفف جورديان من أمر المصائب التى كان عاجزا عن ردها . وكان عمره ، يوم قبل الحلة الإمبراطورية على مضض ، أكثر من ثمانين عاما ، فكان آخر خلف عظيم من عهد الانطونيين الزاهى ، الذى أحيا هو فضائله فى سلوكه الخاص ، وخلص ذكرها فى مقصيدة عامرة سجلها فى ثلاثين كراسة . ومع البروقنصل المحترم أعلن ابنه امبراطورا كذلك ، وكان يرافقه أباه من قبل بوصفه نائبا له . وكان سلوكه أقل نقاوة ، ولكن شخصيته محبوبة مثل أبية ، وكانت له اثنتان وعشرون خليفة معترف بهن ، كما كانت لديه مكتبة تضم اثنين وستين ألف مجلد ، مما يدل على تنوع ميوله ، وينضح من الانتاج الذى تركه وراءه أن الخليلات والكتب كانت تخدم غرضا ، أكثر منها مجرد التباهى والتظاهر . وتبين الشعب الرومانى فى ملامح جورديان الصغير شبه سكيبيو الأفريقى

وتذكروا في ابتهاج أن امه كانت ابنة انطونينوس بيوس الكبرى ، وعقدوا  
الآمال على هذه المزايا الكامنة التي ظلت — كما حلا لهم أن يتصوروا —  
مختلفة حتى الآن بين طيات الخمول المترف في حياة خاصة .

ونقل الجورديانيون بلاطهم الى قرطاجة ، حالما اخمدوا الهياج في  
أول انتخاب شعبي . واستقبلتهم هتافات الأفرقيين الذين مجدوا  
فضائلهم . والذين لم يشهدوا منذ عهد هادريان عظمة امبراطور روماني .  
ولكن هذه الهتافات العميقة لم تقو ولم تثبت لقب الجورديانيين . وكانوا  
مدفوعين بحكم المبدأ وبحكم المصلحة معا الى التماس موافقة السناتو ،  
ومن ثم أرسل دون ابطاء ، وفد من علية القوم في الولاية ، الى روما  
ليروي القصة ويبرر تصرف مواطنيه الذين صمموا في النهاية على العمل  
في عزم وشدة ، بعد أن صبروا على الشقاء طويلا . وكانت رسائل  
الأميرين الجديدين متواضعة وقبورة ، تلتبس العذو للضرورة التي  
الجأتها الى قبول اللقب الإمبراطوري ، مع اخضاع انتخابهما  
ومصيرهما للرأى الأعلى للسناتو .

ولم يشب اتجاهات السناتو اى شك أو انقسام ، فان المولد  
والروابط الكريمة قد وثقت العلاقة بين الجورديانيين وبين المع بيونات  
روما . وقد خلق ثراؤهم اتباعا كثيرين لهم في المجلس . كما جذبت  
مواهبهم اليهم أصدقاء كثيرين ، وساعدت ادارتهم المعتدلة على التطلع  
البراق الى استعادة — لا الحكومة المدنية فحسب ، بل الحكومة  
الجمهورية كذلك . وانك لتجد الآن أن ارهاب العنف العسكري —  
الذى أرغم السناتو في البداية على نسيان قتل الاسكندر والتصديق  
على انتخاب ملاح متبربر — قد اتي بنتيجة عكسية ، وحفز على تأكيد  
حقوق الحرية والانسانية التي سبق اهدارها والاساءة اليها . حيث  
كانت كراهية مكسيمين للسناتو سافرة لا تفتقر ، ولم يكن ارق السوان  
الخضوع ليخفف من حدته ، كما لم تكن البراءة الحذرة لتزيل شكوكه ،  
بل ان حرصهم على سلامتهم أغراهم بالاسهام في مشروع يثقون في  
أنهم سيكونون أول ضحاياها إذا لم يكتب له النجاح . وكانت هذه  
الاعتبارات وربما غيرها ، مما قد تكون لها طبيعة أخص ، قد نوقشت  
في مؤتمر سابق للقنصل والحكام . ولما انتهوا من وضع قرارهم ، دعوا  
السناتو بكامل هيئته الى الاجتماع في معبد كاستور Castor ، طبقا  
لتقليد قديم من السرية ، وذلك لاثارة انتباههم وكتمان قراراتهم . وقال  
القنصل سلانوس Syllenus : « أيها الأعضاء : ان الجورديانيين  
— وكلاهما من مرتبة القنصل : بروقنصل ونائبه — قد أعلنتها أفريقية  
امبراطورين بموافقة عامة » . واضاف في جراءة : « فلنقدم الشكر الى

شيعية تسمى دروس Thysdrus ولشعب قرطاجة المخلص ، وهم منقذونا الكرام من المارد الرهيب . لماذا تصفون الى بفتور وفي جبن هكذا ؟ ولماذا تلقون هذه النظرات القلقة بعضكم على بعض لا فيم تترددون ؟ . ان مكسيمين عدو للشعب ، ولتنقض عداوته بانقضائه ، ولننعم طويلا في ظل روية وتبصر جورديان الاب وغبطته ، وفي ظل عزم جورديان الابن ووفائه » . وأحيت حماسة القنصل الكريمة روح السناتو الخامة ، وصدق بالاجماع على قرار انتخاب الجورديانيين . وأعلن أن مكسيمين وابنه وأتباعه أعداء لبلادهم . ووعد بمكافآت سخية لمن يجد في نفسه الشجاعة ويواتيه الحظ للقضاء عليهم .

وفي أثناء غياب الامبراطور بقيت فرقة من الحرس البريتورى ، في روما لتحمى العاصمة أو بالاحرى لتتولى زمام السلطة فيها . وتميز أخلاص فيناليانوس ، رئيس حرس مكسيمين ، بخفته ومسارعتة الى اطاعة الأوامر القاسية للطاغية ، بل في الخيلولة دونها . والحق أن موته ( رئيس الحرس ) كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ سلطة السناتو من التوقف ، وانقاذ حياة أعضائه من الخطر المحقق بهم . وقبل أن يذبح السناتو قراراته ، وكل الى ضوابط من الفرسان وبعض الثرييون الاضطلاع بمهمة القضاء على حياته الفانية ، ووقفوا في تنفيذ هذا الأمر في جراءة لا يعدلها الا توفيق السناتو وجراته في القرار الذى اتخذه . ثم جروا في الشوارع بخناجرهم الملوحة بالدماء في أيديهم يعلنون للشعب وللجيش أنباء الثورة السعيدة ، وضاعفت الوعود باغداق المال والأرض من الحماس للحرية ، وحطقت تماثيل مكسيمين ، راقست العاصمة في فرح وابتهاج سلطة الجورديانيين والسناتو ، وحذت بقية مدن ايطاليا حذو العاصمة .

وظهرت روح جديدة في هذا المجلس الذى عيل صبره الطويل بالاستبداد الرهيب والفوضى العسكرية . وتسلم السناتو مقاليد الحكم ، واستعد في جراءة هادئة لتأييد قضية الحرية بقوة السلاح . وكان من السهل اختيار عشرين من بين الشيوخ القناصل الذين كانوا مقربين لدى الامبراطور الاسكندر بسبب مواهبهم وخدماتهم ، ممن يضارع بعضهم بعضا في القدرة على قياد الجيوش وادارة الحروب ، وقد عهد الى هؤلاء بالدفاع عن ايطاليا . وعين كل منهم ليعمل في دائرة معينة ، وخول تجنيد شباب ايطاليا وتنظيمه ، وأمر بتحصين الموانئ والطرق ضد أى غزو متوقع من جانب مكسيمين ، واختير عدد من النواب من أبرز شخصيات السناتو والضباط ، وأوفدوا في نفس الوقت الى حكام



الولايات المختلفة يناشدونهم أن يسارعوا إلى نجدة بلدهم ، ويذكرون  
الأمم بروابط الصداقة القديمة بينهم وبين السناتو والشعب الروماني .  
ويدل الإحترام العام الذي قوبل به هؤلاء المبعوثون ، وتحسب إيطاليا  
والولايات للسناتو ، على أن رعيا مكسيمين قد امتد بهم الكرب إلى  
حد غير عادي ، أصبح معه جمهور الشعب يخشى الجور والظلم أكثر  
مما يخشى المقاومة . وقد أذكى الشعور بهذه الحقيقة المريرة الأليمة  
روح المثابرة على الهياج والغضب ، بدرجة قل أن توجد في مثل هذه  
الحروب الأهلية التي تشعل نيرانها بطرق مصطنعة لصالح بعض  
الزعماء المدبرين المشاغبين .

ولكن بينما قوبلت قضية الجورديانيين بحماس شامل ، نجد أنهم هم  
أنفسهم لم يعد لهم وجود ، فقد روع بلاط قرطاجه الضعيف بالتقدم  
السريع لحاكم موريتانيا : كابلينوس Capellianus الذي شن ، يعصانه  
صغيرة من المحاربين المحنكين وجيش متوحش من المتبريرين ، هجومه  
على ولاية مخصصة ، ولكن غير محاربة . وخرج جورديان الأصغر للاقتاة  
العدو على رأس عدد قليل من الحرس وجمهور غير منظم ممن تروا  
في أحضان الترف والهدوء في قرطاجه . ولم تجد جرأته العقبة إلا في  
أنها هيات له ميتة شريفة في ساحة الوغى . أما أبوه الشيخ العجوز الذي  
لم تتجاوز فترة حكمه ستة وثلاثين يوما ، فإنه وضع حداً لحياته لدى  
سماعه بأول أنباء الهزيمة . وفتحت قرطاجه الخالية من وسائل الدفاع  
أبوابها للفتح ، وتعرضت أفريقية بأسرها لقساوة رهبة من عبد كان  
لزاما عليه أن يرضى ويشبع نهم سيده الذي لا يرحم ، بأكبر قدر من  
الدم والمال .

**انبرى السناتو الآن لمقاومة مكسيمين ، وانتخب امبراطورين**  
مشتركين بيوبيئوس Papienus ( ورد في كتاب جيبون مكسيموس )  
وبالبيئوس Balbinus واعد مكسيمين العدة لدخول إيطاليا بطريقة  
تعيد إلى الأذهان صورة غزوات المتبريرين .

تميز مكسيمين من الغيظ حين تعاقبت الثورات في روما وأفريقية  
بهذه السرعة ، وقيل انه لم يتلق أنباء ثورة الجورديانيين وقرار السناتو  
ضده بمزاج رجل ، بل بغضبة وحش مخترس عاجز عن أن يصب جام  
غضبه على السناتو البعيد عنه ، وهدد بالانتقاص على ابنه وأصدقائه  
وكل من يجسر على الاقتراب منه ، وسرعان ما أعقب النبأ السعيد بيوت  
الجورديانيين ، التوكيد بأن السناتو - وقد ودع كل أمل في العفو  
أو التوفيق ، قد وضع مكانهما امبراطورين آخرين لا يمكن أن يجهل

هو مواهبها وقدرتها . ولم يبق لمكسيمين من عزاء الا الانتقام ، وليس من وسيلة للانتقام الا السيف . وكان الاسكندر قد جمع قواته من مختلف ولايات الامبراطورية ، وقد رفعت حملات ثلاث مظفرة ضد الالمان والسارماتيين من ذكر هذه القوات ودعمت نظامها ، بل حتى زادت من اعدادها عن طريق ملء المناصب بزهرة شباب المتبريرين . وكان مكسيمين قد قضى حياته في الحرب ، ولن يستطيع التاريخ في صراحته القاسية ان يغمطه حقه في عزيمة الجندي بل في مقدرة القائد المحنك . وكان من الطبيعي ان يتوقع من امير على هذا الخلق — بدلا من السماح للثوار بتدعيم انفسهم بمثل هذا الابطاء — ان يسارع على الفور بمغادرة ضفاف الدانوب الى ضفاف التير . وان جيشه — وقد اغرته السخرية من السناتو ، وهزه الشوق والتلهف على جمع الأسلاب والغنائم من ايطاليا ، ليتحرق لها على انجاز هذه الغزوة اليسيرة الرابعة . ولكن يبدو — قدر ما نستطيع الركون الى التسلسل الغامض لتاريخ تلك الحقبة — ان عمليات حرب خارجية اجلت الحملة الايطالية الى الربيع التالي . وقد تبين من سلوك مكسيمين الذى يتسم بالروية والتبصر ان جوانب الوحشية والشراسة مبالغ فيها بدافع التحيز ، وان متاعره مهما كانت عنيفة ، خضعت لقوة المنطق ، وأن الرجل المتبرير كان يتطلى بشيء من روح سلا Sylla الكريمة ، ذلك الذى اخضع اعداء روما قبل ان يسمح لنفسه بالثار لما لحق به هو نفسه من اذى .

ولما وصلت قوات مكسيمين — فى نظامها الرائع — الى سفوح الالب اليوليانية ، روعوا وذعروا للسكون والوحشة اللذين سادا الحدود الايطالية . وهجر السكان القرى والمدن المفتوحة عند اقترابهم منها . كما سحبت منها الماشية ، ونقلت المؤن وأتلفت ، ودمرت الجسور ، ولم يبق ثمة شئ يأوى اليه الغزاة أو يتبلغوا به . تلك كانت الأوامر الحكيمة الرشيدة التى أصدرها قواد السناتو ، الذين كان من خطتهم أن يطيلوا أمد الحرب ، ويحظموا جيش مكسيمين بالمجاعة ويستنزفوا قوته فى حصار المدن الرئيسية فى ايطاليا ، وقد زودت هذه المدن بالوفير من الرجال والمؤن من البلاد المهجورة . وتلقت اكويليا أول ضربة وتصدت لها . وفاضت بذوبان ثلوج الشتاء المجارى المائية التى تخرج من أعلى رأس بحر الادرياتيك ، وشكلت عقبة غير متوقعة أمام جيش مكسيمين ، ولكنه فى النهاية ، وعلى جسر واحد أقيم بصعوبة وبجهارة ومن ، من البراميل الكبيرة ، نقل جيشه الى الضفة المقابلة ، واقتلع الكروم الجميلة ، فى ضواحي اكويليا ، وهدم الضواحي واستخدم أخشاب المباني فى الآلات والابراج التى هاجم بها المدينة من كل جانب .

وكانت الاسوار آيلة الى السقوط يطول عهدها بالأمن والسلام ، فجرى ترميمها على عجل لمناسبة هذه الضرورة المفاجئة ، ولكن الحق ان اصلب دفاع عن المدينة يكمن في ثبات اهليها ، فان الخطر المصدق بهم ، ومعرفتهم بمزاج الطاغية الذي لا يرحم — بدلا من أن يروعهم ويفزعهم — ايقظهم والهبهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وكان كرسبينوس Crispinus ومينوفيلوس Menophylus — وهما من نواب السناتو العشرين — يدعمان شجاعتهم ويوجهاتها ، وقد استطاعا بقوة صغيرة من الفرق النظامية أن يلقوا بأنفسهم وسط المكان المحصور ، وصد جيش مكسيمين في هجمات متكررة ودمرت آتاه بما أطررها به من نيران صناعية . وارتفع الحماس الكريم الذي عم أهل أكوليا الى ثقة بالنصر حين وقر في أذهانهم أن بيلينوس Belenus الاله الحارس ، قاتل بنفسه دفاعا عن عبادة الكرويين .

ونظر الامبراطور مكسيموس الذي كان قد وصل الى رافنا Ravenna ليستحوذ على هذا المكان الهام ويعجل بالاستعدادات العسكرية — نظر الى قيام الحرب ، بمنظار أكثر اخلاصا وأمانة ، بمنظار المنطق والسياسة . فأدرك كل الادراك ان أية مدينة واحدة لن تستطيع ان تقاوم الجهود الدائبة لجيش كبير . كما خشى أن يفض العدو الذي سئم مقاومة أكوليا الحصار العقيم فجأة ، ويسير قدما نحو روما . ومن ثم يعتمد مصير الامبراطورية ومصير قضية الحرية على نتيجة معركة ، وأية قوات يمكن أن تتحدى وتتصدى لفرق الراين والدانوب المحنكين ؟ لقد جندت بعض الفرق حديثا من شباب ايطاليا الكريمة المنهوك ، كما كانت هناك قوات مساعدة من الألمان من الخطر أن يوثق بصمودهم في ساعة العسرة . وفي وسط هذا الذعر والفرع ، كالت مؤامرة داخلية لمكسيمين ضربة كانت عقابا وفاقا لما اقترف من جرائم ، وخلصت روما والسناتو من الكوارث التي كان من المحقق أن تحل في اعقاب انتصار المتبربر الغاصب .

ذلك ان أهل أكوليا الذين لم يذوقوا بالكاد ويلات الحصار المألوفة كانت حوانيتهم مزودة خير تزويد وأوفره . كما أمدتهم النافسورات الموجودة داخل الاسوار بمعين لا ينضب من الماء العذب . وعلى البقيش من ذلك كان جنود مكسيمين ، الذين تعرضوا لقسوة الطقس وعدوى المرض وارهاب المجاعة . وخرب الريف المكشوف المنبسط ، وأمتألت الأنهار بجثث القتلى ، وتلوثت مياهها بدمائهم وبدأت روح اليأس والكراهية تنتشر بين الفرق ، ولما كانوا منقطعين انقطاعا تاما عن الأخبار ، فقد سهل عليهم أن يصدقوا أن الامبراطورية بأسرها وقفت في

صف السناتو . وأنهم قد تركوا ضحايا هالكة يقضون نحبهم تحت أسوار  
أكويليا التي يتعذر اختراقها . وهاجت شراسة الطاغية للخيبة واليأس  
الذين نسبها الى جبن الجيش . واثارت مسوئه الرهيبه التي لا تتحيز  
الوقت المناسب - كراهيته ورغبة صادقة في الانتقام ، بدلا من أن  
تقضى على الفزع والرعب . ونفذ جماعة من الحرس البريتورى - كانوا  
مرتعدون خوفاً على زوجاتهم وأولادهم في معسكر ألبا قرب روما -  
حكم السناتو - ولما تخطى عن مكسيمين حراسه ، ذبح في خيمته مع ابنه  
( الذى كان رشحه للسدة الامبراطورية ) وأنولينوس Anulinus  
رئيس الحرس ، ووزراء الطاغية الأساسيين . واقنعت رعوسهم المعلقة  
على الحراب اهل أكويليا بأن الحصار قد انتهى . وفتحت ابواب المدينة  
واقبعت مؤاندة سخية لفرق مكسيمين الجائعة وشارك الجيش بأسره في  
اعلان الموالء في هيبه ووقار للسناتو ولشعب روما وللإمبراطورين  
الشرعيين مكسيموس وبالبينوس . وكان هذا هو المصير الجدير  
يوحس كاسر ، مجرد كما كانوا يبتلون دائما ، من أية عاطفة يتميز بها  
انسان متمدين ، أو قتل أى انسان كائنا من كان . وكان جسمه يتفق  
مع نفسه ، فقد جاوزت قامة مكسيمين ثمانية أقدام ، وقد روى ما لا يكاد  
يصدق عن قوته وشهيته في الأكل ، ولو أنه عاش في عصر أقل استنارة ،  
لمنته الثقايد والأشجار على انه شيطان مارد استخدم قوته الخارقة في  
تحطيم البشر .

ومن اليسير أن ندرك ، أكثر من أن نصف ، ما عم دنيا الرومان  
من فزع وسرور لتسقوط الطاغية . وثقل ان وضول أبنائه من أكويليا الى  
روما استغرق أربعة أيام . وعاد مكسيموس في موكب ظافر ، وخف  
لاستقباله زميله جورديان الأصفر ، ودخل الأمراء الثلاثة العاصمة ،  
وفي ركابهم مبعوثو كل مدن ايطاليا تقريبا . وقد استقبلوا بأروع مظاهر  
التقدير والتقدیس وأصدق هتافات السناتو والشعب ، الذين منوا  
بأنفسهم بأن عصرا ذهبيا سيعقب عصر الحديد . والحق أن سلوك  
الإمبراطورين كان يلتئم مع هذه التمنيات . فقد توليا القضاء  
شخصيا ، وخفف حلم الواحد منهما من عنف الآخر . وقد ألغيت ، أو على  
الأقل عدلت الضرائب الجائرة التي كان مكسيمين قد فرضها على حقوق  
الوراثة والأيلولة ، وأعيد النظام ، وسن الوزراء الإمبراطوريون بمشورة  
السيناتو كثيرا من القوانين الحكيمه محاولين بذلك اقامة دستور مدنى  
على انقاض الطغیان العسكري . وسأل مكسيموس يوما في جو مشبع  
بالحرية والثقة : « أى جزاء تنتظر من وراء تخليص روما ؟ » فكان  
جواب البينوس بلا تردد : « حب السناتو والشعب والجنس البشرى

بأسره » . فأردف زميله الذي هو أعمق فكرياً « والسفاه واحسرتاه !  
انى لأخشى كراهية الجنود والناتج الوبيلة لاستيائهم ! » .

بعد فترة وجيزة من موت مكسيمين ، نجح البريتوريون بيوبينوس  
Pupienus وبالينوس ، وبعد حكم جورديان الثالث الذى لم يدم  
طويلاً . خلع الجنود الحلة الإمبراطورية على « فيليب » وهو عربى  
المولد .

### فيليب العربى

عندما عاد فيليب من الشرق الى روما ، اشتدت به الرغبة فى محو  
ذكريات جرائمه ، وفى كسب محبة الشعب . فعمد الى احاطة حفلات  
الألعاب القرنية ( التى تقام كل مائة سنة ) بكل مظاهر الأبهة والعظمة .  
وقد احتفل بها — منذ أنشأها أو أحيائها أوغسطس — كل من كلوديوس  
ودوميتيان وسيفيروس ، والآن تتجدد للمرة الخامسة لمناسبة مرور  
ألف سنة على تأسيس روما . وكانت فرصة هذه الألعاب تنتهز بهارة  
لتعبئة العقلية الخرافية بأعمق الاحترام . والحق أن الفترة الطويلة بين  
هذه الألعاب تجاوز دورة الحياة الانسانية ، ولم يكن أى من المتفرجين  
قد شهدا بالفعل ، ومن ثم لا يعطل أحد نفسه بالأمل فى رؤيتها مرة  
ثانية . وكانت القرايين الخفية الرمزية تقدم فى ثلاث ليال على ضفاف  
التيبر وكانت ساحة مارشيوس تعج بالموسيقى والرقص ، وتضاء بعدد  
لا يحصى من المصابيح والمشاعل . ولم يخصص للمبيد والفرياء فى  
الاشتراك فى هذه الحفلات الوطنية . وكانت هناك فرقة من سبعة وعشرين  
شاباً وعدة عذارى من أنبل العائلات ممن لا يزال والدوهن  
أحياء — تنشد الأبتهالات الى الآلهة العطوفة من أجل الحاضر ، ومن  
أجل الأجيال الصاعدة ، وتتوسل اليها فى ترانيم دينية أن تحافظ على  
الفضيلة وعلى الغبطة وعلى إمبراطورية الشعب الرومانى طبقاً لما نزل  
به الوحي القديم . وقد بهرت عظمة الاستعراضات — انحفلات التى  
أقامها فيليب أعين الناس ، وانصرف الأتقياء الورعون الى ممارسة  
الطقوس الخرافية ، بينما تدبرت القلة المفكرة فى عقولها القلقة ماضى  
الإمبراطورية ومستقبلها .

وقد انقضت الآن عشرة قرون منذ اتخذ روميلوس  
Romulus مع عصابة صغيرة من الرعاة والخارجين على القانون ، مقراً حصيفاً لهم  
على التلال القريبة من نهر التيبر ، وفى الأجيال الأربعة الأولى من هذه  
الحقبة ، وفى مدرسة الفقر الشاقة المجهدة ، حصل الرومان مزايماً  
الحرب والحكم . وعن طريق الممارسة الجادة العنيفة لهذه الفضائل ،

وبمساعدة الحظ ، كسب الرومان في غضون القرون الثلاثة التالية امبراطورية مطلقة السلطان على بلاد كثيرة في أوروبا وآسيا وأفريقية . أما ثلاثئة السنة الاخيرة فقد كان طابعها ازدهاراً ظاهرياً ، وازمحللاً داخلياً . أما أمة الجنود والحكام والمشرعين التي كونت قبائل الامبراطورية الرومانية البالغ عددها خمسا وثلاثين قبيلة فقد ذابت في كتلة الجنس البشرى ، واختلطت بمسلايين التابعين الأذلاء من أهيل الولايات الذين أخذوا اسم الرومان دون أن يقتبسوا الروح الرومانية ، وكان جيش المرتزة الذى تكون من الرعايا ومن المتبريرين على الحدود، هو الطبقة الوحيدة من الرجال الذين حافظوا على استقلالهم واستقلاله . وعن طريق انتخاباتهم التى يسودها الشغب حظى السورى والقوطى والعربى بشرف التربع على عرش روما ، وزود بالسلطة المطلقة على الفتوحات وعلى بلاد آل سكينيو .

وكانت حدود الامبراطورية لا تزال تمتد من المحيط الاطلسى الى الدجلة ، ومن جبال أطلس الى الراين والدانوب . وكان فيليب بيدو فى عين الساذج الأحق الذى يحسن التمييز ، ملكا لا يقل قوة عن هادريان وأوغسطس . وبقي الشكل كما هو ، ولكن ولت الصحة والقوة اللتان تبعثان النشاط والانتعاش . وثبتت الوان الظلم همة الشعب واستنزفت جهوده ، وأفسد طمع الأباطرة نظام الجيش ، كما كان ضعفهم سببا فى تراخى هذا النظام الذى كان يمكن أن يكون دعامة عظيمة الدولة ، اذا ما تبخرت كل الفضائل والمزايا الأخرى . أما قوة الحدود التى كانت ترتكز دائما على الفرق أكثر منها على التحصينات ، فقد تقوضت بطريقة غير ملموسة ، وتعرضت أجمل الولايات لسلب المتبريرين وطمعهم ، وهم الذين تبينوا بسرعة اضمحلال الامبراطورية الرومانية .

وبينما كانت حروب الحدود لزم من تطويل هى الشغل الشاغل للحكومة الامبراطورية دوماً فإن المفزوات الكبرى للمتبريرين ، التى كانت الآن فى نروتها - كانت نتيجة لامتباب جديدة ، ففى الشرق انتهت قوة اسرة أرشك The Archuk فى بارثيا . ولكن جاء التهديد الجديد من فارس . أما فى الحدود الشمالية فقد تجمعت الآن شعوب ألمانيا الشرقية ، وهى الشعوب التى لم تكن الفت الرومان بعد ، وقد اخصص جيبون الفصلين الثامن والتاسع لهذه الموضوعات .

## الفصل العاشر

( ٢٥٣ - ٢٦٨ م )

### الكوراث العاصه في عهد فاليريان وجالينوس

غارات القوط ، غزو الفرس لأرمينيا ، واسرة فاليريان

قتل فيليب في ٢٤٩ ، وأعقبه دكيوس ، وهو رجل قدير ، قساد الحرب ضد القوط ولكنه قتل هو وابنه في المعركة في نبرودسكا . وتوالت بعد ذلك في تعاقب سريع عهود جالوس وأميليانوس ، وفي ٢٥٣ أصبح فاليريان امبراطورا ، وسرعان ما اشرك ابنه جالينوس . وقد أورد جيبون سيرة جالينوس بشكل يحط من قدره على طول الخط ، ولكن النقاد الحديثين ردوا اليه باعتباره . ومهما يكن من أمر ، فإن الصورة التي رسمها جيبون للكوراث في عهد فاليريان وجالينوس صادقة .

كان فاليريان في نحو الستين من العمر حين اعتلى العرش ، لا نتيجة خطرات من وساوس الشعب أو هتافات الجنود ، ولكن باجماع العالم الروماني بأسره . وقد استحق طوال تدرجه في مناصب الدولة حب أفاضل الأمراء ، كما أعان في كل مناسبة انه عدو للطفافة . وقد وجد فيه السناتو والشعب كريم محننه وخلقه المعتدل النقى وعلمه وتبصره وخبرته ، وكما قال أحد الكتاب القدامى : لو ترك الجنس البشرى حرا في اختيار سيد له ، لوقع اختياره بكل تأكيد على فاليريان . وربما كانت مواهب هذا الامبراطور غير متكافئة مع شهرته ، أو كانت قدراته ، أو على الأقل روجه متأثرة بما يقتنرن بكبر السن من ضعف وفتور ، وقد أدى به شعوره بالاضمحلال الى أن يجعل له على العرش شريكا اصغر سنا وأكثر نشاطا . وكانت ظروف الحال تتطلب قائدا كما تتطلب بنفس القدر ملكا . وربما كان حريا بالرقيب الروماني أن تهديه تجاربه الى أين يتجه ، ليضع الحلة الامبراطورية على من تؤهله لها الموهبة العسكرية ، ولكن فاليريان بدلا من الاختيار السليم الذي قد ثبت

ملكه ويخلد ذكره ، انقاد لما أملاه عليه الحب أو الفرور ، فأضفى في الحال على ابنه جالينوس هذا المجد الفاهر ، وهو شاب استترت رذائله الأنثوية تحت غموض الحياة الخاصة . وبقيت الحكومة المشتركة بين الوالد والولد سبع سنين ، وانفرد جالينوس بالادارة نحو ثماني سنين . ولكن الفترة كلها — فترة الخمسة عشر عاما — كانت سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والكوارث . ولما كانت الامبراطورية الرومانية قد انقضت عليها في نفس الوقت ، ومن كل جانب ، غزاة أجنب في غارات رهيبة عاتية ، كما اجتاحتها الأطماع الوحشية للغاصبين المحليين — فاننا لن نحيد عن جادة النظام والوضوح ، اذا نحن لم نتتبع كثيرا الترتيب الزمني المشكوك فيه ، وتتبعنا التقسيم الطبيعي للموضوعات . وكان ألد أعداء روما في عهد فاليريان وجالينوس هم :

١ — الفرنجة ، ٢ — الألمان ، ٣ — القوط ، ٤ — الفرس . ويمكن أن ندرج تحت هذه التسميات العامة مغامرات قبائل أقل أهمية لن يكون في ذكر أسمائها الغامضة الثقيلة الا ارهاق لذاكرة القارئ ، وتشتيت لانتباهه .

١ — لما كان نسل الفرنجة وذراريهم يكونون اليوم أمة من أكبر أمم أوروبا وأعظمها استنارة فقد استفدت كل قوى العلم وكل البراعة في الكشف عن أسلافهم الأبيين . وجاءت أساليب الخيال بعد القصص الساذج . ونشطت عمليات الفريضة والفحص والمسح في كل قطعة وفي كل بقعة مما يحتمل أن يبيط اللثام ، ولو يسيرا ، عن أصلهم ونشأتهم . وكان المظنون أن بانونيا ، وأن الغال وأن الأجزاء الشمالية من ألمانيا كانت فيها النشأة الأولى لهذه الجماعة الفذة من المحاربين . وأخيرا اقتنع أعظم النقاد منطقا وعقلا . الذين رفضوا هذه الهجرة الوهمية لهؤلاء الغزاة المثاليين — اقتنعوا بفكرة تغرى ساططها بصدقها . فقد ذهبوا الى الظن بأن السكان القدامى في الراين الأدنى والوايز — كونوا ، حوالي عام ٢٤٠ م اتحادا جديدا تحت اسم « الفرنجة » . وكانت منطقة وستفاليا الحالية ، واقطاعات هيس ودوقيات برنزويك ولونبرج Luneberg كانت هذه كلها الموطن القديم لقبيلة تشوسى Chauci ( من أشهر القبائل في غرب ألمانيا قديما ) التي تحدث الجيش الروماني في مستنقعاتها التي لا يمكن اجتيازها ، ولقبيلة تشيروسكى Cherusei الفخورة بشهرة أرمنيوس Armenius ، ولقبيلة كاتي Catti الشديدة البأس بفضل مشاتها الأقوياء البواسل ، ولعدة قبائل أخرى أقل قوة وشهرة . وكان تعشق الحرية هو منتهى ما يسيطر على عقول هؤلاء



الألمان ، والتمتع بها أعلى كنز لديهم ، والتعبير عن متعة الحرية ونعيمها أحسن ما تطرب له أسماعهم . ومن ثم استحقوا هذا اللقب الكريم واتخذوه لأنفسهم وحافظوا عليه وهو «الفرنجة» أى الرجال الأحرار Freeman وهذا اللقب هو الذى حجب الأسماء الخاصة لمختلف الولايات الداخلية فى الاتحاد ، ولو أنه لم يقض عليها تماماً . وقد عرضت الموافقة الضمنية والمنفعة المتبادلة أول قوانين الاتحاد ، ثم وطدت العادة والخبرة يوماً بعد يوم دعائمه . وقد تفتح عصابة الفرنجة مجال المقارنة بالاتحاد السويسرى ( Helvetia الاسم القديم ) الذى كان كل قسم فيه يحتفظ بسيادته المستقلة ، ويتشاور مع سائر الأقسام فى القضايا العامة ، دون الاعتراف بسلطة أى رئيس أعلى أو جمعية تمثيلية أو نيابية ، ولكن مبدأ كل من الاتحادين يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، فقد نعم السويسريون بالهدوء والسلام لمدة قرنين من الزمان ، جزاء وفاقاً لسياستهم الحكيمة الأئمة . ولكن روح التقلب ، والتعطش الى السلب والنهب ، وعدم احترام أعظم المعاهدات جدية وخطورة - كل أولئك دمج خلق الفرنجة بالعيب والعار .

وكان الرومان قد خبروا لعهد طويل ، شدة بأس سكان ألمانيا السفلى ( الجنوبية ) وجرأتهم . وقد هدد اتحاد قوتهم بلاد الغال بغارة شديدة ، مما اقتضى حضور جالينوس شريك الإمبراطور ووريثه ، وبينما كان الأمير وابنه الطفل سالونينوس Salonus يظهران عظمة الإمبراطورية فى بلاط تريف ( Treves مدينة على نهر الموزل ) كان للقائد بستوموس Posthomos يتولى قيادة الجيوش فى مقدرة فائقة ، وقد غدر هذا القائد بعد ذلك بأسرة فاليريان ، ولكنه كان أميناً دائماً على مصلحة الإمبراطورية . وتدل اللغة الزائفة المضللة - لغة المديح والاطراء والملق - على أن هناك سلسلة طويلة من الانتصارات ، كما تشهد النصب التذكارية والألعاب ( إذا كان لها أن تشهد ) على شهرة بستوموس الذى سُمى مراراً وتكراراً « قاهر الألمان ومخلص الغال » .

ولكن حقيقة واحدة ، وهى فى الواقع الوحيدة التى نعلمها حق العلم ، قد تمحو الى حد كبير كل الآثار التى أتت بها الفرور والمداهنة . ان الراين - رغم أنهم كرموه بتسميته هامى الولايات - كان يشكل حاجزاً ضعيفاً أمام روح الطموح الجريئة التى طغت على أعمال الفرنجة . فقد امتد اكتساحهم الخاطف من النهر الى سفوح جبال البرانس ، بل ان هذه الجبال لم توقف تقدمهم ، حتى ان اسبانيا التى لم تخش يوماً حملات الألمان - كانت عاجزة عن المقاومة . وكانت هذه البلاد الغنية

مسرحة لمناوشات مخربة غير متكافئة طوال اثني عشر عاما - أي الجزء الأكبر من عهد جالينوس . وسلبت ، أو قل دهرت ، المدينة الزاهرة تاراغونا Tarragona عاصمة الولاية المسالمة . وكانت لا تزال تلك الأكوخ التعميمة الكثيرة المبعثرة وسط خرائب المدن تشهد على بطش المتبربرين - حتى أيام أوريوس الذي كتب في القرن الخامس . فلما نضب معين البلاد المنهوكسة ولم تعد صالحة للسلب ، استولى الفرنجة على بعض المراكب في موانئ إسبانيا وانتقلوا بها إلى موريتانيا . وذهلت الولاية الغائبة لشدة هؤلاء المتبربرين ، الذين بدوا وكأنهم جاءوا من عالم جديد ، حيث لم يكن اسمهم ولا عاداتهم ولا ملامح وجوههم معروفة في ساحل أفريقية .

٢ - كان يوجد في غابر الزمان في الجزء الواقع من سكسونيا العليا وراء نهر الإلب - وهي المسماة الآن إمارة لوساك - غابة مقدسة - هي الموطن الرهيب لخرافة السويفي Suevi . وما كان مرخصا لأحد في الدخول إلى هذا الحرم المقدس دون الاعتراف - وهو راكم متوسل ، معاهد متذل ، بوجود الإله الملك على الفور ، والواقع أن الوطنية والغيرة أسهمتا في تقديس سوننفالد Sonnenwald أو غابة السمونيين Semnonen . وساد الاعتقاد بأن الأمة نشأت أول ما نشأت في هذه البقعة المقدسة . وكانت القبائل الكثيرة التي تتيه عجبا وتجد شرفا في جريان الدم السويفي في عروقها ، تبعث في فترات محددة بمبعوثيها ، وكانت الطقوس البربرية والضحايا الانسانية تضل ذكرى المنبت المشترك بينهم . وملا الاسم الذائع « سويفي » كل أقطار ألمانيا الداخلية من ضفاف نهر الأودر إلى ضفاف الدانوب . وكانوا يتميزون عن سائر الألمان بغرابة تصفيف شعرهم الطويل الذي جمعوه في خصلة غير مهذبة في قمة الرأس ، كما أغرموا بجلية تظهرهم أعلى مرتبة وأشد بأسا في أعين العدو . ولما كانوا - كما هي عادة الألمان - غيورين على السمعة العسكرية ، فانهم جميعا اعترفوا بشوكة سويفي الفائقة ، وأعلنت قبائل أوسيبيت Ussypites وتكتيري Tencteri التي قهرت الدكتاتور قيصر بجيش عظيم ، أنه لم يكن عارا عليها أن تهرب أمام قوم ( أي السويفي ) لم تكن الإلهة الألمية لتقف أمام أسلحتهم .

وفي عهد الامبراطور كاراكلا ظهرت أفواج لا تحصى من السويفي على ضفاف نهر السين وفي الأماكن المجاورة للولايات الرومانية ، سعيا وراء الطعام ، أو السلب أو النهب أو المجد . والتأمت أفواج المتطوعين

المتوثبين في أمة عظيمة ثابتة ، ولما كان هؤلاء ينتمون الى الكثير من القبائل المتباينة ، فانهم جميعا اتخذوا اسم « الليماني Allemani » .  
أى كل الرجال All Men ليدل غورا على اختلاف أنسابهم وشجاعتهم المشتركة . وسرعان ما أحس الرومان بهذه الشجاعة في الكثير من الحملات العدائية . وحارب الليماني أصلا على ظهور الخيل ، ولكن توى من عزيمة خيالتهم جماعة من المشاة الخفيفة مختارة من أشجع وأنشط الشباب ، أهلهم تدريبهم المستمر لمصاحبة الفرسان أطول مسافة ، وفي أسرع هجوم أو في أعنف انسحاب .

ودهش هذا الشعب الجرمانى الحارب لاستعدادات اسكندر سيفيروس الضخمة ، كما أفزعتهم أسلحة خلفه ، وهو متبرير يمدلهم بأسا ووحشية . ولكنهم ظلوا يحومون حول حدود الامبراطورية ، فزادوا من الاضراب العام الذى أعقب موت دكيوس . وأصابوا ولاية الغال الغنية بجراح قاسية . وهم أول من كشف القناع عن العظمة الهزيلة لايطاليا . وسارت جماعة كبيرة من الألمان عبر الدانوب واختزقت جبال الألب الرايتية الى سهول لمبارديا ، وتقدمت حتى وصلت الى رافنا . ووقفت رايات المتبريرين الظافرة على مرأى من روما تقريبا . وأذكت الصفة والخطر في السناتو من جديد ومضات من شمائل غابرة ، وكان الامبراطوران كلاهما مثسغولين في حروب نائية : فكان فاليريان في الشرق وجالينوس في الراين . وتعلقت كل آمال الرومان بالسناتو ، ولم يكن لهم من ملجأ الا اليه . فاستأنف أعضاؤه في هذا الطرف الطارىء الدفاع عن الدولة . وسحبوا الحرس البريتورى الذى تخلف لحماية المدينة ، وزادوا عددهم بتجنيد أقوى أفراد البلليان ( طبقة العامة ) وأكثرهم رغبة في الخدمة العامة ، وذهل الألمان لظهور جيش أكبر من جيشهم فجأة ، فانسحبوا الى المانيا محملين بالغنائم ، واعتبر الرومان غير المحاربين أن في انسحابهم انتصارا لهم ( أى للرومان ) .

ولما تلقى جالينوس أنباء انقاذ عاصمته من المتبريرين ، كان سروره بها أقل بكثير من فزعه لشجاعة السناتو ، التى قد تحفزهم يوما الى تخليص الشعب من الطغيان الداخلى والغزو الخارجى سواء بسواء . ونشر على الناس جحوده الذى أملاه عليه الجبن ، في مرسوم حرم فيه على أعضاء السناتو القيام بأى عمل عسكري ، بل حتى مجرد الاقتراب من معسكرات الفرق . ولكن مخاوفه لم يكن لها أى أساس ، فان النبلاء الأغنياء المترفين ، وقد عادوا سيرتهم الى خلقهم الطبيعى — تقبلوا هذا الاعفاء المذل المشين من الخدمة العسكرية على أنه منة من الامبراطور . وطلما كانوا يتهرغون في نعيم حماماتهم ومسارحهم ومساكنهم ،

فقد تنازلوا في غبطة وسرور عن هذه المهام الخطيرة ، مهام الامبراطورية ،  
للأيدي الخسنة ، أيدي الفلاحين والجنود .

وثمة حملة أخرى قام بها الألمان ، تبدو أشد هولاً ورهبة ، ولكنها  
حدث أبهى سناء وروعة ، ذكرها أحد كتاب الامبراطورية القديمة .  
فقد قيل ان عشرة آلاف فقط من الرومان على رأسهم جالينوس هزموا  
ثلثمائة ألف من ذلك الشعب المحارب في معركة قرب ميلان . ومهما يكن  
من أمر ، فإننا قد ننسب على الأرجح ، هذا الظفر الذي لا يمكن  
تصديقه ، أما الى سلامة نية المؤرخين ، أو الى عمل مبالغ فيه قام به  
أحد قواد الامبراطور . والواقع أن جالينوس استخدم أسلحة من جنس  
آخر لحماية ايطاليا من بطش الجرمان ، فقد تزوج من بيبا Pipa  
ابنة أحد ملوك ماركوماني Marcomanni ، وهى قبيلة من السويفى ،  
كانت كثيراً ما تشترك مع الألمان في حروبهم وفتوحهم . وقد أقطع  
والدها — ثمناً للتحالف — رقعة كبيرة في بانونيا . ويبدو أن المغائن  
الأصيلة في الجمال الفطرى غير المصقول قد مكن لحب العروس في  
أعماق الامبراطور المتقلب . ووثقت روابط الحب من علاقات السياسة  
وزادتها متانة . ولكن تحيز روما الذى يتسم بالتعالى والغطرسة أنكر  
صفة الزواج على علاقة دنسة بين مواطن وبربرية . ودمغ الأميرة  
الالمانية باللقب الفاضح المخزى ، أى بأنها « خلية جالينوس » .

### غارات القوط

٣ — لقد تعقبنا حتى الآن هجرة القوط من اسكنديناوه — أو على  
الأقل من بروسيا ، حتى مصب نهر الدنيبر ، وتتبعنا انتصاراتهم من  
الديفير الى الدانوب . وفى عهد فاليريان وجالينوس كانت غارات الألمان  
والسرماتيين Sarmatians ( احدى القبائل الرحل القديمة ) تنقض على  
الدوام على حدود الدانوب ، ولكن الرومان كانوا يدافعون عنها بعزم  
وتوفيق بشكل غير عادى . ذلك أن الولايات التى كانت مسرحاً للحرب  
كانت تزود جيوش روما بمعين لا ينضب من الجنود الأشداء . وكم  
من فلاحى الليريا هؤلاء ، ارتفع الى مرتبة القيادة وأظهر صفات القائد  
وقدراته . وتوغلت حشود عابرة من المتبريرين ، الذين يحومون حول  
الحدود بلا انقطاع — الى تخوم ايطاليا ومقدونيا . ولكن ولاية  
الامبراطور كانوا يصدونهم عادة ، أو يعترضون طريق عودتهم . ولكن  
السييل الجارف من هجمات القوط تحول الى طريق آخر . فان القوط  
باستيطانهم الجديد فى أوكرانيا أصبحوا سادة على الشاطئ الشمالى

للبحر الأسود . ولكن كانت تقع الى الجنوب من هذا البحر الداخلى  
الولايات الغنية الوادعة في آسيا الصغرى ، تلك الولايات التي حوت  
كل ما يجذب الأنظار ، وخذت من اية وسيلة لصد أى فاتح متبربر .

ولا تجاوز المسافة بين ضفاف الدنيير وبين المدخل الضيق لشبه  
جزيرة القرم ستمين ميلا . ومن هذا الشاطئ الماحل اتخذ يوربيدس  
مسرحا لاحداث واحدة من أعظم مآسيه اثارا للعواطف ، فدبج القمص  
القديم بفنه الرائع وأسلوبه الجميل ، وقد تصلح قرابين ديانا الدموية ،  
ووصول أورستيز Orestes وبيلاوس Pylades ، وانتصار الفضيلة  
والعقيدة على الشراسة الوحشية وتصلح لتمثل حقيقة تاريخية : تلك هي  
أن الثورى Tauri — وهم السكان الأصليون لشبه الجزيرة —  
هذبوا الى جد ما من سلوكهم الوحشى ، بفضل اتصالهم التدريجى  
بالمستعمرات اليونانية التي استقرت على الشاطئ . وكانت مملكة  
اليسفور الصغيرة تتألف من اليونان المنحليين والمتبربرين نصف  
المتحضرين ، وكانت عاصمتها تقع على المضائق التي يتصل بها بحر  
آزوف بالبحر الأسود ، وقد بقيت كدولة مستقلة منذ حروب البلوبونيز ،  
حتى ابتلعها أطباع متريدانس ، ثم سقطت مع بقية ممتلكاته في أيدى  
الرومان ، وبقي ملوك اليسفور منذ عهد أوغسطس حلفاء متواضعين ،  
ولكنهم كانوا ذوى نفع للإمبراطورية . ذلك أنهم عن طريق الهدايا  
والأسلحة وبعض التحصينات اليسيرة عبر البرزخ ، وقفوا سدا منيعا  
في وجه قطاع الطرق القراصنة من أهل سارماتيا Sarmatia وحالوا  
دون وصولهم الى بلاد تتحكم في البحر الأسود وآسيا الصغرى بفضل  
موقعها الممتاز وموانئها الملائمة ، وطالما تعاقب على العرش ملوك  
وراثيون ، فانهم أدوا مهمتهم في يقظة وتوفيق . ولكن الخلافات الداخلية ،  
ومخاوف الغاصبين الأذنياء الذين استولوا على العرش الخالى ، أو  
مصلحتهم الخاصة ، مكنت القوط من التوغل الى قلب اليسفور .  
وبحصول هؤلاء الفاتحين على قطعة أرض خالية ذات تربة خصبة ،  
أمكنهم أن يسيطروا على قوة بحرية كافية لنقل جيوشهم الى شاطئ  
آسيا . وكانت السفن المستعملة في الملاحة في البحر الأسود فريدة في  
مبناها : كانت مراكب شراعية صغيرة ذات قاع مسطح من الخشب  
فقط ، وليس فيها حديد قط ، يغطيها في بعض الأحيان سقف واق ،  
يستخدم عند هبوب عاصفة . وفي هذه المنازل العائمة لم يبال القوط أن  
يضعوا أنفسهم تحت رحمة بحر مجهول بقيادة بحارة دفعوا الى العمل  
هضعا ، مشكوك في مهارتهم وأمانتهم بقدر سواء . ولكن الأمل في السلب  
والذهب كان يحجب التفكير في الخطر ، وغرس مزاج الجرأة الطبيعى في

نفوسهم الثقة التي هي أكثر تعقلا والتي هي في الواقع وليدة المعرفة والخبرة ، ولا بد أن المخاربين الذين أوتوا هذه الجراءة والجرسارة ، كثيرا ما ضجوا لجبن أدلائهم الذين كانوا يتطلعون أقوى التأكيدات على هدوء البحر واستقراره قبل أن يغامروا بالاقلاع ، والذين كان ينذر انغراؤهم بالبعد عن الأرض ، فلا تكون دائما على مرأى منهم . تلك — على الأقل — هي الحال في تركيا الحديثة . وليس من المحتمل أنهم في فن الملاحة دون سكان البسفور القدامى .

وظهر أسطول القوط ، وقد خلف شركاسيا Circassia على يساره ، أول ما ظهر ، أمام بتيوس Pityus وهي آخر حدود الولايات الرومانية ، وهي مدينة مزودة بمرقا ملائم ومحصنة بسور منيع . وهنا لقوا مقاومة أكثر عنادا مما كان لهم أن يتوقعوا من حامية ضعيفة في قلعة نائية . وردوا عن المدينة . ويبدو أن خيبتهم حطت من رهبة اسم القوط . وطالما كان يتولى الدفاع عن هذه الحدود سكيبيانوس Successianus وهو ضابط كبير موهوب ، ذهبت جهود القوط ادراج الرياح ، فلما أقصاه فاليريان الى مركز أكثر شرفا وأقل أهمية ، استأنفوا الهجوم على بتيوس . وبتدمير هذه المدينة ، محوا ذكرى عارهم السابق .

وكانت المسافة من بتيوس الى طرابزون ، طوفا حول الطرف الشرقي للبحر الأسود ، تبلغ نحو ٣٠٠ ميل . واتخذ القوط طريقا جعلهم دائما على مرأى من كولكيس ( Cholchis بلاد في شرق البحر الأسود ) التي خلدتها « الأرجونوت Argonauts » ( من أقدم ملاحى الأساطير الاغريقية ) ، بل أنهم حاولوا سلب معبد غنى عند مصب نهر فاسيس Phasis ولكنهم لم يفلحوا .

وقد استمدت طرابزون — التي اشتهرت في انسحاب الألوף العشرة بأنها مستعمرة يونانية قديمة — استمدت ثروتها وعظمتها من أريحية الامبراطور هادريان وسخائه ، حيث شيد ثغرا صناعيا على شاطئ مهجور حرمة الطبيعة من موان آمنة ، وكانت المدينة ضخمة أهلة بالسكان ، ويبدو أن الأسوار المزدوجة تحدث بطش القوط ، وعززت الحامية المعتادة بعشرة آلاف رجل فزادت قوتها . ولكن ليست ثمة أية مزايا يمكن أن تعوض عن انعدام النظام واليقظة . فان حامية طرابزون الضخمة انصرفت الى الشغب والترف ، وترفتعت عن خراصة تحصيناتها اللينة . وسرعان ما اكتشف القوط هذا الاهمال الفاحش من جانب المحصورين ، وشيدوا كومة شاهقة من الأغصان وتسلقوا

الأسوار في سكون الليل ، ودخلوا المدينة العزلاء شاهرين سيوفهم .  
واعقبت ذلك مذبحه شاملة بين الأهالي ، وهرب الجنود الذين تولاهم  
الفرع من الأبواب الخلفية للمدينة . ولم ينج من التخريب اقدس المعابد  
وأفخم المباني ، ووقعت في أيدي القوط أسلاب ضخمة ، حيث كانت  
ثروات البلاد المجاورة مودعة في طرابزون باعتبارها مأوى آمينا . واقتحم  
المتبربرون المنتصرون الطريق دون مقاومة في ولاية بنطس المترامية  
الأطراف ، وبلغ أسرهم عددا لا يصدق . وملاأت الغنائم الثمينة من  
طرابزون أسطولا عظيما من السفن وجدوه في الميناء ، وربط ثيوان  
الشاطيء الأشداء بالسلاسل الى المجاديف ، وعاد القوط عودا مظفرا  
قائعين بنجاحهم في حملتهم البحرية الأولى ، الى مواطنهم الجديدة في  
مملكة البسفور .

وخرج القوط في حملتهم الثانية بقوة أكبر من الرجال والسفن ،  
ولكنهم سلكوا طريقا آخر ، حيث صرفوا النظر عن ولاية بنطس التي  
استنزفت ، وساروا مع الساحل الغربي للبحر الأسود ، ومروا بالمصبات  
الضخمة للدينير والدينستير والدانوب ، وزادوا من أسطولهم بالاستيلاء  
على عدد كبير من قوارب الصيد ، ثم اقتربوا من المنفذ الضيق الذي  
يصب البحر الأسود منه بياحه في البحر المتوسط ، ويفصل بين قارتي  
آسيا وأوربا . وكانت حامية خلقدونيه Chalcedon تعسكر قرب  
معبد جوبيتر يوريزوس Jupiter Urius على رأس جبل يشرف على  
مدخل المضيق ويتحكم فيه . وهكذا كانت غزوات المتبربرين المرهوبى  
الجانب هزيلة الى درجة أن عدد أفراد هذه الحامية كان يفوق عدد جيش  
القوط . ولكن الحق أن التفوق كان عدديا فحسب ، فقد تخلوا في  
اندفاع وتهور عن موقعهم الممتاز ، وهجروا مدينة خلقدونية ، وهي  
المدينة الزاخرة بالسلاح والأموال ، وتركوها لحكمة الفاتحين . وبينما  
كان الفاتحون يترددون في أى طريق يسلكون : البر أم البحر ، وأين  
يتجهون لمواصلة الأعمال العدوانية ، الى آسيا أم أوربا ، أشار أحد  
الهاربين الخونة عليهم بالاتجاه الى نيقوميديا ، وكانت يوما عاصمة  
ملوك بيثينيا كما أنها غنية ميسور فتحها . وقاد الطريق الذي لم يكن  
يبعد عن معسكر خلقدونية بأكثر من ستين ميلا ، وأدار دفعة القتال  
دون مقاومة ، وقاسم في الغنائم . فقد تعلم الثرط قدرا كائيا من  
السياسة في مكافأة الخائن الذي كانوا يكرهون . وانتابت نيقية وبروسة  
وأباميا وسيوس — وهي مدن نافست أو قلدت أحيانا نيقوميديا في  
فخامتها وعظمتها — نفس الكارثة التي أندلعت في مدى عدة أسابيع  
في كل ولاية بيثينيا ، وكان سكان آسيا الواضعون قد نغموا بالسلام

والهدوء ثلاثمائة عام الغى فيها استخدام السلاح ، وزال من الأذهان توقع الخطر ، وتركت الأسوار القديمة تتداعى ، وخصصت كل موارد أغنى المدن لتشييد الحمامات والمعابد والمسارح .

كانت مدينة سيزيكوس Cyzicus ( مدينة قديمة على الشاطئ الجنوبي لبحر مرمره ) - عندما تحدث أقصى جهود ميريديانس - تتميز بالقوانين الحكيمة ، وبقوة بحرية قوامها مائتا زورق كبير وثلاث ترسانات للأسلحة والآلات الحربية ، والغلال . وكانت لا تزال مستودعا للثروة ومسرهما للترف ، ولكن لم يبق من سابق قوتها الا موقعها ، في جزيرة صغيرة في بحر مرمره ، تربطها بقسارة آسيا قنطرتان فقط . وبعد غارتهم على بروسة Prussa تقدم القوط حتى أصبحوا على مسافة ثمانية عشر ميلا من مدينة سيزيكوس التي انصرفوا بكل قواهم لتدميرها ، ولكن هذه العملية تعطلت بسبب حادث سعيد ، ذلك أنه قد حل فصل الأمطار ، وارتفع الماء الى حد غير عادي في بحيرة أبولونيئاتس Apolloniates وهي خزان لياه كل الينابيع في جبل أولبيس ، كذلك طغت مياه نهر رنداكوس الصغير الذي ينبع من البحيرة ، حتى تحول الى مجرى واسع سريع الجريان ، فعلق تقدم القوط ، وكان انسحاب القوط الى مدينة هرقلية البحرية حيث يحتمل وجود الأسطول - مصحوبا برتل طويل من العربات المحملة بما غنموه من بيثنيا ، كما تميز بالسنه النيران المندلعة في نيقية ونيقوميديا اللتين أحرقوهما في قسوة بالغة . وهناك اشارات غامضة ذكرت عن معركة مشكوك فيها أمنت انسحابهم ، ولكن ، حتى الانتصار الكاهل كان لزاما أن يبقى ذا قيمة تافهة ، لأن اقتراب الانقلاب الخريفي كان يستحثهم على التعجيل بالعودة . وان الأتراك الحديثين يعتبرون الملاحه في البحر الأسود قبل شهر مايو ، أو بعد شهر سبتمبر ، ضربا من التهور والحماقة لا نزاع فيه .

وإذا علمنا أن الأسطول الثالث الذي أعده القوط في موانئ البسفور كان يتكون من خمسمائة سفينة شراعية ، لاستطاع خيالنا في الحال أن يحصى ويقدر التسليح الرهيب ، أما وقد أكد لنا المؤرخ الحكيم سترابون Strabo أن قوارب القرصنة التي استخدمها المتبربرون في بنطس وسكيزيا الصغرى لم يكن يتسع الواحد منها لأكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلا ، ففي إمكاننا أن نثبت ، ونحن مطمئنون ، من أن خمسة عشر الفا على الأكثر قد أقلعوا في هذه الحملة الكبيرة . وضاق صدر القوط ، باتساع أطراف البحر الأسود فحولوا طريق حملتهم



المدبرة من أرض الغيوم والضباب الدائم الى البسفور عند تراقيا ،  
فما كادوا يبلغون وسط المضائق حتى انسلتوا فجأة الى البراء نحو  
مدخل المضائق ، حين هبت فجأة في اليوم التالي ريح مواتية حملتهم  
في بضع ساعات الى البحر الهادى ، او بالأحرى الى بحر مرمرية .  
وما أن نزلوا الى جزيرة سيزيكوس حتى ناموا هذه المدينة القديمة  
المجيدة ، ومن هنا تقدموا ثانية في المر الضيق عبر الدردنيل ، ثم  
واصلوا ابصارهم ذات اليمين وذات الشمال ووسط الجزر الكثيرة  
المتناثرة في بحر ايجه ، وكان لابد من الاستعانة بالأسرى والهاربين  
ليقودوا سفنهم ، وليوجهوا هجماتهم المختلفة على شواطئ اليونان  
وشواطئ آسيا على السواء . وأخيرا رسا أسطول القوط في ميناء  
بيريه على بعد خمسة أميال من أثينا التي حاولت أن تتأهب للدفاع مجيد .  
وأصدر الامبراطور أوامره الى المهندس كليوداموس Cleodamus  
بتحصين المدن الساحلية ضد القوط ، فشرع فعلا في اصلاح الأسوار  
القديمة التي كانت آيلة الى السقوط منذ عهد سلا Sylla . ولم تجد  
مهارته وجهوده شيئا ، وأصبح المقربزون سادة بلد الفنون والأعمال .  
ولكن بينما أمعن الغزاة في السلب والنهب وانغمسوا في الدعارة  
والفجور ، باغت دكسيبوس Dexippus الجريء - الذي كان قد نجا  
بنفسه مع المهندس كليوداموس ابان غزو أثينا - أسطولهم الرابض  
في مياه بيريه تحت حراسة هزيلة ، وانقض عليهم بما جمع في سرعة من  
جشود من المتطوعين والفلاحين والجنود ، والى حد ما ثار لما حل بوطنه  
من كوارث .

ومهما أضفى هذا العمل من رونق وبهاء على عصر اضحلال أثينا ،  
فانه أهاج ، أكثر من أنه أخمد ، روح الجرأة والاقدام في الغزاة  
الشماليين . واشتعلت النار في نفس الوقت في مختلف أنحاء اليونان .  
وغدت طيبة وأرجوس وكورنثة واسبرطة التي تسنت فيما مضى حروباً  
شعواء مشهودة ضد بعضها بعضاً - غدت الآن عاجزة عن تجنيد أى  
جيش في الميدان ، بل عن مجرد الدفاع عن تحصيناتها المتداعية .  
وامتدت لظى الحرب في البحر والبر من سونيزم Sunium في أقصى  
الشرق الى شاطئ أبيروس في الغرب . وتقدم القوط الآن على مرأى  
من ايطاليا ، حين أيقظ اقتراب هذا الخطر الجسيم جالينوس الخامل  
من أحلامه السعيدة . وظهر الامبراطور على رأس جيشه ، ويبدو  
أن وجوده فت في عضد أعدائه ووزع قنوتهم . وقبيل نولوباتوس  
Naulobatus رئيس قبائل الهيرولى Heruli التسليم بشروط كريمة ،  
ودخل مع فريق كبير من بنى جلده في خدمة روما ، ومنح أوسمة

مرتبة القنصل التي لم تكن لوئتها بعد أيدي أحد من المتبريرين ، وتولى القوط الضجر بأخطار هذه الرحلة المملة ومشاقها ، فاتجهوا الى ميسيا Maesia ، وقد اعتزموا أن يشقوا طريقهم عبوة عبر الدانوب الى مريضهم في أوكرانيا . وكانت هذه المحاولة الضيالة تعنى خرابا محققا ، لو لم يهيب ارتباك القواد الرومان للمتبريرين وسائل الهرب . ذلك أن اليقية القليلة من هذا الجيش المدمر قفلت راجعة على سفنهم ، وفيها هم يشقون طريق العودة عبر الدردنيل والبسفور ، أغاروا على شعاطير طروادة ، التي خلد لها هوميروس شهرة أبى على الزمان من ذكرى غزوات القوط . وحالما وجدوا أنفسهم آمنين في عرض البحر الأسود نزلوا في انخيالوس في تراقية ، قرب سفوح جبل هيموس Haemus ، وانصرفوا بعد هذا الكد والجد الى التمتع بهذه الصلوات الصحية البهيجة . ولم يبق من المرحلة بعد ذلك الا رحلة بحرية يسيرة قصيرة . وهكذا تنوع مصير مشروعهم البحري الثالث وهو أعظم مشروعاتهم . وقد يكون من العسير أن تتصور كيف استطاع الجيش الأصلي المكون من خمسة عشر ألف محارب أن يحتمل الخسائر والتفرق في مثل هذه المفامرة الجريئة . والواقع أنه كلما تناقص عددهم بقتل السيف أو الفرق أو الحر ، عوضوا عنه دائما بأفواج من الآبقين وقطاع الطرق الذين انضموا تحت راية السلب والنهب ، وبخشود من العبيد اللاجئين — من المانيط وسارماتيا في الشمال — الذين انتهزوا الفرصة العظيمة ، فرصة الحرية والانتقام . وزعمت أمة القوط لنفسها نصيبا أكبر من الشرف والمخاطرة في هذه الحملات ، ولكن القبائل التي حاربت تحت راية القوط أحيانا تميزت وأحيانا غبط حقها فيما دون . أو روى من تاريخ غير دقيق لهذا العصر ، ولما كان يبدو أن أسباطيل المتبريرين تبدأ من مصب نهر الدون ، فان التسمية الفاضحة المألوفة وهي « السكوذيون » كانت تطلق على الجمع المختلط .

وفي الكوارث العظيمة التي تنتاب الجنس البشري ، قد يمر الناس مرورا غائرا غافلا على موت فرد منهما كان عظيما ، وعلى خراب بناء مهمما كان مشهورا . ولكننا لا نستطيع أن ننسى معبد ديانا في أفيسونس ، فانه بعد أن أعيد بناؤه في بهاء مقرايد بعد سبع كوارث متكررة ، قد أحرقه القوط في غزوتهم البحرية الثالثة . ان فنون اليونان وكنوز آسيا تضافت على تشييد هذا البناء الفخم المقدس ، وقد أقيم على مائة وسبعة وعشرين عمودا من الرخام وفق الطراز الأيوني ، وكانت كلها هدايا من الملوك الأتقياء ، وكان ارتفاع كل منها ستين قدما . وزين المذبح بأروع تماثيل النحات براكسيتيلس Praxiteles الذي ربما

اختار موضوعاتها من أساطير المكان المحبوبة عن مؤلدا أطفال لانوتنا Latona المقدسين ، واختفاء أبولو بعد ذبح سيكلوبس Cyclops وترفق باخوس بالآمازونيين المتهورين . على أن طول معبد افيسوس كان أربعمئة وخمسة وعشرين قدما فقط ، أى نحو ثلثى كنيسة القديس بطرس فى روما . وكان فى أبعاده الأخرى لا يزال أقل كثيرا من هذا النتاج المعمارى الحديث . والواقع أن الأذرع الممتدة للصليب المسيحى تتطلب اتساعا أكبر كثيرا من المعابد الوثنية المستطيلة ، وربما فزع وارتبك أجزأ الفنانين القدامى لمجرد الاقتراح برفع قبة فى الهواء فى حجم البانثون ونسبه وأبعاده . ومهما يكن من أمر ، فقد كان ينظر الى معبد ديانا باعتباره احدى عجائب الدنيا . وقد أحترم قدسيته الإباطرة المتعاقبون والفرس والمقدونيون والرومان وزادوا فى بهائه . ولكن متوحشى البلطيق الغلاظ لم يتذوقوا الفنون الجميلة ، واحتقروا الأهوال الخيالية لخرافة أجنبية .

وهناك ، غير ذلك ، ما يروى من أحداث هذه الغزوات ، مما يستحق اهتمامنا ، لولا أنه قد يتطرق إلينا الشك بحق ، فى أنه من تصوير خيال سفسطائى حديث . فقد قيل أن القوط فى غارتهم على أثينا ، جمعوا كل الكتب من المكتبات ، وكانوا على وشك إشعال النار فى هذا الكوم الجنائزى من علوم اليونان ، لولا أن أحد رؤسائهم — وكان أكثر تهذبا وأحسن سياسة من رفاقه — ثناهم عن هذا العمل بأن أبدى ملاحظة عميقة ، مؤداها أن اليونان إذا انكبوا على الدرس والبحث لن يتجهوا الى الحرب والسلاح . والواقع أن المنسئشار الحكيم ( لو سلمنا بصدق هذه الرواية ) شكر على طريقة مختبرين جاهل ، ففى أقوى الأمم وأكثرها تهذبا ظهرت العبقرية فى مختلف صورها فى نفس الوقت تقريبا ، وكان عصر العلم ، بصحفة عامسة ، هو عصر المواهب العسكرية والنجاح الحربى .

### غزو الفرس لأرمينيا : أسر فاليريان

{ — انتصر ملك الفرس الجديد أرتجزرسيش وابنه شسابور ( كما رأينا ) على أسرة أرشك ( الأسرة المالكة فى بارثيا ) . والواقع أن خسرو ملك أرمينيا هو الوحيد من بين الأمراء العديدين من هذا العرق القديم ، الذى احتفظ بحياته وبالاستقلاله ، فقد دافع عن نفسه بالقوة الطبيعية لبلدة ، وبالسئيل المستمر من اللاجئين والساخطين ،

وبالتحالف مع الرومان ، وفوق ذلك بشجاعته هو نفسه . انه لم يظهر في حرب دامت ثلاثين عاما ، ولكن قتله آخر الأمر رسل شاپور ملك الفرس . وتوسل حكام أرمينيا المحبون لوطنهم ، والذين أكدوا حرية التاج وكرابته ، الى روما لتحمي بلادهم ، رعاية لمصلحة الوريث الشرعى « تيريداتس Tiridates » . ولكن ابن خسرو كان طفلا ، وكان الحلفاء على مسافة نائية ، فتقدم ملك الفرس نحو الحدود على رأس جيش تعذر صده ، وأنقذ اخلاص أحد الخدم تيريداتس الصغير ، وهو أهل المستقبل في بلده . ولكن أرمينيا ظلت سبعا وعشرين سنة ولاية ساخطة نافرة وسط مملكة الفرس الكبيرة . وتشجع شاپور — وقد انتفضت أوداجه بهذا الفتح اليسير المنال ، وأخذ مساويء الرومان وكروبهم قضية مسلما بها — فأرغم الحاميات القوية في القارة ونصبيين على التسليم ، ونشر الخراب والرعب على جانبي الفرات .

وخسرت روما حدا هاما ، وانهار حليف طبيعى مخلص لها ، وتحققت بسرعة أطباع شاپور ، كل أولئك آثار في روما شعورا عميقا بالاهانة ، كما أهاج احساسا شديدا بالخطر . وتوهم فاليريان أن يقظة ولائه قد تكفى لتأمين سلامة الراين والدانوب ، ولكنه عقد العزم ، رغم تقدم سنه ، على أن يشخص بنفسه للدفاع عن الفرات ، وفي أثناء تقدمه في آسيا الصغرى توقفت حملات القوط البحرية ، ونعمت الولايات المنكوبة بهدوء عابر خداع . وجاوز الامبراطور الفرات والتقى بملك الفرس قرب أسوار مدينة أذاسا فهزمه شاپور وأسره . وذكرت تفاصيل هذا الحدث الجلل مشوبة بالغبوض والنقص ، ولكن يمكن من الضوء الذى تيسر لنا أن نكشف من جانب الامبراطور الرومانى عن سلسلة طويلة من التهور والخطأ والنكسات التى نزلت به ، وهو أهل لها ! فقد وضع فى ماكريانوس رئيس الحرس البريتورى ثقة وطيدة . ولكن هذا الوزير التافه جعل من سيده شخصا شديد البأس أمام رعاياه المظلومين فقط ، وشخصا محققرا فى أعين أعداء روما . وانهار الجيش الامبراطورى بفضل نصائحه الهزيلة أو الخبيثة الى وضع أعوزته فيه الشجاعة والمهارة العسكرية على حد سواء . وقام الرومان بمحاولة جريئة بأسلة لاقتحام جيش الفرس ، ولكنهم صدوا ، وسقط عدد كبير من رجالهم قتلى . وتذرع شاپور ، الذى طوق الممسكر بأعداد كسرة من الجنود — تذرع بالصبر وانتظر حتى اشتدت وطأة المجاعة والوباء ، ليتأكد من الفوز ، وسرعان ما تعالت الصرخات الفاجرة من الجنود تتهم فاليريان بأنه سبب النكبات ، وطالبت صيحاتهم المتبردة بالتسليم فورا . وعرض مبلغ كبير من الذهب ثمنا للتخليص فى انسحاب

مهين ، ولكن ملك الفرس الواثق من تفوقه رفض المال باحتقار ، واحتجز  
المندوبين ، وتقدم هو في تشكيل معركة ، حتى وصل الى بداية استحكامات  
الرومان ، وأصر على الاجتماع بالامبراطور شخصيا . وبلغ الهوان  
بفاليريان الى حد الحاجة الى أن يكل أمر حياته وكرامته الى الثقة في  
عدوه ، وانتهت المقابلة بما كان طبيعيا أن تنتهي به ، فقد أسر الامبراطور  
وسلبت قواته المذهولة أسلحتها . وفي لحظة النصر ، آبت سياسة  
شابور وغروره عليه الا أن يضع على العرش الخالي خلفا تابعا ذليلا  
يعتمد على رضاه ككل الاعتماد . واختير لتلويث العرش الروماني  
سريادس Cyriades . وهو لاجيء حقير من أنطاكية لم يتسورع عن  
أية سيئة أو رذيلة ، وحظيت ارادة الملك الفارسي الظافر بهتافات الجيش  
الأسير تصديقا عليها ، وان كانت هذه قد جاءت على مضض .

وتلطف الامبراطور العبد على كسب رضا سيده بخيانة يرتكبها  
ضد بلده الأصلي ، فقاد شابور عبر الفرات ، ثم عن طريق كليس  
Chalcis الى عاصمة الشرق ، وكانت تحركات الخيالة الفرس سريعة  
جدا ، الى حد أن أنطاكية — اذا صدقنا مؤرخا حكيما جدا — أخذت  
على غرة ، على حين كان الجمهور الخامل الكسول قابعا يحملق في مباحث  
المسرح معتزا بها . وسلبت أو خربت المباني الجميلة ، الخاص منها  
والعام ، في أنطاكية . وضربت أعناق جبهة السكان أو أسروا . وتوقف  
التخريب أمدا قصيرا بناء على قرار من كاهن حمص الأعظم ، فقد ظهر ،  
مرتديا حلته الكهنوتية ، على رأس حشد من الفلاحين المتعصبين وقد  
تسلحوا بالمقاليع ليس غير ، ليدافع عن معبوده وأملاكه ضد أتباع  
زرادشت Zoroaster وأيديهم المدنسة . وفيما عدا هذا المثال الفريد فان  
تدمير طرسوس وكثير غيرها من المدن يقدم دليلا محزنا — على أن  
غزو سوريا وقيليقيا قلما عاق تقدم الجيش الفارسي . لقد عدلوا عن  
مزايا المرات الضيقة في جبال طوروس ، تلك التي يشتبك فيها في قتال  
غير متكافئ ، أي فاتح تتركز قوته الأساسية في فرسانه . وتمكن شابور  
من فرض الحصار على قيصيرية ، عاصمة كبادوكيا ، وهي مدينة كانت  
فرضا تضم أربعمائة ألف من السكان ، ولو أنها من مدن الدرجة  
الثانية . وسيطر ديومستين على المكان ، لا بأمر من الامبراطور ، أكثر  
منه بتطوعه للدفاع عن بلاده . وقد أجل مصيرها وقتا طويلا . فلما  
سقطت قيصيرية أخيرا نتيجة لغدر أحد الأطباء ، شق ديومستين طريقه  
وسط الفرس الذين صدرت اليهم الأوامر ليبدلوا أقصى الجهد ليأخذوه  
حيا . ولكن الرئيس البطل أفلت من قوة عدو ربا رفعه مكانا عليا  
أو أنزلى به أشد العذاب جزاء صلابته العنيدة ، ولكن عدة آلاف من

بنى وطنه راحوا ضحية مذبحه عامة ، ويتهم شابور بمعاملة أسراه معاملة قاسية عاتية ، ولا بد هنا من اغساح المجال للكلام عن الكراهية الوطنية والكبرياء الجريحة والانتقام الهزيل . ولكن يمكن القول بصفة عامة بأنه من المحقق أن الأمير الذى ظهر فى أرمينيا بمظهر المعتدل ، ظهر للرومان فى هيئة فاتح كشر عن أنيابه ، وقد يؤس من اقامة صرح ثابت فى الامبراطورية ، فسعى فى أن يخلف وراءه خرابا بلقعا ، على حين أنه نقل الى فارس أهالى الولايات وكنوزها .

وفى الوقت الذى كانت مرائص الشرق ترتعد فرقا لمجرد ذكر اسمه ، تلقى شابور هدية تليق بأعظم الملوك ، وهى عبارة عن قافلة كبيرة من الجمال محملة بأندى السلع وأثمنها ، ومعها رسالة كريمة ، ولكنها ليست مهينة ولا ذليلة ، من أوديناتوس ( أذينه ) ، وهو من أنبل وأغنى شيوخ السناتو فى تدمر Palmyra . وتسائل الظافر المتفطرس المتعالى ، وقد أمر بأن يلقى بالهدايا فى نهر الفرات : « من هو أوديناتوس هذا الذى تبجح هكذا وكتب الى مولاه ؟ اذا كان يمنى نفسه بتخفيف عقابه فدعوه يخر راکعا تحت أقدام عرشنا ويده مغلولتان الى ظهره ، فاذا تردد ، فلتصبوا الخراب فوق رأسه وبنى جنسه وبلده ! » واستبد اليأس المتطرف المستميت بشيخ تدمر حتى أثار كوا من القوى فى نفسه ، فالتقى بشابور ، ولكنه كان لقاء مسلحا . فقد حوم حول جيش الفرس بجيش صغير نفخ فيه من روحه ، جمعه من قرى سوريا ومن خيام الصحراء ففوق انسحاب الفرس واحتجز جزءا من كنوزهم ، وأغلى من أى كنز وأثمن ، عددا من نساء الملك المعظم الذى اضطر الى أن يهبر الفرات ثانية فى شىء من الصجلة والاضطراب . وبهذا الصل وضع أوديناتوس أسس شسهرته وثروته فيما بعد . وهكذا احتفظ سورى أو عربى من تدمر لروما بعظمتها التى امتنها الفرس .

ويعيب صوت التاريخ . وهو عادة لا يزيد كثيرا عن عوارض المقت أو سوانح الملق ، على شابور استغلاله لحق الفتح استغلالا مشوبيا بالفرور والتفاخر ، فيخبرنا أن فاليريان عرض التشهده الجماهير وهو مكبل بالأغلال فى حلته الامبراطورية ، رمزا لعظمة تهاوت ، وأنه كلما امتطى ملك فارس صهوة جواده أناخ بقدمه على عنق الامبراطور الرومانى . وبقى شابور عنيدا لا يرعوى ، على الرغم من اعتراضات حلفته الذين طالما أخلصوا له النصح أن يتذكر تقلبات الحظ ، ويخشى استرداد روما لقوتها ، وأن يجعل من أسيره الكبير رهينة للصلح وأنسادم ، لا هدفا للاهانة والاساءة . فلما قضى فاليريان تحت وطأة العار

والحزن حتى جلده بالقش وشكل على هيئة انسان وحفظ لعدة اجيال .  
في اشهر معابد فارس رمزا للنصر ، وقد كان اصدق من تلك الانصاب  
الخلافة النحاسية أو الرخامية التي غالبا ما شيدها غرور الرومان .  
والقصة قصة اخلاقية تثير الشجون . ولكن يجوز ان يكون وجه الحق  
فيها مثار نزاع . فالرسائل الموجودة حتى الآن من امراء الشرق الى  
شابور عبارة عن تزييف صارخ ، وليس من الطبيعي ان يذهب بنا الظن  
الى ان أى ملك حقود لابد ان يحط من جلال الملوك حتى ولو في شخص  
منافسه . ومهما كان من امر المعاملة التي لقيها فاليريان المنكود الحظ  
في فارس ، فانه من المحقق على الاقل انه امبراطور روما الوحيد الذي  
وقع في ايدي الأعداء وأفنى حياته اسيرا بائسا .

أما الامبراطور جالينوس الذي احتل طويلا ، بصبر نافذ ، من أبيه  
وزميله قساوته اللاذمة فقد تلقى انباء نكباته بسرور خفي . وفي استهتار  
علني قال : « لقد عرفت ان ابي فان وليس مظلما ، ولقد فعل كما يليق  
بالشجعان ان ينعلوا ، ومن ثم فاني راض كل الرضا » . وفي الوقت  
الذي كانت فيه روما ترثى لمصير مليكها ، كان رجال البلاط الأديباء  
الأذلاء يمتدحون الفتور الوحشي في ابنه ، وكأنه كمال الصلابة والعزم  
في بطل أو رواقى . وليس من اليسير ان تصور الأخلاق الهزيلة المتقلبة  
المزعزعة التي تكتسفت بلا ضابط في جالينوس حالما أصبح الملك الأوحد  
لزمام الامبراطورية ، وفي كل فن حاوله مكنته عبقريته النشيطة من  
النجاح ، ولما كانت عبقريته مجردة من القدرة على التمييز ، فقد حاول  
كل فن اللهم الا أهم الفنون : فن الحرب وفن الحكم ، فكان بارعا في  
كثير من العلوم الغربية ، ولكنها جميعا عقيمة عديمة الجدوى . كان  
خطيبا حاضر البديهة ، وكان شاعرا رقيقا ، وبستانيا ماهرا ، وطباخا  
ممتازا ، كما كان أجدر أمير بالهزة والزراية ، ففي الوقت الذي كانت  
المهام العاجلة للدولة تتطلب وجوده وعنايته ، كان هو يشغل نفسه  
بالمناقشة مع الفيلسوف بلوتينوس Plotinus أو يقضى وقته في سفاسف  
الأمر ، أو في اللذات الفاجرة ، أو في الاستعداد للأسرار اليونانية ،  
أو في التماس مكان في الأريوباجوس Areopagus ( المحكمة العليا )  
في أثينا وكان امرأته في العظمة والجلال اساءة الى الفقير العام . وغرست  
السخرية الكئيبة من انتصاراته في النفوس شعورا أعمق بالعار . وكان  
يتلقى الأنباء المتكررة عن الغزو والهزيمة والحصيان بابتسامة غير مبالية ،  
ثم يخص بالذكر ، مع التظاهر بالازدراء ، انتاجا معنا من الولاية  
المفقودة ، ويتساءل في غير اكتراث : هل يحل الخراب بروما اذا لم تتزود  
بالتيل من مصر وستائر الجدران من الخالي ؟ على أن في حياة جالينوس

لحظات قليلة قصيرة ، حين كانت تهيج غضبه لممة طارئة ، فانه كان عند ذلك يبدو فجأة جنديا باسلا وطاغية قاسيا ، حتى اذا شبع من الدم او تعب من المقاومة ، عاد ، دون أن يشعر ، الى سابق الاعتدال والبلادة ، وهما من طبيعة خلقه .

وليس مما يدعو الى الدهشة أنه ، في الوقت الذي تراخت فيه قبضته على مقاليد الأمور ، برزت شرذمة من الغاصبين في مختلف ولايات الإمبراطورية ، تعمل ضد ابن فاليريان . وربما كان هذا الضرب من الخيال الرائع الذي أوحى بمقارنة الطغاة الثلاثين بنظرائهم الطفأة الثلاثين في أثينا ، هو الذي أغرى كتاب تاريخ أوغسطس باختيار هذا الرقم الذي أصبح بالتدريج تسمية مألوفة . ولكن التطابق من كل الوجوه عقيم سقيم ، فأى شبه يمكن أن يتكشف لنا بين مجلس مكون من ثلاثين شخصا اجتمعوا على ظلم مدينة واحدة بعينها ، وبين قائمة مشكوك فيها تضم منافسين مستقلين نهضوا وسقطوا في تعاقب غير منظم في مختلف أنحاء إمبراطورية شاسعة ؟ كذلك لن يكتهل رقم الثلاثين هذا الا اذا دخلنا في حسابنا النساء والأطفال الذين أسبغ عليهم شرف اللقب الإمبراطوري . وأنتج حكم جالينوس ، على ما كان عليه من خبال ، تسعة عشر فقط ممن زعموا لهم حقا في العرش ، وهم سريادس Cyriades ، مكريانوس ، بالستا Balista ، أوديناتوس ، وزنوبيا ، في الشرق - بوستوموس Posthumus ، لوليانوس Lollianus ، فيكتورينوس وأمه فكتوريا ، ماريوس ، تتركوس Tetricus في الغال والولايات الغربية - انجينوس Ingenuus ورجليانوس Regillianus ، وأورولوس Aureolus في الليريكوم ومنطقة الدانوب - وساتورنينوس Saturninus في بلاد بنطس - وتربليانوس Trebellianus في ابزوريا ( في اقليم طوروس ) - وبيزو Piso في تساليا - فالنز Valens في آخيا Achia - امليانوس في مصر - سلسوس Celsus في أفريقية . وقد نجد مشتقة في تبيان آثار كل منهم في حياته ومماته ، وهو كذلك عمل لا غناء فيه ولا لذة ، وقد نكتفى بالتوقف على الطبايع العامة التي تميز أحوال العصر وسلوك الرجال زاعمهم وبواعثهم ومصيرهم ، والنتائج الوبيلة، التي نجمت عن اغتصابهم الحكم .

من المعروف جيدا أن السلطة السريهة « طاغية » غالبا ما كان يستعملها القدامى للدلالة على مجرد الاستيلاء غير الشرعى على زمام السلطة العليا ، دون اشارة الى سوء الاستغلال . وكان كثير من المدعين الذين رفعوا راية العصيان ضد الامبراطور جالينوس ، نماذج مشرقة



للفضيلة ، وكادوا جميعا يتحلون بقسط كبير من النشاط والمقدرة ، وقد أهلتهم مواهبهم وجدارتهم لنيل الحظوة لدى فاليريان الذى رفعهم تدريجا الى أهم مراتب الامبراطورية . أما القواد الذين حظوا بلقب أوغسطس ، فقد كان جنودهم يحبونهم لسلوكلهم الذى يتسم بالكفاية والمقدرة ولصرامة النظام الذى يسود الجيش ، أو يعجبون بهم لشدة بأسهم ونجاحهم فى الحرب ، أو يحبونهم من أجل صراحتهم وكرمهم . وكان ميدان النصر ، هو فى الغالب مقر انتخابهم ، وحتى ماريوس صانع الأسلحة والدروع ، أحق طالبى العرش بالزراية والاحتقار ، كان يتميز على أية حال بشجاعة لا تلين وقوة لا تبارى ، وبأمانة مطلقة ، وقد أقت مهنته الحديثة الذنيئة فى الواقع ظللا من السخف والسفاهة على ترقيته ، ولكن نشأته ، أو مولده ليس أكثر خمولا وضعة من غالبية منافسيه الذين ولدوا من آباء فلاحين وانخرطوا فى الجيش كائفار أو عساكر عاديين . وفى وقت الفوضى والاضطراب يجد كل ذكى نشيط المكان الذى حددته له الطبيعة ، وفى حالة الحرب العامة تكون الموهبة العسكرية هى السبيل الى المجد والعظمة ، وكان تتركوس عضو السناتو الوحيد بين الطفاة التسعة عشر ، كما كان بيزو وحده من النبلاء . وجرى دم نوما Numa ، لثمانية وعشرين جيلا متعاقبة ، فى عروق كالفورنيوس بيزو الذى جاز له بمقتضى زيجات من سيدات من أسرته ، أن يدعى حق عرض صور كراسوس وبومبي الكبير فى بيته . وكان أسلافه يكرمون دوما بكل الأمجاد التى كانت الجمهورية تستطيع أن تمنحها . وأسرة كالفورنيوس هى الوحيدة ، من بين الأسرات القديمة فى روما ، التى أفلقت من طفيان القياصرة ، وقد أضفت صفات بيزو الشخصية مزيدا جديدا من السناء والرفعة على محتده الكريم . واعترف الغاصب فالنس ، الذى قتل بيزو بأمر منه ، فى ندم عميق ، بأن العدو نفسه كان ينبغى أن يجل بيزو ويرعى له حرمة ، وعلى الرغم من أنه قضى نحبه فى الحرب ضد جالينوس ، الا أن السناتو — بترخيص كريم من الامبراطور ، قرر منح أوسمة النصر لذكرى النائر الفاضل .

• وكان ولاية فاليريان يعترفون له بفضل الوالد الذى قدره تقديرًا . ولكنهم احتقروا أن يخدموا ابنه التافه غير الجدير بالملك ، السادر فى خمول الترف وبلادة البذخ . ولم يكن يدعم عرش العالم الرومانى أى مبدأ من مبادئ الولاء . وقد يكون من السهل أن تعتبر خيانة مثل هذا الأمير وطنية وولاء للدولة . على أنه يتضح لنا من الفحص الدقيق لسلك هؤلاء الغاصبين أنهم كانوا فى الكثير الغالب مسوقين الى الثورة بدافع من مخاوفهم ، أكثر منهم باغراء من مطامعهم . لقد توجسوا خيفة

من شكوك جالينوس الغاشمة ، ومن النزوات العنيفة الطائشة لقوات الجيش . فاذا أعلن الجيش دون تبصر ، نتيجة لحبه المحفوف بالخطر ، استنحتاقهم للعرش ، فكأنما وافاهم الدمار المحقق ، ومن ثم يكون من الأفضل التمتع بالامبراطورية ، لفترة قصيرة . وهنا تكون تجربة الحظ في الحرب خيرا من انتظار يد الجلاذ — ولما أسبغت هتافات الجنود على هؤلاء الضحايا غير الراغبين شعارات السلطة الملكية، حزنوا ورثوا في أنفسهم لدنو أجلهم . وقال ساتورنينس Saturninus يوم اعتلائه العرش « لقد فقدتم قائدا، نافعاً ، وصنعتم امبراطورا شقيا تعيسا » .

وكانت الثورات المتكررة تبرر مخاوف ساتورنينس ، فان أحدا من الغاصبين التسعة عشر الذين ظهروا في أيام جالينوس ، لم ينعم في حياته بالسلام أو الهدوء أو ببيئة طبيعية، فانهم حالما يرتدون الحلة الامبراطورية الملطخة بالدم ، يرحون الى أتباعهم وأشياعهم بنفس المخاوف والطموح الذى دعا الى ثورتهم ، لقد أحاطت بهم المؤامرات الداخلية والفتن العسكرية والحروب الأهلية حتى ارتعدوا فرقا على حافة هاوية لن يجدوا عنها مصرفا بعد فترة من القلق طالت أو قصرت . وتلقى هؤلاء الملوك المزعزون من التكريم والأجاد ما شاء ملق ورياء جيوشهم وولاياتهم أن يضفيه على كل منهم . ولكن دعواهم المؤسسة على الثورة لا يمكن أن تحصل على ضمان وسند من القانون أو التاريخ . والتزمت ايطاليا وروما والسنااتو جانب الامبراطور ، واعتبروه سيد الامبراطورية . وتنازل الأمير فى الحقيقة فاعترف بانتصار قوات اوديناتوس السذى استحق التكريم والتشريف لسلوكه الكريم الذى التزم به دوما ازاء ابن فاليريان ، فمنح السناتو ابن تدمر الباسل لقب أوغسطس وسط مظاهر الاستحسان العام من الشعب الرومانى ، وبموافقة جالينوس . ويبدو أنه عهد اليه بحكومة الشرق ، التى كان يتولاها بالفعل ، بدرجة من الاستقلال ، حتى انه اوصى به لأرملته الشهيرة زنوبيا ، وكأئسه تركة وراثية .

وربما كان فى الانتقالات السريعة المستمرة من الكوخ الى العرش ، ومن العرش الى القبر تسلية لفيلسوف عديم الاكتراث ، اذا استطاع الفيلسوف أن يستمر على الاستهتار وعدم الاكتراث وسط الكوارث العامة التى تنتاب الجنس البشرى . وكان فى انتخاب هؤلاء الأباطرة المزعزين وفى سلطانهم وموتهم وبال على رعاياهم وانصارهم : ألم يكن ثمن هذا الارتقاء المبيت يسدد فورا للقوات فى هبات سخية تبتز من بطون الشعب النهوك ، ومهما كان خلقهم كريما فاضلا ، ومهما كانت

نزعاتهم طيبة نقية ، فقد وجد هؤلاء الغاصبون أنفسهم مضطرين الى الانحطاط الى مستوى الضرورة الملحة لارتكاب الكثير من أعمال السلب والنهب والقسوة لتدعيم هذا السلطان الذي اغتصبوه . وكانوا اذا سقطوا يطوون معهم الجيوش والولايات في هوة السقوط . ولا يزال يوجد حتى الآن أمر وحشى أصدره جالينوس الى أحد وزرائه بعد قمع انجينوس الذى كان يطالب بالعرش في الليريكوم ، يقول فيه الأمير الناعم المجرى من الروح الانسانية : « ليس يكتفى أن تبديد كل من يحمل سلاحا ، فقد حققت فرصة المعركة أغراضها بنفس القدر ، ولكن يجب أن نقضى على الذكور من مختلف الأسنان ، شريطة أن تدبر ، في حالة اعدام الأطفال والشيوخ ، الوسائل الكفيلة بانقضاء سمعتنا ، فليمت كل من تفوه بعبارة عدائية ، أو راوده تفكير عدائى ضدى ، ضدى أنا ، ابن فاليريان ، والوالد والأخ لكثير من الأمراء . تذكر أنهم صنعوا من انجينوس امبراطورا ! مزق ، اذبح ، اقطع اريا اريا ، انى اكتب اليك بيدي ، لعلى أوحى اليك بمشاعرى » . وانغمست القوات العامة للدولة في النزاعات الخاصة ، على حين بقيت الولايات العزلاء الخالية من الدفاع معرضة للغزاة . واضطر أشجع الغاصبين ، نتيجة لاضطراب مواقفهم ، الى عقد معاهدات مغرية مع العدو المشترك ، والى شراء حياض المتبريرين أو خدماتهم لقاء أتاوة فادحة ، والى اتمام أمم معادية مستقلة على قلب الإمبراطورية الرومانية .

هكذا كان المتبريرون ، وهكذا كان الطفافة على عهد فاليريان وجالينوس ، فقد مزقوا الولايات ، وانزلقوا بالامبراطورية الى أدنى مهاوى العار والدمار ، حتى بدأ من المتعذر انتشالها منها قط . لقد حاولنا ، قدر ما سمحت به ضآلة المواد ، أن نتعقب في نظام ووضوح الأحداث العامة في هذه الفترة المليئة بالنكبات ، ويبقى بعد ذلك بعض حقائق معينة قد تعكس ضوءا أقوى على الصورة القاتمة الرهيبة :

- ١ — الاضطرابات في صقلية .
- ٢ — الشعب في الاسكندرية .
- ٣ — الثورة في ايزوريا .

١ — اذا تحددت عصابات اللصوص وقطاع الطرق التى تنمو وتتكاثر بفضل ما تصادف من نجاح وأمان من العقاب والحساب — اذا تحددت العدالة في بلدها علنا ، دون مجرد الافلات من يدها ، فلنا أن نستخلص مطمئنين — أن أحط طبقات الجماعة قد أحست واستغلت انفراط الحكومة في الضعف . ان موقع صقلية حماها من المتبريرين ،

كما أن الولاية العزلاء من السلاح ما كانت لتحتل غاصبيا . فان الجزيرة التي كانت يوما مزدهرة ، والتي لا تزال تربتها خصبة ، عانت ما عانت على أيدٍ أخط وأدنا . فقد سيطرت جماعة فاجرة من العبيد والفلاحين على البلد السليب بعض الوقت ، وأعادت الى الأذهان ذكرى حروب العبيد في الأزمنة السحيقة ، ولا بد أن عمليات التخريب والتدمير ، التي كان الفلاح ضحية لها أو شريكا فيها ، قد أتلفت زراعة صقلية ، ولما كانت الضياع الرئيسية فيها ملكا للأثرياء من شيوخ السناتو في روما ، الذين أدخلوا في نطاق مزارعهم مساحات كانت ملكا للجمهورية القديمة ، فإنه لم يكن من غير المحتمل أن تتأثر العاصمة بهذه الأضرار الخاصة ، أكثر منها بفزوات القوط والفرس .

٢ - كان تأسيس الاسكندرية مشروعاً عظيماً ارتآه ونفذه معا ابن فيليب . وكان محيط هذه المدينة العظيمة - ذات الشكل الجميل المنتظم ، الثانية بعد روما - يبلغ خمسة عشر ميلا ، يقطنها نحو ثلثمائة ألف من الأحرار ، فضلا عن عدد مساو لهم على الأقل من العبيد . وتدفقت تجارة الهند وبلاد العرب الراحبة الى عاصمة الامبراطورية وولاياتها عن طريق ميناء الاسكندرية . ولم تعرف المدينة الى الخمول سبيلا . فاشتغل أناس بنفخ الزجاج وآخرون بنسج الكتان وصناعة البردى . فكلا الجنسيتين من مختلف الأسنان كان مشغولا في مطالب الصناعة ، بل إن الكفيف أو الأعمى لم يعدم عملا يتناسب مع حالته . ولكن أهل الاسكندرية ، وهم خليط متباين من الأمم ، جمعوا غرور الاغريق وترفعهم الى خرافة المصريين وعنادهم . فان اتفه مناسبة : مثل نقص طارء في اللحوم أو العدس ، أو اهمال في تحية مألوفة ، أو خطأ في تقاليد الحمامات العامة ، أو حتى نزاع ديني - كانت كفيلا في أى وقت باثارة الشعب بين الجمهور الذي كان في غيظه وحنقه شرسا لا يرحم . وبعد أن أضعف أسر فاليريان ووقاحة ابنه من سلطان القانون ، أرخى السكندريون العنان لأهوائهم ، في حدة لا ضابط لها . وأضحى بلدهم المنكود مسرحا لحرب أهلية ، استمرت ( مع قليل من هدنات قصيرة مشكوك فيها ) أكثر من اثني عشر عاما . وانقطع الاتصال بين الأحياء الكثيرة في المدينة المنكوبة ، وتلطخت الشوارع كلها بالدماء ، وتحول كل بناء متين الى قلعة ، ولم يهدأ الهياج الا بعد أن دمر من المدينة جزء كبير بشكل لا يمكن معه تعويضه . وكان قسم بروشيون Bruchion الفسيح الفخم ، حى القصور والمتحف ، مقر ملوك مصر وفلاسفتها ، وقد وصفه بعضهم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، فقال انه انحط بالفعل الى ما هو عليه الآن من عزلة موحشة .

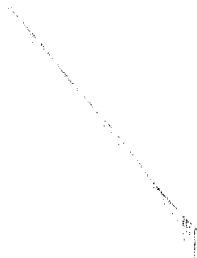
٣ - أسفرت الثورة الغامضة التي قام بها تريبليانوس الذي اتخذ لنفسه لقب الامبراطور في ايزوريا - وهي ولاية صغيرة في آسيا الصغرى - عن نتائج غريبة تستحق الذكر ، فسرعان ما أفسد أبهة الملك أحد ضباط جالينوس ، ولكن أتباعه قد يؤسوا من الرحمة أو الرفق بهم ، وقرروا أن يطرحوا ولاءهم - لا للامبراطور وحده - بل للامبراطورية بأسرها كذلك . وعادوا فجأة الى سلوكهم الوحشى الأول الذى لم يتخلوا عنه تماما قط . وأمنت صخورهم الشاهقة - فرع من جبال طوروس الواسعة الامتداد - لهم ملاذا منيعا لا يمكن معه الوصول اليهم . وفلحوا بعض الأرض الخصبة فزودتهم بضرورات المعيشة ، كما هيات عادة السلب والنهب لهم حياة الترف والبذخ . لقد بقى اهل ايزوريا أمدا طويلا أمة من المتبريرين المتوحشين في قلب الامبراطورية الرومانية ، وعجز الأمراء المتعاقبون عن ردهم الى الطاعة بالسيف أو بالسياسة ، حتى اضطروا - اقرارا منهم بالضعف - الى احاطة هذه البقعة المعادية المستقلة بسلسلة طويلة من التحصينات التي ثبت في كثير من الأحيان أنها غير كافية لصد غارات هؤلاء الأعداء المحليين ، ومد الأيزوريون رقعتهم الى ساحل البحر ، ومن ثم أخضعوا الجزء الغربى الجبلى من قيليقيا ، الذى كان من قبل وكر هؤلاء القراصنة الجريئين ، الذين اضطرت الجمهورية يوما الى أن توجه اليهم أعظم قوة تحت امرة بومبى الكبير .

ان من عاداتنا في التفكير أن نوجد صلة وثيقة بين نظام الكون وبين مصير الانسان ، الى حد أن هذه الحقبة السكانية من التاريخ ملئت بالفيزيانات والزلازل والظواهر الجوية الشاذة والظلمة الخارقة للعادة ، ومجموعة من الأعاجيب الملققة أو المبالغ فيها . ولكن كانت هناك المجاعة العامة التي دامت زمنا طويلا ، وكانت كارثة أشد وأقسى ، وكانت النتيجة الحتمية للسلب والنهب والظلم الذى استنزف المحاصيل الحاضرة والمرتبطة ، وغالبا ما تجيء الأوبئة في أعقاب المجاعة ، نتيجة للتغذية الضئيلة غير الصحية . ولا بد أن هناك أسبابا أخرى عملت على ظهور الطاعون الرهيب ، الذى اكتسح دون توقف من سنة ٢٥٠ - ٢٦٥ م كل ولاية وكل مدينة ، بل كل أسرة في الامبراطورية الرومانية ، وجاء وقت كان يموت فيه في روما خمسة آلاف شخص يوميا ، وثمة مدن أقلت من أيدي المتبريرين ، ولكنها الآن أقفرت من أهلها بفعل الطاعون .

وأمامنا الآن شيء غريب حقا ، قد يكون ذا دلالة ، في هذا التقدير المحزن لكوارث الانسان . فقد حفظ في الاسكندرية سجل دقيق للمواطنين الذين يحق لهم تسلم الغلال الموزعة ، وقد وجد أن العدد

القديم المدرج في السجل لمن هم بين الأربعمين والسبعين سنة كان مساويا  
لمجموع الطالبين من الرابعة عشرة الى الثمانين ، أولئك الذين بقوا على  
قيد الحياة بعد عصر جالينوس . فاذا طبقنا هذه الحقيقة الرسمية  
الموثوقة على أصح جداول المواليد والوفيات ، لثبت بوضوح أن أكثر  
من نصف سكان الاسكندرية ، قد هلك . فاذا تجرأنا على الامة تداد بهذا  
القياس الى سائر الولايات ، لجاز أن نظن أن الحرب والوباء والمجاعة  
قضت على نصف الجنس البشرى .

انحصار المد





## الفصل العادى عشر ( ٢٦٨ - ٢٧٥ م )

زنوبيا ومملكة تدمر • انتصار أوريليان ووفاته

تولى العرش بعد جالينوس سلسلة من الأباطرة الأقوياء الذين قال عنهم جييون بالنص : « انهم يستحقون اللقب المجيد : معيد بناء العالم الرومانى » • وقد اصلح الامبراطور الجديد كلوديوس الجيش ، وأحرز انتصاراً فريداً على القوط • وانهى خلفه أوريليان Aurelian لحرب مع القوط بحصرهم فى ولاية داثيا وسحب القوات من جبهة داثيا • وصد بعد ذلك قبائل الليمانى ، واسقط تتركوس الذى كان قد ادعى لنفسه السيادة فى بلاد الفال واسبانيا وبريطانيا • أما هزيمة تتركوس التى وصفها جييون فى سنة ٢٧١ فالمعروف انها اعقبت سقوط زنوبيا ، وانها وقعت فى سنة ٢٧٤ •

ما كاد أوريليان يستولى على ولايات تتركوس ويقبض عليه ، حتى أسرع بتوجيه قوته الى زنوبيا ملكة تدمر والشرق المشهورة ، وقد أنجبت أوربا الحديثة عدة نساء لامعات احتلن عباء الامبراطورية ، احتمالاً مجيدا ، وليس عصرنا نحن خالياً من مثل هذه الشخصيات الفذة . ولكننا اذا استثنينا منجزات سميراميس (١) المشكوك فيها ، فربما كانت زنوبيا هى السيدة الوحيدة التى شقت عبقريتها الفذة أستار الخمول الذليل الذى فرضه على جنسها مناخ آسيا وتواعد السلوك فيها • وادعت أنها انحدرت من الملوك المقدونيين الذين حكموا مصر • وكانت تستوى فى الجبال مع سلفها كليوباترا ، ولكنها فاقتها عفة وطهارة

(١) - ٨١٠ - ٨٠٦ ق.م اشتهرت بالجمال والحكمة - تقول الأساطير انها هى التى أسست بايل - ( المترجم ) •

وجرأة وشجاعة ، وقد قدروا أن زنوبيا اللف بنات جنسها وأكثرهن بطولة . وكانت سمراء الوجه ( وهذه الأشياء التافهة تصبح هامة عند الكلام عن سيدة ) ذات أسنان ناصعة البياض كاللؤلؤ . وفاضت عيناها السوداوان حيوية غير عادية ، مع رقة جذابة الى أبعد حد . وكان صوتها قويا مطريا . وكان لها ادراك رجل ، وقد زادت منه وزينته بالدرس ، ولم تكن تجهل اللغة اللاتينية ، ولكنها كانت تجيد اليونانية والسريانية والمصرية بنفس القدر . ولقد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق ، وألفت أن تعقد الموازنة بين روائع هوميروس وأفلاطون تحت اشراف لونجينس Longinus الجليل .

وتزوجت هذه المرأة المهذبة المثقفة من أوديناتوس الذى ارتقى بنفسه من مركز خاص محدود الى السيطرة على الشرق ، وسرعان ما أصبحت هى صديقة البطل ومرافقته ، وكان أوديناتوس ، فى أوقات الحروب ، يسر غاية السرور بممارسة الصيد ، فتعقب فى حماسة وشغف وحوش الصحراء الكاسرة مثل الأسد والنهر والدب . ولم يقل تلهف زنوبيا على هذه التسلية الخطرة عن تلهفه . وقد عودت جسمها وبنيتها على التعب والجهد واحتقرت استخدام عربة مكشوفة ، وظهرت بصفة عامة فى لباس عسكري منطوية جوادا ، وسارت أحيانا على قدميها عدة أميال على رأس القوات . ونسب نجاح أوديناتوس — الى حد كبير — الى حسن بصرها بالأمر وجلدها وثباتها ، وكلها صفات منقطعة النظر . ووضعت أسس وحدة الشهرة والقوة بينهما تلك الانتصارات الرائعة على الملك المعظم الذى تعقبوه مرتين الى أبواب طيسفون Ctesiphon (المدائن) ولم تعترف الجيوش التى توليا قيادتها، أو الولايات التى أنقذهاها بأى سيد آخر سوى هذين الرئيسين اللذين لا يقهران . وكرم السناتو وشعب روما الرجل الغريب الذى ثار لامبراطورهم الأسير . بل ان نفس الابن الجامد الفاتد الاحساس — ابن فاليريان — ارتضى أوديناتوس زميلا شرعيا له .

وبعد حملة موفقة ضد قطاع الطرق القوطيين فى آسيا عاها ملك تدمر الى مدينة حمص فى سوريا . وهناك أجهزت الخيانة الداخلية على الرجل الذى لم يقهر فى الحرب ، وكانت هوايته المفضلة — صيد الوحوش — هى السبب ، أو على الأقل المناسبة المواتية لموته . ذلك أن ابن أخيه ماؤنيوس Moeonius حسب أن يضرب ضربته قبل أن يسبقه عنه . وقد حذر من الوثوع فى هذا الخطأ الا أنه استمر سادرا فى غيه . وشارت ثائرة أوديناتوس ، وهو الملك الرياضى ، ونزل عن جواده وأبعده — وتلك دلالة العار عند المتبربرين — وعاتب الشاب الطائش بالجسب

لمدة قصيرة . وسرعان ما نسي الشاب ما قدمت يداه ، ولكن عقاب الحبس ظل عالقا بذاكرته ، وقتل ماؤنيوس مع جماعة من أعيانه الجريئين عمه وسط احتفال كبير ، وقتل معه هيروود ، ابنه من غير زنوبيا ، وكان شابا ذا مزاج رقيق أنثوى . ولم يصب ماؤنيوس من فعلته النكراء الا فرحة الانتقام ، فلم يكذب يتسع له الوقت ليتخذ لنفسه لقب أوغسطس قبل أن تضحي به زنوبيا تكريما لذكرى زوجها .

وتبوات زنوبيا فوراً على العرش الخالي بمعونة أخلص أصدقاء زوجها ، وحكمت في عزم الرجال تدمير وسوريا والشرق لأكثر من خمس سنوات . وكانت قد انتهت بهوت أوديناتوس تلك السلطة التي كان السناتوق قد حولها اياه وحده ، بوصفها امتيازاً شخصياً له . ولكن الأرملة العسكرية المحاربة احتقرت السناتو وجالينوس كليهما ، وأرغمت القائد الروماني الذي أرسل لمحاربتها على العودة الى أوروبا بعد أن فقد جيشه وشهرته ، وسارت زنوبيا في ادارتها الحازمة على هدى من أحكام مبادئ السياسة بدلا من أن تتردى في حماة الأهواء التافهة التي كثيرا ما تشوب حكم النساء ، فاذا كان الأوفق أن تغفو وتصفح ، استطاعت أن تحد من غضبها وتخفف من غلوائها ، واذا كان لزاما أن تبطش استطاعت أن تخرس نداء الشفقة والرحمة . وقد اتهم اقتصادها الدقيق بالبخل ، ولكنها ظهرت في كل مناسبة صحيحة بمظهر الجلال والسخاء . واستشعرت الدول المجاورة : العرب وأرمينيا وفارس ، الرهبة من عدائها وتوسلت لحالفاتها ، وأضافت الأرملة الى ممتلكات أوديناتوس التي كانت تمتد من الفرات الى حدود بيثينيا ، الملكة الخصبة الآهلة بالسكان التي كانت قد ورثتها عن أسلافها ، وهي مصر ، وأقر الامبراطور كلوديوس بفضلها ، وكان مقتنعا بأنه في الوقت الذي يتابع فيه الحرب مع القوط ، ستثبت هي مكانة الامبراطورية في الشرق ، ومهما يكن من أمر فان سلوك زنوبيا كان يشوبه شيء من الغموض ، وليس من المستبعد أن يكون قد جال بخاطرها مشروع اقامة مملكة مستقلة معادية ، لقد مزجت زنوبيا قواعد السلوك المألوفة لدى أمراء الرومان بشيء من الأبهة والجلال المعروفين في بلاط أمراء آسيا . وكان رعاياها يعبدون كما كان خلفاء كورثس يدعون . وعلمت أبناءها الثلاثة تعليما لاتينيا ، وكثيرا ما أظهرتهم أمام الجيش في الحلة الامبراطورية ، أما هي فقد احتفظت لنفسها بالنتاج مع تلميح الفخم المشكوك فيه « ملكة الشرق » .

ولما عبر أوريليان الى آسيا ، في اثر عدوة ، لها من جنسها وحده ما يدعو الى الزرابة والسخرية ، أعاد وجوده ولاية بيثينيا الى حظيرة

الطاعة والولاء ، وكانت قوات زنوبيا ودسائسها قد هزت كيان هذه الولاية . وتقدم على رأس جيشه فتقبل ولاء مدينة أنسيرا Ancera ودخل مدينة تيانا Tyana بمعونة مواطن غادر بعد حصار شديد . وتخلّى أوريليان الكريم الطبع ، والقاسى رغم ذلك ، عن هذا الخائن للجنود فى سورة غضبهم ، فان احتراماً خرافياً حفزه الى معاملة مواطنى الفيلسوف أبولونيوس Appolonius (١) برفق ولين . أما أنطاكية فقد هجرها أهلها لدى اقتراب الامبراطور منها ، الى أن أصدر الامبراطور مراسيم لعلاج هذه الحالة استدعى فيها النازحين للعودة ومنح عفوا عاما عن كل من كانوا يعملون فى خدمة ملكة تدمر ، كرهما بحكم الضرورة، لا طواعية واختيارا . وهذا من روع السوريين هذا الاعتدال غير المتوقع ، ومن ثم تقدم الى أبواب حمص ، ومن ثم عززت رغبات الشعب ارهاب الجيش على طول الطريق حتى أبواب حمص .

وما كانت زنوبيا لتستحق شهرتها لو أنها تراخت وسمحت لامبراطور الغرب بالاقتراب الى مسافة مائة ميل من عاصمتها . ولقد تحدد مصير الشرق فى معركتين عظيمتين تكادان تتشابهان فى كل النواحي تقريبا ، حتى يكاد يتعذر التمييز بينهما ، اللهم الا اذا لاحظنا أن واحدة منهما وقعت قرب انطاكية ، والثانية قرب حمص . وفى كلتا المعركتين أثارت زنوبيا حمية الجنود بوجودها بينهم ، وعهدت بتنفيذ أوامرها الى زابداس Zabdas الذى برزت بالفعل مواهبه العسكرية فى فتح مصر . وكان الجزء الأكبر من قوات زنوبيا الضخمة يتألف من رماة السهام الخفاف ، ومن الخيالة الثقيلة المدرعة بالصلب ، فلم يقو فرسان جيش أوريليان ، المتطينين جيادا، عربية أو الليبية ، على تحمل الهجوم الثقيل من جانب عدوهم ، فهربوا فى غير نظام ، تصنعا أو حقيقة ، فأرهبوا جيش تدمر فى تعتبه لهم وضايقتوه بمناوشات متقطعة ، وفى النهاية دحروا هذا الكيان من الفرسان الذى كان يصعب النفوذ اليه ، ولكنه كان مرتبكا ثقيل الحركة . ولما نفذ ، فى نفس الوقت ، ما فى جعبة المشاة الخفيفة ، وأصبحوا ولاعاصم لهم من أية مباداة قريبة ، تعرضت جوانبهم العارية لسيوف القوات الامبراطورية . وكان أوريليان قد اختار هذه القوات المحنكة التى رابطت عادة فى أعالي الدانوب ، والتى امتحنت صلابتها وبأسها أثنى امتحان فى حرب الألمان . ووجدت زنوبيا بعد هزيمة حمص ، أنه من المتعذر جمع جيش ثالث ، وانضوت

(١) ولد أبولونيوس فى تيانا حوالى الوقت الذى ولد فيه السيد المسيح عليه السلام . وقد روى تلاميذ أبولونيوس قصة حياته فى شكل خرافى الى حد الحيرة فى الكشف عن هويته : أهر حكيم أم دجال أم متعصب .

تحت لواء الفاتح كل الأمم التي كانت خاضعة لزنوبيا حتى حدود مصر .  
وأصبحت تدمر الملجأ الأخير لأرملة أوديناتوس ، وقبعت داخل أسوار  
عاصمتها ، وقد أعدت كل العدة لمقاومة صلبة ، وأعلنت في شجاعة  
بطولية أنها لا بد أن تقرن نهاية حياتها بنهاية حكمها .

وتنشأ وسط الصحراء القاحلة بقاع قليلة مزروعة ، وكأنها جزر في  
بحار من الرمال . وحتى اسم تدمر أو بالميرا ، يدل في اللغتين السريانية  
واللاتينية على مجموعة ضخمة من النخيل الذي يظل هذا الاقليم  
المعتدل ويكسبه نضرة وخضرة . وكان هواؤه نقيًا ، وكان من  
الميسور انتاج الفواكه والفلال حيث تروى الأرض بواسطة بعض ينابيع  
عظيمة . وسرعان ما ترددت على هذا المكان ذى المزايا الفريد الواقع  
على مسافة مناسبة بين الخليج الفارسي ( العربي ) والبحر المتوسط —  
القوافل التي حملت الى أمم أوربا جزءا كبيرا من تجارة الهند الثمينة ،  
ونمت بالميرا — بطريقة غير ملحوظة — الى مدينة غنية مستقلة ، سمح  
لها بالتزام جانب الحياد المتواضع ، حيث كانت تربط بين دولتي الرومان  
وبارثيا عن طريق المصالح التجارية المتبادلة . ولكن الجمهورية  
الصغيرة ، ارتمت في النهاية ، بعد انتصارات تراجان ، في أحضان  
روما ، وازدهرت لمدة تزيد على مائة وخمسين عاما ، بوصفها مستعمرة  
ذات مركز ثنوى تابع ، ولكنه مشرف . وإذا استطلعنا أن نستخلص  
شيئا من بعض النقوش القليلة الباقية ، فانه يمكن القول بأن فترة  
الهدوء والسلم هذه ، هي التي شهيد فيها أهل بالميرا الموسرون — على  
الطراز الاغريقي — هذه المعابد والقصور والأروقة ، التي نجد اطلالها  
مبعثرة على مدى عدة أميال ، تجذب سياحنا وتثير فضولهم ، ويبدو أن  
ارتقاء أوديناتوس وزنوبيا عكس على البلد سناء جديدا ، وباتت لفترة  
من الوقت منافسة لروما ، ولكن المنافسة كانت قتالة ، فضحيت عصور  
طويلة من الازدهار والرخاء من أجل برهة قصيرة من الجد .

وكان العرب كثيرا ما يزعجون أوريليان في الصحراء بين حمص  
وتدمر ، ولم يكن يستطيع حماية جيشه ، وخاصة العناد والمهمات ،  
ضد هذه العصابات الطائرة من اللصوص الممثلين جراً ونشاطا ، الذين  
ترقبوا فرصة المفاجأة ، وأفلتوا من القوات التي تتعقبهم ببطء . وكان  
حصار تدمر أمرا أشق وأهم كثيرا . وأصيب الإمبراطور الذي تولى  
بنفسه الهجوم في عزم وصلابة ، بجرح من احدى النبال . وقال أوريليان  
في خطاب له : « ان الشعب الروماني يتحدث في استهزاء وسخرية عن  
الحرب التي أشنها ضد امرأة . ولكنهم يجهلون شخصية زنوبيا وقوتها .

وانه لمن العسير أن تحصي معداتها الحربية ، من الحجارة والسهم ، وكل أنواع القذائف ، وكان كل جزء في الأسوار مزودا باثنين أو ثلاثة من المجانيق للقذف بالحجارة ، كما كانت النار الصناعية تقذف باللهب من كل جانب . كما ملأ الخوف من الحصار نفسها بشجاعة مستميتة . ومع كل هذا فاني ما أزال كبير الثقة في حماية آلهة روما ، تلك الآلهة التي كانت الى جانبي حتى الآن في كل ما قمت به من أعمال . ومهما يكن من أمر ، فان أوريليان ساوره الشك في رعاية الآلهة وفي نتيجة الحصار ، الى حد أنه ارتأى أنه من الحكمة أن يعرض عليهم التسليم بشروط أجدى وأنفع ، فعرض على الملكة انسحابا كريما ، وعلى المواطنين الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة . ورفضت شروطه بآباء وشمم ، بل اقترن الرفض بالاهانة .

والحق أن صلابة زنوبيا كانت تركز على الأمل في أن ترغم المجاعة جيش الرومان على التعجيل بمغادرة الصحراء في أقرب فرصة ، وعلى النطرح المعقول الى أن ملوك الشرق ، وخاصة عاهل الفرس ، لابد أن يهتسقوا الصام دفاعا عن حليفهم الطبيعي الى أبعد حد . ولكن حظ أوريليان ومثابرتة ذللا كل عقبة وقلبا الآية ، ذلك أن موت شابور في تلك الأثناء ، أذهل والهي مجالس الفرس . وكان من السهل على حراب الامبراطور وسخائه أن يقطعما الطريق على النجدات الهائلة التي حاولت انقاذ تدمر . وتتابع بانتظام وصول القوافل بسلام من مختلف أنحاء سوريا الى معسكر الرومان الذي زاد عدده . برجوع بروبوس Probus بقواته الظاهرة بعد غزو مصر . وعندئذ قررت زنوبيا الهرب ، فامتطت أسرع هجنها ، وما كادت تصل الى شواطئ الفرات ، على بعد ستين ميلا من تدمر ، حتى أدركها فرسان أوريليان على جيادهم الخفيفة التي جدت السير في أثرها ، وقبضوا عليها وعادوا بها أسيرة بين قدمي الامبراطور . وسرعان ما سلمت عاصمتها بعد ذلك ، وعولمت في رفق لم يكن متوقعا . وسلمت الاسلحة والخيول والجمال مع ثروة ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة الى الامبراطور الذي ترك حامية قوامها ستمائة قواس ، وعاد الى حمص ، حيث قضى بعض الوقت في توزيع الثواب والعقاب في نهاية حرب مشهودة ، أعادت الى حظيرة روما تلك الولايات التي كانت قد شقت عليها عصا الطاعة منذ أسر فاليريان .

ولما مثلت الملكة السورية بين يدي أوريليان سألها مسيها : « كيف اجترأت على حمل السلاح في وجه أباطرة الرومان ؟ » فكان جواب زنوبيا مزيجا حكيما من الاحترام والحزم والعزم : « لأني احتقرت أن

أعتبر أمثال أوريولوس أو جالينوس أباطرة رومان ، ولكنى أتبر  
بأنك أنت وحدك ملك وفاتح » . ولكن جلد النساء عادة مصطنع ،  
ويندر أن يكون ثابثا أو متماسكا . فان زنوبيا خانتها شجاعتها في ساعة  
المحاكمة ، وارتعدت فرائصها لدى سماعها لصيحات الجنود الذين  
طالبوا بإعدامها فوراً ، ونسيت موقف كليوباترا الكريم البائس ، التي  
اتخذتها نموذجا لها . واشترت ، شراء مخزيا شائنا ، حياتها بنضحية  
شهرتها وأصدقائها ، الذين نسبت وزر تحديدها العنيد الى نصائحهم التي  
ساستت ضعف النساء . ومن ثم وجهت اليهم انتقام أوريليان الغاشم  
القاسى . وستخذ شهرة لونجينوس الذى حشر في زهرة ضحاياها  
الكثيرين ، وربما الأبرياء ، بعد شهرة الملكة التي فدرت به أو الطاغية  
الذى أعدمه . ولم تجد العبقرية والعلم في تحريك جندى أمى شرس ،  
ولكنهما نجحا في السمو بروح لونجينوس وانعاشها ، فانه تبع السيف  
في هدوء دون أن ينبس ببنت شفة ، يندب سيدته التعسة ، ويقدم العزاء  
والسلوى لأصدقائه المنكوبين .

وما كاد أوريليان يعبر المضايق التى تفصل بين أوربا وآسيا ، عائدا  
من فتوحاته في الشرق ، حتى فوجيء بالأنباء التى تقول بأن أهل تدمر  
رفعوا راية العصيان من جديد وذبحوا الحاكم والحامية التى كان قد  
تركها هناك . فلم يضيع لحظة واحدة في الأخذ والرد ، بل ولى وجهه  
في الحال مرة أخرى شطر سوريا . وروعت مدينة أنطاكية لاقتراب  
الإمبراطور على عجل ، وأخست مدينة تدمر العاجزة البائسة وطاة حنقه  
الذى لا يمكن دفعه . وهناك رسالة لأوريليان نفسه يعترف فيها بأن  
الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين لم يسلموا من الأعدام الرهيب  
الذى كان خليقا أن يقتصر على المتبردين المسلحين ، وعلى الرغم من أن  
عنايته اتجهت الى إعادة بناء معبد الشمس ، فانه استشعر شيئا من  
الشفقة نحو من بقى من أهل تدمر ، فمنحهم ترخيصا في إعادة بناء  
مدينتهم وسكانها . ولكن الهدم أيسر من إعادة البناء . فقد انحط مركز  
التجارة والفنون ومقر زنوبيا ، مع الأيام ، الى مدينة صغيرة خاملة ،  
وحصن تافه ، ثم الى قرية تعسة في النهاية . وأقام مواطنو تدمر  
الحاليون — وعددهم لا يجاوز ثلاثين أو أربعين أسرة — أكواخهم من  
الطين في الفناء الفسيح للمعبد الفخم .

وثمة عمل آخر ، وهو الأخير ، كان ينتظر أوريليان الذى لا يكل  
ولا يبيل ، ذلك أن يخمد ثورة خطيرة ، ولو أنها غامضة ، قامت على  
ضفاف النيل في أثناء ثورة تدمر . ولم يكن فرموس Firmus — صديق  
أوديناتوس وزنوبيا وحليفهما ، كما كان يفخر بأن يسمى نفسه — أكثر

من مجرد تاجر ثرى فى مصر . وفى تجارته مع الهند وطد أوثق الصلات بينه وبين العرب والبلبيين Blemnyes الذين كانوا يقطنون على جانبى البحر الأحمر ، ومن ثم سهل اتصالهم بصعيد مصر ، وألهب فرموس نفوس المصريين بالأمل فى نيل الحرية ، وسار على رأس الجمهور الهائج الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذ لنفسه لقب الإمبراطور ، وسك النقود وأصدر الأوامر ، وكون جيشا كان يفخر عبثا بأنه يستطيع الاحتفاظ به والانفاق عليه من أرباحه من تجارة الورق وحدها . ولكن مثل هذه القوات لم تشكل الا دفعا هزليا ضد الإمبراطور الذى كان يقترب من الميدان ، ونحن فى غنى عن القول بأن فرموس هزم وأخذ وعذب ثم أعدم . واستطاع الآن أوريليان أن يهنئ السناتو والشعب ، ويهنئ نفسه ، لأنه تمكن فى ثلاث سنوات ، أو زد عليها قليلا من أن يعيد السلام والنظام شاملين الى ربوع العالم الرومانى .

### انتصار أوريليان ووفاته

لم يكن ثمة قائد أجدر من أوريليان بالفوز والظفر ، منذ تأسيس روما ، كما لم يحفظ أى انتصار بمثل هذا الاعتزاز الكبير والأبهة العظيمة . وبدأ الموكب بعشرين فيلا ، وأربعة نمور ملكية ، وأكثر من مائتين من أغرب الحيوانات من مختلف الأجواء فى الشمال والشرق والجنوب ، يتبعها الف وستمائة من المجالدين المتفرغين لتسليحة المدرج الخطيرة . وعرضت كنوز آسيا وأسلحة وشعارات أهم كثيرة ، ولوحة ملكة سوريا الفخمة وخزانة ملابسها فى ترتيب دقيق وخط خبيث . وكشف عن عظمة إمبراطور الرومان وقوته هذا الحشد الكبير من سفراء أقصى أهم الأرض : اثيوبيا وبلاد العرب وفارس وبيكتريانا والهند والصين ، بملابسهم الفاخرة أو الفريدة فى بابها ، كما عرض الإمبراطور بدوره لأنظار الجماهير الهدايا التى كان قد تلقاها ، وبخاصة هذا العدد الكبير من التيجان الذهبية التى قدمتها له المدن العارفة لفضله . وشهد على انتصارات أوريليان هذا الحشد الكبير من الأسرى الذين ساروا كارهين فى ركابه المظفر ، من القوط والوندال والسارماتيين والالمان والفراجة والغال والسوريين والمصريين . وقد تميز كل شعب بكتابته الخاصة ، ومنح لقب « المجنذات » لمشر بطلات محاربات من القوط أسرن بكامل أسلحتهن . ولكن العيوب كانت مركزة على الإمبراطور تتركوس ، وعلى ملكة الشرق ، بصرقة النظر عن سائر حشود الأسرى . وكان الأول وابنه الذى أضفى عليه لقب أوغسطس ، يرتديان سروالا



غاليا (بنطلون يلبس في بلاد الغال) وقميصا زعفرانيا ورداء أرجوانيا(١). أما زنوبيا فقد كبلت في أصفاد من ذهب ، وقد أمسك أحد العبيد بالسلسلة التي طوقت عنقها ، وكادت تنوء بما لا يحتمل من ثقل النحلي والمجوهرات التي عليها ، وسارت على قدميها أمام العربية الفاخرة التي كانت تؤمل يوما أن تدخل فيها أبواب روما . وتبعها عربتان أخريان أفخر وأبهى من عربية أوديناتوس وعربة كسرى فارس . أما مركبة النصر ، الخاصة بأوريليان ( والتي كان يستخدمها أحد ملوك القوط من قبل ) فكان يجرها في هذه المناسبة المشهودة أربعة من الأوعال أو من الفيلة . واختتم المركب بأبرز أعضاء السناتو والشعب والجيش . وتعالق هتافات الجميع معبرة عن الفرح الخالص والدهشة والامتنان . أما ارتياح السناتو فقد كدره ظهور تتركوس ، ولم يستطع شيوخ السناتو أن يكتنوا تذرهم من أن يعرض الإمبراطور المتغطرس للسخط العام شخصا رومانيا وحاكما .

لكن أوريليان ، مهما أرضى غروره في معاملته لمنافسيه وأعدائه ، فإنه نهج معهم مسلكا كريما رحيفا قل أن سلكه الفزاة القدامى ، حيث كثيرا ما كان يزوج بالأمرء الذين دافعوا عبثا عن عروشهم وحرياتهم في غياهب السجون ، بمجرد وصول مكعب النصر إلى الكابيتول . أما هؤلاء الغاصبون الذين دمغتهم هزيمتهم بجريمة الخيانة ، فقد رخص لهم في قضاء حياتهم في يسر وبجبوحه ، فقد أهدى الإمبراطور زنوبيا فيلا جميلة في تيفولي ، على بعد خمسة وعشرين ميلا من العاصمة . وتحولت الملكة السورية دون أن تشعر إلى امرأة رومانية عوان (متوسطة العمر) وتزوجت بناتها من أسرات نبيلة ، ولم يكن عنصرها قد انقرض بعد في القرن الخامس . أما تتركوس وابنه فقد ردت إليهما وظائفهما وثرواتها وشيدا قصرا فخما فوق تل كليان Caelian Hill دعى إليه ، بمجرد الانتهاء منه أوريليان لتناول العشاء ، وفوجيء عند دخوله بمفاجأة لطيفة ، حيث وقع بصره على صورة تمثل منظرًا فريدا في تاريخهما الفريد ، وهما يقدمان للإمبراطور اكليل القار وصولجان الغال ، وهما يتناولان من يده أوسمة عضوية السناتو . وأسندت إلى

.. (١) كان استخدام السراويل لا يزال يعتبر في إيطاليا زيا غاليا أو بربريا . وقد أدخل عليه الرومان تحسينات كثيرة على أية حال . أما لف الأرجل والأفخاذ بالعصائب ، فكان يؤخذ في عهد بومبي وموراس على أنه دليل على اعتلال الصحة والاثوثة . وكانت هذه العادة مقصورة في عهد تراجان على الأغنياء والمترفين ، ثم اقتبسها بالتدريج سلفة القوم .

تتريكوس الوالد بعد ذلك حكومة لوكانيا Lucania . وسرعان ما يمكن أوريليان أواصر الصداقة بينه وبين هذا الملك المخلوع ، وتجاذب معه أطراف الحديث فسأله يوما في غير ما كلفة : أما كان من الأفضل أن يدير ولاية في إيطاليا أكثر من أن يحكم فيما وراء الألب ؟ أما الابن فقد بقى طويلا عضوا محترما في السناتو . ولم يحظ أحد من النبلاء الرومانيين بأكثر مما حظى هو بتقدير أوريليان وخلفائه .

واستطال وقت موكب النصر وتنوعت عروضه . فقد بدأ مع خيوط الفجر ، ولكن الموكب كان يتهادى يحف به الجلال والعظمة ، فلم يصل الى الكابيتول قبل الساعة التاسعة ، وخيم الظلام بالفعل قبل أن يعود أوريليان الى قصره . وقد تخلل الاحتفال بعض المشاهد المسرحية واللعاب السيرك ، وصيد الوحوش ومنازلة المجالدين والاشتباكات البحرية ، ووزعت العطايا السخية على الجنود والشعب ، وساهمت بعض المشروعات الخيرية أو المفيدة الملائمة للشعب في تخليد مجد أوريليان . وخصص جزء كبير من غنائه في الشرق لألهة روما ، وتألقت في الكابيتول وغيره من المعابد الهدايا التي قدمها الإمبراطور المتباهي بتقواه ، وتلقى معبد الشمس وحده أكثر من خمسة عشر ألف رطل من الذهب . وكان هذا المعبد الأخير تحفة رائعة في عالم البناء شيدته الإمبراطور على أحد جوانب تل كويرينال ، وخصص بعد النصر بمباشرة لذلك الإله الذي عبده أوريليان على أنه مصدر حياته وثرواته . وكانت أمه كاهنة صغيرة في معبد صغير للشمس ، وفي عهد طفولته رسخ في نفس الفلاحة السعيدة الحظ عاطفة تبذل خاص لاله النور ، وكانت كل خطوة في سلم المجد ، وكل انتصار أحرزه أثناء حكمه ، بمثابة تدعيم الخرافة بالعرفان والامتنان .

وقهرت أسلحة أوريليان أعداء الجمهورية في الداخل والخارج . فقد ثبت لنا عن يقين أنه بفضل صرامته الناجمة ، قد محيت من العالم الروماني ، الجرائم والفتن ، والأعياب السوء والمحاباة الخبيثة ، كما جيل بين النمو المفرط لحكومة ضعيفة ظالمة ، ولكننا اذا تذكرنا الى أي حد يكون استئراء الفساد أسرع من علاجه ، وأن عدد السنين التي ساد فيها الخلل العام الشامل جاوز الشهور التي قضاهما أوريليان في الحكم العسكري - لاعترفنا بأن فترات السلم القليلة القصيرة لم تكن كافية للمهمة الشاقة ، مهمة الإصلاح . وحتى محاولته لاستعادة سلامة العملة ، فانها لقيت معارضة شديدة . ويتفجر غيظ الإمبراطور في رسالة خاصة يقول فيها : « حقا لقد قضت الآلهة بأن تكون حياتي حريبا متصلة . فقد أنت فتنة داخل الجدران الى حرب أهلية طاحنة . فإن

عمال سك النقود - بتصریح من فلكيسيموس Felicissimus وهو عبد عينته في وظيفة في المالية هبوا ثائرين ، وقد أخذت في النهاية ثورتهم ، ولكن بعد أن ذبح في النزاع سبعة آلاف من الجنود الذين كان مقرهم الاصلی في داشيا والمعسكرات الواقعة على طول الدانوب . . ويقول كتاب آخرون ، ممن يذكرون الحقيقة نفسها ، انه حدث بعد انتصار أوريليان مباشرة ، وأن المعركة الفاصلة نشبت فوق تل كليان ، وأن عمال سك النقود زيفوا العملة ، وأن الإمبراطور استرد ثقة الشعب بأن وزع عملة أصيلة بدلا من العملة الزائفة التي أمر الناس أن يردوها الى الخزانة .

وقد تكفى بسرد هذه العمليات الشاذة ، ولكننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن مدى ما يبدو فيها من تناقض ، ومن عدم امكان تصديقها ، فقد يلتئم تزييف العملة حقا مع حكم جالينوس ، على حين كان من المحتمل أن تخشى آلات الفساد عدالة أوريليان التي لا تلين ولا تتثنى . ولكن الجريمة والريخ لابد انهما كانا محصورين في فئة قليلة ، وليس من السهل أن ننبين الأمانين التي استطاعوا بها أن يسلبوا شعبا آذوه وأساعوا اليه ضد ملك غدروا به ، وقد يكون من الطبيعي أن نتوقع أن مثل هؤلاء الأشرار قد شاركوا النمامين وغيرهم من أعوان الظلم في استياء الشعب ، وأن اصلاح العملة لابد أن يكون عملا رحب به الشعب قدر ترحيبه باتلاف الحسابات القديمة بأمر الإمبراطور في ساحة تراجان . وفي عصر لم تكن اصول التجارة معروفة فيه معرفة دقيقة . قد تنفذ الغاية المرجوة بالوسائل الخشنة الغريرة . ولكن قل أن تثير شكوى طارئة من هذا النوع حربا أهلية رهيبة . أما تكرار فرض الضرائب المحففة على الأرض وعلى ضرورات الحياة ، فإنه يغير في النهاية الذين لن يهجروا بلدهم أو الذين لا يستطيعون أن يهجروها . ولكن المسألة كانت تختلف عن ذلك تماما ، في كل عملية كان يمكن أن تعيد الى العملة قيمتها الحقيقية مهما كانت الوسائل . فسرعان ما تمحو المنفعة الدائمة أي أذى عارض ، وتتوزع الخسارة بين الجماهير . وإذا عانى قليل من الأفراد الموسرين نقصا في أموالهم ، فإنهم في نفس الوقت سيفقدون الى جانب ثروتهم تلك الأهمية وذلك الوزن اللذين أضفاهما عليهم تملكهم لهذه الثروات . ومهما أراد أوريليان أن يخفى السبب الحقيقي للفتنة ، فإن اصلاحه للعملة لن يقدم إلا ادعاء طفيفا لجماعة كانت لا تزال قوية غير راضية ، فقد أزعج الشعب روما رغم حرمانها من الحرية ، فإن الشعب الذي أظهر له الإمبراطور دائما - وهو نفسه واحد من العامة - ولما خاصا ، عانى في شقاق دائم مع السناتو

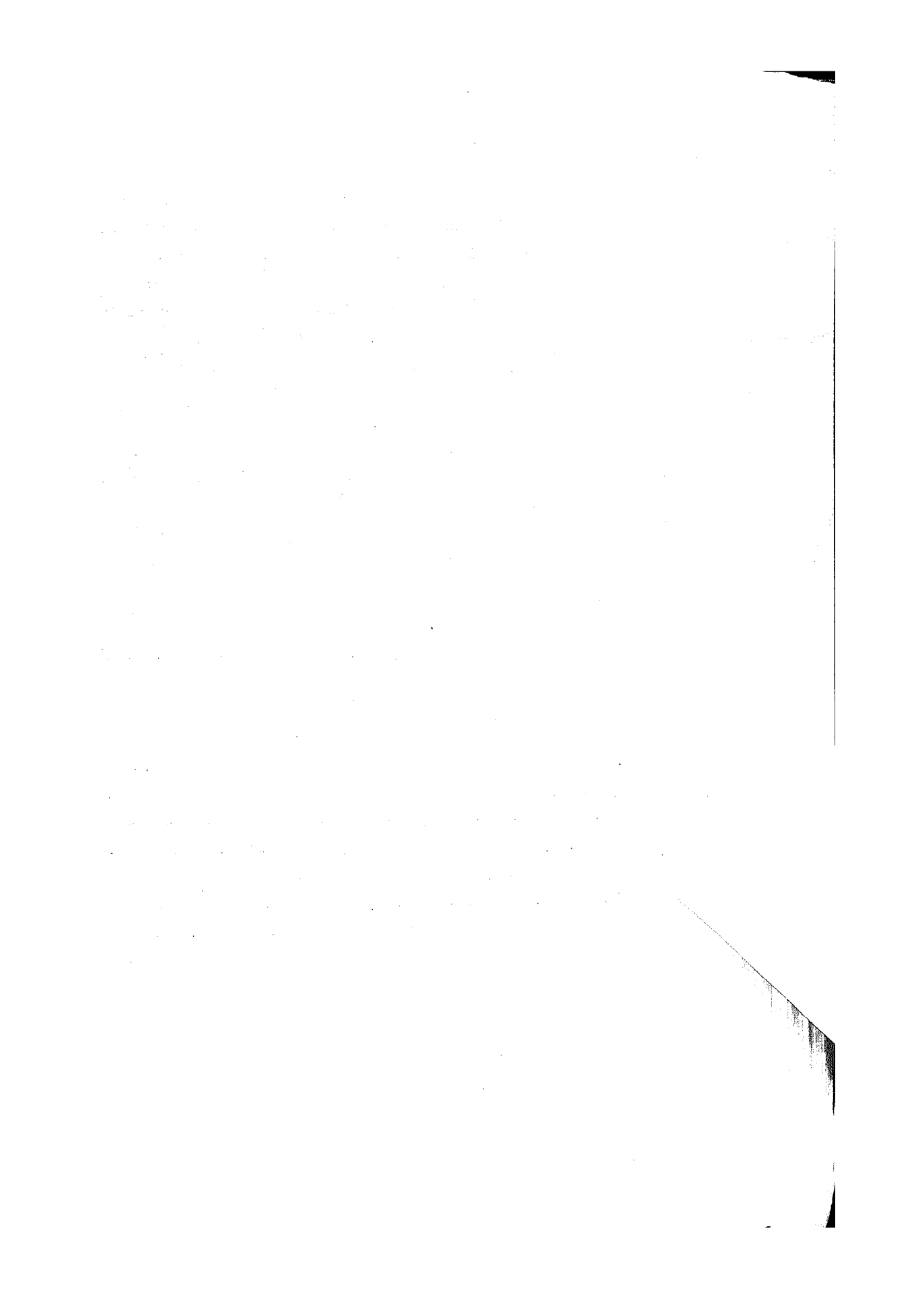
والفرسان والحرس البريتورى . ولم يكن ثمة شىء أقل من المؤامرة الحازمة الخفية التى تحيكها هذه الهيئات : الأولى بما لها من نفوذ ، والثانية بثرائها ، والثالثة بسلاحها - يمكن أن يشكل قوة تنافس فرق الدانوب القدامى المحضكين ، الذين أنجزوا فتح الغرب والشرق تحت أمره الامبراطور الذى أولع بالحرب .

ومهما كان الاحتمال ضعيفا فى ارجاع سبب هذه الثورة الى عمال سك النقود ، فان أوريليان استغل انتصاره فى صرامة عاتية ، وكان بفطرته نزاعا الى القسوة ، ويوصفه فلاحا وجنديا ، لم ترق أعصابه ، بسهولة لدواعى الشفقة والعطف ، وكان يحتفل دون انفعال مشاهد التعذيب والقتل ، وقد تدرب منذ نعومة أظفاره على السلاح ، ومن ثم لم يقيم كبير وزن لحياة الفرد ، وعاقب أنه الذنوب بالاعدام ، ونقل صرامة النظام فى المعسكر الى مجال الادارة المدنية للقوانين . وكثيرا ما انقلب حبه للعدالة الى هوى أعمى عنيف . وحيثما حسب أن هناك خطرا على سلامته أو سلامة الشعب أغفل كل قواعد الاثبات والبيئة ، وأغفل تناسب العقوبات . فان الثورة التى لم يكن لها ما يبررها والتى كافأ بها الرومان خدماته ، أثارت نفسه المتعالية . وأخذت أنبل الأسرات فى العاصمة بهذه الجريرة ، أو بالشك فى اشتراكها فى المؤامرة الخفية . فندفعت روح طائشة للانتقام الى الاضطهاد الدموى الذى راح ضحيته احد أبناء اخوة الامبراطور ، ولقد تعب الجلادون ( اذا جاز لنا أن نستخدم تعبير شاعر معاصر ) وامتألت السجون ، وحزن السناتو المنكود على موت أو غياب أبرع أعضائه ، كما لم تكن غطرسة أوريليان وغروره أقل اىذاء للسناتو من قسوته ، فانه - جهلا منه أو ضيقا بضوابط النظم الادارية - احتقر أن يمارس سلطته تحت أى لقب الا السيف ، وحكم ، بحق الفتح ، الامبراطورية التى أنقذها وأخضعها .

وقد لاحظ واحد من أحكم أمراء الرومان أن مواهب سلفه أوريليان كانت اليتى بقيادة جيش منها بحكم امبراطورية . وكان أوريليان يدرك الدور الذى هيات له الطبيعة والتجربة أن يبرع ويبرز فيه ، ولذلك عاد الى الميدان بعد بضعة شهور من انتصاره . وكان من الخير أن يستخدم يلهف الفرق ومورانها فى حرب خارجية ، وكان كسرى الفرس الذى يتهلل ويعتز بفضيحة فاليريان لا يزال يجترىء ، دون حساب أو عقاب ، على كبرياء روما الجريجة . وتقدم الامبراطور على رأس جيش أقل فى الجدد منه فى النظم والشجاعة ، نحو المضائق التى تفصل أوربا عن آسيا . وهناك خبر وعرف أن أكبر قوة لا تعدو أن تكون دفاعا ضعيفا

ضد آثار اليأس وخيبة الأمل . وكان قد وجه تهديدا الى احد افراد  
سكرتيريه ، اتهمه بانتزاع الاموال ، وكان المعروف أن تهديده قل أن  
يذهب سدى . وكان آخر أمل تعلق به المجرم هو أن يشرك بعض كبار  
ضباط الجيش في الخطر المحدق به ، أو على الأقل في مخاوفه . فعهد في  
براعة ودهاء الى تزوير خط الامبراطور ، ثم اطلع هؤلاء الضباط على  
قائمة طويلة لعينة تضمنت اسماهم والحكم عليهم بالاعدام . ومن ثم  
عقدوا النية ، دون ان يساورهم الشك أو ان يدققوا في هذا الغش  
والاحتيال — على انقاذ حياتهم بقتل الامبراطور . وفي أثناء سيره بين  
بيزنطة وهرقلية انقض عليه المتآمرون الذين كانت تخولهم مراتبهم أن  
يحيطوا بشخصه . وبعد مقاومة قصيرة خر صريعا بيد موكابور Mucapor ،  
وهو قائد كان أوريليان يحبه ويثق فيه . وقضى الامبراطور نحبه مأسوفا  
عليه من الجيش ، مكروها من السناتو ، ولكن كان ثمة اقرار عام شامل  
بأنه كان أميرا محاربا سعيد الحظ ، وبأنه كان المصلح الناجح لدولة  
منحلة ، رغم نسوته .

وبعد قتل أوريليان ، مارس السناتو سلطته ، للمرة الأخيرة وانتخب  
م . كلوديوس تاسيتس M. Claudius Tacitus وارتضاه الجيش ، وقاد  
حملة موفقة ضد الألان Alans ( قبيلة من المنبريين الرحل ، استقروا في  
جنوب شرقي روسيا في القرون الثلاثة الميلادية الأولى ) ثم انتخب الجيش  
بعد مقتله م أوريليوس بروبوس M. Aurelius Probus . وقد احرز  
انتصارات في الراين والدانوب قبل ان يقتل في سيرميوم Sirmium .  
ومات خلفه م أوريليوس كاروس Carus في ظروف غامضة في بداية  
حملة ضد فارس . واعقبه اولاده من بعده . على ان جماعة من الضباط  
في خلقدونية انتخبوا س . أوريليوس فاليريوس ودقلديانوس . وحكم  
كارونيوس الابن الذي بقى بعد أبيه كاروس ، حكم فترة في الغرب .  
وانتصر دقلديانوس في معركة مارجوس Margus ومن ثم أصبح السيد  
الأوحده في عالم الرومان . وقد ورد ذكر هذا كله في الفصل الثاني  
عشر . وقد حذف من هذا المختصر .



# النظام الإمبراطوري الجديد





## الفصل الثالث عشر

( ٢٨٥ - ٢١٢ م )

حكم دقلديانوس وشركائه الثلاثة : انتصاره وتنظيمه الجديد

نشوء مراسم البلاط . اعتقال دقلديانوس . اضمحلال الفنون

كان عصر دقلديانوس ازهى من أى عصر من عصور أسلافه ، كما كان مولده كذلك أكثر غموضا وخسة . وكثيرا ما حلت ادعاءات الجدارة والموهبة والعنف - نقول حلت تلك الادعاءات العريضة محل الميزات المثالية للنبل والشرف . ولكن حاجزا واضحا فاصلا كان لا يزال حتى الآن قائما بين الحر والعبد من بنى الانسان . لقد كان آباء دقلديانوس عبيدا في بيت أنولينوس Anulinus وهو شيخ روماني من أعضاء السناتو ، ولم يكن دقلديانوس نفسه يتميز بأى اسم آخر غير هذا الذى اشتقه من مدينة صغيرة في دلماشيا ، حيث كان منبت أمه ، ومن المحتمل على أية حال أن يكون أبوه قد حصل على حرية الأسرة ، وأنه حصل كذلك بسرعة على وظيفة كاتب ، التى كان يشغلها عادة أشخاص من أمثاله . وألهمت كلمات الوحي الطيبة ، أو قل حسن ادراكه لمواهبه السامية ، ألهمت الابن المتطلع ليسلك طريق الجندية ويتعلق بأمانى الحظ السعيد . وقد يكون من أعجب العجب أن نتعقب تدرج الأساليب والأحداث التى مكنته آخر الأمر من تحقيق النبوءات وإظهار هذه المواهب للعالم أجمع . فقد ارتقى دقلديانوس على التوالى الى حكومة ماسيا Maesia ثم الى مرتبة القنصل ، ثم الى قيادة حرس انتصر ، وهى وظيفة خطيرة الشأن . وقد تجلت قدرته وكنايته في حرب

فارس . وبناء على اعتراف منافسيه وحكمهم ، وبعد موت نومريان Numerian ، أعلنوا أنه - وهو العبد - أجدر شخص بعرش الامبراطورية . وعلى حين دمغت الغيرة الدينية المشوبة بالخبت والحقد، زميله مكسيميان Maximian بالقسوة الوحشية فانها عملت على القاء ظلال من الشك في شجاعة الامبراطور دقلديانوس الشخصية . وليس من اليسير أن تقتنع بجبن جندي من جنود الحظ ، حظى بتقدير الفرق ، ويحب كثير من الأمراء المحاربين ، في وقت معا . ولكن الوشاية تقتنر عادة بقدر من الفطنة والذكاء يجعلها قادرة على اكتشاف أضعف الجوانب ومهاجمتها . ولم تقصر همة دقلديانوس به يوما عن النهوض بواجبه ، أو عن مواجهة أية مناسبة طارئة ، ولكنه لم يبد أنه قد أوتى الروح الجريئة الكريمة لبطل يرحب بالخطر وينشد الشهرة ، ويحتقر التصنع ، ويتحدى في جراءة ولاء النظراء ، فكانت مواهبه نافعة أكثر منها باهرة أو بارزة . وكان ذا عقل راجح تصقله وترقى به التجربة ودراسة البشر ، مع سعة الحيلة وتطبيق العلم على العمل ، ومزيج معقول من السخاء والاقتصاد ، ومن الرقة والصرامة ، ورياء عميق تحت ستار من الصراحة العسكرية ، وجلد على تحقيق الغايات مع مرونة في تنويع الوسائل ، وفوق كل هذا ، تفنن عظيم في اخضاع أهوائه وأهواء الآخرين لمصلحة أطماعه ، وفي صيغ هذه الأطماع بأشد الادعاءات خداعا ، مدعيا أنها من أجل العدالة والمصلحة العامة . ويمكن أن يعتبر دقلديانوس ، مثله في ذلك مثل أوغسطس ، مؤسسا لامبراطورية جديدة ، وتميز - كما تميز ابن قيصر المثبني - بأنه رجل دولة وسياسة أكثر من رجل حرب وطعان ، فان أحدا من هذين الأميرين لم يستخدم القوة حيثما تحققت أغراضه بالسياسة .

وقد تميز انتصار دقلديانوس بالاعتدال الفريد في بابيه . فان الناس الذين تعودوا أن يبتدحوا الفاتح ورحمته اذا أنزلت عقوبة الموت أو النفي أو المصادرة في شيء من المساواة والرفق ، شهدوا - لشدة دهشتهم واغبتابهم - حربا أهلية يخمد أوارها في ساحة القتال . فقد وثق دقلديانوس في أرسطوبولوس الوزير الأول في بيت كساروس ، واحترم حياة أعدائه وأموالهم ومكانتهم ، بل أبقى على الجزء الأكبر من أتباع كارينوس في مناصبهم . وليس من غير المحتمل أن بواعث الفطنة والتبذير قد ساعدت روح الانسانية لدى هذا الدلماشي الداهية المحتال ، فان كثيرا من هؤلاء الأتباع اشتروا حظوتهم لديه بالخيانة المستورة ، كما أنه قدر في آخرين اخلاصهم واعترافهم بفضل سيده منكود بائس . وكان أوريليان وبروباس وكاروس بفضل بصيرتهم

النافذة قد ملأوا ادارات الدولة والجيش بموظفين ذوى مواهب معترف بها ، ممن كان اخراجهم من وظائفهم يضر بالخدمة العامة ، دون أن يحقق أية مصلحة لمن يتولى العرش بعدهم . وقد أظهر مثل هذا السلوك ، على أية حال ، للعالم الرومانى أجمل جوانب الحكم الجديد ، وتظاهر الامبراطور بتوكيد هذا الارث المحمود حين أعلن أنه — من بين فضائل وسجايأ أسلافه ، كان يطمع أكثر ما يطمع فى محاكاة فلسفة ماركوس أنطونينوس القائمة على الخير والاحسان .

ويبدو أن أول عمل هام قام به قد أوضح اخلاصه واعتداله معا . ذلك أنه حذا حذو ماركوس فجعل من مكسيميان Maximian زميلا له ، وأضفى عليه فى البداية لقب قيصر ، ثم لقب أوغسطس فيما بعد ، ولكن بواعث هذا السلوك والشخص الذى اختاره ، كانت تختلف كل الاختلاف عن بواعث واختيار سلفه موضع اعجابيه . فإن ماركوس ، بتوليته شابا مترفا على العرش ، قد دفع فى الواقع دين الاعتراف بالفضل الخاص ، على حساب سعادة الدولة . ولكن دقلديانوس ، بإشراكه صديقا ورفيق سلاح فى مهام الحكم ، قد أعد العدة للدفاع عن الشرق والغرب على السواء ، اذا ما أهدق أى خطر داهم . فقد ولد مكسيميان مثل أوريليان فلاحا فى مقاطعة سرميوم . فكان أميا لا يعبأ بالقوانين ، وكانت سداجة مظهره وسلوكه ، تفضح ، حتى فى أسمى مراتب حظه ، وضاعة نشأته . ولم يحذق الا فن الحرب . وقد اشتهر موقفه فى كل بقعة من حدود الامبراطورية ، طوال سننى خدمته الكثيرة الحافلة ، ورغم أن مواهبه العسكرية كانت أليق بالطاعة أكثر منها بالقيادة ، وأنه لم يرق الى مهارة قائد بلغ حد الكمال ، فإنه ، بفضل عزيمته وثباته وخبرته ، استطاع أن ينهض بأشق الأعباء . كما أن مساوئ مكسيميان لم تكن أقل نفعاً لولى نعمته . فقد كان لا يستشعر الشفقة ولا يتهيب العواقب ، ومن ثم أصبحت فى يد سيده الأداة الطيبة المستعدة لكل عمل من أعمال القسوة توصى به وتتصل منه معاً سياسة الأمير الداهية المحتال . فما أن تضحى على مذبح الحذر أو الانتقام فريسة ، حتى يسارع دقلديانوس بشفاعته التى يؤديها فى وقتها الى انقاذ الفئة القليلة الباقية من الأفراد الذين لم يفكر قط فى انزال العقاب بهم ، ثم ينحى باللائمة فى وداعة ورفق على زميله العنيد ويندد بقسوته ، وينعم بالمقارنة بين العصر الذهبى ( أى حكمه هو ) وعصر الحديد ( أى حكم زميله ) ، كما نعتها الناس ، على أساس مبادئها المتناقضة فى الحكم . ورغم تباين شخصيتى الامبراطورين ، فقد احتفظا وهما على العرش بهذه الصداقة التى كانت تربط بينهما منذ كانا رفيقى سلاح . فقد ألف

مكسيميان — بما ركب فيه من صلف وهوج وتهيج ، مما كان سببا في القضاء عليه وعلى السلام العام — ألف أن يحترم ذكاء دقلديانوس وعيقرينه ، واعترف بسيادة منطق العقل على منطق العنف الوحشى .  
ولسنا ندرى أهو بدافع من الزهو أو باعث من الخرافة أن اتخذ الواحد منهما لنفسه لقب جوفيويس Govius والثانى لقب هرقلوليوس Hercules وبينهما كان جوبيتز يصون حركة العالم بحكمته المحيطة بكل شىء ( هكذا كان يقول خطباؤهما المرتشون ) كانت يد هرقلوليوس التى لا تقهر ، تبطش بالطفاة والجبابرة وتطهر الأرض منهم .

ولكن حتى القدرة على كل شىء عند جوفيويس وهرقلوليوس ، لم تكن كافية لاحتمال ثقل الادارة العامة . فقد اكتشفت فطنة دقلديانوس أن الامبراطورية التى يقتحمها المتبربرون من كل جانب تتطلب فى كل ناحية منها جيشا كبيرا وامبراطورا . وفى ضوء هذا التفكير عقد العزم مرة أخرى على تقسيم السلطة المربكة المتشعبة . وتوزيع السيادة العليا ، على قدم المساواة ، بين قائدين موهوبين مشهود لهما بالفضل ، على أن يكون لكل منهما لقب أدنى مرتبة وهو « قيصر » . أما الشخصان اللذان جباها بمرتبة الشرف الثانية فى السدة الامبراطورية ، فهما جالريوس ، وكنيته أرمناريوس ، وكان فى الأصل يشتغل برعى الماشية ، وقسطنطيوس Constantius الذى بلغ من شحوب وجهه أن سموه كلورس Chlorus . وفى وصفنا لبلاد هرقلوليوس ومنبته وخلقه ، نكون كذلك قد وفيينا جالريوس حقه فى هذه النواحي . وكثيرا ما كان يسمى ، ويحق ، مكسيميان الأصفر ، ولو أنه أثبت فى مناسبات كثيرة أنه يفوق الأكبر فضلا وكفاية ، بشكل واضح . أما منبت قسطنطيوس فكان أقل غموضا من أقرانه . فقد كان أبوه يتروبيوس Eutropius من أكبر أشراف دردانيا Dardania ، وكانت أمه ابنة أخت الامبراطور كلوديوس . وقضى قسطنطيوس شبابه فى خدمة الجيش ، ولكنه كان على خلق رضى رقيق . وقد اعترف الناس بجدارته بهذه المرتبة الرفيعة التى بلغها فى النهاية . ورغبة فى توثيق أوامر الوحدة السياسية بالوحدة الداخلية الأسرية ، انتحل كل من الامبراطورين صفة الوالد لأحد القيصرين : دقلديانوس لجالريوس ، ومكسيميان لقسطنطيوس . والزمنا كما منهما بطلاق زوجته السابقة ، ورهب كل منهما ابنته زوجة لابنه بالتبنى . واقتسم هؤلاء الأمراء الأربعة فيها بينهم أركان الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، فعهد الى قسطنطيوس بالدفاع عن الغال واسبانيا وبريطانيا ، واتخذ جالريوس من صفاف الدانوب مركزا له ليكون وقاية لولايات الليريا . واعتبرت ايطاليا واثريقية نطاق حكم

مكسيميان ، واحتفظ دقلديانوس بترافيا ومصر واقطار آسيا الغنية ، نصيبا خاصا به . وكان كل منهم ملكا وسيدا في نطاق ولايته الشرعية ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على المملكة بأسرها ، وكان كل منهم على أتم استعداد لمعاونة زملائه بمشورته أو بحضوره . وعرف القيصران ، في مكانهما الرفيع ، للامبراطورين جلالهما وعظمتهم ، أما الأمراء الثلاثة الصغار ، فقد اعترفوا ، على قدم المساواة بأبيهم المشترك ومقدر حظوظهم ، فالتزموا طاعته وعرفوا له أياديه البيضاء عليهم . ولم تجد الغيرة المرتابة التي تنترن بالسلطة والقوة طريقها اليهم ، أو مكانا بينهم قط ، حتى لقد قورنت وحدتهم السعيدة بفرقة موسيقية حافظت مهارة الفنان الأول فيها على التناسق والانسجام بينها ، وضبطتها .

ولم يتم هذا الاجراء الهام الا بعد ست سنوات من اشراك مكسيميان . على أن هذه الفترة من الزمن لم تخل من أحداث تذكر . ولكننا ، زيادة في الايضاح ، آثرنا أن نصف ، أولا الشكل الأدق المحكم في عهد دقلديانوس ، ثم نردفه بأعماله ، متبعين في ذلك الترتيب الطبيعي للأحداث أكثر من التسلسل التاريخي المشكوك فيه .

أحمد مكسيميان ثورة الفلاحين في الفال ، وكان كاروسوس Carausius قد سيطر على أسطول القتال (بحر الشمال) ، فانتحل لنفسه صفة الامبراطور في بريطانيا ، ولكن قتله انتهى باستعادة قسطنطيوس لبريطانيا . وحى القيصران حدود الراين والدانوب . ووجه دقلديانوس اهتمامه نحو الشرق بعد أن أحمد ثورة في مصر ، ونصب حاكما صديقا هو تيريدانس Tiridates على أرمينيا ، وتنازل لفارس عن الولايات الواقعة فيما وراء دجلة ، وعقد معها صلحا دام أربعين عاما .

### انتصار دقلديانوس ، ونظامه الجديد

وما وافت السنة العشرون من حكم دقلديانوس حتى احتفل بهذه الفترة المشهودة وبظفر جيوشه في موكب نصر روماني . ولم يشاركه في جلال هذا اليوم وبهائه الا مكسيميان شريكه المتكافئ معه في القوة والسلطة . وقد حارب القيصران وفتحا — ولكن ، تبعا لصرامة المبادئ القديمة ، نسب الفضل في كل منجزاتها الى النفوذ الموفق والطالع السعيد لأبويهما وامبراطوريهما . وربما كان انتصار دقلديانوس

ومكسيميان أقل فخارا من انتصار أوريليوس وبروبوس ، ولكن عذرة ظروف أضفت على الأول شهرة أكبر وحظا أسعد ، فقد أقيمت الأنصاب التذكارية في أفريقية وبريطانيا والراين والدانوب والنيل . ولكن أبرز زينة وأبهى احتفال كانا ذوى طبيعة فريدة : انتصار في فارس أعقبه فتح مابين ، فحملت أمام العربية الامبراطورية رسوم الأنهار والجبال والولايات . وثمة مشهد جديد أرضى غرور الشعب : زوجات كسرى العظيم وأخواته وأطفاله ، ممن وقعن أسيرات . وهذا انتصار مشهور مذكور لدى الذراري والأعقاب ، لأنه ينفرد بميزة أدنى شرفا وأقل مجدا . ذلك أنه كان آخر انتصار شهدته روما . فقد توقف الأباطرة بعد هذه الفترة عن قهر الأعداء ، وتوقفت روما عن أن تكون عاصمة الامبراطورية .

وكانت البيعة التي أسست عليها روما قد اختصت بطقوس قديمة ومعجزات موهومة . فبدأ أن وجود اله ما ، أو ذكرى أى بطل ما أنعش كل أرجاء المدينة وبعث فيها الحياة . وأن الكابيتول قد وعد بامبراطورية العالم . وأحس المواطنون الرومان بقوة هذا الوهم المقبول وأقروه . فقد نبع من آباءهم الأولين ، ونما وترعرع مع أقدم عادات حياتهم ، ثم رعته وتعهده ، الى حد ما ، فكرة المنفعة السياسية . وكان كيان الحكومة ومقرها ممتزجين الواحد منهما بالآخر مزجا شديدا . ورثى أنه لم يكن من الميسور نقل أحدهما دون تدمير الآخر . وتقلصت مع الأيام سيادة العاصمة بالتوسع في الفتوح ، وارتقت الولايات الى نفس المستوى ، وحصلت الامم المقهورة على الاسم والامتيازات دون أن تتغذى بهشاعر الحب والتعلق التي وضعها الرومان . على أن بقايا الدستور القديم وتأثير العرف حافظا على مكانة روما لفترة طويلة . ورغم أن الأباطرة كانوا قد نشأوا في أفريقية أو في الليريا ، فانهم احترموا البلاد التي تبناها ، بوصفها مقراً لسلطانهم وقوتهم ، ومركز أملاكهم الشاسعة . وكثيرا ما اقتضت طوارئ الحرب وجودهم على الحدود ، ولكن دقلديانوس ومكسيميان كانا اول الأباطرة الرومان الذين حددوا اقامتهم العادية في الولايات في زمن السلم . ومهما كان من بواعث خاصة وراء سلوكهما هذا ، فقد برراه باعتبارات سياسية نطقوها تمويها . فاستقر بلاط امبراطور الغرب ، على الاغلب ، في ميلان ، حيث بدا موقعها في سفح جبال الالب أفضل من موقع روما ، تحقيقا لغرض هام هو مراقبة حركات المتبربرين في ألمانيا . وسرعان ما انتحلت ميلان بهاء المدينة الامبراطورية وفخامتها . فوصفت الدور بالوفيرة وجبال البناء ، ووصف سلوك الشعب بالتهذيب والصقل والسخاء .

وزاد في رواء العاصمة الجديدة السيرك والمسرح ، ودار سك النقود ،  
والقصر ، والحمامات ، التي حملت اسم سيدها مكسيميان ، الى جانب  
الأروقة التي زينت بالتماثيل والأسوار المزودة التي أحاطت بها ،  
كذلك يبدو أنه لم يضايقها قربها من روما . وكان دقلديانوس كذلك  
يطمع في منافسة عظمة روما ، وكان قد استغل أوقات فراغه كما استخدم  
ثروة الشرق في تجميل نيقوميديا ، وهي مدينة تقع على حافة أوربا  
وآسيا ، على مسافة تكاد تكون واحدة بين الدانوب والفرات . وفي  
بضع سنين قليلة بلغت نيقوميديا درجة من الفخامة ارتضاها ذوق الملك ،  
ودفع ثمنها الشعب ، حتى بدأ أنه قد تم في بضع سنين ما كان انجازه  
يتطلب جهد العصور ، وباتت نيقوميديا أقل من روما والاسكندرية  
وأنطاكية في كثافة السكان فقط . وكانت حياة دقلديانوس ومكسيميان  
حياة جد وعمل ، ولقد قضيا جزءا كبيرا منها في المعسكر ، أو في  
مسيراتهم الطويلة الكثيرة ، حتى اذا سمحت الأعباء العامة لهما ببعض  
الاسترخاء والاستجمام سعدا باللجوء الى مقرهما المفضل الأثير في  
نيقوميديا وميلان . ومن المشكوك فيه كثيراً أن يكون دقلديانوس قد  
زار روما العاصمة القديمة للإمبراطورية الى أن احتفل بيوم النصر في  
العام العشرين من حكمه ، وحتى في هذه المناسبة المشهودة لم تطلق  
اقامته فيها لأكثر من شهرين . وضاق ذرعا واستاء من فجور الناس في  
رفع الكلفة ، فغادر روما قبل الموعد الذي كان متوقعا أن يحضر فيه  
الى السناتو ليضعوا عليه شعارات مرتبة القنصل ، بنحو ثلاثة عشر  
يوما .

ولم يكن المقت الذي أبداه دقلديانوس نحو روما ونحو الحرية  
الرومانية نتيجة لنزوة عابرة ، بل كان نتيجة لأعظم دهاء في السياسة .  
فقد ابتدع هذا الأمير المحتال أسلوبا جديدا للحكومة الإمبراطورية ،  
استكملته فيما بعد أسرة قسطنطين ، ولما كان شبح الدستور القديم  
محفوظا في السناتو يحوطه التقديس والأجلال ، فقد صمم على أن يحرم  
هذا النظام من بقايا قوته وأهميته . وقد نعود بذاكرتنا الى ما قبل  
ارتقاء دقلديانوس على العرش بثمانى سنوات، الى عظمة السناتو الزائفة  
وآماله العريضة . وما دام هذا الحماس سائدا ، فقد اندفع كثير من  
النبلاء في اظهار غيرتهم على الحرية . وبعد أن سحب خلفاء بروبوس  
تعضيدهم عن الحزب الجمهورى ، لم يعد أعضاء السناتو قادرين على  
اخفاء استيائهم العاجز . وعهد الى مكسيميان — بوصفه ملك ايطاليا —  
بقمع هذه الروح المزعجة ، ولو أنها ليست خطيرة . والحق أن هذه  
المهمة التأممت كل الالتئام مع طبعه العنيف القاسى ، فأخذ مكسيميان المع

شيوخ السناتو الذين تظاهر دقلديانوس بتقديره لهم ، بتهمة الاشتراك في المؤامرات الوهمية . وكان اقتناء دار فخية أو ضيعة معننى بزراعتها يفسر على أنه دليل قاطع على الجريمة . وبدأ معسكر البريتوريين يحمى مكانة روما بعد أن كان ردحا طويلا من الزمن أداة ظلم لها ، ولما كانت هذه الفرق المتفطرة تدرك اضمحلال سلطانهم فانهم جنحوا بطبيعة الحال الى التوحيد بين قوتهم وبين سلطة السناتو . وتناقص عدد البريتوريين بطريقة غير ملحوظة طبقا لاجراءات الحيطة والحذر التي اتخذها دقلديانوس ، كما ألغيت امتيازاتهم ، وحل محلهم فرقتان مخلصتان موثوقتان من الليريكوم ، عينتا للقيام بمهام الحرس الامبراطوري ، تحت اسم جديد : « الجوفيانيون والهرقوليون » ولكن أتمى طعنة مميتة تلقاها السناتو من يد دقلديانوس ومكسيميان ، ولوا أنها طعنة خفية ، هي غيابهما المحتوم الذى لا مناص منه . فطالما سكن الأباطرة روما، فمن الجائز أن يعانى هذا المجلس شيئا من الظلم والجور، ولكن لا يغفل أمره قط . ولقد مارس خلفاء أوغسطس سلطة فرض القوانين التى ترتضيها حكمتهم أو توسوس بها نزواتهم ، ولكن اجازة هذه القوانين كانت تتم بعد اقرار السناتو لها : وبقي النموذج القديم للحرية ماثلا فى مناقشاته وقراراته . والى حد ما اضطر الأمراء الحكماء الذين احترمو آراء الشعب الرومانى ، الى انتحال السلوك وأسلوب الكلام اللذين يليقان بهذا المصدر العام الأول للحكم فى الجمهورية . انهم فى الولايات ومع الجيوش اظهروا أبهة الملك ورفعمة السلطان ، ولكنهم اذا اتخذوا مقرا لهم بعيدا عن العاصمة ، نبذوا الى الأبد ذلك الرياء أو التصنع الذى أوصى به أوغسطس خلفاءه . فتداول الملك مع وزرائه فيما يتعلق بممارسته لسلطته التنفيذية والتشريعية على حد سواء ، بدلا من التشاور مع المجلس الموقر للأمة . وقد أحيط اسم السناتو بالتكريم والتبجيل حتى نهاية عهد الامبراطورية . وكانت الامتيازات الشرفية لا تزال تشبع غرور الأعضاء ، ولكن المجلس الذى طالما كان مصدر السلطة وأداتها آذن بالتردى فى زوايا النسيان فى خشوع واجلال ، وبقي سناتو روما ، بعد أن فقد صلته بالبلاط الامبراطورى وبال دستور الفعلى تحفة جليلة عديمة النفع من الآثار القديمة ، فوق تل كابيتولين .

وقد سهل على أمراء الرومان — وقد تخلوا عن السناتو وعن عاصمتهم القديمة فلم يعودوا يرون منهما شيئا — أن ينسوا مصدر سلطتهم الشرعية وطبيعتها . فسان الوظائف المدنية : القنصل ، والبروقنصل ، والمراتب ، والتربيون ، — تلك التى شكلت باتحادها معا



هذه السلطة — هي التي فضحت للشعب نشأتها الجمهورية . وطرحت هذه الألفاظ المتواضعة جانبا ، وإذا كانت قد احتفظت بمقامها الرفيع تحت اللقب الفخم « الامبراطور » فان هذه الكلمة قد فهمت بمعنى جديد أسمى ، ولم تعد تدل على قائد الجيوش الرومانية ، بل على سيد العالم الرومانى . وارتبط اسم « الامبراطور » الذى كان فى بداية الأمر ذا طبيعة عسكرية — باسم آخر من طراز أكثر ذلة . ولم يكن لقب دومينوس **Dominus** أو سيد **Lord** فى دلالاته البدائية ، يعنى سلطان الأمير على رعاياه ، أو القائد على جنوده ، ولكنه كان يعبر عن السلطة الاستبدادية المطلقة للسيد على عبيده المحليين . وعلى أساس هذه النظرة الكريهة ، رفضه القياصرة الأولون ، مقتنا ونفورا . ولكن ضعفت مقاومتهم بشكل غير ملحوظ ، وأصبح الاسم أقل مقبلا ، حتى ان اسم « سيدنا وامبراطورنا » لم يعد فى النهاية يسبغ ملقا ورياء فحسب ، بل أدخل كذلك فى القوانين والآثار العامة . وكانت مثل هذه الألقاب الرفيعة كافية لترضى وتشبع أشد الفرور ، وإذا كان خلفاء دقلديانوس قد ظلوا يتخلون عن لقب « ملك » ، فيبدو أن هذا لم يكن راجعا الى اعتدالهم ، أكثر منه الى ضعفهم . وحيثما استخدمت اللغة اللاتينية ( وقد كانت لغة الحكومة فى مختلف أرجاء الامبراطورية ) كان لقب « امبراطور » — وهو خاص بهم أنفسهم — يحمل فكرة الاجلال والاكبار أكثر مما يحمل لقب « ملك » الذى ربما شاركوا فيه مائة من رؤساء المتبربرين أو على أحسن الفروض ، أخذوه عن رميلوس وتاركين ، وكانت العواطف والأحاسيس تختلف فى الشرق عنها فى الغرب . ومنذ أقدم عصور التاريخ كان حاكم آسيا يكرمونه فى اللغة اليونانية بأن يطلقوا عليه لقب « باسيليس » **Basileus** أو «ملك» . ولما كان هذا اللقب يعتبر أرفع مقام بين الرجال ، فان أهل الولايات التابعين الخاضعين سرعان ما استخدموه فى مخاطباتهم المتواضعة الى العرش الرومانى ، واغتصب دقلديانوس ومكسيميان حتى صفات « الألوهية » أو على الأقل ألقابها ، ونقلوها الى سلسلة متعاقبة من أباطرة مسيحيين ممن جاءوا فيما بعد ، على أن هذه المدائح والتحيات المسرفة سرعان ما تفقد روعتها بضياح معناها ، حتى إذا الفت الأذن يوما رنينها ، استمعت اليها فى استهتار ، وكأنها احترام غامض مسرف للاجلال والاحترام .

## نشوء مراسم البلاط

كان أمراء الرومان ، من عهد أوغسطس الى عصر دقلديانوس يتحدثون بشكل علني مألوف مع بنى وطنهم ، الذين كانوا يحيونهم ويسلمون عليهم بنفس الاجلال الذي حيوا عادة به شيوخ السناتو والقضاة والحكام ، ليس غير . وكان امتيازهم الاساسي يتمثل في الحلة الامبراطورية الأرجوانية ، على حين تميز رداء الشيوخ بشريط عريض ، ورداء العسكرية بشريط ضيق ، من نفس هذا اللون الممتاز . وزين الفرور ، أو بالأحرى السياسة ، لهذا الأمير الداهية ادخال نظام بلاط فارس بما فيه من فخامة وأبهة وسناء . وتجاوز فاتخذ لنفسه التاج ، وهو عبارة عن حلية مقتها الرومان بوصفها رمزا كريها للملكية ، كما اعتبروا استخدام كاليجولا له ذروة الجنون والجرأة . ولم يعد التاج أن يكون عصابة عريضة بيضاء مرصعة باللؤلؤ تحيط برأس الامبراطور . وكانت الملابس الفاخرة لدقلديانوس وخلفائه تتخذ من الذهب والفضة ، وكان الملحوظ ، مع اشد الاستياء ، أنه حتى أحذيتهم كانت مرصعة بأثمن الجواهر . وكان الوصول الى أشخاص المقدسة يزداد صعوبة يوما عن يوم ، بابتداع الأشكال والمراسم الجديدة . وكانت تقوم على حراسة مداخل القصر ، حراسة شديدة ، طوائف - بدعوا يسمونها مدارس Schools - من الضباط المحليين . أما الغرف والحجرات الداخلية فقد عهدوا بحراستها الى يقظة الخصيان ، تلك التي تتسم بالحدق والغيرة ، وكان تزايد عدد هؤلاء الخصيان ونفوذهم ، أصدق أعراض تفاقم الاستبداد . فإذا حظى أى فرد من الرعية ، في النهاية بالثول بين يدي الامبراطور ، كان عليه ، مهما كانت مكانته أو مقامه ، أن يخر الى الأرض ساجدا ، وأن يسبح ، وفقا للطريقة الشرقية ، بقداسة سيده ومولاه . وكان دقلديانوس رجلا فطنا حسن الادراك ، عرف لنفسه قدرها ، كما عرف للناس أقدارهم ، بالعدل والقسطاس ، في مجال الحياة الخاصة والحياة العامة ، سواء بسواء . كما أنه ليس من السهل أن تتصور أنه كان في احلاله العادات الفارسية محل عادات روما ، مدفوعا اندفاعا جديا بعبداً وضيق مثل مبدأ الزهو أو الفرور . انه كان يعلل النفس بأن التظاهر بهذه الفخامة والابهة والشرف قد يقهر خيال الجماهير ، وأن الملك قد يكون أقل تعرضا للإباحتية السجدة في الشعب والجيش ، اذا احتجب شخصه عن الأنظار العامة ، وأن عادة الخضوع والخنوع لابد أن تنبثق بطريقة غير ملحوظة عن مشاعر الاجلال والاحترام . على أن الحسالة التي ظهر عليها دقلديانوس ، مثل التواضع الذي اصطنعه أوغسطس ، لم تكن الا تمثيلا

مسرحيا ، ولكن لابد أن نعترف بأن المهزلة الأولى التي مثلها أوغسطس كانت ذات طابع أكثر رجولة وسخاء من تلك التي مثلها دقلديانوس فيما بعد ، لقد كان هدف الواحدة أن تخفى وتستر ، على حين كان غرض الثانية أن تكشف وتعرض ، السلطان المطلق غير المحدود الذي كان للباطرة في العالم الروماني .

وكان حب الظهور أول مبادئ النظام الجديد الذي استقته دقلديانوس . أما الثاني فكان التقسيم ، فقسم الإمبراطورية والولايات ، وكل فرع من فروع الإدارة المدنية أو العسكرية . فضاعف عجلات الأداة الحكومية ، وجعل عملياتها أقل سرعة ولكن أكثر سلامة وأمنا . ومهما كان من مزايا أو مساوىء هذه المبتكرات فإنه يجدر أن ننسبها — الى جد كبير — الى المبدع الأول ، ولكن الأمراء المتعاقبين حسنوا وأكملوا على مر الأيام الاطار الجديد للسياسة ، ومن ثم كان من الأوفى أرجاء دراستها حتى يتم نضجها واكتمالها . وما دمنا استيقينا لعصر قسطنطين ، الصورة الأدى للإمبراطورية الجديدة ، فإننا نكتفى بوصف التخطيط الرئيسى الحاسم الذى سعى اليه دقلديانوس . لقد أشرك فى ممارسة السلطة العليا ثلاثة من الزملاء ، ولما كان مقتنعا بأن قدرات أى فرد واحد لا تكفى للاضطلاع بعبء الدفاع العام ، فإنه اعتبر الإدارة المشتركة للأمراء الأربعة ، لا مجرد وسيلة مؤقتة ، بل قانونا أساسيا فى الدستور . وكان من رأيه أنه يجب تمييز الأميرين الأكبرين باستخدام التاج ولقب أوغسطس ، وأن يختارا بانتظام لمعاونتهما ، حبا أو تقديرا ، زميلين تابعين ، وأن يرقى هذان القيصران بدورهما الى المرتبة الأولى ( أوغسطس ) بحيث لا ينقطع تعاقب الأباطرة . وقسمت الإمبراطورية الى أربعة أجزاء ، كان الشرق وإيطاليا أشرف المراكز ، والسدانوب والراين أشقتها . وتطلب الأولان وجود أوغسطس ، على حين عهد بإدارة الآخرين الى القيصرين . وكانت قوة الجيش موزعة بين شركاء السيادة الأربعة . وقد يحد من طموح أى قائد متطلع يأسه من قهر المنافسين الأربعة الأشداء الواحد بعد الآخر — وكان المفروض — فيما يتعلق بالحكومة المدنية ، أن يمارس الإمبراطوران سلطة الحاكم التي لا تتجزأ ، وأن أوامرها الممهورة بتوقيعيهما تنلقاها الولايات وكأنها صادرة عن مجالسهما وسلطاتهما المتبادلة . ورغم هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية فى العالم الروماني شيئا فشيئا ، وساد مبدأ التقسيم الذى كان ، فى بضع سنين قلائل ، سببا فى الفصل الدائم بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية .

واقترن نظام دقلديانوس بعيب آخر هام جدا ، لا يمكن التغاضي عنه جملة واحدة حتى في الوقت الحاضر ، وهو فداحة تكاليف الإدارة الحكومية ، وتفاقم الزيادة في الضرائب ، وظلم الشعب . وبدلا من أسرة متواضعة من العبيد والأحرار، مثل تلك ارتضتها بساطة عظيمة أوغسطس وتراجان ، شيد بلاط فخم في ثلاثة أو أربعة أركان من الامبراطورية ، وتطاحن عدد من ملوك الرومان بعضهم مع بعض ومع ملك الفرس على التفوق العاطل العقيم في مجال الأبهة والبذخ . وتضاعف — بشكل لم يسبق له مثيل في العصور الخوالي — عدد الوزراء والحكام والموظفين والخدم ، لملء مصالح الدولة وإداراتها . وإذا جاز لنا أن نستعير عبارة حماسية لأحد المعاصرين ، فهو يقول : « إذا رجحت نسبة أولئك الذين يأخذون نسبة من يعطون ، فقد وقع على الولايات حيف كبير من فداحة الجزية » . وقد يكون من الميسور أن نستنتج ، منذ هذه الفترة حتى سقوط الامبراطورية ، سلسلة لا تنقطع من الصرخات والشكاوى . ويختار كل مؤرخ ، تبعا لديانته وموقفه ، واحدا من هؤلاء موضوعا لذمه ولعنته : دقلديانوس ، أو قسطنطين ، و فالينس Valens أو تيوديسيوس ، ولكنهم متفقون بالاجماع على تصوير ثقل التكاليف المفروضة على الناس ، وبخاصة ضريبة الأرض وضريبة الرأس ، على أنهما الحيف المتفاقم الذي لا يحتمل في أيامهم ، ولا شك في أن المؤرخ النزيه المتجرد المضطر الى استخلاص الحقيقة من بين سطور القدح والمدح أو التهمم والثناء على حد سواء ، سينجى الى توزيع اللوم على هؤلاء الأبراء المتهمين جميعهم ، وأن يرجع هذا الابتزاز والاعتصاب الى أسلوبهم الموحد في الإدارة أقل كثيرا مما ينسبه الى مساوئهم الشخصية . والحق أن الامبراطور دقلديانوس كان منشيء هذا النظام ، ولكن في اثناء حكمه كانت بذور الشر محصورة داخل نطاق من التواضع والحزم ، فهو يستحق اللوم على وضع هذه السوابق الخبيثة أكثر منه على ممارسة الظلم والجور فعلا . وقد نضيف أن تصرفه في موارده كان يتسم بالاقتصاد والتدبير والحرص ، وأنه قد تبقئ في الخزائن الامبراطورية ، بعد سداد المصروفات الجارية ، رصيد للسخاء المعتدل الحكيم ، أو لاية ملمة طارئة تنزل بالدولة .

### اعتزال دقلديانوس ووفاته

وفي السنة الحادية والعشرين من حكمه ، نفذ دقلديانوس قراره المشهور في اعتزال الامبراطورية ، وهو عمل كان من الطبيعي توقعه من أنطونينوس الأكبر أو الأصغر ، منه من أمير لم يمارس أو يطبق دروس

الفلسفة ، لا فى الوصول الى السلطة العليا ، ولا فى استخدامها . وبذلك أحرز دقلديانوس قصب السبق وبلغ مناط المجد فى أنه قدم للعالم أول مثال فى الاعتزال ، وهو مثال قل أن اقتدى به من جاء بعده من الملوك . وطبيعى أن يقفز الى أذهاننا مثال شارل الخامس ، لا مجرد أن بلاغة مؤرخ حديث قد جعلت هذا الاسم مألوفا لدى القارئ الانجليزى فحسب ، بل كذلك من أجل الشبه الصارخ بين شخصيتى هذين الامبراطورين اللذين تسامت قدراتهما السياسية على عبقريتهما العسكرية ، ونبتت فضائلهما الخداعة المنمقة من الدهاء والاحتيال أكثر منها من الطبيعة . ويبدو أن تقلبات الحظ هى التى عجلت باعتزال شارل الخامس ، وأن خيبة أمله فى مشروعاته الأثيرة لديه دفعته الى التنحي عن السلطة ، التى وجدها لا تتناسب مع أطماعه . ولكن حكم دقلديانوس مضى فى فيض لم ينقطع من التوفيق والنجاح ، كما أنه يبدو أنه لم يراوده شئ من هذا التفكير الجدى فى اعتزال الامبراطورية ، الا بعد أن قهر كل أعدائه ، وأنجز كل مشروعاته . ولم يبلغ أى من شارل الخامس أو دقلديانوس أرذل العمر ، حيث كان الأول فى الخامسة والخمسين ، والثانى فى التاسعة والخمسين من العمر فحسب ، ولكن حياتهما الجادة النشيطة وحروبهما ورحلاتهما ، وهموم الملك وانصرافهما الى العمل ، كل أولئك هد من كيانهما وأصابهما بعلل الشيوخة المبكرة .

وغادر دقلديانوس ايطاليا — رغم قسوة شتاء قر مطير — بعد احتفال النصر مباشرة ، وبدأ تقدمه نحو الشرق ، دأثرا حول ولايات الليريا . واثباته من رداءة الجو ونصب السفر علة بطيئة ، ورغم أنه أبطأ السير وأخذ فى تقدمه شيئا من الراحة، وأنه كان بصفة عامة محمولا فى محفة مغلقة ، اشتدت عليه العلة قبل وصوله الى نيقوميديا حوالى نهاية الصيف ، وباتت تنذر بالخطر . واعتكف طوال الشتاء فى القصر ، وأثار الخطر المحقق به اهتماما عاما صادقا غير مصطنع . ولكن الناس لم يتبينوا التغير فى صحته الا من علامات الفرح أو التجهم التى اكتشفوها فى محيا أثباعه وفى سلوكهم . وقد صدق القوم عامة ، لبعض الوقت ، اشاعة موته ، وظنوا أنهم انما أخفوا موته درءا للمتاعب التى قد تنشأ من جراء غياب القيصر جاليوريوس . وأخيراً ، وفى أول مارس، ظهر دقلديانوس أمام الجماهير مرة أخرى ، ولكن على درجة من الشحوب والهزال ، لم يكد يتعرف عليه معها أكثر الناس معرفة لشخصه . وحن الآن الوقت لوضع حد للنزاع المرير بين العناية بصحته ورعاية مهام منصبه ، فاقترضت الأولى الرفق والراحة ، على حين أرغمت الثانية على

أن يتولى من فرائض المرض ادارة الامبراطورية الضخمة . ومن ثم اعترف  
أن يقضى بقية أيامه في راحة مشرفة ، وأن يضع مجسده فوق متناول  
الخط ، وأن يتخلى عن المسرح العالى لشركائه الذين هم أصغر سنا  
وأوفر نشاطا .

وأقيم احتفال تنازله عن الحكم في سهل فسيح على بعد نحو ثلاثة  
أميال من نيقوميديا . واعتزل الامبراطور عرشا سامقا . وفي خطاب ملىء  
بالمناطق والوقار ، أفصح عن عزمه الى الشعب والجنود الذين تجمعوا في  
هذه المناسبة الفريدة الخارقة . وما أن جرد نفسه من الحلة الأرجوانية  
حتى اختفى عن أعين الجماهير المحمقة ، واخترق المدينة في عربة مغطاة ،  
وجد السير دون ابطاء الى مأواه الأثير لديه والذي اختاره في مسقط  
رأسه دلماشيا . وفي نفس اليوم ، أى في أول مايو ، اعتزل مكسيميان ،  
ومقا لاتفاق سابق ، منصب الامبراطورية في ميلان . لقد فكر دقلديانوس  
في مشروع اعتزاله الحكم حتى وسط أبهة الانتصارات الرومانية . ولما  
أراد أن يؤمن انصياع مكسيميان ، استخلص منه اما توكيدا عاما بأن  
يخضع تصرفاته لسلطان ولى نعمته ، أو عهدا خاصا بأن ينزل عن  
العرش عندما يحين الوقت الذى ينبغى عليه فيه أن يتلقى النصح  
والقدوة . ورغم توكيد هذا التعهد بقسم غليظ أمام مذبح جوبيتر في  
الكابيتولين ، فقد كان من الجائز أن يكون قيادا هزيلا لمكسيميان ذى  
المزاج الحاد الشرس الذى كان حب السلطة منتهى هواه ، والذي لم  
يشته الهدوء السائد أو الشهرة في المستقبل ، ولكنه رضى ، مهما كان  
كارها ، للسيادة التى فرضها عليه زميله الذى هو أرجح عقلا ، وأوى  
فور اعتزاله الى دار في لوكانيا ( في جنوب ايطاليا ) حيث كاد يتعذر  
أن تجد مثل هذه الروح القلقة أية راحة دائمة .

وقضى دقلديانوس ذو المنبت الوضيع أعوامه التسعة الأخيرة من  
حياته ، معتكنا عن الحياة العامة . لقد أملى عليه العقل انسحابه —  
ويبدو أن القناعة لازمته فيه ، كما نعم فيه باجلال واحترام أولئك الأمراء  
الذين نزل لهم عن ملكية العالم . ونذر أن تعودت العقول التى كابدت  
أمدا طويلا مهام الأمور ، أن تتحدث الى نفسها وتجاهدها ، بل انها عند  
فقدان السلطة لتبكى حاجتها الى ما يشغلها ، وكانت لذات الأدب  
أو العبادة التى تملأ كثيرا فراغ العزلة ، عاجزة عن أن تسترعى انتباه  
دقلديانوس ، ولكنه احتفظ ، أو على الأقل سرعان ما استعاد هواه لأظهر  
المسرات والصقها بالطبيعة ، فقضى ساعات فراغه الى حد كاف في البناء  
والزراعة وفلاحة البساتين . وان جوابه الى مكسيميان لهو جواب

مشهود يستحق الذكر . فقد توسل اليه هذا الرجل العجوز أن يسترد زمام الحكم ، ويستعيد الحلة الأرجوانية ، ولكنه أبى أن يستجيب لهذا الاغراء بابتسامة مشفقة ، وأشار في هدوء الى أنه لو استطاع أن يرى مكسيميان الكرنب الذى زرعه بيديه فى سالونا ، فانه لن يعود يصفى لاي اغراء يثنيه عن التمتع بهذه السعادة طلبا للسلطة . وطالما اعترف فى مناقشاته مع أصدقائه بأن أشق من هو فن الحكم ، وعبر عن نفسه فى هذا الموضوع المحبب اليه فى حرارة لا بد أنها كانت نتيجة الخبرة والتجريب . وقد تعود أن يقول : « ما أكثر ما تقتضى مصلحة أربعة أو خمسة من الوزراء بأن يكتلوا ليفرروا بجليكهم ، فهو معزول فى مكانه الرفيع عن بنى الانسان ، ومن ثم يحتجب الحق عن ناظره ، فهو لا يرى الا باعين هؤلاء الوزراء ، ولا يسمع الا تمويهاتهم وأباطيلهم ، وأئسه يكرم أهل السوء والرذيلة والضعف والجور باسناد أخطر الوظائف اليهم على حين يمتن أفضل وأجدر رعاياه ، وبمثل هذه الأمانين الشائنة يصبح خير الأمراء وأعقلهم فريسة لرجال حاشيته الذين استشرى فيهم الفساد والرشوة » . وقد يسىغ لنا التقدير الصادق للعظمة وضمان خلود الشهرة طعم وسائل السرور واللذة فى أيام التقاعد ، ولكن الامبراطور الرومانى شغل فى العالم منصبا بلغ من الخطورة درجة لا يستطيع معها أن ينعم براحة الحياة الخاصة وطمأنينتها دون أى مكد . فكان من المستحيل عليه أن يبقى بمنجاة من المتاعب التى تلم بالامبراطورية بعد اعتزاله ، أو الا يبالى بنتائجها . لقد تعقبه الخوف والاسى والاستياء الى عزلته فى سالونا . وجرحت رفته ، على الأقل كبرياؤه بما افتاب زوجته وابنته من كوارث ، كما عكرت صفو أيامه الأخيرة بعض اساءات كان يستطيع لينيوس وقسطنطين أن يجنباها الرجل الذى يعتبر أبا لكثير من أباطرة والمخطط الأول لحظوظهم . وجاء فى تقرير وصل الينا علمه فى أيامنا هذه ، ولو أنه مشكوك فيه كثيرا ، انه انسحب فى حرص وحذر من دنيا سلطانهم بالموت طوعا واختيارا .

وننتقل الآن ، وقبل أن نبتعد عن دراسة حياة دقلديانوس وشخصيته ، الى المكان الذى آوى اليه وتقاعد فيه ، وهو سالونا ، وهى مدينة رئيسية فى ولايته وموطنه دلماشيا ، وكانت تبعد نحو مائتين من الأميال الرومانية ( وفقا لمقاييس الطرق العامة ) عن أكويليا ومشارف ايطاليا ، ونحو مائتين وسبعين ميلا عن سيرميوم ، وهى المقر المعتاد للاباطرة كلما زاروا حدود الليريا . وما تزال هناك قرية حقيرة تحمل اسم سالونا . ولكن كان يشهد على عظمتها حتى القرن السادس عشر

أطلال مسرح ومنظر مهوش لعقود متهدمة وأعمدة من الرخام . وشيد دقلديانوس قصرا فخما على مسافة ستة أو سبعة أميال من المدينة . وقد نستنتج من ضخامة هذا البناء الى أى مدى طال أمد تفكيره في مشروع اعتزال الامبراطورية . فان اختيار البقعة التى تجمع بين الصحة والمتعة لم يتطلب تحيز المواطن . « كانت التربة خصبة جافة ، والهواء نقيا صحيا . وقلما تحس هذه البلاد ، رغم حرها القائلظ في شهور الصيف ، بالرياح اللافحة المؤذية التى تتعرض لها شواطئ أستريا وبعض أجزاء من ايطاليا . ولم يكن المنظر من القصر أقل جمالا وجاذبية من القرية والمناخ ، وكان يته الى الغرب الشاطئ الخصب الذى يمتد على طول شاطئ الادرياتيك الذى تناثرت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة الى درجة يظهر معها هذا البحر وكأنه بحيرة عظيمة . وفي الشمال يقع الخليج الذى يؤدي الى مدينة سالونا القديمة والريف من ورائها ، يشكل للنظرين مفارقة واضحة مع السطح المنبسط من الماء في بحر الادرياتيك ، امتدادا الى الشرق والجنوب . وينتهي المنظر في الشمال بجبال عالية غير منتظمة ، واتسعت على مسافة بعيدة ، تغطيها ، في كثير من الأماكن ، القرى والغابات والكروم ( ١ ) .

وعلى الرغم من أن قسطنطين يتصنع نتيجة حزاة سافرة أن يذكر قصر دقلديانوس في احتقار ، فان أحد خلفائها ، ممن لم يروا القصر الا في حالة مهله مشوهة ، يشيد بفخامته في لغة تفيض بأعظم الاعجاب . فقد كانت مساحة أرضه تتراوح بين تسعة وعشرة أفدنة انجليزية ( ايكر ) . وكان ذا أربعة أضلاع يطوقها ستة عشر برجاً . وبلغ طسول اثنين من الأضلاع نحو ستمائة قدم ، والآخرين نحو سبعمائة . وقد شيد البناء كله من الحجر الرملى الجميل المأخوذ من محاجر ترو Trau أو تراجوتيوم Tragutium المجاورة . وهو أقل قليلا من الخام نفسه . وفصلت بين الأجزاء المختلفة لهذه العمارة الضخمة أربعة شوارع متقاطعة في زوايا قائمة . وكان الوصول الى المنطقة الرئيسية في قصر عن طريق مدخل آية في الفخامة والروعة ، يسمى حتى اليوم « البوابة

(١) انظر آدم في كتابه « آثار قصر دقلديانوس في سبالاترو Palatro » الصحيفة ٦ . ونصف هنا أمرين آخرين نقلنا عن « آباتى فورتييس « Abate Frotis » فان ترعة هيدار الصغيرة التى ذكرها لوكان Lucan كان فيها سمك الصمون ، وهو من أفخر السمك ، ويفترض كاتب حكيم ، ولعله راهب ، انه كان - أى السمك - من الأسباب الرئيسية التى تحكمت في اختيار دقلديانوس لمكان تقاعده . ويقول نفس المؤلف ان تذوق الزراعة ، انما انتعش في سبالاترو ، وأن جمعية من كرام القوم أسست مزرعة تجريبية قرب المدينة .



الذهبية « وكان يوصل اليه بهو للأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، يمكن أن نرى على أحد جانبيه معبدا أسكولاببوس Aesculapius المربع ، وعلى الجانب الثانى معبد جوبيتر المثلث الاضلاع . وقد عبد دقلديانوس الاله الأخير من هذين الالهين بوصفه حارس أمواله ، والأول باعتباره راعى صحته . وإذا قارنا بين الاطلال الحالية وبين سنن فيتروفيوس Vitruvius ( مهندس معمارى رومانى فى عصر أغسطس وله مؤلف فى فن العمارة ، ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للمهندسين المعماريين ) لوجدنا أن عدة أجزاء من البناء ، والحمامات والمخدع ، والقاعة والبازيليك Basilica ( كلمة لاتينية معناها مبنى كبير مسقوف كان يستعمل فى الخدمة العامة : أسواق ، محاكم ، قاعات للاجتماعات ) والقاعة السيزينية Cyzicene ( نسبة الى مدينة Cyziens بآسيا الصغرى على مقربة من بحر مرمرة ، أسسها اليونان فى القرن الثامن ق.م ، وتوالى على حكمها اليونان والفرس والرومان . وانتعشت أيام الامبراطورية ) والقاعة الكورنثية والقاعة المصرية ، قد وصفت كلها فى شيء من الدقة ، أو على الأقل من الاحتمال . وقد تعددت أشكالها . ولكن نسب بنائها كانت صحيحة ، ولكن كان يشوبها كلها عيبان تنفر منهما آراؤنا الحديثة فى الذوق ووسائل الراحة . فان هذه الغرف الفخمة لم تكن بها نوافذ أو مداخن ، وكانت تضاء من أعلى ( يبدو أن البناء كله كان طابقا واحدا ) وتزود بالحرارة عن طريق أنابيب كانت تمد على طول الجدران ، وكان صف الأجنحة السكنية الرئيسية يحميها نحو الجنوب الغربى رواق طوله خمسمائة وسبعة عشر قدما . ولا بد أن هذا كان يشكل نزهة لطيفة بهيجة اذا أضيفت روائع النحت والتصوير الى جمال المنظر .

### اضحلال الفنون

ولو أن هذا القصر الفخم بنى فى مكان منعزل لتعرض لعوادم الزمان ، ولكنه ربما أفلتت من سلب الإنسان . لقد نشأت قرية اسبالاتوس ، وبعدها بزمن طويل مدينة سبالاترو ، على أنقاضه ، وتفتح البوابة الذهبية الآن على ساحة السوق واغتصب يوحنا المهدان أمجاد أسكولاببوس ، وتحول معبد جوبيتر الى كاتدرائية تحت حماية السيدة العذراء . وأنا لمدينون بوصف قصر دقلديانوس الى فنان عبقرى مواطن ومناصر ، حملة حب الاستقصاء الشديد الى قلب دلماشيا ، ولكن هناك مجالا للشك فى أن روعة أعماله ونقوشه هو قد توخت شيئا من المجاملة للأشياء التى كان يهدف الى وصفها واعطاء صورة عنها :

فقد ذكر سائح حكيم أحدث عهداً ، أن الاطلال الرهيبة في سبالاترو لا تعبر عن اضمحلال الفنون اقل مما تعبر عن عظمة الامبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس . فاذا كانت تلك حقيقة الحال في فن العمارة ، فمن الطبيعي أن نعتقد بأن التصوير والنحت قد انتابهما اضمحلال ملحوظ اكثر . فان العمارة تحكمها بضع قواعد قليلة عامة ، بل قل آلية ، ولكن النحت ، وفوق كل شيء التصوير ، يتطلبان ابراز - لا أشكال الطبيعة وحدها محسب ، بل كذلك ابراز شخصية النفس البشرية وانفعالاتها . ولا تجدى في هذه الفنون الرائعة العالية خفة اليد ، الا اذا اثارها الخيال ووجهها أرفع الذوق وأدق الملاحظة .

وقد يكون من نافلة القول ان نشير الى ان الخيال الداخلى الذى انتاب الامبراطورية الرومانية وفجور الجنود ، وغارات المتبربرين ، وتفانم الاستبداد ، كل أولئك لم يكن مناخا مواليا للعبقرية والنبوغ ، بل ولا مجرد التعلم ، فقد أعاد تعاقب امراء الليريا الامبراطورية ، دون أن ينعش العلوم . فلم يقدر لتعليهم العسكري أن يفرس فيهم حب الأدب . ومهما كان من أمر نشاط دقلديانوس وقدرته على العمل ، فان ذهنه لم يتفتح قط للدراسة أو التأمل . وجدير بالذكر أن لمهنتى القانون والطب فائدة عامة ، وهما تدران ربعا ، ومن ثم يتوفر لهما دائما عدد من الناس ، على درجة معقولة من الكفاية والمعرفة ، يمارسونها ، ولكن لا يبدو أن هؤلاء الطلبة لجأوا الى أساتذة مشهورين ممن برزوا في ذاك الزمان . وخرست السنة الشعر ، وانحط التاريخ الى موجزات جافة مهوشة خالية من التسلية والتهديب . وبقي شيء من البلاغة الجامدة المتكلفة في خدمة الأباطرة على نفقتهم ، حيث لم يشجعوا من الفنون الا ما أرضى غرورهم أو دافع عن سلطانهم .

ومهما يكن من أمر ، فان عصر اضمحلال العلوم والبشر ، يتميز بظهور الأفلاطونيين الحديثين وتقديهم . لقد أخرست مدرسة الاسكندرية ، السنة فلاسفة أثينا ، وانضوت الطوائف القسدية تحت ألوية المعلمين الذين هم أكثر عصرية ، والذين أوصوا باتباع سبيلهم لجدة منهجهم وصرامة سلوكهم ، وكان كثير من هؤلاء الأساتذة - أمونيوس Ammonius ، بلوتينوس Plotinus ، أمليوس Amelius وبورفيرى Porphyry - رجالا ذوى فكر عميق ودأب شديد ، ولكنهم أخطأوا الهدف الحقيقى للفلسفة ، ومن ثم أسهبت جهودهم اقل كثيرا فى النهوض بالعقل الانسانى منها فى افساده . فان الأفلاطونيين الحديثين أهدلوا المعرفة الملائمة لعصرنا وقدمائنا ، كما أهملوا كل دائرة العلوم

الروحية والطبيعية والرياضية . على حين أرهقوا أنفسهم في المناقشات اللفظية في الميتافيزيقا ( ما وراء الطبيعة ) وحاولوا أن يستجلبوا أسرار العالم غير المرئي ، وجاهدوا ليوقفوا بين أرسطو وأفلاطون ، في موضوعات لم يكن جهل هذين الفيلسوفين بها أقل من جهل سائر الجنس البشري ، واستنفدوا منطقتهم في هذه التأملات العميقة غير الثابتة ، ومن ثم تعرضت أذهانهم لأوهام الخيال وتوهموا أنهم وضعوا أيديهم على سر تخليص النفس من هذا السجن المادى ( وهو الجسم ) ، وادعوا أنهم اتصلوا اتصالا عاديا بالجن والأرواح ، وفي ثورة فريدة في بابها حولوا دراسة الفلسفة الى دراسة السحر . لقد سخر العقلاء الأقدمون من الخرافة الشعبية المألوفة ، ولكن تلاميذ بلوتينوس وبورفيرى أخفوا ما فيها من سرف عن طريق مزاعم هزيلة لمجازات واستعارات ، ثم بعد ذلك أصبحوا أشد المدافعين عنها حماسا وغيره . ولما اتفقوا مع المسيحيين في بعض النقاط الخفيفة في العقيدة ، هاجموا بقية نظامهم اللاهوتى بكل جنون الحرب الأهلية وشراستها . ولا يكاد الأفلاطونيون الحديثون يستحقون مكانا في تاريخ العالم الحديث واكن كثيرا ما سيرد ذكرهم في تاريخ الكنيسة .

## الفصل الرابع عشر

( ٣١٥ - ٣٢٣ م )

### قسطنطين في روما : اصلاحاته التشريعية

تمثل الصدع او العيب الاساسى الخطير في نظام دقلديانوس في ان مكسيميان ابنا هو مكسنتيوس Maxentius ولسطنطيوس ابنا هو قسطنطين Constantine وتحكم العطف الابوى وطفى على نظام الانتخاب وحسن الاختيار . وحاول جاليريوس ان يفرق بين قسطنطين ووالده . لكن الشاب ، رغم ذلك ، لحق بوالده في بريطانيا ، وعند موت الوالد في يورك ، نودى بالابن امبراطورا « اوغسطس » . وفي نفس العام نقض مكسنتيوس الميثاق ، وخرج من عزلته .

وكانت استراتيجية قسطنطين وخطه الدقيقة البارعة هي الخيط الاول الرئيسى في كل الحروب والمناورات السياسية ، فقد تولى هو ادارة الغال ، بينما اقام مكسنتيوس حكما طاغيا غاشما في ايطاليا وافريقية . ثم غزا الاول ايطاليا وهزم مكسنتيوس وقتل عند جسر مليفيان Milivian خارج روما . وقد زعموا ان قسطنطين رأى ، قبل هذه المعركة ، الرؤيا التى قرر من اجلها التحول الى المسيحية .

### قسطنطين في روما

لا يستحق قسطنطين في استغلاله لثمار النصر ، الاطراء لاعتداله ورفقه ، ولا اللوم لعنفه وبطشه ، فقد سقى بالكأس التى كان لابد ان يتجرعها هو وأسرته لو كانت الهزيمة حلت به . فأعدم ابنى الطاغية ، وحرص على ان يستأصل كل من ينتمى اليه . ولا بد ان ابرز اتباع مكسنتيوس توقعوا ان يتشاركوه مصيره كما شاركوه يسره ورخصاءه

وجرائمه ، ولكن لما تعالت أصوات الشعب الروماني مطالبة بالمزيد من الضحايا ، تصدى الفاتح في شيء من الثبات والإنسانية لهذه الصيحات الذليلة التي أملاها الرياء والاستياء معا . وعوقب المخبرون الوشاة ولم يلقوا تشجيعا ، واستدعى من المنفى أولئك الأبرياء الذين عانوا من قبل من ظلم الطاغية السابق . وصدر قانون عفو عام هذا الخواطر وأقر الممتلكات في إيطاليا وفي أفريقية . ولخص قسطنطين خدماته ومشروعاته في خطاب متواضع له أمام السناتو عندما شرفه بزيارته لأول مرة ، وأكد احترامه الخالص للمجلس الموقر ، ووعد بتدعيم مكانته وأمتهاراته القديمة . ورد المجلس المشكور على هذه الاعترافات الجوفاء بالقباب الشرف الزائفة التي كان لا يزال من سلطته أن يمنحها . وأصدروا ، دون أن يحصلوا على تصديق قسطنطين ، مرسوما بتعيينه في المكان الأول بين الأباطرة الثلاثة الذين يحملون لقب « أوغسطس » والذين يحكمون العالم الروماني . وأقيمت الألعاب والاحتفالات تحليداً لذكرى انتصاره ، كما أن عدة مبان شيدها مكسنطيوس على حسابه قد كرست لتكريم غريمه المنتصر . ولا يزال قوس نصر قسطنطين قائما ، دليلا محزنا على اضمحلال الفنون ، وشاهداً فريداً على أحط الوان الزهو والغرور ، فانهم لما تعذر عليهم أن يجنوا في عاصمة الامبراطورية نحاتا يستطيع أن يتولى بلمساته تزيين هذا الأثر العام ، عمدوا الى قوس نصر تراجان مجردوه من أروع رسومه ، دون احترام لذكراه ، أو رعاية لقواعد الملكية . وأغفلوا كل الاغفال تفاوت الأزمان والأفراد والأعمال والشخصيات . من ذلك أن الأسرى البارثيين يبذون منبطحين تحت قدمي أمير لم يجرد قط جيشا فيما وراء الفرات ، وما يزال في مقدور الأثريين المدققين أن يكتشفوا رأس تراجان فوق نصب قسطنطين . أما الزخارف التي كان لزاما أن يملأوا بها الفراغات في النحت القديم فقد تمت على أقبح صورة وأبعدها عن المهارة والاتقان .

أما القضاء النهائي على الحرس البريتوري فكان إجراء يتسم بالحرص والفظنة ، كما يمثل ضربا من الانتقام . ذلك أن قسطنطين أخذ الى الأيد قوة هذه الفرق التي ملامها الصلف والغطرسة ، والتي أبقي مكسنطيوس على أعدادها وأمتهاراتها ، بل زاد منها وبالغ فيها . ودمر المعسكر الحصين ، وتبعثرت الفئة القليلة من هؤلاء البريتوريين ، تلك التي أفلتت من بطش السيوف ، نقول تبعثرت بين مختلف قوات الجيش أو نفيت الى أقصى حدود الامبراطورية ، حيث يمكن أن ينتفع بهم دون أن يشككوا خطرا . واذ قضى قسطنطين على هذه الفرق التي كانت ترابط عادة في روما ، فإنه وجه بذلك ضربة قاضية الى مكانة

السناطو والشعب ، كما باتت العاصمة العزلاء من السلاح معرضة لاساءات مليكها النائي أو اهماله ، وليس لها ما يعصمها من هذا أو تلك . وقد نلاحظ أن الرومان في محاولتهم الأخيرة للحفاظ على حريتهم المنهارة المحتضرة وقد توجسوا خيفة من الجزية ، دفعوا مكسنتيوس الى العرش ، ولكنه تناهى هذه الجزية على اعتبار أنها تقدمه خالصة . واهابوا بقسطنطين لمساعدتهم ، فقهر الطاغية ، وحول الهدية الخالصة الى ضريبة دائمة . وقسم شيوخ السناتو الى طبقات تبعاً لما أعلنوه عن بيان ممتلكاتهم ، فدفع أكثرهم يساراً وغنى ثمانية أرتال من الذهب سنويا ، ودفعت الطبقة الثانية أربعة أرتال ، ودفعت الأخيرة رطلين ، أما أولئك الذين كان يجوز لهم طلب الاعفاء لفقرهم فقد فرض عليهم سبع قطع ذهبية . والى جانب أعضاء السناتو الفعليين ، تمتع أبناءهم وذرياتهم ، بل وأقرباؤهم ، بالامتيازات الزائفة التي لا قيمة لها ، واحتلوا العبء الثقيل لهذا النظام ، وليس مما يدعو الى الدهشة بعد ذلك ، أن يوجه قسطنطين عنايته الى الاستزادة من عدد هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف الجدى . ولم يقض الامبراطور الظافر ، بعد موت مكسنتيوس أكثر من شهرين أو ثلاثة في روما التي زارها مرتين بعد ذلك طوال ما تبقى من سنى حكمه ، ليشارك في الاحتفالات العظيمة بالعيد السنوى العاشر والعيد العشرين لتوليته الحكم . فقد كان قسطنطين في حركة دائبة لتدريب جنوده أو لتفقد الأحوال في الولايات ، وكانت اقامته متنقلة بين تريف Treves وميلان وأكويليا وسرميوم ونسوس Naissus وسالونيكيا - الى أن أسس « روما جديدة » على تخوم أوربا وآسيا .

عقد قسطنطين في البداية تحالفاً مع ليسينيوس Licinius ثم اشتبك معه بعد ذلك في حرب . وتم الصلح بينهما بعد معركة سيباليس Cibalis ومارديا Mardia .

### اصلاحات قسطنطين التشريعية

حقق الصلح بين قسطنطين وليسينيوس ، على أية حال ، العالم الروماني هدوءاً دام أكثر من ثمانى سنوات ، رغم ما كان يشوبه من نفور وحقد ، وذكريات الاساءة الأخيرة ، وتوقع الخطر في المستقبل . واذ تبدأ حوالى هذه الفترة سلسلة منتظمة من القوانين الامبراطورية ، فليس

من الغسير أن نسجل تلك التنظيمات المدنية التي شغلت فراغ قسطنطين .  
ولكن أهم النظم التي ابتدعها مرتبطة أشد الارتباط بأسلوبه الجديد في  
السياسة والدين ، ذلك الأسلوب الذي لم يستقر ويتأصل بالفعل ، الا في  
سنى الهدوء والسلام الأخيرة من حكمه . ويرجع كثير من قوانينه  
المتعلقة بحقوق الأفراد وملكيتهم وبممارسة المحاماة الى التشريع  
الخاص أكثر منها الى التشريع العام في الامبراطورية . كما أنه أصدر  
عدة قوانين ذات طابع محلي مؤقت ، بدرجة لا تستحق معها عناية  
التاريخ العام . على أنه يمكن اختيار قانونين اثنين من هذه المجموعة :  
واحد لأهميته والثاني لغرابته ، الأول لخيره المشهود ، والأخر  
لقسوته المتناهية .

١ — انتشرت الى حد رهيب يوما عن يوم في الولايات وخاصة في  
إيطاليا ، العادة الفظيعة القديمة ، وهي تعرض الاطفال الحديثى الولادة  
للموت أو قتلهم ، وكان هذا نتيجة الضيق الناتج أساسا من عبء  
الضرائب وفداحتها التي لا تحتمل ، ومن مضايقات واضطهادات مأمورى  
الدخل لمدينهم المعسرين ، ومن ثم رأى أقل الناس ثراء وعملا — بدلا  
من الاحساس بالمتعة في كبر الأسرة — أنه من الحنان الأبوى والعطف  
أن يخلصوا اطفالهم مما يحدق بهم من البؤس والفاقة في حياة يعجز  
الآباء أنفسهم من احتمالها . وتحركت روح الانسانية في نفس قسطنطين  
نتيجة لبعض أمثلة صارخة حديثة من اليأس ، ودفعته الى اصدار امر  
عال الى كل مدن إيطاليا ثم أفريقية فيما بعد ، بتقديم معونة عاجلة كافية  
الى الآباء الذين يحضرون أمام الحكام أولئك الأبناء الذين لا يستطيعون  
تعليمهم نتيجة لفقرهم . وكان الوعد سخيا والشرط غامضا ، الى درجة  
لم يحقق معها أى نفع عام أو دائم . فان القانون رغم ما هو جدير به من  
ثناء وتقدير ، لم يفلح فى تخفيف ويلات الناس أكثر الخطباء فى اظهارها .  
ولكنه سيظل حجة دامغة تتحدى وتتحدى لأولئك الخطباء المرتشين  
الذين بلغوا من الرضا بموقفهم حدا لا يستطيعون معه تبين الرذيلة  
أو التعاسة فى ظل حكومة ملك جواد .

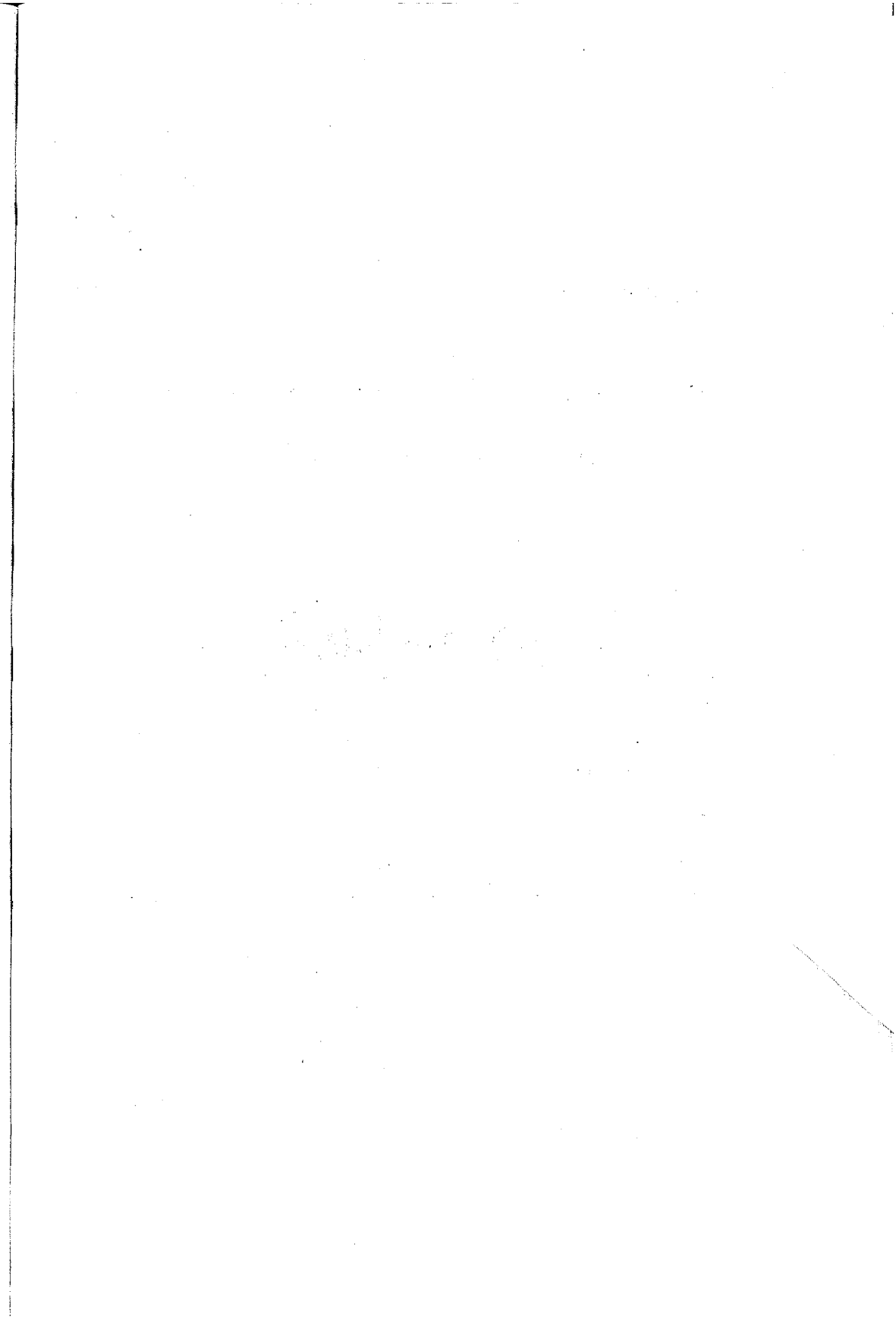
٢ — أما قوانين قسطنطين ضد هتك العرض ، فلم تتسم الا بأيسر  
القليل من التفاضى عن أحب نقاط الضعف فى الطبيعة الانسانية ، حيث  
ان وصف هذه الجريمة لم يقتصر على الاغتصاب بالقوة ، بل تعداه  
الى الاغواء الناعم الذى يفرى امرأة غير متزوجة دون الخامسة والعشرين  
من العمر ، بترك بيت والديها . « هكذا عوقب الغاصب الذى هتك  
العرض بالاموت ، فاذا لم يتكافأ الموت البسيط مع فداحة الجرم ، أحرق

حيا أو قطعته الوحوش الكاسرة اربا في المسرح . واذا اعترفت العذراء  
بأنها اختطفت برضاها ، فانها لن تنقذ بذلك حبيبها ، بل كانت تتعرض  
لمسازكنه مصيره . وعهد برفع الدعوى الى أبوى المجرم أو الفتاة  
المنكودة ، فاذا تغلبت عليها عواطف الطبيعة وأدت بهما الى التفاضى  
عن الأذى ، واللجوء الى الزواج بعد ذلك محافظة على شرف الأسرة ،  
فان الأبوين يعاقبان بالنفى والمصادرة . أما العبيد من الاناث أو الذكور  
الذين يثبت عليهم الاشتراك في جريمة الاغتصاب أو الاغواء ، فكانت  
عقوبتهم الموت بهذا اللون البارع من التعذيب ، وهو صب كمية من  
الرصاص المصهور في خلوقهم . ولما كانت هذه الجريمة ذات صفة عامة ،  
فقد أجزت توجيه الاتهام حتى للأجانب ، ولم يكن الشروع في اقامة  
الدعوى محددًا بفترة محددة من السنوات ، وكانت نتائج الحكم تمتد  
لتشمل النتائج البريء لهذا الاتصال الشاذ . ولكن لما كانت المعصية  
تثير من الرعب والفرع أقل بكثير مما ندعو الى العقوبة ، فان صرامة  
قانون العقوبات لابد أن تدعن لمشاعر البشر . فقد خفضت أو ألغيت  
أبغض الأجزاء في هذا القانون في العهود التالية . بل ان قسطنطين نفسه  
خفف من شراسة نظمه العامة ، عن طريق قرارات جزئية خاصة أصدرها  
في بعض الحالات ، رافة بأصحابها . هكذا كان الزواج الشاذ للأمبراطور  
الذى تساهل بل تلكأ وتوانى في تنفيذ قوانينه ، قدر ما كان متشددا بل  
قاسيا في سنها . ولا يكاد يكون من الميسور أن تجد أكثر من هذا  
علامات حاسمة للضعف ، في خلق الأمير أو في نظام الحكم .

في سنة ٣٢٣ نشبت الحرب الاهلية من جديد بين قسطنطين  
وليسينيوس . وانفرد قسطنطين بالسيادة على الامبراطورية بعد  
مهزكتى ادرنة وكريسوبوليس ، وموت غريمه .



ظهور المسيحية



## الفصل الخامس عشر

### خمسة أسباب لنمو المسيحية : الظروف المواتية لتقدمها

#### اعداد المسيحيين الأولين وأحوالهم

قد يعتبر البحث الصادق المنطقي لتقدم المسيحية واستقرارها من أهم الموضوعات في تاريخ الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي تعرض فيه هذا الكيان الضخم للعنف السافر أو قوضه الانحلال البطيء ، تسلل في خفة ورقة الى اذهان الناس دين نقي متواضع ، ونما في صمت وخفاء ، واستمد من التصدي له عزما جديدا . وكتب له في النهاية أن يرفع الصليب الظافر فوق أطلال الكابيتول . ولم يكن أثر المسيحية مقصورا على عصر الامبراطورية الرومانية وفي نطاق حدودها ، فما تزال تعترف بهذا الدين — بعد ثورة دامت ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا ، أهم أوربا ، وهي أبرز بنى الانسان في الفنون والعلوم والحرب ، على حد سواء . وبفضل حماسة الأوربيين وجددهم انتشر بسرعة الى أقصى شواطئ آسيا وأفريقية ، وعن طريق المستعمرات تركز واستقر من كندا الى شيلي ، في عالم لم يكن يعرفه الأقدمون .

ومهما كان هذا البحث نافعا وطريفا فانه تكتنفه صعوبتان . فان مواد التاريخ الكنسي الهزيلة الضئيلة المشكوك فيها ، لا تكاد نستطيع معها أن نحدد الغيوم الحالكة التي تتلبد في سماء العصر الأول للكنيسة . وكثيرا ما يضطرنا قانون التجرد والنزاهة العظيم الى الكشف عن مثالب المعلمين غير الملهمين والمؤمنين بالانجيل ، وقد يبدو للمراقب المستهين أن اخطاءهم تلقى ظلا على العقيدة التي يقرونها . ولكن خزي المسيحي التلقى ، والظفر الكاذب للكافر ، لا بد أن ينقضيا حالما يتذكران : من

أنزل الوحي الالهي ، وكذلك الى من نزل هذا الوحي . وقد ينصرف عالم اللاهوت الى المهمة الحبيبة السارة مهمة وصف الديانة كما نزلت من السماء ترفل في حلك الطهر والنقاوة . ولكن هناك واجبا أشد حزنا وكآبة ملقى على عاتق المؤرخ ، فان عليه أن يميظ اللثام عن الخليط المحتوم من الخطأ والفساد اللذين علقا بالديانة في اقامتها الطويلة على الأرض بين جماعة ضعيفة منحلّة من البشر .

ومن الطبيعي ان يحدونا حب الاستطلاع الى تقصى الوسائل التي أحرزت بها العقيدة المسيحية هذا النصر المؤزر على الديانات القائمة في الأرض . وقد يرد جوابا واضحا مرضيا عن هذا التساؤل ، القول بأن هذا يرجع الى البرهان المقنع في العقيدة نفسها ، والى التدبير المحكم المكين لمنشئها العظيم . ولما قل أن يجد الحق والمنطق ترحيبا في هذا العالم ، ولما اقتضت حكمة العناية الالهية أن تتنازل فتتخذ من أهواء الناس ومشاعرهم ومن الظروف العامة المحيطة بالجنس البشري، أدوات لتحقيق أغراضها ، فانه ما يزال يحق لنا أن نتساءل في الواقع — مع التسليم اللائق — لا عن الأسباب الأولى ، بل عن الأسباب الثانوية للنمو السريع للكنيسة المسيحية . وربما يبدو أن الأسباب الخمسة الآتية قد ساندتها مساندة صادقة وعاونتها معاونة فعالة :

١ — غيرة المسيحيين التي لا تلين ، وبالأحرى ، الغيرة المتعصبة ( اذا جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير ) والحق أن هذه الغيرة مأخوذة عن الديانة اليهودية ، ولكنها خلّت وتطهرت مما كان يشوب هذه الديانة من روح ضيقة انعزالية غير اجتماعية أبعدت الاميين ( غير اليهود ) عن شريعة موسى بدلا من جذبهم اليها .

٢ — نظرية الحياة الآخرة ، وقد عضدتها كل الظروف الاضافية التي يمكن أن تضيف على هذه الحقيقة الهامة قيمة وفعالية .

٣ — قوى الاعجاز المنسوبة الى الكنيسة في صدر المسيحية .

٤ — أخلاق المسيحيين النقية الصارمة .

٥ — إوحدة والنظام في الجمهورية المسيحية التي شكّلت ، مع الأيام ، دولة مستقلة متزايدة في قلب الإمبراطورية الرومانية .

١ — الغيرة التي لا تلين والتي ورثها المسيحيون عن اليهود :

لقد إتينا بالفعل على وصف الانسجام الديني في العالِم القديم ، والسهولة التي اعتنقت بها ، أو قل احترمت ، معظم الأمم ، حتى المتعادية

منها ، خرافات بعضها بعضا ، ولكن شعبا واحدا فقط رفض أن يختلط بهذا العالم . فان اليهود الذين انزروا ليهود كثيرة تحت حكم ملوك آشور وفارس بوصفهم أحقر العبيد ، خرجوا من الظلام في عهد خلفاء الإسكندر . ولما كثر عددهم إلى درجة مذهلة في الشرق ، ثم في الغرب ، فانهم سرعان ما أثاروا دهشة سائر الأمم وفضولها . ويبدو أن عنادهم الرهيب في الحفاظ على طقوسهم الخاصة وآدابهم الإنعزالية البعيدة عن البروح الاجتماعية ، ميزتهم بأنهم جنس مختار من البشر ، وأعلنوا في جراءة أو إخفوا قليلا ، كراهيتهم الشديدة لسائر بني الانسان . ولم يفلح عنف أنتيوخوس ، ولا دهاء هيرودس ، ولا الإقتداء بالأمم المجاورة ، في اغراء اليهود بالربط بين ناموس موسى وبين الأساطير اليونانية الرشيقة . وطبقا لمبادئ التسامح العلم الإشاهل ، كان الرومان يجمعون الخرافة التي يحثقرونها . وقد تنازل أوغسطس المهذب فأصدر ازواره بتقديم القرابين من أجل رخائه وازدهاره في هيكل أورشليم . على حين أن أحقر ذرية إبراهيم ، الذي كان لزاما عليه أن يقدم مثل هذا الولاء لجوبيتر في الكابيتول كان يصبح موضع احتقار من نفسه ومن سائر اخوته ، اذا هو أقدم على شيء من هذا . ولكن اعتدال الغزاة لم يكن كافيا لإخماد الأحقاد والخزازات في نفوس رعاليهم الذين فزعوا واشمأزوا من الشعائر الوثنية ، التي دخلت بالضرورة إلى ولاية رومانية . واحبطت محاولة كاليجولا المجنونة لوضع تمثاله في هيكل أورشليم أمام التصميم الاجماعى لشعب كان يخشى الموت أقل كثيرا مما يخشى مثل هذا الرجس الوثنى . وكان تعلقتهم بشريعة موسى يعادل مقتهم لسائر الديانات الأجنبية . فلما انحصر تيار الغيرة والإخلاص في هذا المجرى الضيق ، اندفع في قوة السيل الجارف ، بل أحيانا في مثل عنفه وشدهته .

ويتخذ هذا الاصرار الذي لا يلبين والذي بدأ للعالم القديم أنه كريد مدعاة للسخرية ، شكلا أشد رهبة ، حين تساعت العناية الإلهية أن تكشف لنا أسرار الغموض الذي أحاط بتاريخ الشعب المختار . ولكن هذا التعلق المروع بل المتزمت بشريعة موسى ، والذي برز في اليهود الذين عاشوا في ظل الهيكل الثانى (١) ، يظل أدعى الى المزيد من الدهشة

(١) الهيكل الثانى بناه اليهود فى اورشليم عام ٥٣٦ ق م . عقب عودتهم من المنفى . أما الهيكل الاول فكان قد بناه سليمان ودمر حوالى عام ٥٨٦ ق م . ثم بدأ ميروود العظيم فى بناء الهيكل الثالث الذى دمره الرومان عند استيلائهم على اورشليم حوالى سنة ٧٠ م . وكانت كل هذه الهياكل لعبادة يهوه - ( المترجم ) .

إذا قورن بعناد آبائهم الأولين في الارتياب وعدم التصديق ، ذلك أنهم عندما نزلت الشريعة من جبل سيناء وسط الرعود ، وعندما توقف جريان البحر وتعطل سفير الكواكب، خدمة لبنى اسرائيل ، وعندما كان الثواب أو العقاب الدنيوى نتيجة سريعة مباشرة لتقواهم أو لكفرهم — عندما حدث ذلك كله نراهم قد عمدوا باستمرار الى التمرد على جلاله مليكهم الالهى ( أى ربهم ) الذى يروونه أمامهم ، والى وضع أصنام الأمم القديمة في محراب يهوه ، والى تقليد كل طقوس غريبة من طقوس العرب في خيلهم أو الفينيقيين في مدنهم . فلما حبست العناية الالهية بحق رعايتها عن هذا العنصر الجحود ، اكتسب ايمانهم قدرا متناسبا من القوة والنقاوة . وقد شهد معاصرو موسى ويسوع في استهتار مهين أغرب المعجزات . وتحت وطأة الكوارث كلها حفظ الايمان بهذه المعجزات اليهود في عصر متأخر من عدوى الوثنية الشاملة . ويبدو أن هذا الشعب الفريد — خلافا لكل مبادئ العقل البشرى المعروفة — قد آمنوا ايمانا أقوى وأسرع بتقاليد أسلافهم الأولين ، منه بالأدلة التى لمسوها بأيديهم أو أدركوها بحواسهم (١) .

وكانت الديانة اليهودية مهياة للدفاع بشكل يدعو الى الإعجاب . ولكنها لم تكن معدة قط للهجوم والتوسع ، ويبدو من المحتمل أن عدد المهتدين لم يزد كثيرا على عدد المارقين في يوم من الأيام . لقد نزلت الوعود الالهية على شعب واحد كما أمر الشعب نفسه بشعبيرة الختان المميزة . فلما تكاثرت نسل ابراهيم حتى أصبحوا كرمل البحر ، أعلن الاله الذى تلقوا من فمه مجموعة الشرائع والطقوس — أعلن أنه الاله الخاص باسرائيل وكأنه الاله القومى لهم ، وأفرز شعبه المفضل ، دون سائر البشر ، بأشد ما تكون العناية والغيرة . وقد اقتترن غزو أرض كنعان بكثير من الظروف العجيبة والدامية كذلك ، الى درجة أن اليهود المنتصرين باتوا وقد احتدم العداء بينهم وبين كل جيرانهم بشكل لا يهدأ . وأمرؤا أن يستأصلوا بعضا من أشد القبائل وثنية ، وقلما عوق ضعف البشر تنفيذ الأوامر الالهية . وحرّم عليهم الزواج من الأمم الأخرى أو التحالف معها . أما تحريم قبولهم في الجماعة اليهودية ، وقد كان تحريما دائما في بعض الأحيان ، فقد امتد في الغالب الى الجيلين الثالث ، والسابع ، بل حتى الى الجيل العاشر . فان الالتزام بتبشير الأميين

(١) وقال الرب لموسى : « حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقون بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم » . ( سفر العدد — الأصحاح الرابع عشر — الآية ١١ ) .

بمعقيدة موسى ، لم يعتبره اليهود يوماً مبدأ من مبادئ ناموسهم ، كما أنهم لم يميلوا الى فرضه على انفسهم باعتبارها واجبا يتطوعون لأدائه .

وفيما يتعلق بقبول المواطنين الجدد ، فقد تأثر هذا الشعب الانعزالي غير الاجتماعى وتصرف فى هذا الصدد وفق التقليد اليونانى الذى يشوبه الغرور والأنانية ، لا وفق سياسة روما التى تتسم بالكرم والسماحة . فقد خدع أحفاد ابراهيم انفسهم بأنهم وحدهم ورثة العهد بين الله والانسان كما ورد فى التوراة . ولشد ما توجسوا خيفة من الانتقاص من قيمة ميراثهم لو سهل على الغرباء الاشتراك معهم فيه . ان المزيد من التعرف على الجنس البشرى قد وسع مداركهم ولكنه لم يهذب تحيزهم أو يحد من تعصبهم . وما اكتسب له اسرائيل يوماً مؤمنين جددا الا كان مدينا للمزاج المتقلب عند المشركين أكثر منه للحماسة الجادة عند المبشرين بدينه . ويبدو أن عقيدة موسى شرعت لبلد واحد ، وكذلك لأمة واحدة . ولو أطاع اليهود طاعة عمياء الأمر الذى يحتم مثل كل ذكر ثلاث مرات سنويا أمام يهوه ، لكان من المستحيل عليهم أن ينتشروا خارج الحدود الضيقة لأرض الميعاد . والواقع أن هذه العقبة زالت بهدم هيكل اورشليم ، ولكن تورط مع هذا التدمير أهم جزء فى الديانة اليهودية . ووقع الوثنيون الذين طال بهم أمد الدهشة والاستغراب للنبا الغريب ، نيا هيكل خال - وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات يمكن أن تكون لعبادة جردت من المعابد أو المذابح أو الكهنة أو القرايين . ومع ذلك فان اليهود ، حتى فى حالة الوهن والتدهور جفلوا - وظلوا يؤكدون امتيازاتهم المتفطرة الخاصة بهم - من مجتمع الغرباء ، بدلا من التودد اليهم ، واستمر اصرارهم ، فى صلابة لا تلين ، على تلك الأجزاء التى كان فى مكننتهم أن يمارسوها من شريعة موسى . فان تمييزهم الغريب بين الأيام بعضها بعضا ، وتميز بعض اللحوم عن البعض ، الى جانب نجووعة كبيرة من الطقوس التافهة ، ولو أنها ثقيلة ، كل أولئك كان يثير اشمئزاز ومقت الأمم الأخرى التى كانوا يختلفون معها اختلافا نيبأ هيكل خال - وقعوا فى حيرة من أمرهم ، فأى هدف وأية أدوات لكفيلة وحدها برد المهتدى ذى الرغبة الأكيدة فى الايمان ، عن باب معبد اليهود .

وفى هذه الظروف تقدمت المسيحية الى العالم ، مسلحة بقوة الشريعة الموسوية ، متحررة من ثقل قيودها وأغلالها . وأشرب النظام الجديد فى عناية فائقة ، مثل النظام القديم تماما ، حماسا مطلقا لصندوق العقيدة ووجدانية الله . ورتب كل ما كشف الآن للانسان من طبيعة « الكائن

الأعلى» وتدابيره ، بحيث يزيد من إجلالهم وتقديرهم لهذه النظرية الخفية الغائضة . وسلم بالسلطة الإلهية لموسى وللرسل ، بل اعترف بها على أنها أقوى أركان المسيحية . وظهرت منذ بدء الخليقة سلسلة لا تنقطع من النبوءات التي بشرت وهيات لقدم السيد المسيح الذي طال ترقب تدومه ، وطبقا لتوقعات اليهود ومخاوفهم الشديدة ، كان كثيرا ما يمثل في شخصية ملك وفتاح ، أكثر منه في شخصية رسول وشهيد وابن الله . وختمت بقربانه المكفر على الفور كل قرابين المعبد الناقصة وألغيت ، وجاء بعد الطقوس التي تألفت من بعض الأنماط والأرقام ، عبادة نقية روحية تصلح لكل مناخ ، كما تتفق بالمثل مع ظروف الجنس البشرى . ويذلا من التدشين بالدم ، حل شيء أقل ضررا وهو التدشين بالماء . وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا في ذرية ابراهيم — تحيزا وتحزيا — أصبح اليوم قدرا مشتركا للأحرار والعبيد ، واليونان والمصريين واليهود والأمميين . وكل ميزة يمكن أن ترقى بالمهتدي من الأرض الى السماء أو تمجد إخلاصه أو توفر له السعادة ، أو حتى ترضى الغرور الخفى الذى يتسرب الى نفس الانسان في صورة التقوى والايان — ظلت محتفظا بها لأعضاء الكنيسة المسيحية ، ولكن في نفس الوقت ، كان الناس جميعا مرخصا لهم ، بل مدعوين رجاء وتوسلا ، لتقبل هذه الميزة التي لم تمنح مجاملة وتفضلا ، بل فرضت فرضا والتزاما . وأصبح من أقدم الواجبات على كل من تحول الى المسيحية أن ينشر بين أصدقائه وأقربائه البركة التي تلقاها والتي لا يمكن تقديرها ، وأن يذرهم بأشد العقاب للرفض الذى يعتبر مخالفة آئمة لإرادة الله المحسن العلى التقدير .

وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى اسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا . واعترف من تحول من اليهود بيسوع على أنه المسيح الذى أنبا به الإوحى القديم ، وأجلوه واحترموه باعتباره رسولا يعلم الناس الفضيلة والدين ، ولكنهم تشبثوا تشبثا عنيدا بشعائر وطقوس أسلافهم ، حتى لقد أرادوا فرضها على الأمميين ( غير اليهود ) الذين كانوا يزيدون باستمرار في عدد الداخلين في المسيحية . ويبدو أن هؤلاء المسيحيين المتهودين ناقشوا ، على درجة من الصواب ، المصدر الإلهى للشريعة الموسوية ، والكمال الثابت لمنشئها العظيم ، وأكدوا أنه إذا كان « الكائن الاسمى » وهو هو نفسه عبر الخلود ، قد شرع إلغاء الطقوس المقدسة التي كانت تميز شعبه المختار ، ولما كان الغاؤها أقل وضوحا وجلالا ومهابة من سننها فى البداية ، فإنه بدلا من هذه التصريحات المتكررة التي تفترض أو تؤكد خلود العقيدة



الموسوية ، كان من الممكن تمثيلها على أنها مشروع مؤقت قصد به أن يستمر حتى قدوم المسيح الذى سيعلم الناس أمور العقيدة والعبادة فى أسلوب أقرب الى الكمال ، وأن المسيح نفسه وتلاميذه الذين حاوروه فى الأرض ، بدلا من اجازتهم - عن طريق القدوة - لأصغر الشعائر فى الشريعة الموسوية ، كان يمكن أن ينشروا على العالم الغاء تلك الطقوس العتيقة القديمة المهجورة ، دون أن تتكلف المسيحية عناء البقاء سنين طويلا حائرة مرتبكة بين مختلف طوائف الكنائس اليهودى . وقد يبدو أن فى مثل هذه المناقشات دفاعا عن قضية شريعة موسى المنتهية ، ولكن أhabارنا المتفهمين كثيرا ما استطاعوا بجدهم أن يفسروا لغة «العهد القديم» المهمة ، وسلوك «المعلمين الرسولين» الغامض . وكان الأفضل والأسلم أن يكشف النقاب تدريجا عن الأسلوب الموجود فى الانجيل وأن يصدن - فى غاية الحذر والرفق - حكم يدين هؤلاء اليهود المؤمنين ، وهو أمر تعافه نفوسهم وتبغضه تعصباتهم .

ويقدم تاريخ كنيسة اورشليم دليلا ناصعا على ضرورة مثل هذه الاحتياطات ، وعلى اثر الديانة اليهودية العميق فى عقول أتباعها . وكان الأساقفة الخمسة عشر الأولون فى اورشليم من اليهود المختلطين . وجمع شعب الكنيسة الذى ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعى أن تتقبل التقاليد البدائية للكنيسة التى أسست بعد موت المسيح بأربعين يوما فقط ، والتى حكها فى الكثير الغالب حواريه ورسله لعدة سنين - تتقبل على أنها مقياس الصحة أى المذهب الصحيح - الأرثوذكسى . أما الكنائس النائية فكثيرا ما لجأت الى الكنيسة الأم (كنيسة اورشليم) ، وفرجت كروبيها عن طريق الصدقات السخية ، فلما نشأت المجتمعات العديدة الغنية فى المدن الكبرى فى الإمبراطورية : فى أنطاكية ، الاسكندرية ، افيسبوس ، كورنثة ، روما ، تقلص الاحترام الذى كانت اورشليم توحى به الى المراكز المسيحية ، وسرعان ما وجد اليهود المرتدون الى المسيحية ، أو كما سموا فيما بعد «النصارى» (نسبة الى مدينة الناصرة) والذين وضعوا أسس الكنيسة - نقول وجدوا انفسهم وقد طغت عليهم الجموع المتزايدة الذين انضموا تحت راية المسيح من مختلف مذاهب الشرك . ورفض الأمميون - بموافقة رسولهم الخاص - ثقل الطقوس الموسوية الذى لا يحتمل ، وأبوا آخر الأمر ، لآخوانهم الذين هم أكثر غيرة على الحق نفس التسامح الذى تضرعواهم فى بداية الأمر من أجله . وقد أحس النصارى احساسا عميقا مريرا بدمار المعبد والمدينة والعقيدة اليهودية ، فقد احتفظوا فى سلوكهم - لا فى عقيدتهم - بأواصر وثيقة بينهم وبين بنى وطنهم غير الانقياء

الذين نسب الوثنيون كوارثهم الى احتقار الاله الأعظم ، ونسبها للمسيحيون ، بشكل أحق وأصدق ، الى غضبه . وارتد النصارى من اطلال اورشليم الى مدينة بلا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن ، حيث انزوت تلك الكنيسة القديمة فى عزلة وخفاء ، ولكنهم ظلوا يجسدون العزاء فى التردد على المدينة المقدسة لزيارتها ، وبالأمل فى عودتهم يوماً الى هذه الأماكن التى علمتهم الطبيعة والعقيدة معا أن يحبوها ويجلوها كذلك . ولكن تعصب اليهود الذميمة اليائس ، فى عهد هادريان زاد الطين بلة فى النهاية ، حتى بلغت الكارثة ذروتها ، فاستخدم الرومان الذين أهاجتهم ثوراتهم المتكررة ، حق النصر فى شراسة بالغة غير عادية ، وأسس الامبراطور ، تحت اسم ايليا كابيتولينا مدينة جديدة على جبل صهيون ، وأعطاهما كل امتيازات المستعمرة ، وتوعد بأشد العقوبات أى فرد من الشعب اليهودى يجرؤ على الاقتراب من تخومها ، ووضع حامية يقظة من الجنود الرومان لتقوم بتنفيذ أوامره . ولم يكن أمام النصارى للفلات من هذا الحكم الا سبيل واحدة ، وعضد الدين القويم هذه المرة ، ما للزايا المؤقتة من أثر ، فانتخبوا ماركوس أسقفنا لهم ، وهو من أحبار عنصر الأميين الغرباء ، وأغلب الظن أنه كان من مواطنى ايطاليا أو احدى الولايات اللاتينية . وبفضل اقتناعه ، أشاد معظم شعب الكنيسة بشرعية موسى التى ثابروا على اتباعها أكثر من قرن من الزمان . وبهذه التضحية بماداتهم وآرائهم اشتروا السماح لهم بالدخول الى مستعمرة هادريان كما دعبوا وخذتهم مع الكنيسة الكاثوليكية ، بشكل أقوى وأثبت .

ولما استعاد جبل صهيون اسم كنيسة اورشليم وأمجادها ، نسبت جرائم الانشقاق والضلال الى البقية الحقيرة من النصارى الذين رفضوا أن يرافقوا أسقفهم اللاتينى . وظل هؤلاء يحتفظون بمدينة Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق ، وأنشأوا لهم كنيسة هزيلة فى مدينة حلب بسوريا . واعتبر اسم « النصارى » أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأثني . وضالة الادراك ، بالاضافة الى حالتهم — الاسم الحقيير المزرى « الابيونيون Ebnites » . وبعد عودة كنيسة اورشليم بوضع سفين ، ثار الشك والجدل حول المسألة الآتية : هل يمكن أن يطمع فى الخلاص رجل آمن عن يقين بيسوع المسيح فى الوقت الذى ظل فيل يتبع شريعة موسى؟ ونزعت بالقديس جوستين الشهيد Justin Martyr روحه الانسانية الطيبة ، فرد على هذا التساؤل بالاجاب ، والحق أن جوابه

كان يتسم بأكبر التحفظ والحياء ، ولكنه رغم ذلك تجاسر فوقف الى جانب مثل هذا المسيحي غير المكتمل ، شريطة أن يكتفى بممارسة الشعائر الموسوية دون أن يعمد الى توكيد نفعها وضرورتها . فلما الحوا على جوستين في الانصاح عن رأى الكنيسة ، قال ان بين المسيحيين الارثوذكس كثيرين جدا ، لا يستبعدون اخوتهم اليهود المنتصرين من اهل الخلاص فحسب ، بل كذلك ينكرون الاتصال بهم في المجالات الصامة ، مثل الصداقة والضيافة والحياة الاجتماعية . وتغلب الرأى الذى هو أشد صرامة وقسوة ، كما كان متوقما بطبيعة الحال ، على الرأى الذى هو أكثر اعتدالا . ومن هنا وجد حاجز أبدي يفصل بين أتباع موسى وأتباع المسيح . اما الأبيونيون التمساء الذين لفظتهم ديانة بانهم مارقون ، ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين الى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، الا انها ذابت بطريقة غير ملحوظة في الكنيسة المسيحية أو في الهيكل اليهودى .

وبينما اتخذت الكنيسة الأرثوذكسية مكانا وسطا سويا بين الامراط في الاحترام والاجلال وبين الازدراء غير اللائق ، لشريعة موسى ، نجد أن مختلف الهراطقة قد انحرفوا الى النقيض بنفس القدر من التطرف ، حتى بلغوا غاية الخطأ وغاية الاسراف . فقد انتهى الأبيونيون ، وفقا لما اعترفوا به من صدق الديانة اليهودية ، الى أنه لا يمكن الفؤها أو ازلتها قط . على حين سارع اللا أدريون ( الغنوصيون Gnostics طائفة تقول بأن الخلاص بالمعرفة دون الايمان ) فاستخلصوا من عيوبها المزعومة أنها لم تكن قط من انشاء حكمة الاله . وهناك — على سلطان موسى والرسل — بعض اعتراضات سرعان ما تقفز الى أذهان المتشككين المحددين ، ولو أنها تنبع من جهلنا بالآباد السحيقة وعجزنا عن تكوين فكرة كافية عن التدبير الالهى . ورحب علم الغنوصيين العقيم في لهفة بهذه الاعتراضات ، ودافع عنها في جراءة ووقاحة . ولما كان معظم هؤلاء الهراطقة يرفضون ملذات الحواس أو الملذات المادية فقد هاجموا بشدة تعدد الزواج عند البطارقة ( الأشراف ) وفروسية داود وحريم سليمان . وبعد فتح أرض كنعان وابادة السكان الأصليين غير البريين الأبرياء الذين لم يتوقعوا شرا ، باتوا في حيرة من أمرهم ، كيف يلتئمون مع الأفكار العالمة المشتركة للانسانية والعدالة . ولكنهم لما تذكروا السجل الدامى الزاخر بالقتل والاعدام والمذابح ، الذى يكاد يلطخ كل صفحات تاريخ اليهود ، أدركوا أن المتبريرين فى فلسطين أظهروا من الرحمة والرفق بأعدائهم الوثنيين مثل ما أظهروا لأصدقائهم أبنى

جلدنتهم . وعندما تجاوزوا المذاهب الفرعية الطائفية للشريعة الى الشريعة نفسها وجدوا أنه من المستحيل على ديانة لا تتألف الا من القرابين الدموية والطقوس التافهة ، وطبيعة الثواب والعقاب ، على السواء فيها ، هي طبيعة جسدية دنيوية مؤقتة — من المستحيل على هذه الديانة أن توحى بحب الفضيلة أو تكبح جماح الانفعالات والعواطف . وعالج الغنوصيون موضوع خلق الانسان وموته في سخرية يشوبها الذنس والالحاد ، فانهم لم يصغوا في اناة وصبر الى أن الاله قد أخذ الى الراحة بعد ستة أيام من جهد شاق ، الى ضلع آدم ، والى جنة عدن والى شجرة الحياة والمعرفة ، والى الأعمى الناطقة ، والى الفاكهة المحرمة ، والى الحكم الصادر ضد الجنس البشرى نتيجة لخطيئة نافهة اقتزفها أجداده الأولون . وصور الغنوصيون — في الحاد بالغ — اله اسرائيل ، بأنه معرض للأهواء والخطأ ، متقلب في حبه ، عنيد لا يطاق في غضبه ، غيور بشكل دنىء على عبادته الخرافية ، وقد قصر عنايته المتحيزة على شعب واحد وعلى هذه الحياة المؤقتة الزائلة . ولم يستطيعوا أن يتبينوا في هذه الشخصية أية معالم لاله الكون الحكيم القدير على كل شيء . لقد ذهبوا — اى الغنوصيون — الى القول بأن عقيدة اليهود أقل أجراما — نوعا ما — من وثنية الأمميين ، ولكن عقيدتهم الأساسية قامت على أن المسيح الذى يعبدونه هو أول والمع انبعاث من الاله ظهر على الأرض ليخلص بنى آدم من أخطائهم المختلفة وليبتدع طريقا آخر للحق والكمال . وأقر الآباء ، في تواضع فريد — سفسطة الغنوصيين ، واذ أقروا بأن المعنى الحرفى كريبه تنفر منه كل مبادئ الايمان والمنطق ، فانهم حسبوا انفسهم فى مأمن لا يأتهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم اذا احتوا فى الثوب الفضفاض ، ثوب الاستعارة والمجاز ، الذى أشاعوه فوق كل الأجزاء الضعيفة فى ناموس موسى .

وقيل فى براعة أكثر منه بحق ، أن الطهر العدرى فى الكنيسة لم تشبه أية شائبة من الأنشقاق أو الزيت قبل عصر تراخان أو هادريان ، بعد موت المسيح بنحو مائة عام . ولكننا نلاحظ ، فى دقة أكثر ، أن تلاميذ المسيح خلال تلك الفترة انصرفوا الى العقيدة والعبادة فى حريسة أكثر مما اتبع فى العصور التالية . ولما ضيق أخوة الكنيسة بطريقة غير ملحوظة ، ومارست الطائفة الغالبة سلطاتها الروحية فى فسوة متزايدة ، فان كثيرا من أجل أشياعها الذين دعوا لنبذها ، استشيروا للادلاء بأرائهم الخاصة ، وتتبع نتائج مبادئهم الخاطئة ، وبعبارة صريحة ليعطونا تمردهم على وحدة الكنيسة . ولقد تميز الغنوصيون بأنهم أكثر

المسيحيين أدبا وعلميا ومالا . وأما هذه التسمية العامة — التي تعبر عن اتساع معرفتهم وسموها — فقد انتطها لهم غرورهم ، أو خلعها عليهم حقد أعدائهم تهكما وسخرية . وكاد الغنوصيون ، دون استثناء يكونون من جنس الأميين . ويبدو أن المؤسسين الأصليين لهذه الطائفة كانوا من أهل سوريا أو مصر ، حيث دفء المناخ الذى يهيب للعقل والجسم معا جو التقى والورع فى دعة وتأمل . وخط الغنوصيون بالايان بالمسيح كثيرا من العقائد أو المذاهب الرائعة الغامضة فى وقت معا ، تلك التى اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زرادشت التى تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئى ، وعندما انزلقوا الى هذه الهوة السحيقة اسلموا قيادهم لخيال مهوش ، وقد كانت مسالك الخطأ متشعبة غير محدودة ، فقد انقسم الغنوصيون ، دون أن يحسوا ، الى أكثر من خمسين شيعة خاصة ، يبدو أن من أشهرهم البازيليين Basiliadians والفالنتيين Valentinians والماركيونيين Marcionites ثم المانيكانز Manichaeons فى عصر متأخر . وتفازرت كل شيعة منها بأساتفتها وأشياعها وعلمائها وشهدائها . وأخرج الهرطقة — بدلا من الأناجيل الأربعة التى قررتها الكنيسة ، مجموعة كبيرة من التواريخ التى نلتئم فيها مناقشات المسيح وحوارييه وأعمالهم مع أفكار كل شيعة بعينها . وكان نجاح الغنوصيين سريعا واسع النطاق ، فقد ملأوا آسيا ومصر ، وثبتوا مكانهم فى روما ، وتوغلوا أحيانا فى ولايات الغرب . والأرجح أنهم نشأوا فى القرن الثانى ، وترعرعوا فى القرن الثالث ، ثم خمدوا فى القرن الرابع أو الخامس بقيام جدل ومناقشات أكثر عصرية ، ويفضل السيادة العليا للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أنهم عكروا السلم دائما ، وأنهم كثيرا ما أساعوا الى اسم الدين ، فإنهم أسهموا فى تقدم المسيحية أكثر مما عوقوها . ووجد الأميون الذين تحولوا الى المسيحية ، والذين وجهت كل اعتراضاتهم وتحزباتهم ضد شريعة موسى ، وجدوا منفذا الى كثير من المجتمعات المسيحية ، التى لم تتطلب من عقولهم الأمية الجاهلة أى ايمان بوحى سابق . فقوى وزاد ايمانهم بشكل غير ملحوظ ، وأفادت الكنيسة فى النهاية من دخول الأعداء إليها .

ومهما يكن من أمر الخلاف فى الراى بين الأرثوذكس والأبيونيين والغنوصيين ، فيما يتعلق بالوهية شريعة موسى أو سندها ، فقد جمعتهم جميعا على قدم المساواة ، نفس الغيرة المطلقة ونفس الكراهية لعبادة الأصنام ، مما ميز اليهود عن سائر الأمم فى العالم القديم ، ان الفيلسوف الذى اعتبر الشرك وتعدد الآلهة مزيجا من غش الانسان وخطئه ،

ليستطيع أن يخفى ابتسامة السخرية تحت ستار التقوى ، دون أن يخشى أن تعرضه السخرية أو الامتثال لغضب أى قوى خفية — أو كما تصورها هو — قوى وهمية . ولكن المسيحيين الأولين كانوا ينظرون الى الديانات الوثنية القائمة نظرة أشد مقننا ورهبة . وكان الاعتقاد السائد عند الكنيسة والهرطقة معا أن الشياطين هم منشئو الوثنية وحمايتها وأصنامها . فان هذه الأرواح المتمردة التى حرمت من منزلة الملائكة وألقى بها فى نار جهنم ، كان لا يزال مقدرا لها أن تحوم حول الأرض لتعذيب أجسام البشر الآثمين وتضلل عقولهم ، وسرعان ما اكتشف الشياطين واستغلوا فى الانسان استعداده الطبيعى للعبادة والنسك ، فحولوا الانسان فى دهاء واحتيال عن عبادة ربه ، واغتنبوا هم مكان الاله الأعظم وأمجاده . وبنجاحهم فى محاولاتهم الخبيثة ، أرضوا فى الحال غرورهم وأشبعوا شهوتهم فى الانتقام ، وحصلوا على الراحة التى كانوا فى شك منها ، تلك هى أملهم فى انزلاق الجنس البشرى معهم لمشاركتهم اثمهم وبؤسهم . وقيل ، أو على الأقل تصور ، أنهم تقاسموا فيما بينهم أهم شخصيات الآلهة التى عرفها المشركون ، فانتحل فرد من الجن اسم جوبيتر وصفاته ، وآخر اسكولاببوس وثالث فينوس ، وربما انتحل رابع اسم أبولو . . . وأنهم بفضل مرانهم الطويل وبفضل طبيعتهم الهوائية استطاعوا فى قدر كاف من المهارة والوقار أن يمثلوا الأدوار التى عهد اليهم بها . وتبعوا فى المعابد ، ونظموا الاحتفالات والقرايين ، وابتدعوا الخرافات ، ونطقوا بالوحي ، وكثيرا ما سمح لهم بالانتيان بالمعجزات ، أما المسيحيون الذين كانوا يستطيعون على الفور — بفضل توسط الأرواح الشريرة — أن يفسروا أية ظاهرة خارقة للطبيعة ، فقد كانوا يميلون ، بل يرغبون ، فى التسليم بأشد أوهام وخيالات الأساطير الوثنية اسرافا ، ولكن ايمان المسيحي كان مشويا بالرعب . واعتبر أقل بادرة من الاحترام للعبادة الوطنية ولاء مباشرا مقدما للشيطان ، وتهردا على جلال الله .

وتبعنا لهذا الرأى ، كان أول ، ولكن أشق ، واجب على المسيحي هو أن يحافظ على طهارة نفسه وينأى بها عن أرجاس الوثنية . ولم تكن ديانة الأمم مجرد عقيدة نظرية يعترف بها فى المدارس أو يوعظ بها فى المعابد . ولقد تداخلت وامتزجت آلهة الشرك وطقوسه العسديدة امتزاجا دقيقا بكل ظروف العمل واللهو ، ظروف الحياة العامة والخاصة ، وبدا أنه يستحيل على الانسان أن يتحاشى ملاحظة وجودهم فى كل شيء ، الا اذا تخلى فى نفس الوقت عن مخالطة الجنس البشرى ، وعن جميع وظائف المجتمع ومسرته . وكانت أمور الحرب والسلام تبدأ

أو تختم بتقديم قرابين رهيبة ، كان لزاما على الحاكم والسناتو والجندي أن يرأسها أو يسهم فيها (١) . وكانت المشاهد العامة جزءا أساسيا في عبادة الوثنيين المرحية وكان المفروض أن الآلهة تتقبل الألعاب التي يشترك فيها الأمير والشعب تكريما لأعيادها الخاصة ، على أنها — أى الألعاب — أعظم تقديما تفيض بالشكر والعرفان (٢) . ووجد المسيحي الذي تجنب — ورعا وفزعا — دنس السيرك أو المسرح ، وجد نفسه يقع في ورطات خبيثة في كل احتفال بهيج كلما عمد أصدقائه — في صحة بعضهم بعضا — الى صب الخمر قربانا وضراعة الى الآلهة . وعندما كانت العروس تزف في موكب الزوجية ، وسط التظاهر المتقن بالتمتع والخفر ، الى عتبة دارها الجديدة ، أو كان موكب الجنائز الحزين يسير الهوينى الى المحرقة (٣) ، فان المسيحي في هذه المناسبات الهامة كان يفضل مضطرا التخلي عن أعز الناس لديه ، على أن يرتكب الاثم الكامن في هذه الاحتفالات البعيدة عن الورع والتقوى . وتلوث بدنس الوثنية كل فن أو مهنة اتصلت ولو اتصالا يسيرا — بصناعة الأصنام أو تزيينها . وهذا حكم قاس ، لأنه جلب البؤس والشقاء الدائمين على أكبر جزء من الجماعة المشتغلة بالمهن الفكرية أو الآلية . وانك اذا القيت نظرة على المخلفات القديمة ، لوجدت فضلا عن تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة لعبادتهم — الأشكال الجميلة والأناقص اللطيفة التي قدمها خيال الاغريق ، قد أدخلت وكأنها أثمن الزخارف لبيوت الوثنيين وملابسهم وأثاثهم . بل ان فنون الموسيقى والرسم والبلاغة والشعر نفسها نبعت من نفس هذا المورد العكر . وفي رأى الآباء كان أبولو والموزيات *Muses* (٤) لسان حال الشيطان ، وهومر وفرجيل من أبرز خدامه . وقدر للأساطير الجميلة التي تسود وتحبى

(١) كان السناتو يعقد اجتماعاته في معبد أو في مكان مقدس ، وقبل أن يبدأ العمل ، كان كل عضو يقدم على المذبح شيئا من النبيذ ، والبخور .  
(٢) انظر ترتوليان *Tertullian* في كتابه "المشاهد" *De Spectaculis* . ولا يظهر هذا المصلح العنيف من التسامح مع مأساة ليوريبيديس ، أكثر مما يظهره تحذير نزال المصارعين . وكان لباس اللاعبين ، بصفة خاصة ، يضايقه ، وقد حاولوا — في خلال وكفر — بأحذيتهم الطويلة أن يضيفوا ذراعا الى طولهم .  
(٣) لم يصف فرجيل الجنائز القديمة ( في أيام ميسينوس *Misenus* وبلاس *Pallas* ) بدقة أقل مما أوضحها بها سرفيروس *Servius* ( المعلق عليه ) وكانت المحرقة نفسها مذبحا . وكانت النار تتغذى بدم الضحايا ، وكان المشيعون يرشون بماء معطر .

(٤) جمع موزية : وهي إحدى ربوات تسع في أساطير اليونان اختصاصين بحماية الآداب والعلوم والفنون ، ( المترجم ) .

نتاج عبقريتها ، أن تشيد بعظمة الشياطين . وقد زخرت اللغة التذارجة فى اليونان وفى روما بتعبيرات مألوفة ، ولكنها قاجرة ، مما يمكن أن ينطق به المسيحى المتهور فى غير تبصر ، أو يستمع إليها فى صبر شديد . كذلك ( ١ ) .

ان المغريات الخطيرة التى تربصت من كل جانب بالمؤمن غير اليقظ ، كانت تهاجمه بأشد العنف المضاعف فى أيام الأعياد الرهيبة . وكانت تنظم وتدبر على مدار السنة فى دهاء وحيلة ، بدرجة تخليع على الخرافة ثوب المسرة وغالبا ثوب الفضيلة كذلك . وخصصت بعض أقدس الأعياد فى الطقوس الرومانية للاحتفال بأول يناير فى أشد مظاهر الابتهاج العام والخاص ، ولتعداد المآثر الثقية للأموات والأحياء ، ولتوكيد الحدود التى لا يجوز الاعتداء عليها للممتلكات ، أو للترحيب ، عند عودة الربيع بقوى الاخصاب والنماء ، ولتخليد ذكرى التاريخين الخالدين فى روما : تاريخ تأسيس المدينة وتاريخ قيام الجمهورية ، ولاستعادة المساواة البدائية الفطرية بين الناس فى أيامهم الأولى ، وذلك أثناء الاباحية الرحيمة التى يتسم بها عيد زحل ( ١٧ ديسمبر من كل عام ، يوم الانقلاب الشتوى ) . ويمكن تكوين فكرة عن كراهية المسيحيين لمثل هذه الاحتفالات البعيدة عن التقوى والورع ، من الاحساس المرهف الذى اظهروه فى مناسبة أقل خطرا بكثير . فقد تعود القدماء فى أيام الأعياد العامة ، أن يزينوا أبوابهم بالمصابيح وأكاليل الفغار ، وأن يتوجوا بعوسهم بأكاليل من الزهور ، وربما كان من الميسور احتمال هذا الطقس اللطيف البريء باعتباره عملا مدنيا ، ولكن حدث من سوء الحظ أن الأبواب كانت تحت حراسة المعبودات المنزلية ، وأن الفغار كان مقدسا عند عشاق دافنى Daphne ( فى الأساطير اليونانية حورية هربت من أبولو ) . وأن أكاليل الزهور التى كانت توضع رمزا للفرح أو للأسى خصصت فى بداية نشأتها لخدمة المعتقدات الخرافية . وهنا نجد المسيحيين المرتعدين الذين استدرجوا فى هذه الحالة للتمشى مع عرف بلدهم ومع أوامر الحاكم — نجد أنهم شقوا تحت وطأة الخوف الرهيب من تأنيب ضمائرهم ومن لوم الكنيسة ، ومن الإنذار بالانتقام الإلهى . . . هذا هو الجهد المضنى القلق الذى كانت تتطلبه حماية طهارة الانجيل ضد الجرائم المعدية لعبادة الأوثان . وكان أتباع الديانة القائمة يمارسون ، بحكم التلقين أو بحكم العادة ، دون وعى ، هذه الطقوس

(١) ترتوليان فى كتابه « الأصنام » اذا استعمل صديق وثنى — لمناسبة العطس

مثلا ( عبارة « يرحمك جوبيتر » اضطر المسيحى الى الاحتجاج على البوهية جوبيتر .



الخرافية العامة أو الخاصة ، ولكنهم — كما حدث غالباً — هياؤوا الفرصة للمسيحيين ليعطنوا أو يؤكدوا تصديهم الغيور لها . وبهذه الاحتجاجات المتكررة تدعم بانستمرار تعلقهم بعقيدتهم . وكلما ازدادت غيرتهم ، خاضوا ، بمزيد من الحماسة والتوفيق ، الحرب المقدسة التي شنوها على امبراطورية الشياطين .

## ٢ — عقيدة الحياة الآخرة :

تمثل كتابات شيشرون ، بأجلى بيان ، جهل الفلاسفة القدامى وأخطاهم وترددهم فيما يتعلق بخلود الروح . فاتهم عندما كانوا يرغبون في تحصين حوارهم ضد الخوف من الموت كانوا يقررون ولو أن ما يقولون واضح ، ولكنه محزن ، أن هذه الضربة القاضية التي تصيبنا — أى الموت — إنما تخلصنا من نوائب الحياة ، وأن الموتى لن يقاسوا منها بعد موتهم . على أنه كان هناك نفر قليل من حكماء الاغريق والرومان ، تبينوا فكرة اسمى ، ومن بعض الوجوه أصدق ، عن الطبيعة البشرية ، رغم أنه يجب الاعتراف بأنه في هذا البحث الجليل كان خيالهم يوجه منطقهم ، وأن غرورهم كان يلهب خيالهم . انهم لما نظروا في ارتياح الى مدى قواهم العقلية ، ومارسوا مختلف قوى الذاكرة والخيال ، والحكم على الأشياء ، في أعماق التأملات وفي أشق الأعمال ، وتملكتهم الرغبة في الشهرة التي سبحت بهم في آفاق المستقبل ، وراء حدود المفايا والقبور ، لم يرتضوا أن يحشروا أنفسهم في زمرة حيوانات الحقل ، أو يفترضوا أن الكائن الذي أبدوا أعظم الإعجاب وأصدقته بجلاله ووقاره يمكن أن يوارى في حفرة ضيقة من الأرض ، وأن يحدد وجوده بسنوات معدودات من العمر . وفي غمرة هذا التحيز السائغ أهابوا بعلم الميتافيزيقا ، أو على الأصح بلغتها ، لنجدتهم . وسرعان ما اكتشفوا ، حيث أن أيا من خواص المادة لا تنطبق على عمليات العقل — اكتشفوا أن الروح الانسانية لا بد أن تكون تبعا لذلك شيئا متميزا عن الجسم ، شيئا نقيا بسيطا روحيا ، غير قابل للتحلل أو الفناء ، حساسا لأكبر قدر من الفضيلة والسعادة بعد تخلصه من سجنه الجسدى . ومن هذه المبادئ التبيلة الخداعة خرج الفلاسفة الذين تأثروا خطى أفلاطون بنتيجة لا مبرر لها ، حيث أكدوا ، لا مجرد الأبدية الآخرة فحسب ، بل كذلك الأزلية السابقة للروح البشرية التي تقبلوا بأحسن القبول اعتبارها جزءا من الروح السرمدية الموجودة بنفسها وجودا ذاتيا ، والتي تعم الكون وتدعمه . وقد تجدى

مثل هذه النظرية التي جاوزت مجال الحواس والتجربة البشرية في شغل فراغ عقلية فلسفية ، أو أنها ، في سكون العزلة قد تضيئ شيئاً من الراحة على قلب انسان فاضل تولاه القنوط فخارت عزيمته . ولكن سرعان ما محا معترك الحياة الجادة ومشاغفها أثر البصمات الباهتة التي تركتها هذه النظرية في المدارس . وانا لنعرف حق المعرفة الأشخاص الأفاضل الذين نبغوا في عصر شيشرون والقيصرة الأوائل ، ونحن على بينة من أعمالهم وشخصياتهم وبواعثهم ، مما يؤكد لنا أن سلوكهم في هذه الحياة لم يصدر عن أى اقتناع جازم بثواب أو عقاب في الحياة الآخرة ، ولم يخش أبرع الخطباء في ساحة المحكمة أو السناتو في روما أن يسيئوا الى سامعيهم بالتعريض بهذه النظرية على أنها رأى فسخ متطرف ينبذ في ازراء أى رجل متحرر في تعليمه وفي فهمه للأمور .

فلما لم تستطع الجهود الفائقة للفلسفة أن تخطو الى أكثر من الإشارة الباهتة الى الرغبة أو الأمل ، أو على الأقل احتمال حياة مستقبلية ( ما بعد الموت ) فإنه لم يعد هناك الا وحى الهى يمكن أن يؤكد وجود عالم غير مرئى مخصص لاستقبال أرواح الناس بعد انفصالها عن أجسادهم ويصف الأحوال في ذاك العالم المجهول . ولكننا نلمس في الديانات المعروفة في اليونان وروما عدة نقائص كامنة فيها جعلتها عاجزة عن الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة :

١ - ذلك أن الأسلوب العام في أساطيرهم لم تعززه أية براهين تاطعة . بل ان أعقل الوثنيين قد أنكر بالفعل على هذه الأساطير سلطانها المقتضب .

٢ - أما وصف جهنم فقد تركوه لخيال الرسامين والشعراء الذين حشدوا فيها الكثير من الأطياف وغرائب الوحوش التي وزعت ثوابها وعقابها في شئ يسير من المساواة والانصاف ، الى حد أن هذا الخليط السخيف من أشد الأوهام والباطيل جموحا ووحشية أزرى بالحق الصراح وضيق عليه الخناق ، على حين أنه أحب شئ الى قلب الانسان .

٣ - ونذر أن اعتبر المشركون الأتقياء في اليونان وروما نظرية « الحياة الثانية » ركنا أساسيا من أركان الايمان . فان عناية الآلهة ، بوصفها تتعلق بالجماعات العامة أكثر منها بأفراد خاصين بذواتهم ، تجلت على المسرح الظاهر للحياة الراهنة . فقد عبرت الابتهالات والتوسلات التي كانت تقدم على مذابح جوبيتر وأبولو عن تلهف

عبادها على السعادة الدنيوية ، وعن جهلهم أو عدم اكتشافهم بالحياة المستقبلية ( الثانية ) . أما في الهند وآشور ومصر والغال ، فقد أثرت القلوب الحقيقة الهامة المتعلقة بخلود الروح بدرجة أكبر من المثابرة والنجاح ، ولما كنا لا نستطيع أن ننسب الفارق إلى علو كعب المتبربرين في المعرفة ، فإسه لسبب لنا أن نرجعها إلى نفوذ الكهنة الوطيد الذي استخدم بواعث الفضيلة بمثابة وسائل لتحقيق أطماعهم .

وطبيعى أن نتوقع أن يتكشف هذا المبدأ الأساسى فى الديانة بأجلنى معانيه للشعب المختار فى فلسطين ، وأن يعهد به إلى كهنة هارون الوراثنين . وكان حتما مقضيا علينا أن نعبد النواميس الخفية للمعناية الالهية ، على حين نكتشف أن نظرية خلود الروح ليس لها وجود فى شريعة موسى ، لقد أقمها الرسل خلصة ، وفى الفترة الطويلة التى انقضت بين الاستبعاد فى مصر وفى بابل ، يبدو أن آمال اليهود ومخاوفهم معا كانت محصورة فى الدائرة الضيقة للحياة الراهنة ( الحياة الدنيا ) وبعد أن رخص كورث (١) للأمة المنفية فى العودة إلى الأرض الموعودة ، وبعد أن استرد عزرا (٢) Ezra السجلات القديمة للديانة ، نشأت فى أورشليم ، بطريقة غير ملحوظة ، طائفتان مشهورتان : الصدوقيون Sadducees والفريسيون Pharisees . والتزم الألوان - وهم من أغنى وأبرز طبقات المجتمع - التزاما شديدا بالمعنى الحرقى لشريعة موسى ، وانكروا ، عن ورع وتقى ، خلود الروح ، باعتبارها فكرة ليس لها سند فى الكتاب المقدس الذى يجلونه بوصفه الركيزة الوحيدة لعقيدتهم . وأضاف الفريسيون إلى سلطان الأسفار المنزلة سلطان التقاليد والأعراف ، حيث تقبلوا باسم التقاليد والأعراف ، بعض الأفكار النظرية فى فلسفة الأمم الشرقية أو فى ديانتها ، وكانت فى عداد هذه الأركان الجديدة للعقيدة نظريات القضاء والقدر ، والملائكة والأرواح ، والحياة الثانية بما فيها من ثواب وعقاب . ولما كان الفريسيون ، نتيجة لصرامة سلوكهم ، قد جذبوا إلى صفوفهم جمهرة الشعب اليهودى ، فقد أصبح خلود الروح هو الشعور السائد فى المجتمع اليهودى تحت حكم ملوك الأزمونيين Asmonaenoena وأحبارهم . وعجز مزاج اليهود عن أن يتقبل مثل هذا التوافق الواهى الفاتر الذى ترتضيه عقلية المشركين ، فلما أقرروا فكرة الحياة المستقبلية ، اعتنقوها بالغيرة التى شكلت دائما

(١) كورث Cyrus ، مؤسس امبراطورية الفرس ٦٠٠ - ٥٢٩ ق م - ( المترجم )

خاصية الامة . ولكن غيرتهم على اية حال لم تضاف عليها شيئا من  
الوضوح ، او حتى احتمال وجودها . وظلت نظرية الحياة والخلود التي  
فرضتها الطبيعة وأقرها المنطق ، ورحبت بها الخرافة ، في حاجة الى  
ضمان وسند حقيقة الهية ترجع الى المسيح والمثل الذي ضربه هو  
نفسه .

ولما وعد الناس بالنعيم الأبدى ، شريطة الايمان واتباع تعاليم  
الانجيل ، فليس من عجب في أن تتقبل أفواج كبيرة من كل دين ومن  
كل طبقة ومن كل ولاية في العالم الروماني ، هذا العرض الكريم . لقد  
الهب المسيحيين الأقدمين احتقارهم لحياتهم الدنيسا ، وثقتهم الحقبة  
بالخلود الذي لا يستطيع الايمان الضعيف المززع في العصور الحديثة  
أن يعطينا اية فكرة وافية عنه . وأثر الحيق بشكل قوى في الكنيسة  
الأولى ، نتيجة رأي ، مهما كان جديرا بالاحترام لنفعه وقدمه ، وجد أنه  
لا يلتئم مع الخبرة والتجربة . لقد ساد الاعتقاد بأن نهاية العالم  
وملكوت الرب وشيكنا الميء . وتنبأ الربيل بقرب وقوع هذا الحدث  
العجيب ، وقد احتفظ تلاميذهم الأولون بهذا النبا العظيم ، واضطر  
أولئك الذين فهموا احاديث المسيح بمعناها الحرفى أن يرقبوا في السحب  
عودة « ابن الانسان » عودة مجيدة ثانية ، قبل أن ينقرض تماما هذا  
الجيل الذي شهد حياته المتواضعة على الأرض ، والذي قد يظل شاهدا  
على ما أصاب اليهود من كوارث على عهد فسبازيان وهادريان . وقد  
علمتنا ثورة الفكر في القرون السبعة عشر ألا نعتد كثيرا على لغة  
النبوذة والوحى الخفية الغامضة ، ولكن طالما سمح — ومن أجل  
أغراض حكيمة — بأن يعيش هذا الخطأ في الكنيسة ، فانه أسفر عن  
خير الآثار على عقيدة وأعمال المسيحيين الذي عاشوا في هذا الترقب  
الرهيب لتلك اللحظة التي ترتعد فيها فرائص الكرة الأرضية والجنس  
البشرى بأجمعه لظهور قاضيهم الالهى .

وكانت النظرية القديمة المعروفة ، « نظرية العصر الألفى السعيد » ،  
مرتبطة ارتباطا وثيقا بعودة المسيح ثانية الى الأرض . ولما كان خُلق  
الدنيا قد تم في سنة أيام ، فان بقاءها على حالتها الراهنة قد تحدد  
بستهة آلاف سنة ، كما جاء في تواتر منسوب الى ايليا (Elijah)  
( أحد أنبياء بنى اسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد ) . واستدل بنفس  
هذا القياس على أن هذه الفترة الطويلة من الكد والصراع — والتي  
انقضى الآن معظمها — سوف تعقبها راحة ( سبت ) بهيجة مرحة مقدارها  
الف سنة ، وأن المسيح ، مع زمرة القديسين الظافرين والصفوة الذين

نجوا من الموت أو الذين بعثوا الى الحياة بمعجزة ، سيحكم على الأرض؛ حتى يحين الموعد المقرر ليوم البعث النهائي أو العالم . وكما كان هذا الأمل سارا لعقول المؤمنين الى حد أن « أورشليم الجديدة » مقر هذه الملكة المنعمة سرعان ما صورها الخيال في أبهى زينة وأبهج حلة . ومثل هذه الجنة الهائلة التي لا تنطوي الا على اللذة الطاهرة البريئة الروحية فحسب ، قد تبدو في أعين ساكنيها أنقى مما يحملون ، اذ المفروض فيهم أنهم لا يزالون على طبيعتهم البشرية مالكين لحواسهم الانسانية . وأن جنة عدن بها فيها من ملذات تصلح لبنية المراعى لم تعد تصلح للمجتمع الذي هو أكثر تقدما ورقيا ، والذي ساد الإمبراطورية الرومانية . ومن ثم شيدت مدينة من ذهب وأحجار كريمة ومنح للبقعة المجاورة لها كل ما تشتهي الأنفس من غلال وخمر ، في وفرة خارقة ، يتمتع السعداء الأخير بنتائجها التلقائي تمتعا حرا لا يشوبه حقد ولا حسد ، ولا تحجبه قيود الملكية الخاصة الممنوعة . وعنى توكيد البشرى بهذا العصر الألفى السعيد ، وترسيخها في أذهان الناس سلسلة من الآباء ابتداء من جوستين الشهيد Justin Martyr وإيرنيوس Irenaeus اللذين تبادلوا الحديث مباشرة مع تلاميذ الرسل والحواريين ، حتى لاكتانتىوس Lactantius الذي كان معلما لابن قسطنطين . وربما أمكن القول بأنه من الجائز أن هذه الفكرة لم يتقبلها الجميع ، الا انها كانت شعورا ملحا على صدور المؤمنين الارثوذكس . كما يبدو انها كانت تلفتكم مع رغبات الانسان وهواجسه ، الى حد أنها لا بد أن تكون قد أسهمت بنصيب وافر في تقدم العقيدة المسيحية . ولكن لما اكتمل صرح الكنيسة أو كاد ، نحى هذا السند المؤقت جانبا . فقد أخذت نظرية حكم المسيح على الأرض في البداية على أنها مجاز عميق ، ثم اعتبرت ، بدرجات متفاوتة ، رأيا عقيما مشكوكا فيه ، ثم في النهاية رفضت على أنها بدعة سخيفة من صنع الهرطقة والتعصب . ونجت بأعجوبة من حكم الكنيسة ، نبوءة خفية غامضة لا تزال تشكل جزءا من الشريعة المقدسة ، ولكن كان المظنون أنها تظاهر العاطفة المتفجرة وتلنتم معها .

وبينما وعد تلاميذ المسيح بالسعادة والمجد في الحكم الدنيوى ، أئذ الذين لا يؤمنون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وتقدم تدعيم عقيدة أورشليم الجديدة جنبا الى جنب بنفس الخطى مع تدمير عقيدة بابل الفامضة . وطالما كان الأباطرة الذين حكموا قبل قسطنطين يصرون على الوثنية ، فان اسم بابل كان يطلق على مدينة روما وإمبراطوريتها . فقد أعدت سلسلة منتظمة من المصائب المادية والمعنوية

التي يمكن ان تنزل بأمة مزدهرة : الاضطرابات الداخلية ، غارات أعنف المتبريرين من الأقاليم الشمالية المجهولة ، الوباء والجاعة ، الفيضانات والكسوف والخسوف ، الزلازل والظوفان . وكان كل أولئك مجرد علامات ونذر أولى للكارثة العظمى التي تنزل بروما ، حين تفتى يلسد آل سكيبيو والقيصرة بدخان يفتشها من السماء ، وتدفن مدينة التلال السبعة بقصورها ومعابدها وأقواس النصر بها ، في بحيرة من نار وحمم . ومهما يكن من أمر ، فقد يكون لغرور الرومان وكبرياتهم بعض العزاء في أن فترة امبراطوريتهم هي فترة حياة العالم نفسه ، تلك الحياة التي أهلكها مرة عنصر الماء ، ثم قدر لها أن تبثلى ثانية بدمار عاجل من عنصر النار . ولحسن الحظ تلاققت أمام فكرة الحريق العالم عقيدة المسيحيين وعرف الشرق وفلسفة الرواقيين ومقاييس الطبيعة ، بل ان البلد الذي اختير لدواع دينية ليكون المصدر والمشهد الرئيسي لهذا الحريق ، كان مهياً على أحسن وجه لهذا الغرض لأسباب طبيعية ومادية بمفاراته السحيقة وطبقاته الكبريتية وبسراكنه الكثيرة ، وما اتنا وغيزوف وليبارى الا أمثلة بسيطة لها . وما كان في مقدور أهدا المتشككين وأثجعهم أن يرفض الاعتراف بأن تدمير النار للنظام الحالي للعالم ، كان في حد ذاته محتملاً الى أبعد حدود الاحتمال . وتوقع المسيحي الذي أسس إيمانه على حجج العقل المضلة ، أقل كثيراً من اقامته على سلطان العرف وتأويل الأسفار المنزلة ، توقع هذا الدمار في رهبة وثقة باعتباره حدثاً أكيدا قريباً ، ولما كان عقله ممثلاً دائماً بهذه الفكرة المقررة ، فإنه اعتبر كل مصيبة تحل بالامبراطورية بمثابة علامة محققة من علامات الساعة أو علامات انتهاء العالم .

ان رمى أعقل الوثنيين وأفاضلهم بالجهل أو عدم التصديق بالحقيقة الالهية يبدو في العصر الحاضر اساءة وامتهانا للعقل والانسانية . ولكن الكنيسة الأولى التي كان إيمانها أثبت قواماً حكمت دون تردد بالعذاب الأبدى على أكبر عدد من الجنس البشرى . وقد يكون هناك أمل كريم في التسامح مع سقراط أو بعض الحكماء الأقدمين الآخرين الذين استخاروا العقل قبل ظهور الانجيل ، ولكن تأكد بالاجماع أن أولئك الذين أصروا في عناد ، منذ ولادة المسيح أو وفاته ، على عبادة الشياطين والجن ، لا يستحقون ، وليس لهم أن يتوقعوا ، العفو من الاله الذي استثير غضبه . ويبدو أن هذه المشاعر القاسية التي لم تكن معروفة في العالم القديم نفتت روحاً من المرارة في نظام كان يسوده الحسب والانسجام . وكثيراً ما مزق الخلاف في العقيدة الدينية روابط الدم

والإجاء والصدقة ، ورأى المسيحيون أنهم يرزحون في هذه الدنيا تحت نير الوثنيين ، فأصلهم أحيانا جنقهم وكيرياؤهم الروحي وأغوتهم نشوة الفرخ بالانتصار في المستقبل . ويقول ترتوليان (١) المتشدد Tertullian متعجبا : « أنك مولىع بالمشاهد ، فتوقع أعظم المشاهد في المحاكمة الأزنية الأخيرة ، كم أعجب ، كم أضحك ، كم أبتهج ، كم أطرب وأتهل ، حين أرى الكثير من الملوك المتكبرين والآلهة الوهمية يننون في أعقى مهاوى الظلام ، والكثير من الحكام الذين اضطهدوا اسم الله يذوبون في نار أشد سعيرا مما أشعلوا ضد المسيحيين ، والكثير من الفلاسفة الحكماء يصلون مع تلاميذهم المخدوعين نارا حامية ، وكثيرا من الشعراء المشهورين يرتعدون فرقا أمام محكمة المسيح — لا محكمة مينوس (٢) Minos ، والكثير من المثلين التراجيديين أكثر انسجاما في النغم تعبيريا عما يعانون ، والكثير من الراقصين والراقصات . . » ولكن انسانية القارئ قد تستميج لى العذر فى اسدال الستار على بقية هذا الوصف الجهنمى الذى يسترسل فيه هذا الأفريقى فى مجموعة طويلة من الفكاهات المصطنعة المجردة من الشعور .

ولا ريب فى أنه كان من بين المسيحيين الأولين كثيرون ذوو طبع أكثر النثاما وتوافقا مع وداعة عقيدتهم وما تدعو اليه من البر المحبة ، فكان هناك كثيرون ممن استشعروا الرحمة الخالصة لمصائب أصدقائهم وبنى وطنهم ، وأحسوا بالغيرة الخيرة لانقاذهم من الدمار المصدق بهم . أما المشرىك القائل الذى كانت تطارده الأهوال الجديدة غير المتوقعة التى لم يزوده كهنته أو فلاسفته بأى عاصم منها ، فكثيرا ما أربهه وأخضعه التهديد بالعذاب الأبدى . وربما ساعدت مخاوفه على النهوض بعقيدته وعقله ، وإذا حمل نفسه يوما على الظن بأن الدين المسيحى قد يكون صحيحا صادقا ، ربما بات من السهل اقتناعه بأنه أسلم وأحكم عقيدة يمكن أن ينضم إليها .

### ٣ — قوى المعجزات فى الكنيسة الأولى :

ان المواهب الخارقة التى نسبت ، حتى فى هذه الحياة ، الى المسيحيين ، دون سائر الجنس البشرى ، لا بد وانها أدت الى راحتهم

(١) من أعظم آباء الكنيسة اللاتينية ١٦٠ - ٢٥٥ م . قضى معظم حياته فى قرطاجة ( ولاية أفريقية الرومانية ) وله كتابات كثيرة باللاتينية واليونانية .  
(٢) تقول الأساطير اليونانية أنه ملك كريت ، وابن زيوس . وأصبح بعد موته أحد القضاة الثلاثة فى العالم السفلى . ( المترجم )

هم أنفسهم ، وفي الغالب الى اقتناع الزنادقة ، وفضلا عن المعجزات الطارئة ، التي كانت تحدث نتيجة التدخل المباشر للاله ، حين كان يعطل كوراثين الطبيعة خدمة للمسيحيين ، ادعت الكنيسة المسيحية ، منذ عهد الحواريين وتلاميذهم الأولين ، سلسلة لم تنقطع من قوى المعجزات ، مثل الالهام باللغات والرؤى ، والفتنؤ ، والقدرة على طرد الشياطين ، وشفاء المرضى واحياء الموتى ، وكثيرا ما وصلت المعرشة باللغات الأجنبية الى معاصري ايرينوس ، رغم أنه هو نفسه ترك ليعانى مصاعب لهجة بربرية وهو يبشر بالانجيل أهالى الضال . ويقال ان الوحى الالهى سواء جاء على شكل رؤيا فى اليقظة أو فى المنام ، انها هو محة ينعم بها فى سخاء على مختلف طبقات المؤمنين : على النساء والفتيوخ وعلى الاولاد وعلى الاساقفة ، سواء بسواء . فاذا تهيأت عقولهم الى حد كاف ، عن طريق منهج من الصلوات والصوم وقيام الليل سالتقى هذا المحرك الخارق ، غابوا عن حواسهم ونقلوا فى نشوة كل ما أوحى اليهم ، بوصفهم جوارح من الروح القدس ، مثلهم فى ذلك مثل الزمار أو الناي ، فهو جزء لا يتجزأ عن ينفخ فيه . ويمكن أن نضيف أن التصدق من هذه الرؤى كان فى الكثير الغالب ، اما كشف الستار عن غيب التاريخ المستقبل للكنيسة ، أو توجيه ادارتها الحالية . أما طرد الشياطين من أجسام أولئك التعساء الذين كان مسموحا للشياطين بتعذيبهم ، فقد اعتبر علامة على الدين ، ولو أنه انتصار عادى له ، وكم من مرة فسره المدافعون القدامى عن الدين بأنه اعظم دليل مقنع على صدق المسيحية ! وكانت العملية البشعة تتم فى حفل عام ، وبحضور عسدد كبير من النظارة وكانت سلطة طارد الأرواح الشريرة أو مهارته تخلص المريض من الشيطان ، وكان الشيطان يعترف بصوت مسموع أنه كان أحد الآلهة الكافية القديمة ، التي هرضت غصبا وكفرا على البشر عبادتها . بيد أن شفاء الأمراض المستعصية أو الشاذة الى أبعد حد ، لم يعد يدعو الى العجب أو الدهشة ، اذا تذكرنا أنه فى أيام ايرينوس ، حوالى أواخر القرن الثانى الميلادى ، كان احياء الموتى أبعد ما يكون عن اعتباره حدثا غير عادى ، وأن هذه المعجزة كثيرا ما تمت فى المناسبات الضرورية ، بالصوم الكبير واشتراك الكنيسة المحلية فى التضمرعات ، وأن الأشخاص الذين استعادهم هؤلاء الضارعون عاشوا بعد ذلك بين ظهرانيم سنوات طوالا . وفى مثل هذه الحقبة التى استطاع الايمان فيها أن يفاخر بانتصاراته العجيبة على الموت ، يبدو من العسير أن نعلل تشكك أولئك الفلاسفة الذين ظلوا ينكرون ويسخرون من نظرية البعث . وقد ركز أحد نبلاء اليونان كل جدله فى هذه النقطة الحساسة



الخطيرة ، ووعده توفيلويس استغف انطناكية باعتراف المسيحية ثورا ، اذا سمح له برؤية فرد واحد بعث حيا بالفعل . وقد يكون جديرا بالذكر ، الى حد ما ، أن مطران الكنيسة الشرقية الاولى ، رغم تلهفه على تحويل صديقه الى المسيحية ، رأى من الحكمة أن يزوغ من هذا التحدى الهائل المعقول .

وبعد أن اكتسبت معجزات الكنيسة الأولى علي مر العصور سندا ومنعة ، هوجمت مؤخرا ، في استقصاء حر بارع يبدو أنه أثار — رغم أن الناس شابلوه بترحاب بالغ — فضيحة عامة بين رجال كنيستنا وبسائر الكنائس البروتستانتية في أوروبا . وسوف تتأثر نظيرتنا الى هذا الموضوع بأية حجج أو مناقشات معينة ، أهمل كثيرا منها يعادلتنا في البحث والدرس والتأمل ، وفوق كل شيء بقيمة الدليل الذي تعودنا على أن نتطلبه لإثبات حادثة معجزة . ولا يقتضى واجب المؤرخ منه أن يقحم رأيه الخاص في هذه المشادة الحساسة الهامة ، ولكن ينبى عليه ألا يفض الطرف عن الصعوبة التي تعترض تبني نظرية توفيق بين مصلحة الدين ومصلحة العقل ، واجراء تطبيق سليم لتلك النظرية ، وتعيين حدود هذه الحقبة السعيدة بدقة ، تلك الحقبة التي خلت من الخطأ ومن الغش ، والتي قد نميل الى أن نخلع عليها هبة القوى الخارقة للطبيعة . فقد تعاقبت بلا انقطاع — منذ أول الآباء الى آخر البابوات — سلسلة من الأساقفة والقديسين والشهداء والمعجزات ، وكان تقدم الخرافة متدرجا ، ويكاد يكون غير ملحوظ ، الى حد أننا لا نعرف في أية نقطة معينة يمكن أن نحطم أغلال العرف . وأن كل عصر ليحمل شاهدا على الاحداث العجيبة التي يتميز بها ، ولا يبدو هذا الشهاد أقل وزنا وتقديرا من شاهد الجيل السابق ، حتى أدى بنا الأمر ، دون أن نشعر أو نحس الى اتهام أنفسنا بالخفة والتقلب ، اذا كنا في القرن الثامن أو القرن الثاني عشر نذكر على الأب المحترم «بيد» Bede ، أو القديس « برنار » Bernard تلك الدرجة من الثقة التي أوليناها ، في سخاء ، في القرن الثامن ، لجوسيتين أو أبرينويس (١) . وإذا قدرت صحة كل من المعجزات على أساس هئائتها ولياقتها الظاهرتين ، فقد كان في كل عصر منكرون لاعتناهم وهراطقة لتفنيد آرائهم ، وأهم وثنية لهدايتها ، كما كانت هناك بواعث يمكن ابتداعها لتبرير تدخل السماء ، على انه اذا

(١) قد يبدو جديرا بالذكر أن برنار ( من بلدة كليرفو Clairvaux ) الذي سجل كثيرا من معجزات صديقه القديس مالاتشي ، لا يذكر شيئا عن معجزاته هو نفسه ، على أنها بدورها قد رواها في عناية تامة رفاقه وتلاميذه . وهل يوجد في سلسلة التاريخ الكنسى الطويل مثال واحد لقديس يثبت لنفسه موهبة الاتيان بالمعجزات ؟

كان كل صديق للوحي موقنا بصحة قوى المعجزات وكل رجل عاقل مقتنعا بتوقفها ، فواضح أنه لابد كانت هناك فترة من الفترات انسحبوا اما فجأة أو تدريجا من الكنيسة المسيحية . وأيما فترة اختيرت لهذا الغرض : موت الحواريين ، أو تحول الامبراطورية الرومانية ( الى المسيحية ) ، أو خمود الهرطقة الأريوسية (1) . فان بلادة شعور المسيحيين الذين عاشوا في تلك الأيام مثار للدهشة الحقبة بنفس القدر . فانهم ظلوا يعززون مزاعمهم بعد فقدان قوتهم ، فقد أدت سرعة التصديق أو سلامة النية مهمة الايمان ، ورخص للتعصب في انتحال لغة الوحي ، ونسبت نتائج المفاجآت أو الحيل الى أسباب خارقة للطبيعة . وكان لايد لتجربة المعجزات الحقيقية الاصلية الحديثة أن تكون قد علمت للعالم المسيحي طرق العناية الالهية ، وراضت عيونهم . ( اذا جاز لنا أن نستعمل تعبيراً ناقصاً كثيراً ) على أسلوب الفنان « الالهى » . واذا اجترأ اليوم أبرع فنان في ايطاليا الحديثة على أن يمهر رسومه المقلدة الضعيفة باسم رافائيل أو اسسم كورجيو Correggio ، فما أسرع ما يكتشف هذا الاحتيال الوقح ، ويرفض في ازدراء ! .

ومهما يكن من رأى في معجزات الكنيسة الأولى في صدر المسيحية على عهد الحواريين ، فان هذه النعومة المستسلمة البارزة بروزا عظيما في طبع المؤمنين في القرنين الثانى والثالث أثبتت أنها ذات فائدة طارئة لقضية الحق والدين . فثمة شك دفين ، بل قهري لا ارادى ، يلازم في العصور الحديثة أكثر الناس نزوعا الى التقى والورع . فان اقرارهم بالحقائق الخارقة للطبيعة انما هو رضاً جاداً أقل كثيراً منه ادعانا قاتراً وسليبا . واذ درجنا منذ زمن طويل على أن نلاحظ ونحترم النظام الثابت « للطبيعة » فان عقلنا ، أو على الأقل تصورنا ليس مهياً بدرجة كافية لاحتمال العمل المرئى « للاله » . ولكن موقف الجنس البشرى في العصور الأولى للمسيحية كان مختلفا كل الاختلاف . فان أكثر الناس فضولا أو أسرعهم تصديقا بين الوثنيين غالبا ما كانوا يحملون على الدخول في مجتمع أكد وأقر الدعوى الفعلية لقوى المعجزات . لقد وطئت أقدام المسيحيين الأولين دوما أرض الأسرار والغموض ، وألفت عقولهم تصديق أكثر الحوادث شذوذا وغرابة . وشعروا أو تصوروا أن الشياطين كانت دون انقطاع تلاحقهم من كل جانب كما

(1) غالبا ما يحدد البروتستانت ، عادة ، هذه الفترة بتحول قسطنطين الى المسيحية . ولا يرتضى أكثر رجال الدين تعقلا اقرار معجزات القرن الرابع ، على حين لا يرتضى أكثرهم سداجة أن ينكروا معجزات القرن الخامس .

كانت الأشباح تدخل السكنية على قلوبهم ، والنبوءات تهديهم ، وابتهالات الكنيسة تنقذهم من الخطر وتبرئهم من العلة بل وتخلصهم من برائن الموت نفسه بشكل يدعو الى العجب . ان المعجزات أو الكرامات الحقيقية أو الوهمية التي كثيرا ما رأوا أنهم كانوا هم أنفسهم أهدافا أو أدوات لها ، أو شهودا عليها ، جنحت بهم ، في سعادة غامرة الى أن يتبنوا ، بنفس القدر من السهولة واليسر ، ولكن بقدر أوفر كثيرا من الانصاف والحق ، العجائب الموثوقة الأصيلة في تاريخ الانجيل ، ومن ثم فن المعجزات التي لم تتعد نطاق تجربتهم وممارستهم ، أوحى اليهم بأن يؤكدوا ويؤمنوا الى أبعد حد بالأسرار التي اعترف بأنها تجاوز حدود ادراكهم . ان هذا الأثر العميق للحقائق الخارقة للطبيعة هو الذي عرفوه وعظموه تحت اسم الايمان . وهو حالة من حالات العقل وصفت بأنها أكبر ضمان لرضوان الله وللسعادة في الآخرة ، وأوصوا بها على أنها أول ميزة ، أو قل انها الميزة الوحيدة ، التي يتحلى بها المسيحي . ومن رأى العلماء الذين هم أكثر تشدداً ل الفضائل الأخلاقية التي قد يتحلى بها الكافرون — على هذا النسق سواء بسواء — مجرد من أية قيمة أو فاعلية ، فيما تأخذ به من تبريرات .

#### ٤ — الاخلاقيات الصارمة عند المسيحيين الأوائل :

ولكن المسيحي في صدر المسيحية عبر عن ايمانه وأبرزه في فضائله . وكان المظنون حقا وصدقا أن اليقين الالهي الذي أثار العقول أو أخضعها ، لا بد ، في نفس الوقت ، أن يطهر القلوب ويوجه أعمال المؤمن . ان المدافعين الأول عن المسيحية ، الذين يبررون طهر اخوانهم وبراءتهم ، والكتاب الذين جاءوا في عصر لاحق يمجدون طهارة أسلافهم وقداستهم ، يعرضون في أجلى بيان ما طرأ على العالم من تهذيب واصلاح في السلوك والآداب بفعل تعاليم الانجيل . ولما كنت أشهد أن أشير الى الأسباب الانسانية التي ساعدت على تدعيم آثار الوحي ، فانى سأعرض في بساطة لعاملين كان طبيعيا أن يجعلها حياة المسيحيين الأولين أكثر نقاوة وأشد صرامة من حياة معاصريهم من الوثنيين أو حياة خلفائهم المنحطين : هما الندم على ما اقترفوا من آثام سابقة ، والرغبة المحمودة في الاعلاء من شأن المجتمع الذي ارتبطوا به .

وقديما وجه الكفار ، جهلا أو خبثا ، الى المسيحيين اللوم بانهم أفرؤا بالدخول الى حظيرتهم أخطر المجرمين الذين حملوا في سهولة

ويسر ، بمجرد أن استشعروا شيئاً من التائب ، على أن يغسلوا في ماء التعميد كل آثامهم الماضية ، التي رفضت معابد الآلهة أن تمنحهم أى تكفير عنها ، ولكن هذا اللوم ، إذا جرد من التويه والتحريف إنما يسهم في تمجيد الكنيسة كما أسهم في زيادة عدد شعبيها . قد يعترف أصدقاء الكنيسة دون مواربة أو خجل ، بأن كثيراً من أبرز القديسين ، كانوا قبل التعميد أكبر المجرمين المبتوذين . ان الذين اتبعوا ، في هذه الدنيا ، ولو بشكل منقوص ، تعاليم الخير واللياقة ، استنبطوا من فكرة استقامتهم هم أنفسهم شعوراً بالارتياح الهادئ الذى جعلهم أقل تعرضاً للانفعالات المفاجئة بالعار أو الحزن أو الفزع ، تلك الانفعالات التى كانت سبباً لكثير من الانحرافات العجيبة . واقتداء بسيدهم الريانى ، لم يحتقر المبشرون بالانجيل المجتمع ورجاله ، وخاصة نساءه ، ممن أقض مضاجعهم وعيهم لردائلهم ، وفي الكثير الغالب أزعتهم آثارها . فلما برئوا من الخطيئة والخرافة وانطلقوا الى الأهل المشرق فى الخلود عقدوا النية على أن يهبوا أنفسهم . لا لحياة الفضيلة وحدها ، بل لحياة التوبة والندم . وتملكت نفوسهم الرغبة فى الكمال ، ومن المعروف جيداً أنه على حين يتخذ العقل موقفاً وسطاً فائراً ، فان أهوائنا تسرع بنا فى تهور شديد الى المجال الذى يقع بين أشد المتناقضات .

ولما ادخل المتحولون فى عداد المؤمنين ورخص لهم فى الأسرار المقدسة فى الكنيسة ، وجدوا أنهم قد امتنع عليهم الافلات الى مفاسدهم الماضية نتيجة لاعتبار آخر ذى طبيعة بريئة جدية بالاحترام الى حد كبير ، ولو أنه أقل تعلقاً بالناحية الروحية . ذلك أن أى مجتمع معين يهدف للنظرات الحاسدة الحاقدة من الجميج ، وبالنسبة لصغر عدده ، يتأثر خلق هذا المجتمع بفضائل الأمراد الذين يتكون منهم وبرذائلهم ، ويكون كل فرد فيه مشغولاً — مع أكبر درجة من العناية واليقظة — بمراقبة سلوكه الخاص وسلوك اخوانه ، فانه ، بقدر ما يجب أن نتوقع أن يكابد جزءاً من العار المشترك ، قد يأمل فى أن يتمتع بنصيب من السمعة الطيبة المشتركة . فلما أحضر مسيحيو بثنيا Bithynie أمام محكمة بلىنى الصغير ، أكدوا لهذا البروقنصل أنهم — بصرف النظر عن بعدهم عن الاشتراك فى أية مؤامرة غير مشروعة ، مرتبطون بالتزام مقدس ، بالامتناع عن ارتكاب جرائم تكدر السلام الخاص أو العام فى المجتمع مثل السرقة ، النهب ، الزنا ، قول الزور ، والغش والتدليس . وحق لترتوليان ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ، أن يفاخر فى صدق وأمانة أن نفرأ قليلاً جداً من المسيحيين وقعوا تحت

يد الجلاذ ، اللهم الا بسبب ديانتهم . ان حياتهم المحفوظة بالخطر المنعزلة ، المتنافرة مع ترف العصر ، عودتهم على العفة وضبط النفس والاقتصاد ، وسائر الفضائل الوقورة العائلية . ولما كان الجزء الأكبر منهم من ذوى الحرف أو المهن ، فقد كان لزاما عليهم أن يزيلوا — بأقصى ما يمكن من النزاهة ، وبأعدل ما يمكن من التعامل — كل الشكوك التي قد تساور الكفار — وما أشد استعدادهم لها — في مظاهر الطهر والقداسة . كما أن احتقارهم للعالمية عودهم على التواضع والحلم والصبر . وكلما أمعن في اضطهادهم زادت وشائج الارتباط وثوقا بينهم . ولحظ الكفار ما بينهم من تواصل وتراحم ، وكثيرا ما استغله أسوأ استغلال أصدقائهم الغدارون المخاتلون .

وأنه لشرف كبير لأخلاق المسيحيين الأوائل أن تكون هفواتهم ، بل ذنوبهم ، نابعة من الإفراط في الفضيلة . ان أساقفة الكنيسة ومعانيها الذين دلت شهادتهم ، بل وربما أثر سلطانهم ، على وظائف ومبادئ أقرب الى التعبد منها الى الدراسة الفاحصة الماهرة ، وكثيرا ما تلقوا تعاليم المسيح والحواريين الصارمة بمعناها الحرفى ، أكثر ما تكون الحرفية ، هى التعاليم التى اقتضت فطنة المطلقين المحدثين أن يتبعوا فى تفسيرها أسلوبا أكثر تفككا وأبعد مجازا . وطمعا فى تمجيد سمو الإنجيل على حكمة الفلسفة أخذ الآباء الفيورون أنفسهم بالتقشف وشمع الشهوات والظاهرة والصبر الى ذروة ينذر امكان بلوغها ، والأندر منه ، المحافظة عليها فى مثل حالتنا الراهنة من الضعف والفساد . ان عقيدة خارقة سامية لا بد حتما أن تجلب احترام الناس ، ولكن قدس خطأ أن تحظى بموافقة هؤلاء الفلاسفة الدنيويين الذين لا يستشعرون فى توجيه هذه الحياة الانتقالية ( الحياة الدنيا ) الا مشاعر الطبيعة ومصالح المجتمع .

وهناك نزعتان طبيعيتان كثيرا ، يمكن أن نميزهما من بين أفضل الميول وأكثرها تحررا : حب اللذة وحب العمل . ولكن اذا هذبت النزعة الأولى بالفن والتعليم ورقبت بمفاتيح الاتصالات الاجتماعية ، وتزويت بهراعاة الاقتصاد والصحة مراعاة صادقة ، فانها تحقق أكبر قسط من السعادة فى الحياة الخاصة . أما حب العمل فانه يبدأ ذو طبيعة أقوى بكثير ، وكذلك أكثر ابهاما وشككا ، فانه يؤدي فى الغالب الى الغضب والطبع والانتقام ، ولكنه اذا هداه احساس باللياقة والخير — يصبح مصدرا لكل فضيلة ، واذا اقترنت تلك الفضائل بقدرات متكافئة ، كانت أية أسرة ، او دولة ، او امبراطورية مدينة بأمنها ورخائها

لشجاعة فرد واحد غير هياب ولا وجل . ويمكن ، على هذا ، أن ننسب الى حب اللذة البق الصفات وأكثرها استحسانا ، وننسب الى حب العمل أكثرهم نفعا واحتراما . وان الشخصية التي يمكن أن يجتمع ويلتئم فيها الواحد مع الآخر ( حب اللذة وحب العمل ) لتبدو أنها تشكل اكمل فكرة عن الطبيعة الانسانية . أما الفطرة الضالمة الفاقدة الوعى ، والتي يجب أن يفترض أنها مجردة منهما ، على حد سواء ، فيجب أن يأبأها الجنس البشرى بأسره ، بوصفها عاجزة تمام العجز عن تحقيق أية سعادة للفرد ، أو أى نفع عام للعالم . ولكن لم تكن هذه هي الدنيا التي كان المسيحيون الأولون يرغبون في أن يجعلوا من أنفسهم أناسا مقبولين فيها أو نافعين لها .

ان طلب المعرفة ، وتدريب العقل أو الخيال ، والتبادل الشسهي للحديث أمور تشغل وقت فراغ الذهن المتحرر ، ولكن صرامة الآباء كانت تأبى هذه المسرات مقنا وازدراء ، أو تسلم بها في حذر بالغ ، لأنهم احتقروا كل معرفة غير مجدية في الخلاص ، واعتبروا الرعونة في الحديث استغلالا آتيا لموهبة الكلام . فالجسم في حياتنا هذه مرتبط بالنفس ارتباطا غير منفصم ، الى حد يبدو معه أنه من مصلحتنا أن نتذوق ، في براءة واعتدال ، كل هذه المتع التي يتأثر بها هذا الرفيق المؤمن في سرعة شديدة . لقد كان منطق أسلافنا الأتقياء مختلفا كل الاختلاف ، فانهم كانوا يتوقون عبثا الى الاقتداء بكمال الملائكة ، فاحتقروا أو تظاهروا باحتقار ، كل بهجة دنيوية أو جسمية ، ان بعض حواسنا ضرورى في الواقع لحفظ النوع ، وبعضها لمعاشنا ، وبعضها الآخر للاعلام والمعرفة ، ومن ثم كان من أبعد المستحيلات أن نمتنع عن استخدامها . وكانت أول بادرة للذة بمثابة الايدان باسائة استغلالها ( الحواس ) . أما المرء البليد الحس المرشح للجنة فقد لحن الا يشاوم كبرى مغريات الذوق والشم فحسب ، بل كذلك ان يصم أذنيه عن النغم المنسجم الدنس ، وأن ينظر في غير اكترات الى أروع ما أنتجه فن الانسان ، فالملابس الزاهية والدور الفخمة والأثاث الفاخر افترض فيها كلها أنها تشكل جريمة مزدوجة ، وهى الزهو وحب الشهوات . ان مظهر البساطة والتعشف هو البق شئ بالمسيحي الواثق من خطاياها المرتاب في خلاصه ، وكان لوم الآباء على الترف عارضا طفيفا . ومن بين الأشياء العديدة التي تثير استنكارهم الورع يمكن أن نعدد الشعر المستعار ، أى رداء ذى لون غير الأبيض ، الآلات الموسيقية ، والزهرات من الذهب أو الفضة ، الوسائد الوثيرة ( لأن يعقوب أسند رأسه الى حجر ) الخبز الأبيض ، الأنبذة الأجنبية ، التحيات العامة ، استعمال

الحمام الساخن ، وحلق اللحية الذى هو ، على حد قول ترتوليان بمثابة كذب على وجوهنا ومحاولة فاسقة لتعديل صنع « الخالق » . وعند دخول المسيحية بين الأغنياء والمهذبين أهمل اتباع هذه القواعد أو السنن الشاذة كما لو كانت ، كما هى الحال فى الوقت الحاضر ، للقلة الطامعة فى طهارة أسمى . وانه لمن السهل دائما ، كما أنه من اللائق ، أن تدعى الطبقات الدنيا من الجنس البشرى لنفسها امتيازاً بازدرائها هذه الأبهة وهذه اللذة اللتين وضعهما الحظ فوق متناول أيديهم . إن فضيلة المسيحيين الأولين ، مثل فضيلة الرومان الأوائل ، كثيرا ما كانت مصنوعة أو محكومة بالفقر والجهل .

ونبعت صرامة الآباء العنيفة فى كل ما يتعلق بالاختلاط بين الجنسين ، من نفس المبدأ أو القاعدة — أى مقتهم لكسل متعة ترضى الطبيعة الشهوانية وتحط من شأن الجانب الروحى فى الإنسان . وكانوا يؤثرون القول بأنه لو أن آدم استمر على طاعة الخالق لعاش الى الأبد فى طهر عذرى ، ولوجدت طريقة وديعة للتكاثر فى الجنة بجنس من الكائنات البريئة الخالدة . أما الزواج فقد رخص فيه لذريته المنحطة فقط كوسيلة ضرورية لاستمرار النوع الإنسانى وليكون بمثابة قيد ، وإن يكن ناقصا ، للجموح الطبيعى فى الشهوة . وإن تردد المفتين الشرعيين الأرثوذكس فى هذا الموضوع الهام ليفضح ارتباك الرجال الذين لا يريدون اقرار نظام أرغموا هم على احتماله . وإن تعداد القوانين الغريبة الاطوار جدا ، والتي فرضوها على مخدع الزوجية بطريقة أكثر ما تكون عرضية طارئة ، لما يدعو الشباب الى الابتسام ، وتتورد له وجنات الجنس اللطيف حياء وخجلا . وقد أجمعوا على أن الزواج الأول كاف للوفاء بأغراض الطبيعة والمجتمع . أما الاتصال الشهوانى فقد بلغوا فى تثقيته وتهذيبه الى حد الشبه بالاتحاد الخفى الغامض بين المسيح وكنيسة ، وأعلنوا أنه لا ينصم بالطلاق أو بالموت . أما الزيجات التالية فقد دمجوها بأنها زنى قانونى ، أما الأشخاص الذين يقتربون هذه الخطيئة التكرار ضد الطهارة المسيحية فانهم سرعان ما كانوا يحرمون من أمجاد الكنيسة بل يطردون من بين احضانها . وطالما وصمت الرغبة بأنها جريمة ، واحتمل الزواج على انه نقیصة أو علة ، فانه لما يتمشى مع نفس المبدأ أن تعتبر حالة العزوبة أقرب منطلق الى الكمال الالهى . وكان عسيرا على روما القديمة أن تتقبل نظام الراهبات

العدارى الست (١) ، ولكن الكنيسة الأولى كانت تزخر بعدد كبير من الجنسين ممن نذروا أنفسهم للعفة الدائمة . وقليل من هؤلاء — يمكن أن نعد من بينهم أوريجن Origen ، رأوا أن من أكبر الفطنة أن يفرغوا من الجسم سلاحه (٢) وكان بعضهم جامدا بليد الاحساس ، كما صمد بعضهم أمام مغريات الجسد . واحتقاروا لهذا الهروب الشائن ، جابهت عدارى الجو الحار في أفريقيا عدوهن في عقر داره وفي أوثق التحام ، فسمحن للقساوسة والشمامسة بمشاركتهن الفراش ، وتباهين في وسط اللهب بالطهارة التي لم تلوث . ولكن « الطبيعة » المهانة أثبتت في بعض الأحيان حقوتها ، ولم يجد هذا اللون الجديد من الاستشهاد الا في انه الصق فضيحة جديدة بالكنيسة (٣) ، ومهما يكن من أمره فان كثيرا من الرهبان المسيحيين ( وهو اسم اكتسبوه من عملياتهم المؤلمة ) ربما كانوا أكثر توفيقا لأنهم كانوا أقل جراءة . فقد أمدوا بقدان اللذة الشهوانية بل وعوضوا عنه بالاعتزاز الروحي . وحتى جمهور الوثنيين كانوا يقدررون قيمة التضحية بمقدار المشقة الظاهرة فيها ، وقد أفرغ الآباء بلاغتهم المجددة في امتداح أقران المسيح العفيفين هؤلاء . تلك هي آثار قواعد الرهينة ونظمها ، تلك التي توازنت ، في عصر تال ، مع كل المزايا الننيوية للمسيحية .

ولم يكن المسيحيون أقل عدا للعلم منهم للذة في هذه الدنيا . انهم لم يعرفوا كيف يوائمون بين الدفاع عن الأشخاص والممتلكات وبين نظرية الصبر التي أوصت بالصفح بلا حدود عن الإيذات الماضية وأمرتهم بطلب اساءات جديدة . وقد امتهنت بساطتهم باستخدامهم الحلف والقسم ، وبأبهة الولاية ، وبالصرع القائم في الحياة العامة ، كما أن جهلهم الموسوم بالرفق والشفقة لم يستطع أن يقنعهم بأنه من الأمور المشروعة ، في أية مناسبة ، سفك دماء الناس بسيف العدالة .

(١) ورغم الامجاد والثواب الذي كان يجزل لهؤلاء العدارى ، كان من العسير الحصول على عدد أكبر منهم ، كما أن الخشية من موت رهيب أشد ما تكون الرهبة ، لم تحل دائما بينهن وبين الدعارة .

(٢) قبل أن تثير شهرة أوريجن الجحد عليه واضطهاده ، كان هذا العمل الشاذ يدعو الى الاعجاب أكثر منه الى اللوم ، ولما كان من عادته بصفة عامة أن يؤول الاسفار المنزلة ، فانه يبدو من سوء الحظ انه كان لزاما عليه ، في هذه الحالة فقط ، أن يقتبس المعنى الحرفي .

(٣) وصم بشرء من مثل هذه المحاولة الطائشة ، بعد ذلك بزمن طويل ، مؤسس طائفة فونترفول Fontevrault وقد اتحف ببلى نفسه وقراءه بالكتابة في هذا الموضوع الحساس .



أو في الحرب ، مهما كانت محاولتهم الاجرامية أو العدائية تهدد سلام وأمن الجماعة بأسرها . وكان من المعروف أنه ، في ظل قانون أقل كمالا ، تمت ممارسة سلطات الدستور اليهودية بموافقة السماء على أيدي أنبياء ملهمين وملوك مرسومين . وأحس المسيحيون واعترفوا بأن مثل هذا النظام ربما كان ضروريا للوضع الحاضر في العالم ، وخضعوا بكل سرور لسلطان حكامهم الوثنيين . ولكنهم في الوقت الذي استوعبوا فيه مبادئ الطاعة السلبية أبوا أن يقوموا بأي دور فعال في الإدارة المدنية ، أو في الدفاع العسكري عن الامبراطورية . وقد نتغاضى ، نوعا ما ، عن الأشخاص الذين كانوا ينهضون بالفعل قبل تحولهم الى المسيحية بهذه المهام الثقيلة الدموية ، ولكنه كان يستحيل على المسيحيين - إلا اذا نبذوا واجبا أكثر قداسة ، أن يتخذوا شخصية الجنود ، أو الحكام أو الأمراء (١) . ولقد عرضهم اغفالهم المتراخي ، بل الآثم ، للمصلحة العامة ، لاحتقار ولسوم الوثنيين الذين كانوا يتساءلون كثيرا : ماذا عسى أن يكون مصير الامبراطورية اذا هاجمها المتبريرون من كل جانب ، اذا تبنى الناس جميعا ما تتبناه الطائفة الجديدة من مشاعر الجبن والخور ؟ وكانت اجابات المدافعين المسيحيين عن هذا السؤال المهين غامضة مبهمه ، لأنهم لم يزدوا على أن يفصحوا عن السبب الخفى لهذه الطائفة ، ذلك هو توقعهم أنه ، قبل أن يتم تحول الجنس البشرى ( الى المسيحية ) لن يكون للحرب ، والحكومة ، والامبراطورية الرومانية ، والعالم نفسه ، أى وجود . وقد يلحظ في هذه الحالة كذلك ، أن موقف المسيحيين الأوائل تلاقى تماما لحسن الحظ مع شكوكهم الدينية ، وأن عزوفهم عن الحياة الجادة النشيطة ساعد على اعفائهم من الخدمة أكثر منه على حرمانهم من أمجاد الحكم والجيش .

## ٥ - نمو حكومة الكنيسة :

ولكن الخلق الانساني ، مهما خلق أو انحط نتيجة لحماس وقتى طارىء ، لا بد أن يعود شيئا فشيئا الى مستواه الصحيح الطبيعي ، ويسترد هذه الأحاسيس التي تبدو أنها أصلح شيء لظروفه الراهنة . ان المسيحيين الأوائل لم يعنوا بمشاغل الدنيا وملذاتها ، ولكن حبهم

(١) اقترح عليهم ترتوليان أن يتخذوا مغادرة البلاد ذريعة . وهى نصيحة لو شاعت معرفتها لما صلحت لكسب رضا الاباطرة علم الطائفة المسيحية .

للعمل ، ذلك الحب الذي لم تكن جذوته لتنفى عنهم كلية ، سرعان ما انتعش ووجد مجالا جديدا في حكومة الكنيسة . ذلك أن المجتمع المستقل أو المنفصل الذي تصدى للديانة القائمة في الامبراطورية ، كان مضطرا لاقتباس شكل من أشكال السياسة الداخلية ، وتعيين عدد كاف من السدنة لا يعهد اليهم بالمهام الروحية فحسب ، بل حتى بالادارة الدنيوية ( الزمنية ) للجمهورية المسيحية كذلك . ونبتت سلامة هذا المجتمع ومجده وتوسيعه ، حتى في أنقى العقول ، من روح وطنية شبيهة بتلك التي استشعرها الرومان الأولون نحو الجمهورية ، كما نبتت أحيانا من عدم اكرام مماثل باستخدام أى الوسائل التي يحتمل أن تؤدي الى هذه الغاية المرجوة . وكان طمعهم في السمو بأنفسهم وبأصدقائهم الى أمجاد الكنيسة ومناصبها ، مستترا في نيتهم الحسنة في أن يخصصوا للمصلحة العامة تلك القوة والأهمية اللتين أصبح من واجبهم أن يلتسوها لهذا الغرض وحده . وكثيرا ما اقتضت مباشرة وظائفهم أن يكتشفوا أخطاء الهرطقة أو أحابيل الفتنة ، وأن يقاوموا خطط أخوانهم الغدارين ، ويدمغوم بما يستحقون من عار وفضيحة ، ويخرجوهم من أحضان المجتمع الذي حاولوا أن يكذبوا هدوءه وسعادته . وتعلم الحكام الكنسيون المسيحيون أن يجمعوا بين فطنة الثعبان وبراعة الحمام ، ولكن كما صقل ونقح الأول ، فقد أفسد الثاني تقاليد الحكومة ، ففى الكنيسة ، كما في العالم بأسره ، أضفى الأشخاص الذين تولوا المناصب العامة على أنفسهم أهمية واعتبارا ببلاغتهم وحزمهم ، ومعرفتهم بالجنس البشرى وبراعتهم في العمل ، وكثيرا ما انتكسوا - في الوقت الذي أخفوا فيه عن الآخرين ، وربما عن أنفسهم ، البواعث الخفية لسلوكهم - انتكسوا الى الأهواء الطائشة في خضم الحياة الصاخبة التي اصطبغت بقدر أكبر من المرارة والعناد نتيجة للغيرة الروحية .

وغالبا ما كانت حكومة الكنيسة موضوع الجهاد الدينى وحصيلته ، سواء بسواء فقد كافح جميع المنافسين المعادين في روما وباريس واكسفورد وجنيف، ليهبطوا بالمثل الذي ضربه الرسل أو الحواريون(١)، الى مستوى سياسة كل منهم على حدة . وكان من رأى النفر اللليل الذين تتبعوا هذا البحث باخلاص ونزاهة ، أن الحواريين رفضوا مهمة

(١) حاولت الفئة الأرستقراطية في باريس ، وكذلك في إنجلترا ، في جراءة وحماس أن تحتفظ بالمنشأ الالهى للاساقفة . ولكن شيوخ الكنيسة الكلفينية ضاقوا ذرعا بأى رئيس . أما الحبر الرومانى فلم يعترف بأن له نظيرا .

التشريع وانهم آثروا أن يعانون بعض الافتراءات والانقسامات الجزئية، على أن يحرموا المسيحيين في الأجيال القادمة من حرية تنوع أشكال حكومتهم الكنيسية تبعاً لتغير الأزمان والظروف . وربما اكتشف نتيجة للخبرة والمران ، في أورشليم أو روما أو افيسيس أو كورنثة ذلك الأسلوب من السياسة الذي اتبع بموافقتهم ( الحواريين ) في القرن الأول . ولم ترتبط المجتمعات التي تكونت في مختلف مدن الإمبراطورية الرومانية الا بروابط الايمان والبر والاحسان فقط . وكان قوام دستورها الداخلى الاستقلال والمساواة . أما حاجتهم من النظام والتعليم الانسانى فكان يزودهم بها « الرسل » الذين كانوا يدعون لهذه المهمة دون تمييز في العمر أو في الجنس أو في القدرات الطبيعية ، والذين كانوا ، كلما أحسوا بالذمغ الالهى ، صيوا فيض « الروح » في جماعة المؤمنين . ولكن هذه المواهب الخارقة كثيرا ما أساء هؤلاء المعلمون الرسوليون استخدامها أو تطبيقها . ذلك أنهم عرضوها في وقت غير مناسب أو شوهوا خدمة الجماعة في غطرسة وجرأة ، وقد أدخلوا الي الكنيسة الرسولية في كورنثة بصفة خاصة ، نتيجة لفرورهم وغيرهم الخاطئة ، سلسلة طويلة من المعاييب المحزنة . ولما بات نظام « الرسل » ( المعلمين ) عقيما غير مجد ، بل ضارا مؤذيا ، سحبت سلطاتهم وألغيت وظائفهم وأسندت الوظائف الدينية العامة الى سدنة الكنيسة الثابتين والى الأساقفة والمشايع وحدهم ، ويبدو أن هذين اللقبين فى نشأتهما الأولى ، كانا يدلان على نفس الوظيفة ونفس الفئة من الأفراد . وكان اسم « الشيخ » يعبر عن العمر والهيبة والحكمة . أما لقب الأسقف فكان يدل على تفقدهم ايمان وسلوك المسيحيين الذين وضعوا تحت رعايتهم فى أبرشياتهم . وكان يتولى نفر من مشايخ الكنيسة ، يقل أو يكثر تبعاً لأعداد المؤمنين نسبياً — توجيه كل جماعة ناشئة بنفس القدر من السلطة ، وبالنصائح الموحدة .

ولكن ذروة اكتمال المساواة فى الحرية تتطلب يدا موجهة لحاكم أعلى ، وسرعان ما يخلق نظام المداولات العامة وظيفه الرئيس الذى يعهد اليه ، على الأقل ، بجمع آراء الجماعة وتنفيذ قراراتها . وحمل المسيحيين الأولين اهتمامهم بالهدوء العم الذى كثيرا ما كان يمكن أن يضطرب نتيجة للانتخابات السنوية أو الطارئة — نقول حملهم على انشاء حكومة محترمة دائمة ، وأن يختاروا من بين المشايخ واحدا من أعقلهم وأتدسهم ليقوم مدى الحياة ، بأعباء حاكمهم الكنسى . ومن هنا بدأ اللقب السامى « أسقف » يرتفع فوق الاسم المتواضع « شيخ » وبينما ظل هذا الأخير أفضل تمييز طبيعى لأعضاء كل مجلس لكبار

المسيحيين ، خصص الأول للدلالة على مقام الرئيس الجديد ومكانته . ان مزايا هذا الشكل الكنسى للحكم الذى يبدو أنه ابتدع قبل نهاية القرن الأول (١) ، كانت واضحة وهامة لعظمة المسيحية فى المستقبل ، ولسلامها فى الوقت الراهن . حتى لقد تبناه ، دون تأخير ، كل المجتمعات التى كانت منتشرة بالفعل فى أرجاء الامبراطورية التى كانت فى حاجة الى سند من القديم (٢) ، وما تزال تجله أقوى الكنائس فى الشرق والغرب ، باعتباره مؤسسة بدائية ، بل حتى الهية (٣) .

وليس بنا من حاجة الى القول بأن المشايخ الأتقياء المتواضعين الذين كرموا باللقب الكنسى فى البداية ، لم يكن لهم ، وربما أبوا على أنفسهم السلطة والأبهة اللتين تحيطان الآن بتاج الحبر الرومانى ، أو كبير الأساقفة الألمان . ويمكن أن نحدد فى ايجاز الحدود الضيقة لولايتهم التى كانت أساسا ولاية دينية ، ولو أنها كانت فى بعض الأحوال ذات طبيعة دنيوية . وقد انحصرت فى ادارة الاسرار المقدسة ونظام الكنيسة ، وفى الاشراف على الاحتفالات الدينية التى زادت وتنوعت بشكل غير ملحوظ ، ورسامة قسس الأكليروس الذين يحدد الأسقف لكل منهم عمله ، وادارة اموال الكنيسة ، وحسم الخلافات التى لم يكن المؤمنون يريدون طرحها أمام محاكم القضاء الوثنى . وكانت ممارسة هذه الصلاحيات — لفترة قصيرة — تتم وفقا لمشورة رابطة المشايخ ، وبوافقة جماعة المسيحيين . واعتبر الأساقفة الأولون فى مكان الصدارة من نظرائهم ، والخدام المكرمين لشعب حر . فاذا خلا كرسي رئاسة الكنيسة اختير رئيس جديد من بين المشايخ بالتصويت العام فى المجتمع ، الذى كان يظن كل عضو فيه أنه يتمتع بشخصية مقدسة كهنوتية .

هذا هو الدستور الذى اتسم بالاعتدال والمساواة والذى حكم المسيحيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الرسل ، وشكل كل مجتمع فى نطاقه الخاص جمهورية منفصلة مستقلة . ورغم ما كان من الصلة

---

(١) انظر مقدمة « أبوكاليبس Apocalypse » ( سفر رؤيا يوحنا العهد الجديد ) وعين الأساقفة بالفعل فى المدن السبع فى أفريقيا . على أن رسالة كلمنز Clemens ( التى يحتمل أنها كانت ذات تاريخ قديم ) لم تؤد بنا الى اكتشاف أى آثار لحكومة الكنيسة لا فى كورنثة ولا فى روما .

(٢) كان المعروف أنه لا وجود لكنيسة بدون أسقف ، كان هذا هو الحد الأعلى منذ عهد ترقوليان وأيرينوس .

(٣) وبعد اجتياز عقبات القرن الأول ، نجد أن الحكومة الكنسية قد عمت واستقرت حتى قوضت أركانها العرقية الجمهورية عند المصلحين السويسريين والألمان .

بين أقصى هذه الدويلات الصغيرة بعضها مع بعض ، عن طرق الرسائل أو المندوبين ، فان العالم المسيحي لم يكن بعد مرتبطاً بأية سلطة عليا أو جمعية تشريعية . فلما تضاعف عدد المؤمنين تبينوا المزاي التي تسود عليهم من وحدة المصلحة والخطط . وفي أواخر القرن الثاني اقتبست الكنائس في اليونان وآسيا النظم المفيدة ، نظم « السنودس » في الولايات ، أى مجمع الرؤساء الروحانيين فى كل منها ، والمفروض بحق أنهم استعاروا نظام المجلس التمثيلى من النماذج المشهورة فى بلادهم : مجالس المدن ، أو العصبة الآخية ، أو مجالس المدن الأيونية . وسرعان ما تقرر ، بحكم العادة ، أو كقانون ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة فى عاصمة الولاية فى فترات معينة فى الربيع والخريف . وكانوا يسترشدون فى مداولاتهم بمشورة نفر من المشايخ الممتازين ، كما كان يخفف من حدتها حضور جمهور من المستمعين . وسوت الأوامر العالية التى كانت تصدر عنهم ، والتى كانت تسمى « شرائع » أى خلاف فى العقيدة أو فى النظام . وكان طبيعياً أن يسود الاعتقاد بأن فىضاً كريماً من « الروح القدس » كان يتدفق على هذه الجمعية المتحدة من وفود الشعب المسيحي . وواءم نظام « المجلس الكنسى » الى حد بعيد ، بين الطمع الشخصى والمصلحة العامة على حد سواء ، مما أدى الى تعميمه فى كل أرجاء الامبراطورية ، فى مدى سنين قلائل . وتبدلت المراسلات بانتظام بين مجالس الولايات التى اتصلت بعضها ببعض ، كما تبادلت التصديق على اجراءات كل منها . وسرعان ما اتخذت الكنيسة الكاثوليكية شكلاً الجمهورىة الاتحادية ( الفيدرالية ) واكتسبت قوتها .

ولما حلت المجالس محل السلطة التشريعية لكل كنيسة بعينها ، ظفر الأساقفة — بفضل تحالفهم — بنصيب أكبر من السلطة التنفيذية التعسفية وحالما ارتبطوا بوحي من مصلحتهم المشتركة ، أمكنهم ، فى عزم موحد ، أن يتحدوا الحقوق الأصلية لقسسهم وشعبهم ، واستبدلوا أحوار القرن الثالث بشكل غير ملحوظ لغة الأمر بلغة النصيح والتحذير ، وبذروا بذور اغتصاب السلطة فيما بعد ، وعوضوا عن افتقارهم الى القوة والمنطق بمجازات الكتاب المقدس وبالبلادة الحماسية . وأشادوا بذكر وحدة الكنيسة وقوتها ، ممثلة فى منصب الأسقف ، وقد حظى كل أسقف من هذه الوحدة والقوة بنصيب متساو لا يتجزأ . وكثيراً ما تردد القول بأن فى مقدور الأمراء والحكام أن يباهوا بملك دنيوى عابر : والواقع أن السلطان الأسقفى وحده هو الذى ينبع من الاله ، وأمتد فوق هذه الحياة وفوق الحياة الآخرة . وكان الأساقفة نواب

المسيح وخلفاء الرسل ، والبديل الخفى للكاهن الأعظم لشريعة موسى ، واجتاحت سلطانهم المطلق في رسم القساوسة حرية الانتخابات الدينية والشعبية على حد سواء ، وحتى اذا ظلوا ، في ادارة الكنيسة ، يلتزمون رأى المشايخ وميول الشعب ، فانهم في أكبر عناية وحرص كانوا يقرون في الأذهان أنهم يفعلون ذلك مفضلين طواعية واختيارا ، واعترف الأساقفة بالسلطة العليا المخولة للجمعية المشكلة من اخوانهم ولكن كل أسقف انتزع - في حكم أبرشيته الخاصة - من « قطيعه » ( شعبه ) نفس القدر من الطاعة العمياء ، كما لو كان هذا المجاز المحبوب صادقا بمعناه الحرفى ، وكما لو كان « الراعى » من طبيعة أفضل من طبيعة « غنمه » . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطاعة لم تفرض دون بعض الجهود من جانب ، وبعض المقاومة من الجانب الآخر ، فقد كانت المعارضة الغيورة أو المفرضة من جانب الأكليروس الذين هم أدنى مرتبة تعزز الناحية الديمقراطية في الدستور تعزيزا كبيرا في كثير من الأماكن . ولكن وطنيتهم رميت بالنعوت الشائنة المخزية : بالشغب والخروج على الكنيسة ، وكانت قضية سلطان الأسقف مدينة ، في تقدمها السريع ، لجهود كثير من الأساقفة الجادين الذين استطاعوا - مثل سيبيريان القرطاجى - أن يوفقوا بين أفانين أشد رجال السياسة والدولة طمعا ، وبين الفضائل المسيحية التى تبدو مطابقة أو ملائمة لشخصية القديس والشهيد ( ١ ) .

ويلاحظ أن نفس الأسباب التى قضت على المساواة بين المشايخ في البداية ، أضفت على الأساقفة تفوقا في المنزلة ، ومن ثم سموا في الولاية والاختصاص . فانهم كلما اجتمعوا في الربيع والخريف في سنودس الولاية ( مجلس الآباء الروحانيين ) شعر أعضاء الجمعية صراحة بالفارق بينهم في المكانة والسمعة الشخصية ، وسيطرت على الجع حكمة فئة قليلة من الأعضاء وبلاغتهم . ولكن نظام الاجراءات العامة تطلب تمييزا أكثر تحديدا وأقل اثارا للحقد والبغضاء . وكان نظام الرياسة الدائمة للمجالس في كل ولاية مقصورا على أساقفة المدينة الرئيسية فيها ، وأعد هؤلاء الأساقفة المتطلعون الذين ظفروا بسرعة على الألقاب الضخمة : مطران العاصمة ، ورئيس الأساقفة - أعدوا أنفسهم سرا ليغتصبوا من رفاهتهم في حكومة الكنيسة نفس السلطة

(١) لو لم يكن نوفاتس Novatus وفلتشييسيموس Felicissimus وغيرها - ممن طردهم أسقف قرطاجة من الكنيسة بل من أفريقية كلها - نقول لو لم يكونوا من أكبر حملة الشر المعقوتين ، لطفت غيرة سيبيريان على صدق روايته في بعض الأحيان .

التي انتحلها الأساقفة أخيرا فوق رابطة المشايخ ، بل لم يمض وقت طويل حتى عمت المنافسة بين المطارنة أنفسهم في مجال الاستعلاء والصدارة ، حيث تظاهر كل منهم بإبراز الأجداد والمزايا الدنيوية لمدينته التي يرأسها ، في أبهى مظاهرها ، وأعداد المسيحيين الداخلين في نطاق رعايته الكنسية وراثهم ، والقديسين والشهداء الذين ظهروا بينهم ، والنقاوة التي حافظوا بها على تقاليد العقيدة كما انتقلت على يد سلسلة من الأساقفة الأرثوذكس من الرسل أو التلاميذ الرسوليين الذين ينسب اليهم تأسيس كنيستهم . وكان من السهل التنبؤ بأن روما — من كل الوجوه ، مدنية كانت أو كهنوتية — لابد أن تحظى باحترام الولايات — وأن تطالب بامتثالها جميعا لها . وكان عدد المؤمنين كبيرا الى الحد الذي يتناسب مع عاصمة الامبراطورية العظيمة ، وكانت كنيسة روما أعظم الكنائس وأضخمها عددا ، كما كانت بالنسبة للغرب أقدم المؤسسات المسيحية التي أخذت عنها كثير من هذه المؤسسات ديانتها بفضل الجهود الثمينة لبشرى كنيسة روما وارسالياتها . وبدلا من مؤسس رسولى واحد ، وهو أكبر موضع للفخر في أنطاكية ، أو افسيس ، أو كورنثة ، قيل ان ضفاف التيبر شرفت بوعظ أعظم اثنين من الرسل واستشهادها ، وادعى أساقفة روما أنهم وريثو كل المزايا المنسوبة الى شخص القديس بطرس أو الى منصبه (١) . وكان أساقفة ايطاليا والولايات يميلون الى أن يسمحوا لهم (لأساقفة روما) بالأولوية وبهذه المشاركة (وهذا هو نص تعبيرهم) في الارستقراطية المسيحية . أما سلطة ولى الأمر فقد رفضت في وقت شديد ، حيث عانت روح روما الطامحة من أمم آسيا وأفريقية مقاومة أشد لسلطانها الروحي منها لسلطانها الدنيوى . فان سبيريان المحب لوطنه ، والذي تحكم في كنيسة قرطاجة والمجالس الكنسية (Synods) في الولايات بأكثر تسلط مطلق ، عارض بكل قوة ونجاح طمع الحبر الرومانى ، وربط في دهاء بين قضيته وبين قضية الأساقفة الشرقيين ، وسمى — كما فعل هانيبال — الى كسب حلفاء جدد في قلب آسيا . واذا كانت هذه الحرب البونية (حرب قرطاجة) قد استمرت دون اراقة دماء ، فان هذا يرجع الى ضعف الأساقفة المتنازعين أقل

(١) ان الاشارة المشهورة الى اسم القديس بطرس مضبوطة في اللغة الفرنسية فقط حيث يقول المسيح لبطرس ( و Pierre معناها بالفرنسية صخرة ) : « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيسةى ٠٠٠ » ( اتجيل متى ١٦/١٨ ) . ونفس المعنى غير دقيق في اللغات اليونانية والايطالية واللاتينية وغيرها . وغير مفهوم اطلاقا في اللغات التوتونية .

كثيرا مما يرجع الى اعتدالهم . فقد كان القُدح والحرمان من الكنيسة أسلحتهم الوحيدة التي شهروها في وجه بعضهم بعضا طيلة احتدام النزاع ، بنفس القدر من العنف والحماس . وان الضرورة المبررة التي اقتضت يوماً لوم أحد البابوات أو القديسين أو الشهداء لتبعث الأسي في نفوس الكاثوليك الحديثين عندما يضطرون الى سرد تفاصيل هذا النزاع الذي انضم فيه أبطال الكنيسة في مثل هذه الأهواء التي هي اليق بهجلس للسناتو أو بمعسكر للجيش .

وقد نشأ عن نمو سلطان الكنيسة ذلك التمييز الذي لا ينسى ، من حيث تقسيم الناس الى علمانيين واكليروس ، ذلك التفريق الذي لم يكن معروفا لدى الاغريق والرومان (1) وكانت التسمية الأولى تشمل كل الشعب المسيحي بأسره ، أما التسمية الثانية — طبقا لمعنى اللفظ — فقد أطلقت على الفئة المختارة التي أفردت لخدمة الدين ، وهم الطائفة المشهورة من الرجال الذين قدموا للتاريخ الحديث أهم الموضوعات ، وان لم تكن في كل الأحوال أكثرها تهذبا وثقيفا . وقد أثلقت عداواتهم المتبادلة في بعض الأحيان هدوء الكنيسة الناشئة ، ولكن غيرتهم ونشاطهم اتحدا في مجال الصالح العام ، وحفزهم حب السلطة الذي استطاع أن يتسلل الى قلوب الأساقفة والشهداء ( تحت أشد الأتعة دهاء وأحتيالا ) الى الاكثار من عدد رعاياهم ، والى توسيع حدود الامبراطورية المسيحية . وكانوا مجردين من أية قوة دنيوية ، وظل الحكام المدنيون لفترة طويلة ، يثبطون همهم ويضيقون الخناق عليهم ، أكثر من أن يعاونوهم ، ولكنهم اكتسبوا ، واستخدموا ، في نطاق مجتمعهم ، اثنتين من أشد أدوات الحكم فعالية : الثواب والعقاب : الأول من سائر المؤمنين النابع من تقواهم ، والثاني من مخاوفهم المنبثقة من خشوعهم وورعهم .

١ — اقتبست الكنيسة البدائية الأولى ، لفترة قصيرة ، فكرة المشاركة العامة في طيبات الحياة ، تلك الفكرة التي داعبت خيال أفلاطون وطابت لها نفسه ، والتي عاشت بدرجة ما ، بين طائفة « الأسينيين » المتشددة Essenians ، ولقد هزت الحمية المهتمين الأولين فباعوا كل ما يملكون من المتاع الدنيوي الذي احتقروه ، ووضعوا ثمنه تحت أقدام الرسل ، وقنعوا بنصيب متساو منه عند التوزيع العام ، ولكن تقدم الديانة المسيحية عوق وأبطل شيئا فشيئا هذا السنن الكريم ،

(١) نشاهد التفريق بين العلمانية والدينية قبل عصر ترتوليان .



الذى كان لابد من ان تفسده وتسيء استغلاله سريعا جدا عودة الأثانية المركبة في الطبيعة البشرية ، اذا وضع بين أيد أقل نقاوه وطهرا من أيدي الرسل . ورخص للمرتدين الذين اعتنقوا الدين الجديد في الاحتفاظ بأرائهم ، وتسلم التركات والميراث ، وزيادة أملاك الزوجة بكل الوسائل المشروعة في التجارة والصناعة . وبدلا من التضحية المطلقة أخذ انقساوسة نسبة معتدلة . وفي الاجتماعات الأسبوعية او الشهرية كان كل مؤمن يقدم طائعا مختارا - تبعا لمقتضى المناسبة ولدرجة ثرائه وتقواه - ما تجود به نفسه لخدمة الصندوق العام . ولم يكن اى شيء يرفض مهما كان تافها ، ولكنهم دأبوا على نلقين الناس ان ركن « العشور » ( او مادة الزكاة ) في شريعة موسى لا يزال يشكل التزاما الهيا ، وانه اذا كان اليهود في ظل نظام أقل كمالا قد أمروا ان يدفعوا عشر ما يمتلكون ، فالأولى بتلاميذ المسيح أن يميزوا أنفسهم بدرجة أعلى من السخاء ، وأن يظفروا بفضل النزول عن فائض ثروتهم التي سرعان ما تفنى بفناء الدنيا نفسها (١) . وقد لا تدعو الضرورة الى القول بأن دخل كل كنيسة بعينها ، ذلك الدخل غير المحقق المتقلب ، لابد أنه كان يختلف تبعا لفقير أو غنى المؤمنين الذين انتشروا في القرى المغورة أو تجمعوا في المدن الكبيرة . وكان من رأى بعض الحكام في عهد الامبراطور دسيوس Decius أن المسيحيين في روما امتلكوا ثروة طائلة ، وأنهم استعملوا في عبادتهم أواني من الذهب والفضة ، وأن كثيرا من المهتدين باعوا أراضيهم وبيوتهم ليزيدوا في الثروة العسامة للطائفة . وأن هذا في الواقع على حساب اطفالهم اليوساء الذين وجدوا أنفسهم متسولين لأن آباءهم كانوا قديسين ، ويجدر بنا أن نستمع في ارتياب الى اتهامات الغرياء والأعداء ، بيد أنها في هذه المناسبة ، على اية حال ، تتسم ظاهريا بالصحة والاحتمال ، الى حد بعيد ، كما يتبين من الحالتين الآتيتين ، وهما الوحيدتان اللتان وصلتا الى علمنا ، واللتان تحددان مبالغ دقيقة أو تعظيان فكرة واضحة . فقد جمع أسقف قرطاجة ، حوالى هذه الفترة تقريبا ، من مجتمع أقل ثراء من مجتمع روما مائة ألف قطعة من العملة الفضية ( أكثر من ثمانمائة وخمسين جنيها استرلينيا ) ، فى نداء عاجل للمير واحسان لاغاثة الاخوة فى نوميديا ، الذين وقعوا أسرى فى أيدي بزبرة الصحراء . وقبل عهد دسيوس بنحو مائة عام ، تلقت كنيسة روما دفعة واحدة هبة قدرها مائتا ألف قطعة ( أى ضعف المبلغ السابق ) من أحد الغرياء فى بنطس ، أراد

(١) ساد نفس الرأى حوالى سنة ١٠٠٠ م ، وترتبت عليه نفس النتائج . وكانت كل الهبات تقدم بدافع « أن العالم قد اقتربت نهايته » .

ل يتخذ العاصمة مقرا له . وكانت هذه القرايين ، في معظمها ، نقدا ، لأن المجتمع السحي لم يكن راغبا ، بل لم يكن قادرا ، بدرجة كبيرة ، على احتمال عبء الممتلكات العقارية ، فقد اشترطت عدة قوانين سنت على نسق نظام الوقف عندنا ، الا تمنح أية ضياع حقيقية لاية هيئة دون امتياز خاص أو اجازة معينة من الامبراطور أو السناتو ، اللذين قلما اتجها الى منحها لمصلحة طائفة كانت في البداية موضع احتقارهما ، وفي النهاية مثار خوفهما وحقدتهما ، وقيل على أية حال ، بأنه في عهد اسكندر سيفيروس تمت صفقة يتبين منها ان الحظر قد أمكن أحيانا التخلص منه ، أو عطل ، وأنه قد رخص للمسيحيين في امتلاك الأراضي خارج حدود روما . وساعد تقدم المسيحية واضطراب الأحوال المدنية في الامبراطورية ، على الارضاء من قبضة القوانين ، ووهبت ، حوالى نهاية القرن الثالث ، ضياع كبيرة كثيرة للكنايس الفنية في روما وقرطاجه وانطاكية والاسكندرية ، وغيرها من المدن الكبرى في ايطاليا وفي الولايات .

وكان الأسقف هو الرئيس الطبيعي لسدنة الكنيسة ، وكان هو المتصرف في الموارد العامة للكنيسة دون حسيب أو رقيب . واقتصر المشايخ على المهام الروحية ، أما فئة الشماسة ، وهم التابعون الأدنى درجة ، فكانوا يستخدمون فقط في ادارة دخل الكنيسة وتوزيعه . واذا جاز لنا أن نصدق تصريحات سبريان العنيفة لقلنا معه انه كان من بين الأخوة الأفريقيين كثيرون ممن دنسوا ، أثناء تأدية وظائفهم ، لا كل نواميس الكمال في الانجيل فحسب ، بل كل جوانب الفضائل الأخلاقية كذلك . فان بعض هؤلاء السدنة المؤمنين بددوا أموال الكنيسة في صنوف المذات الشهوانية ، كما انحرف بها بعضهم الى أغراض الكسب الخاص ، والى صفقات الشراء المزورة ، والى عمليات الربا الفاحش . ولكن لما كانت تبرعات الشعب المسيحي حرة مطلقة ، فمن المتوقع أن سوء استغلالهم لم يتكرر كثيرا . كما أن المنافع العامة التي نبتت من سخائهم عكست على المجتمع الدينى شرفا ونبلا . واحتفظ بنصيب متواضع لاعالة الأسقف ومعاونيه من الأكليروس ، وخصص مبلغ كاف لنفقات العبادة العامة ، وكان من بينها أعياد المحبة والاحباب ( كما كانوا يسمونها ) وكانت تشكل جانبا سارا . أما الجزء الباقي فكان هبة مخصصة للفقراء وموقوفة عليهم ، ترك التصرف فيه لحكمة الأسقف ، من أجل اعانة الأراهل واليتامى والعرج والمرضى والعجائز في المجتمع ، ومساعدة الغرباء والحجاج ، وتخفيف ويلات المسجونين والأسرى ، وخاصة اذا كانت متاعبهم ناجمة عن استمساكهم بعروة

الدين . ولقد وحد بين أقصى الولايات بعضها بعضا رباط كريم من البر والاحسان ، وكانت أصغر المجامع تتلقى المساعدات عن طيب خاطر من صدقات اخوانهم الذين هم أكثر يسارا . وأدى مثل هذا النظام الذى عنى بأهلية الشخص أقل منه ببؤسه أو محنته ، الى تقدم المسيحية ، ومن ثم نرى الوثنيين الذين كانت تعتدل فيهم معان انسانية ، يعترفون بروح البر والخير فى الطائفة الجديدة (١) على حين كانوا يسخرون من عقائدها . وجذب الأمل فى المعونة العاجلة وفى الرعاية الآجلة الى أحضانها الكريمة كثيرا من التعساء الذين ربما تركهم اغفال الدنيا لهم فريسة للفاقة والمرض والشيخوخة . وهناك أيضا ما يحمل على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الأطفال الذين كان آباؤهم يعرضونهم للموت — طبقا للعادة غير الانسانية التى كانت سائدة فى ذلك العصر — كانوا كثيرا ما ينفذون ويعمدون ويعملون ، ويعيشون بفضل تقوى المسيحيين وعلى حساب الأموال العامة (٢) .

٢ — من الحقوق المقررة التى لا نزاع فيها أنه يمكن لكل مجتمع أن يستبعد من نطاقه ومن مزاياه الأعضاء الذين يرفضون أو يتعدون القواعد التى استقرت وتركزت برضا من الناس عامة . وفى ممارستها لهذا الحق ، كانت الكنيسة المسيحية تنزل عقابها أساسا بهرتكبي الخطايا الفاضحة ، وبخاصة الآثمين الذين ارتكبوا جرائم القتل أو التدليس أو الدعارة ، وببندعى أو معتنقى آراء الهرطقة التى كانت تدينها حكومة الكنيسة ، وبأولئك التعساء الذين دنسوا أنفسهم ، طوعا أو كرها بأية طقوس وثنية بعد تعميدهم . وكانت عواقب « الحرم » أى الحرمان من الكنيسة ذات طبيعة دنيوية وروحية فى وقت معا . حيث كان المسيحي الذى يصدر عليه هذا الحكم يحرم من الاشتراك فى عبادات المؤمنين وقرابينهم ، وتقطع العلاقات الدينية والخاصة معه . ومن ثم وجد نفسه شيئا دنسا يمتنه الأشخاص الذين كان يكن هو لهم أعظم التقدير ، أو الذين كانوا يحبونه أشد الحب ، ويقدر ما كان الطرد من مجتمع محترم يدمغه بالخزى والعار كان الجنس البشرى عامة يعرض عنه ويرتاب فيه . وكان موقف هؤلاء المبعدين المنكودين ألما

(١) يبدو أن جوليان شعر بالمدلة والهوان لأن الصدقات المسيحية لم تكن قصرا على الفقراء الغريباء كذلك .

(٢) هذا هو — على الأقل — السلوك المحمود للرساليات الحديثة ، تحت نفس الظروف فإن أكثر من ثلاثة آلاف طفل سنويا يتعرضون للموت فى شوارع بكين . ( المعروف أن هذا كتب فى القرن الثامن عشر ، وليت جييون يعيش الآن ليرى يعينى رأسه كيف تبدلت الأحوال فى بكين بالذات ) — ( المترجم ) .

محزنا في حد ذاته ، ولكن مخاوفهم كانت — كما يحدث عادة — تفوق  
 آلامهم . فان مغنم الجماعة المسيحية كانت خالدة أبدية . ولن تمحى  
 من الازمان تلك الفكرة الرهيبة ، تلك هي ان الله قد اودع مفاتيح  
 الجحيم والجنة في ايدي هؤلاء الحكام الكنسيين الذين اصدروا عليهم  
 الحكم بالادانة والابعاد . وحقا حاول الهراطقة — مقتنعين بصواب  
 مقاصدهم ، او يحدوهم الأمل الموهوم بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا  
 الطريق الصحيح للخلاص — حاولوا ان يستعيدوا — عن طريق  
 جمعياتهم المستقلة — الراحة ، الدنيوية والروحانية ، التي لم يعودوا  
 يستمدونها من المجتمع المسيحي الأكبر ، ولكن معظم الذين استسلموا  
 كرها لسلطان الرذيلة وعبادة الأصنام ، أدركوا سوء حالتهم ، وتلهفوا  
 على العودة الى نوايا الجماعة المسيحية .

وهناك ، فيما يتعلق بهؤلاء التائبين الناديين ، رايان توزعت بينهما  
 الكنيسة الأولى ، أولهما طابعه العدالة ، ويتسم ثانيهما بالرحمة .  
 أما أهل الفتوى القساة المنشددون الذين لا تلين قلوبهم ، فقد  
 أبوا عليهم ، الى الأبد ودون استثناء ، أحقر مكان في رحاب الجماعة  
 المقدسة التي امتهنتها أو هجرها ، وتركوهم لعذاب الضمير الأثم ،  
 ولم يتسامحوا معهم الا في بريق باهت من الأمل في أنه يمكن أن يتقبل  
 « الكائن الأعظم » (١) توبتهم وتذللهم في حياتهم ومماتهم . ولكن أظهر  
 الكنائس المسيحية وأكثرها احتراما اعتنقت عمليا ونظريا ، فكرة أكثر  
 اعتدالا ، فان أبواب الوفاق والمصالحة ، وأبواب السماء قل أن توصل  
 في وجه التائب النيب ، ولكنهم ابتدعوا نظاما قاسيا رهيبا ، قد  
 يؤدي الى محو جريمته ، ولكنه في نفس الوقت يردع الناس بشدة عن  
 الاقتداء به ، ذلك أن هذا التائب النيب — بعد أن يعترف أمام الملائكة  
 اعترافا يستشعر معه الاذلال ، ويصوم الى حد الضعف والهزال ،  
 مرتديا أسمالا من الخيش — كان بعد هذا كله يخر ساجدا على الأرض  
 أمام أبواب الكنيسة يتوسل بالدموع لغفران ذنبه ، ويلتمس صلوات  
 المؤمنين من أجله (٢) . وإذا كان الجرم فظيما ، لم تكن السنوات  
 الطوال من التوبة تعد كافية لارضاء « العدالة الالهية » . وكان المذنب  
 أو الهرطيق ، أو المارق ، يعاد دائما الى أحضان الكنيسة بعد هذه  
 السلسلة البطيئة الاليمة من التكفير . واحتفظ بالحكم بالحرمان الدائم

(١) وجد المنتانيون ( أتباع مونتانيوس Montanus في القرن الأول ) والنوفاشيانيون  
 ( أتباع نوفاشيدس Novachides في القرن الثالث ) — الذين اعتنقوا هذا الرأي  
 في خرابوة وعناد — وجدوا أنفسهم في النهاية في عداد الهراطقة المحرومين من الكنيسة .  
 (٢) يأسف العجبون بالمقدّم على زوال هذه الكفارة .

لبعض الجرائم الفظيعة الى حد خارق للعادة ، وبصفة خاصة الانتكاسات التي لا تغتفر من هؤلاء النائبين الذين جربوا وأساءوا استغلال رفق رؤسائهم الكنسيين . واختلف تطبيق هذا النظام المسيحي تبعا لحكمة الأساقفة ، ووفقا لظروف الآثمين وعددهم . وكان مجلس أنسيرا Ancyra والاللييرس Illiberis يعقدان في نفس الوقت تقريبا الواحد منهما في غلطة والثاني في اسبانيا ، ولكن قراراتهما - الموجودة حتى الآن ، يبدو أنها مختلفة في روحها . فان ابن غلطة الذي تكرر منه تقديم القرايين الى الأوثان بعد تعميده ، كان يمكنه أن يظفر بالغرغان بعد سبع سنين من التكفير والتوبة ، أما اذا أغرى غيره بالاعتداء به ، أضيفت الى مدة الحرمان ثلاثة أعوام آخر . أما الأسباني المنكود الذي ارتكب نفس الخطيئة . فقد حزم من الأمل في المصالحة حتى في لحظة الموت . ووضعت وثنيته على رأس قائمة تحوى على سبع عشرة خطيئة كان يصدر عليها حكم لا يقل رهبة عن هذا ، ويمكن أن نميز بينها الجرم الذي لا يغتفر ، وهو الطعن في الأسقف أو الشيخ أو حتى الشماس .

ان هذا المزيج الذي أحسن تركيبه من السخاء والصرامة ، وهذا المنهج القويم من الثواب والعقاب ، قد شكلا - وفقا لمقاييس السياسة والعدالة سواء بسواء - القوة الانسانية في الكنيسة . فان الأساقفة الذين بسطوا رعايتهم الأبوية على الحياتين الأولى والآخرة ، كانوا يدركون أهمية هذه الامتيازات ، وكانوا - وهم يسترون أطماعهم بادعائهم اللطيف محبة الطائفة - يحقدون على كل من ينافسهم في تطبيق مثل هذا النظام الضروري لمنع ارتداد هذه الجموع التي انضوت تحت راية الصليب ، والتي كانت أعدادها تتزايد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي أن نخلص من خطابات سبريان المؤثرة المتشددة الى أن نظريتي الحرمان والتكفير كانتا أهم جزء أساسي في الديانة . وأنه كان أقل خطرا على تلاميذ المسيح ان يهملوا في أداء الواجبات المعنوية من أن يجتقروا عقاب أساقفتهم أو سلطانهم . وقد نتصور أحيانا أننا انما نصغى الى صوت موسى حين أمر الأرض أن تنشق وتبتلع في سعيها المهلك أولئك المتمردين الذين رفضوا الامتثال لكهنة هرون ، وأحيانا يجدر بنا أن نفترض أننا سمعنا صوت قنصل روماني يؤكد عظمة الامبراطورية ، ويعلن عن عزمه الأكيد الذي لا ينثنى على فرض صرامة القوانين . « اذا أجز هذا الاعوجاج دون عقاب أو حساب . . . » . ( هكذا يؤنب اسقف قرطاجة زملاءه لرفقهم ورفقتهم ) ، « اذا أجز هذا الاعوجاج ، فسوف يكون في هذا نهاية قوة الأساقفة وعزمهم ، ونهاية للسلطة

الالهية السامية في حكومة الكنيسة ، ونهاية المسيحية نفسها » . وربما نبذ سبريان هذه الأمجاد الدنيوية التي كان من المحتمل الا يحصل عليها قط ، ولكن اكتساب السيطرة على ضمائر المجمع وادراكه — مهما كان صغير الشأن أو موضع احتقار العالم — أصدق ارضاء لغرور النفس البشرية ، من تملك أكبر سلطة مطلقة استبدادية تفرضها قوة السلاح والغزو على شعب أبي كاره .

لقد حاولت في هذا البحث الهام ، رغم أنه ربما كان شاقا ، أن أعرض الأسباب الثانوية التي عاونت معاونة فعالة على سلامة تعاليم الدين المسيحي ، وإذا نحن اكتشفنا بين هذه الأسباب شيئا من الزخارف المصطنعة أو الظروف الطارئة أو المزيج من الخطأ والهوى ، فليس هناك ما يدعو الى العجب من أن يتأثر الجنس البشرى وطبيعته الناقصة بهذه البواعث ، تأثرا بالغيا محسوسا ، فقد بسطت المسيحية اجنحتها بتجاح كبير ، على الامبراطورية الرومانية نتيجة لهذه الأسباب : الغيرة المطلقة ، الترقب العاجل المباشر للحياة الآخرة ، دعوى العجزات ، ممارسة الفضيلة الصارمة ، انشاء الكنيسة الاولى . وكان المسيحيون مدينين لأول هذه الأسباب ببأسهم الشديد الذي لا يغلب والذي احتقر أن يذعن للعدو الذي صمموا على تهره . أما الأسباب الثلاثة التالية فقد أمدت شجاعتهم بأقوى الأسلحة . أما آخر هذه الأسباب ، فانه وحد قلوبهم ، وسدد أسلحتهم ، وأضفى على جهودهم هذا الوزن الثقيل الذي لا يقاوم ، والذي غالبا ما تفوقت به فئة قليلة من المتطوعين الشجعان الذين أحسن تدريبهم ، على حشد كبير سييء النظام جاهل بالموضوع غير مكترث بقيام الحرب . ومن بين مختلف ديانات الشرك ، ربما كان بعض المتعصبين المتجولين في مصر وسوريا — ممن أسلموا أنفسهم للخرافة الساذجة السائدة بين السكان — هم الفئة الوحيدة من الكهنة الذين استمدوا العون والسطوة من مهنتهم الكهنوتية ، وكانوا متأثرين من الأعماق باهتمامهم الشخصي بسلامة أو رخاء معبوداتهم الحارسة . أما كهنة المشركين في روما وفي الولايات ، فقد كانوا ، في الكثير الغالب ، رجالا من أصل نبيل ، ذوى ثراء وافر ، تقبلوا مهمة العناية بمعبد مشهور ، أو قربان عام ، على أنها امتياز مشرف ، وكثيرا ما عرضوا ، على حسابهم الخاص ، بعض الألباس المقدسة وأقاموا في استهتار وفتور الطقوس القديمة ، طبقا لقوانين بلادهم وأسلوبها ، ولما كانوا مشغولين بهمام الحياة العادية ، فقلما أثار غيرتهم واخلاصهم أى لون من ألوان المصلحة ، أو أية سجايا ذات طابع كهنوتى . وقبض كل منهم في معبده أو مدينته ، فظلوا دون أن

يرتبطوا بأى رباط من روابط النظام أو الحكومة . وفي الوقت الذى اعترفوا فيه بالسلطة العليا للسنانو ومجمع الاحبار والامبراطور ، كان هؤلاء الحكام المذنبون يقنعون بالمهمة اليسيرة ، ألا وهى الإبقاء على العبادات العامة للناس فى هدوء ووقار . وقد رأينا بالفعل كم كانت العواطف الدينية لدى المشركين متباينة ، مفككة ، غامضة ، فقد تركوا بلا ضابط تقريبا للأوهام الخرافية وأفاعيل الطبيعة . وقد حددت الظروف الطارئة ومراكزهم هدف إخلاصهم ودرجته . وطالما كانت عبادتهم نهبا مباحا لألف من المعبودات على التعاقب ، فقد قل أن مس واحد منا شغاف القلب ، أو نفذ الى أعماق النفس .

### الظروف المواتية لتقدم المسيحية

وفي الوقت الذى ظهرت فيه المسيحية فى العالم ، كانت حتى هذه الانطباعات الباهتة المعيبة قد فقدت قوتها الأصلية ، فإن العقل البشرى ، القادر بقوته وحدها على ادراك خفايا العقيدة ، كان قد انتصر فى سهولة ويسر على حماقة الوثنية . واضطر ترتوليان وكتانتيوس ، عندما بذلا الجهود فى فضح زيفها وسرفها ، الى اقتباس فصاحة شيشرون أو حصافة لوشيان . وانتقلت عدوى هذه الكتابات الملحدة الى محيط أبعد كثيرا من محيط قرائها . وانتقلت بدعة الشك أو عدم التصديق من الفيلسوف الى رجل المذات أو الأعمال ، ومن النبلاء الى العامة ، ومن السيد الى العبد الوضيع خدام مائدته الذى أنصت فى لهفة الى حرية سيده فى الحديث . وتظاهر الفلاسفة فى المناسبات العامة بالنظر بعين الاحترام والوقار الى النظم الدينية فى بلادهم . ولكن احتقارهم الخفى كان ينفذ من خلال القناع الرقيق ، وحتى الناس أنفسهم — عندما تبينوا أن معبوداتهم كانت موضع استنكار وسخرية لدى الفئة التى درجوا على تبجيلها لعلو مكانتها وحسن ادراكها — امتلأت نفوسهم بالشكوك والخاوف ازاء تلك المعتقدات التى ظلوا لها عاكفين فى ايمان ثابت . وبانهيار الآراء القديمة تعرض الجزء الأكبر من الجنس البشرى لموقف اليم ممض ، وقد تتلهى وتتسلى بعض العقول الفضولية الكثيرة التساؤل بحالة الشك والتردد هذه . ولكن ممارسة الخرافة أمر محبب الى جبهة الناس ، الى حد أن ايقاظهم عنوة يظل يثير فى نفوسهم الأسف لفقدانهم هذه الرؤية البهيجة السارة . وكان حيبهم لكل ما هو غريب وخارق للطبيعة ، وحبهم لاستطلاع الحوادث المستقبلية ، ونزعتهم القوية الى الامتداد بأمالهم ومخاوفهم الى ما وراء

حدود العالم المرئي - هي الأسباب المواتية لتثبيت دعائم الشرك وتعدد الآلهة . وكانت حاجة الرجل الهمجى الى العقيدة تلج عليه الحاحا يغدو معه من اقرب الاحتمالات أن يحل طراز جديد من الخرافة وشيكا محل أية أساطير تندثر . وربما احتلت بسرعة بعض المعبودات التى هى من طراز أحدث وأكثر جدة معابد جوبيتر وأبولو المهجورة اذا لم تكن حكمة « العناية الالهية » قد أقمحت فى اللحظة المناسبة تنزيلا أصيلا صالحا يوحى بأعظم التقدير والامتناع المعقولين ، وازدانت فى نفس الوقت بكل ما يثير فضول الناس ودهشتهم وينتزع احترامهم . ولما كان كثير من الناس متحررين تقريبا من تحيزاتهم المصطنعة ، ولكنهم بنفس القدر شديدي الحساسية والرغبة فى اعتناق مذهب جديد اعتنقوا مخلصا ، فربما كان أى شئ كافيا ، ولو كان أقل جدارة واستحقاقا ، فى غمرة هذا الاستعداد الفعلى ، نقول كافيا للمء الفراغ فى قلوبهم ، ولتسكين هذا القلق المرتاب فى مشاعرهم . وقد يعجب الذين يميلون الى تتبع هذه الفكرة من أن نجاح المسيحية ظل أقل سرعة وانتشارا ، بدلا من أن يدهشوا لتقدمها السريع .

وقد اثريت ملحوظة صادقة قدر ما هى لائقة ، تلك هى أن فتوح روما قد مهدت السبيل وسهلت فتوح المسيحية ، وقد حاولنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن نوضح كيف أن أعظم الولايات حضارة فى أوروبا وآسيا وأفريقية توحدت فى ظل ملك واحد ، وأنها ارتبطت ، على مر الأيام ، بأوثق روابط القوانين والسلوك واللغة . وقد استقبل يهود فلسطين الذين ترقبوا فى لهفة وشغف مخلصا دنيويا ، استقبلوا بفتور شديد معجزات النبى المرسل ، الى حد أنهم لم يجدوا ضرورة لنشر انجيل بالعبرية ، أو على الأقل ، الاحتفاظ به . وكتبت التواريخ الموثوقة لأعمال المسيح باللغة اليونانية ، على مسافة بعيدة من أورشليم ، وبعد أن زاد الى حد كبير عدد الأميين الذين اهتموا الى المسيحية . وحالما ترجمت هذه التواريخ الى اللاتينية بائت واضحة مفهومة لرعايا روما ، فيما عدا فلاحى سوريا ومصر الذين كتبت من أجلهم ترجمات خاصة فيما بعد . ومهدت الطرق العامة التى كانت قد أنشئت لخدمة القوات الرومانية سبيل المبشرين المسيحيين من دمشق الى كورنثة ، ومن إيطاليا الى أقصى الأرض فى اسبانيا أو بريطانيا ، ولم يواجه هؤلاء الغزاة الروحيون أيا من العقبات التى قد تؤجل أو تعوق عادة دخول دين جديد الى بلاد نائية . وهناك من أقوى الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه قبل عصر دقلديانوس وقسطنطين ، كان التبشير بعقيدة المسيح يجرى فى كل ولاية وفى كل المدن الكبرى فى الامبراطورية ، ولكن تأسيس



الجامع الكثيرة والأعداد التي تألفت منها . ونسبتها الى جمهور غير المؤمنين — كل أولئك محوط بالغموض أو تائه وسط الخيال والحماس . وسنعمد الآن الى سرد هذه الظروف المبتورة ، كما وصلت الى علمنا على أية حال فيما يتعلق بانتشار المسيحية في آسيا واليونان ، ومصر ، وإيطاليا والغرب ، دون أن نغفل المكاسب الحقيقية أو الخيالية فيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية .

وكانت الولايات النغنية الممتدة من نهر الفرات الى البحر الأيوني ، هي المسرح الرئيسي الذي عرض عليه رسول الأميين غيرته وتقواه . وقد تعهد تلاميذه ، في جد ونشاط ، بذور الانجيل التي كان قد غرسها في هذه التربة الخصبة ، ويبدو أن هذه المنطقة ، في القرنين الأولين ، كانت تضم الجزء الأكبر من المسيحيين . ومن بين المجتمعات التي أنشئت في سوريا ، لم يكن هناك مجتمعات أقدم أو أسمى من المجتمعات التي أنشئت في دمشق وحلب وأنطاكية ، وقد وصفت المقدمة الرسولية لسفر الرؤيا ( رؤيا يوحنا اللاهوتي — العهد الجديد ) كنائس آسيا السبع وخلصتها : « افسس ، أزمير ، برجامس ، ثياتيرا ، سارديس ، لاودكيا ، فيلادلفيا » . وسرعان ما أنتشرت مستعمراتها في هذه البلاد الآهلة بالسكان . وفي فترة مبكرة جدا استقبلت جزيرتا قبرص وكريت وولينا تراقيا ومقدونيا الدين الجديد استقبالا طيبا ، وأسست في الحال جمهوريات مسيحية في مدن كورنثة وأسبرطة وأثينا ، والحق أن قدم الكنائس في اليونان وآسيا هيا لها فسحة من الوقت للنمو والتكاثر . بل ان جماعات الغنوصيين وغيرهم من الهرطقة لتفيد في تبيان مظاهر الانتعاش في الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث كان لفظ الهرطقة يطلق دائما على الفئة التي هي أقل عددا . ويمكن أن نضيف الى هذه الشواهد المحلية اعتراف الأميين أنفسهم وشكاواهم ومخاوفهم . فمن كتابات لوشيان — وهو فيلسوف درس الجنس البشري ووصف أحواله في أجلى بيان — يمكن أن نستخلص أن وطنه — بلاد بنطس — كان يعج ، على عهد كومودس ، بالابيقوريين ، و « بالمسيحيين » . وبعد ثمانين عاما من موت المسيح كتب السياسي الروماني الخير « بليني » ( ٦٢ — ١١٣ ) يرثى لتفاقم السيئات التي حاول سدى أن يمحوها ، فهو يؤكد في رسالته العجيبة الى الامبراطور تراجان ، أن المعابد كادت تصبح مهجورة ، وأن الضحايا المقدسة تكاد لا تجد من يشترئها ، وأن الخرافة ( يقصد العقيدة المسيحية ) لم تقتصر عدواها على المدن ، بل جاوزتها الى القرى والريف في بلاط بنطس وبيثينيا .

والمحوظ بصفة عامة ، ولو لم ندقق النظر في تعبيرات أو في بواعث هؤلاء الكتاب الذين يشيدون بتقدم المسيحية في الشرق أو يرثون لها ، أن أحدا منهم لم يترك لنا أسسا يمكن أن يستخلص منها تقدير عادل للمعدد الحقيقي للمؤمنين في تلك الولايات . وبقيت لحسن الحظ حالة واحدة يبدو أنها قد تلقى ضوءا أكثر إيضاحا على هذا الموضوع الغامض الهام . ذلك أنه في عهد تيوديسيوس ، ويعسد أن تمتعت المسيحية لمدة تزيد على ستين عاما بدفء العطف الإمبراطوري ، بلغ عدد شعب الكنيسة القديمة اللامعة في أنطاكية مائة ألف شخص ، عاش منهم ثلاثة آلاف على الهبات العامة . وقد تكون أبهة ملكة الشرق وعظمتها ، واكتظاظ السكان المعترف به في قيصرية وسلوقية ( مدينة على الفرات ) والاسكندرية ، وهلاك مائتين وخمسين ألفا من الأنفس بفعل الزلزال الذي أصاب أنطاكية أيام جوستين الأكبر — قد يكون كل أولئك عوامل كثيرة تتفق بأن مجموع سكانها لم يكن يقل عن نصف مليون ، وأن المسيحيين ، مهما تكاثر عددهم نتيجة الغيرة والسلطة ، لم يتجاوزوا خمس أهل هذه المدينة العظيمة ( أنطاكية ) . وكما تختلف النسبة التي يجب أن نأخذ بها عندما نقارن بين المضطهدين وبين الكنيسة الظاهرة ، وبين الشرق والغرب ، وبين القرى الصغيرة والمدن الآهلة ، وبين الأقطار التي تحولت حديثا إلى العقيدة وتلك التي كان المؤمنون فيها في طليعة من حظوا باسم « المسيحيين » ! على أنه يجوز الانغفل أن كريستوسوم Chrysostom ( أحد آباء الكنيسة في أنطاكية في القرن الرابع ) ، ونحن مدينون له بهذه المعلومات المفيدة — قدر في فقرة أخرى أن عدد المسيحيين كان يفوق حتى عدد اليهود الوثنيين . ولكن تذليل هذه الصعوبة الظاهرة ميسور واضح : فان الواعظ الفصيح قارن بين الدستور الكنسي والدستور المدني في أنطاكية ، وبين قائمة المسيحيين الذين ظفروا ببركة السماء بالتعميد وقائمة المواطنين الذين كان لهم حق الاسهام في الهبات العامة . وقد أدرج العبيد والغرياء والأطفال في القائمة الأولى ، واستبعدوا من الثانية .

وهيأت تجارة الاسكندرية الواسعة ، وقربها من فلسطين ، منفذا سهلا للديانة الجديدة ، وقد اعتنقتها أعداد كبيرة من طائفة Therapeutae والأسينيين Essenians القاطنين في منطقة بحيرة مريوط — وهم طائفة من اليهود تخلت كثيرا عن احترامها للطقوس الموسوية . وقدمت حياة التقشف والتزمت التي كان يحيها هؤلاء الأسينيون وصومهم وحرمانهم من الهيكل ، واشتراكية الملكية عندهم ، وحب العزوبة ، وتحمسهم للاستشهاد ، وحرارة عقيدتهم ، رغم عدم نقاوتها — كل

أولئك قدم بالفعل صورة حية للنظام الفطرى البدائى . ويبدو أن اللاهوت المسيحى اتخذ قلبه العلمى المحدد فى مدرسة الاسكندرية ، ووجد هادريان ، عند زيارته لمصر ، كنيسة تتألف من اليهود والاعريق بلغت من الأهمية ما يكفى لجذب انتباه هذا الأمير الفضولى المحب للاستقصاء . ولكن تقدم المسيحية ظل زمتنا طويلا مقصورا على نطاق مدينة واحدة ، كانت فى حد ذاتها مستعمرة أجنبية . وظل أسلاف ديمتريوس ، حتى نهاية القرن الثانى ، هم الأحرار الوحيدى ، فى الكنيسة المصرية ، ثم رسم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة ، وزاد عددهم الى عشرين فى أيام خلفه هرقلابس Heracles . أما جمهور المواطنين ، وهم شعب يتميز بالصلابة الكثيرة ، فقد استقبلوا الدين الجديد فى فتور واشمزاز ، وكان من النادر ، حتى فى أيام أوريجن Origen أن تلقى بمصرى تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة فى بلده . والحق أنه حالما اعتلت المسيحية العرش ، امتثلت حماسة هؤلاء المتبريرى للرأى المقنع السائد ، وزخرت مدن مصر بالأساقفة ، وعجت صحراء طيبة بالنساك .

وتدفق الى رحاب روما الواسع سيل من الغرباء وسكان الولايات ، وكان أى غريب أو ممقوت ، مذنب أو مشتبه فيه ، يمكن أن يأهل فى الافلات من عين القانون الساهرة فى خضم هذه المدينة المترامية الأطراف . وسهل ، وسط هذا الخليط من الأمم ، على أى معلم يدعو الى الهدى أو الزيت ، وأى مؤسس لرابطة تقوم على الفضيلة ، أو على الائم والعدوان ، أن يضاعف عدد تلاميذه أو شركائه . وبلغ عدد المسيحىين — كما صورته بالفعل تاسيتس — رقما كبيرا — أيام اضطهادات نيرون الطارئة . وتكاد لغة هذا المؤرخ العظيم تشبه الأسلوب الذى استخدمه ليفى Livy عندما روى قصة ادخال طقوس باخوس Bacchus الى الخمر عند اليونان والرومان والغائها . وبعد أن كان عباد باخوس قد أهاجوا قسوة السناتو ، توجس هذا المجلس خيفة من أن يكون حشد كبير — كما لو كان شعبا آخر — قد لفن تلك الأسرار المقوتة . ثم أظهر بحث أكثر دقة أن المخالفين الأئمين لم يتجاوزوا سبعة آلاف ، وهذا فى الواقع رقم مخيف ، إذا نظر اليه على أنه هدف العدالة العامة . وفى مثل هذا الاعتراف الصريح يجب أن تفسر هذه العبارات الغامضة التى أوردها تاسيتوس ، أو التى جاءت فى حالة سابقة على لسان بلينى ، حين يببالغان فى حشود المتعصبين المخدوعين الذين نبذوا العبادات القائمة للآلهة . ولا ريب فى أن كنيسة روما كانت أولى الكنائس وأكثرها عددا . ولدينا سجل موثوق حجة يشهد بحالة

الديانة. في هذه المدينة حوالى أواسط القرن الثالث ، وبعد هدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكان الاكليروس آنذاك يتألف من أسقف وستة وأربعين من المشايخ ، وسبعة شمامسة ومثلهم من وكلائهم ، واثنين وأربعين سادنا ، وخمسين من القرائين وطاردى الأرواح الشريرة والصحاليين ، وبلغ عدد الأرامل والعجزة والفقراء الذين كانوا يعيشون على تبرعات المؤمنين ، ألفا وخمسمائة . وبحكم المنطق ، وبالقياس الى أنطاكية ، قد نجرؤ على تقدير المسيحيين في روما بنحو خمسين ألفا . وربما كان من المتعذر التحقق من عدد السكان في هذه العاصمة الكبيرة بالضبط ، ولكن أكثر التقديرات تواضعا لا يمكن ، على التحقيق ، أن يهبط به الى أقل من مليون نسمة ، يشكل المسيحيون منهم جزءا من عشرين جزءا .

ويبدو أن سكان الولايات الغربية استنقوا معرفتهم بالمسيحية من نفس المنبع الذى نشر عليهم لغة روما ومشاعرها وعاداتها . وتنبأت أفريقية والغال ، في هذا الظرف الذى هو أكثر أهمية وخطرا ، للاقتداء بالعاصمة ، ورغم المناسبات الكثيرة المواتية التى ربما دعت الرسائل الرومانية الى زيادة ولاياتها اللاتينية ، فقد تأخر طويلا عبورهم للبحر أو جبال الألب ، فلنستطيع أن نجد في هذه الأقطار العظيمة أية آثار محققة للمعتدة أو الاضطهادات، تصل الى ما بعد عهد الأنطونيين . وكان التقدم البطيء للإنجيل في المناخ البارد في الغال يختلف تمام الاختلاف عن الحماس الذى يبدو أنه استقبل به في الرمال المحرقة في أفريقية ، وسرعان ما أصبح المسيحيون الأفريقيون أحد الأعضاء الرئيسية في الكنيسة الأولى . وساعد التقليد الذى أدخل في هذه الولاية — أفريقية — وهو تعيين الأساقفة في أصغر المدن وأحقر القرى، في حالات كثيرا جدا — ساعد على ازدياد عظمة وبهاء مجتمعاتهم الدينية التى الهبتها طوال القرن الثالث ، غيرة تروتوليان ، ووجهتها مقسدة سبريان ، وتألقت بفصاحة لكتانتيوس ، ولكننا ، على النقيض من ذلك ، اذا ولينا وجوهنا شطر الغال ، لوجب علينا أن نقنع ، في عهد ماركوس أنطونينوس ، بالعثور على الجامع الهزيلة ، الموحدة في ليون وفيين ( جنوبى ليون في فرنسا ) ، بل حتى عهد ديسيوس ، لم يكن يوجد ، على التحقيق ، إلا في قليل من المدن فقط — آرل ، ناربون ، تولوز ، ليموج ، كليرمونت ، تور ، وباريس — بعض الكنائس المبعثرة هنا وهناك ، والتى قامت على اخلاص نفر قليل من المسيحيين . والحق أن الصمت يلتئم مع التعبد والنسك كل الالتئام ، ولكنه قلما يلتئم مع الغيرة والحماس ، ومن ثم يمكن أن نرى ونرثى لحالة جمود المسيحية

في هذه الولايات التي استبدلت اللغة اللاتينية بالكلتية حيث انها لم تنجب طوال القرون الثلاثة الأولى كاتبا كهنوتيا واحدا . ومن بلاد الغال التي زعمت لنفسها التفوق في العلم والسلطان على كل البلاد الواسعة في هذا الجانب من الألب انعكس نور الانجيل ، على الولايتين الثانيةين : اسبانيا وبريطانيا ، في شعاع أشد خفوتا . واذا نحن صدقنا توكيدات ترتوليان العنيفة ، فانهم تلقوا بالفعل القبس الأول من العقيدة عندما وجه هو خطابه الى حكام الامبراطور سيفيروس . ولكن المنشأ الغامض المهوش لكنائس غرب أوروبا دون في اهمال شديد ، الى حد أننا لو أردنا أن نروى زمن تأسيسها وظروفه ، لوجب علينا أن نعوض عن صمت الأقدمين بتلك الأساطير التي أملاها الجشع أو الخرافة ، بعد ذلك بزمان طويل ، على الرهبان في أديرتهم المظلمة الخاملة . ولا يستحق الذكر من هذه الأقاليم الا قصة الرسول القديس جيمس لتطرفها الشاذ . فقد تحول من صياد سمك مسالم في بحيرة جنسسارت Gennesareth ، الى فارس مقدم اغار على رأس الخيالة الاسبان في معاركهم ضد العرب . وقد مجد أعماله أكثر المؤرخين وقارا . وأظهر ضريح كمبوزتلا Compostella العجيب قوته ، وكان سيف الطائفة المحاربة تعاونه محاكم التفتيش كافيا للقضاء على أى اعتراض من نقد خبيت .

ولم يكن تقدم المسيحية محصورا في دائرة الامبراطورية الرومانية، فان الآباء الأولين الذين يفسرون الحقائق بالتبوعات ليقولون ان الدين الجديد طرق بالفعل أبواب العمورة بأسرها في بحر قرن واحد من موت « منسئة الالهى » ( السيد المسيح ) ويقول جوستين الشهيد : « لا يوجد شعب يونانى أو متبربر ، أو أى جنس آخر من الناس ، يتميز بأية لغة أو سلوك ، جاهل بالفنون أو الزراعة ، يعيش تحت الخيام ، أو يجوب الأنفاق في عربات مغطاة ، لا تقام فيه الصلوات ، باسم المسيح المصلوب ، لله خالق كل شيء » . ولكن هذه المبالغة الفاخرة التي يصعب غماية الصعوبة ، حتى في وقتنا الحاضر ، التوفيق بينها وبين حقيقة أحوال الجنس البشرى ، يمكن أن نعتبرها مجرد ملحة طائشة من كاتب ورع غير موثوق لم يراع الدقة ، تحددت مقاييس ايمانه بقدر امانيه . ولكن ايمان الآباء أو امانيهم لا يمكن أن تغير حقيقة التاريخ . وستظل حقيقة لا يتطرق اليها الشك أن متبربرى سكيذا وألمانيا الذين قوضوا أركان الملكية الرومانية كانوا مغمورين في ظلام الوثنية ، وأنه لم يكن ثمة أى مسعى ناجح الى اية درجة من النجاح لتحويل ايربيا أو ارمينيا أو اثيوبيا الى الدين الجديد ، الى أن انتقل صولجان الملك الى يدي

امبراطور أرثوذكسى . وربما أفادت ظروف الحرب والتجارة ، قبل ذلك الوقت ، في نشر بعض التعريف بالانجيل ، بين القبائل في كاليدونيا ( اسكتلنده ) وبين القاطنين على حدود الراين والدانوب والفرات ، ووراء هذا النهر الأخير ، تفردت أذاسا باعتمادها المبكر المكين للعقيدة . ومن أذاسا دخلت مبادئ المسيحية في سهولة ويسر الى المدن اليونانية والسورية التي خضعت لخلفاء ارتجزرسييس ، ولكن يبدو أنهم لم يؤثرنا تأثيرا عميقا في عقول الفرس ، الذين كان نظامهم الدينى قد أنشئء بجهود طائفة دقيقة التنظيم ، بطريقة أكثر دهاء وصلابة من الأساطير اليونانية والرومانية الغامضة .

### اعداد المسيحيين الأولين واحوالهم

وربما يبدو من هذا العرض النزيه ، وان كان عرضا غامضا ، لتقدم المسيحية أنه من المحتمل أن عدد المهتدين قد بولغ فيه الى حد الاسراف ، بفعل الخوف من ناحية والورع من ناحية أخرى . وكانت نسبة المؤمنين — طبقا لشهادة أوريجن التي لا يوجه اليها لوم ولا نقد — ضئيلة جدا ، اذا قورنت بمجموع عالم غير المؤمنين ، ولكن من الصعب — تبعا لافتقارنا الى معلومات واضحة — أن نحدد ، بل من الصعب حتى أن نحزر الأعداد الحقيقية للمسيحيين الأولين . ومهما يكن من أمر ، فان أحسن تقدير يمكن استخلاصه من أمثلة أنطاكية وروما ، لا يجيز لنا أن نتصور أن عددا من جزء أكثر من عشرين جزءا من رعايا الامبراطورية قد انضوا تحت راية الصليب قبل تحول قسطنطين ، ذلك التحول الهام الخطير الى المسيحية . ولكن يبدو أن ما درجوا عليه في شئون العقيدة والغيرة الدينية والاتحاد ، قد ضاعف من أعدادهم . وساعدت نفس الأسباب التي أسهمت في ازدياد عددهم فيما بعد ، على ابراز قوتهم واكسابهم مزيدا من المهابة .

ان بناء المجتمع المدنى ليهبط بجمهرة الشعب الى مهاوى الضعة والجهل والفقر ، في الوقت الذى تتميز فيه فئة قليلة بالثروة أو المرتبة أو المعرفة . فكانت النتيجة أن الديانة المسيحية التي خاطبت الجنس البشرى بأسره ، لا بد أن تضم تحت لوائها من المهتدين من المراتب الدنيا ، عددا أكبر بكثير منه من المراتب العليا في الحياة . وتحول هذا الظرف البرئء الطبيعى الى اتهام كرية جدا ، يبدو أن المدافعين عن العقيدة أنكروه في جرأة أقل مما استفله أعداؤها للتحريض عليه ، وهو

أن الطائفة المسيحية الجديدة تكاد تتألف تماما من سفلة القوم ، من الفلاحين والميكانيكيين ، من الأطفال والنساء ، من المتسولين والعبيد ، وربما قدم هؤلاء الأخيرون — العبید — في بعض الأحيان ، الإرساليات التبشيرية إلى الأسرات الغنية النبيلة التي يتبعونها . هؤلاء المعلمون الخاملون ( وتلك هي نفة الحقد والكفر ) كانوا يلوذون بالصمت في العلن ، قدر ما يثرثرون ويؤكدون عقيدتهم في مجالسهم الخاصة . وبينما كانوا يتحاشون في حذر المجابهة الخطيرة للفلاسفة ، كانوا يختلطون بالجمهور الأملئ الشرس ، ويتسللون إلى تلك العقول التي يجنح بها السن أو الجنس ( ذكر أو أنثى ) أو التعليم أحسن جنوح إلى التأثير بالارهاب الخرافي .

ان هذه الصورة القبيحة ، رغم ما تحمل من شبه طفيف ، لتفضح بتصويرها القائم ومعالمها المشوهة قلم الخصم الذي رسمها . فقد اعتنق المسيحية ، عندما انتشرت في العالم أفراد كثيرون ممن استمدوا بعض النتائج من هيات الطبيعة أو الحظ . فان أرسطيد الذي وجه إلى الإمبراطور هادريان دفاعا مجيدا بليغا كان فيلسوفا أثينيا . والتمس جوستين الشهيد المعرفة الإلهية في مدارس زينون وأرسطو وفيثاغورس وأفلاطون ، قبل أن يسعده الحظ فابتدره الرجل الشيخ ، أو بالأحرى أحد الملائكة الذي حول انتباهه إلى دراسة أنبياء بنى إسرائيل . وظفر كل من كليمنز الاسكندري وترتوليان بقراءات كثيرة ، الأول في اليونانية ، والثاني في اللاتينية ، كما حصل جوليوس الأفرقي وأوريجن على قسط كبير من التعليم في عصرهما . ورغم التباين الشاسع بين أسلوبى كل من سبريان ولكتانتئوس ، فان هذين الكاتبين كانا معلمين شعبيين للبلاغة . بل ان دراسة الفلسفة دخلت أخيرا بين المسيحيين ، ولكنها لم تسفر دائما عن أحسن النتائج ، وكثيرا ما كانت المعرفة داعية إلى الهرطقة أو التدين على قدر سواء . ويمكن أن يطلق الاسم الذي لخلع على أتباع أرتيمون Artemon بنفس القدر من اللياقة ، على مختلف الشيع التي قاومت خلفاء الرسل . « أنهم يجسرون على أن يفيروا الأسفار المنزلة المقدسة ، وينبذوا القاعدة القديمة للإيمان ، ويشكلوا آراءهم وفق التعاليم الدقيقة للمنطق . وأهل علم الكنيسة سعيا وراء دراسة الهندسة . وان ابصارهم لتعمى عن السماء عندما ينصرفون إلى قياس الأرض ، وانك لتجد أقليدس دوما بين أيديهم ، وأرسطو وتيوفراستس Theophrastus موضع اعجابهم، وكم من الاجلال والاحترام يظهرون لمؤلفات جالينوس . ان أخطاءهم صادرة من سوء استخدامهم

لفنون الكفار وعلومهم . وانهم ليفسدون بسنطة الانجيل بتلميقات العقل البشرى » .

ولا يمكن التثبت بحق من أن مزايا المولد أو الثروة كانت دواما يعزل عن اعتناق المسيحية . وقد مثل كثير من المواطنين الرومان امام محكمة بلينى ، وسرعان ما اكتشف أن عددا كبيرا من الناس من كل طبقة وطائفة في بيثينيا قد نبذوا ديانة آبائهم وأجدادهم . وقد تحظى شهادته التي لا شبهة عليها ، في هذه المناسبة ، بنصيب من الثقة والتصديق أكبر من التحدى الجرىء من جانب ترتوليان ، حيث يثير مخاوف البروقنصل في أفريقية ويهيب بالروح الانسانية فيه على حد سواء ، بقوله له انه بامعانه في أعمال القسوة سوف يبید عشر أهل قرطاجة ، ولسوف يجد بين المذنبين أفرادا كثيرين من مرتبته ، ومن شيوخ السناتو ، ومن نساء أشرف الأسرات ، ومن أصدقاء أو أقرباء أوثق صحابته صلة به ، ويبدو ، على أية حال ، أن الامبراطور فاليريان ، بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ ، قد اقتنع بصدق هذا الكلام . حيث يورد صراحة في أحد أوامره العالية أن بعض أعضاء السناتو والفرسان الرومان وفضليات النساء قد اعتنقوا المسيحية ، ودأبت الكنيسة على الاستزادة من بهائنا الظاهري حين فقدت نقاوتها الباطنة ، وفي عهد دقلديانوس اندس سرا في القصر وفي محاكم العدل ، بل وفي الجيش ، كثير من المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة .

على أن هذه الحالات الاستثنائية إما أن تكون قليلة العدد أو حديثة العهد ، الى حد لا يمكن معه أن تزيل تماما هذا الاتهام بالجهل أو الوضاعة الذى الصق في غطرسة زائدة بالمهتدين الأوائل الى المسيحية . وبدلا من أن نلجأ في الدفاع الى تخيلات وأقاصيص العصور المتأخرة ، قد يكون أقرب الى الفطنة والحرص أن نحول مظنة الفضيحة والعار الى موضوع للتهذيب والتثقيف . وقد يهدينا التفكير الجدى الى أن الرسل أنفسهم قد اختارتهم « العناية الالهية » من بين صائدى الأسماك في « الجليل » وأننا كلما هبطنا بمستوى المسيحيين الأولين الدنيوى الى الحضيض ، توافر لنا المزيد من الأسباب الداعية الى الاعجاب بجدارتهم وتوفيقهم . انه لزام علينا الا تغرب عن أذهاننا قط مملكة السماء ، فقد وعد بها فقراء الروح ، وأن العقول التي توالى عليها المصائب وابتليت باحتقار الناس هي التي تصغى فى ابتهاج وسرور الى الوعد الالهى بالسعادة فى الحياة الآخرة ، بينما — على النقيض



من ذلك — يقنع المحظوظون بتملك هذه الدنيا . كما أن الحكماء يفرطون في الشك ويحاجون في تفوقهم العقيم في حسن ادراكهم ومعرفتهم .

وقد نكون في حاجة الى بعض هذه التأملات لنخفف عن انفسنا فقدان بعض الشخصيات اللامعة التي قد تبدو في أعيننا أجدر بالنعمة الالهية . ان أسماء ، سنكسا ، وبليني الكبير ، وبليني الصغير ، وتاسيتوس ، وبلوتارك ، وجالينوس ، والعبد ابيكتيوس Epictetus ، والامبراطور مارك أنطونينوس — ان هذه الأسماء تزين العصر الذي ازدهرت فيه ، وترفع من شأن الطبيعة البشرية . فقد أضفى كل منهم مجدا وجلالا على المكان الذي شغله في دنيا النشاط والعمل أو دنيا الفكر والتأمل على حد سواء ، ووسع البحث والدرس مداركهم المتأززة ، ونقلت الفلسفة أذهانهم من سوائب الخرافة الشعبية ، وقضوا أيامهم في البحث عن الحقيقة وممارسة الفضيلة . ولكن هؤلاء الحكماء جميعا ( وهذا مثار الدهشة ومثار الاهتمام معا ) ضربوا صفحا عن كمال المذهب المسيحي أو أنكروه . وان أفصاحهم أو صمتهم ليشف ، بقدر سواء ، عن احتقارهم لهذه الطائفة الناشئة التي نشرت في زمانهم لواءها على الامبراطورية الرومانية . أما الذين تفضلوا منهم فذكروا المسيحيين ، فانهم اعتبروهم فئة من المتحمسين العنيدون المتمردون الذين خضعوا خضوعا صريحا لمعتقداتهم الغامضة ، دون أن يكونوا قادرين على الاتيان بحجة واحدة يمكن أن تجذب انتباه اهل العقل والعلم .

وقد يكون من المشكوك فيه ، على الأقل ، أن هؤلاء الفلاسفة قرأوا كل ما نشره المسيحيون الأولون مرارا وتكرارا دفاعا عن انفسهم وعن دينهم ، ولكنه مما يدعو الى مزيد من الرثاء أن مثل هذه القضية لم يتول الدفاع فيها محامون أعظم قدرة ، فان هؤلاء انما يكتشفون عن اسفاف الشرك في حصافة وفصاحة مسرفتين ، ويستندون رحمتنا اذ يعرضون براءة اخوانهم المنكوبين وشقاءهم ، ولكنهم اذا ما رغبوا في عرض النشأة الالهية للمسيحية ، الحوا على النبوءات التي بشرت بظهور المسيح الحاحا أقوى بكثير مه على المعجزات التي صاحبت ظهوره . وقد تجدى حجتهم المفضلة في تثقيف المسيحي أو تحويل اليهودي ، لأن هذا وذلك يعترفان بقوة هذه النبوءات ، ويقتضيها الأجلال الورع أن يسعيا وراء معناها ووراء تحققها . ولكن هذه الطريقة في الانتاع تفقد كثيرا من وزنها وتأثيرها اذا وجهت الى أناس لا يفهمون الشريعة الموسوية والأسلوب الرسولي . ان المعنى السامى

للوحى العبرى المنزل ليتبخر على الأيدي غير الحاذقة ، أيدى جوستين  
ومن جاء بعده من المدافعين الذين لجأوا الى استخدام الأساليب المعرية  
والغرور المصطنع والمجازات الجامدة ، بل ان حجية هذا الوحى  
أو أصلته وصحته أصبحت موضع شك الأسمى غير المستنير ، بفعل  
هذا الخليط من التلفيقات التى تتسم بالتقى ، التى أقمحت باسم  
أورفيوس Orpheus وهرمز Hermes والعرفات والمنتبئات بالغيب(١) ،  
على هذا الأسمى ، وكأنها فى منزلة الوحى السماوى الأصيل . وغالبا  
ما يذكرنا اقتباس هذا التدليس والسفسطة فى الدفاع عن الوحى المنزل  
بالسلوك المعيب الغرير للشعراء الذين ينقلون ظهور أبطالهم الذين  
لا ينفذ اليهم أى سلاح ، بدروع مريكة هشة لا فائدة فيها .

ولكن كيف نغفر للوثنيين ولعالم الفلسفة غفلتهم اللاهية عن الأدلة  
التي قدمتها « القدرة الالهية » لا لعقولهم ، بل لحواسهم ؟ ففى عهد  
المسيح وحوارييه وتلاميذه الأوائل ، تأكدت العقيدة التى بشرها بها  
بكثير من الكرامات والمعجزات ، فقد استوى الأعرج على قدميه ،  
وعاد الى الأعمى نور عينيه ، وبرىء المريض من علته ، وعاد الميت الى  
الحياة ، وطرد الجن والشياطين ، وكثيرا ما توقفت الطبيعة تدعيسا  
للكنيسة . ولكن حكماء اليونان وروما أشاحوا بوجوههم عن هذه  
المشاهد العجيبة ، وبدا أنهم — فى غمرة مهام حياتهم العادية ودراساتهم  
— لا يلغون بالا الى أية تغييرات فى التدابير الأدبية أو المادية التى تحكم  
العالم . ففى عصر تيبيريوس ، ساد العالم ، أو قل ولاية مشهورة فى  
الامبراطورية الرومانية — ظلام دامس غير طبيعى لمدة ثلاث ساعات .  
ولكن هذه الحادثة الخارقة التى كان يجدر ان تثير الدهشة والفضول  
والتقوى فى نفوس البشر ، مرت دون ان يلتفت اليها أحد فى عصر هو  
من عصور العلم والتاريخ . وقد وقعت هذه الحادثة فى حياة سنكا  
وبليني الكبير اللذين كان مفروضا ان يعانيا النتائج المباشرة ،  
أو يتلقيا أول نبأ لهذه المعجزة . وقد سجل كل من هذين الفيلسوفين فى  
مؤلف قيم ، كل الظواهر الطبيعية الكبرى ، الزلازل ، النيازك ، الشهب ،  
الخشوف والكسوف ، وغير ذلك مما جمعه حبههم للاستطلاع دون كلال

(١) ربما كان يصبح من السهل على الفلاسفة الذين سخروا من نبوءات العرافات التى  
هى أقدم عبدا ، ان يكتشفوا التلفيقات اليهودية والمسيحية التى كان يقتبسها الآباء فرحين  
منتصرين ، من عهد جوستين الى لكتانتوس . فلما حققت هذه المكتسبات غرضها المحدد  
نبذت — كما نبذت فكرة « العصر الألى السعيد » . ومن سوء الحظ ان العرافة المسيحية  
حدثت عام ١٩٥ موعدا لسقوط روما ، أى بعد ٩٤٨ سنة من تأسيسها .

أو ملال . ولكن كليهما أغفل ذكر أكبر ظاهرة شهدتها العين الفانية منذ بدء الخليفة . وأفرد بليني فصلا خاصا عن كسوف ذى طبيعة خارقة استمر لمدة غير عادية ، ولكنه اكتفى بوصف النقص الشاذ فى الضوء ، الذى أعقب مقتل يوليوس قيصر ، حين بدا قرص الشمس باهتا لا يتألق طوال الجزء الأكبر من السنة . وخذ بالنعلم معظم الشعراء والمؤرخين فى ذلك الزمان ذكر فصل الظلام ، هذا الذى لا يمكن ، على التحقيق ، مقارنته بالظلمة الخارقة التى خيمت على الأرض عند موت المسيح .

## الفصل السادس عشر (٢٥٨ - ٣١٣ م)

### سياسة الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين

موقف الأباطرة • استشهاد سبيريان • تنوع سياسة الاضطهاد  
الكنيسة فى عهد دقلديانوس وخلفائه • مرسوم جاليريوس  
للتسامح

اننا اذا تأملنا جديا فى فى طهارة الدين المسيحى ، ونقاوة تعاليمه الأخلاقية وبراعة حياة الكثرة الكثيرة ممن اعتنقوا الدين فى صدر المسيحية وتثقفهم وتشدهم ، لكان أمرا طبيعيا بالضرورة أن نذهب الى القول بأن مثل هذه العقيدة الخيرة البارة كان يمكن أن يتلقاها ، حتى العالم غير المؤمن ، بالاجلال اللائق ، وأن يقرر العلماء والمهذبون — رغم سخريتهم من المعجزات — فضائل الطائفة الجديدة ، وأن يحمى الحكام ، بدلا من أن يضطهدوا ، أفراد هذه الفئة الذين التزموا الطاعة العبياء للقوانين ، ولو أنهم عزفوا عن المهام الجدية فى الجيش والحكومة . ولكننا ، من جهة أخرى ، اذا تذكرنا التسامح التام الذى قوبل به مذهب الشرك وتعدد الآلهة ، ذلك التسامح الذى آمن به الناس دون تفريق ، وتذكرنا ارتياب الفلاسفة وعدم تصديقهم ، وسياسة السناتو والأباطرة الرومان ، اذا استرجعنا كل أولئك فى الذاكرة لوقعنا فى حيرة من الأمر ، ولتساءلنا : أى ذنب جديد جناه المسيحيون ، وأى استفزاز جديد أسخط وغازب اللامبالاة الرفيعة القديمة ، وآية بواعث جديدة دفعت بالأمرء الرومان الذين لم يلقوا يوما بالا الى ألف من الديانات عاشت فى سلام فى ظل حكمهم الوادع — دفعت بهم الى انزال أشد العقاب بأى فريق من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لونا فريدا بريئا من العقيدة والعبادة ؟ .

ويبدو أن السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفا أشد صلابة وأبعد عن التسامح ، لتقاوم تقدم المسيحية . وبعد نحو ثمانين عاما من

موت المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالاعدام الذى أصدر الحكم به بروقنصل وديع مولع بالفلسفة ، بناء على قوانين سننها امبراطور اتسمت ادارته العامة بالحكمة والعدالة . وكم امتلأت صفحات الدفاع التى وجهت مرارا الى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من أن المسيحيين الذين استجابوا لحرية الضمير وتوسلوا اليها ، حرموا وحدهم ، دون سائر رعايا الامبراطورية ، من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة . وسجلت بعناية وفاة عدد قليل من الشهداء البارزين . ومنذ الوقت الذى تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا ، لم يكن حكام الكنيسة أقل انشغالا وتيقظا الى الكشف عن قسوة مخالفينها الوثنيين ، منهم بالاعتداء بهم فى سلوكهم . وسبيلنا فى هذا الفصل هو ان نستخلص ( اذا أمكن ) قليلا من الحقائق الصحيحة والطريفة معا من الركام غير المستساغ من الروايات والقصاص والأخطاء ، وأن نسرده بشكل واضح معقول ، أسباب الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون الأولون ومداهما ومدتها وأهم ظروفها .

وانه ليندر أن يكون أتباع الديانة المضطهدة ، الذين يقض الخوف مضاجعهم ، ويهيجهم الاستياء ، وربما يلهبهم الحماس - يندر أن يكونوا فى مزاج عقلى سليم ، يمكنهم من النقيب الهادى أو التقدير الصادق لبواعث أعدائهم ، تلك البواعث التى كثيرا ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لأولئك الذين يقفون فى مأمن وبمناى عن نيران الاضطهاد ، وقد ذكر لسلوك الأباطرة ازاء المسيحيين الأولين ، على وجه التحديد ، سبب يبدو أنه أكثر تمويهها وأقرب احتمالا ، لانه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها . فقد كان المحوظ بالفعل أن الوثام الدينى فى العالم كان يعززه فى الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها . ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها ، بلا حرج ولا غضب ، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشرى ، ويحتقر بالضرورة - بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الالهية - أى لون من العبادة باعتباره ضلالا ووثنية ، اللهم الا عبادته هو فحسب . وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بنفس القدر . وكانت هذه الحقوق تضيق عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة . ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية ، فان الباعث الذى حدا بحكام الرومان الى المعاملة التى لقيها منهم اليهود قد يوضح الى أى مدى تبرر الحقائق هذه التأملات ، وتؤدى الى الكشف عن الأسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية .

وسوف نشير فقط ، دون تكرار الى ما أسلفنا بالفعل ذكره من احترام الملوك والحكام الرومان للهيكل في اورشليم ، الى أن ندمير الهيكل والمدينة ، اقتربنا ، كما أعقبها ، بكل الظروف التي تغضب الغاتحين ، ويتيح الاضطهاد الديني بأشد ذرائع العدالة الاجتماعية والأمن العام تمويهها وخداعا . فمئذ عهد نيرون حتى عهد أنطونينوس بيوس أظهر اليهود ضجرا جديدا بحكم روما ، تجلى مرارا في أعنف المذابح والثورات . وان العالم ليصعق لدى سماعه بأفطع أعمال القسوة الرهيبة التي ارتكبوها في مدن مصر وقبرص وبرقة ، حيث عاشوا في صداقة غدارة خائنة مع المواطنين غير المرتابين . واننا لنميل الى امتداح القصاص الشديد الرادع الذي أنزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو أن خرافتهم ( عقيدتهم ) الشريرة الغريبة جعلت منهم أعداء الداء ، لا للحكومة الرومانية وحدها ، بل للجنس البشرى بأسره . وكان حماس اليهود يستند الى الرأي القائل بأن دفع الضريبة لسيد وثنى أمر غير مشروع لديهم ، والى الوعد الموهوم الذى استنقوه من الوحي القديم الذى لديهم ، بقرب ظهور المسيح الذى سيفتح العالم ، ويحطم أغلالهم ، ويخلع امبراطورية الأرض على أعباء السماء المقربين . وقد أعلن باركوكيباس Barchochebas الشهير نفسه مخلصهم الذى طال انتظارهم له ، وأهاب بذرية ابراهيم أن يحققوا أمل اسرائيل ، وبهذا جمع جيشا كبيرا تحدى به سلطان الإمبراطور هادريان لمدة عامين .

ورغم الانتفاضات المتكررة ، زال استياء الأمراء الرومان بعد انتصارهم ، ولم تدم مخاوفهم لاكثر من فترة الحرب والخطر . وبفضل التسامح العام الذى تميز به مذهب الشرك ، وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذى تميز به أنطونينوس بيوس أعيدت لليهود امتيازاتهم القديمة ، ورخص لهم ثانية فى ختان أطفالهم ، مع قيد بسيط واحد ، وهو عدم اجراء هذه العملية المميزة للعبرانيين لأى مهتد أجنبى . وسمح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب ، رغم أنهم ظلوا بعيدين عن تخوم اورشليم — بإنشاء المؤسسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها فى إيطاليا وفى الولايات . وبالحصول على حرية روما ، وبالتمتع بمزايا المدينة ، على أن يكون فى نفس الوقت حق الاعفاء من مناصب المجتمع الثقيلة العباء الكثيرة النفقة . وهيا اعتدال الرومان أو احتقارهم لهذه الطائفة سندا قانونيا لإنشاء نوع من الشرطة المالية ( الكنسية ) وخول الحاجام الذى اتخذ مقره فى طبرية ، سلطة تعيين القسس والحواريين التابعين له وأن يمارس القضاء المحلى ، وأن يتلقى من أخوانه المبعثرين هنا وهناك

اعانات سنوية . وكثيرا ما شيدت هياكل جديدة في المدن الرئيسية في  
الامبراطورية ، و اقيمت احتفالات مهيبه عامة في ايام السبت ، أو لمناسبة  
الصوم ، أو الاعياد التي نزلت بها شريعة موسى ، أو أوصت بها تقاليد  
الأخبار . وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة  
غير ملحوظة ، فلما أفاقوا من علم النبوءة والغزو نهجوا منهج الرعايا  
المسلمين المجدين . أما كراهيتهم التي لا تهذا للجنس البشرى ، فانها  
بدلا من أن تتقد في أعمال العنف والدم ، استنفدت في أعمال أقل  
خطرا . ولكنها أعمال تشبع رغباتهم . وانتهزوا كل فرصة للتفوق على  
الوثنيين في التجارة ، وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة  
ايدوم ( Edom ، أى الدولة الرومانية ) المتخترسة .

وإذ تمتع اليهود الذين نبذوا في مقت واحترار معبودات ملوكهم  
وأقرانهم من الرعايا ، بالحرية في ممارسة ديانتهم الانعزالية غير  
الاجتماعية على أية حال ، فلا بد أنه كان يوجد سبب آخر عرض تلايذ  
المسيح لأعمال القسوة التي أعفيت منها ذرية ابراهيم . والفرق بينهما  
بسيط جلى ، ولكنه كان وفقا لمقاييس الأقدمين أو مشاعرهم ، على أعظم  
جانب من الأهمية ، ذلك أن اليهود كانوا أمة ، ولكن المسيحيين فرقة  
أو شيعة . وإذا كان طبيعيا أن تحتسرم كل جماعة النظم المقدسة  
لجيرانها ، فانه كان لزاما عليهم أن يبقوا على ملة آبائهم . ولقد فرض  
صوت الوحي وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع ، هذا الالتزام  
الوطني . وربما أثار اليهود بادعائهم العريض تفوقهم في الطهارة  
والقداسة ، حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنسا كريها ممقوتسا  
غير نقى ، وربما كان اليهود جديرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن  
الانصال بالأمم الأخرى . وربما كانت قوانين موسى مستهتره أو عبثة ،  
ولكن طالما تلقاها على مر الأجيال مجتمع كبير ، فقد كان لأتباع موسى  
في بنى الانسان أسوة ، وفيما أقروه عامة سند ، يبرران حقهم في  
ممارسة ما قد يكون اجراما منهم أن يهملوه . ولكن هذا المبدأ الذى  
حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة في صدر المسيحية أية رعاية أو  
أمن . بل ان المسيحيين باعترانهم رسالة الانجيل جلبوا على أنفسهم  
الوزر المزعوم ، وزر جريمة غير طبيعية لا تفتقر : انهم حلوا روابط  
العرف والتعاليم المقدسة ، وانتهكوا حرمة النظم الدينية في بلدهم ،  
واحتقروا في جراءة ووقاحة كل ما آمن به آباؤهم على أنه حق أو بجلوه  
على أنه مقدس . كما ان هذه الردة ( اذا جاز أن نستعمل هذه اللفظة )  
لم تكن جزئية أو محلية ، لان المرتد النقى الذى كان ينسحب من معابد  
مصر وسوريا كان يستنكف أن يلتبس ملجأ في معابد أثينا وقرطاجة .

ونبذ كل مسيحي ، في أزفراء ، خرافات عشيرته ومدينته وولايته ، ورفض جمهور المسيحيين عامة أى ارتباط بألهة روما أو الإمبراطورية ، بل بمعبودات الجنس البشرى بأسره . وعيّن أكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والرأى الخاص التى هى وقف على كل فرد . ومهما دعا موقفه الى الاشفاق ، فان حججه لم تنفذ الى عقول الفلاسفة أو المؤمنين فى دنيا الأوثان . بل ان اعتناق بعض الأفراد للشكوك بدلا من الامتثال للون العبادة المقررة ، لم يثر فى عقولهم دهشة أقل منها فيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للمعبادات والزى واللغة فى وطنهم .

وسرعان ما تحولت دهشة الوثنيين الى سخط واستياء . وتعرض أتقى الناس للاتهام الجائر ولكنه الخطير ، أى الكفر والالحاد . واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على انهم مجتمع من الكفار الذين استنقوا — لهجومهم البالغ على الدستور الدينى للإمبراطورية — أعنف سخط من الحكومة المدنية ، فانهم نأوا بأنفسهم ( وكم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف ! ) عن كل لون من ألوان الخرافة رحب به غير قريب من أئمة الشرك فى مختلف أقطار الأرض ، كما انه لم يتضح قط أى معبود وأية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعاييدهم . ولقد غابت الفكرة النقية السامية — فكرة « الكائن الأعظم » عن الإدراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا فى العثور على الهه روحى أهد ، لا يتمثل فى صورة مجسمة أو رمز مرئى ، ولا يعبد بالأبهة المعهودة فى سكب الخمر والأعياد والمذابح والقربان . ان حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم الى مرتبة التأمل فى الوجود وفى صفات « الكائن الأول » قد أغراهم ادراكهم السليم أو زهوهم بأن يحتفظوا لأنفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفى . وكانوا أبعد ما يكونون عن اقرار أهواء بنى الانسان على أنها مقبولة الحقيقة ، ولكنهم اعتبروها مثبتة عن النزعة الأصلية فى الطبيعة البشرية ، وذهبوا الى أن أى لون مألوف من العقيدة أو العبادة ، رغم التنصل من مساعدة العواس ، لا بد انه ، بنسبة ما ينتحى عن الخرافة — سيجد نفسه عاجزا عن الحد من شطحات الخيال أو أشباح التعصب . ان النظرة الوانية المستهتره التى تفضل رجال العقل والعلم بلقائنها على الوحي المسيحى لم تجد الا فى توكيد رأيهم المتسرع واقناعهم بأن البدا الذى كان يمكن أن يحترموه ، مبدأ « وجدانية الله » قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة ، وأطاحت به تأملاتهم الخيالية . وانك لترى مؤلف الحوار المشهور ، الذى نسب الى لوشيان ، حين يتظاهر بمعالجة موضوع « الثلاثى » الغامض فى أسلوب من التسفيه والتحقير — تراه



يفضح جهله بضعف الادراك الانسانى ، وبالطبيعة العويصة التى لا يمكن ادراك كنهها ، طبيعة الكمال الالهى .

وقد يبدو أقل اشارة للدهشة انه يجب على تلاميذ مؤسس المسيحية الا يوقروه بوصفه حكيما ونبيا فحسب ، بل كذلك يعبدوه على انه اله ، وكان المشركون يميلون الى اقتباس أى ركن من أركان العقيدة قد يحمل أى شبه ، مهما كان بعيدا أو ناقصا ، بالخرافات المألوفة أو بأساطير باخوس ، وهرقل ، وأسكولاببوس Aesculapius هيأت خيالهم بشكل ما لظهور « ابن الله » فى صورة انسان ، ولكنهم تولاهم العجب من هجر المسيحيين لمعابد هؤلاء الأبطال القدامى الذين اخترعوا فى بداية الدنيا الفنون وسنوا القوانين ، وقهروا الطفلة والمردة الذين أزعجوا الأرض ، من أجل أن يختاروا لهدفهم الوحيد المطلق للعبادة الدينية معلما مغمورا ، وقع فى سن مبكرة ، وسط شعب متبربر ، ضحية لضغن بنى جلدته أو حقد الحكومة الرومانية . ورفض جمهور الوثنيين الذين رأوا الاحتفاظ بمزايا الحياة الدنيا وحدها ، رفضوا نعمة الحياة والخلود ، تلك النعمة التى تفوق حق التقدير والتى وعد بها يسوع الناصرى جميع البشر . ولم يكف ثباته الهادى وسط الآلام الرهيبة الاختيارية ، وبره العام الشامل وبساطته الرائعة فى عمله وفى خلقه — لم يكف كل أولئك فى نظر هؤلاء الرجال الذنوبيين الماديين ليعوض عن افتقاده الشهرة والملك والنجاح ، وبينما رفضوا الاعتراف بانتصاره الهائل على قوى الظلام وقوى الدمار ، نراهم حرفوا ، أو احتقروا ، المولد المبهم للمنشئ الالهى للمسيحية وحياته المتجولة ، وميته الشائنة .

ولقد بولغ الى أقصى حدود المبالغة فى الجرم الذى ارتكبه كل مسيحى فى اثاره عاطفته الخاصة على الديانة الوطنية ، وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم . ومن المعروف جيدا ، وقد لاحظ بالفعل ، أن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد القلق والريبة الى أية رابطة تقوم وسط رعاياها ، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة فى أضيق الحدود ، وفى تقدير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيرة بعيدة عن الأذى والضرر . ولكن الجمعيات المسيحية التى انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة . فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب ، ولم ير الأباطرة أنهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرّموا — حرصا على سلامة المجتمع — هذه الاجتماعات السرية والليلية أحيانا . لقد

عكس تمرد المسيحيين التقى الورع على سلوكهم ، أو ربما على خطتهم ، ضوعوا بدا للناظرين منذرا بخطر أشد واجرام أفدح . وفي بعض الأحيان حاول الأمراء الرومان — الذين أجازوا لأنفسهم أن يلقوا سلاحهم ، إذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانقياد ، مقدرين أن شرفهم متعلق بتنفيذ أوامره — حاولوا بالعقوبات الرادعة أن يخضعوا هذه الزوج الاستقلالية التي اعترفت في جرأة ، بسلطان يسمو على سلطان الحاكم . وبدا أن اتساع مدى هذه المؤامرة الروحية واستطالة مدتها ، جعلها يوما بعد يوم أحق بلومه وسخطه . ولقد رأينا بالفعل كيف أن غيرة المسيحيين الجادة الموفقة قد أدت الى انتشارهم ، بشكل غير ملحوظ ، في كل ولاية ، بل على الأغلب في كل مدينة في الامبراطورية . وبدا أن المهتدين الجدد أنكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا في عصابة موحدة لا تنفصم عراها ، تشكل مجتمعا خاصا معيننا اتخذ في كل مكان طابعا مغائرا لسائر البشر . وأدخل مظهرهم العيوس المتشدد ، وعزوفهم عن الأعمال والمباهج المشتركة في الحياة ، وتنبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحدقة — كل أولئك ، أدخل في روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم عن هذه الطائفة الجديدة التي هي أشد ازعاجا كما أنها أشد غموضا ، وكما قال بليني « مهما يكن من أمر المبدأ الذي يحكم سلوكهم ، فإن عبادهم الذي لا يلين ولا ينثنى بدا جديرا بالعقاب » .

وألمى الخوف والضرورة ، في البداية ، تلك الاحتياطات التي لجأ إليها تلاميذ المسيح في إقامة شعائر دينهم ، ولكنهم استمروا عليها طواعية واختيارا . وتوهم المسيحيون أنهم — باقتدائهم بالكتمان العجيب الذي كان يحوط « الاسرار الأليوسية Eleusinian Mysteries » ( احتفالات دينية كانت تقام في الربيع قديما بمدينة اليوسيس في اليونان ) — قد يضمنون على نظمهم المقدسة مزيدا من الاحترام في أعين العالم الوثني . ولكن هذا التصرف — كما يحدث غالبا في عمليات السياسة الحاذقة — خدع أمانتهم وآمالهم . فقد استنتج أنهم انما حجبوا فقط عن الانظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلا لاخفائه . فان غطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد أن يخترع ، وللسذاجة المرتابسة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التي نعتت المسيحيين بأنهم اشر البرية ، وانهم كانوا في خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم أحط الخيال ، ويلتمسون رضا الههم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة أخلاقية . وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض أو سرد أنبيائها . فقيل على وجه التاكيد ان « طفلا حديث الولادة مغطى تماما بالدقيق ، كان يعرض — وكأنه رمز روحاني للدخول

في الأخوية المسيحية — لسكين المهتدى الجديد الذي يهوى به فيثخن على غير هدى الضحية البريئة لخطاياها بكثير من الجروح الخفية القاتلة ، حتى اذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القاسى ، شرب المجتمعون الدم ، ومزقوا الأوصال المرتعدة في شره ونهم ، وتعاهدوا على كتمان السر الى الأبد ، شاعرين شعورا متبادلا بالذنب . كما قيل بنفس القدر من التأكيد ، ان هذه التضحية غير الانسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برعوسهم وتؤقظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى اذا حانت اللحظة المقررة أطفئت الأنوار نجاة ، وخلعوا عذار الحياء وتناسوا الطيبة ، واختلط الحابل بالنابل ، ولوثوا سواد الليل بارتكاب أشنع الفواحش : الاخوة مع الأخوات ، والأبناء مع الأمهات « ( ١ ) .

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لازالة حتى أنفه الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل . ومن ثم يعمد المسيحيون — في اطمئنان جرىء الى براعتهم — الى الاستعانة من ظلم الشائعات بانصاف الحكام ، فيقررون أنهم يكونون جديرين بأشد العقاب . اذا أقيم أى دليل على الجرام التى ألصقتها بهم الوشائيات ، أنهم يتعجلون العقاب . ويتحدون البيئة ، وفي نفس الوقت يعترضون بشدة ، وبنفس القدر من الصدق واللياقة ، بأن الاتهام ليس أقل بعدا عن الاحتمال ، منه تجردا من الحجة والبرهان ، ويتساءلون عما اذا كان هناك من يصدق أن تعاليم الانجيل النقية المقدسة التى غالبا ما تحد من التمتع بأكثر المتع مشروعية ، تصرف الذهن الى اقتراح أبغض الآثام ، وأن مجتمعا كبيرا يعمد الى تلطيف شرفه فى أعين أعضائه ، وأن جمعا كبيرا من الجنسين من مختلف الأعمار والأخلاق ، لا يتأثر بالخوف من الموت أو الفضيحة ، فينتهك حرمة المبادئ التى نقشتها الطيبة والتعمليم فى عقولهم مثل النقش فى الحجر . وقد يبدو أنه ليس ثمة شئ يمكن أن يضعف من قوة أو من اثر مثل هذا التبرير الذى لا يستطاع نقضه ، اللهم الا السلوك الشرير لأولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين ، ارضاء لبغضهم المروع لأعداء الكنيسة المحليين . وقيل — تلميحاً دلفيماً تارة ، وتوكيدا جريئاً تارة أخرى — ان هذه الضحايا الدموية

(١) لسنا فى حاجة الى القول بان هذا هراء بشع صوره خيال دنىء كافر بالقيم الانسانية ، وربما كان أجدر بالوثنية ، والمسيحية منه براء بلا ريب . وكم عانت المسيحية والاسلام من ايذاء الملحدين بالقول والعمل . وقد أثبتناه لمجرد الامانة فى النقل . ( المترجم )

وهذه الأعياد الفاحشة ، التي نسبت زورا وبهتاناً الى المؤمنين الأرثوذكس - كان يحتفل بها المريخونيون Marcionites والكريكراتيون Carpoerations وغيرهم من شيع الغنوصيين (اللا أدريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين ، وتحكمهم تعاليم المسيحية ، رغم أنهم ربما انزلقوا الى مهاوى الهرطقة . كما الصق بالكنيسة اتهامات من مثل هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها ، وقد اعترف في جميع الأحوال بأن أشد السلوك فجوراً كان يسود الأنواع الكبيرة التي تظاهرت باعتراف المسيحية . وربما سهل على الحاكم الوثني الذي لم يؤت فسحة من الوقت أو شيئاً من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذي يفصل بين الصراط المستقيم وبين الهرطقة - سهل عليه أن يتصور أن البغضاء المتبادلة بينهم هي التي أزاحت الستار عنوة عن جرائمهم المشتركة . وكان من حسن حظ المسيحيين الأولين - من أجل طمأنينتهم ، أو على الأقل سمعتهم - أن تصرف الحكام اتسم أحيانا بزيد من اللياقة والاعتدال أكثر مما يتأتى مع العيرة الدينية ، وقالوا - كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية - ان الطوائف التي تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخلصاً في عقائدها ، وانه لا غبار على سلوكها ، مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بحرّافتها المسرفة الحياء .

### موقف الأباطرة من المسيحيين

ان التاريخ الذي يأخذ على عاتقه تسجيل أحداث الماضي لتكون عبرة وتوجيهاً للأجيال القادمة ، لا يستحق شرف هذه المهمة ، اذا تنازل فدافع عن قضية الطفغان ، أو برر منهج الاضطهاد . ومهما يكن من أمر ، فانه يجب الاعتراف بأن سلوك الأباطرة الذين بدا أنهم اظهروا أقل العطف على الكنيسة الأولى ، ليس ، بأي حال من الأحوال ، في مثل القدر من الاجرام الذي يقسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والارهاب ضد الآراء الدينية التي اعتنقها بعض رعاياهم . وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس أو لويس الرابع عشر ، بوحى من تأملاتهم أو من مشاعرهم الخاصة ، معرفة صادقة بحقوق الضمير أو بالتزامات العقيدة ، أو ببراءة الخطأ . ولكن أمراء روما القديمة وحكامها كانوا غريباء على هذه المبادئ التي ألهمت وعززت عناد المسيحيين الذي لا يلين ، في قضية الحقيقة ، كما أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتبينوا في أعماق صدورهم أى باعث كان من

الجائر أن يدفعهم الى رفض الخضوع المشروع ، بل الطبيعي ، للنظم المقدسة في بلادهم ، وكان نفس السبب الذى يساهم في تخفيف جريمة اضطهاداتهم ، لأبد وأنه اتجه الى الحد منها . ولما كانوا يصدرون ، لا عن غير المتعصبين العنيفة ، بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلا بد أن العصيان كثيرا ما أرحى ، وأن الروح الانسانية الطيبة غالباً ما عطلت تنفيذ تلك القوانين التى سنوها ضد أتباع المسيح الأذلاء المغمورين . وطبيعى أن نخلص من النظرة العامة الى أخلاقهم وبواعثهم الى :

- ١ — أنه قد مضى زمن طويل قبل أن يتبينوا أن الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة .
- ٢ — وأنهم فى ادانة أى من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة ، تصرفوا فى حذر وعلى كره منهم .
- ٣ — وأنهم كانوا معتدلين فى استخدام العقوبات .
- ٤ — وأن الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء . وعلى الرغم من الاستهتار العقيم المهمل الذى عالج به أغزر الكتاب الوثنيين مادة ، وكذا أدتهم فى التفاصيل فى شئون المسيحيين ، فإنه سيظل فى مكنتنا أن نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة .

١ — اقتضت حكمة « العناية الالهية » أن تسدل على طفولة الكنيسة الاولى حجاباً غامضاً ، أفلح — حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين — فى وقايتهم ، لا من شر دنيا الوثنية فحسب ، بل حتى مجرد معرفتها بهم . فقد زود الالفاء المتدرج المئائى للطقوس الموسوية أول الداخلين فى شريعة الانجيل بقناع آمن برىء ، ولما كان معظمهم من عشيرة ابراهيم ، فإنهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهى الختان ، وقاموا بعباداتهم فى معبد اورشليم حتى دمر تدميراً نهائياً ، وتقبلوا « الشريعة » والرسل على أن الجميع تنزىل أصيل من عند الله . أما الأميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل اسرائيل نتيجة اختيار روى ، فقد كان يصعب تمييزهم ، وهم فى زى اليهود ومظهرهم ، ولما كان اهتمام المشركين بأركان العقيدة أقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة ، فإن الطائفة الجديدة التى أخفت فى عناية تامة ، أو أعلنت اعلاناً خافتاً عن عظمتها وأطماعها المستقبلية ، سمح لها أن تظل نفسها بظل التسامح العام الذى كان ممنوحاً لشعب قديم

مشهور في الامبراطورية الرومانية . وربما لم يمض وقت طويل قبل أن يدرك اليهود أنفسهم ، وقد تملكتهم غيرة أشد ضراوة ، وأثارهم ايمان أشد حقدا ، أن أخوتهم النصارى ينفصلون تدريجاً عن عقيدة الكنيس اليهودي ، وربما طاب لهم أن يظفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بدماء أتباعها ! ولكن قضاء السماء أحبط كيدهم . ورغم أنهم عمدوا في بعض الأحيان الى التورد المفاجيء ، فانهم لم يعودوا يملكون زمام القضاء الجنائي ، كما لم يكن من السهل عليهم أن ينفثوا في صدر الحاكم الروماني الهادىء سخائم غيرتهم وكراهيتهم . وأعلن حكام الولايات أنهم على استعداد للاستماع الى أى اتهام من شأنه أن يضر بالسلامة العامة . ولكنهم حالما كانوا يعرفون أن المسألة مسألة كلام ، لا حقائق ، ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم ، كانوا يعتبرون أنه لا يليق بمكانة روما وعظمتها أن يبحثوا بحثاً جدياً في الخلافات الغامضة التي قد تنشأ بين شعب متبرير يؤمن بالخرافات . وكأني بالجهل والاحتقار كأننا يحميان براءة المسيحيين الأولين . وكثيراً ما ثبت أن قضاء الحاكم الوثني كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودي . ولو كنا نجنح حقاً الى تبنى تقاليد القدامى السذج الأغرار ، لسردنا الجولات النائية والمنجزات العجيبة التي قام بها الرسل أو الحواريون الاثنا عشر ، والميئة المختلفة التي لقبها كل منهم ، ولكن الاستقصاء الذي هو أكثر دقة قد يدفع بنا الى الارتياب في أن واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهوداً على معجزات المسيح ، قد أذن له فيما وراء حدود فلسطين أن يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته (١) . ومن الطبيعي أن نفترض ، تبعاً للأجل العادى لحياة الانسان ، أنهم قضوا نحبهم قبل أن ينفجر سخط اليهود في تلك الحرب الضروس التي لم يضع لها حداً الا تدمير اورشليم . فاننا طوال هذه الحقبة الطويلة التي انقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن نستطيع أن نتبين أى آثار لتشدد الرومان أو عدم تسامحهم ، اللهم الا في هذا الاضطهاد المفاجيء العابر ، ولكنه كذلك القاسى ، الذى أذاقه نيرون للمسيحيين في العاصمة ، بعد خمس وثلاثين سنة من سابقه ، وقبل عامين من ثانى هذين الحداث الجسيمين ، وان شخصية المؤرخ الفيلسوف الذى ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ ، لتكفى وحدها لتجعله أهلاً لدراستنا الواعية .

(١) اقتصر شرف الاستشهاد في أيام تروتوليان وكليمنز السكندري على القديس بطرس والقديس بولس والقديس يوحنا . وقد أسبغ هذا الشرف على بقية الرسل الاغريق الذين هم أحدث عهداً ، والذين اختاروا فطنة وحرصاً منهم ، بلداً نائياً عن حدود الامبراطورية الرومانية ليكون مسرحاً لوعظهم وآلامهم .

ففى السنة العاشرة من حكم نيرون أصيبت العاصمة بحريق اندلع فى شدة لم يعرف لها فى التصور الخوالى نظير أو مثال . ولم تنج من الدمار الشامل آثار فن اليونان وقوة الرومان والأنصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال ، وأقدس المعابد ، وأفخم القصور . ومن الأحياء الأربعة عشر التى كانت تضمها روما ، سلم أربعة فقط ، ومضى منها ثلاثة محوا تاما أما الأحياء السبعة الباقية التى تلظت فى سعيير النيران ، فقد كتشفت عن منظر منجع حزين للخراب والوحشة . ولا يبدو أن يقظة الحكومة لم تغفل اتخاذ أية احتياطات لتخفف من أثر هذه الكارثة الرهيبة . ففتحت الحدائق الإمبراطورية أبوابها للجموع المنكوبة ، وشيدت بعض المباني المؤقتة لايوائهم ، ووزعت كميات كبيرة من القمح والمؤن بأسعار معتدلة . وبدا أن أكرم سياسة قد أملت القوانين التى حددت فتح الشوارع وإقامة المساكن الخاصة — وكما يحدث عادة فى أيام الرخاء — وأنتج حريق روما فى بضعة سنين ثلاثل ، مدينة جديدة ، أدق نظاما وأوفر جمالا من سابقتها . ولكن كل الفطنة والروح الانسانية اللتين تظاهرا بهما نيرون لم تنفذه من شكوك الشعب ، فان أية جريمة يمكن أن تلتصق بقاتل زوجته وأمه ، كما يستحيل الظن بأن الأمير الذى أساء الى شخصه والى مكانه يعجز عن ارتكاب أشنع الخطايا . واتهمت الأشاعات الإمبراطور باحراق عاصمته عمدا ، ولما كانت أبعد القصص عن التصديق هى التى تلتئم أكثر ما يكون اللاتمام مع عبقرية الشعب فى سورة غضبه ، فقد ذكر فى أسلوب جاد لا هزر فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ ، بأن نيرون الطروب للكارثة التى أحدثها ، تسلى على قيثارته بانثسودة تدمير طرودة القديمة . وصمم الإمبراطور على الصاق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التى عجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها . ويتابع تاسيتس حديثه فيقول : « وعلى هذا الأساس أنزل (نيرون) أشد ألوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا — تحت اسم المسيحية القبيح ( فى رأى نيرون ) — قد وصموا فعلا بأشنع الفجار ، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذى لقى حتفه فى عهد تيبيريوس ، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطى . وأخذت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ، ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت ، لا فى أرض الميعاد وحدها ، وهى الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة ، بل كذلك وصلت الى روما ، وهى الملاذ العام الذى يتلقى ويحمى كل ما هو ملوث مهما كان تلوته ، وكل شىء فظيع مهما بلغت فظاعته . وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركساء كثيرين لهم ، وأدينوا جميعا ، بتهمة كراهيتهم للجنس البشرى ، أكثر منهم بتهمة اشمال

النار في المدينة . وعذبوا حتى ماتوا ، وزاد السباب والسخرية من حرارة التعذيب . ودق بعضهم بالمسايير على الصليبان ، وخط آخرون في جلود الحيوانات المتوحشة ، وتركوا لنهم الكلاب ، وصب على بعضهم مواد محرقة ، وأوقدت فيهم النار ، واستخدموا كمشاعل نضء حلقة الليل . وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صحبه سباق اللخيل ، والذي شرف بحضور الامبراطور الذي اختلط بالشعب في زى وهينة قائد عجلة حربية . واستحققت جزيرة المسيحيين في الواقع اقسى عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم ولكن المقت العام تحول الى اشفاق ، استنادا الى أن التضحية بهؤلاء الأستقياء التعماء لم تكن من أجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود . وقد يلحظ كل الذين يستعرضون ثورات الجنس البشرى بنظرات فاحصة مدققة أن حدائق وملعب نيرون في الفاتيكان ، تلك التي لطخت بدم المسيحيين الأولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء استغلالها . ففى نفس البقعة - ومن ذاك العهد ، أقيم معبد يفوق الروعة القديمة للكابيتول بكثير ، أقامه احابار المسيحية الذين استمدوا دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع في « الجليل » فاعتلوا عرش القياصرة ، وسنوا القوانين لغزاة روما المتبريرين ، وبسطوا ولايتهم من ساحة البلطيق الى شواطئ المحيط الهادى .

وقد لا يكون من اللائق أن نترك اضطهاد نيرون دون ابداء بعض ملاحظات قد تكون مفيدة في تذييل بعض المشاكل التي اقترنت به ، والقاء بعض الضوء على التاريخ اللاحق للكنيسة .

( ا ) ان أكثر النقاد تشككا مضطر الى احترام صدق هذه الحقيقة الشاذة ونزاهة هذه القطعة المشهورة التي كتبها تاسيتس . أما الحقيقة فقد أكدها سويتونيوس Suetonius اليقظ الدقيق الذى أورد ذكر العقوبة التي انزلها نيرون بالمسيحيين ، وهم طائفة من الناس اعتنقوا خرافة ( عقيدة ) جديدة آئمة . أما النزاهة فقد تثبتتها مطابقة الحقيقة لأقدم المحفوظات ، والخاصية الفريدة المنقطعة النظير لأسلوب تاسيتس ، وسمعته التي حصنت كتاباته ضد دس الاحتيال الورع ، وغوى روايته التي اتهمت المسيحيين الأولين بأبشع الجرائم دون الاعياز بأنه كانت لهم قوى معجزة أو حتى سحرية تفوقوا بها على سائر البشر .

( ب ) ورغم أنه يحتمل أن يكون تاسيتس قد ولد قبل حريق روما ببضع سنوات قلائل ، فإنه كان من الميسور له من قراءاته وأحاديثه



أن يستقي معلوماته عن حادث وقع في طفولته . وكان قبل أن يظهر للناس ويديع صيته بينهم ، قد انتظر في هدوء وسكون حتى بلغت عبقريته ذروة النضج ، وكان قد جاوز الأربعين من عمره حين انصت مع التقدير والامتنان لذكريات أجريكولا الفاضل ، وانتزع منه أولى البواكير التاريخية في مؤلفاته التي قد تطيب لأبعد الأعقاب والذراري مطالعتها ، والتي تثقف هؤلاء الأعقاب والذراري . وبعد أن امتحن قوته وقدرته في تدوين حياة أجريكولا ، وفي وصف ألمانيا ، فكر في النهاية في إنجاز عمل أكثر مشقة ، هو « تاريخ روما » في ثلاثين جزءا ، من سقوط نيرون الى اعتلاء نرغا العرش . وبدأ بحكم نرغا عصر من العدالة والازدهار ، خصه تاسيتس ليكون شغله الشاغل أيام شيخوخته ، ولكنه لما دقق النظر في موضوعه — وربما ارتأى أن تسجيل مساوي الطغاة السابقين مهمة أكثر شرفا وأقل اثارة للحسد والبغضاء من تمجيد فضائل الملك الحاكم — اختار أن يسرد على هيئة حوليات — أعمال الخلفاء الأربعة المباشرين لأوغسطس . وكان جمع سلسلة تغطي ثمانين عاما وتبويبها وتدبيجها في مؤلف خالد ، تنوء كل عبارة فيه بأعمق الملاحظات وأروع الصور — كل أولئك كان عبئا كافيا لاستنفاد عبقرية تاسيتس نفسه في الجزء الأكبر من حياته . وفي أخريات حكم تراجان حين بسط الملك الظالم سلطان روما فيها وزراء جدودها القديمة ، كان المؤرخ يصف طغيان تيبيريوس في الكتابين الثاني والرابع من حولياته ، ولا بد أن الامبراطور هادريان كان قد تبوأ العرش قبل أن يتمكن تاسيتس — في المدى الطبيعي لانجاز عمله — من رواية حريق العاصمة وقسوة نيرون ضد المسيحيين التمساء . وكان من واجب كاتب الحوليات ، وقد مضى على حادث الحريق ستون عاما أن يقتبس رواية المعاصرين ، ولكن كان من الطبيعي أن ينصرف الفيلسوف الى وصف نشأة الطائفة الجديدة وتقدمها وأخلاقتها ، على الا يستند الى معلومات عصر نيرون وما ساد من آراء متحيزة ، قدر استناده الى عصر هادريان .

( ج ) وكثيرا ما يترك تاسيتس لفضول قرائه أو تأملهم ، مهمة استيفاء الظروف أو الأفكار الوسيطة أو المتداخلة التي ارتأى هو في ايجازه المخل أنه من الاليق كتمانها . ومن ثم قد نجترىء فنتصور سببا محتملا لقساوة نيرون ضد المسيحيين في روما ، الذين كان ينبغي أن يكون لهم من غموضهم وبراعتهم سياج يحميهم من سخطه ، بل من علمه بوجودهم . على حين كان اليهود ، وهم كثرة في العاصمة ، وهم يقاسون الظلم ألوانا في بلدهم ، أكثر أهلية لأن يكونوا هدفا لشكوك

الإمبراطور والشعب ، كما أنه لم يكن من غير المتوقع لأمة مقهورة اكتسفت بالفعل مقتها للنير الروماني ، أن تعتمد الى أبشع الوسائل لآرضاء شهوة الانتقام المتقدة في قلوبهم . ولكن اليهود كانوا يملكون ناصية دفاع قوى جدا في القصر ، بل حتى في قلب الطاغية ، أعنى زوجته ومحظيته ، بوبيا Poppea الجميلة ، ولاعب أثير من قوم إبراهيم ، استخدمها بالفعل شفاعتها لمصلحة الشعب الكريه . وكان لزاما أن تقدم بدلا من هذا الشعب أية ضحايا أخرى . وكان من أيسر اليسير أن يقال — رغم براءة الاتباع الأصلاء لشرعية موسى من وزر حريق روما — أنه قد ظهرت بينهم طائفة جديدة خبيثة من أبناء الجيل ، فئة قادرة على اقتراف أبشع الجرائم . واختلطت تحت اسم « الجليليين » ( أبناء الجليل ) طائفتان متميزتان من الناس ، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى كل الاختلاف في سلوكها ومبادئها : التلاميذ الذين اعتنقوا عقيدة يسوع الناصرة — والمتعصبون الذين اتبعوا مذهب يهوذا الجليلي ، وكان الأولون أصدقاء الجنس البشري ، والآخرون أعداءه . ويتركز الشبه الوحيد بينهما في الجلد الذي لا ينثنى ، الذي جعلهم لا يتأثرون بالموت أو التعذيب في دفاعهم عن قضيتهم . ولم يلبث أتباع يهوذا الذين حركوا بنى جلدتهم الى التمرد والعصيان — لم يلبثوا أن دفنوا تحت أنقاض أورشليم ، بينما انتشر أتباع يسوع الذين عرفوا بالاسم الأكثر شهرة : « المسيحيون » في مختلف أرجاء الإمبراطورية . فكم كان طبيعيا أن ينسب تاسيتس ، في عصر هادريان ، الى المسيحيين جرائم وآلما كان يمكن أن يلقها ، بدرجة أكبر من الصدق والعدل ، بطائفة كادت أن تخبو ذكراها المنيئة ! .

( د ) ومهما كان الرأي في هذا الحدس والتخمين ( لأنه لا يقدو أن يكون كذلك ) فمن الواضح أن أثر اضطهاد نيرون ، مثله في ذلك مثل سببه — لم يتعد جدران روما ، وأن عقيدة الجليليين أو المسيحيين لم تتخذ قط موضوعا للعقاب أو حتى للتحقيق ، وأنه ، لما كانت فكرة الآمهم قد ارتبطت لفترة طويلة بفكرة القساوة والجور ، فإن اعتدال الأمراء المتعاقبين حدا بهم الى الإبقاء على طائفة عانت من ظلم طاغية اتجه حنقه عادة ضد الفضيلة والبراءة .

وقد يكون من الغريب ، الى حد ما ، أن نيران الحرب التهمت ، في نفس الوقت تقريبا هيكل اورشليم وكابيتول روما ، ولا يبدو أقسل غرابة أن الجزية أو الاتاوة التي كان الجماس الديني قد خصصها لأول حولتها قوة فاتح منتصر لاعادة بناء الثاني وتنتيقه . فقد فرض الأباطرة

ضريبة رأس عامة على الشعب اليهودى ، ورغم أن المبلغ المفروض على الرأس كان تافها ، فإن وجه انفاقه والصرامة فى جمعه ، اعتبرنا حيفا لا يحتمل . ولما جاوز مأمورو الدخل الحد وطالبوا بغير حق كثيرا من الأشخاص الغرباء على الدم اليهودى والديانة اليهودية ، كان من المستحيل على المسيحيين ، وهم الذين كثيرا ما استظلوا بظل الكنيس ، أن ينجوا بأنفسهم من الاضطهاد الوحشى الجشع . وكان حرصهم شديدا على اجتناب أية شبهة وثنية ، فأبت عليهم ضمائرهم أن يسهموا فى تكريم ذلك الشيطان الذى تقمص شخصية جوبيتر فى الكابيتولين . ولما كانت فئة كبيرة ، ولو انها فى طريق الاضمحلال ، بين المسيحيين ، ظلت ملتزمة بشريعة موسى ، فإن جهودهم فى ستر منبتهم اليهودى قد فضحها الاختبار الحاسم ، الا وهو الختان ، على حين لم يكن لدى الحكام الرومان فسحة من الوقت لاستقصاء أوجه الخلاف بين مبادئهم الدينية . ومن بين المسيحيين الذين جىء بهم امام الامبراطور ، أو على الأصح محكمة الحاكم فى أرض الميعاد ، وجد اثنان قليل انهما — فيما يبدو — يتميزان بكرم المحتد ، وانهما يفوقان بحق اعظم الأباطرة شرفا وثبلا . وكان هذان الشخصان حفيدى القديس يهوذا الرسول ، من أشياع يسوع المسيح ( وهو غير يهوذا الأسخريوطى ) . وربما جذبت دعواهم الطبيعية بحقهم فى عرش داود احترام الشعب ، وأثارت حقد الحاكم ، ولكن وضاعة ملابسهم وبساطة اجاباتهم أتنعناهم فى الحال بأنهما لا يرغبان ، بل ولا يستطيعان ، تكدير صفو الهدوء فى الامبراطورية الرومانية ، وقد اعترفا صراحة بأصلهما الملكى ، وبقرابتهما القريبة للمسيح ، ولكنها تنصلا من أية مطامع دنيوية ، كما قررا أن ملكوته الذى ارتقباه فى لهفة ، انما هو من طبيعة روحية ملائكية خالصة . فلما سئلا عن ثروتهما ومهنتهما ، كشفنا عن أيديهما التى اخشوشنت بفعل كدحهما اليومى ، وأعلنا انهما يكسبان قوتهما من فلاح مزرعة قرب كوكبه Cocaba ، تبلغ مساحتها اربعة وعشرين فدانا انجليزيا ، وتبلغ قيمتها تسعة آلاف درهم ( ثلثمائة جنيه استرلينى ) . ومن ثم أخرج حفيدا القديس يهوذا مشيعين بالاشفاق والازدراء .

ولكن ، على الرغم من أن وضاعة آل داود ، ربما جاز أن تحميمهم من شكوك الطاغية ، فإن عظمة أسرته الحاصلية أزعجت مزاج درميتيان الجبان ، الذى لم يهدىء من روعه الا دم أولئك الرومان الذين شنفهم أو كرههم أو احترمهم . فسرعان ما أخذ أكبر ابنى عمه نلافايوس ساينوس بتهمة الخيانة ، اما أصفرهما ، وكان اسمه نلافايوس كليميز فتد كان مدينا بسلامته الى افتقاره الشجاعة والمقدرة . واختص

الامبراطور لفترة طويلة بحبه وحمايته ابن مومته هذا الذى لا يقدم على اية اساءة أو اذى ، وخلق عليه ابنة اخيه ، وكان اسمها دوميتيلا Domitilla وتبنى الأطفال الذين أثمرهم هذا الزواج ، على أمل أن يخلفوه على العرش ، ومنح أباهم مرتبة القنصل ، ولكنه لم يكذب ينيى فترة حكمه ، ومدتها عام ، حتى أدين لادعاء تافه وأعدم . ونفيت دوميتيلا الى جزيرة مقفرة على ساحل كمبرانيا . وصدرت الاحكام بالاعدام أو مصادرة الأموال على عدد كبير من الأشخاص الذين اشتركوا فى نفس التهمة ، أما الجريمة التى نسبت اليهم فهى « الالحاد » والتشبه بأخلاق اليهود ، وهو ترابط فريد لا يمكن تطبيقه بحال من الأحوال الا على المسيحيين ، حيث كان الحكام والكتاب فى ذلك الزمان يرونهم بشكل غامض معيب . وبمقتضى قوة هذا التفسير المحتمل ، وظلها على التسليم بأن شكوك الطاغية تعتبر شاهدا على ذنبها المشرف ، وضعت الكنيسة كلا من كليمنز ودوميتيلا فى عداد شهدائها الأوائل ، ودمغت قساوة دوميتيان باسم الاضطهاد الثانى . ولكن هذا الاضطهاد ( اذا استحق أن نسميه اضطهادا ) لم تطل مدته . ذلك أنه بعد بضعة أشهر من موت كليمنز ونفى دوميتيلا ، أعدم ستيفن - وهو رجل معتق ، كان من خدم الأخيرة ، حظى بعطفها ، ولم يكن من المحقق انه اعتنق عقيدة محظيته - أعدم الامبراطور فى قصره . وأدان السناتو ذكرى دوميتيان ، وأبطلت قوانينه ، وأعيد من نفاهم . وفى ظل الادارة الوادعة على عهد نرفا ، بينما نرى الأبرياء قد استعادوا مراكزهم وثوراتهم ، نجد أن اكبر المجرمين قد حصلوا على العفو أو هربوا من العقاب .

٢ - وبعد ذلك بنحو عشرة اعوام ، فى عهد تراجان ، عهد الصديق والسيد ، الى بلينى الصغير . بحكم بيثينيا وبنطس ، وسرعان ما وقع الحاكم فى حيرة من امره : اية قاعدة من قواعد العدل أو القسانون يتخذها اساسا لسلوكه فى ممارسة مهام وظيفة هى أبغض ما تكون الى روحه الانسانية . ولم يكن بلينى قد اشترك قط فى اجراءات قضائية ضد المسيحيين الذين يبدو أنه لم يعرف عنهم الا مجرد اسمهم ، ولم يصل الى علمه شئ عن طبيعة جريمتهم ، وأسلوب اتهامهم ، ودرجة عقوبتهم . وعاد ، فى غمرة هذه الحيرة ، الى مألوف طريقته ، وهى أن يرفع الى حكمة تراجان بيانا نزيها متجردا ، ومن بعض الوجوه لطيفا ، عن الخرافة ( العقيدة ) الجديدة ، ملتسما من الامبراطور أن يتفضل فيبده شكوكه أو يجبر جهله . لقد قضى بلينى حياته فى طلب العلم والانشغال بأمور الدنيا ، فقد توافع بامتياز منذ سن التاسعة عشرة فى محاكم روما ،

وشغل مقعدا في السناتو ، وتقلد منصب القنصل ، وكون علاقات كثيرة مع كل طبقات الناس في ايطاليا وفي الولايات . ومن ثم يمكن أن نستخلص من جهله بعض المعلومات المفيدة . فيمكن أن نوقن بأنه عندما قبل حكومة بيثنيا ، لم تكن هناك قوانين أو مراسيم عامة من السناتو ، نافذة المفعول ضد المسيحيين ، وأنه لا تراجان ، ولا أحد من أسلافه الأفاضل — ممن كانت أوامرهم العالية تصدر فيما يتعلق بالقضاءيين المدني والجنائي — أعلن بصراحة عن اتجاهاتهم أو مقاصدهم فيما يتعلق بالطائفة الجديدة ، وأنه مهما كان من اجراءات اتخذت ضد المسيحيين ، فإنه لم يكن من بين هذه الاجراءات شيء ذو قيمة وقوة يصلح معها ليشكل سابقة توجه سلوك أى حاكم روماني .

ويكشف جواب تراجان ، ذلك الجواب الذي كثيرا ما لجأ اليه المسيحيون في العصر التسالي أنه يكشف عن احترام كبير للعدالة والانسانية ، مما تمكن الملائمة بينه وبين أفكاره الخاطئة عن السياسة الدينية . وبدلا من الكشف عن الغيرة الشديدة التي لا تفتنى من « محقق » متلف على استيضاح أدق تفاصيل الهرطقة ، نرى الامبراطور يعبر عن رغبة وقلق من أجل حماية أمن الأبرياء أشد كثيرا منه للحيلولة دون افلات المجرمين . وأنه ليعترف بالصعوبة في تحديد خطة عامة ، ولكنه يضع قاعدتين مفيدتين غالبا ما كان فيهما غوث وتدعيم للمسيحيين المنكوبين . فإنه رغم توجيهاته الى الحكم بان يعاقبوا الأشخاص الذين ادينوا قانونا ، يحرم عليهم ، في تناقض رحيم جدا ، التحقيق مع المجرمين المشتبه فيهم ، كما انه لم يكن مرخصا للحكام في أن يتخذوا اجراء بشأن كل بلاغ أو اخبارية تصل اليهم ، كما أن الامبراطور يرفض الاتهامات القفل من الأسماء باعتبارها منافية لمبادئ الانصاف في حكومته ، ويطالب بشدة وفي اصرار ، لادانة من تلتصق بهم تهمة المسيحية ، بدليل ايجابي من مدع عادل يعلن عن اسمه . ومن المحتمل كذلك أن هؤلاء الأشخاص الذين تولوا هذه المهمة المثيرة للبغضاء ، كانوا ملزمين بالافصاح عن أسس شكوكهم ، وتفصيل ( زمان ومكان ) هذه الجمعيات السرية التي تردد عليها اعداؤهم المسيحيون ، واماطة اللثام عن الظروف التي أخفيت بمنتهى الحقد الحذر عن أعين الكفار المدنسين ، فإذا افلحوا ( أى المخبرين ) في رفع الدعوى ، تعرضوا لسخط فئة كبيرة من الناس ، ولوم الفئة التي هي أكثر تحررا ، وللمقت الذي يلام شخصية المخبر أو المبلغ في كل زمان ومكان . وعلى النقيض من ذلك ، اذا أخفقت في اقامة الأدلة جلبوا على انفسهم عقوبة صارمة ، وربما كانت عقوبة الاعدام ، التي كانت تنزل — طبقا لقانون

أصدره هادريان - باى شخص ينسب زورا وبهتانا جريمة المسيحية الى زملائه المواطنين . وربما طغى عنف الضغائن الشخصية أو الخرافية ( العقائدية ) على أشد الخوف الدليعى من العار أو الخطر . ولكن لا يمكن على التحقيق أن يتصور أن الرعايا الوثنيين فى الامبراطورية الرومانية عمدوا ، فى قليل أو كثير ، الى هذه الاتهامات التى لا يبدو أنها تبشر بالخير .

ان الوسيلة التى استخدموها للافلات من حصانة القانون ، لتقدم دليلا كافيا على مدى الفعالية التى أحبطوا بها كل الخطط الشريرة المنبثقة عن الحقد الشخصى أو الغيرة الخرافية ، وان روادع الخوف والعار المفروضة تسرا على الأفراد فى الجماعة الكبيرة الصاخبة لتتفقد الجزء الأكبر من تأثيرها . وترقب المسرح التقى الذى رغب فى الحصول على شرف الاستشهاد أو فى الافلات منه - ترقب وقد نفذ صبره أو تملكه الرعب - الموعد المحدد لعودة الالعب والأعياد المسامة ، وكان سكان المدن الكبرى فى الامبراطورية ، فى مثل هذه المناسبات ، يتجمعون فى الملعب أو المسرح حيث كان كل مشهد من مشاهد المكان أو الاحتفال يساعد على انكاء روح النسك والتعبد أو اخماد الروح الانسانية فيهم ، وبينما أسلم جمهور النظارة - وهم يضعون أكابيل الغار على رؤوسهم وقد تطيبوا بالبخور ، وتطهروا بدم الشرابين ، تحيط بهم مذابح وتمائيل معبوداتهم الحارسة - بينما أسلموا أنفسهم للتمتع بهذه المسرات التى اعتبروها جزءا أساسيا من عبادتهم ، تذكروا أن المسيحيين وحدهم مقتوا آلهة بنى الانسان ، وأنهم بتخلفهم عن حضور هذه الاحتفالات المهيبة ، أو شعورهم بالحزن اذا شهدوها ، بدوا وكأنهم يسيئون الى الابتهاج العمام أو يرثون له . واذا ألمت بالامبراطورية أية كارثة حديثة : طاعون ، مجاعة ، حرب غير موفقة ، أو اذا فاضت مياه التبير على جوانبه ، أو لم يأت فيضان النيل ، أو زلزلت الأرض أو اختل النظام اللطيف فى تعاقب الفصول - اذا حدث شئ من ذلك ، اقتنع الوثنيون المؤمنون بالخرافات بأن كفر وجرائم المسيحيين الذين أبى عليهم افراد الحكومة فى الرفق واللين ، هى التى استغزت العدالة الالهية آخر الأمر . وما كانت أساليب الاجراءات القانونية لتراعى وسط جمهور فاجر فاضب ، وما كان صوت الاشفاق والرحمة ليسمع فى مدرج ملطخ بدماء الحيوانات الكاسرة والمجالدين . ولكن مسيحات الجمهور الجزوع توعدت المسيحيين بأنهم اعداء الآلهة والناس ، وقضت عليهم بأشد العذاب ، وبلغت بهم الجراة الى حدود توجيه الاتهام بالاسم الى نفر من المع أفراد الطائفة الجديدة ، وطلبوا ،

في سورة غضبهم الذي لا يقاوم بالقبض عليهم والقائم الى السباع .  
وكان حكام الولايات الذين تصدروا الاحتفالات العامة يميلون عادة الى  
ارضاء نزعات الشعب وتهدئة خواطره ، بتقديم بعض الضحايا  
البغيضة ، ولكن حكمة الأباطرة عصمت الكنيسة شر هذه الطقوس  
الصاخبة والاتهامات الشاذة التي عابوا عليها بحق أنها منافية لقواعد  
الحزم ولبادئ الانصاف في حكمهم . ونصت مراسيم هادريان  
وأنتونينوس بيوس على أن صوت الجماهير لا يجوز أن يسلم به كدليل  
قانوني لادانة أو عقاب أولئك الأشخاص التعساء الذين اعتنقوا العقيدة  
المسيحية .

٣ - ولم تكن العقوبة هي النتيجة المحتومة للادانة ، ذلك أن  
المسيحيين الذين ثبتت جرائمهم ثبوتا قاطعا بشهادة الشهود . أو حتى  
باعترافهم الاختياري ، ظل في مكنتهم هم أنفسهم أن يستبدلوا الحياة  
بالموت ، فان الجرم السابق لم يكن يثير سخط الحاكم ، قدر ما تثيره  
المقاومة الفعلية ، فقد أيقن أنه إنما قدم لهم عفوا ميسورا ، حيث أنهم  
— إذا ارتضوا وضع بعض حبات البخور على المذبح — كانوا يغادرون  
ساحة المحكمة في امان واستحسان . فقد قدر أن من واجب القاضي  
الرحيم أن يصلح ويهذب أكثر من أن يعاقب ويعذب هؤلاء المتحمسين  
المخدوعين . وكان يبذل من نبرات صوته ، تبعا لأعمار السجناء  
أو جنسهم ( ذكر أو أنثى ) ومراكزهم ، وغالبا ما يتلطف معهم ، فيبسط  
أمام أعينهم كل ما يمكن أن يجعل الحياة أكثر متعة وسرور ، أو يجعل  
الموت أكثر فرعا ورهبة ، ويطلب منهم ، لا بل يتوسل اليهم ، أن  
يستشعروا شيئا من الرحمة بانفسهم وبأسراتهم ، وبأصدقائهم ، فإذا لم  
تجد التهديدات والمغريات نفعا عاد الى استعمال العنف ، واتي بالسوط  
والمخلعة ( أداة استعملت للتعذيب قديما ) ليموضا عن عجز الجدل  
والمناقشة ، واستخدمت كل ألوان القسوة لاختضاع هذا العناد الذي  
لا يلين ، أو كما بدا للوثنيين العناد الاجرامي . وعساب المدافعون  
القدامى عن المسيحية ، بنفس القدر من الصدق والعنف . على  
مضطهديهم سلوكهم الشاذ ، الذي أقر التعذيب خلافا لكل مبادئ  
العدالة والاجراءات القضائية ، لا من أجل الحصول على اعتراف من  
يحققون معهم ، بل لحبلهم على انكار الجريمة موضوع التحقيق ،  
وكثيرا ما ابتدع رهبان العصور اللاحقة الذين تساءوا في خلوواتهم الهادئة  
بتعداد وفيات وآلام الشهداء الأوائل — ابتدعوا صنوفا من العذاب  
أكثر تهديبا ودراسة . وجددير بالذكر أنه قد طالب لهم أن تذهب بهم العذوبون  
الى أن غيرة الحكام الرومان ، استخفنا منهم بكل فضيلة أخلاقية

وبآداب اللياقة العامة ، حاولوا أن يفسقوا بمن أخفقوا فى إخضاعهم ، وأنهم أمروا بممارسة أشد ألوان التعذيب مع من استحال عليهم أن يثألوا منهم شيئا من ذلك . ويروى أن النسوة الفاتنات اللاتى تهيأن لاستعذاب الموت ، تعرضن أحيانا لامتحان أشد وأنكى ، حيث كان يطلب اليهن أن يحددن أيهما أكبر عندهن قيمة : دينهن أم عفتن . وجرى القاضى أيما تحريض أولئك الشباب الذين أسلم هؤلاء النسوة لأحضانهم الفاجرة ، على بذل أقصى الجهد للانتقام لمجد فينوس ( ربة العشق والجمال عند اليونان ) رغم أنف هؤلاء العذارى اللاحقات اللاتى رفضن احراق البخور فى مذبحها . ولكن غالبا ما أحبطت عنة هؤلاء الشباب ، على أية حال ، حيث تدخلت فى الوقت المناسب قوة خارقة معجزة فعصمت فتيات المسيح الطاهرات العفيفات من المعار ، حتى ولو أكرهن على الاستسلام أكرها . ولكن يجدر بنا فى الواقع ألا نغفل الإشارة الى أن أقدم وأصدق سجلات الكنيسة قل أن تلوثت بمثل هذه الأقايص المسرفة الشائنة (١) .

ودعا الى هذا الاغراق فى اغفال الحقيقة ، وترجيح وقوع هذه الاستشهادات الأولى خطأ طبيعى جدا . ذلك أن كتاب الكنيسة فى القرنين الرابع والخامس نسبوا الى حكام روما نفس القدر من الغيرة الطاغية التى لا تلين ولا تتثنى ، والتى أوغرت صدورهم ضد الهرطقة أو الوثنيين فى أيامهم . وليس بمستبعد أن يكون بعض هؤلاء الأشخاص الذين تبوعوا مناصب الامبراطورية قد أشربوا تعصب الشعب ، وأن تكون النزعة الى القسوة قد استثارها فى آخرين بواعث الجشع أو الاستياء الشخصى (٢) . ولكنه من المحقق - ويمكن الرجوع فى هذا الى اعترافات المسيحيين الأولين التى تفيض بالشكر - أن الأغلبية العظمى من هؤلاء الحكام الذين مارسوا فى الولايات سلطة الأباطرة أو سلطة السناتو ، والذين وضع فى أيديهم وحدهم أمر التحكم فى الحياة والموت ، سلكوا مسلك رجال تحلوا بآداب رفيعة مهذبة وتلقوا تعليما متحررا ، واحترموا قواعد العدالة ، وكانوا على اطلاع واسع بمبادئ الفلسفة ، وكثيرا ما نبذوا المهمة البغيضة ، الا وهى مهمة الاضطهاد ، وأسقطوا الاتهام فى احتقار ، أو أوغزوا الى المسيحي

(١) يروى لنا جيروم فى كتابه « أسطورة بولس الناسك » قصة غريبة لشاب قيد بالأغلال عاريا فى فراش من الأزهار ، وبأغنته غانية جميلة لعوب ، لما كان منه إلا أن يضم لسانه ليخمد جذوة الشهوة بين ضلوعه .

(٢) استنقذ اعتناق زوجة كلوديوس هرمينيانوس Claudius Herminianus حاكم كبادوكيا للمسيحية ، الى معاملة المسيحيين بقسوة غير عادية .



المنهم ببعض الحيل القانونية التي يمكن بها الافلات من صرامة القانون . وكانوا اذا خولوا حرية التصرف - استغلوها في نجدة الكنيسة المنكوبة وفي مصلحتها أكثر كثيراً منها في البطش أو التنكيل بها . وكانوا بعيدين كل البعد ، عن الحكم على كل المسيحيين المتهمين الذين يمثلون أمام محكمتهم ، وبعيدين جداً عن الحكم بالاعدام على أولئك الذين أدينوا بالتعلق العنيد بالخرافة ( العقيدة ) الجديدة ، اكتفاء منهم ، في معظم الأحوال ، بالمعقوبة الأخف : السجن ، النفي ، السخرة في المناجم ، وتركوا لضحايا قضائهم البائسة فرصة التعلق بالأمل في مناسبة سعيدة . مثل ارتقاء امبراطور الى العرش أو زواجه أو انتصاره ، مناسبة يصدر فيها عفو عام يعجل بعودتهم بسيرتهم الأولى . أما الشهداء الذين نفذ فيهم الحكام الرومان حكم الاعدام فوراً ، فإنه يبدو أنهم اختيروا من بين فئتين على طرفي نقيض . فكانوا إما من بين الأساقفة والمشايع ، وهم أبرز الأشخاص وسط المسيحيين بحكم مراتبهم ونفوذهم ، من الذين يلقي أمثالهم الرعب في قلوب الطائفة بأسرها ، أو أخط وأحقر المسيحيين وبخاصة أولئك الذين اتسمت معيشتهم بالذل والاستعباد ، ممن قدر أن حياتهم غير ذات قيمة ، وممن نظر الأقدمون الى آلامهم وشقائهم بأكثر قدر من الاستهتار والاغفال . ويعلم العلامة أوريجن ، وهو الواسع الاطلاع على تاريخ المسيحيين بحكم خبرته وقراءاته ، يعلن في أجلى بيان أن عدد الشهداء كان قليلاً جداً . وقد تكون حجته وحدها كافية لدحض القول بوجود هذا الجيش العرمرم من الشهداء الذين أخذت رفاتهم ، في معظم الأحوال من قبور روما ، وزخر بها كثير من الكنائس ( ١ ) . والذين كانت أعمالهم الخارقة موضوع مجلدات كثيرة

(١) اذا تذكرنا أن كل العامة في روما لم يكونوا مسيحيين ، وأن كل المسيحيين لم يكونوا قديسين أو شهداء ، لا يمكن الحكم الى أي حد من الطمأنينة كانت الامجاد الدينية تضيء على المظلم أو زجاجات الرماد التي كانت تؤخذ دون تمييز من المقابر العامة . وبعد عشرة قرون من عمل حر صريح نارت بعض الشكوك في اوساط الكاثوليك ، وخاصة الأكثر علماً منهم ، فانهم يتطلبون الآن ، كدليل على القداسة والاستشهاد ، وجود الحرفين ب م . ( B.M. ) أو قارورة مليئة بسائل أحمر يظن أنه دم ، أو صورة نخلة . ولكن العلامتين الأوليين ليست لهما قيمة كبيرة ، أما عن العلامة الأخيرة فقد لاحظ النقاد : (١) أن صورة النخلة - كما يسمونها ، ربما كانت شجرة السرو ، وربما كانت مجرد نقطة ( اللوقف ) ، أو التنميق بالشقولة ( ، ) في النقوش الأثرية . (٢) أن النخلة كانت رمز النصر عند الوثنيين . (٣) أنها تستخدم عند المسيحيين كشعار الاستشهاد فقط ، بل صفة عامة لبعث يهيج .

جداً من القصص الدينى (١) ، ولكن تؤكد أوريجن العام قد « توضحه وتبرزه الشهادة الخاصة لصديقه ديونيسيوس ، الذى يعد ، فى مدينة الاسكندرية الضخمة ، وفى ظل اضطهاد ديسيوس العنيف ، يعد عشرة رجال وسبع نساء شقوا باعترافهم بأنهم مسيحيون .

### استشهاد سبريان

وطوال نفس فترة الاضطهاد هذه ، تولى سبريان ، الفيور البليخ الطموح ، امر الكنيسة ، لا فى قرطاجة وحدها ، بل حتى فى افريقية بأسرها ، وكان يتحلى بكل خصلة تجعله موضع احترام المؤمنين أو تثير شكوك الحكام الوثنيين وحقنهم ، وبدا أن شخصية هذا الحبر المقدس ومركزه يميزانه بأنه أبرز هدف للحقد والخطر . وان التعرف على حياة سبريان ليكفى ، على أية حال ، للتدليل على أن خيالنا قد بالغ فى خطورة موقف أى أسقف مسيحي ، وأن الأخطار التى كان يتعرض لها أقل من تلك التى تنتهى الأطماع الدنيوية لمواجهتها فى السعى وراء أمجاد الحياة . فقد هلك بحد السيف أربعة من اباطرة الرومان مع اسراتهم وخلصائهم وأتباعهم فى مدى عشر سنوات ، قاد فى أثنائها ، أسقف قرطاجة ، بسلطته وبلاغته ، مجالس الكنيسة الافريقية . أما سبريان ، فلم يكن أمامه ثمة شئ يخشاه ، اللهم الا فى السنة الثالثة من ولايته ، ولبضعة شهور قلائل فحسب ، حين أوجس خيفة من مراسيم ديسيوس الصارمة ، وتيقظ الحكام ، وصيحات الجماهير التى دوت مطالبية بوجوب القاء سبريان زعيم المسيحيين الى السباع ، وارتأت الفطنة ضرورة الانزواء المؤقت . وكان الامثال لهاتف الفطنة ، فانسحب الى معزل مجهول ، استطاع منه أن يكون على اتصال دائم برجال الدين والشعب فى قرطاجة . وباختفائه حتى هدأت العاصفة استطاع أن يبقى على حياته ، دون أن يتخلى عن سلطته أو شهرته . ولكن حرصه الشديد لم ينج ، على أية حال ، من لوم المسيحيين الذين كانوا أكثر تشدداً ، والذين رثوا لهذا السلوك ، أو من تائب أعدائه الشخصيين الذين عابوه وسبوه حيث اعتبر هؤلاء وأولئك سلوكه تخلياً جباناً أما عن اقدس واجب . وكانت الأسباب التى ساقها لتبرير سلوكه أنه رأى من

(١) قد نكتفى ، كسودج لهذه الأساطير ، بأن عشرة آلاف من الجنود صلبهم تراجان أو هادريان فى يوم واحد فوق جبل أدرات . ويقال ان اللفظ المختصر (Mil) الذى قد يدل على عدد « ألف » ، أو على « الجنود » قد سبب بعض أخطاء غير عادية .

الأوفق أن يدخر حياته لما تقتضيه حاجة الكنيسة في المستقبل ، وأنه اقتدى في ذلك بكثير من الأساقفة المقدسين ، وأنه — كما صرح هو بذلك — إنما فعل ذلك امتثالا للتنبهات الالهية التي تلقاها في رؤياه ومنامه وفي غيبوبته واستغراقه . ولكن أحسن اعتذار يمكن أن نجده في الثبات البهيج الذي لاقى به الموت في سبيل الدين ، بعد ذلك بنحو ثماني سنوات . وقد سجل تاريخ استشهاده في صراحة ونزاهة غير عاديتين ، ومن ثم ، قد يكفى اقتباس قطعة صغيرة من أهم مشاهدته لتزويدنا بأوضح المعلومات عن روح الاضطهادات الرومانية وأساليبها .

عندما كان فاليريان منفصلا للمرة الثالثة ، وجالينوس للمرة الرابعة ، دعا باثرنوس ، بروقنصل أفريقية ، سبريان للحضور الى قاعة مجلسه المخصوص ، وهناك اطلعه على الأمر الامبراطوري الذي كان قد تلقاه آنذاك ، بأنه يجب على الذين نبذوا الديانة الرومانية أن يعودوا من فورهم الى ممارسة طقوس آبائهم وأجدادهم . فأجاب سبريان دون تردد بأنه مسيحي وأنه أسقف متمسك بعبادة الاله الواحد الحق . الذى يرفع اليه كل يوم تضرعائه وابتهالاته من أجل سلامة ورخاء الامبراطورين ، مليكيه الشرعيين . وفي ثقة وتواضع التمس أن يمنح حق المواطن في الامتناع عن الاجابة عن بعض الاسئلة المثيرة ، وفي الحقيقة ، غير القانونية ، التي وجهها اليه البروقنصل . وصدر الحكم بالنفى عقابا لعصيان سبريان ، وسيق دون ابطاء الى كوروبيس Curuibis وهي مدينة حرة بحرية في زيوجيتانا Zeugitana ، ذات موقع جميل وسط أرض خصبة على مسافة نحو أربعين ميلا من قرطاجة . وقد تمتع الأسقف المنفى براحة الحياة ونعيم التقوى . وطبقت شهرته آفاق أفريقية وإيطاليا ، ونشرت قصة مسلكه رغبة في الاشادة بذكر العالم المسيحي ، وكثيرا ما قطعت عليه خلوته رسائل المؤمنين وزياراتهم وتهانيهم له . وبدا لبعض الوقت ، بوصول بروقنصل جديد الى الولاية ، أن حظ سبريان قد يتخذ طريقا أوفق ، فقد استدعى من منفاه ، ورغم أنه لم يكن سمح له بعد بالعودة الى قرطاجة ، فقد خصصت لاقامته بساتينه المجاورة العاصمة .

وأخيرا ، وعلى التحديد بعد عام من القبض على سبريان لأول مرة ، تلقى جالريوس مكسيموس بروقنصل أفريقية أمرا امبراطوريا باعدام الفقهاء المسيحيين . وكان أسقف قرطاجة يحس بأنه سيكون من أوائل الضحايا ، فأغراه خور الطبيعة بأن ينجو بنفسه ، بالنهار سرا ، من خطر الاستشهاد وشرفه ، ولكنه سرعان ما استرد الصلابة التي

اقتضتها شخصيته وعاد الى بساتينه ، مترقبا ، في صبر وجلد ، وصول  
رسول الموت . ووضع ضابطان كبيران مكثان بهذه المهمة — وضعا  
سبريان بينهما في عربة ، ولما كان البروقنصل ساعتئذ مشغولا ، فقد  
قاداه — لا الى السجن — بل الى دار خاصة كان يملكها أحدهما في  
قرطاجة . وأعد عشاء فاخر احتفاء بالأسقف ، وسمح لأصدقائه  
المسيحيين أن يمتنعوا بصحبته لآخر مرة ، على حين ازدحمت الشوارع  
بجموع المؤمنين ، قلقين جزعين لدنو مصير أبيهم الروحي . وفي الصباح  
مثل أمام محكمة البروقنصل الذي أحيط علما باسم سبريان وموقفه ،  
فأمره بتقديم قربان ، وألح عليه في تدبر عواقب عصيانه . ولكن رفض  
سبريان كان حازما حاسما ، ونطق الحاكم بعد أن أخذ رأى المجلس  
بحكم الإعدام وهو كاره ، وهذا نصه : « إن تالسيوس سبريانوس يجب  
أن تضرب عنقه فوراً ، يوصفه عدواً لآلهة روما ، ورئيس وزعيم رابطة  
أثيمة ، حرضها على المقاومة الملحدة لقسوانين أقدس إمبراطورين  
« فاليريان وجالينوس » ، وكانت طريقة التنفيذ اللطيف وأقل ما يمكن  
إيلاما بالنسبة لشخص أدين بجريمة عظيمة ، كما أنه لم يسمح بتعذيب  
أسقف قرطاجة لحمله على إنكار عقيدته أو الكشف عن شركائه .

وعندما أعلن الحكم . تعالت على الفور صيحات جموع المسيحيين  
الذين احتشدوا للاستماع إليه أمام أبواب القصر ، وهم يهتفون « لا بد  
أن نموت معه » . ولكن نفثات غيرتهم ومحبتهم لم تكن ذات نفع  
لسبريان ، أو ذات خطر عاينهم أنفسهم ، واقتيد في حراسة عدد من  
التربيون وضباط المائة دون أن يقاوم أو تبدر منه أية أساءة ، التي ساحة  
الإعدام ، في سهل فسيح منبسط بالقرب من المدينة ، مكتظ بالنظارة ،  
ورخص لشايخه وشهامسته المخلصين بمصاحبة أسقفهم المقدس ،  
فعاونوه في خلع رداءه الخارجي ، وفرشوا على الأرض ملاءة من الكتان  
ليتلقوا عليها شيئاً من دمه الغالي ، واستمعوا الى أوامره بمنح الجلاد  
خمسة وعشرين قطعة ذهبية ، وعندئذ غطى الشهيد وجهه بيديه ،  
وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده ، وبقي جثمانه لبضع ساعات  
معرضاً لأنظار الأميين ، ولكنه نقل في الليل وحمل في موكب ظافر وفي  
أضواء باهرة الى مداخل المسيحيين ، واحتفل بجنائز سبريان احتفالاً  
عاماً دون أى تدخل من جانب الحكام الرومان ، بل ان الأشخاص  
المسيحيين الذين قاموا باتمام الواجبات الدينية لشخصه ولذكراه كانوا  
بمأمن من خطر التحقيق معهم أو عقابهم . وبما تجدر الإشارة إليه أن  
سبريان من بين العدد الكبير من الأساقفة في ولاية أفريقية ، كان أول  
من قدر بأنه جدير بأن ينال شرف الاستشهاد .

ولقد ترك لسبريان الاختيار بين أن يموت شهيدا أو يعيش مرتدا ،  
ولكن على اختياره كان يتوقف الشرف أو العار . وإذا ذهب بنا الظن  
الى أن أسقف قرطاجة - سبريان - قد استخدم اعترافه بالعقيدة  
المسيحية مجرد أداة لجشعه أو طمعه ، لظل لزاماً عليه أن يدعم  
الشخصية التى انتحلها ، وأن يعرض نفسه ، إذا أوتى شيئاً يسيراً من  
عزمة الرجال لأشد ألوان العذاب ، خيراً من أن يستبدل ، فى تصرف  
واحد من تصرفاته ، بشهرة العمر مقت اخوته المسيحيين واحتقار الكفار  
الأمميين ، ولكن إذا كانت لغيره سبريان ركيذة قوية من الاقتناع الخالص  
بصدق المبادئ التى بشر بها . فلابد أن شرف الاستشهاد بدا له  
موضوع رغبة لا رهبة . وليس من السهل أن نستنبط أية أفكار واضحة  
من كتابات الآباء المؤثرة الغامضة رغم فصاحتها ، أو نؤكد درجة العظمة  
والسعادة الخالدين اللتين وعدوا بهما عن ثقة أولئك الذين أسعدهم  
الحظ باراقة دماهم فى سبيل الدين ، وقد لقنوا الناس ، فى يقظة مقبولة  
أن حرارة الاستشهاد عوضت كل نقیصة ومحت كل خطیئة ، وأنه بينما  
كان لزاماً أن تمر أرواح المسيحيين العاديين بعملية تطهير بطیئة الیمة ،  
دخل المعذبون ( المستشهدون ) الظالمون مباشرة الى النعيم الخالد ،  
حيث ساروا مع المسيح ، وبرفقة الآباء والرسل والأنبياء ، وشاركوا  
بوصفهم معاونيه ، فى المحاكمة العامة للجنس البشرى . وقد أفلح  
التبشير الأكيد بخلود الشهرة على الأرض ، وهو باعث بهيج حبيب الى  
الطبیعة الانسانية ، أفلح فى استحثاث شجاعة الشهداء . وليست  
الأمجاد التى أسبغتها روما أو أثينا على المواطنين الذين سقطوا من  
أجل وطنهم الا مظاهر جامدة عقيمة للاحترام والاجلال ، اذا تورنت  
بالتقدير والاخلاص اللذين أظهرتهما الكنيسة الأولى لأبطال العقيدة  
المنتصرين . واعتبر الاحتفال السنوى بذكرى فضائلهم وآلامهم ، لونا  
من الطقوس المقدسة ، وانتهى الأمر بهم الى العبادة الدينية ، ومن بين  
المسيحيين الذين اعترفوا علنا بمبادئهم الدينية ، ظفر أولئك الذين  
لفظتهم محاكم الحكام الوثنيين أو سجونهم ( كما حدث كثيرا ) ، ظفروا  
من الأمجاد بما هو جدير عدلا باستشهادهم الناقص وثباتهم الكريم .  
والتمس أنقى النسوة السماح لهن بطبع قبلة على القيود التى كن مكبلات  
بها ، وعلى الجروح التى اثخن بها أجسادهن . ورفعهن الناس الى  
مصاف القديسات . وتقبلوا قراراتهن باحترام . ولكنهن ، بزهوهن  
الروحي وسلوكهن المعيب ، كثيرا ما أسان استخدام الكانة السامية

التي أضفتها عليهن الغيرة والبسالة (١) . ان مثل هذه المفارقات تبرز الخصال الكريمة والشيم الحميدة ، ولكنها في نفس الوقت تكشف عن العدد الضئيل لأولئك الذين شقوا أو قضاوا نحبهم من أجل المسيحية .

ان الادراك الرشيد في عصرنا الحاضر أكثر استعدادا ليعيب على المسيحيين الأولين غيرتهم أكثر من أن يعجب بها ، ولكن الاعجاب بها أهون عليه من محاكاتها ، فهؤلاء هم الذين كانوا ، على حد التعبير الجميل الذي استخدمه سبكيوس وسيفيروس *Supicius Severus* كانوا أكثر تلهفا على الموت في سبيل الدين ، من تلهف معاصريه على منصب الأسقف . ان الرسائل التي كتبها اجناطيوس ، وهو يرسف في الأغلال عبر مدن آسيا لتفويض بأسوأ ما تعافه الاحاسيس العادية للطبيعة الانسانية . وانه ليهيب بالرومان ، الا يجرموه — عند تعريضه للوحوش في المدرج — من تاج المجد ، بتدخلهم الرحيم الذي يجرى في غير أوانه ، ويعلن تصميمه على استغزاز واهاجة الوحوش التي قد تستخدم أدوات لقتله . وثمة قصص تروى عن شجاعة نفر من الشهداء وقوا بالفعل بما كان يعتزمه اجناطيوس ، فأهاجسوا غيظ الاسود ، واستحثوا الجلاد على انجاز مهمته ، وفتزوا في غبطة وابتهاج الى النيران التي أشعلت لالتهامهم ، وغمرهم شعور من الجذل والانتسراح وسط أشد ألوان التعذيب . وهناك أمثلة كثيرة لا تزال باقية عن أناس ضاقوا ذرعا بتلك القيود التي فرضها الإباطرة من أجل أمن الكنيسة وسلامتها ، فتنطوع المسيحيون أحيانا بالاعلان عن أنفسهم اذا عز وجود من يوجه اليهم الاتهام ، وازعجوا الموظفين المدنيين الوثنيين أيما ازعاج، واندفعوا في جموع جاشدة حول محاكم الحكام الرومان ، يستصرخونهم ان ينطقوا بحكم القانون وينفذوه . وكان سلوك المسيحيين أبرز من أن تحطئه أنظار الفلاسفة القدامى ، ولكن يبدو أنهم أعجبوا به أقل كثيرا مما عجبوا له . ولما كانوا عاجزين عن ادراك البواعث التي طوحت بثبات المؤمنين أحيانا الى ما وراء حدود الروية أو العقل ، فانهم نظروا الى هذا التشوق الى الموت على أنه نتيجة غريبة ليأس قاتل ، أو جمود كالح أو خبل خرافي ، وصاح البروقتنصل أنطونينوس في مسيحيي آسيا متعجبا : « أيها الرجال التعساء ! أيها الأشقياء ! اذا كنتم سئتم الحياة الى هذا الحد ، فهل يصعب على الواحد منكم أن يجد حبلا يشنق به نفسه وجدثا يواريه ؟ » وكان — ( كما لاحظ مؤرخ عالم تقى )

(١) تضاعف عدد من زعموا أنهم شهداء ، نتيجة التقليد الذي درجوا عليه ، وهو اطلاق هذا اللقب الكريم على كل من يمتدح بالدين .

محاذرا غاية الحذر من معاقبة اناس لم يجدوا من يتهمهم الا انفسهم .  
لان القوانين الامبراطورية لم تتضمن مادة لمثل هذه القضية غير المتوقعة،  
فاصدر حكمه على نفر قليل منهم ليكونوا عبرة لآخوانهم ، وطرد الجموع  
الحاشدة في استياء واحتقار . وعلى الرغم من هذا الازدراء الصادق  
أو المصطنع ، فان هذا الثبات الشديد الذى تحلى به المؤمنون كانت له  
نتائج ابعد اثرا في تلك العقول التى هياتها الطبيعة أو السباحة لتقبل  
الحق الذى أتى به الدين ، في يسر وهوادة . وفي مثل هذه المناسبات  
الحزينة ، كم من الأميين الكفار أشفق على من حكم عليهم ، وأعجب  
بهم ، وتحول الى ديانتهم المسيحية ، فقد انتقل هذا الحماس الكريم من  
المعذبين الى المنفرجين ، وأصبح دم الشهداء على حد ما جاء في تعليق  
مشهور نواة الكنيسة .

### نوع سياسة الأرهاب

وعلى الرغم من أن التعبد رفع من حرارة تلك الحمى التى انتابت  
العقول ، واستمرت البلاغة تزيدها التهابا ، فانها أفسحت المجال ،  
بطريقة غير ملحوظة ، للأمال والمخاوف التى هى أقرب الى طبيعة قلب  
الانسان ، وطبيعة حبه للحياة ، وخشيته من الألم وفزعته من الموت .  
ووجد أكثر حكام الكنيسة فطنة وتبصرا ، انفسهم مضطرين الى  
أن يكبحوا جهاج هذه الحماسة الطائشة في اتباعهم ، والا يثقلوا في  
هذا الوفاء الذى كثيرا ما هجرهم عند الامتحان ، ولما قل في الحياة  
القشيف وتمع الشهوات ، قتل في الناس الطموح الى الاستشهاد ، يوما  
بعد يوم ، وكثيرا ما تخلى جند المسيح عن مواقعهم ، بدلا من أن  
تشهرهم أعمالهم البطولية الاختيارية ، وفروا على غير هدى أمام العدو  
الذى كان لزاما عليهم أن يتصدوا له . وكانت هناك ، على أية حال ،  
أساليب ثلاثة للفرار من جحيم الاضطهاد ، لم تدمغ كلها بنفس القدر من  
المعصية ، وقد اعتبر اولها في الواقع أسلوبا بريئا بصفة عامة ، أما  
الثانى فقد اكتنفه الشك ، أو قل انه قابل للغفران . ولكن الثالث  
انطوى على ردة صريحة آئمة عن عقيدة الكنيسة .

١ - قد يدهش « المحقق » في عصرنا الحديث ، إذ يسمع أنه اذا  
نسى الى علم أى حاكم روماني أن شخصا في دائرة ولايته قد انضم الى  
الطائفة المسيحية ، كانت التهمة تبلغ الى المتهم ، وكانت تترك له فسحة

من الوقت لتسوية شئونه الخاصة ، واعداد جواب عن التهمة التي الصقت به ، فاذا ساوره شئ من الشك في تجلده ، هيأت له هذه المهلة فرصة الابقاء على حياته وشرفه بالهرب ، قرصة اللجوء الى مكان مجهول أو ولاية نائية ، والتذرع بالصبر انتظارا لعودة الهدوء والطمأنينة . وسرعان ما أقرت نصائح أقدمس الأبحار والاقنتداء بهم مثل هذا الاجراء الذي يتمشى مع العقل والادراك السليم . ولكن يبدو أنه قد ندد به نفر قليل ، اللهم الا المونثانيون الذين انزلقوا الى الهرطقة نتيجة تعلقهم العنيد الشديد بصرامة النظام القديم ( ١ ) .

٢ - ان حكام الولايات الذين لم تملكهم الغيرة قدر ما سيطر عليهم الجشع ، ارتضوا عملية بيع شهادات ( كانت تسمى الاقرارات ) تثبت أن الشخص المذكور اسمه فيها قد امتثل للقوانين ، وأنه قدم القرابين للمعبودات الرومانية ، وبإبراز مثل هذه الاقرارات الزائفة تمكن المسيحيون الأثرياء الجبناء من أن يخرسوا المخبر الخبيث ، ويوفقوا ، بشكل ما ، بين سلامتهم وديانتهم . وكان يكفر عن هذا النفاق الدنس شئ قليل من التوبة .

٣ - ووجدت في كل اضطهاد اعداد كبيرة من المسيحيين النافهين الذين نبذوا أو انكروا صراحة وعلنا العقيدة التي سبق اعترافهم لها ، وأكدوا اخلاصهم في ارتدادهم بالأعمال المشروعة ، من احراق البخور أو تقديم القرابين . واستسلم بعض هؤلاء المرتدين لدى أول تهديد أو وعيد من الحاكم ، على حين استنفذ الامعان في التعذيب صبر آخرين منهم . ونم الفزع المرتسم على بعض الوجوه عما يعتل في اعماقهم من تراجع عن عقيدتهم دون أن يبدوا حراكا ، على حين خف آخرون في ثقة ورشاقة الى مذابح الآلهة ، ولكن القناع الذي نسجه الخوف لم يدم لأكثر من ساعة الخطر . وما أن خفت وطأة الاضطهاد حتى هرعت جموع النادمين الثائبين الى أبواب الكنائس ، يلتمسون بنفس القدر من الحماسة والحمية ، اعادتهم الى المجتمع المسيحي ، ولكن تباينت درجة نجاحهم في تحقيق ملتسمهم .

(١) يعتبر ترتوليان أن الفرار من الاضطهاد بمثابة ردة لم تقر كل أركانها ، ولكنها اثم كبير ، ومحاولة كافرة للهروب من ارادة الله . . . . . وكتب في هذا الموضوع رسالة مليئة بأشع التعصب ، وبأكثر الحماس تنافرا . ومهما يكن من أمر ، فانه مما تجدر الإشارة اليه ، الى حد ما ، أن ترتوليان نفسه لم يمت شهيدا ، فلم يكابد الاستشهاد .



٤ - ورغم القواعد العامة المقررة في اتهام المسيحيين وعقابهم ، فلا بد أن يتوقف مصيرهم إلى حد كبير ، في مثل هذه الحسنة الاستبدادية المترامية الأطراف ، على سلوكهم هم أنفسهم ، وعلى ظروف عصرهم ومزاج الحاكم الأعلى ومزاج مرعوسيه . وقد تهيج العيرة الخرافية عند الوثنيين سورة غضبهم تارة ، ويوهن أو يخفف التروى والتبصر منها تارة أخرى . وثمة دوافع مختلفة كانت تجنح بحاكم الولاية إلى تنفيذ القانون أو إلى التراخي في تطبيقه ، ومن أقوى هذه الدوافع ، اهتمامه ، لا بالقوانين العامة وحدها ، بل بالمقاصد الخفية للإمبراطور نفسه ، حيث كانت نظرة منه واحدة تكفى لتستعير ناز الاضطهاد أو يخبو أوارها . وكان المسيحيون الأولون يندبون حظهم ، وربما بالغوا في آلامهم وشقائهم ، كلما نزلت بهم بعض الشدائد في مختلف أرجاء الإمبراطورية ، ولكن مؤرخى الكنيسة في القرن الخامس ، الذين أوتوا من نفاذ البصيرة ما استطاعوا معه أن يتبينوا ابتسام الحظ من عثار الجد في الكنيسة - من عهد نيرون إلى عهد دقلديانوس - وهم الذين حددوا الاضطهادات بالعدد المشهور ، وهو « عشرة » اضطهادات . وأوحت اليهم المطابقات البارعة مع أحداث الطاعون « العشرة » في مصر ، وقرون التنين « العشرة » التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا ( Apocalypse الكتاب الأخير من العهد الجديد) - أوحت إلى عقولهم بهذا الحساب في البداية ، ثم حرصوا ، في تطبيقهم لصدق النبوءة على صدق التاريخ ، حرصوا على اختيار العهود التي كانت أشد عداة لقضية المسيحية . ولكن هذه الاضطهادات العابرة لم تثر إلا في بعث الفيرة وإعادة النظام إلى صفوف المؤمنين ، وعوضت عهود طويلة من السلام والأمن عن لحظات العنف الشاذة ، وهيا استهتار بعض الأمراء واغضاء بعض آخر ، للمسيحيين فرصة التمتع بالتسامح الدينى الشامل ، تسامحا عمليا ، وربما كان غير مشروع .

وتضمن دفاع ترتوليان مثالين - قديمين جدا ، فريدين جدا ، ولكنهما في نفس الوقت مشكوك فيهما - عن رفق الأباطرة واعندالهم وهما المرسومان اللذان أصدرهما تيبيريوس وماركوس أنطونينوس ، لا لجرد تعزيز براءة المسيحيين فحسب ، بل حتى لابرار تلك المعجزات الفذة التي شهدت بصدق عقيدتهم . وقد اكتنف المثل الأول بعض صعاب قد تريبك العقلية المتشككة . وانه ليراد بنا أن نصدق أن بيلاطس البنطى Pontius Pilateus ابلغ الإمبراطور نيا الحكم الجائر الذى أصدره ضد شخص برىء يبدو أنه مقدس ، عرض نفسه للخطر دون أن ينال شرف الاستشهاد ، وأن تيبيريوس الذى أعلن صراحة استهزائه بكل الديانات

عقد النية على الفور على ادراج « المسيح اليهودى » فى قائمة آلهة روما ، وأن السناتو الخنوع تجاسر على عصيان أوامر سيده ، وأن تيبيريوس — بدلا من استنكار هذا الرفض — قنع بأن يعصم المسيحيين من صرامة القوانين ، قبل عدة سنين من سن مثل هذين المرسومين ، وقيل أن تتخذ الكنيسة اسما أو كيانا متميزا. وأخيرا يراد بنا أن نصدق ، أن ذكرى هذا التصرف الخارق محفوظة فى اصدق السجلات العامة التى اخطاها علم مؤرخى اليونان والرومان ، والتى وقعت عليها فقط عينا مسيحي أفريقى ( تروتوليان ) كتب دفاعه بعد مائة وستين عاما من وفاة تيبيريوس . أما مرسوم ماركوس انطونينوس ، فالمفروض أنه جاء نتيجة اخلاصه وامتنانه لمعجزة خلاصه وانقاذه فى الحرب بينه وبين ماركوماني . وقد سجلت فصاحة عدة كتاب وثنيتين ما عاناه جيش ماركوس من كرب وضيق فى البداية ، والمطر الذى انزله الله عليهم لاطفاء عطشهم ، كما سجلت فزع المتبريرين من الرعد الذى أرسله الله عليهم وهزيمتهم . ولو أن فى الجيش نفرا من المسيحيين ، لكان من الطبيعى أن ينسب بعض الفضل الى الصلوات والدعوات الحارة التى تضرعوا بها فى ساعة العسرة من أجل سلامتهم ، ومن أجل السلامة العامة . ولكن الآثار النحاسية والرخامية ، والأوسمة الامبراطورية ، وعمود انطونينوس ، ما تزال تؤكد لنا أنه لا الأمير ولا الشعب داخلهم الاحساس بهذا الالتزام الفريد ، لأنهم بالاجماع ينسبون خلاصهم الى عناية الاله جوبيتر ، وتدخل الاله هرمس . واحتقر ماركوس المسيحيين طوال حكمه ، بوصفه فيلسوفا ، ووقع عليهم العقوبات بوصفه ملكا .

وتوقفت على الفور ، قضاء وقدر ، تلك الأهوال التى قاسوها فى ظل حكومة أمير فاضل حين تبوا العرش طاغية ، ولما لم يعان أحد غيرهم من جور ماركوس ، فانهم وحدهم كذاك احتموا فى رفق كهودوس وتساهله . ذلك أن مارشا الشهيرة Marcia ، أحب خليلاته اليه ، تلك التى حاولت آخر الأمر قتل عشيقها الامبراطور ، تعلقت تعلقا شديدا غريبا بالكنيسة المظلومة ، وربما راودها الأمل — رغم استحالة التوفيق بين ممارسة الدعارة وبين تعاليم الانجيل — فى أن تكفر عن سقطات بنات جنسها وحرفتها ، بأن تعلن انها راعية المسيحيين ، ومن ثم قضوا فى ظل الحماية الكريمة لمارشا ، ثلاث عشرة سنة من الأمن والطمأنينة ، وهى فترة حكم الطاغية الغاشم . فلما استقر عرش الامبراطورية فى أسرة سيفيروس ، انشأ المسيحيون علاقة خاصة . واكتنفا علاقة اشرف ، مع الحاشية الجديدة . واقتنع الامبراطور ،

بأنه في مرضه الخطير ، قد أماد ، روحيا أو ماديا ، من الزيت المقدس الذي مسح به أحد عبيده . ومن ثم عامل عدة أفراد من الجنسين ممن اعتنقوا الدين الجديد معاملة خاصة متميزة . وكانت مربية كاراكلا ( ابنه ) وكذلك معلمه ، من المسيحيين ، وإذا كان هذا الأمير الصغير قد أظهر يوما شيئا من العاطفة الانسانية ، فان ذلك يرجع الى حادثة ارتبطت رغم تفاهتها بقضية المسيحية . ففي عهد سيفيروس كبح جماح الجاهير ، وأوقف بطش القوانين ، وقنع حكام الولايات بتسلم هدية سنوية من الكنائس الواقعة في دائرتة اختصاصهم ، ثمناً أو مكافأة لاعتدالهم ، وأجج النزاع بين أساقفة آسيا واطساليا باختلافهم على الموعد الدقيق للاحتفال بعيد الفصح ، وكان هذا الاختلاف أهم ما يشغل فطرة الفراغ والهدوء هذه ، كما أنه لم يعكر صفو الكنيسة وقتئذ شيء ، حتى تزايد عدد المهتدين الجدد الى الجسد الذي يبدو أنه جذب انتباه سيفيروس وحول مجرى تفكيره . فأصدر ، بغية الحد من تقدم المسيحية ، قانونا قصد أن يقتصر أثره على هؤلاء المرتدين الجدد الى المسيحية ، ولكنه رغم ذلك ، لم يكن من اليسور تنفيذة ، تنفيذا دقيقا ، دون أن يعرض للخطر وللعقاب ، أشد المعلمين والمبشرين غيرة . ويمكن أن نتبين حتى في مثل هذا الاضطهاد المخفف ، روح التساهل في روما وفي الشركين ، تلك الروح التي تقبلت عن طيب خاطر كل عذر في جانب أولئك الذين مارسوا طقوس آبائهم الدينية .

ولكن سرعان ما زالت القوانين التي كان قد سنها سيفيروس بزوال سلطانه ، ونعم المسيحيون ، بعد هذه العاصفة الطارئة بهدوء دام ثمانية وثلاثين عاما . وكانوا حتى هذه الفترة يعقدون اجتماعاتهم في دور خاصة أو أماكن منعزلة ، أما الآن فقد رخص لهم في تشييد أو تدشين أبنية مريحة ملائمة لأغراض العبادة ، وفي شراء الأراضى حتى في قلب روما ، لتستخدمها الطائفة في اجراء انتخاب الموظفين الكهنيين بطريقة علنية ، ولكنها كانت في نفس الوقت مثالية استحققت احترام الأميين ، واسترعت انتباههم . واقترن هذا الهدوء الطويل الأمد في الكنيسة بالجلال والعظمة . وثبت أن عهود الامراء الذين نبتوا في الولايات الآسيوية كانت أوفق العهود للمسيحيين . وسمح لألع أفراد الطائفة ، بعد أن كانوا يلتمسون حماية أحد العبيد أو احدى حظيات ، بالدخول الى القصر ، معززين بكرمين ، بوصفهم قساوسة أو فلاسفة . وأثارت مبادئهم الغامضة التي كانت قد انتشرت بالفعل بين الشعب ، أثارت تشوف الملك دون أن يشعر . ولما مرت الامبراطورة ماميا

بأنطاكية أبدت رغبتها في التحدث الى الرجل المشهور أوريجن ، الذي طيقت شهرة ورعه وعلمه آفاق الشرق ، ورحب أوريجن بهذه الدعوة المغرية ورغم أنه لم يكن يأمل في تحويل هذه المرأة الداهية الطموح ، فانها أصفت في سرور الى عظاته البليغة ، وصرفته مكرما الى ماواه في فلسطين . وتبنى الاسكندر أحاسيس والدته ماميا . وتميز النسك الفلسفى لهذا الامبراطور بتقدير فريد ولكنه تقدير طائش للديانة المسيحية . ووضع في معبده الخاص بالقصر تماثيل ابراهيم ، وأورفيوس ، وأبولونيوس ، والمسيح ، تكريما جديرا بهؤلاء الحكماء الموقرين الذين هدوا البشر الى الطرق المختلفة التى يظهرون بها اجلالهم وولاءهم للاله الأعظم للكون كله . واعتنق كل من في القصر ، ومارسوا علنا ، عقيدة وعبادة انقى . وشوهد الأساقفة ، وربما لأول مرة ، في الحاشية . فلما مات الاسكندر ، صب مكسيمين الغليظ القلب جام غضبه على كل الخلاء والموظفين من رجال ولى نعمته المنكود الحظ ، وراح عدد كبير من المسيحيين من الجنسين ضحية هذه المذبحة الهوجاء ، التى أطلق عليها من أجلهم ، وبغير حق اسم « اضطهاد » .

ورغم اتجاهات مكسيمين القاسية ، كانت آثار حنقه على المسيحيين محدودة مؤقتة جدا ، وظل أوريجن الذى أهدر دمه ، على أنه ضحية مخلصه ، يبشر الملوك بحقائق الانجيل ، ووجه رسائل تهذيبية الى الامبراطور فيليب وزوجته واهله . وحالما اغتصب الأمير الذى ولد بجوار فلسطين ، عرش الامبراطورية ، التمس فيه المسيحيون صديقا وراعيا . واثار عطف ، بل تحيز ، الامبراطور فيليب للطائفة الجديدة ، وتوقيره السذائم لرجال الكنيسة ، آثار الشبهات التى حامت في أيامه حول اعتناقه المسيحية ، ومهد للخرافة التى ابتدعت بعد ذلك ، والتى تقول بأنه تطهر وكفر عن الوزر الذى ارتكبه بقتل سلفه البريء .

وبسقوط فيليب وتغير الحكام والرؤساء قام أسلوب جديد من الحكم ، أسلوب شديد الجور على المسيحيين الى حد أنهم صوروا حالتهم السابقة ، حتى منذ أيام دوميتيان ، على أنها حرية وطمأنينة كاملتان ، اذا تورنت بالمعاملة البالغة القسوة التى عانوها في فترة حكم ديسيوس القصيرة . ولا تكاد فضائل هذا الأمير تدع لنا مجالا للشك في أنه كان مسوقا بدافع من السخط الدنى على خلاء سلفه . وأنه لأقرب الى العقل والنطق أن نعتقد أنه في متابعته لخبطته العمامة لاستعادة نقاوة العادات الرومانية ، كان يرغب في تخليص الامبراطورية

مما وصفه هو بأنه خرافة ( عقيدة ) مستحدثة آثمة . فقبضى على أساقفة أكبر المدن بالنفى أو بالأعدام . وحالت يقظة الحكام بين رجال الكنيسة في روما وبين إجراء أية انتخابات جديدة مدى ستة عشر شهرا . وقال المسيحيون انه أهون على الإمبراطور أن يحتفل منافسا له على العرش من أن يرى أسقفا في العاصمة . فهل كان من المحتمل أن بصيرة ديسيوس قد استشفت زهواً وغرورا تحت ثوب الوداعة والمسكنة ، أو انه تنبأ بتطلع السلطة الدينية تحت ستار ادعاءاتها الروحية إلى السلطة الدنيوية ، وربما كانت دهشتنا أقل اذا رأينا أنه اعتبر خلفاء القديس بطرس أخطر منافسين لخلفاء أوغسطس .

وتميزت ادارة فاليريان بطيش وتقلب لا يتلاءمان مع هيئة « الرقيب الروماني » ، ففى أوائل حكمه ، تجاوز رفقه رفق أولئك الأمراء الذين اشتهبه في تعلقهم بالعقيدة المسيحية ، وفي فترة السنوات الثلاث ونصف السنة الأخيرة من حكمه ، وتحت تأثير اصغائه الى دس أو اغراء وزير انغمس في خرافات مصر ، نرى الامبراطور وقد تبنى مبادئ سلفه ديسيوس ، واقتدى به في قسوته . الا أن ارتقاء جالينوس الى العرش وهو أمر زاد من مصائب الامبراطورية ، أعاد الهدوء والسلام الى الكنيسة ، وحصل معه المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم ، بمقتضى مرسوم وجه الى الأساقفة ، واعتبر اقرارا بوظيفتهم وشخصيتهم العامة . ولم تلغ القوانين القديمة رسميا ، ولكن سمح بالقائها في زوايا النسيان . ونعم تلاميذ المسيح ( فيما عدا بعض النوايا العدائية التي نسبت الى الامبراطور أوريليان ) بأكثر من أربعين سنة من رخاء كان اشد خطرا بكثير ، على طهارتهم ، من أفطع بلايا الاضطهاد .

وقد تكون قصة بولس السمسطى ( اسمها الآن سمسط على الضفة الشرقية لأعلى الفرات ) ، الذى كان يشغل كرسي الأسقفية في أنطاكية ، أيام حكم أوديناتوس وزنوبيا في الشرق ، ذات فائدة في تصوير أحوال ذاك العصر وطبيعته . وكان ثراء هذا الحبر دليلا كافيا على جريمته ، لأنه لم يرثه عن آباءه ، ولم يكسبه عن طريق العمل الشريف ، ولكن بولس اعتبر خدمة الكنيسة مهنة تدر الربح الوفير . وكانت ولايته الكنسية دنيئة جشعة ، فكثيرا ما ابتز التبرعات من أغنى الموسرين من المؤمنين ، وحول لمصلحته الخاصة قدرا كبيرا من الدخل العام . وغدت الديانة المسيحية ، نتيجة غروره وبذخه ، مقبلة كريمة في أعين الأميين . وكانت قاعة مجلسه وعرشه ، والهالة من الأبهة والفخفة التي أحاط بها نفسه أمام الناس ، وجموع ذوى الحاجات

الذين جاءوا يلتمسون رعايته ، وأكدايس الرسائل والعرائض التي  
أملى ردوده عليها ، وزحمة العمل التي احتوتها — كانت كل هذه أمورا  
اليق كثيرا بحالة حاكم مدنى (١) ، منها بوداعة أسقف بدائى .  
وتكلف بولس ، فى خطبه الى شعبه من فوق المنبر ، الأسلوب المجازى  
والاشارات المسرحية لسفسطائى أفريقى ، على حين كانت  
الكاتدرائية تضح بأعلى صيحات الاستحسان وأكثرها تطرما لفصاحته  
الالهية ، أما مع أولئك الذين تحدوا سلطته أو أبوا أن يتملقوا كبرياءه  
وغروره ، فقد كان حبر أنطاكية متعجرفا غنيفا عنيدا ، ولكنه كان  
يخرق النظام ويبعثر أموال الكنيسة على القساوسة التابعين له ،  
والذين سمح لهم بالاعتداء بسيدهم فى كل نزوة شهوانية . فقد انغمس  
بولس ، فى شراهة مطلقة فى ملذات المائدة ، واستقبل فى قصره الكنىسى  
غادتين جميلتين ، كرفيقتين دائمتين له فى أوقات فراغه (٢) .

ولو أن بولس السمسطى — رغم رذائله الفاضحة — أبقى على  
نقاوة المذهب الأرثوذكسى المستقيم لانتهت ولايته على عاصمة سوريا  
بانتهاه حياته فحسب ، ولو أن اضطهادا معقولا تدخل فى الأمر فلربما  
أدى ضرب من ضروب الشجاعة الى رفعه الى مراتب القديسين  
والشهداء . ولكن بعض الأخطاء الخبيثة الرقيقة ، التي تبناها فى غير  
تبصر . وتمسك بها فى عناد شديد ، فيما يتعلق بمبدأ التثليث ، أثارت  
غيرة الكنائس الشرقية واستياءها ، وتكتل الأساقفة من مصر الى  
البحر الأسود ، وقاموا واعدوا واثارت ثائرتهم بسبب هذه الأخطاء ،  
وعقدت عدة اجتماعات ، ونشرت عدة تفنيدات لحدسها ، وصدرت  
عدة قرارات بالحرمان من الكنيسة ، وظهرت من الجانبين تفسيرات  
غامضة تارجحت بين القبول والرفض ، وعقدت معاهدات ثم نقضت ،  
وانتهى الأمر بتجريد بولس السمسطى من منصبه الأسقفى بقرار من  
سبعين أو ثمانين أسقفا اجتمعوا لهذا الغرض فى أنطاكية ، وعينوا ،  
بمقتضى سلطتهم الخاصة ، خلفا لبولس ، دون أخذ رأى الأكليروس

(١) كان الاتجار بالمناصب الدينية معروفا فى هاتيك الأيام . فقد اشترى رجال  
الأكليروس أحيانا ، ما كانوا يعتزمون بيعه . ويبدو أن أسقفية قرطاجنة قد اشترتها  
سيده تدعى لوتشلا لأحد خدمها المدعو ماجورينوس ، بثمن قدره ٤٠٠ صرة من النقود فى  
كل منها ١٢٥ قطعة من الفضة ويقدر المبلغ كله بنحو ٢٤٠٠ جنيه .

(٢) إذا أردنا أن نحصى رذائل بولس لكان لزاما أن نثير الشبهات حول أساقفة  
الشرق مجتمعين ، فى أنهم نشروا أشنع الفضائح فى رسائل دورية وجهت الى كل كنائس  
الامبراطورية

أو الشعب ، وزاد الشذوذ الواضح في هذا الاجراء من عدد أفراد الفريق المعارض ، ولما لم يكن بولس غريبا على أمنانين البلاط وحيله ، فقد تسلل الى عطف الملكة زنوبيا ، ومن ثم احتفظ لأكثر من أربعة أعوام بدار الاسقفية ومنصبها . ولكن انتصار أوريليان غير وجهه الشرق ، وصدرت الأوامر للطرفين المتنازعين الذين رمى الواحد منهما الآخر بالمروق والزيغ ، أو قل رخص لهما ، بعرض قضيتهما على محكمة الامبراطور الفاتح . وان هذه المحاكمة العلنية الفريدة التي تقدم برهاننا قاطعا على اعتراف حكام الامبراطورية على الأقل - ان لم تكن القوانين كذلك - بوجود المسيحيين وممتلكاتهم وامتيازاتهم وسياساتهم الداخلية . وقبلنا كان من المتوقع ان يدخل أوريليان - بوصفه وثيقا وجنديا - في مجادلات ليخلص الى أى الفريقين : بولس أو خصومه ، تتفق مبادئه مع العقيدة الصحيحة أكثر اتفاق ! ومهما يكن من شيء فقد بنى الامبراطور قراره على المبادئ العامة للانصاف والمنطق . واعتبر اساقفة ايطاليا ، أكثر القضاة نزاهة واحتراما بين المسيحيين ، وحالما أبلغ أنهم وافقوا على حكم المجلس بالاجماع ، أذعن لرأيهم ، وأصدر على الفور أوامره بارغام بولس على التنحي عن كل الممتلكات الدنيوية المرتبطة بمنصب قد صار حرمانه منه ، في رأى اخوته ، بطريقة سليمة . ولكننا اذا تمتدح العدالة ، يجدر بنا الا نغض الطرف عن سياسة أوريليان الذي كان يرنو الى استعادة اعتماد الولايات على العاصمة وتدعيم تبعيتها لها ، بكل وسيلة يمكن ان توثق لحبه أى جزء من شعبه وتقيد أهواءهم .

### الكنيسة في عهد دقلديانوس وخلفائه

ظل المسيحيون ينعمون بالسلام والرخاء وسط الثورات المتكررة التي اجتاحت الامبراطورية . ورغم الحقبة المشهودة التي يطلق عليها « عصر الشهداء » ، نشأ بارتقاء دقلديانوس الى العرش ، أسلوب جديد من السياسة ، ابتدئته وتعهدهته حكمة هذا الأمير ، واستمر هذا الأسلوب طوال ثمانية عشر عاما ينفخ من روح التسامح الديني أكثرها اعتدالا وتحررا . والحق ان عقلية دقلديانوس نفسه كانت أقل استعدادا للأبحاث النظرية منها للأعمال الجادة في مجال الحرب والحكم . وقد نفره حذره ورويته من الاندفاع في الابتداع والابتكار ، ورغم أن مزاجه لم يكن سريع التأثر بالغيرة والحماس . الا أنه درج على اظهار الاحترام للمعبودات القديمة في الامبراطورية . ولكن فراغ

الامبراطورين : بريسيكا Prisca زوجته وفاليزيا Valeira كريمته ، هيا لهما سبيل الاصغاء ، في مزيد من الاهتمام والاحترام ، الى حقائق المسيحية التي اعترفت ، في كل العصور ، بانها مدينة اكبر الدين لتقبل المرأة وولائها . وبسط الخصيان الرئيسيون : لوشيان ودوروثيوس ، وجورجونيوس وانذرو ، الذين لازموا شخص دقلديانوس ، وحظوا بحبه وعطفه ، وكانوا اصحاب الأمن والنهي في قصره — نقول بسلا هؤلاء الخصيان ، بنفوذهم القوي ، حمايتهم على العقيدة الجديدة التي كاتوا قد اعتنقوها . وحذا حذوهم كثير من اهم الموظفين في القصر الذين وكل اليهم ، كل — حسب وظيفته — امر العناية بحلى الامبراطور ، وبالملبس وبالأثاث وبالمجوهرات ، بل حتى بالخزانة الخاصة . وعلى الرغم من التزامهم احيانا بمصاحبة الامبراطور في تقديم الضحايا والقرايين في المعبد ، هؤلاء الموظفين وزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم ، نهموا بالحرية في ممارسة الديانة المسيحية . وكثيرا ما خص دقلديانوس وزملاؤه ، بأهم المناصب ، أولئك الأشخاص الذين أعلنوا بغضهم لعبادة الآلهة ، ممن تكشفت فيهم القدرات والمواهب اللازمة لخدمة الدولة : وكانت لكل من الاساقفة منزلة كبيرة في ولايته . وكانوا يلثون معاملة ملؤها التقدير والاحلال ، لا من الشعب وحده ، بل من الحكام أنفسهم . وتبين في كل مدينة تقريبا أن الكنائس القديمة لا تتسع للعدد المتزايد من الداخلين في الدين ، فشيء مكانها ابنية افخم وأرحب تصلح لاقامة الصلوات العامة للمؤمنين . وقد يعتبر سوء السلوك وفساد البساده اللذين نعى عليهما يوسوبوس Eusebius ( احد مؤرخي الكنيسة ٢٦٠ — ٣٤٠ م ) لا مجرد نتيجة ، بل برهانا على الحرية التي تمتع بها المسيحيون واساءوا استغلالها في عصر دقلديانوس . وكانى بالرأهية قد أرخت من قبضة النظام ، ونفشى الغش والحدق والضعفينة في كل المحافل المسيحية . وتطلع المشايخ الى منصب الأسقفية الذي بات يوما بعد يوم هدفا أجدر بالطمع فيه . أما الاساقفة الذين كانوا يباحسون بعضهم بعضا على التفوق في مجال الكنيسة ، فقد بدا من تصرفاتهم أنهم يزعمون لأنفسهم سلطة دنيوية استبدادية في الكنيسة . وتجلى الايمان المتفتح الذي ظل يميز المسيحيين عن الكفار ، اقل كثيرا في حياتهم منه في كتاباتهم الجدلية .

وربما تبين للمراقب اليقظ ، على الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة ، بعض اعراض انذرت الكنيسة بأضطهاد أعنف من أى اضطهاد عانت من قبل . ذلك أن غيرة المسيحيين وسرعة تقدمهم



أيقظنا المشركين من سباتهم واستهتارهم بتفضية تلك المعبودات التي علمهم العرف والتلقين ضرورة اجلالها واحترامها . واثارت الاستفزازات المتبادلة في حرب دينية دامت لأكثر من مائتي عام - أثار تائفة الفريقيين المتنازعين ، وغطا الوثنيين تهيبور تلك الشيعة الحديثة الحقيرة التي اجترأت على رمى مواطنيهم بالبعد عن جادة الصواب ، والقاء آباءهم وأجدادهم في وهدة الشكنا المقيم . وولد دأبهم على الدفاع عن الأساطير الشعبية المألوفة ضد تجريح عدو عنيد ، ولد في أذهانهم مشاعر من الايمان والاجلال لأسلوب كانوا قد تعودوا أن ينظروا اليه بأكبر قدر من الاستهتار والاستهانة . وقد أوحى تلك القوى الخارقة التي انتظتها الكنيسة ، بالرهبة والمنافسة في نفس الوقت . واعتصم أتباع الديانة القديمة ( الوثنية ) بسياج مائل من الكرامات والمعجزات ، وابتدعوا أشكالا جديدة للقرابين والضحايا ، وللكنارة ، وللدخول في الدين (١) ، وحاولوا أن يحيوا التصديق والثقة بالوحي المنقرض ، واستمعوا في سذاجة مطلهفة الى أى دجال يتلق تحيزهم بإحدى القصص المملأ بالعجائب ، وبدا أن كلا من الفريقيين اعترف بصدق المعجزات التي ادعاها غريمه . وبينما تمنعوا جميعا بتسببها الى إيمان السحر وقوة الجن ، نجد الفريقيين كليهما قد استعدا للخرافة سلطانها وثبتا دعائمها (٢) . وتحولت الآن الفلسفة ، وبهى الد أعدائها ، الى جليتها النافع ، الى أبعد حدود النفع ، وكادت أن تهجر خيائل الأكاديمية وجدائق أبيقور ، بل حتى قبايات الرواقيين ، لأن كثيرا من مختلف مداريس الشك أو الالجاد وكثيرا من الرومان ، رغبوا في وجوب ادانة كتابات شيبشرون وابطالها بمقتضى ما للسناتو من سلطة ، ورات طائفة الأفلاطونيين الحديثين أنه من الفطنة أن يقفوا الى جانب الكهنة الذين ربما احتقرهم هؤلاء الأفلاطونيون الجدد ، ضد المسيحيين الذين كان ثمة ما يبرر توجس الخيفة منهم . واتخذ هؤلاء الأفلاطونيون أسلوب استخراج الحكمة المجازية من قصص

(١) وقد تقبس من بين العبد الكبير من الأمثلة ، العبادة الخفية لمثرا Mithra ( عبادة الشمس في الفرس قديما ) وتوروبوليا Taurobolia ( عبادة وثنية نشأت أولا في آسيا الصغرى ) ، وكانت هذه العبادة هي عبادة العصر في عهد الأنطونيين . وأن قصة أبوليوس Apuleius لتزخر بالنسك والهزاء بقدر سواء .

(٢) أنه لما يؤسف له أشد الأسف أن الآباء المسيحيين ، باعتبارهم بالجانب الخارق للطبيعة - أو كما قدره هم أنفسهم - الجانب الخبيث في الوثنية ، إنما يقضون بأيديهم على الفائدة التي ربما حصلنا عليها - لو لم يفعلوا ذلك - من ادعان خصومتنا الذي يتسم بالتحزر .

الشعراء اليونانيين ، وفرضوا للعبادة شعائر خفية يقوم بها تلاميذهم المختارون ، وأوصوا بعبادة الأرباب القدامى بوصفها رموزا أو خداما « للاله الأعظم » ، والفوا لدحض عقيدة الانجيل كثيرا من الرسائل المتقنة التي جعلتها فطنة الأباطرة طعما للنار منذ ذلك الوقت .

وعلى الرغم من أن سياسة دقلديانوس وقسطنطينوس اتجهت الى الاستمساك باحترام مبادئ التسامح ، فإنه سرعان ما تبين أن شريكها مكسيميان وجالوريوس أضمرأ لاسم المسيحيين وديانتهم ألد عداوة لا تلين . ان نور العلم لم يجد سبيلا الى عقل هذين الأميرين ، ولم يصقل التعليم طباعهما قط ، وهما مدينان بعظمتها للسيف . وتمسكا ، وهما في أوج مجدهما ، بأراء الجنود والفلاحين المبنية على الخرافة ، ونفذا في ادارة الولايات تلك القوانين التي كان ولي نعمتهما قد شرعها ، ولكن كثيرا ما وجدا الفرصة سانحة في معسكرهما وفي قصورها لممارسة الاضطهاد الخفى الذى أضفت عليه غيرة المسيحيين الطائشة أحيانا أشد المزاعم تليفقا وتمويهها . فمثلا نفذ حكم الاعدام في شاب أفريقي يدعى مكسيميليانوس ، قدمه أبوه للحاكم على أنه في سن التجنيد وأنه لائق له ، ولكن الشاب أصر في عناد على القول بأن ضميره لا يطاوعه على الانخراط فى سلك الجندية . كما لا يكاد يكون من المتوقع أن تحتل أية حكومة تصرف ضابط المائة مارسيلوس Marcellus دون حساب أو عقاب ، ذلك أنه يوم عيد عام ، التى هذا الضابط بحزامه وسلاحه وشعارات وظيفته ، وصاح بصوت عال ، أنه لن يطيع الا يسوع الملك الأبدى ، وأنه سينبذ الأسلحة الدنيوية الى الأبد ، كما يطرح خدمة سيد وثنى . وسرعان ما أفاق الجنود من دهشتهم وقبضوا على مارسلس . وحقق معه في مدينة تنجى Tingi بمعرفة رئيس هذا القسم من موريتانيا . وأدين بناء على اعترافه ، وحكم عليه ، وضرب عنقه بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية . ان رائحة الاضطهاد الدينى لتفوح من مثل هذه الحالات أقل مما تفوح منها رائحة القانون العسكرى . بل حتى القانون المدنى ، ولكنها أفلحت في تحويل عقل الامبراطورين ، وفي تبرير قسوة جالوريوس الذى طرد عددا كبيرا من الموظفين المسيحيين من وظائفهم ، وفي تعزيز الراى القائل بأن مثل هذه الطائفة من المتحمسين الذين أعلنوا من المبادئ ما يضر بسلامة الدولة ، يجدر أن يبقوا عاطلين لا يرجى منهم نفع ، والا باتوا خطرا على الامبراطورية .

وبعد أن رفع الانتصار في الحرب ضد فارس من آمال جالوريوس وزاد من شهرته ، قضى الشتاء مع دقلديانوس في قصر نيقوميديا ، وكان تقرير مصير المسيحيين هدف مداولاتهم السرية . وكان الامبراطور المحنك لا يزال ميالا الى الأخذ باللين والرفق . ورغم موافقته في الحال على استبعاد المسيحيين من وظائف القصر أو الجيش ، نراه يحذر من الخطر الذي ينجم عن سفك دماء هؤلاء المتعصبين المفر بهم ، ومن بشاعة هذا العمل وانتزع منه جالوريوس آخر الأمر ترخيصا بدعوة مجلس من نفر قليل من أبرز الموظفين والعسكريين في الدولة ، وأثيرت هذه المسألة الهامة بحضورهم ، وسهل على رجال البلاط الطامحين أن يدركوا أن من واجبه أن يظاهروا ، بكل ما وتوا من قصاحة ، الصاح القيصر على استعمال العنف . ويمكن القول بأنهم أصرروا على كل ما من شأنه أن يرضى غرور مليكهم أو تقواه أو مخاوفه ، فيما يتعلق بتدمير المسيحية . ولعلمهم صوروا العمل المجيد ، ألا وهو انقاذ الامبراطورية ، بأنه سوف يظل ناقصا مشوبا ، طالما سمح لشعب مستقل بالبقاء والتكاثر في قلب الولايات ، وربما ذهبوا الى القول ( وهو ادعاء خداع ) بأن المسيحيين الذين نبذوا عبادة روما ونظمها ، قد أسسوا جمهورية متميزة مستقلة ، من الميسور بعد القضاء عليها قبل أن تكون لها قوة عسكرية ، جمهورية تحكمها قوانينها الخاصة ، ويتولى زمام الأمر فيها حكام منها ، ولها أموالها العامة ، وترتبط بين مختلف أجزائها بروابط وثيقة تلك الاجتماعات المتكررة التي يعقدها الأساقفة الذين انصاع لقراراتهم رعاياهم الكثيرون المؤسرين انصياعا تاما صريحا . ويبسود أن مثل هذه الحجج قطعت على دقلديانوس سبيل الاحجام وحملته على اتخاذ أسلوب جديد في الاضطهاد ، وقد يساورنا الشك ، ولو أنه ليس في مقدورنا أن نسهب القول ، في دسائس القصر الخفية ، وفي الآراء والضغائن الخاصة ، وحقد النساء أو الخصيان ، الى غير ذلك من الأسباب التافهة ، ولكنها الحاسمة التي تعمل عملها في مصير الامبراطوريات ومجالس أرجح الحكام عقلا .

وتجلت آخر الأمر دلالة ابتهاج الامبراطورين لاعين المسيحيين الذين كانوا يرقبون في قلق زائد ، طوال هذا الشتاء الكئيب ، نتيجة المشاورات السرية الكثيرة . وحدد ( عفوا أو قصدا ) اليوم الثالث والعشرون من فبراير ، الذي وافق يوم العيد الروماني ترميناليا Terminalia . لوضع الثيود على تقدم المسيحية ، ذلك أنه في الساعات الأولى من فجر ذلك اليوم ، قصد رئيس الحرس البريتوري وبرفقته عدد من القواد والتربيون ومأموري الدخل ، الى الكنيسة

الرئيسية في نيقوميديا ، الواقعة على مرتفع من الأرض في أجمل بقاع المدينة وأكثرها ازدحاما بالسكان ، وفي الحال فتحوا الأبواب عنوة وأنفذوا الى المحراب ، ولما فتشوا عبثا عن أى جسم مابى للعبادة ، اضطروا الى الاكتفاء باحراق مجلدات الكتاب المقدس ، وكان وراء موظفى دقلديانوس حشد كبير من أفراد الحرس والطلائع ساروا في تشكيل معركة مزودين بكل الآلات اللازمة لتدمير المسكن الحصنة . واصلوا العمل ، حتى استطاعوا في بضع ساعات قلائل أن يهدموا هذا البناء السامق المقدس الذى شمع فوق القصر الامبراطورى والذى طالما اثار حنق الأميين وحقدهم .

ونشر في اليوم التالى مرسوم الاضطهاد العام ، وعلى الرغم من أن دقلديانوس ظل معارضا لسفك الدماء . وخفف من حدة جالريوس الذى اقترح أن يحرق حيا على الفور كل من يرفض تقديم القرابين والضحايا ، فإن العقوبات التى كانت تنزل بالمسيحيين المعاندين قد كانت تعتبر قاسية وفعالة الى حد كاف . ونص المرسوم على أن كنائسهم في كل الولايات يجب أن تهدم من أساسها ، وعلى الحكيم بالاعدام على كل شخص يجرؤ على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ، أما الفلاسفة الذين انتحلوا لانفسهم المهمة العقبية ، مهمة توجيه التحسيس الأعمى للاضطهاد ، فانهم درسوا دراسة يقظة طبيعة الديانة المسيحية وقدرتها ، ولما كانوا لا يجهلون أن المبادئ النظرية مفروضة وجودها في كتابات الرسل والجواريين والانجيليين ، فالأرجح أن هؤلاء الفلاسفة اقترحوا إصدار أمر يحتم على الأساقفة والمشيخ ان يسلموا كل كتبهم المقدسة الى الحكام الذين أمروا — تحت طائلة أشد العقاب — باحراقها بطريقة علنية مهيبه . وبمقتضى نفس المرسوم صودرت في الحال أملاك الكنيسة وبيعت أجزاءها لمن يدفع أكبر ثمن ، أو ضمت الى أملاك الامبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات ، أو منحت لرجال الحاشية الجشعين بناء على توسلاتهم . وبعد هذه الخطوات الفعالة للقضاء على ديانة المسيحيين وحل حكومتهم ، رأى من الضروري أن يخضع لأشد العذاب الذى لا يطاق أولئك المتهدرون الذين ظلوا يرفضون ديانة الطبيعة ، وديانة روما ، وديانة آبائهم . واعتبر الأشخاص الأحرار ذوو المنبت الكريم محرومين من الحصول على أية أمجاد أو وظائف ، وحرم العبید الى الأبد من أى أمل في الحرية ، وحرم الشعب ( المسيحى ) بأجمعه من حماية القانون . ورخص للقضاة في الاستماع والحكم في أية قضية ضد أى مسيحي ، ولكن لم يكن مرخصا للمسيحيين في حق الشكوى من أى ضرر أو اذى

يصيبهم هم أنفسهم ، ومن ثم تعرضت هذه الطائفة للمكودة لصرامة العدالة العامة ، على حين حرماوا من التمتع بمزاياها . وربما كان مثل هذا الأسلوب من الاستشهاد الأليم البطيء الغامض الكريه ، خير الأساليب لإرهاق عزيمة المؤمن والفت في عضده ، وليس من شك في اتجاه البشر ، في مثل هذه الظروف ، بعواطفهم وبحكم مصلحتهم ، الى مساندة رغبات الأباطرة ، ولكن لا بد أن سياسة حكومة دقيقة التنظيم قد تدخلت أحيانا لمصلحة المسيحيين المظلومين ، كما أنه لم يكن من الممكن أن يمحو الأمراء الرومان الخوف من العقاب محوا تاما ، أو يتستروا على أى عمل من أعمال التدليس أو العنف دون تعريض سلطتهم ، وتعريض سائر رعاياهم ( غير المسيحيين ) لأفدح الأخطار .

ولم يكد هذا المرسوم ينشر علنا في أبرز مكان في نيقوميديا قبل أن تمزقه أريا يدا مسيحي عبر ، في نفس الوقت ، بأقذع السباب عن احتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملحدين الطغاة . ورقى جرمه ، بمقتضى أخف القوانين الى درجة الخيانة ، واستحق الاعدام . وإذا صح أنه كان رجلا متعلما ذا مرتبة عالية ، فإن هذه الظروف لم تثمر شيئا سوى مضاعفة جرمه ، وقد أحرق أو على الأصح شوى في نار هادئة . واستنفد جلاله في تحمسهم للثار لهذه الصفعة المهينة التي أصابت أشخاص الأباطرة - استنفدوا كل أفانين القسوة والعنف ، دون أن ينالوا من جلده وصبره أو يغيروا من الابتسامة الساخرة الثابتة التي ارتسمت على وجهه ، حتى وهو يغانى سكرات المسوت . واعترف المسيحيون بأن سلوكه لم ينفق تمام الاتفاق مع قواعد الحذر والروية ، إلا أنهم رغم ذلك أعجبوا بنوقد غيرته المقدسة ، كما أن افراطهم في تمجيد ذكرى بطلهم وشهيدهم ساعد على خلق احساس عميق بالرعب والكرهية في نفس دقلديانوس .

وأهاج مكانم الخوف عنده نذير سوء كاد يودى به ، ولكنه نجا منه بأعجوبة ، ففي مدى خمسة عشر يوما أشعلت النيران مرتين في قصر نيقوميديا وفي مخدع دقلديانوس نفسه ، وأطفئ الحريق في المرتين دون خسائر مادية ، ولكن مجرد تكرار الحريق اعتبر بحق دليلا قاطعا على أنه لم يأت بمحض الصدفة أو نتيجة إهمال . وطبيعى أن تحرم الشبهات حول المسيحيين ، وذهبت الظنون ، مع شيء من الترجيح ، الى أن هؤلاء المتعصبين المستميتين الذين استفزتهم آلامهم الراهنة ، وتوقموا المزيد من كوارث تحقق بهم ، قد دبوا مع اخوانهم المؤمنين

من خصيان القصر مؤامرة ضد حياة الامبراطورين اللذين يمتقنونهما كل المقت بوصفهما عدوين لدودين لكنيسة الله . وملا الحق والحق كل الصدور وخاصة دقلديانوس . وزج في السجون بعدد كبير من ذوى المناصب أو الحظوة . وبلغ الامعان في التعذيب بمختلف الوسائل حد الشطط . وتلوث القصر والمدينة على السواء بدماء أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام . ولما كان من المتعذر استجلاء غوامض هذه الفعلة الخفية ، فيبدو أنه لزام علينا اما أن نفترض براءة هؤلاء المعذبين أو نبدى الاعجاب بقوة عزيبتهم . وأسرع جالوريوس بعد ذلك بأيام قلائل بمفادرة نيقوميديا ، معلنا أنه لو أبطأ في الرحيل عن هذا القصر المتعبد لوقع حتما فريسة لغضب المسيحيين . أما مؤرخو الكنيسة الذين نستقى منهم شذرات من معلومات متحيزة مبتورة ، فانهم في حيرة من أمرهم ، كيف يعطلون مخاوف الامبراطورين ويعطلون الخطر المحقق بهما . وكان اثنان منهم احدهما أمير والثانى من أئمة البلاغة — شاهدى عيان لحريق نيقوميديا ، وينسب أحدهما هذا الحريق الى صاعقة من غضب السماء ، بينما يؤكد الثانى أنه من تدبير جالوريوس وكيدته .

ولما كان المرسوم الصادر ضد المسيحيين قد وضع على أساس أن يكون قانونا عاما يطبق في جميع أنحاء الامبراطورية ، ولما كان دقلديانوس وجالوريوس قد تأكد لهما اتفاق أميرى الغرب معهما في الرأى ، ولو لم يكن لزاما عليهما أن يترينا حتى تتم الموافقة ، فإنه يبدو أكثر تمشيا مع آرائنا في السياسة أن حکام جميع الولايات قد تلقوا تعليمات سرية لينشروا — كل في نطاقه — في يوم واحد اعلان الحرب ، وكان من المتوقع على الأقل أن الطرق العامة الميسرة ونقط الرقابة القائمة عليها سوف تمكن الأباطرة من نقل أوامرهم بأقصى سرعة من قصر نيقوميديا الى أقصى أطراف العالم الرومانى ، والا يتحملوا مضى خمسين يوما قبل أن ينشر المرسوم في سوريا ، وقرابة أربعة شهور قبل أن يعلن في مدن أفريقية ، وربما رجع هذا الابطساء الى طبع دقلديانوس الحريص المحاذر ، الذى وافق كارها على اجراءات الاضطهاد ، والذى رغب كل الرغبة في محاولة هذه التجربة ، أقرب ما يكون الى بصره وسمعه ، قبل أن يفسح المجال للاضطراب والسخط اللذين لابد أن تحدثهما هذه التجربة في الولايات النائية . والحق أن الحكام منعوا أول الأمر من سفك الدماء ، ولكن رخص لهم فيما عدا ذلك من ألوان القسوة ، بل استحثوا عليها . على أن المسيحيين من جهة أخرى ، رغم أنهم تخلوا في رضا عن زخارف كنائسهم ،

لم يكن في وسعهم أن يقرروا إبطال اجتماعاتهم الدينية أو تسليم كتبهم المقدسة الى النيران . ويبدو أن ورع فيلكس Felix الفينيد ، وهو أسقف أفريقي ، قد أزعج صغار موظفي الحكومة ، فأرسله أمين مدينته مكبلا بالأصفاد الى البروقنصل ، فحمله هذا بدوره الى رئيس الحرس البريتوري في ايطاليا ، وأخيراً أطاحوا برأس فيلكس الذي احتقر حتى أن يجيب اجابة مراوغة في فينوسيا في لوكانيا ، وهو مكان اكتسب شهرة بولادة هوراس فيه . ويبدو أن هذه السابقة — بالاضافة الى مرسوم امبراطوري يحتمل أن يكون قد صدر نتيجة لها — حولت حكام الولايات حق انزال عقوبة الاعدام بالمسيحيين الذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة ، وليس من شك في أن كثيراً من الناس انتهزوا هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ، ولكن كان هناك بالمثل كثيرون ممن اشترى حياة بغيضة بالكشف عن مخابىء الكتب المقدسة وتسليمها غدرا الى الكفار . ووصم عدد كبير ، حتى من الاساقفة والمشايع ، من جراء هذا التواطؤ الاجرامى ، بوصمة هذا النعت الشائن « الخونة » وكانت هذه الخطيئة سبباً في كثير من فضائح العصر ، وفي كثير من الاضطراب والخلل في الكنيسة الافريقية فيما بعد .

وكانت نسخ الكتاب المقدس وترجماته قد تكاثرت عددها في الامبراطورية الى درجة لم تعد تسفر معها اقبى التحريات عن نتائج حاسمة ، بل ان التضحية بتلك المجلدات التي كانت محفوظة في كل الجامع للاستعمال العام ، كانت تقتضى رضاء بعض المسيحيين الخونة الأذنياء . ولكن عملية تدمير الكنائس كان من السهل تنفيذها بسلطة الحكومة وجهود الوثنيين . ومهما يكن من شيء ، فقد اكتفى الحكام في بعض الولايات باغلاق أماكن العبادة . وكان آخرون أشد تمسكا بحرفية نصوص المرسوم ، فنزعوا الأبواب والمقاعد والمنبر ، وأحرقوها ، وكأنها كومة جنائزية ، ثم هدموا بقية المبنى عن آخره . وربما كان لزاما علينا ، من أجل هذه المناسبة الاسيئة ، أن نلجأ الى تلك القصة المشهورة التي تروى في كثير من وجوه التباين والاستحالة ، الى درجة أنها قد تثير فضولنا أكثر مما تشبعه . ففى بلدة صغيرة في مريجيا ( اقليم قديم في اواسط آسيا الصغرى ) لم نبتأ باسمها أو موقعها ، والظاهر أن حكامها وجهور شعبها كانوا قد اعتنقوا المسيحية — كان من المتوقع أن تحدث بعض المقاومة لتنفيذ المرسوم ، ومن ثم زود حاكم الولاية بفضيلة من جنود الجيش ، ولدى اقترابهم من المدينة هرع المواطنون الى الكنيسة موطدين العزم على الدفاع بأسلحتهم عن هذا

المكان المقدس أو الهلاك تحت أطلاله ، وإبوا في إحتساب أن يلقوا  
بالا الى الاعلان والأذن للذين أعطيا لهم بالانسحاب ، حتى استنفذ  
أباؤهم العنيد الجنود فأشعلوا النار في كل جوانب المكان ، وأبادوا  
بهذا اللون الغريب من الاستشهاد عددا كبيرا من أهسالى فريجيسا  
وزوجاتهم وأطفالهم .

وحدثت في سوريا وعلى حدود أرمينيا قلائل بسيطة لم تلبث أن  
ثارت حتى أجدت ، ولكنها رغم ذلك هيات لأعداء الكنيسة مفاسدية  
خداعة للايعاز بأن هذه المتاعب إنما أثارها سرا دسائس الأساقفة  
الذين نسوا في الواقع تفاخرهم بالاعتراف بالطاعة المطلقة بغير حدود،  
وتجاوز حنق دقلديانوس ومخاوفه ، آخر الأمر ، حدود الاعتدال الذي  
تذرع به حتى الآن . فأعلن في سلسلة من المراسيم الصارمة عن عزمه  
على محو اسم المسيحية ، وقضى أول هذه المراسيم على حكام الولايات  
باعتقال كل رجال الكنيسة ، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة  
لكبار المجرمين بجموع الأساقفة والمشايع والشمامسة والقراء . بل  
حتى وطاردى الأرواح الشريرة . وأمر الحكام بمقتضى المرسوم الثاني،  
بالجوء الى كل وسائل العنف التي يمكن أن تبعد أولئك عن جرافتهم  
الخبثة ، وتضطرهم الى الرجوع الى عبادة الآلهة القائمة . وامتد هذا  
الأمر الرهيب ، بناء على مرسوم تال ، الى جماعة المسيحيين كافة ،  
ومن ثم تعرضوا لاضطهاد عنيف شامل . وأصبح من واجب الموظفين  
الإمبراطوريين ، بل ومن مصلحتهم كذلك بدلا من تلك القيود السلمية  
التي كانت تتطلب من المدعى إقامة بيعة صريحة جديدة ، أن يكتشفوا  
ويتعقبوا ويعذبوا أبغض الأشخاص من بين المؤمنين . وفرضت العقوبة  
الصارمة على كل من يجزؤ على انقاذ أى مشايخ للمسيحية حرم من  
حماية القانون ، من الغضب العادل للإلهة أو الأباطرة ، وعلى الرغم  
من صرامة هذا القانون ، فان الشجاعة الخيرة التي تجلت في إخفاء  
كثير من الوثنيين لأصدقائهم وأقربائهم ، لتقدم أنبل برهان على أن  
بطش الخرافة لم يخذ في نفوسهم عواطف الطبيعة والانسانية .

وما كاد دقلديانوس يصدر مراسيمه ضد المسيحيين ، حتى جرد  
نفسه من صولجان الملك ، وكأنه بذلك أراد أن يلقي بمهمة الاضطهاد  
الى أيد غير يديه . بيد أن أخلاق زملائه وخلفائه ومواقفهم دفعتهم  
تارة الى اعمال هذه القوانين الجائرة وتزعت تارة أخرى الى وقف  
العمل بها . ونحن لا نستطيع الحصول على فكرة صادقة واضحة عن  
هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الكنيسة ، الا إذا درسنا احوال



المسيحية في مختلف أجزاء الامبراطورية ، كل على حدة ، طوال الأعوام العشرة التي انقضت بين أول مراسيم دقلديانوس وبين السلام النهائي في الكنيسة .

ولم يرتض طبع قسطنطيوس الرقيق الوديع ظلم أي فريق من رعاياه ، فتولى المسيحيون الوظائف الرئيسية في قصره ، وأحب أشخاصهم وقدر أمانتهم ، ولم يستشعر شيئا من الكراهية لمبادئهم الدينية ، ولكن طالما بقى قسطنطيوس في المركز التاسع أو الثاني « قيصر » ( لا أغسطس ) ، فإنه لم يكن في مقدوره ، صراحة ، أن يرفض قوانين دقلديانوس ، أو يعصى أوامر مكسيميان . لكن سلطته على أية حال ، ساعدت في تخفيف الآلام التي حزن لها وكرهاها . فقد رضى على كره منه بهدم الكنائس ، ولكنه جرؤ على حماية المسيحيين أنفسهم من بطش الجمهور ومن جور القوانين . وذانت ولايات الغال ( ويمكن أن نلحق بها بريطانيا على الأرجح ) بالهدوء الفريد الذي نعمت به ، لوساطة مليكهم الكريمة . ولكن داشيانوس ، رئيس أسبانيا أو حاكمها ، بفعل الغيرة أو السياسة ، أثر أن ينفذ المراسيم العامة التي أصدرها الامبراطوران ، على أن يفتن إلى المقاصد الدفينة في نفس قسطنطيوس . وثل أن يوجد مجال للشك في أن ادارته للولاية قد تلطخت بدماء نفر من الشهداء . ولما تبوأ قسطنطيوس إلى الرتبة السامية المستقلة - مرتبة أوغسطس - انفسخ أمامه مجال العمل الحر لتحقيق رغباته . ولم يمنعه قصر حكمه من ارساء أسلوب جديد للتسامح ، كان لابنه قسطنطين فيه قدوة يحتذيها ، ومنه ناموس يسير على هديه . واستحق الابن الموفق - الذي أعلن نفسه منذ اللحظة الأولى لارتقائه عرش الامبراطورية ، حامى الكنيسة - استحق أن يطلق عليه أنه أول امبراطور اعترف علانية بالديانة المسيحية وثبت دعائمها . ان بواعث تحوله ، التي يمكن استخلاصها ، بشكل أو بآخر ، من حب الخير ، أو السياسة ، أو الاقتناع ، أو تأنيب الضمير ، ونجاح الانقلاب الذي اصبحت معه المسيحية ، بفضل نفوذه القوى ونفوذ أبنائه ، الديانة الغالبة في الامبراطورية الرومانية - نقول ان كل أولئك سوف يشكل فصلا ممتعا هاما في فصل تال من هذا التاريخ ، أما الآن فيكفى أن نشير إلى أن كل انتصار أحرزه قسطنطين كان له بعض الأثر في التخفيف عن الكنيسة وبعض النفع لها .

وعانت ولايات ايطاليا وافريقية من اضطهاد لم يطل امده ولكنه كان عنيفا . ذلك أن مراسيم دقلديانوس الجائرة نفذها ، في دقة

وابتهاج ، شريكه مكسيميان ، الذى كره المسيحية منذ زمن طويل ،  
والذى كان يطرب لسفك الدماء وأعمال العنف . والتقى الإمبراطوران  
دقلديانوس ومكسيميان ، فى خريف العام الأول للاضطهاد ، فى روما ،  
ليحتفلا بذكري انتصارهما . ويبدو أن عدة قوانين جائرة قد انبثقت  
عن مشاوراتهما السرية ، واستمد الحكام من حضرة الإمبراطورين قوة .  
وبعد نازل دقلديانوس عن الحلة الإمبراطورية ، عهد بإدارة إيطاليا  
وأفريقية الى سيفيروس ، وتعرضنا — دون دفاع — لسخط سيده  
جالريوس الذى لا يرحم . ومن بين شهداء روما ، يستحق أدوكتس  
Aductus — تمجيد الأجيال القادمة ، فقد كان سليل أسرة نبيلة فى  
روما ، وتدرج فى مناصب القصر ، حتى وصل الى المنصب الخطير ،  
خازن الممتلكات الإمبراطورية الخاصة . وقد ذاعت شهرة أدوكتس  
باعتباره أول شخص من ذوى المكانة والامتياز يبدو أنه لقى حتفه  
طوال فترة هذا الاضطهاد العام .

وأعاد تمرد مكسنطيوس على الفور السلام والهدوء الى كنائس  
إيطاليا وأفريقية ، وظهر نفس الطاغية الذى سام سائر طبقات رعاياه  
ألوان الظلم — بمظهر العادل الوديع ، بل حتى المتحيز للمسيحيين  
المنكوبين . واعتمد على عرفانهم لجميله وجبهم له . وكان طبيعيا أن  
يقدر أن ما عانوا من أذى ، وما ظلوا يتوقعون من أخطار ، على يدي  
عدوه العنيد لا بد أن يؤمن له اخلاص فريق باتت له بالفعل أهميته  
وقيمته عددا وثراء ، بل أن سلوك مكسنطيوس نحو أساقفة روما  
وقرطاجة قد يعتبر دليلا على تسامحه ، حيث انه من المحتمل أن أكثر  
الأمرء استقامة وتمسكا بالدين لا بد أن ينهجوا مثل هذا النهج ازاء  
رجال الدين القائم . وكان مارسلس Marcellus ، أول هؤلاء الأحرار  
قد أثار الاضطراب فى العاصمة بما فرض من كفارة على عدد كبير من  
المسيحيين الذين كانوا قد نبذوا أو تنكروا للدين ، فى فترة الاضطهاد  
السابق . واشتد الهياج ، وتوالت الفتن العنيفة ، وسفك المؤمنون  
دماءهم بأيديهم ، ووجد أن نفى مارسلس الذى بدا أن فطنته كانت أقل  
سموا من غيرته — هو الاجراء الوحيد الذى يمكن به اعادة السلام الى  
الكنيسة الممزقة فى روما . ويبدو أن سلوك منسوريوس Mensurius  
أسقف قرطاجة ، ما فتىء ينذر بالخطر . فان أحد شمامسة هذه المدينة  
نشر قذفا فى حق الإمبراطور ، واحتمى الشماس المسىء بدار الأسقفية ،  
ورغم أن الوقت لم يكن قد حان بعد للمطالبة بحق الحصانة الكنسية ،  
فقد رفض الأسقف تسليمه الى أيدي العدالة . واستدعى منسوريوس  
الى البلاط ، من أجل هذه المقاومة التى تتسم بالخيانة ، ولكنه ، بدلا

من أن يتلقى حكماً عادلاً بالاعدام أو النفي ، سمح له بعد تحقيق قضير بالانصراف الى أبرشيته . تلك كانت حالة السعادة التي نعم بها رعايا مكسنتيوس المسيحيون ، الى حد أنهم اذا عن لهم أن يحصلوا على بعض جثث الشهداء لاستعمالهم الخاص ، اضطروا الى شرائها من أقصى ولايات الشرق ، وثمة قصة تروى عن آجلا Aglae ، وهى سيدة رومانية منحدره من احدى أسرات القناصل ، تمتلك ضيعة كبيرة تطلبت ادارتها ثلاثة وسبعين موظفا ، كان بونيفاس Boniface أكثرهم حظوة لدى سيدته ، ويروى أنه لما مزجت آجلا الحب بالعبادة ، سمحت له بمضاجعتها ، ومكنتها ثروتها من تحقيق الرغبة التقية فى الحصول على بعض الرفات المقدسة من الشرق ، فزودت بونيفاس بمبلغ كبير من الذهب ، وكمية كبيرة من العطور ، وسعى عشيقها — يحف به اثنا عشر خيالا ، وتتبعه ثلاث عربات مغطاة ، حاجا الى مكان سحيق ، الى مدينة طرسوس فى قيليقيا .

#### مرسوم جالوريوس للنساج

كان جالوريوس ذو المزاج الدموى والمنشئ الأول والرئيسى للاضطهاد — شديد البأس على المسيحيين الذين ألقى بهم حظهم العاثر فى نطاق مملكته . وقد يحق لنا أن نذهب بنا الظنون الى أن أفرادا كثيرين من الطبقة الوسطى الذين لم تحد من حريتهم قيود الثروة أو اغلال الفاقة ، كثيراً ما هجروا وطنهم والتمسوا ملجأ وملاداً فى المناخ الذى هو أكثر اعتدالا فى الغرب ، وطالما اقتصر سلطان جالوريوس — على جيوش الليريكوم Illyricum وولاياتها — فانه لقى صعوبة فى العثور على الشهداء أو صنع عدد منهم ، وسط بلد محارب استقبال المبشرين بالانجيل بفتور وامتعاض أكثر مما استقبلوا بهما فى أى مكان آخر فى الامبراطورية . ولكنه حين استحوذ على السلطة العليا ، وآلت اليه حكومة الشرق ، سدر فى غيرته وقسوته الى أبعد مدى ، لا فى ولايتى تراقيا وآسيا فقط ، حيث دانت هاتان الولايتان لسلطانه المباشر، بل كذلك فى ولايات سوريا وفلسطين ومصر ، حيث أرضى مكسيمين نزعته الخاصة بالطاعة العمياء لأوامر ولى نعمته الكالحة. أما جالوريوس فقد أقتنعتة آخر الأمر خبيثته المتكررة فى تحقيق أطماعه ، وتجربة سنوات ست من الاضطهاد ، والأفكار المفيدة التى أوحى بها الى عقله اعتلال طويل المدى اليم فى صحته — أقتنعته بأن أعنف أعمال الاستبداد والظلم لا تكفى لآبادة شعب بأسره ، أو للقضاء على معتقداتهم

الدينية ، ومن ثم أصدر - تحذوه الرغبة في اصلاح ما أفسدته يدها -  
مرسوما عاما يحل اسمه ، واسمى ليسينيوس ، وقسطنطين ، تألفت  
في ديابجته المشرقة الألقاب الامبراطورية ، ثم جاء بعدها :

« من بين المهام الخطيرة التي تشغل أذهاننا ، من أجل مصلحة  
الامبراطورية والحفاظ عليها ، أن اتجهت ارادتنا الى تصحيح كل  
الأوضاع ، واعادة بنائها ، وفقا للقوانين القديمة ، والنظام العام عند  
الرومان . وانا لشديدو الرغبة ، بصفة خاصة ، في أن نهدي الى طريق  
العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المضللين الذين نبذوا الديانة والطقوس  
التي شرعها آباؤهم ، والذين تيجحوا فازدروا شعائر الأقدمين ، ومن  
ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة ، أملاها عليهم خيالهم ، وشكلوا  
مجتمعا متعدد الألوان في مختلف أرجاء الامبراطورية ، ان المراسيم التي  
أصدرناها لفرض عبادة الآلهة ، عرضت كثيرا من المسيحيين للخطر  
والكروب ، ففضى الكثيرون نحبيهم ، على حين ظل عدد أكبر سادرين  
في حماقتهم الملحدة حيث جردوا من الحق في الممارسة العلنية للدين ،  
ومن هنا اتجهت ارادتنا الى أن نبسط مزايا رأفتنا المألوفة على  
هؤلاء الأئمراد التعساء . ولذلك نرخص لهم في اعلان آرائهم  
الخاصة في حرية تامة ، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو  
ازعاج ، شريطة أن يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة  
القائمة . ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام ، في مرسوم آخر ،  
وأنا لنأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين الى الصلاة والتضرع الى الاله  
الذي يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا . وسلامتهم ورخائهم هم  
أنفسهم ، وسلامة الجمهورية ورخائها » .

وليس من المؤلف أن نقنو ، في لغة المراسيم والمنشورات ،  
شخصية الأمرء الحقيقية ، أو دوافعهم الخفية . ولكن لما كانت هذه  
الفاظ امبراطور يحتضر ، فلربما سلمنا بأن يكون موقفه بمثابة تعهد  
بأخلاصه .

ولما وقع جالريوس مرسوم التسامح هذا ، كان متأكدا كل التأكد  
أن ميسينيوس على استعداد لمسايرة نزعات صديقه وولى نعمته ، وأن  
اية خطوات تتخذ لمصلحة المسيحيين سوف تحظى بقبول قسطنطين ،  
ولكن الامبراطور ( جالريوس ) لم يكن ليجرؤ على أن يضع في ديابجته  
المرسوم اسم مكسيمين ، الذي كانت موافقته على أكبر جانب من  
الاهمية ، والذي كان قد تولى بعد ذلك بأيام قلائل حكم ولايات آسيا .

وفي الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر مكسيمين ، على أية حال .  
يأنه يتبع النصائح الحكمة لسلفه ، ورغم أنه لم يتفضل يوما بأصدار  
مرسوم عام لتأمين هدوء الكنيسة ، فان سابينوس رئيس حرسه  
البريتورى ، وجه كتابا دوريا الى الولاة والحكام فى الولايات ، أفاض  
فيه الحديث عن رفق الأباطرة واعترف فيه بضراوة عناد المسيحيين ،  
وأشار فيه على رجال القضاء بوقف محاكمتهم العقيمة ، وغض الطرف  
عن الاجتماعات السرية لهؤلاء المتحمسين . وتبعاً لهذه الأوامر أطلق  
سراح كثير من المسيحيين من السجون ، أو انقذوا من المناجم . وعاد  
المصريون على عقيدتهم المسيحية الى بلادهم ، وهم ينشدون أغنية  
النصر ، أما أولئك الذين كانت قد خارت قواهم واستسلموا لعنف  
العاصمة ، فقد توسلوا فى دموع الندم فى أن يرخص لهم بالعودة الى  
أحضان الكنيسة .

ولم يدم طويلاً أمد هذا الهدوء الغدار . وما كان مسيحيو الشرق  
ليثقوا قط فى ملكهم ، فان القسوة والخرافة ( العقيدة ) كانتا تسيطران  
على عقل مكسيمين ، أما القسوة فقد ابتدعت وسائل الاضطهاد ، على  
حين حددت الثانية أهدافه . فقد كان الإمبراطور مثابراً على عبادة  
الآلهة ودراسة السحر والايهان بالوحي ، وكثيراً ما ارتقى بالرسول أو  
الفلاسفة الذين احترمهم وبجلهم على أنهم « مقربون الى السماء »  
ارتقى بهم الى مناصب الحكم فى الولايات ، ورخص لهم فى حضور أخص  
مجالسه السرية ، وقد أقتنع هؤلاء بأن المسيحيين مدينون بانتصاراتهم  
الى نظامهم الدقيق ، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم الى وحدة  
رجال الدين وأحكام الرياسة والتدرج بينهم . ومن ثم أدخل أسلوب من  
الحكم ، من الواضح أنه اقتبس من شريعة الكنيسة . وبأمر من مكسيمين  
تم اصلاح المعابد وتجميلها فى كل المدن الكبيرة فى أنحاء الامبراطورية .  
وأخضع الكهنة القائمون على خدمة الآلهة لسلطان حبر أعظم ،  
قدر عليه أن يناهض الأسقف وأن يرعى مصلحة الوثنية . واعترف  
الأحبار بدورهم بالاختصاص الأعلى لمطارنة الولايات أو كبار  
الكهنة فيها ، أولئك الذين كانوا بمثابة وكلاء مباشرين للإمبراطور  
نفسه . وكان الرداء الأبيض شعار مرتبتهم العالية ، واختير هؤلاء  
الأحبار الجدد من أشرف الأسر وأغناها ، ووصلت بتأثير الحكام وتأثير  
هذا النظام الكهنوتى — وصلت الى الإمبراطور رسائل كثيرة تنم عن  
الطاعة ، وبخاصة من مدن نيكوميديا وأنطاكية وصور ، تجلت فيها —  
فى مكر ودهاء — مقاصد البلاط المعروفة ، على أنها نابعة من الشعور  
العام للشعب ، والتمست من الإمبراطور أن يلجأ الى قوانين العدالة ،

خيرا من أن يرجع الى ما يمليه عليه رفقته ورافته ، وعبرت عن كراهيتهم للمسيحية ، وتوسلت في خشوع الى أنه يجدر ، على الأقل ، ابعاد هذه الفئة الضالة الملحدة من المسيحيين الى خارج بلادهم ( بلاد اصحاب الرسائل ) . وما يزال جواب مكسيمين عن ملتهم أهالى صور موجودا . فهو يمتدح غيرتهم واخلاصهم لسبادتهم في عبارات تنم عن أعظم الرضا والارتياح ، ويسهب في وصف عناد المسيحيين في الحادهم . وبمبادرته الى الموافقة على نفيهم ، أى المسيحيين ، ويعلن أنه اعتبر نفسه كأنها يأتهم هو بأبرهم ( مواطنى صور ) أكثر من أن يصدر هو أمرا ملزما . وخول الكهنة والحكام حق تنفيذ مراسيمه التى كانت محفورة على ألواح من النحاس . وعلى الرغم من توصيتهم بتجنب سفك الدماء ، فقد أنزلوا أنفسى العقوبات وأبغضها بالمسيحيين المتبردين .

وحق للمسيحيين فى آسيا أن يتوجسوا كل الخيفة من قسوة ملك عنيد متعصب دبر أعمال العنف بمثل هذه السياسة المقصودة . ولكن لم تمض شهور قلائل حتى أرغم مكسيمين على وقف تنفيذ خططه بفضل المراسيم التى أصدرها امبراطورا الغرب ، وشغلت كل تفكيره تلك الحرب الأهلية التى تهور فى شنها ضد لوسينيوس ، وخأصت هزيمة مكسيمين وموته الكنيسة من آخر اعدائها واشدهم ضراوة وعنادا .

ولقد تعمدت فى هذه النظرة العامة للاضطهاد الذى رخصت فيه لأول مرة مراسيم دقلديانوس ، أن أمسك عن وصف المعاناة التى كابدها كل من الشهداء المسيحيين وميتة كل منهم ، وكان من الميسور أن تجيع سلسلة من الصور المرعبة الكريهة ، من تاريخ يوسوبوس ومن خطابات لكتانتيوس المؤثرة ومن أقدم المؤلفات ، وأن تملأ منها صفحات كثيرة بذكر الخوازيق والسياط والأصفاد ، والحديد المحمى ، وغير ذلك من مختلف ألوان العذاب التى يمكن أن تصلى بها النار والحديد والوحوش الكاسرة والجلادون الذين هم أشد وحشية ، تصلى بها جسم الانسان . فان هذه المناظر الكئيبة المحزنة قد تهيجها أو تبعثها حية مجموعة من الرؤى والمعجزات التى قضى عليها أن تؤجل موت أولئك القديسين المخلصين الذين عانوا الآلام من أجل اسم المسيح أو تسجل انتصارهم أو تكتشف رفاتهم . ولكنى لا أستطيع أن أحدد ماذا ينبغى أن أنقل الا اذا اقتنعت بما يجدر بى أن أصدق . أن يوسيبويوس نفسه ، وهو أكثر مؤرخى الكنيسة وقارا وجدية ، ليعترف بأنه روى كل ما قد يؤدى الى مجد الديانة المسيحية ، وأغفل كل ما يمكن

أن يشينها . وان مثل هذا الاعتراف ليثير الشك في أن الكاتب الذي خرق خرقا صريحا واحدا من قوانين التاريخ الأساسية ، لم يتم وزنا كبيرا للملاحظات الكاتب الآخر ، وان الشك ليكتسب قوة من شخصية يوسيبوس التي كانت أقل اصطيافا بالسذاجة وسرعة التصديق ، وأكثر تمرسا بأفانين البلاط ، من شخصية أى واحد من معاصريه تقريبا . والمفروض في بعض حالات معينة ، حين كانت بعض بواعث شخصية نابعة من المصلحة أو الحنق تثير حفيظة الحكام ، أو كانت غيرة الشهداء تغريهم بنسيان قواعد الحرص وربما قواعد الاحتشام فيخربون المذابح ، أو يصبون اللعنات على الأباطرة ، أو يضربون القضاة وهم جالسون في منصة القضاء — نقول ان المفروض في مثل هذه الأحوال أن يستنفد مع هؤلاء الضحايا الغيورين ، كل ما يمكن أن يتقدمه القسوة أو يصمد أمامه الجلد . ومهما يكن من أمر ، فقد ذكرت ، في غير حذر ، حالتان توحيان بأن المعاملة العامة ، التي لقيها المسيحيون الذين كان رجال العدالة قد قبضوا عليهم — كانت أقل ضراوة أو أكثر احتمالا مما يتصور ، عادة ، أن تكون عليه هذه المعاملة .

١ — كان يسمح للمؤمنين الذين حكم عليهم بالعمل في المناجم — نتيجة لانسانية حراسهم أو اهمالهم — ببناء كنائس صغيرة ، وبحرية ممارسة ديانتهم في هذه الأماكن المقفرة .

٢ — كان الأساقفة ملزمين بكبح جماح الفيرة المتبجحة والتنديد بها ، غيرة أولئك المسيحيين الذين سلموا أنفسهم طائعين مختارين ، الى الحكام . وكان بعض هؤلاء قد أرهقهم الفقر والديون ، وسعوا سعيا أعمى الى إنهاء وجود تعيس بميته مجيدة مشرفة . كما خدع آخرون بالأمل في أن فترة قصيرة يقضونها في السجن قد تكفر عن كل خطايا الحياة . وهناك فريق ثالث كان يعتمل في نفسه باعث أقل شرفا ، وهو الحصول على معاش أكبر أو ربح وفير من الصدقات التي كان المؤمنون المحسنون يدفعونها للمسجونين . وبعد انتصار الكنيسة على كل أعدائها ، أدت بالمسجونين مصلحتهم وغرورهم على قدر سواء ، الى المبالغة في تقدير ما يستحقون من مجد وشرف ، جزاء وفاتنا لما عانى كل منهم من آلام . وهنا لابد من القول بأن تعاقب الأيمان أو تباعد المكان قد أفسحا المجال لانتشار الروايات والخيالات والأوهام ، وبأن الأمثلة الكثيرة المزعومة لشهداء مقدسين ، شفيت على الفور جراحهم ، أو جددت قوتهم أو أعيدت اليهم أوصالهم المفقودة

— مثل هذه المزاعم كانت ملائمة كافية لازالة أية عتبة واخراس أية معارضة . ولما أدى أثر هذه الأساطير سرفا وتطرفا الى مجد الكنيسة فقد همل لها الجمهور الساذج السريع التصديق ، وساندتها قوة رجال الدين ، كما أقرتها الشواهد المرئية في تاريخ الكنيسة .

وانه لمن السهولة بمكان كبير أن يطلق الخطيب الداهية لقلمه العنان للمبالغة أو التخفيف من الأوصاف الغامضة للمنفى والسجن ، والألم والتعذيب ، الى حد يحملنا بالضرورة الى تقصى حقيقة أكثر جلاء وأشد تثبيتا عن عدد من أعدموا نتيجة لقوانين دقلديانوس وشركائه وخلفائه . ان الروايات الحديثة تسجل الحشود والمدن التي اجتاحتها سورة الاضطهاد دون تمييز . أما الكتاب القدامى فيكتفون بوابل من السباب واللعنات الفاجرة المفجعة ، دون أن يتفضلوا بالتحقق من الرقم الدقيق لأولئك الذين قبيض لهم أن يؤكدوا بمدى إيمانهم بالإنجيل . ويمكن أن نستخلص من تاريخ يوسيبوس ، على أية حال ، أن حكم الإعدام صدر على تسعة أساقفة ، كما يؤكد لنا تعداده الخاص لشهداء فلسطين أن عدد المسيحيين الذين فازوا بهذا اللقب الكريم لم يتجاوز اثنين وتسعين (1) . ولما كنا على علم تام بمقدار الفيرة والشجاعة الدينية اللتين سادتنا ذاك العصر ، فليس في مقدورنا أن نستخلص أية نتائج مفيدة من أولى هاتين الحقيقتين ، أما الثانية فقد تصلح لتبرير نتيجة هامة محتملة جدا . فان فلسطين — وفقا لتوزيع الولايات الرومانية ، تعتبر القسم السادس عشر من الامبراطورية الشرقية ، ولما كان هناك بعض الحكام الذين تنزهوا نتيجة لشعور

(1) ويختم روايته بأن يؤكد لنا بان هذا هو عدد من استشهدوا في فلسطين طوال فترة الاضطهاد . وقد يبدو أن الفصل التاسع من كتابه الثامن المتعلق بولاية طيبة في مصر ، يتعارض مع تقديرنا المعتدل ، ولكنه يؤدي بنا الى الإعجاب بدهاء المؤرخ في علاج الموضوع ، فقد اختار أبعد الأركان وأكثرها انعزالا في الامبراطورية الرومانية مسرحا لأشنع أعمال العنف والقسوة ، وقال ان ما بين عشرة ومائة شيخوخة كثيرا ما استشهدوا كل يوم في طيبة . ولكنه لما انتقل الى الكلام عن رحلته في مصر أصبحت لهجته ، دون أن يحس ، أكثر حرصا واعتدالا . وبدلا من الإتيان برقم كبير ، ولكنه محدد ، نراه يتحدث عن كثير من المسيحيين ، وينتقى في دهاء بالغ — لفظتين مبهمتين ، يبدو أنهما تشيران اما الى ما رأى أو الى ما سمع ، واما الى توقع العقوبة أو الى تنفيذها . فلما تهيات له هذه المراوغة الامنة تقدم بهذه القطعة المبهمة الى القراء والمترجمين ، وهو يدرك بحق أن ورعهم سيحملهم على إيتار المعنى الأوفق لهم . وربما اتسمت بالخبط اشارة تيودوروس ميتوشيتا Theodorus Metochita الى أن كل الواقفين على أحوال المصريين — مثل يوسيبوس Eusebius — سروا بالأسلوب الغامض المقعد .

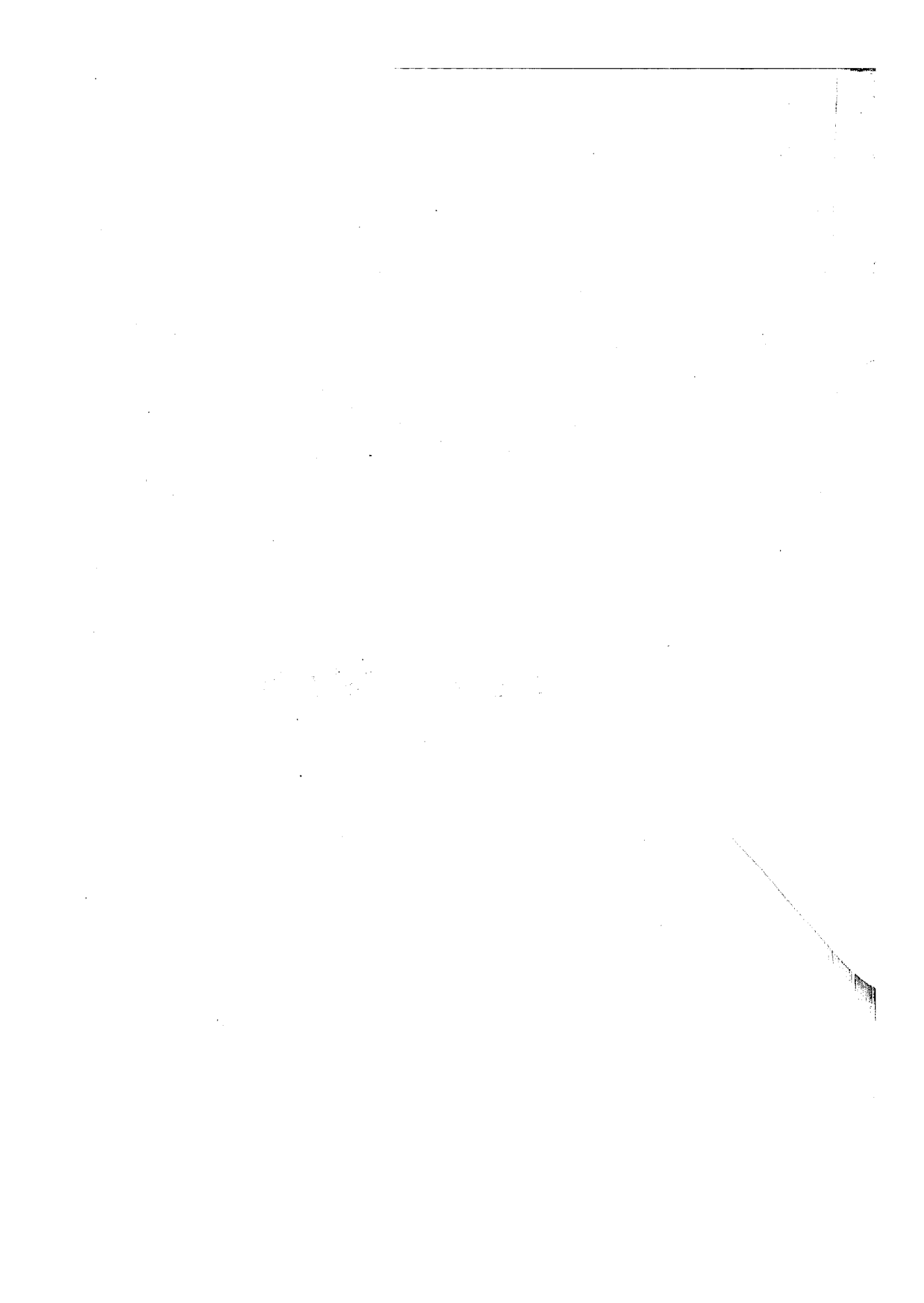


حقيقى أو مصطنع من الرفق والرحمة — عن تلطيح أيديهم بدماء المؤمنين ،  
فانه من المعقول أن يذهب بنا الاعتقاد الى أن البلد الذى شهد مولد  
المسيحية أنجب على الأقل جزءا من ستة عشر جزءا من الشهداء الذين  
لقوا حتفهم فى نطاق اختصاص جالوريوس ومكسيمين . وعلى هذا  
يكون مجوع الشهداء عامة نحو ألف وخمسمائة ، وهو عدد اذا قسم  
بالتساوى على أعوام الاضطهاد العشرة ، لكان نصيب العام الواحد  
مائة وخمسين شهيدا . فإذا خصصنا نفس النسبة لولايات ايطاليا  
وأفريقية ، وربما اسبانيا كذلك ، حيث أوقفت أو ألغيت قرأتين  
العقوبات الصارمة بعد سنتين أو ثلاث ، لهبط عدد المسيحيين الذين  
وقعت عليهم عقوبة الاعدام بمقتضى حكم قضائى فى الامبراطورية  
الرومانية الى أقل من ألفى شخص . ولما كان من غير المشكوك فيه قط  
أن المسيحيين كانوا أكثر عددا ، وأن اعداءهم كانوا أشد غيظا فى عهد  
دقلديانوس عنهم فى أى اضطهاد سابق ، فقد يهدينا هذا الحساب  
المعتدل الى تقدير عدد القديسين والشهداء الأولين الذين ضحوا  
بأرواحهم من أجل غرض هام سام هو نشر المسيحية فى العالم .

ونختم هذا الفصل بحقيقة مفرجة تفرض نفسها على الذهن  
كرها ، تلك هى أنه ، حتى مع التسليم دون تردد أو بحث بكل ما سجله  
التاريخ أو زيفه النسك والتعبد فى موضوع الاستشهاد ، فإن  
المسيحيين ، فى خصوماتهم الداخلية ، أصلا بعضهم بعضا من ألوان  
العنف والقسوة ، ما هو أفظع مما عانوا من غيره الكفار والزنادقة .  
فى عصور الجهل التى أعقبت سقوط الامبراطورية فى الغرب ، بسط  
أساقفة العاصمة الامبراطورية سلطانهم على العلمانيين والكهنوتيين  
فى الكنيسة اللاتينية . وانتهى الأمر بأن شنت جماعة من المتعصبين  
الجبسورين الذين انتحلوا من القرن الثانى عشر الى القرن السادس  
عشر الشخصية المحبوبة ، شخصية المصلحين — شنوا هجومهم على  
مسرح الخرافة الذى كان أولئك الأساقفة قد أقاموه ، والذى كان من  
الجائز أن يتحدى الى أمد طويل جهود العقل المتواضعة . ودافست  
كنيسة روما بعنف عن الامبراطورية التى كانت قد كسبتها بالفتن  
والخداع . وسرعان ما وصم الحرمان من حماية القانون والحروب  
والمذابح ، ونظام الوظائف الدينية ، نظاما يدعو الى السلام والبه  
فلطخته ، ولما كان المصلحون مدفوعين بحب الحرية المدنية والحرية  
الدينية معا ، فقد ربط الأمراء الكاثوليك مصلحتهم بمصلحة رجال  
الدين ، وفرضوا بالنار والسيوف ارباب الأحكام الروحية ، ويقال  
أن مائة ألف من رعايا شارل الخامس فى الأراضى المنخفضة

( هولنده ) وحدها لقوا حتفهم على يد الجلاد ، وأكد هذا الرقم الغريب  
جروثيوس (Grotius ١٥٨٢ - ١٦٤٥ من رجال السياسة  
والقضاء في هولنده ) . - وهو رجل عبقرى عالم احتفظ باعتداله  
وسط سورة الغضب بين الفرق المتنازعة . وألف حوليات عصره  
وبلده ، في وقت يسر فيه اختراع الطباعة وسائل الأعلام ، وزاد من  
خطر الكشف عن الحقائق ، فإذا كان علينا أن نؤمن بصدق  
جروثيوس ، لوجب القول بأن عدد البروتستانت الذين أعدموا في  
ولاية واحدة في ظل حكم واحد يجاوز كثيرا عدد الشهداء الأولين على  
مدى ثلاثة قرون وفي نطاق الامبراطورية الرومانية بأسرها . ولكن اذا  
توقفت استحالة الواقعة ذاتها على قيمة الدليل ، واذا ثبتت على  
جروثيوس المبالغة في جدارة السابقين وآلامهم ، كان طبيعيا ان  
نتساءل : أية ثقة يمكن أن توضع في الآثار المريية المعيبة التي خلقتها  
السداجة القديمة ، وأية درجة من التصديق يجب أن نوليها سقفا  
بهذا وخطيبا مؤثرا عاطفيا ، نعم تحت حماية دقلديانوس ، بالحق  
المطلق في تدوين الاضطهادات التي عاناها المسيحيون على يد المنافسين  
المتهورين أو الأسلاف المحتقرين للميكهم الرحيم .

الانجاء نحو الشرق



## الفصل السابع عشر

(٢٢٤ - ٢٣٤ م)

### روما الجديدة : تأسيس القسطنطينية وتدشينها

تقسيمات المناصب في النظام الجديد للحكومة . بداية الدولة البوليسية

كان لوسينيوس المنكود الحظ آخر منافس تصدى لعظمة قسطنطين ، وآخر أسير توج انتصاراته . وورث الفاتح أسرته بعد حكم اتسم بالهدوء والازدهار ، تركة الامبراطورية الرومانية : عاصمة جديدة ، وسياسة جديدة ، وديانة جديدة ، ورحبت الأجيال المتعاقبة بالمبتكرات التي ابتدعها وقدسستها . وان عهد قسطنطين الأكبر وأبنائه ليزخر بالأحداث الهامة ولكنها ترهق المؤرخ بكثرة عددها وتنوعها ، ما لم يفصل الأحداث التي لا يربط بينها الا الترتيب الزمني ، بعضها عن بعض . فيصف النظم السياسية التي أمدت الامبراطورية بالقوة والاستقرار ، قبل أن يعرض لذكر الحروب والثورات التي عجلت باضمحلالها ، ويختار ذلك التقسيم الذي لم يكن يعرفه الأقدمون بين الشؤون المدنية والشؤون الدينية ، للتهذيب والتثقيف ثم للفضيحة معا .

وبعد هزيمة ليسينيوس واعتزاله ، خف منافسه الظافر ليضع أساس مدينة قیض لها في مستقبل الأيام أن تحكم بوصفها « سيده الشرق » وأن تبقى بعد امبراطورية قسطنطين وديانته . وزاد اقتداء خلفاء دقلديانوس به وبسجاياه طوال أربعين عاما من قيمة دوافع الزهو أو السياسة ، التي حدثت به في البداية الى الانسحاب من المقر القديم للحكومة . واختلطت روما ، بطريقتة غير ملحوظة ، بالممالك التابعة التي اعترفت يوما بسيادتها . وغدت بلد القياصرة ينظر اليها بعين

ملؤها الاستهتار والفتور ، عين أمير عسكري ولد في جوار الدانوب ،  
وتعلم في بلاط آسيا وجيوثها ، وخطبت عليه فرق بريطانيا حلة  
الامبراطورية . وامنتل الايطاليون الذين رحبوا بقسطنطين بوصفه  
مخلصهم ومنقذهم - امتثلوا في خشوع للمراسيم التي تفضل أحيانا  
بتوجيهها الى السناتو والشعب في روما ، ولكنهم قلما حظوا بشرف  
حضور مليكهم الجديد . ودأب قسطنطين طوال زهرة العمر ، وتبعا  
لمختلف دواعى الحرب والسلم ، على التحرك في عظمة متتدة ويقظنة  
جادة على حدود مملكته الشاسعة ، وكان دوما على أهبة الاستعداد  
للاقاة أى عدو خارجى أو داخلى ، ولكنه لما بلغ مع الأيام ذروة  
الازدهار ، وتقدمت به السنون على طريق الفناء ، بدأ يتدبر مشروعا  
تستقر به قوة العرش وجلاله في مكان أشد ثباتا . وفي اختياره للموقع  
الملائم ، أثر قسطنطين تخوم أوربا وآسيا ليضرب بيد من حديد على  
أيدي المتبربرين الذى كانوا يقطنون بين الدانوب والتانيس Tanais ،  
وليرقب بعين ساهرة سلوك ملك الفرس الذى احتمل ساخطا نير  
مهادمة مخزية ، وبهدى من هذه الاعتبارات تخير دقلديانوس من قبل  
مقر اقامته في نيقوميديا وزينه ، ولكن حامى الكنييسة كان يكره بصق  
ذكرى دقلديانوس ، وكان قسطنطين واقعا تحت تأثير الطمع في تأسيس  
مدينة تخدم مجد اسمه . وتهيأت له الفرصة ، في عمليات الحرب  
الأخيرة ضد ليسينيوس ، أن يذيق النظر ، بوصفه جنديا ورجل دولة ،  
في موقع بيزنطة المنقطع النظير . وأن يرى كيف تحرسها الطبيعة  
حراسة قوية ضد أى عدوان ، على حين يسهل الوصول اليها من كل  
جانب للأغراض التجارية ، وقبل عصر قسطنطين بعدة أجيال ،  
وصف مؤرخ من أقوى المؤرخين القدامى بصيرة مزايا موقع استطاعت  
منه مستعمرة يونانية هزيلة أن تسيطر على البحر ، وأن تفوز بأجاد  
جمهورية مزدهرة مستقلة .

وإذا استعرضنا بيزنطة في المدى الذى بلغته تحت الاسم العظيم  
« القسطنطينية » لأمكن أن نمثل المدينة الامبراطورية على شكل مثلث  
غير متساوى الأضلاع ، يلتقى طرفه المنفرج الذى يمتد شرقا الى  
شواطئ آسيا ، بأواج بسفور تراقيا ويصدها . وتحده الميناء الجزء  
الشمالى من المدينة ، أما الجنوبي فتحفه مياه بحر مرمرية . أما قاعدة  
المثلث فانها تواجه الغرب ، وعندها تنتهى قارة أوربا ، ولكن لا يمكن  
استيعاب الشكل الباهر للأرض والماء اللذين يحيط الواحد منهما بالآخر  
ويجاوره ، والتقسيم الدهش بينهما ، استيعابا واضحا كافيا ،  
الا بمزيد من الشرح والتفسير .

وأطلق على المجرى المتعرج الذى تجرى فيه مياه البحر الأسود جريانا سريعا لا ينقطع الى البحر الأبيض المتوسط اسم البسفور ، وهو اسم لا يقل شهرة فى التاريخ القديم عنه فى القصص الخرافى العتيق ، وهناك مجموعة من المعابد ومذابح النذور المبعثرة فى غير نظام على ضفافه الشديدة الاتحدار المغطاة بالأشجار ، تشهد على عدم براعة الملاحين اليونان ورعبهم وتعبدهم ، حين كانوا يرتادون مخاطر البحر الأسود الماحل ، على غرار ما فعله ملاحو الأساطير اليونانية القديمة « Argonauts » . واحتفظت التقاليد القديمة على هذه الشواطئ بذكرى قصر فينيوس Phineus الذى سكنته وأزعجته الحيوانات الغريبة التى كان لكل منها حسم طائر ورأس امرأة ، وذكرى حكم الغاب ، أى حكم أميكوس ( Amycus فى الأساطير اليونانية أحد ملوك بيثينيا وكان جبارا متوحشا يلزم كل من يحل فى بلده بملاكمته ) الذى تحدى ابن ليدا Leda ليلاكمه بالفنازات . وتنتهى مضايق البسفور بالصخور الزرقاء التى طفت يوما - وفقا لوصف الشعراء - على سطح الماء ، وخصصها الآلهة لحماية مدخل البحر الأسود من عين الفضول الدنس . ويمتد طول البسفور المتعرج من الصخور الزرقاء الى طرف بيزنطة ومينائها نحو ستة عشر ميلا . أما أقصى عرضه العادى فيبلغ نحو ميل ونصف الميل . هذا والقلاع الجديدة فى أوريسا وآسيا مقامة فى كلتا القارتين على أنقاض معبدين مشهورين : معبد سيرابيس Serapis ومعبد جوبيتر أوريوس ، وتشرف القلاع القديمة التى بناها أباطرة اليونان ، على أضيق جزء فى المجرى ، فى مكان تبعد فيه الضفتان المتقابلتان كل منهما عن الأخرى نحو خمسمائة خطوة . وقد جدد محمد الثانى بناء هذه القلاع وقواها ، عندما فكر فى حصار القسطنطينية ، ولكن الفاتح التركى كان على الأرجح يجهل أنه قبل عصره بنحو ألفى سنة اختار دارا نفس المكان ليربط بين القارتين بجسر من القوارب . ويمكن أن نرى على مسافة قصيرة من القسلاخ القديمة ، بلدة أشقودرة الصغيرة التى تكاد تعتبر الضاحية الآسيوية للقسطنطينية ، ويمر البسفور بين بيزنطة وخطدونية ، حين تبدأ مياهه فى الانسياب الى بحر مرمرة ، وقد بنى الاغريق هذه المدينة الأخيرة قبل الاولى بيضع سنين ، وهناك تعبير جرى مجرى المثل ، تصويرا للسخرية من الغباء الذى وسم به مؤسسو خطدونية ، الذين غفلوا عن المزايا الرائعة للساحل المقابل .

وفى وقت سحيق جدا اكتسبت ميناء القسطنطينية التى يمكن اعتبارها ذراعا للبسفور ، اسم القرن الذهبى . فان الانحاء الذى

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبة ريح من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الآمن الواسع . ويمد نهر ليسوس — الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين — يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتمس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فإن العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الاقتضاء وضع سلسلة متينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمرة شواطئ أوروبا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردينيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وأن الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمرة ، سيلمحون على الفور أراضى تراقيا وبيشنيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخلفون الى اليسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوروبا الى قتال ضفير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأبيدوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المغامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع أجزرسييس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوروبا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من المتبربرين . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ليبدو غير جدير بالنعمة الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس



وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فإن أى سائح ، وبخاصة إذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتفتح تعاريج مجراه ودقق النظر في مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لآبد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبح على هذه المضائق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجيه أو بجر الأرخبيل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida — أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض التهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطئ بين أكتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشليس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الأكتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهباب الخيام على الأكمة الأخرى . وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخذل ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين براى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع أقامته فى هذه البقعة المشهورة التى اشتق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الأبر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روتيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فإنه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخلق بنا الآن أن تلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . إن العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطئى أوربا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل بوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل التبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيها مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

ترسمه ، يمكن مقارنته بقرن غزال ، أو كما يبدو مع احتشام أكبر ، قرن ثور . ويعبر لفظ « ذهبى » عن الثروة التى تتدفق مع كل هبسة ريح من أقصى الأرض الى ثغر القسطنطينية الأمن الواسع . ويمد نهر ليسوس - الذى تكون من التقاء مجريين صغيرين - يمد الميناء بمعين لا ينضب من الماء العذب الذى يفيد فى تنظيف القاع وفى جذب أسراب السمك الموسمية لتلتبس لها ملجأ فى هذا التجويف المناسب . ولما كانت تقلبات المد والجزر يندر أن يكون لها أثر فى هذه البحار ، فإن العمق الثابت للمياه فى الميناء يسهل عملية تفريغ البضائع على الأرصفة مباشرة دون استخدام القوارب . وقد لوحظ فى أماكن كثيرة أن السفن الكبيرة تلقى مراسيها ويظهر مقدمها أمام المنازل ، على حين يطفو مؤخرها فى الماء . ويبلغ طول لسان البسفور من مصب نهر ليسوس الى الميناء أكثر من سبعة أميال ، ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة . ويمكن عند الانتضاء وضع سلسلة ممتينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد .

وتحيط ببحر مرمره شواطئ أوروبا وآسيا ، على الجانبين ، بين البسفور والدردينيل ، وكان هذا البحر معروفا قديما باسم بروبونتيس Propontis . وتبلغ المسافة من مخرج البسفور الى مدخل الدردنيل نحو مائة وعشرين ميلا . وأن الذين يبحرون فى اتجاه الغرب وسط بحر مرمره ، سيلمحون على الفور أراضى تراقيا وبيثينيا ، ولن تغيب عن أبصارهم قمة جبل أولمبس الشاهقة ، المكسوة بالجليد الدائم ، ويخطفون الى الينسار خليجا عميقا كانت تقع فى قاعه نيقوميديا مقر الامبراطور دقلديانوس ، ويمرون بالجزيرتين الصغيرتين سيزيكس Cyzicus وبروكنيسوس Proconnesus قبل أن يلقوا مراسيمهم عند جاليبولى ، حيث يتقلص البحر الذى يفصل بين آسيا وأوروبا الى قتال صغير . ويقدر الجغرافيون الذين مسحوا شكل الدردنيل واتساعه بأقصى دقة ومهارة ، يقدرون المجرى المتعرج لهذه المضائق المشهورة بنحو ستين ميلا ، والاتساع العادى بنحو ثلاثة أميال . ولكن يوجد أضيق جزء فى المجرى الى الشمال من القلاع التركية القديمة بين مدينتى سستوس وأبيدوس . وهذا هو المكان الذى خاطر فيه لياندر المغامر بعبور الفيضان ليحظى بسيدته ، وهنا أيضا حيث لا تتجاوز المسافة بين الشاطئين المتقابلين خمسمائة خطوة ، وضع اجزرستيس جسرا متينا من القوارب لينقل الى أوروبا مائة وسبعين من الآلاف المؤلفة من الثبريرين . وان بحرا تقلص الى هذه الحدود الضيقة ل يبدو غير جدير بالنعمة الغريب بأنه « عريض » الذى كثيرا ما أسبغه هوميروس

وأورفيوس على الدردنيل ، ولكن أفكارنا عن العظمة نسبية ، فان أى سائح ، وبخاصة اذا كان شاعرا ، ركب الدردنيل ، وتتبع تعاريج مجراه ودقق النظر في مناظره الريفية التى تمتد على مدى البصر لابد أن ينسى البحر دون أن يحس ، ويسبغ على هذه المضائق الشهيرة كل صفات نهر عظيم سريع الجريان وسط بلد محصور مغطى بالغابات ، حتى يصل آخر الأمر الى مصب واسع يتدفق الى بحر ايجيه أو بجر الأرخيل . وأشرفت طروادة القديمة الواقعة على ربوة عند سفح جبل ايدا Ida — أشرفت على مصب الدردنيل الذى قلما تلقى أية زيادة فى مائه من فيض النهرين الخالدين سيمواس Simois وسكامندر Scamander . وامتد المعسكر الاغريقى نحو اثنى عشر ميلا على الشاطئ بين أكتين هما سيجيان وروثان . وكان أشجع الرؤساء الذين حاربوا تحت راية أجا ممنون يحمون أجنحة الجيش ، وكان أشليس وجنوده الأشداء المخلصون يحتلون إحدى هاتين الأكتين ، على حين نصب أجاكس الجرىء غير الهيب الخيام على الأكمة الأخرى . وبعد أن وقع أجاكس فريسة لغروره اليائس ولجحود الاغريق ، أقيم له ضريح فى البقعة التى كان يحمى منها الأسطول ضد عدوان جوف Jove وهكتور Hector وخذ ذكراه أهالى المدينة الناشئة روتيوم . وقبل أن يقطع قسطنطين برأى فى اتخاذ مقر الحكم فى موقع بيزنطة ، درس مشروع اقامته فى هذه البقعة المشهورة التى أشق الرومان منها نشأتهم الخرافية . واختير للعاصمة الجديدة أول الامر ذلك السهل الفسيح الممتد تحت مدينة طروادة القديمة أمام جبل روثيان . ورغم أن هذا المشروع تم بسرعة ، فانه ما تزال هناك بقايا أسوار وأبراج لم يكمل بناؤها تسترعى انتباه من يبحرون عبر مضائق الدردنيل .

وخلق بنا الآن أن نلقى نظرة على موقع القسطنطينية الممتاز الذى أبدعته يد الطبيعة ليكون مركزا وعاصمة لمملكة عظيمة . ان العاصمة الامبراطورية الواقعة على خط عرض ٤٣ ، تسيطر على تلالها السبعة على شاطئ أوروبا وآسيا المتقابلين ، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل ، وتربة خصبة ، وميناء منيعة واسعة . وكان المدخل الى القارة قصير المدى والدفاع ميسورا . ويعتبر البسفور والدردنيل يوابتين للقسطنطينية ويستطيع أى أمير يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ، ويفتحهما فى وجه السفن التجارية . وقد ينسب — الى حد ما — الاحتفاظ بالولايات الشرقية الى سياسة قسطنطين حيث ان قبائل المتبربرين فى البحر الأسود التى كانت تشن غاراتها على البحر المتوسط فيها مضى تقاعست بسرعة عن أعمال

القرصنة ، ويئست من اقتحام هذا الحاجز المنيع ، وحتى في حالة اغلاق بوابتي البسفور والدردينيل ، كانت العاصمة تنعم في المساحة الفسيحة بينهما ، بانتاج كل ما يسد حاجة السكان الكثير عددهم أو يوفر لهم حياة الترف واليدخ . وما تزال شواطئ تراقيا وبيثينيا اللتين ترزحان تحت النير التركي ، تزخران بالكروم والبساتين والمحاصيل الوفيرة ، واشتهر بحر مرمره في كل العصور بهذا المعين الذي لا ينضب من السمك الذي يؤخذ في المواسم المعينة دون براعة أو جهد غالبا ، ولكن اذا فتحت المضائق أمام التجارة ، تسدفقت الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال ومن الجنوب على التوالي ، عبر البحر الأسود والبحر المتوسط ، فقد دفعت مختلف الرياح كل المواد الخام التي جمعت من غابات المانيا وسكيزيا ، من أقصى منابع نهري تانيس والدنيير ، وكل ما أبدعته أوربا وآسيا من مصنوعات ، وغلل مصر ، وجواهر الهند النائية وتوابلها — دفعت الرياح كل أولئك الى ثغر القسطنطينية الذي ظل على مدى أجيال طويلة يجتذب تجارة العالم القديم .

### تأسيس القسطنطينية

واجتمع في بقعة واحدة بعينها من الجمال والأمان والثراء ما كان كافيا ليبرر اختيار قسطنطين لها . ولكن ثمة مزيج وقور من المعجزة والخرافة ، كان يعكس ، في كل عصر ، قدرا من العظمة اللائقة على منشأ المدن الكبرى ، ومن هنا أراد الامبراطور أن ينسب قراره الى امر محقق أزلى من الحكمة الالهية ، أكثر من نسبه الى رأى غير أكيد تمليه سياسة الانسان . وعنى في أحد قوانينه بأن يحيط الأجيال القادمة علما ، بأنه امثالا لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية . وعلى الرغم من انه لم يتفضل فيروى لنا كيف هبط عليه وحى السماء ، فان عبقرية الكتاب اللاحقين الذين جاءوا بعده ، عرضت بسخاء عن صمته المتواضع ، حين وصفوا الشبح الذي تراءى ليلا لخيال قسطنطين ، وهو نائم في رحاب بيزنطة ، فقالوا ان ربة المدينة وحارستها — وهى سيدة وقور بلفت من الكبر عتيا وأمنتها العلل والعاهات — تحولت فجأة الى شابة في نضارة الأزهار بدت في أبهى زينة حين ألبسها الامبراطور بيديه شعاعات العظمة الامبراطورية . وأفاق المليك من نومه ، وفسر الفأل السعيد ، وامثلت لارادة السماء دون تردد . وجرت عادة الرومان على الاحتفال بيوم مولد مدينة من

المدن أو مستعمرة من المستعمرات في اسراف بالغ سنته الخرافات السخية ( وفقا لعقيدتهم الوثنية ) . وربما جاز لتسطنطين أن يلغى شيئا من هذه الطقوس والشعائر التي نمت بشكل صارخ عن أصلها الوثني ، ولكنه كان حريصا رغم ذلك على أن يترك أثرا عميقا من الأمل والاجلال في نفوس المتفرجين . وتصدر الامبراطور نفسه الموكب سيرا على الأقدام وفي يده حرية ، ودل على الخط الذي تتبعه هو ومن معه ليكون حدا للعاصمة المقدرة ، حتى عرت معاونيه الدهشة من أن محيط المدينة يزداد اتساعا ، وتجاوزوا على القول بأنه تجاوز المساحة المعقولة لمدينة عظيمة ، فأجاب تسطنطين : « سأواصل السير حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي أنه من المناسب أن أتوقف » . ولسوف تقنع - دون الاجترار على التحزى عن طبيعة هذا المرشد الخارق للطبيعة وعن بواعثه - بمهمتنا التي هي أكثر تواضعا ، ألا وهي وصف امتداد القسطنطينية وحدودها .

وفي الوضع الراهن للمدينة ، يقوم قصر السلطان على المرتفع الشرقى ، وهو أول التلال السبعة ، على مساحة تبلغ نحو مائة وخمسين فدانا انجليزيا ( ايكر ) . إن موطن الاستبداد والأتانيسة التركية هو الآن قائم على انقاض جمهورية اغريقية . والمظنون أن البيزنطيين أغراهم الموقع الملائم للميناء ، فمدوا مساكنهم على هذا الجانب الى ما وراء الحدود الجديدة للسراي ، وامتدت أسوار تسطنطين من الميناء الى بحر مرمره عبر الجزء الذى زيد على مساحة التلث ، على مسافة نحو ١٢٠٠ قدم من التحصينات القديمة . وأدخلوا في نطاق مدينة بيزنطة خمسة من التلال السبعة التى يبدو للمقرب من القسطنطينية أنها ترتفع بعضها فوق بعض في ترتيب جميل . وبعد قرن من وفاة مؤسس المدينة ( تسطنطين ) امتدت المباني الجديدة فوق الميناء من جهة وعلى طول شاطئ بحر مرمره من الجهة الأخرى ، وبذلك غطت الحافة الضيقة والقيمة العريضة للتل السابع . واقتضت الحاجة حماية هذه الضواحي من غارات المتبربرين التى لا تنقطع ، وأن يعنى نيودوسيوس الأصغر نفسه باحاطة عاصمته بسيياج متين دائم من الأسوار ، وبلغ أقصى طول للقسطنطينية ، من المرتفع الشرقى الى القرن الذهبى نحو ثلاثة أميال رومانية ومحيطها من عشرة الى أحد عشر ميلا ، أما المسطح فيقدر بنحو ألفى فدان انجليزى . وليس من الميسور تبرير المبالغات العقيمة الساذجة للسيياج الحديثين الذين مدوا في بعض الأحيان حدود القسطنطينية الى ما وراء القرى المجاورة على الشاطئ الأوربى بل على الشاطئ الآسيوى كذلك . وقد تستحق

صاحبتا بيرا وغلطه — رغم وقوعهما وراء الميناء أن تعتبرنا جزءا من المدينة ، ويجوز أن تؤكد هذه الاضافة صحة ما ذهب اليه مؤرخ بيزنطى من أن محيط مدينته يبلغ ستة عشر ميلا يونانيا ( نحو ١٤ ميلا رومانيا ) . وقد يبدو هذا الرحاب جديرا بالمقر الإمبراطورى . ومع ذلك فانه يجدر بالقسطنطينية أن تسلم القيادة ( من حيث الاتساع ) الى بابل ، وطيبة ، وروما القديمة ، ولندن ، بل والى باريس .

واستطاع سيد عالم الرومان الذى تطلع الى اقامة اثر خالد يشهد بأجاد عصره ، استطاع أن يجند لتنفيذ مشروعه العظيم ، كل ما بقى من ثروة ملايين المطيعين من رعاياه وجهدهم ، وعبقريتهم . ويمكن أن نقدر سخاء الإمبراطور فى الانفاق على تأسيس القسطنطينية اذا علمنا انه أنفق مبلغ مليونين وخمسمائة ألف جنيه لبناء الأسوار والأروقة وقناطر المياه . وجادت الغابات التى ظلت شواطئ البحر الأسود والمحاجر المشهورة بالرخام الأبيض فى جزيرة بروكنيسس Proconnesus بمعين لا ينضب من المواد المعيدة للنقل بطريق البحر لمسافة قصيرة هينة يسيرة الى ميناء بيزنطة . وجد جمع غفير من العمال والصناع المهرة فى انجاز العمل ، ولكن قسطنطين القلق الذى نفذ صبره سرعان ما تبين أن مهارة مهندسية ووفرة عدهم ، ازاء انحطاط الفنون ، لن تتناسب قط مع عظمة تصميماته ، ولذلك صدرت التعليمات الى الحكام فى أقصى الولايات ، لانشاء المدارس وتعيين الأساتذة وأغراء العدد الكافى من الشبان النابغين الذين تلقوا تعليما متحررا ، بالأمل فى نيل الجوائز والامتيازات — اغرائهم بدراسة فن العمارة ، وأقيمت مباني المدينة الجديدة بجهود أولئك الصناع الذين أمكن توفيرهم فى عهد قسطنطين ، ولكن الزخارف التى ازدانت بها كانت من ابداع أشهر الأساتذة فى عهد بركليز والاسكندر ، والحق أن احياء عبقرية فيدياس Phidias وليبسيبوس Lysippus جاوزت قدرة العاهل الرومانى . ولكن النتائج الخالد الذى ورثوه للأجيال من بعدهم تعرض ، دون أن يجد من يحميه ، لغرور حاكم مستبد عصف به — فقد جردت بناء على أوامره ، مدن اليونان وآسيا من أثن نفائسها . ذلك أن الإنصاب التذكارية للحروب المشهورة ، والمعبودات الدينية ، وأروع تماثيل الآلهة والأبطال والحكام والشعراء ، فى العصور القديمة ، — كىل هذه أسهمت فى النصر المؤزر الذى أحرزته القسطنطينية ، وهيات فرصة لسؤرخ سدريينوس Cedrinus ليتحسس الى حد القول بأنه لم ينقص هذه الأشياء إلا أرواح عظماء الرجال الذين قدر لهذه الآثار البديعة أن تتلهم ، ولكننا يجب ألا نفتش عن روح هوميروس وروح ديمستين فى

مدينة قسطنطين ، ولا في عصر اضمحلال الإمبراطورية ، حيث أرقى العقل البشرى بالاستزقاق الدينى والمدنى .

ونصب الفاتح خيمته في أثناء حصار بيزنطة ، ، فوق التل الثانى على شرف من الأرض يسيطر على المكان كله . وتخليداً لذكرى هذا الموقع الممتاز ، اختاره ليكون الساحة الرئيسية Forum التى يبدو أنها كانت على شكل دائرى ، أو على الأرجح بيضوى . وكون المدخلان المتقابلان أقواس النصر . وامتلات الأروقة المحيطة بها من كل جانب بالتمائيل ، وأقيم وسط الساحة عمود ، توصم قطعة مشوهة منه الآن باسم « التمثال المحروق » أقيم على قاعدة من الرخام الأبيض على ارتفاع عشرين قدما ، وكان مكونا من عشر قطع من حجر طول كل منها نحو عشرة أقدام ومحيطها نحو ثلاثة وثلاثين قدما . ووضع على قمة العمود ، على ارتفاع مائة وعشرين قدما من الأرض ، تمثال أبولو الضخم وكان مصنوعا من البرونز ، وربما نقلوه من أثينا أو من إحدى المدن في فريجيا ، والمظنون أنه من صنع فيدياس . ومثل الفنان الهه النهار — أو كما نسر فيما بعد على أنه الإمبراطور قسطنطين نفسه — بالصولجان في يمينه ، والكرة الأرضية في يسراه ، وتاج من الأشعة يتألق فوق رأسه . أما السيرك ، أو ميدان السباق ، فكان بناء ضخما يبلغ طوله نحو أربعمئة خطوة وعرضه نحو مائة خطوة . وكانت المسافة فيه بين الحدين مليئة بالتمائيل والمسلات . وما تزال ترى حتى اليوم قطعة فريدة من الآثار ، تلك هى أجسام حيات ثلاث ملتفة حول عمود نحاسى . وكانت رعوسها الثلاثة تشكل حاملا ذهبيا ذا ثلاثة قوائم ، احتفظ به الاغريق المنتصرون وقدسوه فى معبد دلفى بعد هزيمة اجزرسييس ، ولكم شوهدت أيدي الفاتحين الأتراك الخشنه جمال ميدان السباق ، ولكنهم يسمونه حتى الآن « الميدان » ويستخدمونه لتدريب الخيل . ومن مكان العرش حيث كان الإمبراطور يجلس لمشاهدة ألعاب السيرك ، هبط سلم متعرج يؤدي الى القصر ، وهو بناء فخم ، لا يكاد يدانيه قصر الإمبراطور فى روما نفسها ، ويشغل مع الألفية والحدائق والأروقة الملحقه به رقعة كبيرة من الأرض على ضفاف بحر مرمره ، بين جلبه السباق وكنيسة آيا صوفيا . وإن ننس لا ننس الحمايات التى ظلت تحمل اسم زيوكسيس Zeuxippus بعد أن جعلتها أريحية قسطنطين وسخاؤه بالأعمدة السامقة ، وبمختلف أنواع الرخام وبأكثر من ستين تمثالا من البرونز . ولسوف نحيد عن منهج التاريخ إذا حاولنا أن نفصل القول فى وصف الأبنية أو الأحياء المختلفة فى هذه المدينة ، ومن ثم نجتزئ بالاشارة الى أن

القسطنطينية ضمت بين جدرانها كل ما يمكن أن يعطى من مكانة العاصمة ويزيد في عظمتها ، أو يحقق لسكانها الكثيرين نفعا أو يوفر لهم أسباب المتعة والسرور . وبعد قرن من تأسيسها ظهر في وصفها بصفة خاصة كتاب ذكر أنه كان فيها كابيترول أو مدرسة وسيرك ، ومسرحان . وثمانية حمامات عامة ، ومائة وثلاثة وخمسون حماما خاصا ، واثنان وخمسون رواقا ، وخمسة مخازن للغلال ، وثمانية خزانات للمياه ، وأربع قاعات فسحة لاجتماعات السناتو ، أو محاكم القضاء ، وأربع عشرة كنيسة ، وأربعة عشر قصرا ، وأربعة آلاف وثلثمائة وثمانية وثمانون بيتا ، تستحق أن تفرد بمساحتها وجمالها عن مجموعة مساكن العامة .

وكانت المسألة الثانية بل أم المسائل التي تشغل بال الإمبراطور في مدينته الحبيبة الأثيرة لديه ، هي اكتظاظها بالسكان . ففي العصور المظلمة التي أعقبت نقل الإمبراطورية شوه غرور الاغريق وسذاجة اللاتين النتائج البعيدة والمباشرة لهذا الحادث المشهود الخالد تشويها غريبا ، فذكروا وصدقوا أن كل الأسرات النبيلة في روما ، والسناتو ، وكبار رجال الجيش ، مع أتباعهم الذين لا يحصى عددهم ، قد لحقوا بإمبراطورهم الى شواطئ بحر مرمره ، وترك جنس زائف من الغرباء والعامة لينفرد بوحشة العاصمة القديمة التي هجرها أصحابها ، وأن أرض ايطاليا التي تحولت منذ أمد بعيد الى جنات عالية ، أقفرت من أهلها وزرعها . وليسوف نعهد في هذا الكتاب الى رد هذه المبالغات الى قيمتها الحقيقية ، على أنه لما كان من المتعذر أن ينسب نمو القسطنطينية الى التزايد العادى فى السكان أو فى الصناعة ، فإنه لا بد فى هذه الحالة من التسليم بأن هذه المدينة التى أقيمت ، إنما قامت على حساب المدن القديمة فى الإمبراطورية . ومن المحتمل أن قسطنطين قد دعا كثيرا من أعضاء السناتو الموسرين من روما والولايات الشرقية الى الإقامة فى البقعة الطيبة التى اختارها لتكون مقرا له . وقلنا يمكن التفريق بين دعوة الحاكم وبين أوامره ، ومن ثم قبول على الفور كرم الإمبراطور بالطاعة المقرونة بالابتهاج . وأنعم هو على خلائه المقربين بالقصور التى كان قد شيدها فى مختلف أحياء المدينة . وخصص لهم الأراضى وأجرى عليهم الرواتب التى تحفظ لهم مكانتهم ، وتنازل عن أملاكه فى بنطس وآسيا ، ليقطعهم ضياعا وراثية بشرط سهل للملكية ، وهو الإقامة فى العاصمة . ولكن هذه المغريات والالتزامات قد تجاوزت الحد المعقول ، وقد ألفت شيئا فشيئا ، وحيثما يكن مقر الحكومة ، ينفق الأمير نفسه ، ووزراؤه ، وقضاته وموظفو قصره جزءا كبيرا من الدخل



العام ، وتجذب أقوى بواعث المصلحة والواجب ، واللهم والفضول ،  
أنظار أغنى سكان الولايات . وهناك - الى جانب هؤلاء وهؤلاء ،  
طبقة ثالثة هي أكثر عددا ، تتكون بطريقة غير محسوسة ، قوامها  
الخدم والصناع والتجار الذين يكسبون عيشهم بعرق جبينهم ، عن  
طريق احتياجات الطبقات العالية أو ترفها . ومن هنا نجد القسطنطينية  
استطاعت في أقل من قرن من الزمان ، أن تنافس روما في التفوق في  
الثراء وعدد السكان . واكتظت بالمباني الجديدة المتلاصقة دون رعاية  
للصحة أو لوسائل الراحة ، مما لم يسمح الا بالقليل من الشوارع  
الضيقة لمرور الأفواج المتلاحقة من الناس والدواب والعربات . ولم  
تكن المساحة المحددة من الأرض كافية لاستيعاب الشعب المتزايد ،  
بل ان الأبنية الإضافية التي امتدت على الجانبين الى البحر كان يمكن  
وجدها أن تشكل مدينة كبيرة قائمة بذاتها .

ان توزيع الخمر والزيت والغلل أو الخبز ، والفنود أو المؤن ،  
توزيعا مستمرا منتظما ، كاد أن يخلص المواطنين المعوزين في روما من  
عبء الحاجة الى الكدح ، وظل مؤسس القسطنطينية يحسب بذخ  
القياصرة الى حد ما ، ولكن كرمه مهما حظى بالديح والإطراء من شعبه ،  
جلب عليه لوم الأجيال التي جاءت بعده . فان أمة من المشرعين  
والفزاة قد تؤكد دعواها في الحصول على محصولات أفريقية التي  
اشتروها بالدماء . وكان أوغسطس يقول في دهاء ان الرومان ، وهم  
يتمرغون في الرخاء والوفرة ، يجدر بهم أن يتخلوا عن ذكرى الحرية .  
ولكن تبذير قسطنطين لم يكن ليغتنر لاية اعتبارات من المصلحة العامة  
أو الخاصة ، فان جزية الغلال التي فرضت على مصر من أجل عاصمته  
الجديدة استنفدت في اطعام أناس كسالى مفلسين على حساب المزارعين  
في ولاية جادة عاملة . ولهذا الامبراطور ، الى جانب ذلك ، تنظيمات  
أقل عرضة للوم ، ولكنها كذلك أقل جدارة بالاهتمام . وقسم  
القسطنطينية الى أربعة عشر قسما أو حيا ، وكرم المجلس العام بأن  
أطلق عليه اسم السناتو ، وأضفى على المواطنين امتيازات ايطاليا ،  
وأسبغ على المدينة الناشئة لقب « مستعمرة » ، أولى بنات روما  
القديمة وأكثرهن حظوة . وظلت الأم الوقور تحتفظ بالتفوق المشروع  
المعترف به ، اللائق بما حملت فوق ظهرها من السنين ، وبمكائنها  
وبذكرى عظمتها السابقة .

## تدشين القسطنطينية

وكان قسطنطين يستحث انجاز العمل بصبر نافذ وكأنه عاشق ولهان ، فأقيمت الأسوار والأروقة والأبنية الرئيسية في بضعة سنين قلائل ، وفي رواية أخرى في بضعة شهور قلائل ، ولكن هذا النشاط الخارق لا بد أن يستثير أقل قدر من الإعجاب ، لأن كثيرا من المباني تم بطريقة معينة متعجلة ، الى درجة أن خلف قسطنطين وجد صعوبة في حمايتها من التصدع المحقق بها . ولكن بينما كانت تظهر حيوية الشباب ونضارته ، كان المؤسس يستعد للاحتفال بتدشين مدينته . ومن السهولة بمكان أن تتخيل الألعاب والمنح والهبات التي توجت أبهة هذا الاحتفال المشهود ، ولكن ثمة ناحية ذات طبيعة أكثر تفردا وخلودا ، لا ينبغي اغفالها قط ، تلك أنه كلما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة ، أقيم على عربة من عربات النصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه ، من الخشب الموه بالذهب ، حاملا بيده اليمنى رمزا لعبقرية المكان ، ومواكب الحراس حاملين شموعا بيضاء مرتدين أثمان الثياب ، الموكب المهيب وهو يسير عبر حلبة السباق ، حتى اذا صار في مواجهة العرش الذي يجلس عليه الامبراطور الحاكم ، نهض هذا من مقعده ، ومجد في اجلال وامتنان ذكرى سلفه . ونقش في يوم الاحتفال بالتدشين على عمود من الرخام مرسوم امبراطوري يخلع اسم « روما الثانية أو الجديدة » على مدينة القسطنطينية ، ولكن اسم القسطنطينية فاق هذه التسمية الكريمة . وما يزال ، بعد ثورة اربعة عشر قرنا ، يخلد شهرة منشئها .

## نظام الحكومة الجديد

وطبيعي أن يرتبط تأسيس عاصمة جديدة بانشاء نظام جديد في الادارة المدنية والعسكرية . ان النظرة الغامضة الى النظام السياسي المعقد الذي أدخله دقلديانوس وهذبه قسطنطين ، وأكملة خلفاؤه المباثرون ، مثل هذه النظرة لن يتسلى فيها الخيال بالوقوع على صورة فريدة لامبراطورية عظيمة فحسب ، ولكنها الى جانب هذا تتجه الى توضيح الأسباب الخفية والداخلية لاضمحلالها السريع . وكثيرا ما يقودنا تتبع أى نظام مشهور الى أقدم عصور التاريخ الروماني واحداثها . ولكن النطاق المعقول لهذا البحث ينحصر في مدى نحو مائة وثلاثين عاما ، ابتداء من حكم قسطنطين الى نشر قوانين تيودوسيوس ،

وهي التي نستقى منها ، كما نستقى من « سجلات الشرق والغرب » ( نوتيشيا Notitia ) أغزر المعلومات وأصدقها عن حالة الامبراطورية وستعوق مثل هذه الأشياء مجرى الكلام لبعض الوقت ، ولكن إن يعيب علينا هذا الانقطاع إلا القراء الذين لا يستشعرون أهمية القسوانين والسلوك ، على حين يتلهف فضولهم على دسائس البلاط العابرة أو احتدام معركة عارضة .

واعتر الرومان اعتزازا كريما بالسلطة الفعلية ، وتركوا لغرور الشرق مجال التباهى والظهور بمظهر العظمة ، ولكنهم لما فقدوا حتى مجرد صور الفضائل التي تبعث من حريتهم القديمة ، تلوثت بطريقة غير ملحوظة ، بساطة سلوكهم بالأبهة المصطنعة في بلاط آسيا . فان امتيازات الكفاية الشخصية والتأثير الشخصي ، تلك التي تبرز في أية جمهورية ، على حين أنها قد تكون ضعيفة غامضة في أية ملكية ، قضى عليها ، استبداد الأباطرة الذين استبدلوا بها ادلالا عاتيا لكل ذي مكانة أو منصب ، من العبيد الذين أضفيت عليهم الألقاب . ووضعوا على عتبات العرش ، الى أحقر أدوات السلطة المطلقة . واهتم هذا الحشد الكبير من سفلة الأتباع بتدعيم الحكومة الفعلية القائمة خشية نشوب ثورة تطوح بآمالهم ، وتحول بينهم وبين ما يرقبون من جزاء لقاء خدماتهم . ففي مثل هذه الحكومة الالهية ( وهكذا كانوا يسمونها ) تحددت كل مرتبة بأكبر قدر من التأنق والدقة ، وأبرزت عظمتها بمختلف المراسم التافهة الهيبة ، التي كان التمسك بها عملية شاقة ، والتي كان اهمالها تدنيسا وانتهاكا . وانحطت نقاوة اللغة اللاتينية لأنهم اقتبسوا ، في غمرة الزهو والملق ، فيضا من حثالة الألفاظ التي كان يتعذر على شيشرون فهمها ، والتي كان لا بد أن يأبأها أوغسطس في احتقار . وكان الملك نفسه يخاطب أصحاب الوظائف الرئيسية في الامبراطورية بالالقب الخداعة الخلابة كأن يقول للمواحد منهم : يا صاحب الاخلاص ، يا صاحب الهيبة ، يا صاحب السعادة ، يا صاحب السمو ، يا صاحب الأهمية العالية العجيبة ، يا صاحب العظمة السنوية الوقورة . وزوقت تزويضا عجيبا براءات ووظائفهم بشعارات منتقاة أحسن انتقاء لتوضيح طبيعتها ورفع شأنها ، ومن هذه الشعارات صورة الامبراطور الحاكم ، وعربة نصر ، وسجل الأوامر موضوعا على منضدة مغطاة بمفرش ثمين تخفق حوله أربع شمعات مضاءة ، والصور الرمزية للولايات التي حكموها ، أو أسماء وأعلام الفرق التي تولوا قيادتها . وكانت بعض هذه الشعارات الرسمية تعرض فعلا في قاعات استقبالهم ، وبعضها يتقدم مسيرتهم المحوطة بالأبهة والجلال أنى ظهوروا في احتفال أو مكان

عام . وصفوة القول انهم جمعوا في سلوكهم وفي أرديتهم في أرسيتهم وجليهم وفي ركابهم كل ما يوحى بالاجلال والاكبار لمثلى صاحب الجلالة وهكذا كان الجائز أن يخطيء مراقب حكيم ، نظام الحكومة الرومانية فيحسبه مسرحا فخما يعجج بممثلين من مختلف الشخصيات والدرجات ، يرددون الفاظ نموذجهم الأصلي ( أى الامبراطور ) ، ويحاكون شهواته ونزواته .

وكان الموظفون الذين تؤهلهم وظائفهم ليكونوا في عداد الهيئة العامة الحاكمة فى الامبراطورية يندرجون تحت ثلاث فئات متميزة : الأولى البارزون Illustrious والثانية المجلون Respectable والثالثة المؤثرون Honourable . وفى عهد البسطة الرومانية كان هذا اللفظ الأخير بمثابة تعبير غامض عن الرعاية أو التكريم ، حتى اصبح آخر الأمر لقباً معيناً مخصصاً لأعضاء السناتو ، ثم بعد ذلك لمن اختير من هذا المجلس المؤثر لحكومة الأقاليم . أما أولئك الذين كانوا يزعمون لأنفسهم - بحكم مراتبهم ووظائفهم - امتيازاً يسمو بهم على سائر هيئة السناتو ، فقد أطلق عليهم تسامحاً فيما بعد ذلك بوقت طويل لقب « المجلون » أما لقب « البارزون » فقد احتفظ به دائماً للشخصيات الرفيعة الشأن الذين كانوا موضع احترام الطائفتين الثانية والثالثة وطاعتها . وكان يطلق فقط على ( ١ ) القناصل والنبلاء ( البطارقة ) . (ب) رؤساء الحرس البريتورى والوالى فى كل من روما والقسدانطينية . (ج) والقائد السام لكل من الفرسان والمشاة . (د) نظار القصر السبعة الذين مارسوا مهامهم المقدسة الى جوار شخص الامبراطور . ولم يكن لأسبقية التعيين أى اعتبار طالما تماثلت الوظائف . وعمد الأباطرة الذين أرادوا الاكثار من خلصائهم المقربين ، الى منح البراءات الشرفية كوسيلة لارضاء فرور رجال البلاط القلقين ، ولو لم يحققوا اطماعهم .

### القناصل والبطارقة ( النبلاء )

كان القناصل الرومان ، وهم الحكام الأول فى دولة حرة ، يستمدون حقهم فى السلطة من اختيار الشعب لهم . وظل القناصل ينتخبون بالانتراع العام الحقيقى أو الشكلى فى السناتو ، طالما تفضل الأباطرة باخفاء الاستبعاد الذى فرضوه من وراء قناع . ولقد ألغيت منذ عهد دقلديانوس تلك الملامح الباهتة للحرية . وتظاهر المرشحون الناجحون الذين كانوا يفوزون بشرف الوظائف القنصلية علماً بعد عام ، بأنهم

يرثون لهاوى الاذلال التى تردى فيها أسلافهم . فقد بلغ الهوان بأسرتى  
سكيبو وكاتو أنهم يلتمسون أصوات العامة ، ويعانون من طريقة  
الانتخابات الشعبية المملة الباهظة التكاليف ، ويعرضون كرامتهم للخزى  
والعار إذا حبس الشعب أصواته عنهم ، على حين استبقاهم حظهم  
الأسعد لعهد وحكومة كانت فيها حكمة الإمبراطور السعوف الرحيم  
المعصوم من الخطأ هى التى تحدد مكافأة الميزات والفضائل . وقد أعلن  
الإمبراطور صراحة فى الرسائل التى وجهها الى القنصلين المنتخبين ،  
أنهما من صنع سلطانه ويده هو وحده . وصنعت لوحات مذهبة من  
العاج نقش عليها اسمها وصورتاها ، ووزعت على الإمبراطورية  
هدية الى الولايات والمدن والحكام والسناو والشعب . وجرى الاحتفال  
المهيّب بتنصيبهما فى القصر الإمبراطورى . وحرمت روما لمدة  
مائة وعشرين عاما من حكامها القدامى . وفى صباح اليوم الأول من  
يناير كان القناصل يتسلمون شعارات مناصبهم . وكان لباسهم عبارة  
عن رداء أرجوانى موشى بالحرير والذهب ، محلى أحيانا ببعض  
الجواهر الثمينة . وكان يسير فى ركابهم فى هذه المناسبة المهيبه كبار  
موظفى الدولة ورجال الجيش فى زى أعضاء السناو ويتقدمهم ضباط  
يحملون شعارات هى عبارة عن قضبان محزومة على بلطة ،  
وكانت هذه يوما مخيفة مروعة . وكان الموكب يسير من القصر الى  
الساحة أو الميدان الرئيسى فى المدينة حيث يصعد القنصل الى مقره  
ويجلس فى مقعده الفاخر المثلث القوائم المصنوع على الطراز القديم ،  
ومن ثم يمارس على الفور عملا من اختصاصاته ، وهو أن يعثق عبدا  
كان يمثل أمامه لهذا الغرض ، وهذا لون من الطقوس قصد به تمثيل  
عمل برونس الأكبر المشهود منشىء الحرية ، ومنشىء وظيفة القنصل ،  
حين أدخل فى عداد مواطنيه فندكس الأمين Vindex الذى كشف مؤامرة  
أسرة تاركوين . واستمرت الاحتفالات العامة لعدة أيام فى جميع المدن  
الرئيسية : بحكم العرف والعادة فى روما ، والتقليد والمحاكاة فى  
القسنطينية ، وحبا فى المسرات والبهجة ونظرا لوفرة الغنى والثراء فى  
قرطاجة وانطاكية والاسكندرية . وبلغت تكاليف ألعاب المسرح والسيرك  
والدرج فى عاصمتى الإمبراطورية أربعة آلاف رطل من الذهب ، أى  
نحو مائة وستين ألف جنيه استرلينى ، فإذا تجاوزت هذه النفقات  
الباهظة قدرة الحكام أو حدود مشيئتهم دفع المبلغ من الخزائنة  
الإمبراطورية . وإذا فرغ القناصل من هذه الواجبات التقليدية المعتادة  
اضحوا أحرارا فى الركون الى ظل حياة خاصة لينعموا طوال بقية العام  
بأن يسرحوا الطرف فيما يحف بهم من عظمة وجلال ، دون أن يعكس  
عليهم أحد صفوفهم ، فلم يعودوا يرأسون المجالس الوطنية أو يقررون

الحرب والسلام ، ولم يكن لخواصهم وقدراتهم كبير قيمة ( إلا إذا شغلوا وظائف أكثر فعالية ) ، ولم يكن لأسمائهم من فائدة إلا في تحديد الموعد القانوني للسنة التي كانوا قد ملأوا فيها الكرسي الذي كان يشغله ماريوس وشيشرون . على أنه ظل من الأمور المحسوسة المعترف بها في أواخر عهد الاستعباد الروماني أن هذا اللقب الأجوف قد يقارن بالاستحواذ على السلطة الفعلية ، بل قد يفضل عليه . فقد ظل لقب القنصل محط الأنظار وهدف الأطماع وأوفى جزاء للسيرة الحسنة والاخلاص ، بل أن الأباطرة أنفسهم — أولئك الذين احتقروا الظلال الباهتة للجمهورية — كانوا يدركون كل الإدراك أنهم إنما يحظون بمزيد من الجلال والعظمة حين يفوزون كل عام بأمجاد منصب القنصل .

ولا يمكن أن يوجد في أى عصر أو بلد تفريق أدق وأكثر زهوا بين النبلاء والشعب ، من هذا التفريق الذى كان قائما بين النبلاء والعبادة في أول عصور الجمهورية الرومانية ، حيث كانت الثروة والأمجاد ووظائف الدولة والطبوس الدينية تكاد تكون مقصورة قصرا تماما على الأولين الذين احتفظوا بنقاوة دمائهم بأشد الحقد المسىء ، وبذلك أبقوا أتباعهم في حالة من الاسترقاق الخداع . ولكن التريونات قضوا بجهودهم المتواصلة ، وبعد صراع طويل ، على هذه الفوارق التى لا تتناسب مع روح شعب حر . فتجمع أفراد العامة ( البلبيان ) الذين أوتوا أكبر قدر من النشاط والتوفيق والثروات ، وتطلعوا الى الأمجاد وكانوا جديرين بالنصر وعقدوا الزيجات ، وبعد بضعة أجيال حاكوا النبلاء فى خيلائهم وفخارهم — أما أسرات النبلاء ، من جهة أخرى تلك التى لم يحص عددها حتى نهاية عصر الجمهورية والتى اخفقت فى المجال العادى للحياة الطبيعية ، أو أبيدت فى الحروب الخارجية والداخلية الكثيرة ، أو بسبب افتقارها الى الموهبة والحظ ، فانها امتزجت ، دون أن تشعر بجمهرة الشعب ، وبقي منها عدد قليل جدا يمكن أن يرجع بعرقه النقى الأصيل الى نشأة مدينة روما أو حتى الى نشأة الجمهورية ، حين خلق قيصر وأوغسطس وكلوديوس وفسبازيان من هيئة السناتو عددا كافيا من أسرات بطاركة جديدة ، يحدهم الأمل فى تثبيت نظام ظلوا يعتبرونه شرفا مقدسا ، ولكن سرعان ما اكتسح بطش الطفافة ، والثورات الكثيرة ، وتبدل السلوك واختلاط الأمم — اكتسح هذه الأسرات المصنوعة ( التى كان البيت الحاكم فى عدادها دائما ) . ولم يبق من ذلك عند اعتلاء قسطنطين العرش ، سوى تقليد غامض مشوه يقول بأن النبلاء هم أوائل الرومان . وكان من الجائز ألا يلتئم مع شخصية قسطنطين وسياسته ، تكوين هيئة من

النبلاء يكون لها من تأثيرها ونفوذها ما يقيد سلطة الملك ويعززها في نفس الوقت ، ولكن لو أنه تبنى جديا مثل هذه الخطة ، لما كان في مكنه ، بجرة قلم أو بأمر عال حاسم ، أن يقر نظاما لابد لترسيخه من عامل الزمن وتهيئة الأفكار . والواقع أنه أحيأ لقب « البطاركة » ( أى النبلاء ) ولكنه أحيأه بوصفه امتيازاً شخصياً لا لقباً وراثياً ، ولم يسبقهم في علو المنزلة الا القناصل الذين اقترنت مناصبهم السنوية بهذا التفوق العابر ، ولكن البطاركة فيها عدا ذلك سموا فوق جميع كبار الموظفين في الدولة ، ولم يكن بينهم وبين شخص الأمير حجاب قط . وكانوا يمنحون هذه المنزلة الرفيعة لدى الحياة . ولما كانوا عادة من المقربين ، ومن الوزراء الذين بلغوا أرذل العمر في البلاط الامبراطورى ، فقد فسد الاشتقاق أو الأصل الحقيقي للكلمة بفعل الجهل والرياء ، وحظى بطاركة القسطنطينية بالاجلال والاحترام على أنهم « الآباء » المختارون للامبراطور وللدولة .

#### رؤساء الحرس • البروقنصل • الحكام

كانت حظوظ رؤساء الحرس Prefect تختلف اختلافا جوهريا عن حظوظ القناصل والبطاركة . فقد رأى البطاركة عظمتهم القديمة تذوب في لقب عقيم ، أما القناصل الذين صعدوا شيئا فشيئا من أدنى درجات السلم ، فقد عهد اليهم بالادارة الفنية والعسكرية في العالم الرومانى ، فمنذ عهد سيفيروس الى عهد دقلديانوس ، وضع الحرس والقصر ، والقوانين والأموال ، والجيوش والولايات تحت اشرافهم ورعايتهم ، فأمسكوا بيد خاتم الامبراطورية وباليد الأخرى علمها ، شأنهم في ذلك شأن وزراء الشرق . وكانت فرق الحرس البريتورى تعزز طمع رؤسائهم ، الذى كان تارة مخيفا وتارة مميتا ، بالنسبة للسادة الذين هم في خدمتهم . ولكن لما أضعف دقلديانوس شوكة هذه الفرق المتفطرسة . وقضى عليها قسطنطين قضاء مبرما ، انحط من بقى من قوادهم ، دون صعوبة ، الى مرتبة الحكام المدنيين النافعين المطيعين . ولما لم يعودوا مسئولين عن سلامة شخص الامبراطور ، تخلوا عن الولاية أو السلطة التى كانوا قد ادعوها ومارسوها ، حتى ذلك الوقت ، على كل ادارات القصر واقسامه . وحرّمهم قسطنطين من القيادة العسكرية حالما انقطعوا عن قيادة زهرة القوات الرومانية الى الميدان بناء على أوامره الخاصة ، وفي نهاية الأمر حول قواد الحرس ، نتيجة ثورة فريدة في بابها الى حكام مدنيين في الولايات .

وطبقا لخطة الحكم التي وضعها دقلديانوس ، كان لكل واحد من الأبراء الأربعة رئيس لحرسه البريتورى . ولما اتحدت الملكية مرة أخرى فى شخص قسطنطين ، ظل متمسكا بعدد رؤساء الحرس الأربعة ووكل الى كل منهم أمر الولايات التى كانوا يعملون فيها . (أ) رئيس الشرق ، وامتد اختصاصه على ثلاثة أجزاء المعمورة التى كانت خاضعة للرومان من شلالات النيل الى ضفاف فاسيس . ومن جبال تراقيا الى حدود فارس . (ب) وأقرت الولايات الهامة : بانونيا ، وداشيا ومقدونيا واليونان يوما بسلطان رئيس الحرس فى الليريكوم . (ج) ولم يقتصر سلطان رئيس الحرس فى ايطاليا على حدود البلد الذى اشتق منه لقبه ، بل امتد الى راشيا حتى ضفاف الدانوب وعلى الجزر التابعة فى البحر المتوسط ، وذلك الجزء من أفريقية الواقع بين مشارف برقة وحدود تنجيتانيا Tingitania . (د) أما رئيس حرس الغال ، فقد ضم تحت هذا الاسم الجامع الولايات المجاورة ، بريطانيا وأسبانيا ، ودان لسلطانه الجزء الممتد من سور انطونينوس ( فى اسكلنده ) الى سفح جبال اطلس .

ولما أبعد القواد البريتوريون عن القيادة العسكرية بأسرها ، كانت المهام التى قدر لهم أن يتولوها فى الأمم الخاضعة تتلاءم مع مطالب أقدر الموظفين ومواهبهم . فقد عهد الى حكمتهم بمهمتين ساهمتين القضاء والمال ، وهما الموضوعان اللذان يستندان ، وقت السلم ، جهود الملك والشعب . ففى الأولى ، أى القضاء يحمون المواطنين الذين يخضعون للقانون ، وفى الثانية يجمعون من أموالهم القدر اللازم لمساهمتهم فى نفقات الدولة . وكان هؤلاء الرؤساء البريتوريون بفضل سلطانهم يوفرون العملة والطرق والبريد ومخازن الغلال والصناعات وغير ذلك مما يحقق الرخاء العام . وخول لهم بوصفهم ممثلين للجلالة الامبراطورية أن يفسروا وينفذوا ، وفى بعض الأحيان يعدلوا ، المراسيم العامة ، بما يصدر من بلاغات أو اعلانات وفق مقتضيات الظروف . كما اعترفوا على سلوك حكام الولايات فعزلوا منهم المهملين وعاقبوا المذنبين ، وكان يستأنف امام محكمة الرئيس البريتورى كل قضية ذات أهمية ، مدنية كانت أو جنائية من اختصاص الهيئات الداخلة فى دائرة ولايته الشرعية . وكان حكمه نهائيا حاسما ، بل ان الإبطرة أنفسهم أبوا أن يقبلوا أية شكوى ضد حكم أو نزاهة هؤلاء القضاة الذين كرموهم بمثل هذه الثقة غير المحدودة . وكانت مخصصاته متناسبة مع مكانته ، أما اذا تولاه الجشع ، فما أكثر ما استمتع بالفرص لابتزاز حسيلة طيبة من الرسوم والهدايا والمبالغ الإضافية ! . وعلى الرغم من



أن الأباطرة لم يعودوا يخشون طمع هؤلاء الرؤساء البريتوريين ، فانهم حرصوا على إيجاد شيء من التوازن لمواجهة قوة هذا المنصب العظيم ، عن طريق عدم التثبيت من مدة شغله وقصر هذه المدة .

واستثنيت روما والقسطنطينية وحدهما لخطورة أهميتهما ومكانتهما من ولاية الرؤساء البريتوريين . لقد هيا اتساع مدينة روما ، وتجربة التعويق والاهمال العقيم للقوانين ، هيات الفرصة أمام سياسة أوغسطس ليجد تبريرا مموها لتعيين حاكم جديد يمكنه وحده أن يكبح جماح جمهور ذليل مشاغب بيد من حديد . فعين فالريوس مسالا Messala أول رئيس بريتورى لروما لعل حسن سمعته يمكنه من اتخاذ هذا الاجراء المثير للبغضاء . ولكن المواطن المهذب اعتزل منصبه ، ولما ييض عليه فيه سوى أيام قلائل ، معلنا ، بروح جديرة بصدق بروئس ، أنه وجد نفسه عاجزا عن ممارسة سلطة لا تلتئم مع الحرية العامة . ولما بات معنى الحرية أقل روعة ، انضحت مزايا النظام بشكل أكثر جلاء وسمح للرئيس البريتورى ، الذى بدا أنه خصص ليكون أداة ارهاب للعبيد والمتشردين — سمح له أن يبسط ولايته فى الأمور المدنية والجنائية على أسرات الفرسان والنبلاء فى روما . ولم يكد البريتوريون الذين يمينون سنويا لمنصب القضاء والانصاف يستطيعون أن ينازعوا على ملكية الساحة ومركز القضاء Forum قاضيا دائم اليقظة حظى عادة بثقة الأمير . ومن ثم هجرت محاكمهم ، وهبط بالتدرج عددهم الذى تراوح يوما بين اثنى عشر وثمانية ، الى اثنين أو ثلاثة ، وانحصرت وظائفهم الهامة فى التزام باهظ النفقات ، هو عرض الألعاب لتسلية الشعب . وبعد أن تحولت وظيفة القناصل الرومان الى مجرد تمثيلية من التقاليد الماضية قلما تعرض فى العاصمة ، احتل الرؤساء البريتوريون أماكنهم الشاغرة فى السناتو ، وسرعان ما اعترف لهم بأنهم الرؤساء الطبيعيون فى هذا المجلس الموقر . وتلقوا طلبات الاستئناف من مسافة مائة ميل . وأصبح من مبادئ الفقه المسلم بها أن كل السلطة البلدية تتبع منهم وحدهم . وكان يعاون محافظ روما فى مهمته الشاقة خمسة عشر موظفا ، كان بعضهم نظراء له من قبل ، بل منهم من كانوا رؤساءه . وكانت كل الادارات الرئيسية تتناسب مع مقتضيات الاشراف على المرافق المتعددة مثل مكافحة الحرائق والسرققات والحوادث الليلية وحجز المخصصات العامة من الغلال وتوزيعها ، وتعهيد الميناء وخزانات المياه ، والمجارى العامة ، ومراقبة الملاحة فى التير ، وتطهير قاع النهر ، والتنقيش على الأسواق والمسارح ، والأشغال العامة

والخاصة . والواقع أن يقطعتهم كانت تنتظم الأهداف الثلاثة لاية شرطة نظامية : الأمن ، الرخاء ، والنظافة . ثم بعد ذلك المحافظة على أبهة العاصمة وزينتها كدليل على سهر الحكومة وعنايتها . وقد عين مفتش خاص للتماثيل ، وكأنى به حارس على عالم الجماد ، أو هؤلاء الموتى الذين لا يكاد يقل عددهم عن السكان الأحياء في روما ، كما قال أحد الكتاب مبالغا في تقدير عددها . وبعد ثلاثين عاما من تأسيس القسطنطينية عين للمدينة الناشئة محافظ شبيه بهذا الذى كان في روما ، لنفس الأغراض وبمثل هذه الصلاحيات ، وسوى في المرتبة بين المحافظ ( رئيس البلدية ) وبين الرؤساء البريتوريين .

وشكل الذين يتميزون في سلم الوظائف الامبراطورية بلقب « المجلين » ، طبقة وسطا بين الولاة « البارزين » وحكام الولايات « الموقرين » . وكان للبروقنصل في آسيا وآخيا ( ولاية اغريقية ) وأغريقية مركز ممتاز في هذه الطبقة ، وهو مركز منح بفضل ذكرى مكانتهم السابقة ، وكان استئناف أحكامهم الى محاكم الولاة البريتوريين هو الرمز الوحيد لتبعيتهم أو عدم استقلالهم . وانقسمت الحكومة المدنية في الامبراطورية الى ثلاث عشرة وحدة ادارية كبيرة كانت كل منها تعادل في الحقيقة مساحة مملكة قوية ، وكانت أولى هذه الوحدات من اختصاص حاكم ( كونت Count ) الشرق . ويمكن أن نكون فكرة عن خطورة شأن مهامه وتنوعها اذا لاحظنا أن ستمائة من العاملين الذين يمكن أن نسميهم اليوم سكرتارية أو كتبة أو حجبا أو حملة الرسائل ، كانوا يعملون في مكتبه . ولم يعد منصب « السوالى الامبراطورى » على مصر يشغل بأى فارس رومانى ، ولكن احتفظ بالاسم فقط ، أما السلطات غير العادية التى كانت يوما ما ، التى جعل منها مركز مصر وطباع اهليها ضرورة حتمية ، فقد ظلت في يد المحافظ . أما الوحدات الاحدى عشرة الباقية : آسيانا ، وبونتيكا وتراقيا ، ثم مقدونيا وداششيا وبانونيا ، أو الليريكوم الغربية ، ثم ايطاليا وأفريقية ، ثم الغال واسبانيا وبريطانيا - فكان فى كل منها نائب للسوالى ، وقد يكفى الاسم لتوضيح طبيعة الوظيفة وتبعيتها أو ارتباطها بغيرها . ويمكن القول بأن نواب قواد الجيش الرومانية ، والكونتات Counts والأدواق العسكريين الذين سيرد ذكرهم فيما بعد - كانوا كذلك يتمتعون بمكانة ولقب « المجلين » .

ولما طفت روح الحق والتباهى على مجالس الأباطرة ، ثابروا في شغف زائد على توزيع السلطة ومضاعفة عدد القابها . ومزقت شر

ممزق ، بطريقة غير محسوسة ، تلك الأقطار الكبيرة التي كان الفاتحون الرومان قد وحدوها في ظل شكل بسيط واحد من أشكال الحكم ، حتى انقسمت الامبراطورية آخر الأمر الى مائة وست عشرة ولاية ، ناعت كل منها بعبء جهاز ادارى باهظ النفقة بهى المنظر ، تختلف القاب من يتولون الحكم فيها : ففي ثلاث منها كان لقبه « البروقنصل » . وفي سبع وثلاثين كان « القنصل » . وفي خميس كان يدعى « كركتور Corrector » ( وهو طراز من الموظفين كان يتولى الحكم في المدن الحرة نشأ لأول مرة في عهد أوغسطس ) . وفي احدى وسبعين ولاية كان يدعى « الرئيس » وهكذا تعددت تسميات هؤلاء الحكام ، وتدرجت مراتبهم بعضها فوق بعض ، كما اختلفت شعارات هذه المراتب بشكل غريب ، ولم تكن حظوظهم على قدر سواء ، في الارتياح الى هذه المراكز أو الانتفاع بها ، بل تارجح هذا وذاك صعودا وهبوطا تبعا للظروف الطارئة ، ولكنهم كانوا جميعا ( باستثناء البروقنصل ) يندرجون تحت طبقة « الموقرين » ، وعهد اليهم جميعا — في حالة رضا الأمير وتحت سلطة الولاية أو نوابهم ( أو بتفويض منهم ) — بشئون القضاء والمال ، كل في نطاق اختصاصه . وان المجلدات الضخمة للتشريعات والفتاوى لتزود الباحث المدقق بمادة غزيرة عن نظام الحكم في الولايات ذلك النظام الذي تناولته بالتهذيب والتفحيط على مدى ستة قرون أيدي رجال السياسة والقانون من الرومان . وقد يكتفى المؤرخ بنصين فريدين نافعين قصد بهما الحد من سوء استغلال السلطة :

١ — تسلح حكام الولايات بسيف العدالة من أجل المحافظة على الأمن والنظام ، وانزلوا العقوبات البدنية ، وحكموا بالاعدام في الجرائم الكبرى ، لكن لم يكن من حقهم أن يسمحوا للمحكوم عليه باختيار الطريقة التي ينفذ بها الحكم أو بصدور الحكم بالنفى مهما كان الحكم خفيفا أو مشرفا . فقد احتفظ بهذه الامتيازات للوالي الذي كان له وحده أن يفرض غرامة ثقيلة قدرها خمسون جنيها ذهابا ، أما نائبه فقد انحصر في فرض غرامة يسيرة لا تتعدو بضع أوقيات من الذهب . وكان هذا التفريق — الذي يبدو أنه يخول القدر الأكبر من السلطة ، على حين ينكر القدر الأيسر منها — مبنيا على أساس معقول ، ذلك أن هذا القدر الأيسر على التحقيق ، أكثر عرضة لسوء الاستغلال ، فكثيرا ما سولت الأهواء لحاكم الولاية ارتكاب المظالم التي تصيب الرعايا في حريتهم وفي أرزاقهم ، على حين يدخله الرعب ، بدافع الروية أو الانسانية ، من احتمال وزر الدم البريء . كذلك يمكن اعتبار النفى ،

أو الغرامات الكبيرة أو الميثة السهلة ، تتصلن أكثر ما تتصلن ، بصفة خاصة بالأغنياء والنبلاء ، وبهذه الطريقة أو بحكم هذا النص ، ينقذ من الاضطهاد الخفى لحاكم الولاية أولئك الأشخاص الذين هم أكثر عرضة لجشعه أو سخطه ، وينتقل التصرف في شأنهم الى محكمة أكثر مهابة وتجردا هي محكمة الوالى البريتورى .

٢ - وكانوا يخشون ، وحق لهم ان يخشوا ، أن تنحرف بالقاضى عن جادة النزاهة ومصالحته أو ميوله ، ولهذا صدرت التعليمات المشددة ، باستبعاد أى موظف من حكومة الولايات التى ولد فيها ، دون اجازة خاصة من الامبراطور ، كما حرم على الحاكم وابنه الزواج من مواطنة أو مقيمة فى الولاية ، أو شراء العبيد أو الأراضى والبيوت فى نطاق ولايته .

ورغم هذه الاحتياطات الشديدة ، ظل قسطنطين بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة ، ينعى على الرثوة والجور فى القضاء ، ويعبر عن استيائه الشديد من أن نظر القاضى للدموى وسرعة تصرفه فيها أو تأجيله لها ، ثم حكمه النهائى - كل أولئك كان يباع ، أما بطريق مباشر أو عن طريق موظفى محكمته . وان تكرار القوانين غير الرادعة والتهديدات غير المؤثرة لينهض دليلا على الماضى فى مثل هذه الجرائم دون حساب أو عقاب .

وكان كل الحكام المدنيين من رجال القانون ، لمقد منحت معاهد جستينيان أبوابها لشباب مهلكاته الذين وهبوا انفسهم لدراسة الفقه الرومانى ، ويتلطف الملك ، حفزا لهمة الشباب ، فيؤكد لهم أنه سيجزيهم أحسن الجزاء لقاء مهارتهم وكفايتهم نصيبا وافرا فى حكومة الجمهورية . وكانت أصول هذا العلم المربح تدرس فى كل المدن الكبيرة فى الشرق والغرب ، ولكن أشهر مدرسة له كانت فى بيروت على الشاطىء الفينيقى ، وقد ازدهرت لأكثر من ثلاثة قرون ، منذ عهد الاسكندر سيفيروس ، الذى أسس معهدا ربما كان نافعا لبنى وطنه ، وكان الطلبة بعد دراسة منتظمة مدتها خمس سنوات فيه ، يضربون فى الولايات سعيا وراء الثروة والامجاد ، وما كان ليعوزهم المعين الذى لا ينضب من العمل فى امبراطورية مترامية الأطراف افسدها تعدد القوانين ، وكثرة الأمانين والردائل . وكانت محكمة الوالى البريتورى فى الشرق كافية وحدها لايجاد عمل لمائة وخمسين محاميا ، تفرد اربعة وستون منهم بمزايا خاصة ، واختير من بينهم اثنان آخران بمرتب قدره

ستون جنيها ذهباً للدفاع في قضايا الخزانة . وجرى أول اختبار لخواصهم القضائية بتعيينهم ليعملوا بوصفهم معاونين للحكام ، ومن هنا كانوا يرقون الى منصة الرياسة في المحاكم التي كانوا يترافعون أمامها . وتولوا مناصب الحكم في الولايات ، ثم صعدوا بفضل جدارتهم أو شهرتهم أو حظوتهم ، خطوة خطوة ، الى أعلى مناصب الدولة ، وعدوا من « البارزين » واعتبر هؤلاء الرجال سعة الإدراك أو العقل أداة المقارعة في ساحة القضاء ، وفسروا القوانين وفق مصالحهم الشخصية ، وربما لازمت العادات الوبيلة خلقهم في مجال إدارة شئون الدولة . والحق أن المحامين القدامى والمحدثين - الذين شغلوا أهم المراكز بنزاهة خالصة وحكمة بالغة - قد رنغوا من شأن المهنة الحرة ، ولكن التدرج العادي للمحامين ، في عهد اضمحلال الفقه الروماني اقتصرن بأبلغ الضرر والعار . فقد وقعت المهنة الشريفة التي ظلت ميراثاً مقدساً للنبلاء - وقعت بين أيدي المعتقين والعامّة الذين اتخذوا منها ، خبثاً لا براءة ، تجارة دنينة سيئة . وطرق بعضهم أبواب الأسرات لاثارة المنازعات وتشجيع التقاضي وجر المغالمة لأنفسهم ولاخوانهم . وقبّع بعضهم في أماكنهم ، وانتحلوا وقار أساتذة القانون ، وزودوا عملاءهم الأغنياء بأحذق الحيل لتشويه أوضاع الحقائق ، وبالحجج لتزييف أشد المزاعم بطلاناً . وتألفت الطبقة الجليلة المشهورة من المحامين الذين ضجت الساحة بفصاحتهم التي تتسم باللغو والثروة والمبالغة . ولم يقيموا وزناً للشهرة أو العدالة ، ووصموا ، في أغلب الأحوال ، بأنهم أذلاء جهلة جشعون ، نادوا عملاءهم في تيه من النفقات والابطاء وخيبة الأمل ، حتى إذا كاد ينفذ صبرهم وأموالهم ، في سلسلة ممتدة من السنين ، كان مآلهم الطرد ورفض الدعوى .

### وزراء القصر السبعة

والى جانب الحكام والقواد الذين مارسوا سلطاتهم المخولة اليهم في الولايات والجيوش ، بعيداً عن البلاط الإمبراطوري ، منح الإمبراطورية مرتبة « البارزين » *Illustrious* لسبعة من أقرب موظفيه الذين وكل اليهم لأمانتهم وأخلاصهم أمر سلامته وتقديم المشورة اليه وإدارة أمواله .

١ - تولى خصي عزيز أثير شئون الجناح الخاص في القصر ، وكان يسمى بلغة ذلك العصر *Praepositus* أى حاجب المخدع المقدس

( الأمين الخاص ) . وكانت مهمته أن يلازم الامبراطور في ساعات عمله أو لهوه ، ويؤدي لشخص الامبراطور كل الخدمات الحسيرة التي لا تستمد بهاءها الا من الملكية . وكان الحاجب العظيم ( وقد نسميه كذلك ) ، مع الأمير الجدير بالملك ، خادما نافعا ذليلا ، ولكنه خادما داهية ، يتحين كل مناسبة لما وضع فيه من ثقة عالية ليجد له الى العقلية الضعيفة منفا مثل أن تجده الحكمة الجامدة أو الفضيلة الصارمة . ورفع احفاد تيودوسيوس المنطون - وكانوا محتجين عن أنظار رعاياهم محتقرين في أعين أعدائهم - رفعوا حجاب مخادعهم فوق هامات سائر الحجاب في القصر ، بل الأدهى من ذلك أن نائبه الذي لم يعد أن يكون على رأس موكب العبيد الواقفين رهن الإشارة ، كان يسبق في مرتبته مرتبة البروقنصل « الميجل » في اليونان أو في آسيا - وكان ثمة اثنان من الملاحظين يحملان لقب « كونت » يشرفان على مناط الأبهة والعظمة والشرف في القصر ، فتولى أحدهما أمر خزائن الملابس الملكية ، وعهد الى الثاني بشئون المائدة الامبراطورية ، وكانا يآثران في هذه المهمة الخطيرة بأمر حاجب المخدع وينفذان تعليماته .

٢ - وعهد بالادارة الرئيسية للشئون العامة الى رئيس الديوان وكان الحاكم الأعلى في القصر ، ينتقد النظام ويراقب الفرق المدنية والعسكرية ، ويتلقى الاستئنافات من مختلف أنحاء الامبراطورية في قضايا هذا الجيش الهرموم من الأفراد أصحاب الامتيازات ، الذين كسبوا لأنفسهم ولأسراتهم ، بوصفهم خداما في البلاط ، حيق عدم الانصياع الى سلطان القضاة المعاديين . وكانت المكاتب الأربعة أو بالأحرى مكاتب وزير الدولة هذا ، تتولى أمر المراسلات بين الأمير ورعاياه . وكان المكتب الأول يختص بالذكرات والتقارير الرسمية . والثاني بالرسائل ، والثالث بالعرائض والملمات ، والرابع بالوثائق والأوامر من شتى الأنواع . وكان يدير كلا من هذه المكاتب رئيس أدنى مرتبة من فئة « الميجلين » . وكان يقوم على هذه العملية كلها مائة وثمانية وأربعون سكرتيرا أو كتابا معظمهم من رجال القانون ، نظرا لكثرة ما يصادفهم في عملهم من الحاجة الى تلخيص التقارير والى المراجع . وثمة تنازل ربما اعتبر غير جدير بالجلالة الرومانية في العصور الأولى ، ذلك هو تعيين سكرتير خاص للعبة اليونانية . وعين مترجمون لاستقبال سفراء المتبريرين ، ولكن ادارة الشئون الخارجية ، التي تشكل جانبا جوهريا في السياسة الحديثة ، قل أن جذبت انتباه رئيس الديوان ، فقد كان كل تفكيره منصرفا الى توجيه

البريد وإدارة الترساتيات في الإمبراطورية التي كانت تضم أربعاً وثلاثين مدينة ، منها خمس عشرة في الشرق. وتسع عشرة في الغرب ، وفيها جميعاً حشود من العمال تشتغل بصنع أسلحة الدفاع ، وأدوات الهجوم من مختلف الأنواع والآلات الحربية التي كانت تودع الترساتيات ، وتنقل عند اللزوم إلى الميادين لتستخدمها الفرق .

٣ - وحدث في مدى تسعة قرون ، تطور غريب في وظيفة « الكوستر Quæstor » أي الصراف أو الموظف المالي . ففي العهود الأولى في روما كان الشعب يختار كل عام موظفين صغيرين لمعاونة القنصل في المهمة البغيضة ، مهمة إدارة الأموال العامة . وعين لهذا الغرض كذلك معاون لكل بروقنصل أو رئيس تولى القيادة العسكرية أو الإدارة الفنية في الولاية ، ونضاعف عدد هذين الموظفين الماليين تدريجاً ، نتيجة التوسع في الفتوح ، إلى أربعة ، ثم ثمانية ، ثم عشرين وربما إلى أربعين ، في فترة وجيزة . وتطلع أشرف المواطنين إلى وظيفة تهيب لهم مقعداً في السناتور ، وتعلقوا من ورائها بالأمل الصادق في الفوز بأجساد الدولة . وفي الوقت الذي تظاهر فيه أوغسطس بصون حرية الانتخاب تراه يقبل عن طيب خاطر الامتياز الذي اختصه به ، الا وهو أن يوصى في كل عام ، أو على الأرجح أن يعين عدداً محدداً من المرشحين ، وكان من عادته أن يتخير أحد أولئك الشبان الممتازين ليقرأ خطبه أو رسائله في اجتماعات السناتور ، وحذا خلفاء أغسطس حذوه في ذلك ، وتحولت المهمة الطارئة الموقوتة إلى وظيفة دائمة ، وأطلق على شاغلها لقب « كوستر » وهذا هو « الكوستر » الوحيد ذو الخطوة الذي اتخذ شخصية جديدة أكثر لمعانا ، وبقي بعد الغاء وظائف زملائه القدامى العقيمين . ولما كانت الخطب التي يكتبها « الكوستر » باسم الإمبراطور قد اكتسبت قوة المراسم النافذة واكتسبت آخر الأمر صيغتها ، فقد اعتبر هذا الموظف ممثلاً السلطة التشريعية ، ومهبط الوحي في المجلس والمصدر الأصلي للتشريع المدني . وكان يدعى أحياناً إلى حضور جلسات القضاء الأعلى في المجمع الإمبراطوري بين الرؤساء البريتوريين ورئيس الديوان ، ويطلب إليه أن يقطع بالرأي فيما يستشكل على صغار القضاة . ولما لم يكن مرهقاً بأية مهام ثانوية ، فقد شغل فراغه واستخدم مواهبه في ابتداع ذلك الأسلوب الرفيع المنق من الفصاحة التي حفظت للقوانين الرومانية جلالها وروعيتها ، رغم فساد الذوق واللغة . ويمكن من بعض الوجوه أن نقارن وظيفة « الكوستر » الإمبراطوري بوظيفة حامل

الأختام الحديثة ، ولكن الخاتم الكبير الذى يبدو أن المتبريرين الأمين  
قد ابتدعوه ، لم يستخدم قط ليشهد على صحة الأوامر العامة  
للإباطرة .

٤ - وثمة لقب غريب هو كونت « رئيس العطايا المقدسة » أى  
ناظر المالية ، وربما صيغ هذا اللقب على أساس أن أى مبلغ يدفع إنما  
هو فيض اختياري من كرم الملك . وأنه لمها يتجاوز قدرة أقوى خيال ،  
أدراك التفاصيل الدقيقة للنفقات السنوية واليومية للإدارة المدنية  
والعسكرية فى كل جزء من أجزاء إمبراطورية مترامية الأطراف ،  
وإستخدم لهذا الغرض بضع مئات من الموظفين وزعوا على أحد عشر  
مكتباً مختلفاً تهدف فى دهاء إلى مراجعة عمل كل منها والرقابة عليه -  
وكان عدد هؤلاء الموظفين يميل بالطبيعة إلى التزايد ، وساد التفكير  
أكثر من مرة فى أن يعاد إلى بلادهم هؤلاء الأفراد الزائدون عن الحاجة  
والذين لا يزجى منهم نفع ، والذين هجروا أعمالهم الشريفة وهرعوا  
فى لهف شديد إلى الوظائف المالية المربحة . وكان فى الولايات  
تسعة وعشرون من موظفى الخزائن يتبعون ناظر المالية ، حظى منهم  
ثمانية عشر بلقب « كونت Count » . وكان سلطان ناظر المالية يمتد  
على المناجم التى تستخرج منها المعادن النفيسة ، وعلى دور السك  
الذى تحول فيها هذه المعادن إلى عملة ، وعلى الخزائن العامة فى أهم  
المدن ، حيث تودع الأموال لخدمة الدولة . وتولى هذا الناظر كذلك  
تنظيم التجارة الخارجية للإمبراطورية ، كما أدار مصانع الكتان  
والصوف ، حيث كانت تجرى عمليات الغزل والنسيج والصباغة ،  
ويقوم عليها نسوة رقيقات الحال لاستعمال القصر والجيش - وكان  
فى الغرب الذى هو أحدث عهداً بالفنون ، ست وعشرون من هذه  
المنشآت ، وعدد أكبر منه فى الولايات النشيطة فى الشرق .

٥ - وإلى جانب الدخل العام الذى يمكن لأى حاكم مطلق أن  
يجمعه أو ينفقته كيفما يحلو له ، اقتنى الإباطرة ، وكانهم مواطنون  
أثرياء ، ممتلكات واسعة ، كان يديرها « الكونت » أو ناظر الضياع  
الخاصة « وربما كان بعضها خاصاً بالملوك والجمهوريات القسدية ،  
وربما نتجت بعض الإضافات عن طريق الأسرات التى تعاقبت على  
العرش ، ولكن الجزء الأكبر من هذه الممتلكات الإمبراطورية جاء من  
مصدر دنس ، ألا وهو المصادرة والغرامسات ، وكانت الضياع  
الإمبراطورية متناثرة فى طول الولايات وعرضها ، من موريتانيا إلى  
بريطانيا ، ولكن التربة الغنية الخصبة فى كبادوكيا أغرت الإمبراطور



بافتناء اجمل ممتلكاته فيها . واقتنص تسطنطين وخلفاؤه الفرصة لتبرير الجشع بالغيرة الدينية ، فقتضوا على معبد كومانا الغنى ، حيث كان الكاهن الأعلى لآلهة الحرب أشبه شيء بملك مطلق السلطان ، واستغلوا لمنفعتهم الخاصة الأراضى المقدسة التى كان يعيش عليها ستة آلاف من رعايا أو عبيد هذه الأراضى أو كهنتها . ولكن لم تكن لهؤلاء السكان قيمة الى جانب سلالة الخيل الاصيلة التى نشأت فى هذه الرقعة الممتدة من سفح جبل أرجوس Argaeus الى ضفاف نهر ساروس ، وهى سلالة تتميز بعظمة شكلها وسرعتها التى لا تبارى عن سائر السلالات المعروفة فى العالم القديم . ونصت القوانين على حماية هذه الخيول التى خصصت لخدمة القصر والألعاب الإمبراطورية ، من أن يمتونها أو يدينسها سيد فظ شرس . وبلغت أهمية كبادوكيا الى حد تعيين موظف ( كونت ) خاص للإشراف عليها ، أما سائر أجزاء الإمبراطورية فقد عين لها موظفون أقل مرتبة . أما نواب ناظر المالية وناظر الضياع الخاصة على حد سواء ، فقد ظلوا يمارسون مهامهم المستقلة وشجعوا على الحد من سلطان حكام الولايات .

٦ ، ٧ — ووضعت الفرق المختارة من الخيالة والمشاة الذين يحرصون شخص الإمبراطور تحت الاشراف المباشر للموظفين الاثنيين المكلفين بالشئون الخاصة ( المنزلية ) . وكانت هذه الفرق تتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة فرد تنقسم الى سبع فرق فى كل منها خمسمائة وعهد بهذه الخدمة النبيلة فى الشرق الى الأرمن وحدهم تقريبا . وكلما ظهروا فى الاحتفالات العامة فى أبهاء القصر وأروقتة ، تجلت فيهم ، يقاماتهم العالية وأسلحتهم الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب بتجلت فيهم العظمة الحربية الثلاثية بجلال الإمبراطورية الرومانية . واختيرت من بين الفرق السبع جماعتان من الفرسان والخيالة ، من البريتوريين الذين كان مركزهم الممتاز معقد الرجاء ومناطق الجراء لأعظم الجنود جدارة واستحقاقا . وقد تولوا الحراسة فى الأجنحة الداخلية ، وأرسلوا الى الولايات للتفويض أوامر سيدهم بمنتهى السرعة والقوة ، وكان موظفو الشئون الخاصة ( الكونت ) يرقون الى مناصب الرؤساء البريتوريين ، وتناقلت نفوسهم الى الخروج من خدمة القصر الى قيادة الجيوش ، شأنهم فى ذلك شأن هؤلاء الرؤساء البريتوريين .

## بدء الدولة البوليسية

يسر انشاء الطرق وتنظيم البريد سبل الاتصال الدائم بين البلاط والولايات ولكن هذه الانشاءات النافعة اقترنت فجأة بسوء استغلال وپيل لا يطاق . فقد استخدم مائتان أو ثلاثمائة من العمال أو الرسل ، تحت امرة رئيس الديوان : لاعلان أسماء القناصل السنويين ، ومراسيم الأباطرة أو انتصاراتهم . وترخص هؤلاء ، دون أن يشعروا ، في الإبلاغ عما أمكنهم أن يلحظوا على سلوك الحكام أو المواطنين العاديين ، وسرعان ما نظر اليهم على أنهم عيون الملك وسوط الشعب . وفي ظل النفوذ الشديد للحكم الضعيف بلغ عددهم رقما لا يصدق ، اى نحو عشرة آلاف ، وضربوا بالانذارات الخفيفة التى كثيرا ما وردت فى القوانين عرض الحائط ومارسوا فى الاتجار المربح بالوظائف ظلما مقرونا بالجشع والوقاحة . وعن طريق المجاملة والعطف والمكافآت تشجع هؤلاء الجواسيس الرسميين الذين يتصلون بالقصر بانتظام ، على أن يرقبوا فى لهفة ، تطور أى عمل من أعمال الخيانة ابتداء من أطفه أعراض السخط الدفين الى التدابير الفعلية لثورة علنية . واستقر انتهاكهم الدنىء الاجرامى لحرمة الحق والعدل وراء قناع مقدس من الغيرة والحماس ، ومن الجائز أن يسددوا . وهم آمنون مطمئنون ، سهامهم المسمومة الى صدور المذنبين والأبرياء على حد سواء ، ممن أثاروا استيائهم أو أبوا شراء صمتهم . وكان المواطن المخلص فى سوريا ، وربما فى بريطانيا ، معرضا لخطر سوته ، أو على الأقل للتهديد بسوته ، مكبلا فى الأصناد الى المحكمة فى ميلان أو فى القسطنطينية ، ليدافع عن حياته أو عن أمواله ضد الاتهام الخبيث الذى الصقه به هؤلاء المخبرون المحظوظون . وسارت الإدارة العادية على هذا الأسلوب الذى لا تسيغه الضرورة القصوى وحدها ، وكانت وسائل التعذيب تعوض عن كفاية الأدلة .

وكان الفقه الرومانى يسلم أكثر من أن يوافق على هذا الاختيار الخداع الخطير فى القضية الجنائية ، كما كانوا يؤكدون تسميتها . وكانوا يمارسون هذه الطريقة الدهوية فى الاختبار مع سفلة القوم الذين لم تكن لآلامهم لدى رجال الدولة المتفطرسين أية قيمة فى ميزان العدالة أو الانسانية ، ولكنهم لم يقدموا قط على اتهان شخص المواطن المقدس الا اذا تم أنصع الدليل على جريمته . وتروى حوليات الطغيان من عهد تيميريوس الى عهد دوميتيان ، عرضا ، اعدام كثير من الضحايا البريئة . ولكن طالما أمكن الالبقاء على أقل بصيص من ذكرى الحرية

الوطنية والشرف الوطنى ، برئت اللحظات الأخيرة فى حياة أى رومانى من خطر التعذيب المتيث (1) . على أن نسلوك حكام الولايات لم يكن مقيدا بمألوف عادات المدينة أو مبادئ المدنيين الصارمة ، فقد ألفوا التعذيب سائدا ، لا بين العبيد فى ممالك الشرق الاستبدادية وحدها ، بل كذلك بين المقدونيين الذى خضعوا لملك مقيد ، وبين أهل رودس الذين ازدهرت أحوالهم فى ظل حرية التجارة ، بل بين الاغريق الحكماء الذين أكدوا وقدسوا كرامة الانسان . وشجع اذعان أهل الولايات حكامهم على أن يكتسبوا ، بل قل أن يفتصبوا ، لأنفسهم سلطة التعذيب بالخازوق لينتزعوا من المتشردين أو العالة المذنبين اعترافهم بما اتعرفوا من جرائم ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء الحكام الى حد أنهم ، دون أن يشعروا ، أخطأوا الفوارق بين المراتب وأغفلوا امتيازات المواطنين الرومان . ولكن الرعايا دعتهم مخاوفهم الى التماس الاعفاء من التعذيب كما أن الملك ألزمته مصلحته بمنح اعفاء خاص منه فى كثير من الحالات . وفى هذا ترخيص ضمنى بل اقرار باللجوء الى التعذيب بصفة عامة . ومنعوه عن الأفراد من مرتبة « البارزين » ومرتبة « المبجلين » وعن الأساقفة ومشايخ الكنيسة وأساتذة الفنون الحرة والجنود وأسراتهم وموظفى البلديات وذريتهم حتى الجبل الثالث ، والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد . ولكن أدخل فى التشريع الجديد فى الامبراطورية مبدءا هو أشبه شىء بسيف مصلت على الرقاب ، ذلك أنه فى حالة الخيانة ، وهى تشمل كل جريمة يستطيع حذق المحامين أن يستنبطها من المقاصد العدائية ضد الأمير أو ضد الدولة ، تعطلت أو بطلت كل الامتيازات ، وهبطت كل الحالات الى هذا المستوى البغيض ، مستوى الخيانة . ولما كانت سلامة الامبراطور تفوق صراحة أى اعتبار للعدالة أو للانسانية فقد تعرضت حرمة الشيوخوخة أو نضارة الشباب على حد سواء ، لأشد ألوان التعذيب ، وأصبح الرعب من تبليغ خبيث بأن واحدا من المواطنين الرومان الأصليين كان شريكا ، ربما فى جريمة وهمية ، بل مجرد شاهد عليها ، أصبح هذا الرعب سيفا مصلتا على رقاب الجميع .

ان شعبا انتفضت أوداجه تيهها وعجبا ، أو تبرم ضجرا وسخطا ، قل أن يكون أهلا لتقدير موقفه تقديرا صادقا . وهكذا كان رعايا

(1) فى مؤامرة بيزو ضد نيرون ، كانت ابيكارس Epicharis ( المرأة المتحررة ) هى الشخص الوحيد الذى عذب . أما الباقيون فقد أفلحوا من التعذيب . وقد يكون من نافلة القول أن نضيف مثلا أضعف من هذا لأنه من الصعب أن نجد مثلا أقوى . « حوليات تاسيتس ٥٧/١٥ »

قسطنطين عاجزين عن التنبه الى انحطاط مستوى العبرية وفضائل الرجولة ، الأمر الذي هبط بهم الى ما دون مكانة أسلافهم . ولكنهم استطاعوا أن يحسوا بوطأة الطغيان وتراخي القوانين وفداحة المصائب وأن يثبوا لهذه كلها . وقد يلحظ المؤرخ النزيه الذي يسلم بعدالة شكواهم بعض ظروف مواتية تميل الى التخفيف من شقوتهم . فقد ظل في الامكان بعد صد أو وقف غارات المتبربرين التي كانت تهدد حدود الامبراطورية ، والتي سرعان ما توضحت عظمة الرومان . وهذب سكان قسم كبير من الكرة الارضية فنون البذخ والأدب ونعموا بملاذ المجتمع البهيجة . وساعدت أشكال الادارة المدنية وبهاؤها ونفقاتها على الحد من الاباحية الشاذة في الجنود ، وعلى الرغم من ان القوة انتهكت حرمة القوانين ، أو انها قد انحرف بها الحدق والدهاء ، فان المبادئ القوية في التشريع الروماني ، أبتت على اثاره من النظام والانصاف لم تكن معروفة لدى الحكومات الاستبدادية في الشرق ، وربما وجدت حقوق الانسان لها في الدين والفلسفة سياجا آمنا . أما اسم الحرية الذي لم يعد يزعج خلفاء أوغسطس ، فلربما أنذرهم أحيانا بانهم لم يحكموا أمة من العبيد أو من المتبربرين .

## الفصل الثامن عشر

( ٣٢٤ - ٣٣٧ م )

### شخصية قسطنطين ، أسرته ، وفاته

#### نهوض دولة فارس في عهد شابور الثاني

جذبت شخصية الأمير الذي نقل مقر الحكم في الامبراطورية وأدخل مثل هذه التغييرات الهامة على الدستور المدني والديني في بلده ، جذبت انظار الجنس البشري ، كما انقسمت الآراء فيها ، أما غير المسيحيين الشاكرين للمؤمنين لفضل منقذ الكنيسة ، فقد أضفت عليه كل صفات البطول بك القديس ، على حين أن سخط الفريق المغلوب على امره تارن قسطنطين بأبغض أولئك الطغاة الذين دنسوا بمساوئهم وضعهم الحلة الامبراطورية . وانتقلت هذه المشاعر الى الأجيال المتعاقبة بدرجات متفاوتة ، وما تزال شخصية قسطنطين تعتبر في عصرنا الحاضر موضع قبح أو مدح . وأنا لنأمل ، بالمزج اللزيم بين المثالي التي اعترف بها أشيد المعجبين ، والمزايا التي سلم بها البد الأعداء ، أن نرسم صورة صادقة لهذا الرجل الخارق ، صورة يجدر بالتاريخ الحقيقي الصريح أن يقررها دون خجل أو حياء . ولكن ربما اتضح على الفور أن المحاولة العقيمة لمزج هذه الألوان المتناقضة وللموامة بين هذه الصفات المتناقضة لابد أن تخرج بصورة مراد جبار ، أكثر من أن تنتج صورة انسان ، الا اذا نظرنا اليها في أضوائها الصحيحة الواضحة مع الفصل الدقيق بين مختلفها فترات حكم قسطنطين .

لقد حبت الطبيعة شخص قسطنطين وذهنه الثمن ما لديها ، فكان غارح الطول تهيب الطلعة ، محمود السيرة ، وتجلت قوته ونشاطه في كل ما يمارسه الرجال ، واحتفظ منذ نعومة أظفاره حتى أخريات أيامه

بقوة البنية ، بفضل ما التزم من العفة وضبط النفس . وكان يأنس للعلاقات الاجتماعية برفع الكلفة في الحديث والمناقشة . ورغم أنه ربما أطلق لنفسه العنان أحيانا في التهكم والمزاح ، في تحفظ أقل مما تقتضيه هيبة مركزه ، فإن بشاشته وسماحته أسرنا قلوب كل من اتصلوا به . وقد يشك في صدق مودته ، ولكنه أظهر في بعض المناسبات أنه غير عاجز عن الحفاظ على ود خالص مقيم . ولم يكن نقص تعليمه ليحول دون تقديره الصادق لقيمة الدرس والتحصيل ، وحظيت الفنون والعلوم ببعض التشجيع بفضل رعايته الكريمة لها . وكان ينصرف الى العمل في عزيمة لا تفتز وهمة لا تعرف الكلل . وكاد أن يستغل كل قوى ذهنه الجبار في القراءة أو الكتابة أو اعمال الفكر ، وفي استقبال السفراء والنظر في شكاوى رعاياه . واضطر حتى أولئك الذين عابوا عليه بعد تصرفاته عن اللياقة الى الاعتراف بأنه أوتى شهامة نفذ بها الى أشق المشروعات ، وتميز بالجلد على تنفيذها ، دون أن يعوقه عنها نقص التفكير أو صيحات الجماهير . وكان في ميدان القتال ينفخ من روحه الوثابة في الجنود الذين كان يقودهم في عزيمة القائد المقتل النمو والموهب ، ومن ثم يمكن أن ينسب الى قدراته ، أكثر من أن ينسب الى حظه ، تلك الانتصارات الرائعة التي أحرزها ضد أعداء الدولة في الخارج والداخل . لقد تعشق المجد جزاء. وفقا لأعماله ، ان لم يكن دافعا عليها ، ويمكن أن نجد للطموح غير المحدود الذي يبدو أنه ملك عليه حواسه منذ اللحظة التي قبل فيها التاج في يورك — نجد له تبريرا في الأخطار المحدقة بمركزه ، وفي شخصيات أعدائه ، وفي ادراكه لجدارته الفائقة ، وفي تطلعه الى أن نجاحه سوف يمكنه من استعادة السلام والنظام في امبراطورية حائرة . وقد استغل في حروبه الداخلية ضد مكسنطيوس وليسينيوس ، ميول الشعب الذي قارن بين الرذائل المتأصلة في هذين الطاغيتين ، وبين روح الحكمة والعدالة التي يبدو أنها شاعت في الطبيعة العامة لادارة قسطنطين .

ولو ان قسطنطين هبط على ضفاف النهر أو حتى في سهول أدرنة ، لكانت تلك هي نفس الشخصية التي كان قد نقلها الى ذرابيه ، مع استثناءات يسيرة . ولكن خاتمة عهده ( وفقا لحكم معتدل ، بل في الواقع رفيع ، لكاتب عائش في نفس العصر ) هبطت به دون المرتبة التي كان قد حظى بها بين أنبه الأمراء الرومان ذكرا . وقد تقع العين في عهد أوغسطس على طاغية تحول على درجات تكاد تكون غير ملحوظة ، حتى صار ابا لبلده وللجنس البشرى أجمع ، على حين تبصر في عصر قسطنطين بطلا طالما أوحى الى رعاياه بالحب وأدخل على

قلوب أعدائه الرعب ، ينحدر الى ملك غاشم منحل ، أفسده حظه أو رفعت الفتوحات فوق مقتضيات النفاق والرياء . وكان السلام الشامل الذى ساد السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من حكمه ، فترة بهاء ظاهرى ، أكثر منه رخاء حقيقياً ، وصمت شيخوخة قسطنطين بالمساوىء العكسية ، ولكنها المساوىء التى تلتئم مع السلب والنهب والتبذير ، واستنفدت الأموال المكسبة فى قصرى مكسنتيوس وليسينيوس فى اسراف بالغ ، فقد استلزمت الابتكارات التى أدخلها الفاتح مزيداً من النفقات وتطلبت تكاليف مبانیه وحاشيته واحتفالاته مدداً عاجلاً وغيراً ، ومن ثم لم يكن سبيل للوفاء بمقتضيات أبهة الملك غير ارهاق الشعب واستنزاف دمه . واغتصب أجبأؤه التافهون الذين أثاروا بما أغدق عليهم من أموال بلا حساب — اغتصبوا لأنفسهم ، دون حسيب أو رقيب حق السلب والنهب والافساد . وساد احساس خفى ولكنه شامل ، بدبيب الانحلال فى مختلف جوانب الإدارة العامة . وخسر الامبراطور نفسه على مر الأيام تقدير رعاياه ، ولو أنه ظل محتفظاً بامتثالهم له . ولم يفلح الزى والسلوك اللذان اختار أن يتظاهر بهما فى أخريات أيامه ، الا فى الحط من قدره فى أعين الناس جميعاً ، واتسمت الأبهة الآسيوية التى اقتبسها غرور دقلديانوس ، اتسمت فى شخص قسطنطين بروج من الطراوة والتخنث ، فقد صور بشعر مستنصر متعدد الألوان جهد مهرة فنانى العصر فى تصفيفه ، وتاج من طراز جديد أكثر نفقة ، ومجموعة كبيرة من الجواهر والألئق والاطواق والأساور ورداء مزركش فضفاض من الحرير موشى بأزهار من الذهب فى أعجب شكل . وأنا — أمام هذا الزى الذى قل أن يسيغه شباب الاجبالوس أو طيشه — لنحار فى اكتشاف حكمة الملك العجوز وبساطة الرومانى المحنك . وعجزت العقلية التى استنامت للرشاء والرفق عن أن ترقى الى مستوى الشهامة التى تحتقر معها الشبهات وتجروء على الصفع . وربما بررت موت مكسنتيوس وليسينيوس قواعد السياسة كما تلقن فى مدارس الطغاة ، ولكن رواية نزيهة عن اعدائهما ، وعلى الأصح ذبحهما ، الذى لطح شيخوخة قسطنطين ، لا بد أن توحى الى أصدق تفكيرنا وأخلصه ، براى فى الأمير الذى استطاع طوعاً ، لا كرها ، أن يضحى بقوانين العدالة ومشاعر الطبيعة ، فى سبيل أهوائه أو فى سبيل مصلحته .

## أسرة قسطنطين

يبدو أن التوثيق الذي لم يفتأ يلزم رؤية قسطنطين ، قد وفر له الآمال والراحة والدعة في حياته المنزلية . لقد ينس أسلافه الذين نعموا بأزهي عهود الحكم وأطولها — مثل أوغسطس وتراجان ودقلديانوس — نقول ينسوا من انجاب الأعتاب . ولم تنح الثورات الكثيرة لأية أسرة إمبراطورية وقتنا كافيًا للنمو والتكاثر في ظل التاج ، إلا أن ملكية أسرة الفلافيين التي كان قد رفع من شأنها في البداية كلوديوس القوطي انحدرت عبر عدة أجيال . وقد استمد قسطنطين نفسه من والده الملك تلك الأمجاد الوراثية التي نقلها إلى أولاده . وتزوج الإمبراطور مرتين . وتركت له الأولى مرفينا *Minervina* التي تعلق بها أيام شبابه في علاقة مشروعة . ولكنها غامضة — تركت له وداً واحداً سمى كرسبس *Crispus* رانجب من الثالثة فلوستا *Fausta* ابنة مكسيميان ثلاث بنات وثلاثة بنين بالأسماء المتشابهة : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنز . وانفسح المجال أمام أخوة قسطنطين الأكبر — يوليوس قسطنطيوس ، دلماشيوس ، هانيباليانوس — ليتنعموا بأشرف مكانة وأوفر حظ يتفتان مع مركزهم الخاص . ونقض أصغر الثلاثة نخبه دون أن يخلف أسماً أو يترك عقباً . وتزوج أخواه الأكبران من ابنتين لشيخين موسرين من شيوخ السناتو ، وأنجبا فرعين جديدين للدوحة الإمبراطورية . وأصبح جالوس وجولييان فيما بعد الخ أبناء يوليوس قسطنطيوس « النبل » . أما ابنا دلماشيوس اللذان منحنا لقب « الرقيب » العقيم فقد سميا دلماشيوس وهانيباليانوس . وتزوجت كريمتا قسطنطين الأكبر : أناسطاسيا وأوثروينا ، من عضوين في السناتو ، من أصل نبيل ، في مرتبة القنصل هما ابتاتوس *Optatus* ونيوتيانوس *Neptianus* . أما الأخت الثالثة كسناتانيا فقد تغردت بما حظيت به من قبل من عظمة وتعاسة ، وظلت معروفة بأنها أرملة ليسينيوس الذي اندحر ، وبفضل توسلاتها احتفظ صبي برىء ، هو ثمرة زواجهما ، لبعض الوقت ، بحياته ، ويلقب « قيصر » ، وبأمل مزعزع في العرش ، وإلى جانب نساء بيت فلافيوس وحلفائه ، كان هناك عشرة أو اثنا عشر من الذكور ممن يمكن أن يطلق عليهم بلغة البلاط الحديث أمراء يجرى في عروقتهم الدم الملكي ، يبدو أنه كسان مقدرا لهم ، بحكم مولدهم ، أن يرثوا عرش قسطنطين أو يدعوه . ولكن الأسرة الكبيرة المتكاثرة انحصرت ، في مدى ثلاثين عاماً ، في شخصي قسطنطين وجولييان ، وهما الوحيدان اللذان عاشا بعد سلسلة من الجرائم والنكبات ، على غرار ما روى شعراء الآسي في



تصاندهم المقدسة عن بلوبس Pelops وكدموس Cadmus ( في  
الأساطير اليونانية ) .

وصور المؤرخون المتجدون كرسبوس أكبر أبناء قسطنطين  
ووريث الامبراطورية المحتل على أنه شاب محبوب مثقف ، وعهد  
بتعليمه - أو على الأقل بأمر دراسته ، الى لكتانتيوس أفصح  
المسيحيين ، وهو معلم خير أهل لتربية ذوق تلميذه اللامع واستشارة  
فضائله . وحين بلغ كرسبوس سن السابعة عشرة خلج عليه لقب  
« قيصر » وعهد اليه بإدارة ولايات الغال ، حيث هيأت له غارات  
الالمان عليها فرصة مبكرة لإبراز بسالته الحربية . وفي الحرب الأهلية  
التي سرعان ما نشبت بعد ذلك ، انقسم الوالد والولد سلطاتهما . وقد  
مجد هذا التاريخ شجاعة هذا الأخير وحسن تصرفه في اقتحام مضيق  
الدرنديل التي كان يدافع عنها دفاعا مستميتا أسطول ليسينيوس  
المتفوق . وساعد هذا الانتصار البحري على تقرير مصير الحرب ،  
واقترن اسم قسطنطين باسم كرسبوس في هتافات رعاياها الشرقيين  
الذين ابتهجوا وهللووا معلنين أن العالم قد أخضعه وحكمه امبراطور  
اجتمعت له كل الفضائل والشمائل كما وهب ابنا لامعا اميرا اختصته  
السماء بحبها ، وصورة حية زاهية لصفات الكمال في والده . وبسط  
العطف الشامل الذي قلما اقترن بالشيخوخة ، جناحيه حول شباب  
كرسبوس ، في هالة مشرفة ، واستحق الشاب تقدير الحاشية  
والجيش والشعب ، وتعلقوا به جميعا . وقد يعترف الرعايا ، كارهين ،  
بما يخبرون في شخص الملك المتريع على العرش من صفات الفضيلة  
وكثيراً ما ينكرونها في مهمات متحيزة ساخطة ، على حين تنفرج  
أساريرهم اذ يلحظون المزايا المتفتحة في شخص خلفه ، ويتعلقون  
بأهداف الأمل فير المحدود في هناة خاصة وعمامة ، يتعبون بها على  
عهده .

وسرعان ما أثارت هذه الشعبية المحفوفة بالخطر انتباه قسطنطين  
الذي ضاق ذرعا بوصفه أباً وملكاً معاً ، بظهوره ند له ، وبدلاً من محاولة  
الحفاظ على ولاء ابنه له ، بإيلائه ثقته الكريمة والاعتراف بفضله ، وطد  
العزم على الحيلولة دون ما يتوحيش من أذى بسبب أطماعه الساخطة .  
وما أسرع ما وجد كرسبوس ما يبرر شكواه ، من أنه في الوقت الذي  
رأى فيه أخاه الصبي الصغير قد خلج عليه لقب « قيصر » وعهد اليه  
بمهام الحكم في هذه البرقعة الممتازة : ولايات الغال ، رأى نفسه وهو  
الأمير الناضج الذي أدى مؤخرًا مثل هذه الخدمات الفريدة بدلاً من

رفعه الى المرتبة الاسمى ، مرتبة « أوغسطس » - رأى نفسه وقد ضيق عليه الخناق وأنه سجين فى بلاط أبيه ، معرضاً بلا قوة ولا قدرة على الدفاع ، لما قد يكيد له حيث أعدائه . وما كان الشاب الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، قادراً دائماً فى هذه الظروف الأليمة ، على ضبط نفسه أو كظم غيظه . ولا بد كذلك أن نكون على يقين من أنه كان محوطاً بزمرة من الأتباع المتهورين أو المخاطلين ، الذين أمعنوا فى الداب على اذكاء نار الحقد السافر فى نفسه ، أن لم يكونوا قد دسوا عليه للغدر به . وأصدر قسطنطين ، حوالى هذا الوقت ، مرسوماً أفصح فيه علناً ، عن شكوكه الصادقة أو المصطنعة ، فى مؤامرة تدبر ضد شخصه وضد حكومته ، ويهيب ، مع الوعد والأغراء دون استثناء ، من حكامه أو وزرائه أو أصدقائه أو أقرب المقربين ، بالأمجاد والمكافآت ، يأى فرد يستطيع أن يدلى بمعلومات ، أن يبلغ ، مقسماً بأغلظ الأيمان أنه سوف يصغى الى هذه الاتهامات بشخصه ، وأنه سيثأر لهذه الاساءات بنفسه ، ويختتم نداءه بدعاء يكشف عن توقعه خطراً ، يقول فيه ان « الكائن الأعلى » ما يزال ييسط رعايته وحمايته على الامبراطور والامبراطورية .

وكان الوشاة الذين استجابوا لهذه الدعوة الكريمة ، متهرسين فى أفانين البلاء وأحابيله الى درجة تغريهم بايقاع أنصار كرسبوس ، فى الشرك على أنهم مذنبون ، وما كان لهم الا أن يسلموا بصدق الامبراطور الذى توعد بأشد الانتقام والعقوبة . ومهما يكن من أمر فقد اقتضت سياسة قسطنطين أن يبقى على مظاهر الاهتمام والثقة بانه الذى بدأ ينظر اليه على أنه الدعدو ليس من الميسور مهادنته . وسكت الميداليات تحمل الوعود المألوفة بدوام الحكم المريب للقيصر الصغير . ولما كان الشعب الذى لم يظهر على أسرار القصر ، لا يزال يجب فى القيصر الصغير شمائله ، ويجل مكانته ، فان الشاعر الذى يتوسل لاعادته من منفاه يلجأ الى نظم قصيدة يمجده فيها ، بنفس القدر من الاخلاص ، جلال الوالد والولد ، وكان قد جل آنذاك موعد الاحتفال العظيم بذكرى العام العشرين من حكم قسطنطين ، ومن أجل هذا نقل الامبراطور بلاطه من نيقوميديا الى روما حيث أعدت أروع الترتيبات لاستقباله . وتسابقت العيون والالسنه الى التظاهر بالتعبير عن مشاعر السعادة الفامرة . واختفت ، لبرهة وجيزة تحت أستار المراسم والرياء ، أشنع خطط الانتقام والاغتيال . وقبض فى غمرة الاحتفال ، على كرسبوس المنكود ، بأمر من الامبراطور الذى تخلى عن حنان الأب دون أن يتحلى بعدالة القاضى . وكانت المحاكمة قصيرة سريعة ، ولما رأى

انه من الالىق اخفاء مصير الأمير الشاب عن أعين الشعب الروماني ،  
عقد أرسل تحت حراسة قوية الى بولا في استريا ، حيث أعدم فور  
وصوله بيد الجلاد أو بطريقة أخف ، أي بالسسم . ولقى الشاب الكريم  
الخلق القيصر ليسينيوس نفس المصير الذي لقيه كرسبوس ، ولم  
يتخلخل الحقد الطاغى الذى ران على قلب قسطنطين أمام دموع أخته  
المريضة أو توسلاتها للبقاء على حياة ابن لم يكن له من جزيرة الا  
مرتبة ( قيصر ) والتي لم يقدر لها البقاء طويلا بعد فقده . وأسدت  
أستار الغموض والخفاء على قصة هذين الأميرين التعيسين وطبيعة  
جريمتها والأدلة عليها ، وطرق محاكمتها ، وظروف موتها . ويلتزم  
الأسقف نصير البلاط الذى خلد في مؤلف نفيس مزايا بطله وورعه -  
يلتزم الصمت البليغ الذى خيم على هذه الأحداث المحزنة . ان مثل  
هذا الازدراء الصلف برأى الجنس البشرى ، بينما يدمغ ذكرى  
قسطنطين بوصمة لا تحبى ، لابد أن يذكرنا بنهج مختلف سلكه واحد  
من أعظم الملوك في العصر الحاضر ( عصر المؤلف - أى القرن الثامن  
عشر ) ذلك هو القيصر بطرس ، الذى ترك ، وهو فى ذروة السلطة  
المطلقة ، لروسيا ولأوربا وللأجيال القادمة أمر الحكم على الأسباب  
التي اضطرت له الى اصدار حكم الاعدام على ابن أئيم ، أو على الأئيل  
ابن منحل .

وكانت براءة كرسبوس أمرا يسلم به القاصى والدانى الى درجة  
أن اليونان الحديثين الذين يقدسون ذكرى مؤسسهم ، انزلقوا الى  
حد التهوين من أمر الجريمة التى نهت عن تبريرها أبسط المشاعر  
العادية فى الطبيعة الانسانية ، الا وهى جريمة قتل الوالد لابنه .  
ويزعمون أنه حالما اكتشف الوالد المنكوب بطلان الاتهام الذى ضلل  
سذاجته على هذا الشكل الرهيب نشر على العالم ندمه وتائب ضميره ،  
وأنه لبس الحداد لمدة أربعين يوما ، أفتقع فيها عن الحمام وعن سائر  
ملاذ الحياة العادية . وأنه أراد أن يشهد الأجيال المقبلة على ذلك ،  
فأقام لكرسبوس تمثالا من الذهب نقش عليه العبارة التذكارية : « الى  
ولدى الذى أعدمته بغير حق » . وكان يجدر أن تعزز هذه القصة  
الأخلاقية الشائقة مراجع أقل شذوذا ، فإذا رجعنا الى مؤرخين أقدم  
عهد وأصدق حجة ، لأكدوا لنا أن ندم قسطنطين تجلى فقط فى أعمال  
الدم والانتقام ، وأنه كفر عن قتل الابن البرىء باعدام زوجة ربما كانت  
مذنبة ، فهم ينسبون النكبات التى حلت بكرسبوس الى الاعيب زوجة  
أبيه فاوستا التى أعاد بغضها المرير أو حبها اليائس فى قصر قسطنطين ،  
تمثيل المأساة القديمة ، مأساة هبوليتوس Hippolytus ونيدرا Phaedra

( احدى مآسى سنكا ) ، واتهمت ابنة يكسيجان — فاوستا — شأنها في ذلك شأن ابنة مينوس — ربيها ( ابن زوجها ) كرسبوس ، بأنه هم بها ، ومن ثم سهل على الامبراطور الحائق أن يصدر حكم الموت على الأمير الصغير الذي اعتبرته بحق أقوى الملاحمين لبنيها . ولكن هيلينا ، أم قسطنطين الطاعنة في السن حزنت وتأثرت لحفيدهما كرسبوس الذي لقي حتفه قبل الأوان ، فلم يمض طويل وقت ، حتى زعم أنه اكتشف ، ان حقا وان باطلا ، أن هناك علاقة آئمة بين فاوستا وبين أحد العميد في الاسطبلات الامبراطورية . وصدر الحكم ونفذت العقوبة فور توجيه الاتهام ، وماتت الزانية خنقا بفعل البخار في حمام زبدت فيه الحرارة ، لهذا الغرض ، الى درجة غير عادية . وقد يظن البعض ان ذكرى عشرين عاما من زواج سعيد ، وأن شرف ما أنجبها من ذرية انحصرت فيها وراثته العرش ، ربما خففا من مساواة قلب قسطنطين ، واقتناعه بالسماح لزوجته مهما بدت آئمة بالتكفير عن ذنبها في سجن موحش . وأنه لمن نافلة القول ان نتدبر الأليق وغير الأليق ، الا اذا تأكدنا من حقيقة هذا الحادث الغريب الذي اكتشفته بعض ظروف الارتباب والتشويش . ان أولئك الذين هاجموا شخصية قسطنطين ، وأولئك الذين دافعوا عنها على حد سواء ، اغفلوا قطعتين مشهورتين في خطبتين القيتا في عهد خلفه ، تشيد اولاهما بفضائل الامبراطورة فاوستا وبجمالها وحظها ، بوصفها ابنة وزوجة وأختنا وأما لكثير من الأمراء ، وتؤكد الثانية بعبارة صريحة أن أم قسطنطين الأصغر (فاوستا) الذي ذبح بعد ثلاث سنوات من وفاة والده ، عاشت لتذرف الدمع سخينا وتندب حظ ابنتها . ورغم البراهين القاطعة التي أتت بها عدة كتاب من الوثنيين والمسيحيين على السواء ، يظل هناك ما يحتمل على الاعتقاد أو على الأقل على الشك ، في أن فاوستا قد أفلتت من مساواة زوجها العاشقة المرتابة . وقد يكفى على أية حال ، موت ابن وابن أخ ، واعدام همد كبير من أصدقائهما المحترفين ، وربما الأبرياء ، ممن جمعهم نفس المصير — يكفى لتبرير سخط الشعب الروماني ، وتفسير آيات الهجاء الواردة على بوابة القصر تقارن بين عهدى قسطنطين ونيرون ، وهما عهدان تميزا بالبهاء والعظمة كما تطلقا بالدماء .

وبدا ، بعد وفاة كرسبوس ، أن وراثة عرش الامبراطورية قد انحصرت في أبناء فاوستا الثلاثة الذين أوردنا أسماءهم من قبل وهم : قسطنطين ، قسطنطيوس ، قنستنز ، وقد خلج عليهم على التتابع لقب « قيصر » في السنة العاشرة ، والسنة العشرين ، والسنة الثلاثين

من حكم أبيهم ، ورغم ان هذا التصرف كان من شأنه مضاعفة سعادته او حكام المستقبل في العالم الروماني ، فربما كان له ما يبرره في نطاق الأب بأبنائه وتحتيزه لهم ، ولكن ليس من السهل ان نثبت ان الثابت الذي حدا بقسطنطين التي تعريض سلامة أسرته وشعبه للخطر ، حين رفع مرتبة ابني أخيه دلماشيوس وهانثياليانوس دون ضرورة تلجئه الى ذلك . فرفع الأول الى مرتبة « القيصر » مساواة له بأبناء عمه . وابتدع مجاملة للثاني ، لفظا جديدا غريبا هو « صاحب المجد الاثيل » Nobilissimus وهو لقب يتميز حامله برداء أرجواني موثى بالذهب . كما تفرد هانثياليانوس ، من بين القعد الكبير من الأمراء الرومن على مر العصور ، بلقب « ملك » وهو لقب ربما كان يفضسه رعيا تيريوس بوصفه سبة دنسة مقذعة لطاغية غريب الأطوار ، واستعمال هذا اللقب ، حتى كما يبدو في عصر قسطنطين — حقيقة غريبة نائية ، يكاد لا يمكن ثقلها على أساس المصدرين المشتركين وهما الميداليات الامبراطورية ، والكتاب المعاصرون .

وكانت الامبراطورية بأسرها تبتدى أشد الاهتمام والعناية بتعليم هؤلاء الشبان الخمسة المسلم بأنهم خلفاء قسطنطين ، فاعدتهم الرياضة البدنية لاحتمال مشتاق الحرب ومهام الحياة الجادة القشيطة ، ويقول الذين اشاروا عرضا الى تربية قسطنطينوس ومواهبه ، انه برز وتفوق في فنون القفز والعدو ، وأنه كان قواسما بارعا ، وفارستا ماهرا ، وأنه كان يحذق استعمال مختلف الأسلحة التي يستخدمها الخيالة والمشاة على حد سواء . وبذلت الجهود المتواصلة لتنشئة سنائر أبناء قسطنطين وأبناء اخوته وثقيف عقولهم ، ولكنها لم تكال بنفس القدر من النجاح . وأجزل الامبراطور العطاء لأشهر الأساتذة الذين دعوا لتلقينهم العقيدة المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والفقه الروماني ، واحتفظ هو لنفسه بالمهمة الخطيرة الشأن ، الا وهي تعليم الشبان الملكيين فنون الحكم ودراسة الانسان ، ولكن عبقرية قسطنطين نفسه كانت ثمرة المحن والخبرة . فقد تعلم في معاملته الحرة في حياته الخاصة ، ووسط الأخطار في بلاط جاليريوس ، أن يضبط عواطفه ، وأن يواجه عواطف نظرائه ، وأن يعتمد في سلامته الراهنة وعظمته المستقبلية ، على سلوكه الشخصي المقرون بالفطنة والحزم . ولكن كان من سوء حظ خلفائه أنهم ولدوا وتربوا في كنف الحلة الامبراطورية . فكانوا دوما محوطين بمواكب المملكين ، ومن ثم قضاوا شبابهم يمرحون في بحبوحة الترف ، وفي تجربة اعتلاء العرش . وما كانت لذاتهم السامية لتسمح لهم بالنزول من عليائهم التي تظهر فيها مختلف أنماط الطبيعة

البشرية بمظهر واحد من النعومة والريفة . وإياح لهم تساهل قسطنطين ، في سنهم المبكرة ، أن يشاركوا في إدارة الامبراطورية ، فدرسوا من الحكم على حساب الشعب الذي وضعت مقدراته بين أيديهم . فحكم قسطنطين الصغير بلاد الغال ، أما أخوه قسطنطينوس فقد استبدل بهذه الرقعة التي كانت وقفنا على أبيه فيما مضى ، بلاد الشرق التي هي أكثر ثروة ، وأقل عناء من الناحية العسكرية . وتلقت إيطاليا والديريكوم الغربية وأفريقية بمظاهر الاجلال والاكبار قنستنتز - الابن الثالث - بوصفه ممثل قسطنطين الأكبر ، وعين دلماشيوس على الجبهة القوطية ، وضم اليها حكم تراقيا ومقدونيا واليونان . واختيرت مدينة قيصرية لتكون مقرا لهانيياليانوس ، الذي شملت مملكته الجديدة ولايات بنطس وكبادوكيا وارمينيا الصغرى . وأنشئ لكل من هؤلاء الأمراء جهاز مناسب ، حيث خصص لكل منهم عدد كاف من الحرس ، ومن فرق الجيش ، ومن المعاونين ، مما يتناسب مع وضع كل منهم ، ومع مقتضيات الدفاع . وكان الموظفون والقواد الذين وضعهم قسطنطين حولهم ، من الطراز الذي يطمئن الامبراطور الى أنهم سيساعدون ، بل حتى يراقبون ، هؤلاء المملوك اليافعين في ممارستهم لما خول لهم من سلطات . وكلما تقدمت بهم السنون ، وعركتهم التجربة ، عظم سلطانهم وقويت شوكتهم ، ولكن الامبراطور كان يحتفظ دائما بلقب « أوغسطس » ، وبينما كان يقدم « القياصرة » للجيوش والولايات ، احتفظ لمقامه الأعلى بنفس القدر من الامتثال والطاعة في كل ركن من أركان الامبراطورية ، وطوال السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكم قسطنطين ، لم يكدر صفو الهدوء تمرد جمال حثير في جزيرة قبرص ، أو الدور الخطير الذي اقتضت سياسة قسطنطين أن يقوم به في حروبه مع القوط والسارماتيين .

\*\*\*

استمرت الحرب سجالا ، دون نتيجة دامة ، بين السارماتيين والقوط وبين قسطنطين ، طوال أعوامه الأخيرة .

## وفاتة قسطنطين

أكد قسطنطين عظمة الامبراطورية الرومانية بتحطيم كبرياء القوط،  
وتقبل فروض الولاء التي قدمتها امة خانعة ضارعة ، ورفع سفراء  
اثيوبيا وفارس وبلاد الهند النائية اليه تهانيهم بحالة السلام والرخاء  
التي تسود عهده . واذا حسب ان من علامات توفيقه وضربات حظ  
السعيد موت ابنه الاكبر وابن أخيه بل وربما زوجته كذلك ، فانه نعم  
حتى العام الثلاثين من حكمه بفيض غامر لم ينقطع من السعادة والغبطة  
في حياته الخاصة والعامة ، وهي فترة لم يتيسر قط لأحد من أسلافه ،  
منذ عهد أوغسطس ، أن يشهدها . وعاش قسطنطين عشرة أشهر بعد  
الاحتفال المهيب بهذه المناسبة ، ثم قضى نحبه بعد مرض قصير ، وهو  
في سن النضوج والكمال ، في الرابعة والستين من عمره ، بعد حياة  
حافلة مشهودة — قضى نحبه في قصر أشيريون Achyron في ضواحي  
نيقوميديا ، الذي آوى اليه التماسا لطيب الهواء على أمل استرداد  
قواه المنهكة باستخدام الحمام الساخن . وجاوز الاسراف في مظاهر  
الاسى والحزن ، أو على الأقل الحداد ، كل ما عرف من قبل في مثل  
هذه المناسبات . ورغم الحاج السناتو وشعب روما القديمة ، نقل  
جثمان الامبراطور الراحل ، بناء على توصيته الأخيرة ، الى المدينة  
التي كان مقدرها لها أن تحتفظ باسم مؤسسها ويذكرها . ووضع جثمان  
قسطنطين مكللا بشعارات العظمة الفاتية وبالحلة الأرجوانية وبالنتاج  
على سيرير من الذهب في أحد أجنحة القصر ، كان قد ائث وأضىء  
لهذا الغرض أفخم تأثيث واضاءة ، وكان التمسك بمراسم البلاط غاية  
في الدقة ، ففي الساعات المحددة في كل يوم كان كبار موظفي الدولة  
والجيش والحاشية يقتربون من شخص مليكهم في انحناءات كبيرة ومظهر  
وقور ، ويقدمون له الولاء والاحترام في جد ورزانة ، كما لو كان بعد  
على قيد الحياة . وتكررت هذه الصورة المسرحية لبعض الوقت لدوافع  
سياسية ، ولم يغفل الملق هذه الفرصة للإشارة الى أن قسطنطين  
وحده ، باذن من السماء ، قد بقى يحكم بعد وفاته .

ولكن هذا الحكم لم يكن ليعيش الا في ابهة زائفة جوفاء . وسرعان  
ما تبين أن رعايا الملك المستبد المطلق قل أن يمتثلوا لارادته أو يلتزموا  
طاعته طالما أنهم لم يعودوا يطمعون في عطفه أو يرهبون سخطه . بل  
ان نفس النظار والقواد الذين انحنوا اجلالا ورهبة أمام جثمان مليكهم  
الراحل ، انشغلوا في مداوات سرية لاقتضاء ولدى أخيه دالماسيوس  
وهانيباليانوس ، وحرمانهما من النصيب الذي خصصه لهما في حكم

الامبراطورية . ان معلوماتنا عن حاشية قسطنطين ناقصة الى حد أننا لا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة عن حقيقة البواعث التي كانت توجه زعماء المؤامرة ، الا اذا ذهب بنا الظن الى أنهم كانوا مسوقين بدافع من روح الحقد والانتقام من أحد الرؤساء ، وهو يدعى أبلافيوس Ablavius ، وكان واحدا من المقربين المفرورين ، كان يحرك القناصل حسب أهوائه ، ويسعى استغلال ثقة الامبراطور الراحل فيه . وكانت الحجج التي تذرعوها بها ضمنا لرضا الشعب والجيش وموافقتها ، مصوغة في أجلى بيان : فالتزموا جانب اللياقة والحق ، في الإشارة الى أن أبناء قسطنطين أعلى مكانة وأولى بالحكم ، والى الخطر من تعدد الملوك ، والى النكبات التي تهدد الدولة من جراء التنافر بين عدة أمراء متنافسين لا تؤلف بين قلوبهم وشائج الأخوة . وحيكت المؤامرة في جو من الحماسة والسرية . حتى أمكن التوصل الى اعلان جماعى مدو من فرق الجيش بأنها لن ترضى عن أبناء الامبراطور الماسوف عليه بديلا لحكم الامبراطورية الرومانية . ومن المسلم به أن دلماشيوس الصغير الذى جمعت بينه وبين أبناء عمومته روابط الصداقة والمصلحة ، وراث نصيبا كبيرا من مواهب قسطنطين الأكبر ، ولكن يبدو أنه في هذه الآونة لم يتخذ أية اجراءات ليثبت بقوة السلاح حقه وحق أخيه الذى يجرى في عروقه الدم الملكى ، وهو حق جادت لهما به مكارم عمهما . وقد أذهلتها وأحدثت بهما سورة غضب الشعب وهياجه ، حتى بدا أنهما بانا ، عاجزين عن الهرب أو المقاومة ، في يد أعدائهما الالداء . وبقي مصيرهما معلقا حتى وصل قسطنطيوس ثانى أبناء قسطنطين ، وربما كان أحبهم الى النفوس .

وكان الامبراطور الراحل وهو يحتضر، قد أهاب بتقوى قسطنطيوس ان تولى جنازته كل الاهتمام والعناية ، واستطاع هذا الأمير ، بفضل قربه من القسطنطينية — حيث كانت اقامته في الشرق — استطاع ، في غير ما صعوبة ، أن يحد من نشاطا أنمويه اللذين كانا يقطنان في مقر حكومتيهما البميدتين : في ايطاليا والغال ، فما أن وضع يده على القصر في القسطنطينية حتى كان همه الأول أن يقضى على مخاوف ذمى قرياه ، فأقسم يمينا مغلظة بضمان سلامتهم . وصرف همه بعد ذلك في العثور على ادعاء كاذب يتحلل به من الالتزام الذى تسرع في التقيد به . ووضعت أفانين التدليس والتزوير في خدمة تدابير القسوة والعنف . وخرجت شخصية من أكثر الشخصيات قداسة بتزييف جلى صريح . فقد تلقى قسطنطيوس من أسقف نيقوميديا طومارا ( رقعة مكتوبة ) يختمى شبح الموت بين سطوره ، مع التوكيد بأنه وثيقة أصيلة من أبيه



الإمبراطور يبدى فيها شكوكه في أن أخوته قد دسوا له السم ، ويحض أبناءه على الثأر له ، وأن يكفلوا سلامتهم هم أنفسهم بتوقيع العقوبة على المذنبين . ومهما يكن من أمر الأسباب التي ساقها هؤلاء الأمراء المنكودون للدفاع عن حياتهم وشرفهم أمام هذا الاتهام الذي لا يمكن تصديقه ، فقد أخرجتهم الصيحات الغاضبة التي تعالت بين الجنود الذين كشفوا على الفور عن عدائهم لهم ، وأعلنوا أنفسهم قضاة وجلادين ، في وقت معا . وكم من مرة انتهكت حرمة الإجراءات القانونية روحا وشكلا ، في المذبحة التي اختلط فيها الحابل بالنابل ، التي جرفت في تيارها عمى قسطنطيوس ، وسبعة من أبناء عمومته ، كان أبرزهم دلماشيوس وهانيباليانوس ، والنيل أوبتاتوس Optatus زوج إحدى أخوات الإمبراطور الراحل ، وأبلافيوس الذي ملأت قوته وثروته قلبه ببعض الأمل في الاستيلاء على العرش ، وإذا كانت ثمة حاجة إلى المبالغة في بشاعة هذا المنظر الدموي لأضفنا أن قسطنطيوس نفسه كان قد تزوج من ابنة عمه يوليوس ، وأنه كان قد زوج أخته من ابن عمه هانيباليانوس . إن هذه الأحلاف أو المصاهرات التي كونتها سياسة قسطنطين بين مختلف فروع البيت الإمبراطوري ، دون اعتبار للأحقاد العامة — هذه الأحلاف لم تفلح إلا في اقناع الجنس البشري بأن هؤلاء الأمراء قد تبدل شعورهم بأعزاز العلاقات الزوجية ، قدر ما تجمد احساسهم بروابط الدم ، وقست قلوبهم أمام توسلات الشباب المؤثرة وبراعته . ولم ينج من يد القتلة ، من بين هذه الأسرة الكبيرة العدد إلا جالوس وجوليان ، أصغر أبناء يوليوس قسطنطيوس ، حين ارتوى تعطشهم إلى الدماء ، وخفف هذا من غلوائهم بعض الشيء . وأحسن الإمبراطور قسطنطيوس ، الذي كان في غيبة أخويه ، أكثرهم عرضة للوزر واللوم ، أحس في بعض مناسبات تالية ، بوخز يسير عابر من تائب الضمير لأعمال القسوة التي أكرهته عليها ، نصائح موظفيه المخاتلين وعنف جنوده الطاغى الذي تعذرت مقاومته ، وهو بعد شاب غرير لم تحنكه التجارب .

وأعقب مذبحة أسرة فلافيوس تقسيم جديد للولايات ، ثم التصديق عليه في لقاء خاص بين الأخوة الثلاثة . فكان من نصيب قسطنطين — وهو أكبر القياصرة الثلاثة سنا — العاصمة الجديدة التي تحمل اسمه واسم أبيه ، مع شيء من تمييزه في المرتبة عن أخويه . أما تراقيا وبلاد الشرق فكانت من نصيب قسطنطيوس ، على حين اعترف بثالثهم قنسننز ملكا شرعيا على إيطاليا وأفريقية والليريكوم الغربية . وسلمت فرق الجيش بحقهم الوراثي ، وتنازل ثلاثتهم فقبلوا من السناتو

الرومانى ، بعد شىء من التراخى ، لقب « أوغسطس » . وعندما  
تسلم هؤلاء الأمراء زمام الحكم لأول مرة ، كان أولهم فى الحادية  
والعشرين من عمره ، والثانى فى العشرين ، والثالث فى السابعة عشرة  
فقط .

### نهوض فارس تحت حكم شابور الثانى

على حين انضوت الأمم الحربية فى أوربا تحت لواء أخويه ، ترك  
قسطنطينوس وحده ، بوصفه قائدا للفرق المخنثة الأسيوية ، لينوء بعبء  
الحرب الفارسية . وجددير بالذكر أنه عند موت قسطنطين اعطى  
عرش الشرق شابور بن هرمز جد نارسييس الذى اعترف فى خشوع  
بسلطان الرومان اثر انتصار جالوريوس . وكان شابور لا يزال فى نضارة  
الشباب رغم أنه كان فى السنة الثلاثين من حكمه ، فقد سبق تاريخ  
ارتقائه العرش تاريخ مولده ، بناء على ما قضى به قدر غريب . فقد  
بقيت زوج هرمز حاملا عند وفاة زوجها . ولكن عدم التثبت من جنس  
الجنين وهو فى أحشاء أمه ، بل من واقعة الحمل فى جملتها ، أثار  
أطماع أمراء آل ساسان . ثم تبددت آخر الأمر المخاوف من نشوب  
حرب أهلية حين تأكد للمجوس عن يقين بأن أرملة هرمز حامل ، وأنها  
ستضع فى سلام واطمئنان مولودا ذكرا . وامتنالا لصوت الخرافة ،  
أعد الفرس دون إبطاء ترتيبات الاحتفال بتتويجه . ورقدت الملكة  
تحفها العظيمة والجلالة على سرير ملكى عرض فى وسط القصر ، ووضع  
التاج فى البقعة التى ظن أنها تخفى فيها الوريث القادم لعرش  
اجزرسييس . وانبطح الولاة والحكام أمامها يمجدون عظمة مليكهم الخفى  
الذى لا يتأثر ولا يعى . وإذا كان لنا أن نصدق هذه القصة العجيبة  
التى يبدو ، على أية حال ، أنه قد أساغتها عقول الشعب وطول مدة  
حكمه غير العادية ، فاننا لا بد أن نعجب ، لا بحظ شابور فحسب ، بل  
وبعقريته أيضا . وفى أحضان التربية الناعمة تحت وصاية الحرير  
الفارسى اكتشف الأمير الملكى أهمية استخدام قوة عقله وجسمه .  
واستحق بمواهبه الشخصية عرشا اجلس عليه ، ولما يع بعد واجبات  
السلطة المطلقة ومغرياتها . وتعرض فى حداثة سنه لنكبات الانقسامات  
الداخلية التى لا يمكن تجنبها ، كما باغتت عاصمته ملك يمنى أو عربى  
يدعى Thair وأعمل فيها السلب والنهب . وامتهنت كرامة الأسرة  
الملكة بأسر الأميرة أخت الملك الراحل ، فلما بلغ شابور أشده ، وقع  
« تير » الجسور وأمه وبلده فريسة لأول ضربة من يد المحارب الصغير

الذى استغل ظفره فى مزيج حكيم من الشدة واللين ، الى حد أنه استخلص من مخاوف العرب واعتراهم بحسن صنيعه لقب Dhoulacnaf « حامى الأمة » ( ذو الاكناف ) .

فى سنة ٣٤٠ هزم قسطنطين الثانى فى معركة اكويلا على يد قسطننز الذى أصبح حاكما على الغرب . واضطر قسطنتيوس حاكم الشرق الى مواجهة هجمات الفرس بقيادة شابور الثانى وكان غزو الفرس لارمينيا تهديدا لنمو المسيحية فى الشرق ، وانقلب النصر فى سنجانر سنة ٣٤٨ الى هزيمة ساحقة نتيجة الاهمال والغفلة . وقاومت نصريين الحصار ثلاث مرات ، وتم الصلح فى سنة ٣٥٠ . وفى نفس العام تمكن ماجنتيوس من ازاحة قسطننز عن العرش ، على حين لبس فترانيو Vetrano الحلة الامبراطورية من قبل قسطنتيوس . واخيرا تغلب قسطنتيوس على ماجنتيوس فى مورسا فى وادى نهر الساف فى سنة ٣٥١ . وانتهى الامر فى سنة ٣٥٣ بتولى قسطنتيوس حكم امبراطورية موحدة غير مجزأة .

## الفصل التاسع عشر

( ٣٥٥ - ٣٥٩ م )

### عهد جوليان .. الادارة المدنية فى الغال

#### حبه لمدينة باريس

اتحدت ولايات الامبراطورية المجزأة ثانية بفضل انتصار قسطنطينوس ، ولكن هذا الامير الضعيف كان خلوا من المزايا الشخصية سواء فى زمن السلم أو زمن الحرب ، ولما كان يخشى قواده ، ولا يثق فى معاونيه من الموظفين والنظار ، فان الانتصار العسكري لم يجد الا فى تدعيم سلطان الخصيان فى العالم الرومانى . لقد دخلت هذه الكائنات التسعة ، التى هى من صنع الاحقاد والاستبداد فى الشرق ، الى اليونان وروما نتيجة لسريان عدوى البذخ الآسيوى اليهما . وكان تقدمهم سريعا ، فان هؤلاء الخصيان الذين كان ينظر اليهم فى عهد اوغسطس ، بين المقت والزراية بوصفهم حاشية مروعة لملكة مصر ، اجيز لهم الدخول شيئا فشيئا الى أسرات فضليات السيدات وشيوخ السناتو ، وبيوت الأباطرة أنفسهم . وقد كبحت جماهم القوانين الصارمة على عهد دوميتيان ونرفا ، ثم لقوا شيئا من التذليل والملاطفة على يد دقلديانوس وزهوه وكبريائه . ثم هبط بهم حرص قسطنطين الى وضع ذليل ، وأخيرا تكاثر عددهم فى تصور ابنائه المنحليين ، وظفروا ، بطريقة غير محسوسة ، بالوقوف على خفايا مجالس قسطنطينوس السرية حتى انتهى بهم الأمر الى توجيهها . ويبدو أن نفور الناس من هذا النوع غير مكتمل الرجولة واحتقارهم له ، قد حط من أخلاق أفرادها ، وبناتوا على الأغلب عاجزين ، كما هو مفروض فيهم ، عن الاحساس بأية عواطف كريمة ، أو الاتيان بأى عمل لائق . ولكن الخصيان برعوا فى أفنان الملق والدسائس ، وسيطروا على عقل قسطنطينوس ، نتيجة مخاوفه تارة ، وغروره تارة أخرى . ونراه حين

وقع بصره في المرأة الخداعة على المظهر الجميل ، إلا وهو مظهر الرخاء العلم ، نراه إجاز لهم ، في أستهانة واستخفاف أن يقطعوا الطريق على شكاوى الولايات المنكوبة ، وأن يجمعوا ثروات ضخمة عن طريق الاتجار في العدالة والوظائف ، وأن يمتهنوا كرامة أفاضل القوم ، بترقية أولئك الذين يشتركون على أيديهم مقاعد السلطة والقدرة على العسف والجور ، كما أرخى لهم الحيل فصبوا لعنتهم على هذا النفر القليل من ذوى النفوس الأبية المستقلة الذين رفضوا في كبرياء وشمم أن يحتسوا في ظل العبيد . وكان المع هؤلاء العبيد وأبرزهم حاجب القصر يوسوبوس الذى سيطر بنفوذه المطلق على الامبراطور والقصر ، حتى قال مؤرخ نزيه متهمًا : « ان قسطنطيوس كان له بعض الخطوة لدى تابعه العزيز المتفطرس » . ونتيجة لأرائه الماكرة الخبيثة ، حمل الامبراطور على توقيع الحكم بالاعدام على جالوس المنكود ، وأن يضيف بذلك جريمة جديدة الى ذلك الثبت الطويل من الاعدام غير الطبيعي الذى لوث شرف بيت قسطنطين .

وعندما أنقذ جالوس وجوليان ، ابنا عمومة قسطنطين من بطش الجنود ، كان عمر الأول اثنتى عشرة سنة ، والثانى ست سنوات ، وكان المظنون أن أكبرهما ضعيف البنية معتل الصحة ، فقد ظفروا دون صعوبة تذكر ، بالإبقاء على حياته المزعزعة المفتقرة الى الرعاية ، من قسطنطيوس الذى تصنع الشفقة والرحمة ، والذى كان يدرى أن اعدام هذين اليتيمين البائسين قد يعبد الجسد البشرى بأسره عملاً من أشد أعمال القسوة المتعمدة . وخصصت عدة مدن في ايونيا وبيثينيا لإبعادهما وتعليمهما ، ولكن ما أن كبرا أو تقدمت بهما السنون حتى ثارت حفيفة الامبراطور ، ورأى أنه من الأصح والأحكم أن يودع الشابن التبعيين قلعة ماسلوم Macellum المنيعة قرب قيصرية . وكانت المعاملة التى لقيها طوال ست سنوات في السجن ، شيئاً مما يتوقعان من وصى جريص ، وشيئاً مما يتوجسان من طاغية مرتاب ، وكان سجنهما عبارة عن قصر قديم كان مقر ملوك كابادوكيا ، ذا موقع جميل وبناء فخيم ومساحة واسعة . وهناك تابعا دراستهما ، ومارسا رياضتهما تحت اشراف امهر المعلمين . وكان العدد الكبير من الخدم والأتباع الذين عينوا لخدمتهما ، أو قل لحراستهما والرقابة عليهما ، وهما ابنا عمومة قسطنطين ، يتناسب مع كرم محتدهما . ولكن ما كان لهما أن يخفيا عن نفسيهما ، انها حرما من الثروة والحرية والطمأنينة ، وانهما حرما من الاجتماع بمن يمكن أن يكونوا موضع ثقتهما أو تقديرهما ، وقضى عليهما بأن يمضيا ساعاتهما الحزينة برفقة عبيد أخلصوا لأوامر طاغية

أمن في أيدئهما الى حد لم يعد معه ثمة أمل في المسألة . ومهما يكن من شيء فقد اضطر الامبراطور ، بضغط من ضرورات الحكم ، أو قل بتأثير الخصيان ، الى منح جالوس — وكان في الخامس والعشرين من عمره — لقب « قيصر » ، والى أن يعزز هذه العلاقة السياسية بزواجه من الاميرة قسطنطينا . وبعد لقاء رسمي تبادل فيه الأميران المهود والمواثيق على الا يلحق أحدهما بالآخر أى أذى ، عاد كل منهما دون إبطاء الى مقره . فتابع قسطنطينوس سيره الى الغرب ، واتخذ جالوس مقرا له في أنطاكية ، ومنها — بمقتضى السلطة المخولة له ، تولى حكم الأقسام الخمسة الكبيرة التى تتكون منها الدولة الشرقية . وفي هذا التحول السعيد ، لم يتخل القيصر الجديد عن التفكير في أخيه جوليان ، الذى حظى بأمجاد مرتبته ، كما حظى بمظاهر الحرية ، وظفر باسترداد ميراثه الكبير .



وأنبت جالوس انه غير صالح للحكم ، فقتل . أما جوليان الذى لم يتجه اليه التفكير أصلا ليكون امبراطورا ، فقد حنكته التجارب وازدادت قوته يوما بعد يوم ، وأعلن « قيصر » في سنة ٣٥٥ ، وتولى الدفاع عن الفال ضد هجمات الألمان والفرنجة ، في الوقت الذى كان فيه قسطنطينوس مشغولا فى جبهة الدانوب ، وانصرف فى الحال الى بناء مدن الفال من جديد واستعادة الحياة فيها ، (وهذا عمل أكثر التماما مع طباعه الانسانية والفلسفية) .

### ادارة جوليان المدنية في الفال

كان الاهتمام بتوفير السلام والسعادة لرعاياه هو القاعدة الذهبية التى وجهت ادارة جوليان . وكان يخصص اوقات الفراغ في ربوعه الشستوية لأعمال الادارة المدنية ، فنظاها بأنه يجد لذة في شخصية الحاكم والقاضى أكثر مما يجد في شخصية القائد . وأحال قبل أن يذهب الى القتال على حكام الولايات معظم القضايا العامة والخاصة التى كانت قد رفعت الى محكمته ، حتى اذا عاد راجع كل اجراءاتهم فيها مراجعة دقيقة ، وخفف من صرامة القوانين ، وأصدر حكما ثانيا على القضاة أنفسهم . لقد تسامى جوليان فوق أقصى تجربة لأظهر العقول ، وتلك غيرة متطرفة متهورة على العدالة . ومن ثم خفف ، في هدوء ووقار ،

من حدة المدعى الذى كان يقاضى رئيس ولاية ناربون ، بتهمة ابتزاز الأموال : قال دلفيديوس العنيف متعجبا : « اذا كان الإنكار يكفى للتبرئة ، فمئذا الذى سيكون مذنبا ؟ » فأجاب جوليان : « اذا كان مجرد توكيد التهمة كافيا للادانة فمئذا الذى سيكون بريئا ؟ » . وكانت مصلحة الملك فى زمن السلم والحرب هى بعينها مصلحة شعبه عامة . ولكن ربما كان من الجائز أن يشعر قسطنطينوس بأبلغ الأذى اذا كانت فضائل جوليان قد حرمته من أى قدر من الحرية التى كان ينتزعها من أى بلد مرهق منهوك . وربما عمد الأمير الذى زود بكل شعارات الملكية الى تقويم السفاهة الجشعة فى عماله الذين هم أقل منه رتبة ، وفضح أساليبهم الفاسدة ، وادخال نظام موحد أكثر يسرا لجباية الأموال . ولكن ادارة الأموال كانت موكولة بطريقة ادعى للطبائنة الى فلورنشيوس ، الوالى البريتورى على بلاد الغال ، وكان طاغية مخنثا لا يستشعر الرحمة ولا يحس بتأنيب الضمير ، وكان الناظر المتفطرس يشكو المعارضة الهادئة المهذبة ، على حين أن جوليان نفسه كان على الأرجح يميل الى لومه على سوء تصرفه . وكان القيصر قد رفض فى مقت وازدراء قرارا قدمه اليه الوالى لتوقيعه ، بفرض ضريبة استثنائية أو اضافة جديدة ، وأغضبت تلك الصورة الصادقة ليؤس الشعب ، والتي اضطر القيصر الى أن يبرر بها أسباب رفضه توقيع القرار ، أغضبت حاشية قسطنطين . وقد نجد لذة فى قراءة مشاعر جوليان التى عبر عنها فى حرارة وحرية فى رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه المقربين ، فهو يقول فيها ، بعد أن أوضح تصرفه : « وهل كان يجوز لتلميذ أفلاطون وأرسطو أن يفعل غير هذا ؟ وهل كان يمكن أن أتخلى عن هؤلاء الرعايا التعساء الذين وليت أمرهم ؟ ألم أدع لحمايتهم من هذا الأيذاء المتكرر الذى يلاحقهم به هؤلاء اللصوص جامدو الاحساس ؟ ان التربيون الذى يتخلى عن واجبه يعاقب بالموت ، ويدفن دون احتفال أو مراسم فباية صورة من صور العدالة أستسيغ النطق بالحكم عليه ، اذا أهملت انا نفسى ساعة الخطر واجبا أكثر قداسة ؟ لقد وضعنى الله فى هذا المكان السامى ، ترعائى وتحرسنى عنايته . واذا قدر على أن أعانى وأقاسى ، فلسوف أستمد الراحة والعزاء من شهادة ضمير نقى مستقيم ، كم تمثيت لو كان لدى مستشار من طراز سللوست Sallust ؟ واذا رأوا من الخير أن يرسلوا الى خلفا ، فلسوف أتقبل هذا راضيا . وانى لاوثر أن أنتهز الفرصة القصيرة لفعل الخير ، على أن أنعم طويلا ودائما بارتكاب الرذيلة والسوء دون حساب أو عقاب » . والحق أن المركز المزعزع التابع الذى وضع فيه جوليان أظهر مناقبه وأخفى نقائصه . ان البطل

الصغير الذى دعم عرش قسطنطينوس فى الغال لم يمكن من اصلاح مساوىء الحكومة ، ولكنه أوتى من الجراة والشجاعة ما تمكن معه من تخفيف ضائقة الشعب ، أو الاشفاق عليه . وما لم يؤت القدرة على احياء الروح الحربية فى الرومان ، أو على بعث فنون الصناعة والعمل ، وأساليب التهذيب والثقافة بين أعدائهم الهمجيين ، ما كان فى مكنته أن يعلل نفسه بأى أهل معقول فى تحقيق الهدوء العام ، لا بمسالمة ألمانيا ولا بغزوها . على أن انتصارات جوليان أوقفت لفترة قصيرة غارات المتبريرين ، وأجلت سقوط الامبراطورية الغربية .

### جوليان ومدينة باريس

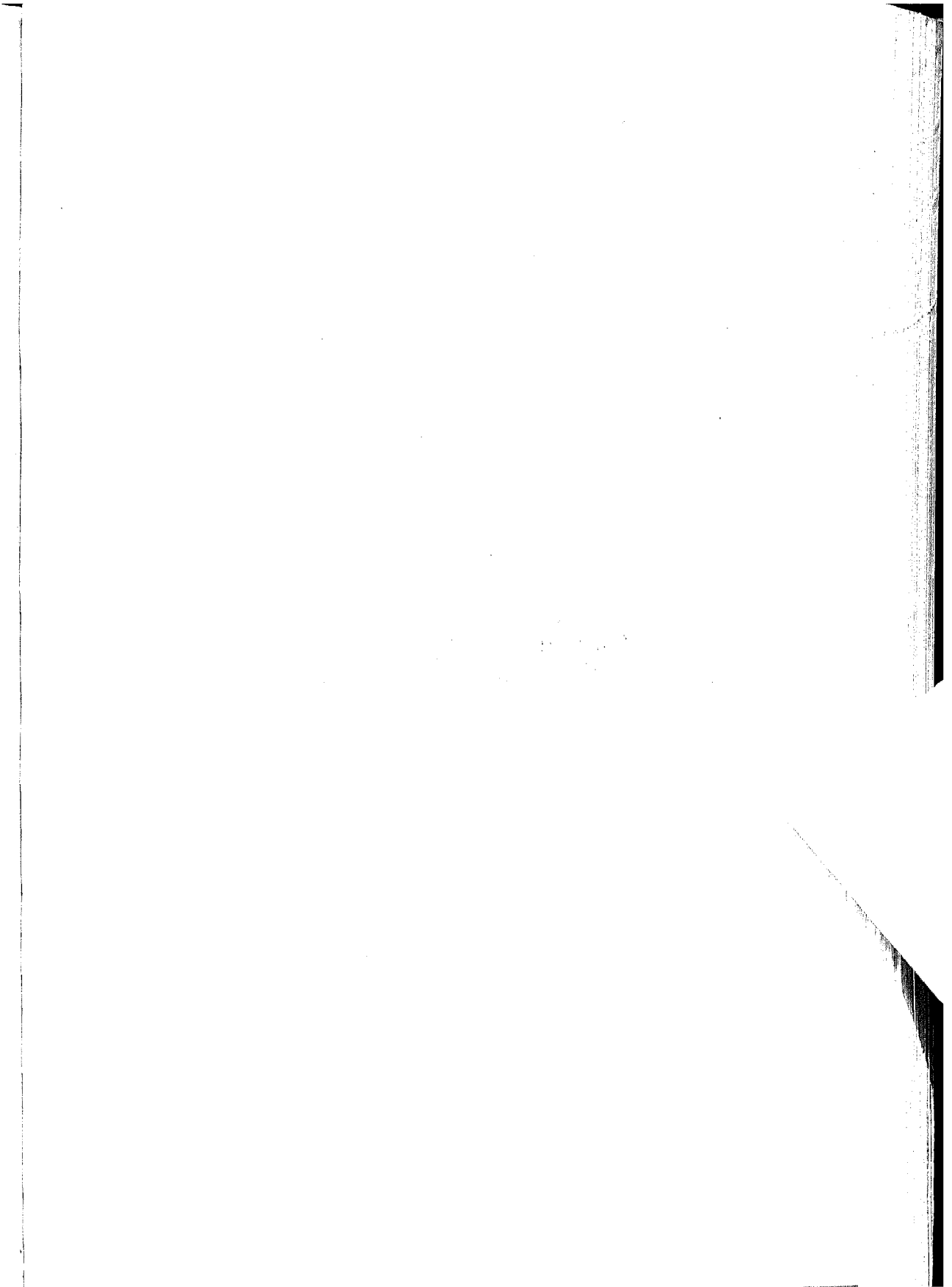
أعاد جوليان ، بتأثيره الناجع ، مدن الغال الى سابق عهدها ، بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمن عرضة لمساوىء الاضطرابات الاهلية ، وحروب المتبريرين ، والطفيان الداخلى ، وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا فى المتعة والتنعم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ثانية تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النافعين الموقرين . ولم يعد الشباب يخشى الزواج ، كما لم يعد المتزوجون يخافون العيلة وكثرة الأولاد . وأقيمت الأعياد الفسامة والخاصة بمثل بهائها المعهود ، وتجلى الرخاء الوطنى ورغد العيش فى كثرة الاتصالات الآمنة بين الولايات . ولابد أن قلبا مثل قلب جوليان قد أحس بالسعادة التى غمرت الجميع ، والتي كان هو مبدعها ومنشئها . الا أنه كان ينظر بارتياح وغبطة بنوع خاص الى مدينة باريس مقره الشتوى ، وموضع حبه وتعلقه بصفة خاصة . وكانت هذه العاصمة الفخمة مقصورة أول الأمر على تلك الجزيرة الصغيرة فى وسط نهر السين ، ولكنها أصبحت الآن تشغل مساحة شاسعة على جانبي النهر الذى استمد منه سكانها زادا عظيما من الماء النقى الصفى . وكانت مياه النهر تلاطم قاعدة الأسوار ، وكان الوصول الى المدينة يتم عن طريق جسرين خشبيين . وكانت الغابات تغطى الجانب الشمالى من السين . أما فى الجنوب فإن الأرض ، التى تحمل الآن اسم « الجامعة » ، امتلأت بالدور والمنازل ، بطريقة غير ملحوظة ، كما ازدانت بقصر وملعب مدرج ، وحمامات ، وقناطر تحمل المياه ، وساحة اله الحرب مارس لتدريب الجند الرومان . ولطف قرب المحيط من تطرف المناخ . وزرعت الكروم وأشجار التين ، مع بعض التحوطات التى أمتها التجربة . ولكن السين ، فى أعوام مشهودة كان يتجمد



في الشتاء الى درجة كبيرة ، حتى جاز لأحد الآسيويين أن يقارن كتل  
الجليد السابحة فوق المجرى بكتل الرخام الأبيض التي كانت تقطع من  
محاجر فريجيا ( في آسيا الصغرى ) . وقد أعاد الفجور والفساد في  
أنطاكية ، الى ذهن جوليان ذكرى الخلق الصارم البسيط في لوتيشيا  
الأثيرة لديه ( Lutetia ، باريس الحالية ) حيث كانت متعة المسرح  
غير معروفة أو محتقرة مقابل في غيظ وحنق ، بين السوريين المترفين  
وبين البساطة المترفة بالأمانة والبسالة في أهل الغان ، وأغلب الظن  
أنه غفر للكثتين الوصمة الوحيدة في خلقهم ، الا وهى الافراط والبعد  
عن الاعتدال . ولو أن جوليان عاد اليوم لزيارة عاصمة فرنسا لاستطاع  
التحدث الى رجال من العلماء والعباقرة قادرين على استيعاب ما يقوله  
ربيب الفلسفة اليونانية ، وربما غفر الهفوات المقسمة بالبهجة والظرف ،  
في أمة لم يوهن الانغماس في الترف من روحها العسكرية ، ولكن لزاما  
عليه أن يمتدح سمو الفن الرفيع الذي يلف الحياة الاجتماعية  
ويهبه ، ويضفى عليه بهاء وجمالا .

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is extremely faint and illegible due to the quality of the scan.

الاعتراف بالمسيحية وبداية الهرطقة



## الفصل العشرون

( ٢٠٦ - ٢٢٧ م )

### تحول قسطنطين الى المسيحية

مرسوم التسامح الذي أصدره رؤياه وتعهده . اقرار المسيحية  
بمقتضى القانون التفريق بين السلطتين الروحية والزمنية

يعتبر الإقرار العام للمسيحية ، ثورة من أخطر الثورات الداخلية  
التي تثير أشد الفضول حيوية وتلقن أقيم الدروس . وان انتصارات  
قسطنطين أو سياسته الداخلية لم تعودا تؤثران في حالة أوروبا ، ولكن  
ما يزال جزء كبير من الكرة الأرضية محتفظا بالأثر العميق الذي أحدثته  
تحول ذلك العاهل الكبير الى المسيحية ، وما تزال أفكار الجيل الحاضر  
وعواطفه ومصالحه ترتبط ارتباطا لا تنفصم عراه بالنظم الكنسية  
على عهده .

وقد تنشأ عند التعرض لبحث موضوع يعالج في نزاهة وتجرد ،  
ولكن لا يمكن تناوله بغير أكرات - قد تنشأ على الفور صعوبة ذات  
طبيعة غير متوقعة ، تلك هي التاريخ الحقيقي الدقيق لتحول قسطنطين ،  
ويبدو الخطيب المفوه لكتانتوريوس وسط حاشيته متعجلا في أن يعلن  
للملأ القدوة الحسنة للملك الفال الذي اعترف منذ اللحظة الأولى من  
حكمه بالاله الواحد الحق وعبده . أما العلامة يوسوبوس فانه نسب  
ايمان قسطنطين الى الاشارة الخارقة التي ظهرت في السماء بينما كان  
قسطنطين يفكر في الحملة الإيطالية ويعد لها العدة . ولكن المؤرخ  
زوسيموس Zosimus يؤكد في خبث أن الامبراطور كان قد غمس يديه  
في دم أكبر أبنائه قبل أن يعلن نبذه لمعبودات روما وآلهة أجداده .  
والحق أن حيرة هؤلاء الثقاة المتناقضين نشأت من سلوك قسطنطين  
نفسه . وتمشيا مع دقة التعبير الكنسي ، فان أول الأباطرة  
« المسيحيين » لم يكن يسحق هذا اللقب الا حين كان يلفظ أنفاسه  
الأخيرة ، حيث انه في مرضه الأخير تلقى مبادئ التعاليم المسيحية

موضوع الأسقف يديه على رأسه ليباركه ، ثم دخل ، بعد إجراء الطقوس الأولية للتعميد ، في عداد المؤمنين . ويجدر أن يؤخذ تنصير قسطنطين بمعنى أكثر غموضا وتقييدا . ولا بد من التزام منتهى الدقة في تعقب التدرج البطيء ، بل غير المحسوس في الغالب ، الذي انتهى بإعلان هذا العامل نفسه حاميا للكنيسة ، وفي آخر الأمر مهتديا إليها . لقد كان من الأعباء الشاقة عليه أن يمحو ما تلقن من عادات وآراء ، وأن يعترف بالقوة الإلهية للمسيح ، وأن يدرك أن صدق الوحي الذي نزل على المسيح لا يلتئم مع عبادة الآلهة ، ولقد علمته التأملات المضمنة التي يحتفل بها شغلت ذهنه ، أن يسير بخطى وثيدة حذرة في تغيير الديانة الوطنية ، وهو تغيير له خطره وأهميته ، ثم اكتشف — دون أن يشعر — آراءه الجديدة بالقدر الذي استطاع به أن يطبقها تطبيقا مأمونا عملا . ولقد تدفق طوال سنى حكمه ، تيار المسيحية في حركة هائلة ، ولو أنها في نفس الوقت سريعة الخطى . ولكن الظروف الطارئة آنذاك ، وحذر الحاكم ، أن لم تكن نزواته — عوق تارة ، وانحرف تارة أخرى ، بالاتجاه العام لهذه الحركة ، وأبجح لنظاره ومهاونيه أن يصوغوا نوايا سيدهم في العبارات التي تلتئم أحسن ما تلتئم مع مبادئ كل منهم . ووازن هو في دهاء بين آمال رعاياه وبين مخطوئتهم ، بأن أصدر في العام نفسه مرسومين ينص في الأول على الاهتمام الشديد بيوم « الأحد » ، على حين يحض المرسوم الثاني على استشارة المرابين والدجالين . وبينما كان هذا الانقلاب الخطير يتأرجح في يد القدر ، كان المسيحيون والوثنيون يرقبون سلوك مليكهم بنفس القدر من القلق ، ولو اختلفت مشاعر كل فريق عن مشاعر الفريق الثاني . فاندفع المسيحيون بباعث الغيرة والغرور معا يبالبغون في أيةبادرة من علائم عطفه أو شواهد إيمانه . أما الوثنيون فقد حاولوا أن يخفوا عن العالم وعن أنفسهم أن الامبراطور لم يصبح بعد في عداد أتباع آلهة روما ، إلى أن تحول مجرد تخوفهم إلى ياس واستياء . وتنازعت نفس المشاعر والأهواء قلوب الكتاب المتحيزين في تلك الأيام : فتراهم يريدون الاعتراف العلني بالمسيحية بأزهي الفترات في حكم قسطنطين أو بأبغضها .

ومهما بدا في أحاديث قسطنطين أو تصرفاته من مظاهر التقوى المسيحية ، فإنه ثابت ، حتى قارب الأربعين من العمر ، على ممارسة الديانة القائمة . وأن نفس السلوك الذي كان من الجائز إرجاعه إلى خوفاً وهو في نيقوميديا ، يمكن نسبته فقط إلى ميل ملك الغال أو إلى سياسته . وبفضل سخائه جددت وزينت معابد الآلهة ، ونقشت على

الميداليات التي صدرت عن دار السك الإمبراطورية صور جوبيتر وأبولو  
ومارس وهركيوليز ، وزاد ورعه البنوى من مكانة مجمع أولمبس ، الذى  
رفع ، فى مهابة ووقار ، والده قسطنتيوس الى مصاف الآلهة .  
ولكن تعبد قسطنطين كان يتجه بصفة خاصة الى عبقرية الشمس ، اى  
أبولو فى الأساطير اليونانية والرومانية ، وكان يسعده ويسره أن يمثلوه  
برموز اله النور والشعر . فان سهام هذا المعبود التى لا تخطيء ،  
وبريق عينيه واكليل الغار الذى يتوجه ، وجهاله الخالد ومنجزاته  
اللطيفة — كل هذه الصفات هيأته ليكون حامى البطل الصغير .  
وقد زحرت مذابح أبولو بما قدم قسطنطين من قربان ونذور ، وأدخل  
فى روع الجمهور الساذج أن يؤمن بأن الإمبراطور قد أجزله أن يبصر  
بعينه الفانيتين العظيمة المرئية البارزة فى معبودهم المحلى ، وأنه قد  
سعد ، فى يقظته أو فى رؤياه ، بفأل حسن ، يبشر بعهد طويل يكلله  
النصر والظفر ، واشتهر اله « الشمس » فى كل مكان بأنه المرشد  
والحامى الذى لا يقهر للإمبراطور قسطنطين . وربما توقع الوثنيون  
بحق ، أن الاله الذى أسىء اليه لابد أن يتوعد بالانتقام الشديد من زيف  
تابعه الجاحد .

وطالما مارس قسطنطين سيادة محدودة فى ولايات الغال ، كان  
يحمى رعاياه المسيحيين سلطان ، وربما قوائين أمير اقتضت حكمته أن  
يترك للآلهة أمر تثبيت مكانتهم وشرفهم . وإذا جاز لنا أن نصدق تأكيدات  
قسطنطين نفسه ، فإنه كان يرهب فى استياء وسخط أعمال التساوة  
الغاشمة التى اقترفت أيدى الجنود الرومان مع المواطنين الذين لم يكن  
لهم من ذنب الا عقيدتهم (١) . لقد لمس فى الشرق وفى الغرب الآثار  
المتباينة للعنف وللتسامح . ولما بات العنف أبيض وأشد مقتنا لأنه تمثل  
فى شخصية عدوه العنيد جالوريوس ، فقد أثر التسامح اقتداء بوالده  
المتوفى واتباعا لمشورته . فأوقف ابن قسطنتيوس على الفور قوائين  
الاضطهاد أو الغاها ، ومنح حرية ممارسة الشعائر الدينية لكل الذين  
اعلنوا فعلا عن اعتناقهم المسيحية . وسرعان ما تشجعوا على الاعتماد  
على عطف وعدالة العاهل الذى أكن لاسم المسيح ، ولاله المسيحيين  
أجلالا خفيا خالصا .

(١) ولكن من الميسور ايضا أن المترجم اليونانى قد حسن الأصل اللاتينى ، وربما  
تذكر الإمبراطور الشيخ اضطهاد دقلديانوس ، فأحسن يمتق وأزدرأ أكثر مما أحسن به  
بالفعل فى أيام صباه ووثنيته .

## مرسوم التسامح

بعد نحو خمسة أشهر من فتح إيطاليا أعلن الإمبراطور إعلاننا صادقا أصيلا عن عواطفه في « مرسوم ميلان » المشهور . الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة الكاثوليكية . وفي لقاء شخصي بين أميرى الغرب ، حصل قسطنطين ، بفضل تفوقه في الذكاء والقوة ، على موافقة فورية من زميله ليسينيوس ، وقضى اتفاقهما واشتراكهما في التوقيع وسلطانهما على غضب مكسيمين ، وبعد وفاة طاغية الشرق ، استقبل مرسوم ميلان على أنه قانون عام أساسى من قوانين العالم الرومانى .

واقتضت حكمة الإمبراطورين رد كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين الذين كانوا قد حرموا منها ظلما وعدوانا . ونص على أن تعاد إلى الكنيسة كل أماكن العبادة والأراضى العامة المصادرة دون نقاش أو إبطاء أو نفقة . واقترن هذا الإنذار الصارم بوعد كريم يقضى بأن يدفع للمشتريين الذين كانوا قد دفعوا ثمنا مناسبيا كافيا ، تعويض من الخزانة الإمبراطورية . وصيغت هذه القواعد الناجعة التى تصون مستقبل الهدوء بين المؤمنين فى إطار مبادئ التسامح ، مع التوسع والمساواة فيه . ولا بد أن الطائفة الجديدة قد نسرت هذه المساواة بأنها امتياز نافع مشرف . ويعلن الإمبراطوران إلى العالم أنهما منحا المسيحيين الآخرين وغيرهم سلطة حرة مطلقة فى اعتناق أية عقيدة يرى الفرد من الأوفى له أن يؤثرها ، أو أنه وهبها عقله ونفسه ، أو أنها أصلح ما يمكنه أن يمارس . وحرصا على توضيح كل لفظ مبهم ، واستبعاد أى استثناء ، وعلى مطالبة حكام الولايات بالالتزام الدقيق بالمعنى الحقيقى البسيط لمرسوم لقرار دعوى الحرية الدينية وتأمينها بلا حدود . وتفضلا بتحديد سببين هامين اقنعاهما بإباحة هذا التسامح العالم : أولهما المقاصد الانسانية التى تستهدف أمن شعبهما وسعادته ، والثانى أملهما الموسوم بالتنقى والورع فى أنهما بهذا العمل قد يهدان إله السماء ويرضيانه . ويعترفان شاكرين بالشواهد العديدة الفريدة للعطف الإلهى . ويثقان بأن العناية الإلهية ذاتها سوف تظل تصون رخاء الأمير ورخاء شعبه . ويمكن أن يستخلص من هذه التعبيرات الفامضة غير المحددة المتسمة بالتقوى والورع ثلاثة مفراضات ذات طبيعة مختلفة ، ولكنها ليست متنافرة . فربما تارجح عقل قسطنطين بين الديانتين الوثنية والمسيحية ، أو ربما اعترف ، تمسحا مع الآراء الفضيضة الطيعة فى مذهب الشرك ، بأن ( إله



المسيحيين وأحد من بين الأرباب الكثيرين الذين يشكلون حكومة السماء . أو ربما اعتنق الفكرة الفلسفية السارة ، التي تقول بأنه رغم تعدد الأسماء والشعائر والآراء ، فإن كل شيع الجنس البشرى وأمه متفقون في عبادة الأب المشترك ليكون وخالقه .

وكثيرا ما تتأثر آراء الأمراء بنظراتهم الى المنافع الدنيوية أكثر من تأثرها باعتبارات من الحقيقة المجردة النظرية . وقد يكون من الطبيعي ارجاع عطف قسطنطين المتزايد المتحيز الى تقديره لأخلاق المسيحيين والى اقتناعه بأن انتشار الانجيل يستتبع بالضرورة التمسك بالفضائل الخاصة والعامة . ومهما يكن من موقف أى حاكم مطلق في تصرفاته الخاصة ، ومهما يكن من أمر انغماسه فى أهوائه أو افساح المجال لعواطفه ، فإن من مصلحته ، دون ريب ، أن يحترم رعاياه الالتزامات الطبيعية والمدنية فى المجتمع . ولكن اثر اعمال أحكم القوانين ناقص معيب مزعزع ، لأنها ، أى القوانين ، قل أن توحى بالفضيلة ، ولا تستطيع دوما أن تحدد من الرذيلة . وليس لها من القوة الكافية ما يردع عن ارتكاب كل ما تعاقب عليه ، كما أنها لا تستطيع فى كل الأحوال أن تعاقب كل ما تحرمه . وقد أهاب المشرعون القدامى بقوى التعليم والرأى لمعاونتهم . ولكن كل مبدأ كان له يوما اثره فى المحافظة على نضارة ونقاوة روما واسبرطة ، انطفأت جذوته منذ زمن طويل فى كنف امبراطورية استبدادية متداعية . وظل للفلسفة سلطانها الرقيق على العقل الانسانى ، ولكن قضية الفضيلة لم يكن لها من خرافة الوثنية الا سند هزيل واه . وربما حق للحاكم الفطن ، فى هذه الظروف المثبطة ، أن يغتبط ويبتهج اذ يرقب تقدم ديانة نشرت بين الناس أسلوبا نقياً خيراً عاماً من الأخلاق ، أسلوبا صالحا لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، أسلوبا تواضعا به على أنه يمثل ارادة « الاله الأعظم » ومنطقه ، وفرضوه بضمان الثواب أو العقاب الأبدى . ولم تستطع تجربة التاريخ اليونانى والرومانى أن تبين للعالم كيف يمكن اصلاح الخلق الوطنى أو تهذيبه بتعاليم الوحى الالهى ، وربما أصغى قسطنطين ، فى شىء من الثقة ، الى توكيدات لكتانتيوس المثقلة ، ولكنها المعقولة حقا ، فإن هذا المدافع المفوه الفصيح ، فيما يبدو ، توقع ، أو على الأرجح جرؤ على أن يعد ، بأن اقرار المسيحية سوف يحدد براءة العصور البدائية وهنأتها ، وأن عبادة الاله الحق سوف تخمد الحروب والفتن بين من يعتبرون أنفسهم على قدر سواء أبناء أب واحد مشترك بينهم ، وأن أية رغبة جامحة وايه عاطفة أنانية نائرة سوف تحدد منها وتخفف من غلوائها المعرفة بالانجيل ، وأن

الحكام سوف يغمدون سيف العدالة وسط شعب تحركه كله مشاعر الصدق والتقوى والانصاف والاعتدال والانسجام والمحبة الشاملة .

ولابد ان الطاعة السلبيه العمياء التى تخضع لنير السلطة ، بل حتى للظلم والجور ، قد بدت لعينى الحاكم المستبد المطلق أبرز الفضائل الانجيلية وانفعها . ان المسيحيين الأولين لم يستمدوا نظم الحكومة المدنية من رضا الشعب وموافقته ، بل استمدوها من قوانين السماء . وعلى الرغم من أن الامبراطور الحاكم كان قد اغتصب التاج عن طريق الخيانة والقتل ، فانه انتحل على الفور الشخصية المقدسة ، أى شخصية نائب الله فى الأرض . وكان أمام الله وحده محاسباً على سوء استغلال سلطته ، وكان رعاياه مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه ، بعهد الاخلاص لطاغية أنتهك حرمة كل قوانين الطبيعة والمجتمع . وخرج المسيحيون المتواضعون الى الدنيا وكانهم حاملان بين ذئاب ، ولما كان من غير الجائز لهم أن يستخدموا القوة حتى فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم ، فانه يظل من اكبر الوزر أن تفرغهم الامتيازات العقيمة أو المتاع الدنىء فى الحياة العابرة ، بسفك دماء أقرانهم . وإيماناً منهم بنظرية أحد الحواريين الذى بشر فى عهد نيرون بواجب الامتثال غير المشروط ، ظلت ضمائر المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى نقية من أوزار المؤامرات السرية أو التمرد العلنى . وفى الوقت الذى عانوا فيه من بطش الاضطهاد ، لم يستفزههم شىء قط الى امتشاق الحسام فى وجه حاكمهم الطاغية ، ولم ينفروا ساخطين قط الى أى ركن قصى منعزل فى الكرة الأرضية . ان البروتستانت فى فرنسا وانجلترا والمانيا ، أولئك الذين أكدوا فى جراءة وبسالة حريتهم المدنية والدينية ، قد أساء اليهم بالمقارنة المثيرة الحاقدة بين سلوك المسيحيين الأولين وسلوك المسيحيين دعاة الاصلاح الدينى . وربما كان جديراً بنا عوضاً عن اللوم والتأنيب ، أن نمتدح ذلك المعنى السامى وتلك الروح العالية فى أسلافنا البروتستانت دعاة الاصلاح ، الذين اقتنعوا بأن الدين لا يمكن أن يلغى الحقوق الأساسية التى أقرتها الطبيعة البشرية . وربما جاز أن ننسب صبر الكنيسة الأولى الى ضعفها والى روح الفضيلية فيها على حد سواء . فان طائفة من العامة غير المحاربين ، بل قيادة ، وبلا سلاح وبلا تحصينات ، كان لزاماً أن تواجه دماراً محققاً محتوماً ، اذا هى اندفعت فى مقاومة يائسة عقيمة لسيد الجيوش الرومانية . ولكن المسيحيين ، حين أثاروا غضب دقلديانوس أو التمسوا عطف قسطنطين ، استطاعوا أن يزعموا فى صدق وثقة ، أنهم التزموا مبدأ الطاعة السلبيه ، وأن سلوكهم فى مدى ثلاثة قرون كان دائماً منسجماً

مع مبادئهم . وربما أضافوا الى هذا أن عرش الأباطرة يمكن أن يرتكز على أساس متين ثابت اذا تعلم كل زعاياهم الذين يعتقدون المسيحية ، ان يحتملوا ويمثلوا .

ان الأمراء والطفاة ليعتبرون ، وفقا للنظام العام « للعناية الالهية » بمثابة وزراء للسماء ، عينوا ليحكموا وينزلوا القصاص باسم الأرض . ولكن التاريخ المقدس يزودنا بأمثلة رائعة لتدخل الله بطريق أقرب لأن يكون مباشرا في حكومة شعبه المختار ، فقد أودع الصولجان والسيف بين يدى موسى ويشوع ، وجدعون وداود — بين المكابيين Maccabees وكانت فضائل هؤلاء الأبطال خافزا للعطف الالهى أو نتيجة له ، وقدر لنجاحهم في الحرب أن يحقق خلاص الكنيسة أو انتصارها . واذا كان قضاء اسرائيل حكاما طارئين مؤقتين ، فان ملوك يهوذا اقتبسوا من المسحة الملكية لسلفهم العظيم حقا وراثيا لا يبس ، ولا يمكن أن تفقدهم اياه ردائلهم ، أو تبطله نزوات رعاياهم . وربما اختارت « العناية الالهية » نفسها ، التى لم تعد تقصرا على الشعب اليهودى — اختارت قسطنطين وأسرته ليكونوا حماة العالم المسيحي . وراح لكتانتيوس الناسك المتعبد يعلن في نبرات رسولية ، المجد الذى سوف يتالق في سماء حكمة المديد الذى سيعم العالم . وكان جالوريوس ومكسيمين ومكسنتيوس وليسينيوس منافسين شاركوا « حبيب السماء » ولايات الامبراطورية . وسرعان ما أرضت مأساة موت كل من جالوريوس ومكسيمين سخط المسيحيين ، وحقت تمنياتهم الدموية . وازاح تغلب قسطنطين على مكسنتيوس وليسينيوس ، عن طريقه مزاحمين عنيديين ظللا يعارضان انتصار « داود الثانى » . وربما ادعت قضيته ، فيما يبدو ، أن العناية الالهية قد تدخلت فيها وباركتها بصفة خاصة . لقد لوئت شخصية الطاغية الرومانى الحلة الامبراطورية والطبيعة البشرية . وربما تمتع المسيحيون بعطفه المتقلب ، ولكنهم كانوا رغم ذلك معرضين ، مع سائر رعاياه ، لأثار نزقه وقسوته الغاشمة . وسرعان ما فضح سلوك ليسينيوس أنه كان قد وافق ، وهو كاره على القواعد الخكية الانسانية التى تضمنها مرسوم ميلان . فقد حرم فى ممتلكاته اجتماعات المجالس الكنسية فى الولايات ، وعزل موظفيه المسيحيين بشكل مقيت ، واذا كان قد تفادى زر — أو قل خطر الاضطهاد العام ، فان مظالمه ستظل أبشع وأشنع بانتهاكه التزاما رسميا وافق عليه طواعية واختيارا . وبينما كان الشرق — على حد التعبير الحامى الذى ذكره يوسوبوس — يتعثر فى دياجير ظلام خبيث ، بعثت اشعة الأنوار السماوية الدفء فى ولايات الغرب

وأضاعت جوانبها . وقد اعتبر ورع قسطنطين دليلا كاملا على عدالة  
أسلحته ، وأكد استغلاله للنصر رأى المسيحيين في أن بطلهم كان  
يتصرف بالهام وتوجيه من « رب الحشود » ، لقد انبثق عن غزو  
إيطاليا مرسوم عام للتسامح ، وما أن تفرد قسطنطين ، بعد هزيمة  
ليسينيوس ، بالسلطان في دنيا الرومان ، حتى بعث بكتب دورية الى  
كل الأقاليم يحض فيها جميع رعاياه على أن يقتدوا ، دون إبطاء  
بمليكتهم ، وأن يؤمنوا بالحقيقة الإلهية ويدخلوا في المسيحية .

وولد الاعتقاد الراسخ بأن اعتلاء قسطنطين العرش مرتبط ارتباطا  
وثيقا بالتدبيرات الإلهية — ولد في عقول المسيحيين رأيين ساعدا  
بوسائل مختلفة على تحقيق النبوءة . فاستنفذ ولاؤهم الجاد الحار  
كل جهد إنساني في سبيل نصرته ، وتوسعوا عن يقين أن الله سوف يؤيد  
جهودهم بعون خارق من عنده . أما أعداء قسطنطين فقد عزوا هذا  
التحالف الذي عقده بطريقة غير ملحوظة مع الكنيسة الكاثوليكية ،  
والذي ساعد على تحقيق أطماعه ، الى دوافع غير نزيهة تنفق مع  
مصلحته هو ، وفي أوائل القرن الرابع كانت نسبة عدد المسيحيين الى  
مجموع سكان الامبراطورية لا تزال ضئيلة ، ولكن ربما ساعدت روح  
الطائفة الدينية ووحدها — وسط شعب منحل نظر الى تغير حكمه  
بلا مبالاة كما يفعل العبيد — نقول ربما ساعدت هذه الروح القاسد  
المحسوب الذي وضعت الطائفة ، بوحى من ضمائرهما ، حياتها وأموالها  
في خدمته . وكانت لقسطنطين في أبيه أسوة حسنة ، حيث تعلم منه أن  
يقدر شمائل المسيحيين ويكافئهم عليها . وتهيأت له فوق ذلك ميزة  
تقوية حكومته باختيار نظار أو قادة يمكن أن يثق في اخلاصهم ثقة  
حققة لا حدود لها . وكان لزاما ، بفضل نفوذ هؤلاء الرجال أن يتضاعف  
عدد المهتدين الى العقيدة الجديدة في البلاد والجيش ، وكان المتبربرون  
الألمان الذين ملأوا مختلف مراتب الجيش ، يتميزون بقدر من السفلة  
والخفة تقبلوا معه ديانة قائدهم دون مقاومة ، ويمكن القول في انصاف  
أن عددا كبيرا من الجنود ، عندما عبروا جبال الألب ، قد ونسوا  
أسلحتهم في خدمة المسيح وخدمة قسطنطين . وخففت طبائع البشر  
وبواعث الدين ، يوما بعد يوم من أهوال الحرب وسفك الدماء ، التي  
سادت بين المسيحيين زمتا طويلا . وفي المجالس التي انعقدت تحت  
حماية قسطنطين استخدم الأساقفة في الوقت المناسب سلطانهم لاقرار  
اليمن العسكرية ، وانزال عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة بأولئك  
الجنود الذين القوا سلاحهم حين ساد الهدوء الكنيسة . وفي الوقت  
الذي زاد فيه قسطنطين ، في نطاق ملكه ، من عدد أتباعه

ومن غيرتهم وحماسهم ، كان يستطيع أن يعتمد على تأييد حزب قوى في الولايات التي ظلت بعد تحت حكم منافسيه ، أو تلك التي اغتصبها ، وسرى شعور خفى بالبعوض والنفور بين رعايا مكسنتيوس وليسينيوس المسيحيين . ولم يجد الفيظ الذي لم يحاول الأخير أن يخفيه ، الا في زيادة انحيازهم الى جانب غريمه . واستطاع الأساقفة ، بفضل المراسلات المنتظمة التي ربطت بين بعضهم بعضا في أقصى الولايات ، أن ينقلوا ، في حرية تامة ، رغباتهم وخططهم ، وأن يوصلوا — دون ما خطر — أية أنباء مفيدة أو أية تبرعات ورعة ، يمكن أن تدغم مركز قسطنطين الذي أعلن جهارا أنه قد امتشق الحسام من أجل خلاص الكنيسة .

### رؤيا قسطنطين

زاد الحماس الذي غير الجنود — وربما غير الامبراطور كذلك — من حدة سيوفهم وقوة سلاحهم ، كما أثلج صدورهم وأرضى ضمائرهم . فتقدموا الى المعركة ، وهم على يقين تام من أن الله الذي شق من قبل للاسرائيليين طريقا عبر مياه الأردن ، وحطم أسوار أريحا أمام صوت أبواق يشوع — لا بد أن يكشف للعيان عن عظمته وقوته في انتصار قسطنطين . ان شواهد تاريخ الكنيسة مستعدة للتأكيد بأن تمنياتهم بررتها المعجزة البارزة التي ينسب اليها الجميع تقريبا تحول أول امبراطور الى المسيحية . وان السبب الحقيقي أو الخيالي لمثل هذا الحدث الجليل الخطر ، ليستحق ويتطلب اهتمام الأجيال القادمة . وسأحاول أن أكون تقييما صادقا لرؤيا قسطنطين المشهورة بدراسة متميزة للرؤية وللحم وللعلامة السماوية ، عن طريق الفصل بين الجوانب التاريخية والطبيعية والخرافة أو المعجزة في هذه القصة الغريبة ، التي مزجت في دهاء في كتلة ضخمة هشة ، رغبة في صياغة حجة خداعة حسنة المظهر .

١ — أصبحت آلة من آلات التعذيب الذي كان ينزل بالعبيد والغرباء وحدهم ، موضع الهلع والفرع في نظر المواطن الروماني . وارتبطت فكرة الذنب والالام والفضيحة ، ارتباطا وثيقا بفكرة

الصليب (١) . وسرعان ما ألغت روح التقوى في قسطنطين — أكثر من الروح الانسانية فيه — ألغت في نطاق ملكه تلك العقوبة التي تفضل السيد « المسيح المخلص » معانها ، ولكن الإمبراطور كان قد تعلم أن يحتقر الأهواء التي تلقاها في فترة تنشئته وتربيته وكذا أهواء شعبه ، قبل أن يتمكن من أن يقيم وسط مدينة روما تمثالا له وهو يحمل الصليب في يده اليمنى ، مع نقوش ترجع الفضل في انتصاره في ساحة الوغى ، وتخليص روما ، الى هذه العلامة المباركة ( الصليب ) ، الرمز الصادق للقوة والشجاعة . واضفى نفس الرمز على أسلحة جنود قسطنطين قدسية وطهرا ، فتألق على خوذاتهم ، ونقش على دروعهم ، ونسج على راياتهم ، وتميزت الشعارات المقدسة التي ازدان بها الإمبراطور نفسه بأنها صنعت من مادة أعلى قيمة ، وبقدر أكبر من الدقة والابتقان . ولكن الراية الرئيسية التي أشارت الى فوز الصليب كانت تسمى لاباروم Labarum ، وهو لفظ غامض ، ولكنه مشهور ، اشتق عبثا من كل لغات العالم تقريبا ، ووصفت هذه الراية بأنها عبارة عن عمود خشبي له رأس حديدي مدبب يتقاطع معه قضيب مستعرض ، تتدلى منه الراية المصنوعة من الحرير ، وقد نسجت عليها صور المعامل الحاكم وأبنائه ، وارتكز على رأس العمود تاج من الذهب ، بداخله الطغراء الغامضة التي تمثل كذلك شكل الصليب والحروف الأولى من اسم السيد المسيح . وعهد بحراسة هذه الراية « لاباروم » الى خمسين حارسا مشهودا لهم بالبسالة وصدق الإيمان ، وتميز مركزهم بما أضفى عليهم من أمجاد ، وما منحوا من رواتب عالية . وسرعان ما وقعت أحداث سعيدة أدت الى الرأى القائل بأن نيال العدو لن تنفذ الى حراس الراية « لاباروم » وأنهم في مأمن من الخطر طالما كانوا قائمين عليها . وأحس ليسينيوس ، في الحرب الأهلية الثانية بقوة هذه الراية المقدسة وتوجس منها خيفة ، تلك الراية التي أثار منظرها ، وسط احتدام المعركة ، في جنود قسطنطين حماسا لا يقهر ، ونشر الرعب والفرع في صفوف أعدائهم . ورفع الأباطرة المسيحيون الذين حذوا حذو قسطنطين ، راية الصليب في كل حملاتهم الحربية . ولما انقلع خلفاء تيودوسيوس المنحلون عن الظهور على رأس جيوشهم ، أودعت

(١) أصاب الكتاب المسيحيون : جوستين ، مينوسيوس ، هليكس ، تروتوايان . جيروم ، مكسيموس تورين ، قدرا معقولا من النجاح في استنصاف شكل الصليب أو شبيه له في الطبيعة أو الفن : في تقاطع الزوال مع خط الاستواء ، في وجه الانسان ، وطاقر يخلق . ورجل يسبح ، وفي الصارية ، وفي الفناء . في المحراث وفي العلم . . . وغيرها .

راية « لباروم » قصر القسطنطينية على أنها أثر وقور رفيع الشأن ، ولكنه عقيم غير مجد . ولا تزال أمجاد هذه الراية باقية على رصائع ( ميداليات ) أسرة فلافيوس . ونتيجة لنسكهم الشكور وضجوا طغراء المسيح وسط شعارات روما ، واستخدمت في الأنصاب التذكارية الدينية والحربية على السواء تلك العبارات المهيبة : « سلامة الجمهورية » ، « مجد الجيش » ، « سعادة الشعب » ، ولا تزال توجد زصيعا ( ميدالية ) قسطنطينوس ، وعليها راية « لباروم » مقرونة بالعبارة التذكارية « بفضل هذه الراية سوف تنتصر » .

٢ - درج المسيحيون الأولون على أن يحصنوا عقولهم وأجسامهم في كل أوقات الخطر والضيق بعلامة الصليب ، التي استخدموها في كل شعائرهم الكنسية ، وفي كل وقائع الحياة اليومية ، على أنها عاصم محقق من كل شر روحي أو دنيوي . وربما كان لسلطان الكنيسة وحده من الأهمية والاعتبار ما يبرر اخلاص قسطنطين الذي اعترف في خطي وثيدة حذرة بصدق المسيحية واتخذ رمزها شعارا له . ولكن شهادة كاتب معاصر كان يدافع عن قضية الدين في رسالة رسمية ، تضى على وزع الامبراطور طابعا أشد رهبة وأكثر وقارا . فهو يؤكد ، بأكثر قدر من الثقة واليقين ، أن قسطنطين ، في الليلة السابقة على آخر معركة مع مكسنتيوس ، تلقى في المنام تخبيا بحفر علامة الله السماوية أى طغراء اسم المسيح المقدسة على دروع جنوده ، كما أنه قام بتنفيذ أوامر السماء ، وفاز بالنصر الحاسم عند جسر ميلفيا *Milvia* جزاء وفاقا على بسالته وامثاله . وربما حدث بعض الاعتبارات بالعقل المشكك الى الارتباب في حكم أو صدق رب البلاغة الذي سخر قلبه ، بدافع الغيرة أو بدافع المصلحة ، لخدمة الطائفة الغالبة ، فقد نشر ، على ما يبدو ، وفيات الظالمين في نيقوميديا ، بعد نحو ثلاث سنوات من انتصار الرومان . ولكن مسافة الألف من الأميال ، وفرة الألف من الأيام لابد تفسحان مجالا واسعا لادعاءات الخطباء المؤثرين ، ولسرعة تصديق الطائفة ، وللاستحسان الضمني الصامت من جانب الامبراطور الذي ربما أصغى في ارتياح الى هذه القصة الخارقة التي رفعت ذكره وأنجحت مساعيه . وأورد نفس المؤلف ، مجاملة للبيسينيوس ، رؤيا في صيغة دعاء نقله أحد الملائكة وردده كل جيشه قبل أن يلتحم مع جنود الطاغية مكسيمين . ان كثرة تكرار المعجزات تستفز العقل البشري ، حين لا تستطيع أن تخضعه . ولكنا اذا أنعمنا النظر في رؤيا قسطنطين ، على حدة ، فقد يكون من الطبيعي أن تفسرها سياسة الامبراطور أو حماسه . ففى سنة قصيرة من نوم متقطع ، هجع فيها قلقه من

اقتراب اليوم الذى لا بد أن يتحدد فيه مصير الامبراطورية ، فرضت صورة المسيح والرمز المعروف المشهور لديانته نفسيهما على الخيال اليقظ لأمير مجد اسم الهه المسيحيين ، وربما التمس منه العون والقوة سرا . فان أى رجل دولة أو سياسى أريب مستعد إلى اللجوء إلى مناورة أو خدعة حربية من أمثال تلك الاحتمالات المروعة التى عمد إليها فيليب وسرتوريوس Sertorius ( فى القرن الأول قبل الميلاد ) بنفس القدر من الدهاء ، فانت بنفس النتيجة . لقد آمنت كل الأمم القديمة عامة بمنشأ الأحلام الخارق للطبيعة ، وأصبح جزء كبير من جنود الفال مستعدا بالفعل لوضع ثقته فى تلك العلامة الناجمة ، علامة السدين المسيحى . وقد تكذب الواقعة وحدها رؤيا قسطنطين الخفية أو تدحضها ، وربما رأى يطل الصنديد الذى كان قد عبر الألب والأبنين ، فى يأس فائت ، نتائج الاندحار تحت أسوار روما . واعتزف السناتو والشعب الذين هلكوا لخلاصهم من طاغية بغيض بان انتصار قسطنطين جاوز قدرة البشر ، دون أن يجسروا على التلميح إلى أن هذا كان من صنع الآلهة . وان قوس النصر الذى أقيم بعد هذا الحادث بسنوات ثلاث ، ليعلم فى عبارة مبهمه ، أنه أنقذ دولة الرومان وثأر لها ، بفضل عظمة عقله ، وبفضل الفطرة أو البواعث الالهية . ويذهب الخطيب الوثنى الذى انتهر فرصة مبكرة قبل ذلك ليشتيد بمناقبة الامبراطور الفاتح ، يذهب إلى الظن بأنه هو وحده ، أى الامبراطور ، سعد بعلاقة وثيقة خفية مع « الكائن الأعظم » الذى فوض أمر العناية بالمخلوقات الفانية إلى الآلهة الذين هم أدنى منه مرتبة . ومن ثم يحدد هذا الخطيب سببا مقبولا شكلا يعلل به : لماذا لا يجدر برعايا قسطنطين أن يقدموا على اعتناق ديانة مليكهم الجديدة .

٣ — ومن المحتمل أن ينتهى الفيلسوف الذى يتفحص فى ارتياب هادىء ، الأحكام والنذر والبشائر والمعجزات والكرامات ، فى تاريخ الرجس ، بل حتى فى تاريخ الكنيسة — ينتهى إلى أنه اذا خدع النصب والاحتفال أحيانا أبصار الناظرين ، فكم امتهن القصص الخيالى عقول القراء !! فان أى حادث أو مظهر طارىء يبدو انحرافه عن المجرى العادى للطبيعة ، قد نسب فى اندفاع وطيش إلى التدخل المباشر للآلهة . وأضفى خيال الجمهور المذهول شكلا ولونا ولغة وحركة على النيازك الخاطفة غير المألوفة . ان نازاريوس ويوسوبوس هما أشهر خطيبين ، جهدا فى مديح بليخ منق ، فى أن يشيدا بمجد قسطنطين . فان نازاريوس يصف بعد تسع سنين من انتصار الرومان ، جيشا من محاربين الهين يبدو أنهم هبطوا من السماء ، ويشير إلى جمالهم



وروحهم ، وأشكالهم الضخمة ، وفيض النور الذي شع من أسلحتهم السماوية ، وجلدهم على تعريض انفسهم لأبصار أهل الأرض وأسماعهم ، وتصريحهم بأنهم أرسلوا وانهم طاروا لنجدة قسطنطين العظيم . ويهيب الخطيب الوثني بأمة الغال بأسرها ، التي كان يخطب في حضرتها أن تصدق هذه الكرامة ، يحدوه الأمل ، فيما يبدو ، في أن تحظى الآن الرؤى السابقة بشيء من التصديق والاهتمام من هذا الحادث الجديد العام . أما خرافة يوسوبوس المسيحية ، والتي ربما نبعت على مدى ستة وعشرين عاما ، من نفس الحلم الأصلي ، فقد صيغت في شكل أصح وأرشق ، فقد ذكر أن قسطنطين في إحدى مسيراته رأى رأى العين النصب التذكاري المضى للصليب موضوفا فوق شمس الظهيرة ، وقد نقشت عليه هذه العبارة : « بهنذا فلتقلب » . وأدهش هذا الشيء المذهل في السماء كل الجيش بأسره فقدر ما أدهش الإمبراطور نفسه . الذي لم يكن قد استقر رأيه بعد على اختيار دين . ولكن رؤيا الليلة التالية حولت دهشته الى إيمان . فقد ظهر المسيح لناظره ومعه علامة الصليب السماوية نفسها . وأمر قسطنطين أن يصنع راية شبيهة بهذه العلامة ، وأن يسير ، موقنا بالنصر ، الى ملاقاتة مكسنتيوس وسائر أعدائه - ويبدو أن أسقف قيصرية العلامة رأى أن الكشف عن هذه القصة الخارقة آنذاك ( في وقت متأخر ) سوف يثير الدهشة والريبة في نفوس أشد قرائه تقى وورعا . ولكن ، بدلا من تحديد الظروف الدقيقة للزمان والمكان ، التي تفيد دائما في اظهار ملامح الكذب أو جلاء وجه الحق ، وبدلا من أن يجمع ويسجل أدلة كثير من شهود العيان الأحياء الذين لا بد أنهم رأوا رأى العين هذه المعجزة الفذة ، يكتفى يوسوبوس بدليل غاية الغرابة ، يزعمه من عقدياته ، فهو يدعى أن الإمبراطور الراحل قسطنطين ، بعد عدة أعوام من هذه الواقعة انطلق معه في الحديث ، فروى له قصة هذا الحادث الفريد في حياته ، وأكد صحته بأغليظ الأيمان . وأبت على الحبر العلامة فطنته وعرفانه للجميل أن يشك في صدق سيده الظافر ، ولكنه يشير في صراحة ووضوح ، الى أنه لزاما عليه أن يرفض التسليم بحقيقة من مثل هذا النوع إذا جاءت من مصدر غير وثيق ، ولكن بواعث التصديق لم تعمر بعد أن دالت دولة أسرة فلانفيوس ، أما العلامة السماوية التي ربما سخر منها الزنادقة فيما بعد ، فقد أغلفها المسيحيون في العصر الذي تلا تحول قسطنطين مباشرة . ولكن الكنيسة الكاثوليكية في الشرق والغرب معا ، تبنت علامة تلتئم ، أو يبدو أنها تلتئم مع عبادة الصليب التي يمارسها الناس .

واحتلت رؤيا قسطنطين مكانا مرموقا في أساطير الخرافة ، حتى تجاسرت روح النقد الجريئة الحكيمة على أن تقض من قدر الامبراطور المسيحي الأول وتناقش صدق روايته .

### تعميد قسطنطين

يميل قراء العصر الحاضر من البروتستانت والفلاسفة الى الاعتقاد بأن قسطنطين ، في روايته عن تحوله الى المسيحية ، أقر بهتانا صارخا بيمين غموس رهيبية متعمدة . وقد لا يترددون في القول بأنه في اختيار الدين كان مسوقا بوازع من مصلحته ، وانه ( على حد تعبير شاعر ملحد ) قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى به الى عرش الامبراطورية . ومهما يكن من أمر ، فان معرفتنا بالطبيعة البشرية وبقسطنطين وبالمسيحيين لا تسيع الجزم بمثل هذه النتيجة القاسية المطلقة . فاللحوظ في عصر تسوده الحمية الدينية ، أن أكثر الساسة دهاء يستشعرون شيئا من الحماس الذي يبثونه في الناس ، على حين يتخذ أكثر القديسين استقامة لأنفسهم تلك الميزة الخطيرة ، ميزة الدفاع عن قضية الحق بأسلحة الغش الباطل . وجدير بالذكر أن المصلحة الشخصية كثيرا ما تكون مقياس ايماننا ومقياس عملنا وتصرفنا ، على حد سواء . وعلى هذا من الجائز أن نفس بواعث المنفعة الدنيوية التي وجهت سلوك قسطنطين واعماله العامة ، جنحت به ، دون أن يحس ، الى اعتناق ديانة تلتئم مثل هذا الالتئام مع شهرته ومصيره وحظه . وقد أرضى غروره التوكيد المقرون بالملق بأن السماء قد اختارته ليحكم الأرض . وكان في نجاحه ما يبرر حقه المقدس في العرش . وكان هذا الحق مرتكزا على صدق الوحي المسيحي . وقد يثير المديح الذي يكال بغير حق في بعض الأحيان ، فضيلة أصيلة حقة ، فإذا كان ورع قسطنطين في البداية مجرد تمويه ظاهري ، فان هذا الورع الموه ربما تحول يوما بعد يوم ، تحت تأثير الاطراء والتعود والاقتداء ، الى ايمان جدى وأخلاص حار . وأجيز لاساقفة الطائفة الجديدة ومعلميها الذين لم تكن آداب سلوكهم ولا ملابسهم تؤهلهم للارتفاع الى مقام الحاشية ، أن يجلسوا الى المائدة الامبراطورية ، وتسلط أخدمهم ، وهو مصري أو أسباني ، على عقل الامبراطور بشكل اعتبره الوثنيون ضربا من السحر ، وأصبح لكتانتيوس الذي دبح تعاليم الانجيل ببلاغة شيشرون ، ويوسوبوس الذي سخر علم اليونان وفلسفتهم لخدمة الدين ، صديقين اليقين لليكهما ، وارتفعت الكلفة بينه وبينهما . واستطاع هذان العالمان ،

على ما بينهما من تفاوت ، أن يتحينا في جلد وصبر ، اللحظات الهائلة الواتية للافتناع والاغراء ، ليدلنا في حذق وبراعة بأكثر الحجج تناسبا مع خلق الأمبراطور وادراكه . ومهما يكن من أمر المزاي التي يمكن الظفر بها من الفوز بمهتد امبراطوري ، فانه لم يكن يتميز عن الآلاف المؤلفة من رعاياه الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية الا بالحلة الإمبراطورية أكثر منه بالتفوق في مجال الحكمة والفضيلة . وقد لا يكون من غير المعقول أن يستسلم عقل جندي غير متعلم لقيمة الدليل الذي أقنع أو أخضع ، في عصر أكثر استنارة ، منطق أو عقل جروشيوس أو بسكال أو لوك . وفي زحمة المهام المتلاحقة لمنصبه الخطير ، قضى هذا الجندي ، أو تظاهر بأنه يقضى ، ساعات الليل في دراسة واعية للكتاب المقدس ، وفي اعداد الأحاديث اللاهوتية التي كان يدلى بها بعد ذلك الى جمهور المستمعين المادحين المصفقين . ويطنب الواعظ المسكى في حديث طويل له ما يزال باقيا حتى الآن ، في ذكر مختلف البراهين الدينية ، ولكنه يضرب في ارتياح خاص ، على نغم أشعار العرافة سيبييل (Sibyl) وعلى نشيد الرعاة الرابع من أناشيد فرجيل ، فان شاعر مانتوا هذا ( Mantua مدينة في شمال ايطاليا مسقط رأس فرجيل ) — قبل ميلاد المسيح بأربعين عاماً — شاد ، وكأنه استلهم أفكار أشعيا السماوية ( أحد أنبياء بنى اسرائيل في القرن الثامن قبل الميلاد ) في فخامة لغة الشرق واستعاراتها — شاد بعودة العذراء ، وموت الثعبان ، واقتراب مولد طفل الهى من نسل جوبيتر العظيم يكفر عن آثام البشر ، ويحكم الكون الهاديء بفضائل أبيه ، كما شاد بنشأة جنس سماوى ، وظهور أمة بدائية تنتشر في كل بقاع العالم ، وأخيراً باستعادة براءة العصر الذهبي وهنائه يوما بعد يوم ، ومن الجائز أن الشاعر لم يدرك المعنى والمضمون الخفيين لهذه التنبؤات السامية ، التي انصرفت ، بغير حق الى طفل من أبناء القنصل أو أحد الحكام الثلاثة ( يشين الى قسطنطين ) ولكن اذا كان تفسير أكثر روعة وتمويها للنشيد الرابع ، قد ساعد على تحول قسطنطين الى المسيحية ، لاستحق فرجيل أن يوضع في مصاف أعظم الدعاة الى الانجيل نجاحا وتوفيقا .

وأخفيت الأسرار الرهيبية للديانة والعبادة المسيحيين عن عيون الغريباء ، بل حتى عن طالبى المعمودية في تكتم أفلح في إثارة دهشتهم وفضولهم . ولكن القواعد الصارمة للنظام الذى انتضت فطنة الأساقفة وضعه ، تراخت مع نفس القدر من الفطنة من أجل الامبراطور المهتدى ، الذى كان من الأهمية بمكان اغراؤه بكل ملاطفة وديعة للدخول في

حظيرة الكنيسة . وأبيح لقسطنطين على الأقل بمقتضى فتوى ضمنية صامتة ، أن يتمتع بمعظم امتيازات الرجل المسيحي قبل أن يتقيد بشيء من التزاماته . وبدلاً من مغادرة المجمع إذا ارتفع صوت الشماس أيدانا بانصراف الجمهور الدنس ، صلى هو مع المؤمنين ، وجادل الأساقفة ، ووعظ في أشد موضوعات اللاهوت تعقيداً ودقة ، واختفل بالشعائر المقدسة في ليلة عيد الفصح ، ولم يعلن أنه مجرد « متناول » أو مشارك ، بل أعلن نفسه — الى حد ما — كاهناً أو قسيساً ضليعاً في الأسرار المسيحية . وربما اقتضى غرور قسطنطين بعض التمييز الخارق ، وقد استحققت خدماته هذا التمييز ، وكان من الجائز أن تعصف الصرامة — اذا عومل بها في غير أوانها — بثمار تحوله التي لم تنضج بعد . واذا أحكم اغلاق أبواب الكنيسة في وجه أمير هجر مذابح الآلهة ، لبات سيد الإمبراطورية عاطلاً عن أى لون من ألوان العبادة الدينية . وفي آخر زيارة له لمدينة روما ، أنكر الإمبراطور عقيدة آبائه وأجداده وامتنها ، حين رفض أن يتصدر موكب الفرسان العسكرى ، وأن يقدم النذور العامة للاله جوبيتر في الكابيتولين . وقبل تعميم قسطنطين ووفاته بنعذة أعوام ، أعلن على الملأ أن شخصه أو رسمه لن تقع عليه العين بعد الآن داخل أى معبد وثنى ، وفي نفس الوقت وزع على الولايات مجموعة من الميداليات والصور التي تمثل الإمبراطور في وضع متعبد مسيحي يتذلل ويبتهل .

وانه ليصعب تفسير أو تبرير كبرياء قسطنطين الذى أبى أن ينعم بركة المعمودية . ولكن يمكن تبرير الإبطاء في تعميده ، بقواعد الكنيسة القديمة وطقوسها . وكان الأسقف ، مع معاونيه من الأكليروس ، يقوم بنفسه بإجراءات التعميد في أوقات منتظمة في الكنيسة الكاتدرائية في الأسقفية ، في الخميسين يوماً التي تقع بين الاحتفالات المهيبة بعيد الفصح وعيد العنصرة . وكانت هذه الفترة المقدسة تفسح المجال لضم كثير من الأطفال والبالغين الى احضان الكنيسة ، وكثيراً ما اقتضى حزم الأبناء تأجيل تعميم أطفالهم الى أن يستطيعوا فهم الالتزامات التي تقيدوا بها ، كما فرض تشدد الأساقفة على المتحولين الجدد قضاء فترة اختبار وتجربة تمتد الى عامين أو ثلاثة أما طالبو الدخول في النصرانية أنفسهم ، فقلما كانوا غيورين على اتخاذ شخصية المسيحي الكامل المثبت ، وذلك نتيجة بواعث مختلفة دنيوية وروحية ، وكان المفروض أن يتضمن التعميد قضاء تاماً مطلقاً على الذنوب ، وعودة النفس في الحال الى نقاوتها الأصلية الأولى ، وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . ورأى عدد كبير من بين المهتدين الى المسيحية أنه ليس من الحكمة

التعجيل بشعيرة نافعة. لا يمكن تكرارها ، وأن يهملوا ميزة لا قبلية لها ، ولا يمكن استرجاعها . فانهم يتأجل تعميدهم يستطيعون ، في حلية ويسر ، أن يشبعوا شهواتهم وينغمسوا في متاع الدنيا . على حين يحتفظون في أيديهم بوسيلة الغفران الميسور (١) . وكان أثر نظرية الانجيل السامية على قلب قسطنطين أضعفت منه على ادراكه وفهمه . فمسلك جريا وراء مطمعه الكبير سبيل السياسة والحرب اللتوية المظلمة الملطخة بالدم ، وأسلم نفسه ، بعد النصر ، الى المغالاة في استغلال حظه استغلالا سيئا في سرق بالبح . وعوضا عن توكيد تفوقه الحق على بطولة تراجان والأتونيين المشوهة المعيبة وغلقتهم الوثنية الدنسة ، فقد قسطنطين عنكما تقدمت سنة تلك الشهرة التي كان قد ظهر بها أيام شبابه . وكلما تقدمت به الأيام في الوقوف على جوهر الحقيقة ، هبط بنفس القدر تعلقه بأهداب الفضيلة . وتلطخت نفس السنة من حكمة التي دعا فيها الى عقد مجلس نيقية ، باعدام أكبر ابنائه ، أو قل ذبحه . وهذا التاريخ وحده كاف لدحض مزاعم زوسيموس الجاهلة الخبيثة ، الذي يؤكد ، أنه بعد موت كرسبوس ، حظى أبوه من آباء الكنيسة المسيحية ، لقاء ما أحس من وخز الضمير ، بالغفران الذي كان قد التمسه عبثا من الأعيار الوثنيين . وعند وفاة كرسبوس لم يعد الامبراطور يستطيع التردد في اختيار ديانة ، ولم يعد يجهل أن لدى الكنيسة علاجا أكيدا ، ولو أنه ارتأى أن يؤجل استخدامه حتى يحول دنو أجله دون الاغزاء بالانتكاس ودون خطره . وتأثر الأساقفة الذين دعاهم في مرضه الأخير الى قصر نيقوميديا بالحمية التي طلب وتأول بها أسرار التعميد ، وبتصريحه المهيب بأنه سيقضى البقية الباقية من عمره في حياة جدية بتلميذ للمسيح ، وبرفضه المقرون بالتواضع أن يلبس الحلة الامبراطورية ، بعد أن كان قد تدثر في رداء المبتدئين ( في المسيحية ) وشجعت شهرة قسطنطين والاقتراء به ، فيها يبدو ، على

(١) لم يستطع آباء الكنيسة الذين يعيرون على هذا الإبطاء الأثم أن ينكروا المغفلون الأكيذ الناجح للتعميد على فراش الموت . ولم تتسخر بلاغة كريسكوم ( يوحنا الذهبي ) Chrysostom الحاذقة الا عن ثلاث حجج فقط ضد هؤلاء المسيحيين الحكماء : ١ - أنه ينبغي أن نصب الفضيلة نفسها ، لا من أجل ما يعود علينا من نفع فقط . ب - أنه من المحتمل أن نفاجا بالموت دون أن يكون هناك مجال للتعميد . ج - وأنه رغم أننا سوف نتخذ مكاننا في السماء ، فإتنا سننألق فيها مثل النجوم الصغيرة فحسب بالمقارنة الى شموس البررة الصالحين . الذين قضوا أجلهم المضروب مقرونا بالعمل والتوفيق والمجد . واعتقد أن تأجيل التعميد ، مهما أسفر عن نتائج وخيمة الى أبعد حد ، لم يعاقب عليه أى مجلس عام أو أى من مجالس الولايات ، أو أى قانون عام أو إعلان من الكنيسة . وما أيسر ما ثارت غيرة الأساقفة في مناسبات أتفه من هذه بكثير !

تأجيل التعميد ، فتشجع الطغاة الذين جاءوا بعده على الاعتقاد بأن  
الدماء البريئة التي يسفكونها أثناء حكمهم الطويل سوف تغسلها على  
الفور مياه التعميد وما يصحبه من تجديد القلب ، ومن ثم حطم سوء  
استغلال الدين أسس الفضائل الأخلاقية تحطيمها خطيرا .

### اقرار المسيحية بمقتضى القانون

مجد عرفان الكنيسة وامتنانها فضائل نصيرها الكريم وأغضى عن  
سقطاته ، وهو الذى رفع المسيحية على عرش العالم الرومانى . وقلما  
ذكر اليونانيون الذين يحتفلون بعيد القديس الامبراطورى ، اسم  
قسطنطين ، دون أن يضيفوا اليه لقب « المساوى للرسل » . ويجب  
ارجاع مثل هذه المقارنة ، ولو أنها تشير الى خلق هؤلاء المبشرين  
الالهيين ، الى الاسراف فى الملق الذى يتسم بالاحاد والكفر . ولكن اذا  
كانت المقارنة مقتصرة على مدى انتصارات قسطنطين الدينية وعددها ،  
فربما تعادل نجاح قسطنطين مع نجاح الرسل انفسهم ، فسقد ازال  
بقوانين التسامح تلك العقبات الدنيوية التى عوقت حتى ذاك الحين تقدم  
المسيحية . وظفر دعائها الجادون الكثيرون بترخيص مدلق ونشجيع  
كريم على التبشير بحقائق الوحي الناجمة بكل حجة تنفذ الى عقول  
البشر ، وتهز جانب التقوى والايمان فيهم . ولم يدم التوازن الدقيق بين  
الديانتين الا قليلا . فسرعان ما اكتشفت عين الطمع والشره الفاحصة  
النافذة ان الاعتراف بالمسيحية وبما أسهم فى تحقيق المصلحة فى هذه  
الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة على حد سواء . فان الأمل فى الثروات  
والأمجاد ، والنموذج الذى يرونه فى شخص الامبراطور ، ونسائحه  
وتحذيراته ، وابتهاماته التى لا تقاوم ، اشاعت الاقتناع بين الحشود  
السهلة الانقياد الخائفة التى تملأ عادة ابهاء القصر . اما المدن التى كان  
لها قصب السبق فى اظهار غيرتها بتدمير معابدها ملووعية واختيارا ،  
فقد اختصت ببعض المزايا البلدية ، وكوفئت بالمعالي المألوفة ، كما  
كرمته عاصمة الشرق الجديدة بميزة فريدة ، تلك هى ان القسطنطينية  
لم تدنس قط بعبادة الاوثان . ولما كانت غريزة المحاكاة تسير على  
عقول الطبقات الدنيا من المجتمع ، فان الجماهير التابعة المعتمدة على  
غيرها سرعان ما تحذو حذو من يتميزون بكرم المولد او بالقوة والسلطة  
او بالثراء . وقد اشترى « خلاص » عامة الشعب بمعدل ميسور ،  
اذا كان صحيحا ما قيل من ان نحو اثنى عشر الف رجل قسد  
عمدوا ( بضم العين وتشديد الميم مع كسرهما ) فى روما  
فى سنة واحدة ، فضلا عن عدد يتناسب معهم من النساء

والأطفال ، وأن الامبراطور وعد كل متحول الى المسيحية برداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . ولم ينحصر أثر قسطنطين القوي في النطاق الضيق لحياته أو ممتلكاته . فان التربية التي وفرها لأبنائه وابناء اخوته قد زودت الامبراطور بطراز من الأمراء الذين كان ايمانهم ما زال أكثر حيوية وانخلاصا لأنهم لقنوا في صباهم الميكر روح المسيحية أو على الأقل نظريتها . ونشرت الحروب والتجارة والمعرفة بالانجيل إلى ما وراء حدود الولايات الرومانية ، وسرعان ما تعلم المتبررون ، الذين كانوا قد احتقروا من قبل فئة ذليلة مشردة ( المسيحيين ) — أن ينظروا بعين التقدير والاجلال الى ديانة اعتنقها مؤخرًا أعظم ملك ، وأعظم أمة حضارة في الكرة الأرضية . وبجل القوط والألمان الذين انضوا تحت لواء روما — بجلوا الصليب الذي تألق فوق رعوس الجنود ، وفي نفس الوقت تلقى مواطنوهم المتوحشون دروس الايمان والانسانية . وعبد ملوك ايريا وأزحينيا اله حاميهم ( الامبراطور ) وسرعان ما كون رعاياهم — الذين تمسكوا بالمسيحية ، بدرجات متفاوتة — علاقة مقدسة دائمة مع اخوتهم الرومان . واتهم مسيحيو فارس ، وقت الحرب ، بإيثارهم دينهم على بلدهم ، ولكن تدخل قسطنطين كان يحد من روح الاضطهاد عند الجوس طالما استتبع السلام بين الامبراطوريتين . وأضاء نور الانجيل ساحل الهند ، وقاومت مستعمرات اليهود الذين كانوا قد توغلوا الى قلب بلاد العرب وأثيوبيا ، قاومت تقدم المسيحية . ولكن يسر مهمة المبشرين الى حد ما سابق معرفتهم بالوحي المنزل على موسى . وما تزال اثيوبيا تمجد ذكرى فرومنديوس Frumentius الذي نذر حياته للتبشير بالمسيحية وتنصير هذه الأقاليم النائية المنعزلة . وفي عهد ابنه قسطنطيوس ، منح تيوفيلوس Theophilus — وكان من أصل هندي — لقب السفير والأسقف معا . فأبحر عبر البحر الأحمر ، ومعه مائتا جواد من أكرم جباد كبادوكيا ، هدية من الامبراطور الى أمير سبأ ( أو حمير ) . وحمل تيوفيلوس هدايا أخرى كثيرة ، نافعة أو غريبة ، مما قد يثير اعجاب المتبررين ، ويوطد أواصر الصداقة معهم . وقضى عدة سنوات في زيارة لهذه المنطقة الحارة حيث تعد الكنائس هناك ، وقد حالفه التوفيق في هذه الرحلة .

وتجلت قوة الأباطرة الرومان التي لا يمكن دفعها في التغيير الهام الخطير الذي حدث في الديانة الوطنية ، وأخرست فرق الجيش بما نشرت من ألوان الارهاب تلك الصيحات الخافتة التي لا سند لها ، والتي انبعثت من بين الوثنيين . وكان هناك ما يحمل على توقع امتثال رجال الدين المسيحي والشعب ، امتثالا مقرونا بالابتهاج ، صادرا من

اعماق نفوسهم نابعا من ايمانهم وعرفانهم . ونص في الدستور الروماني منذ ذلك التاريخ على مبدأ اساسى . هو ان كل المواطنين الرومان على اختلاف مراتبهم يخضعون للقوانين ، وان رعاية الدين حق لكل حاكم مدنى ، وواجب عليه ، سواء بسواء . ولم يستطع قسطنطين وخلفاؤه ان يقتنعوا انفسهم بسهولة انهم فقدوا بتحولهم اى لون من الامتيازات او الحقوق الامبراطورية ، او انهم عاجزون عن سن القوانين للديانة التى بسطوا عليها جهالتهم واعتنقوها . فظل الأباطرة يمارسون ولايتهم العليا على النظام الكنسى ، وفي الكتاب السادس عشر من مجموعة قوانين ثيودوسيوس ، وتحت عنوانات كثيرة تمثل السلطة التى فرضها الأباطرة لانفسهم فى حكم الكنيسة الكاثوليكية .

### التمييز بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية

ولكن الاقرار القانونى للديانة المسيحية اوجد تمييزا بين السلطتين الروحية والزمنية وثبت اصوله ، وهو امر لم يسبق قط فرضه على اليونان وروما اللتين تأصلت فيهما روح الحرية ، فان وظيفه الحبر الاعظم التى كان يشغلها دائما منذ عهد نوما Numa الى عهد أوغسطس اعضاء السناتو البارزون ، اسندت آخر الامر الى السدة الامبراطورية . وطالما كان حاكم الدولة الاول مسوقا بوازع من الخرافة ( العقيدة ) او السياسة ، فانه ادى بيديه المهام الكهنوتية ، ولم يكن ثمة فى روما او فى الولايات نظام كهنوتى ادعى لنفسه شخصية أكثر قداسة بين الناس ، او اتصالا اعظم وثاقا بالآلهة . ولكن فى الكنيسة المسيحية حيث عهد بخدمة المذبح الى طائفة دائمة متدرجة من التساوسة ، فان الملك أو الحاكم الذى تقل مرتبته شرفا عن احقر شماس ، كان يجلس تحت قضبان المحراب ، مختلطا بجمهور المؤمنين ، وقد يؤدون التحية للامبراطور بوصفه ابا لشعبه . ولكنه كان يدين بواجب البنوة والاجلال لآباء الكنيسة ، وسرعان ما تطلب فرور الاساقفة لانفسهم واجبات التبجيل التى كان يؤديها قسطنطين للقديسين والمعترفين . ومن ثم دب صراع خفى بين الاختصاصات المدنية والكنسية ، نشأ عنه ارتباك سير الامور فى الحكومة الرومانية . وذعر امبراطور ورع ايما ذعر لما ينعوى عليه لس تابوت العهد بيد دنسة ، من وزر وخطر . والحق ان تقسيم الناس الى روحانيين وعلمايين كان امرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة ، واستمد الكهنة فى الهند وفارس وآشور واسرائيل والحبشة ومصر والغال سلطتهم الدنيوية وممتلكاتهم التى اقتنوها من اصل



سماوي . وكانت هذه النظم البوقورة قد كينت نفسها في اخلاق وحكومة  
البلد الذي عاش فيه كل منها . ولكن معارضة السلطة المدنية او  
احتقارها ائامد في تدعيم نظام الكنيسة الاولى . واضطر المسيحيون  
الى اختيار حكامهم ، وتحديد دخل معين وتوزيعه ، وتنظيم السياسة  
الداخلية لجماعتهم من طريق مجموعة من القوانين اقرتها موافقة  
الشعب عليها ، كما دعمتها تجربة دامت ثلاثة قرون . فلما اعتنق  
قسطنطين المسيحية ، عقد فيما يبدو ، مع هذا المجتمع التميز المستقل  
تحالفا دائما ، ولم يؤخذ الامتيازات التي منحها الامبراطور او ثبتها ،  
على انها مظاهر عطف مزعزع من قبل الحاشية ، بل على انها حقوق  
اساسية للنظام الكنسى .

وكان الف وثمانمائة اسقف يديرون الكنيسة الكاثوليكية ، بما لهم  
من ولاية بوحية وقانونية . منهم الف في الولايات اليونانية ، وثمانمائة  
في الولايات اللاتينية في الامبراطورية . وتفاوتت سعة كل اسقفية  
وحوددها ، او تقررت عرضا ، تبعا لغيرة الارساليات الاولى ودرجة  
نجاحها ، وتبعا لرغبات الشعب ، وتبعالمدى انتشار الانجيل . واقمنت  
الكنايس الاسقفية متقاربة على ضفاف النيل ، وساحل البحر في افريقية ،  
وفي مناطق آسيا الخاضعة للبروتستنت الروماني ، وفي الولايات الجنوبية  
من ايطاليا . وسيطر الاساقفة في الغال واسبانيا وتراقيا وبلاد بنطس  
على رقعة كبيرة ، وفوضوا وكلاءهم الريفيين في القيام بصغرى مهام  
راعى الكنيسة . وقد تستوعب الاسقفية المسيحية ولاية بأسرها ، وقد  
تهبط الى نطاق قرية ، ولكن شخصية الاسقف في كل الاحوال كانت  
متكافئة لا تتغير . فقد استمدوا جميعا نفس السلطات والامتيازات من  
الرسل ومن الشعب ومن القوانين . وفي الوقت الذي اقتضت فيه  
سياسة قسطنطين فصل الوظائف المدنية والعسكرية ، قام في الكنيسة  
والدولة نظام جديد ثابت لموظفين كنسيين كانوا دوما موضع احترام ،  
وكانوا احيانا مصدر خطر . ويمكن ادراج الاستعراض الهام لأوضاعهم  
وصفاتهم تحت الاقسام الآتية : ١ - الانتخاب الشعبى ، ٢ - رسامة  
رجال الدين ، ٣ - الممتلكات ، ٤ - الاختصاص المدني ،  
٥ - الجزاءات الروحية ، ٦ - ممارسة الوعظ العام ، ٧ - امتياز  
المجالس التشريعية .

١ - قامت جرية الانتخاب بعد اقرار المسيحية من الوجهة  
القانونية بوقت طويل ، وتمتع الرعايا الرومان في الكنيسة بالميزة التي  
مقدوها في الجمهورية ، الا وهى اختيار الحكام الذين التزم بالناس

يطاعتهم ، وما أن أطبق أى أسقف عينيه وقضى نحيبه حتى أصدر المطران  
 أمره الى أحد الوكلاء أو معاونين يشغل المكان الشاغر ، والاعتماد  
 للانتخابات المقبلة في وقت معين . ومنح حق التصويت لرجال الدين من  
 الدرجات الدنيا . وهم أقدر على الحكم على جدارة المرشحين ، ولشيوخ  
 السناتو وأشراف المدينة ، ولكل من اشتهروا بمكانتهم أو ثروتهم ،  
 وأخيرا لجمهور الشعب الذين تدفقوا في الموعد المضروب أفواجا من  
 أقصى أركان الإبرشية ، فأخرسوا أحيانا بصيحاتهم الصاخبة صوت  
 العقل وقواعد النظام . وربما استقرت هذه الصيحات عرضا على  
 شخص أجدر المتنافسين من شيخ معمر أو ناسك مقدس ، أو رجل  
 علماني اشتهر بغيرته وتقواه . ولكن السعى الى الفوز بالكرسى  
 الأسقفى ، وخاصة في المدن الكبيرة والغنية في الإمبراطورية ، كان  
 سعيا وراء المكانة الدنيوية أكثر منه التماسا للمنزلة الروحية . ولكن  
 الآراء المفرضة ، وعواطف الأثنية الثائرة وأفانين الغدر والنفاق ،  
 والفساد الخفي ، وأعمال العنف السافرة ، بل الدهوية ، تلك التي  
 أهدرت حرية الانتخاب في جمهوريات اليونان وروما قديما ، كثيرا  
 ما أثرت في اختيار خلفاء الرسل والحواريين . وبينما فاخر أحد  
 المرشحين بأجداد أسرته ، بهر الآخر أبصار ناخبيه بأطياب مائدته  
 العامرة ، وعرض ثالث ، وهو أكبر منافسيه وزرا ، أن يقتسم اسلاب  
 الكنيسة مع المتواطئين معه في أمانيه الدنسة . وحاولت القوانين المدنية  
 والكنسية معا أن تستبعد جمهور الشعب من هذه العملية الخطيرة  
 الهامة . وحدت قواعد النظام القديم ، والمركز . . وغيرها — حدث  
 من نزوات الناخبين التي لا تميز الخبيث من الطيب . واستخدم أساقفة  
 الولايات الذين تجمعوا في كنيسة الأسقفية الشاغرة لمباركة اختيار  
 الشعب — استخدموا نفوذهم للتلطيف من أهواء الناخبين ، وتصحيح  
 أخطائهم . وكان الأساقفة يستطيعون الامتناع عن رسامة أى مرشح  
 غير جدير بالمنصب ، وارتضت الأحزاب المتصارعة الغاضبة وساطتهم  
 النزيهة أحيانا . وخلق استسلام الاكليروس والشعب أو مقاومتهم ،  
 في هذه المناسبة أو تلك ، سوابق متباينة ، تحولت بطريقة غير ملحوظة  
 الى قوانين ايجابية نافذة ، والى أعراف وتقاليد في مختلف الولايات .  
 ولكن كان من المسلم به في كل مكان ، كتقاعدة أساسية في السياسة  
 الدينية ، أنه لا يجوز فرض أى أسقف على كنيسة تنهج الطريق القويم  
 دون موافقة أعضائها . وربما أبدى الأباطرة بوصفهم حراسا على  
 السلام العام ، وبوصفهم المواطنين الأوائل في روما وفي القسطنطينية ،  
 رغباتهم بطريقة فعالة في اختيار رئيس الأساقفة ، ولكن هؤلاء الملوك

المستبدين احترموا حرية الانتخابات الكنيسة . وبينما وزعوا أو استردوا أمجاد الدولة والجيش ، نراهم أباحوا لآلف وثمانمائة حاكم دائم ( أسقف ) أن يتولوا مناصبهم الهامة عن طريق الاقتراع الشعبى الحر . وكان مما يتفق مع قواعد العدالة ألا يتخطى أى من هؤلاء الحكام ( الأساقفة ) عن منصبه الرفيع الذى لا يمكن عزله منه . وحاولت حكمة المجالس دون أن تصيب نجاحا كبيرا ، أن تفرض اقامة الأساقفة وأن تمنع نقلهم . وكان النظام فى الغرب فى الواقع أقل تراخيا منه فى الشرق ، ولكن نفس الأهواء التى جعلت من هذه القواعد أو التعليمات ضرورة حتمية ، أمقدتها فعاليتها . ان المثالب والسباب التى كالمها الأحرار الغاضبون بعضهم لبعض فى حدة وعنف ، انما تكشف عن وزرهم المشترك وعن نزقهم المتبادل .

٢ - اختص الأساقفة وحدهم بموهبة التناسل الروحى ، وربما عوضت هذه الميزة الفذة الى حد ما - عن العزوبة الآلية التى فرضت عليهم بوصفها فضيلة وواجبا ، والتزاما ايجابيا آخر الأمر . ان الديانات القديمة التى أنشأت نطاقا كهنوتيا منفصلا ، خصصت عشيرة مقدسة : قبيلة أو أسرة ، تتولى الخدمة الدائمة للالهة . وقد أقيمت هذه النظم للتملك أكثر منها للفرز ، وتمتع أبناء الكهنة بالطبائنية المزهوة الخاملة بميراثهم المقدس ، وخففت من روح الحماسة المتهبة هموم الحياة المنزلية وملذاتها وعلاقات الحب والاعزاز فيها . أما الحراب المسيحى فكان مفتوحا أمام كل طارق طامع مظهف على ما يقترن بالحراب من وعود سماوية أو مناع دنيوى . ان وظيفة القسيس ، مثل الجندى والحاكم ، كان يقوم عليها فى جد وحماس أولئك الرجال الذين هيأتهم طباعهم وقدراتهم لتأدية المهام الكنيسة ، أو الذين اختارهم الأسقف البصير على أنهم خير أهل لرفع شأن الكنيسة وتأمين مصلحتها . وكان الأساقفة ( حتى حدث فطنة القانون من سوء الاستغلال ) يكبحون جماح الأبقين النافرين ويفرجون ضيق المكروبين ، وكانت بركة أيديهم تفيض دائما ببعض من أعظم مزايا المجتمع المدنى ، وأعفى رجال الديانة الكاثوليكية جميعا ، وربما كانوا أكثر عددا من الفرق العسكرية ، أعفوا بأمر الأباطرة ، من كل الخدمات الخاصة أو العامة ، ومن كل الأعمال البلدية ، ومن كل الضرائب والتبرعات الشخصية ، تلك التى كانت عبئا ثقيلا لا يحتمل على سائر مواطنيهم ، واعتبر قيامهم بمهمتهم المقدسة وفاء كاملا بالتزاماتهم نحو الدولة . وطالب كل أسقف بحقه المطلق الذى لا يمس فى امثال الكاهن الذى رسمه امثالا دائما له ، وشكل رجال الأكليروس فى كل كنيسة أسقفية مع الأبرشيات التابعة لها مجتمعا

منتظما ثابتا . واحتفظت كاتدرائيتنا القسطنطينية (١) . وقرطاجة بميزة خاصة هي تعيين خمسمائة موظف كنسى . وتضاعفت مراتبهم وأعدادهم بطريقة غير ملحوظة نتيجة الخرافة التى سادت فى ذلك الزمان ، والتى أفحمت على الكنيسة احتفالات المعبد اليهودى أو الوثنى الفخمة . وأسهم ركب طويل من القسس والشمامسة ووكلائهم ، والسدنة وحملة المباخر والقراء والمنشدين والبوابين — أسهموا جميعا ، كل بدرجته فى إبهة العبادة الدينية وانسجامها ، وامتد لقب الكاهن وامتيازه الى كثير من الاخوة الأتقياء الذين دعموا عرش الكنيسة فى اخلاص وحماس ، فزار ستمائة من المغامرين مرضى الاسكندرية ، وتولى ألف ومائة ممن يحفرون القبور ، دفن الموتى فى القسطنطينية ، واسود وجهه العالم المسيحى بأسراب الرهبان الذين انتشروا فيه وافدين من ضفاف النيل .

٣ — كفل مرسوم ميلان دخل الكنيسة كما كفل سلامتها . فلم يسترد المسيحيون الاراضى والدوة التى كانت قد انتزعتها عنهم هوائين الاضطهاد على عهد دقلديانوس ، فحسب ، ولكنهم ظفروا كذلك بحق الملكية الكاملة لكل ما استحوذوا عليه حتى ذلك الحين ، نتيجة لاستنجد الحاكم أو تفاضيه . وبمجرد أن أصبحت المسيحية ديناً بين الامبراطور والامبراطورية حق لرجال الدين الوطنيين أن يطالبوا بما يكفل لهم حياة لائقة محترمة . وكان من الجائز أن دفع ضريبة سنوية سوف يخلص الشعب من جزية أشد ظلما تفرضها العقيدة على معتققيها . فلما زادت نفقات الكنيسة تبعا لازدهارها وانتعاشها ، ظلت القرابين التى يقدمها المؤمنون تعبدا وطواعية ، تعين رجال الدين على معاشهم وتزيد من ثرائهم . وبعد ثمانى سنين من مرسوم ميلان منح قسطنطين رعاياه ترخيصا حرا شاملا فى التوصية بكل ثرواتهم للكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وربما كانت أيديهم فى حياتهم مغلولة بحكم الترف أو الجشع ولكنها فاضت فى سخاء وورع ساعة حضرهم الموت . وكان لأغنياء المسيحيين فى مليكهم أسوة حسنة مشجعة ، وربما أصبح الملك المستبد المطلق الثرى الذى لم يرث الثراء ، متصدقا محسنا دون أن يكون له فضل فى ذلك . وما أيسر ما آمن قسطنطين بأنه قد يشتري رضاء السماء اذا عال الكسالى الخاملين على حساب العاملين الجادين ، فوزع

(١) ستون شيخا أو قسيسا ، مائة شماس ، أربعون شماسا ، تسعون وكيل شماس ، مائة وعشرة قراء ، خمسة وعشرون منشدا ، ومائة بواب ، والمجموع خمسمائة وخمسة وعشرون . وحده الامبراطور هذا العدد المتواضع لتفريغ كروب الكنيسة التى تراكت عليها الديون والربا ، نتيجة نفقات هذا العدد الضخم من التعيينات .

على القديسين أموال الدولة . ولا ضئير في أن يعهد الى الرسول الذى حمل الى افريقية رأس مكسنيتوس ، بحمل رسالة الى كاسيليان أسقف قرطاجة ، يبلغه فيها أنه ، أى الامبراطور ، أصدر تعليماته الى خزائن الولاية ليسلموه ما قيمته ثمانية عشر الف جنيه استرليني ، وأن يمثلوا لمطالبه فيما بعد ، لاعانة كنائس أفريقية ونوميديا وموريتانيا . وتزايد سخاء قسطنطين بقدر ازدياد ايمانه وتفانهم بذائله . وفرض على كل مدينة أن تقدم كمية ثابتة من الغلال لتموين صندوق صدقات الكنيسة . وأصبح الرهبان والزاهيات اقرب المقربين ذوى الخطوة لدى ملكهم . وتجلت في المعابد المسيحية فى انطاكية والاسكندرية وأورشليم مظاهر التقوى التى تفاخر بها أمير طمع فى شيخوخته ، فى أن يتساوى مع الأقدمين فى أعمالهم العظيمة الفائقة . وتجلت البساطة فى هذه الأبنية الدينية ، وكانت على شكل مستطيل ، ولو أنها اتخذت أحيانا شكل القباب ، أو تفرعت على هيئة صليب . وكانت معظم الأخشاب من أرز لبنان ، وغطى السقف بمربعات ربما كانت من النحاس الذهب ، أما الجدران والاعمدة والأرضية فقد كسيت بالرخام الملون . وخصصت فى اسراف بالغ أثمن الحلى والزخارف من الذهب والفضة والحريير والجواهر لخدمة المذابح ، واحتفظ بأدوات هذه الأبهة الخداعة على أنها ملك ثابت دائم . وفى مدى قرنين من الزمان — من عهد قسطنطين الى عهد جستينيان — أثرت كنائس الامبراطورية البالغ عددها الفسا وثمانمائة ، بفضل الهدايا والهبات الكثيرة غير القابلة للانتقال التى أغدقتها عليها الأمير والشعب . وخصص للأساقفة دخل سنوى معقول قدره نحو ستمائة جنيه استرليني ، مما وضعهم فى منزلة وسط بين الثراء والفاقة ، ولكن ارتفع مستوى ثرائهم ، بشكل غير ملحوظ ، تبعاً لمكانة المدن التى يعملون فيها ودرجة غناها . وفى سجل للإيجارات (١) أصيل ولكنه ناقص ، حددت بعض الدور والحوانيت والحدائق والمزارع التى كانت تابعة لكنائس روما الثلاث — القديس بطرس والقديس بولس ، والقديس جون لأثيران — فى الولايات الثلاث : ايطاليا ، أفريقية ، الشرق . فهى تدر — بالإضافة الى عائد محقق من الزيت والكتان والورق ، والعمطور وغيرها ، دخلاً سنوياً صافياً قدره اثنتان وعشرون ألف قطعة من الذهب ، أو اثنا عشر الف جنيه استرليني . ولم يعد الأساقفة فى عهد قسطنطين وجستينيان يتمتعون ، وربما لم

(١) قد يشتهر بحق فى أى سجل يصدر عن الفاتيكان . ولكن سجلات الايجارات هذه تحمل طابع القدم والصدق . وانه من الواضح على الأقل أنها اذا كانت زورت ، فانها زورت فى الوقت الذى انصبت فيه مطاسع البابوية على المزارع ، لا على الممالك .

يعودوا جديرين بثقة اكليروسهم وشعبهم ، ثقة لا يتطرق اليها أى شك . وكانت الايرادات الكنسية فى كل اسقفية تقسم الى أربعة أقسام ، للأغراض التالية : قسم للأسقف نفسه ، قسم لرجال الدين الذين هم أقل منه مرتبة ، وآخر للفقراء ، وقسم للعبادة العامة ، وكم من مرة منح بشدة سوء استقلال هذه الأمانة المقدسة . وكان ميراث الكنيسة لا يزال خاضعا لكل ما تفرضه الدولة عامة ، وربما التمس رجال الدين فى روما بعض الاعفاءات الجزئية وحصلوا عليها ولكن ابن قسطنطين تصدى بنجاح للمحاولة السابقة لاوانها التى بذلها مجمع ريميني ( مدينة على الادرياتيك فى شمال شرقى ايطاليا ) ، والتى كان يطمح من ورائها فى الحرية الشاملة فى التصرف .

{ — قبل رجال الدين اللاتين الذين أسسوا قضاءهم على أنقاض القانون المدنى العام ، قبلوا فى تواضع ، بمثابة منحة من قسطنطين (١) ان يكونوا مستقلين باختصاصهم ، الذى كان ثمرة الزمن والأحداث وثمره جهدهم الخاص ، ولكن كرم الأباطرة المسيحيين أغدق عليهم بالفعل بعض الامتيازات القانونية التى كفلت ورفعمت من شأن شخصيتهم الكهنوتية (٢) .

( أ ) ظفر الأساقفة وحدهم ، فى ظل الحكومة الاستبدادية بميزة لا تقدر ، واكدها ، تلك هى أنه لا يتولى محاكمتهم الا نظراؤهم فقط ، وأنه حتى فى حالة اتهامهم باحدى الكبائر يتولى الحكم بادانتهم

(١) استنادا الى يوسوبوس وسوزومين ، نستطيع ان نتأكد من أن قسطنطين وضع الاختصاص الاسقفى وثبته . ولكن جودفرى أبرز مع اعظم الارتياح مرسوما مختلفا مزورا ، لم يرد ذكره بحق فى مجموعة قوانين تيودوسيوس . ومن الغريب أن يدعى مونتسكيو ، المحامى الفيلسوف صودر هذا المرسوم عن قسطنطين دون أن يساوره أى شك فيه .

(٢) احيط موضوع الاختصاص الكهنى بسحب من الهوى والتحيز والمصلحة . وقد وقع فى يدي كتابان من احسن الكتب ، اولهما « قواعد القانون الدينى » تأليف رئيس المديرة فليورى « Institutes of Canon Law » by The Abbé de Fleury والثانى « التاريخ المدنى لناپولى ، تأليف جيامون « The Civil History of Naples » by Giannone ويرجع اعتدالهما الى مركز كل منهما وطبعه . وكان فليورى من رجال الكنيسة الفرنسيسيين . وكان يحترم سلطنة البرلمانات . أما جيامون فكان محاميا ايطاليا يخشى سلطة الكنيسة . وأرجو ان أشير هنا الى أنه لما كانت القضايا التى اعالجها حصيلة كثير من الحقائق الغربية المتطورة ، فليس امامى الا أن أحيل القارئ الى هذين المؤلفين الحديثين اللذين عالجا الموضوع فى جلاء ووضوح ، أو ان التوسع فى هذه الملاحظات الى حد غير لائق

أو تيرتتهم مجلس ( Synod ) من أقرانهم فحسب . وإذا لم تستفز  
مثل هذه المحكمة الكراهية الشخصية أو الشقاق الديني ، فربما كانت  
مواتية بل متحيزة للنظام الكهنوتي . ولكن قسطنطين كان مقتنعا بأن  
الاعفاء الخفى من العقوبة أقل وبالا من الفضيحة العلنية ، وقد تعلم  
مجمع نيقيا أن يقتدى بإعلانه العام ( قسطنطين ) أنه إذا فاجأ أسقفا  
متهلسا بجريمة الزنا فإنه لابد أن يسدل عبايته الامبراطورية على  
الأسقف الأثم المذنب .

( ب ) كان الاختصاص القضائي للأسقف امتيازاً وقيدا في وقت معا  
على طائفة الكهنة ، فقد رثى من الأليق سحب قضايها المدنية من  
اختصاص القضاة الأهليين . ولم تتعرض مخالفتهم البسيطة لعار  
المحاكمة أو العقوبة العلنية . وكان الأساقفة يوقعون في قسوة معتدلة ،  
العقوبة الخفيفة التي يحتلها الشباب الغض من الوالدين أو المعلمين .  
ولكن إذا أدين القسيس في جريمة لا يكفى للتكفير عنها طرده من عمله  
المشرف الذي در عليه خيرا ، جرد الحاكم الروماني عليه سيف العدالة  
دون اعتبار لاية حصانات كنسية .

( ج ) وأقر تحكيم الأساقفة بمقتضى قانون قاطع . وصدرت  
التعليمات الى القضاة بأن ينفذوا دون استثناء أو ابطاء الأوامر الأسقفية  
التي كانت صلاحيتها أو قوتها تعتمد حتى هذا التاريخ على رضا  
الطرفين . وربما أزال تحول الحكام أنفسهم وتحول الامبراطورية  
بأسرها الى المسيحية ، مخاوف المسيحيين وشكوكهم يوما بعد يوم .  
ولكنهم ظلوا يلجأون الى محكمة الأساقفة الذين اعتزوا بمواهبهم  
وفزاهتهم . وطاب لأوسطن الموقر Austin وهو ناعم البال ، الشكوى  
من أن مهامه الروحية كان يعطلها ويقطعها عليه دائما عمل يثير الحقد  
والبغضاء ، ألا وهو الفصل في المطالبة بالفضة والذهب أو الأرض  
والماشية أو تملك هذه أو تلك .

( د ) انتقل ما كان للمذابح القديمة من حق اللجوء اليها الى المعابد  
المسيحية ، وامتد بفضل ورع تيودوسيوس الأصغر الى الأراضى  
المقدسة المجاورة لها . ورخص للمتوسلين من الهاربين أو حتى  
المجرمين الأذلاء في التماس عدالة الاله وقساوسته ورحمتهم . وكم حال  
تدخل الكنيسة الرقيق دون تعسف الاستبداد والمستبدين ، وأبقت  
شفاعة الأسقف على حياة أبرز الرعايا وعلى ثرواتهم .

هـ - كان الأسقف رقيقا دائما على أخلاق شعبه . وأسيع نظام العقوبات الدينية (التوبة ، الكفارة ) على أنه قانون كنسى ، حدد بدقة واجب الاعتراف الخاص أو العلنى ، كما حدد قواعد الأدلة ودرجات الخطيئة ومقاييس العقوبة . وكان من المتعذر على الحبر المسيحي الذى يعاقب على خطايا الجمهور الخفية ، تنفيذ هذه الجزاءات الروحية اذا هو اقر ذائل الحاكم الفاضحة أو جرائمه المخزية . ولكن كان يستحيل ان يسائل الحاكم عن سلوكه دون رقابة أو اشراف على ادارة الحكومة المدنية . وعصمت بعض اعتبارات الدين أو الولاء أو الخوف اشخاص الأباطرة المقدسة من غيرة الأساقفة أو سخطهم ، ولكنهم كانوا يوبخون الطغاة الذين لم يحظوا بجلال الحلة الامبراطورية ويحرمونهم من الكنيسة ، فقد حرم القديس اثناسيوس يوما أحد وزراء مصر ، وأبلغ هذا الحرمان الصارم بصورة رسمية الى كنائس كبادوكيا . وفى عسر تيودوسيوس الأصغر تولى سينسيوس المهذب الفصح *Synosius* - وهو من نسل هركليوز - الكرسي الأسقفى فى بطلومايس *Ptolemais* ( بالقرب من أطلال مدينة برقة القديمة ) ، وقد عزز هذا الأسقف الفيلسوف مكانة المنصب الذى شغله كارها (1) ، بان ازاح طاغية لبييا الجبار ، الرئيس اندرنيكوس *Andronicus* الذى أساء استقلال وظيفته عرضة للرشوة والفساد ، وابتدع الوأنا جديدة من السلب والتعذيب ، وزاد الطين بلية فأضاف تدنيس الأماكن المقدسة الى جريمة الظلم والجور ، وبعد محاولة عقيمة للإصلاح من شان الحاكم المتعرج وتهذيبه فى رفق ولين ، عمد سينسيوس الى انزال أقصى عقوبة فى جعبة العدالة الكنسية ، عقوبة تدمغ اندرونيكوس وشركاه وأسراتهم بفضب الأرض والسما . وهكذا حرم من شرف الاسم المسيحي أو امتيازاته ، ومن الأمرار المقدسة ، والعشاء الربانى ، ومن الأمل فى الجنة - حرم من هذا كله أعتى المجرمين الذين هم أشد قسوة من فالاريس أو سفنجريب ، وأشد فتكا من الحرب أو الوباء أو اسراب الجراد . وحرص الأسقف رجال الدين والحكام والشعب ليظهروا المجتمع بأسره على أعداء المسيح ، ويقصوهم عن دورهم وعن موأندهم ، ويأبوا عليهم كل وظائف الحياة وشعائر الدفن المتواضعة . وتوجه كنيسة بطلومايس ، وهى المتواضعة

(1) كان سينسيوس قد اظهر من قبل عدم اهليته ، فقد أولج بالدراسات والهويات اللحدة ، ولم يقو على احتمال حياة العزوبة ، ولم يؤمن بالبعث . ورفض أن يعبد الناس ، بالقصص الخرافى ، الا اذا أتبع له أن يشتغل بالفلسفة ، فى داره . وقيل هذا الشرط ، توفلسس مغران مدير الذى عرف قدره ( سينسيوس ) .



المغمورة ، هذا الاعلان الى كل الكنائس الشقيقة في العالم ، على ان يدمع الكفار الأرجاس الذين يرفضون هذه الأوامر بجريمة أندرونيكوس وأتباعه الملحدين وينالوا عقابهم . وكان في تطبيق هذا الأرهاب الروحي على البلاط البيزنطى تدعيم للأرهاب نفسه . وتضرع الرئيس الذى يرتجف فزعا الى رحمة الكنيسة ، وطابت نفس سليل هركيوليز وقرت عيناه حين رفع عن الأرض طاغية حر راکعا على قدميه . ومهدت مثل هذه المبادئ طرق النجاح للأخبار الرومان الذين داسوا بأقدامهم أعناق الملوك .

٦ - لقد خبرت كل حكومة شعبية نتائج الخطب البليغة المليئة بالحماس المفتعل ، حيث ينفذ ما يثيره من أحاسيس بسرعة الى الصدور ، فيهيح أكثر الطبائع جمودا ، ويثير أعظم العقول رزائنة وثباتا ، ويتأثر كل مستمع بانفعالاته هو نفسه وبانفعالات جمهور المحيطين به . وكان انهيار الحرية المدنية قد أخرس السنة المهرجين السياسيين الشعبيين في أثينا والتريونانت في روما ، ولم يكن القاء المواظ التى تشكل - فيما يبدو - ركنا هاما في العبادة المسيحية ، معروفا في معابد الأقدمين ، ولم يكن صوت الخطابة الشعبية الخشن يطرق آذان الملوك قط ، حتى جاء الوقت الذى امتلأت فيه منابر الإمبراطورية بالخطباء الدينيين الذين نحلوا بهزايا لم تكن معروفة لدى أسلافهم الوثنيين . وتصدى لحجج التربيون وبلاغته بنفس أسلحته على الفور خصوم مهرة صامدون ، وربما استمدت قضية الحق والمنطق دعما طيارنا من تصارع الأهواء المتنافرة ، وقام الأسقف . أو أى شيخ بارز وكل اليه فى حذر مهمة الوعظ ، فالتقى ، دون أن يخشى خطر المقاطعة أو الرد ، خطبة فى الجمهور الممتلئة الذين كانت الطقوس الدينية الرهيبية قد هيات عقولهم وأخضعتها . وبلغ من أمر التبعية الصارمة فى الكنيسة الكاثوليكية ، أن الأصوات المنسجمة كانت تنبعث فى وقت معا من مائة منبر فى ايطاليا ومصر ، اذا تولت ضبطها (١) يد عليا : يد مطران روما أو مطران الاسكندرية . وفكرة هذا النظام حسنة حميدة ، ولكن نتائجه لم تكن دوما محمودة طيبة . فقد أوصى الوعاظ بممارسة الواجبات الاجتماعية ، ولكنهم أطنبوا فى تمجيد فضيلة الانصراف التام الى الرهبنة الاليمية بالنسبة للفرد ، العقيدة غير المجدية للانسانية جمعاء . وفضحت

(١) استخدمت الملكة اليزابيث نفس هذا التعبير ، واستخدمت نفس هذا الأسلوب اذا رغبت فى الاستحواذ على عقول الشعب من أجل أى إجراء شاذ من اجراءات الحكومة . وكان خلفها يتوجس خيفة من هذه « الموسيقى » وكان أبته يخاص بها احساسا عميقا . « عندما تضح المنابر وتقرع الطبول فى الكنيسة » .

تحريضاتهم التي تنتسم بطابع البر والخير ، رغبة خفية في أن يباح لرجال الدين أن يتولوا ادارة اموال المؤمنين لمصلحة الفقراء . ولوثت أسمى معانى الصفات والقوانين الالهية بمزيج عقيم من أخبات الميتافيزيقا ، والشعائر الصببانية السخيفة والمعجزات الزائفة المصطنعة . واطنّب كل أولئك — في حماس بالغ — في ذكر الجزاء الذى يدخره الدين لمن يتصدى للمعارضين ، ويدين بالطاعة لسدنة الكنيسة . واذا كدرت الهرطقة والمروق صفو الهدوء ، دق الخطباء المقدسون دبلول الشقاق وربما أعلنوا العصيان . وحير الغموض افهام مجامعهم ، والمهب القذع والسباب مشاعرهم ، فاندفعوا من المعابد المسيحية في انطساكية والاسكندرية . وضربوا في الأرض ، موطنين النفس على ملائحة المكاره أو على الاستشهاد . ان فساد الذوق واللغة ملحوظ بوضوح في خطابات الأساقفة اللاتين العنيفة ، ولكن خُطب جريجورى وكريستوم قسورنت بأروع أساليب أثينا ، أو على الأقل بأساليب البلاغة الآسيوية (١) .

٧ — كان مهتلو الدولة المسيحية يجتمعون بانتظام في الربيع والخريف من كل عام ، وقد اشاعت هذه الاجتماعات روح النظام والتشريع الكنسيين في ولايات العالم الرومانى البالغ عددها مائة وعشرين ولاية . وخولت القوانين رئيس الأساقفة أو المطران سلطنة استدعاء الأساقفة المعاوين في الولاية ومراجعة تصرفاتهم وتأييد حقوقهم وإعلان اخلاصهم ، الى جانب سلطته في فحص أهلية المرشحين الذين انتخبهم رجال الدين والشعب لمسلء الشواغر في المناصب الأسقفية . وعقد احبار روما والاسكندرية وانطساكية وقرطاجه ، ثم القسطنطينية فيما بعد ، الذين كان لهم اختساس أوسع ، الاجتماعات الكبيرة التي كان يشهدها الأساقفة التابعون لهم . أما الدعوة الى عقد المجلس الضخمة أو غير العادية فكانت من حق الامبراطور وحده . فاذا اقتضت الظروف الطارئة في الكنيسة مثل هذا الاجراء الحاسم ، اصدر امرا لا راد له بدعوة الأساقفة أو مهتلئ الولايات ، مع الترخيس لهم باستعمال خيل البريد ، وصرف مبلغ كاف لتفيلية نفقات رحلتهم . وفي فترة مبكرة حين كان قسطنطين حامى الكنيسة ، أكثر منه مهتديا الى المسيحية ، أجال منازعات الكنيسة الأثريقية الى مجلس آزل الذى كان يشهده أساقفة يورك وتريف وميلان وقرطاجة بوصفهم أسدقاء واخوة ، ليناقشوا بلغتهم الوطنية ، المصلحة المشتركة للكنيسة

(١) يقر هؤلاء الخطباء المتواضعون بانهم طالما حرموا مبة المعجزات ، فقد سمعوا الى الاخذ بنصيب من فنون البلاغة .

اللاتينية أو الغربية . وبعد ذلك ياحدى عشرة سنة انعقد مجمع أكثر عدداً وشهرة في نيقيا بولاية بيهينيا ، ليخمدوا بحكمهم النهائى ذلك النزاع الحاد الذى نشأ في مصر حول موضوع التثليث . واستجاب ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا لدعوة ملكهم المتسامح . وقدر عدد رجال الكنيسة من كل مرتبة وشيعة وملة بنحو الفين وثمانية وأربعين شخصا ، وحضر اليونان بأشخاصهم ، أما اللاتين فقد عبر عنهم مندوبو الحبر الرومانى . وكثيرا ما شرفت الدورة التى استمرت نحو شهرين بحضور الامبراطور نفسه ، وكان يترك حراسه لدى الياپ ، ويجلس على كرسي قصير ( باذن من المجلس ) وسط القاعة . وأنصت قسطنطين دون ملل ، وتحدث في تواضع ورقية ، على حين أثر الامبراطور على مجرى المناقشة ، نراه يعلن في خشرع وخضوع أنه سادن ، وليس حكما بين خلفاء الرسل الذين أقيموا قد يسين وآلهة في الأرض . ومثل هذا التبجيل العميق الذى يبديه حاكم مطلق نحو جماعة ضعيفة عزلاء من رعاياه لا يمكن أن يقارن الا بالاحترام الذى كان يبديه نحو السناتو أولئك الامراء الرومان الذين تبناوا سياسة أوغسطس . وربها عن للفيلسوف الذى يرقب تقلب أحوال الانسان على مدى تلك الخمسين عاما - أن يهمن الفكر في تاسيتس وهو في السناتو في روما ، وقسطنطين وهو في مجمع نيقية . لقد تحلل آباء الكابيتول وآباء الكنيسة ، بقدر سواء ، من فضائل المؤسسين الأولين . ولكن لما كان أثر الأساقفة اعمق جذورا في الرأى العام ، فقد احتفظوا بمكانتهم في زهو أكثر احتشاما ، وقاوموا أحيانا رغبات ملكهم بروح كلها رجولة . ومحا تقدم الزمن والعقيدة ذكريات الضعف والهوى والجهل التى وصفت هذه المجالس الكنسية dynods ، وخضع العالم الكاثوليكي بالاجماع للأواهر « المعصومة » التى تصدر عن المجالس العامة .

## الفصل الحادى والعشرون

### مذهب آريوس • مجمع نيقيا والطبقة الواحدة

الإباطرة والجدل حول مذهب آريوس • أخلاق الثناسيوس ومغامراته  
مجمع آريوس ، ومجمع ميلان • الطابع العام للطوائف المسيحية

واجه قسطنطين في مستهل عهده مشكلة الهرطقة المسيحية . ففي  
أفريقية بدأ أتباع دوناتوس Donatus ، وهو أسقف قرطاجة المنافس ،  
انشقاقا دام في تلك الولاية ثلاثمئة عام - وهو عمر المسيحية نفسها في  
أفريقية . غير أن أكثر نزاعات ذلك العصر انتشاراً وعمقها جذوراً هو  
الذى يتعلق بالتثليث ، وهو مذهب يمكن تتبعه ، على أقل تقدير ، إلى نظرية  
أفلاطون عن الكون . ففي القرن الأول بعد الميلاد أشارت مسألة طبيعة  
(« ابن الله ») الهرطقة الأبيونية (١) والهرطقة الفنوصية المعارضة .  
وفي نهاية القرن دحضت هاتان الهرطقتان على يدى الحوارى الرابع ،  
وهو القديس يوحنا الذى فسر نظرية الكون الأفلاطونية تفسيراً مسيحياً ،  
وأظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذى تجسد فيه « الكلمة » أو العقل  
Logos الذى تحدث عنه أفلاطون ، والذى كان مع الله منذ البدء ،  
وهذه العلاقة الأزلية بين « كلمة الله Logos » وبين « الآب » هى التى  
اعترض عليها آريوس . ولقد أصبح مذهب آريوس ، الذى دام حتى عصر  
ثيودوريك وكلويفيس مذهباً معارضاً كبيراً فى العالم المسيحى .

بعد أن أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة للمسيحيين ثار الجدل  
من جديد حول نظرية التثليث فى الوطن القديم للأفلاطونية ، إلا وهو  
مدينة الإسكندرية التى ضجت بالصخب والبذخ ، وازدهرت بالمعلم ،

(١) الأبيونيين طائفة من قدامى المسيحيين يتمسكون بشريعة موسى وينكرون معجزة  
مولد المسيح - ( المترجم ) .

وسرعان ما امتد لهيب النزاع الدينى من المدارس الى رجال الدين والشعب ، والى الولاية والشرق . وأثيرت مسألة أبدية « اللوجوس » ( الكلمة ) ، وهى مسألة تدق عن الفهم ، فى المؤتمرات الكنسية والمواظب التى تلقى على الشعب . وسرعان ما أصبحت الآراء المعارضة التى نادى بها آريوس آراء علنية بفضل حماسه وحماس خصومه . ولقد اعترف أشد خصومه عنادا بعلم شيخ الكنيسة الرفيع المقام الذى لم تشب حياته شائبة والذى أعرض فى انتخاب سابق ، بل وأعرض فى جراحة ، عن حقه فى كرسى الأسقفية ، ووقف منه منافسه الاسكندر موقف قاضيه . ثم نوتشت القضية الهامة أمامه ، وإذا كان قد بدا مترددا فى أول الأمر فإنه نطق أخيرا بحكمه النهائى الذى يقضى بالايمان المطلق . أما شيخ الكنيسة آريوس الذى لم تهن عزيمته والذى صمم على مقاومة سلطة أسقفه الغاضب ، فقد حرم من عضوية الكنيسة . غير أن كبرياء آريوس لقيت تأييدا واستحسانا من فئة كبيرة من الناس ، وكان من بين أتباعه المقرين أسقفان من مصر ، وسبعة شيوخ ، من شيوخ الكنائس ، واثنى عشر شماسا وسبعمئة عذراء ( وهو شيء لا يكاد يصدق ) . ويبدو أن أغلبية كبيرة من أساقفة آسيا كانت تؤيد أو تحبذ قضيته ، ومن وراء هؤلاء كان يقف يوسوبوس كبير قساوسة قيصرية وأعلم القساوسة المسيحيين ، ويوسوبوس كبير قساوسة نيقوميديا الذى اكتسب شهرة الرجل السياسى دون أن يفقد شهرته كقديس . أما مجالس الكنيسة فى فلسطين وبيثينيا ، فقد كانت معارضة لمجالس الكنيسة فى مصر ، ولقد أثار هذا النزاع اللاهوتى اهتمام الأمير والشعب ، وأحيل الفصل فيه ، بعد ست سنوات الى السلطة العليا للمجالس العام فى نيقيا .

وعندما تعرضت أسرار العقيدة المسيحية تعرضا خطيرا للنقاش العام ، استطاع الإدراك البشرى أن يكون ثلاثة اتجاهات واضحة ، ولو أنها غير كاملة ، فيما يختص بطبيعة الثالوث الالهى ، وقيل إن أيا من هذه الاتجاهات لم يكن خلوا من الهرطقة والخطأ ، بالمعنى الخالص المطلق .

١ - ويمقتضى الفرض الأول ، ومن ورائه آريوس وتلاميذه ، فإن اللوجوس ( كلمة الله ) كان خلقا معتادا على غيره ، خلقته ارادة الآب من العدم . وهذا الإلن ، الذى صيغ كل شيء (١) ، قد ولد قبل كل

(١) عندما دخلت نظرية الخلق المطلق من العدم بين المسيحيين بصورة تدريجية ، كانت ترتفع كرامة العامل بشكل طبيعى مع ارتفاع قيمة العمل .

العوالم ، وأن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة اذا  
قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود لم يكن أزلياً ، بل لقد كان  
هناك زمن سابق لخلق اللوجوس ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير  
عنه ، ولقد نفخ الأب سبحانه في ابنه الوحيد من روحه ، وغمره في فيض  
من نور مجده وعظمته . ولقد رأى هذا الابن ، وهو صورة منظورة لمكمال  
غير منظور ، على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش  
المع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذي كان يشعه كان منعكساً  
عليه ، وكان يحكم العالم خضوعاً لإرادة أبيه ومليكاً ، شأنه في ذلك  
شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب  
أوغسطس .

٢ - أما الفرض الثاني فإنه يقرر أن اللوجوس يمتلك كل الكمال  
الكامن الذي لا يمكن أن ينتقل الى غيره ، والذي تنسبه الديانة  
والفلسفة الى الله جل جلاله ، وأن الجوهر الالهي يتألف من ثلاثة عقول  
أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهي كائنات تشترك في أنها متساوية  
وابدية ، وأنه لمن التناقض أن يقال أن أياً منها لم يكن له وجود ، أو أن  
وجودها سوف ينتهي يوماً . ولقد حاول انصار هذا الفرض ، الذي  
يبدو أنه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن يبقوا على وحدة « خالق الكل »  
الذي يبرز دوره الهام في شكل الدنيا ونظامها بقولهم ان هذه الآلهسة  
الثلاثة متفقة اتفاقاً دائماً في عملها وفي التطابق الجوهرى لمشيئتها .  
وفي مقدورنا أن نلاحظ شيها ضعيفاً لوحدة العمل هذه في مجتمعات  
الانسان ، بل وفي مجتمعات الحيوان . فالأسباب التي تنفسد ما بين  
الناس من اتساق انما تنشأ مما تتسم به صفاتهم من نقص ومما بينها  
من اللامساواة . غير أن القدرة على كل شيء التي تسترشد بالحكمة  
اللانهاية والصلاح اللانهاى لا يمكن أن تعجز عن اختيار الوسائل لتحقيق  
الاهداف الواحدة .

٣ - أما الفرض الثالث فإنه يقرر وجود ثلاثة كائنات تملك بحكم  
الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الالهية في اسمى درجاتها ،  
وهذه الكائنات الثلاثة ايدية في زمانها ، لانهاية في مكانها ، وثيقة  
الوجود بعضها مع بعض ، وفي الكون كله . ومن ثم فهي تفرض نفسها  
على العقل الحائر باعتبارها كائناً وحيداً ، يستطيع في نطاق الجياسة  
وفي نظام الطبيعة ان يتجلى في اشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر اليه  
من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقي  
ويصبح تثليثاً من حيث الاسماء ومن حيث الصفات المجردة التي

لا تبقى إلا في العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود اللوجوس شخصاً بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق إلا مجازاً على العقل الأسمى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شيء . ويغدو تجسيد اللوجوس مجرد وحى من الحكمة الالهية هبط على الانسان « يسوع » فملاً جوانب نفسه وهدى كل أعماله . وهكذا ترانا ندور فى الدائرة اللاهوتية ، ويدهشنا أن السابلى (١) The Sabellian ، ينتهى حيث بدأ الابيونى من قبله ، وأن السر الغامض الذى يدق عن الفهم والذى يثير اعجابنا ، يستعصى على بحثنا .

### مجمع نيقيا والطبيعة الواحدة

إذا سمح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا فى غير تحيز ما تملية عليهم ضمائهم فما كان لآريوس وزملائه أن يعللوا أنفسهم بأمال الحصول على أكثرية من الأصوات فى جانب فرض يتعارض تعارضاً مباشراً مع الرايين اللذين يتمتعان بأكثر شعبية فى العالم الكاثولىكى . وسرعان ما أدرك هؤلاء خطورة موقفهم ، وأظهروا فى كثير من الحكمة تلك الفضائل المتواضعة ، التى قلما يمارسها ، بل وقلما يمتدحها إلا الجانب الأضعف ، إذا ما احتدمت نزعات أهلية أو دينية . فأوصوا بممارسة ما تنص عليه المسيحية من محبة واعتدال ، وأكدوا أن الجدل القائم لا تفهم طبيعته ، ورفضوا الاعتراف باستعمال أية الفاظ أو تعريفات ليس لها وجود فى الكتاب المقدس ، وأبدوا استعدادهم فى كثير من السخاء لارضاء خصومهم دون أن ينكروا نزاهة مبادئهم الخاصة . غير أن الحزب المنتصر تلقى كل عروضهم ومقترحاتهم بشك ممزوج بروح التعالى ، وسعى سعياً حثيثاً الى ايجاد نقط خلاف لا تقبل الاتفاق والتراكي ، بحيث يودى رفض فريق آريوس لها الى ايقاعهم فى اثم الهرطقة وما يترتب عليها ، فقرئ على الأخطاب من يوسوبوس النيقوميدى ، ثم مزق تمزيقاً مشيناً ، وفى هذا الخطاب اعترف رئيسهم هذا اعترافاً صريحاً بأن قبول فكرة الطبيعة الواحدة ، وهى فكرة مألوفة لدى الأفلاطونيين ، هو شيء يتنافى مع مبادئ نظامهم اللاهوتى . وتعلق الأساقفة فى لهفة بهذه الفرصة المواتية ، وهم المتحكمون فى قرارات المجلس ، وعلى حد التعبير القوى الذى قاله « أمبروز » فقد

(١) نسبة الى Sabellius ( القرن الثالث ) الذى كان يعلم أن الآب والابن والروح

القدس هم شخص واحد فى ثلاثة أقانيم .

استخدموا السيف الذى سلته الهرطقة نفسها من غمده لقطع رأس الوحش المقوت ، وأقر مجمع نيقيا مبداً ان الآب والابن من جوهر واحد أو من مادة واحدة **Consubstantialism** وافقت عليه منذ ذلك الوقت بالاجماع الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت ، كمادة أساسية فى الايمان المسيحى . وما كان لهذه العبارة ( الجوهر الواحد ) ان تلائم تلك الأكثرية التى أدخلتها فى العقيدة الصحيحة اذا لم تكن قد دمغت الهرطقة وجمعت كلمة الكاثوليك ، وكانت هذه الأكثرية تتألف من فريقين يتسمان بترعة مضادة لأساسيس أصحاب مذهب الآلهة الثلاثة **The Tritheists** ، وأصحاب مذهب الاله الواحد فى ثلاثة أقانيم وهم السابليون **Sabellians** . ولما بدا ان هذين المذهبين المتعارضين من شأنهما ان يقوضا أسس الديانة الطبيعية أو الموحى بها ، فقد اتفق أصحابهما على تخفيف صلابة مبادئهم ، وتجاهل النتائج التى قد يفرضها خصومهم ، وهى نتائج عادلة ولكنها تثير الحقد والفرقة . ودفعتهم مصلحة القضية المشتركة الى ضم صفوفهم واخفاء ما بينهم من خلافات ، وخفف النصح بالتسامح من العداوة القائمة بينهم ، وتوقفت نزعاتهم باستخدام التعبير الغامض - الطبيعية الواحدة **Homousion** الذى أصبح كل فريق حراً فى تفسيره ونق ارائه الخاصة . اما المعنى الذى قصده السابليون ، وهو الذى أرغم مجلس انطاكية قبل ذلك بخمسين عاماً على تحريم هذا اللفظ الشهير ، فقد حجب فيه أولئك اللاهوتيين الذين كانوا يميلون ميلاً سرياً وان يكن جزئياً الى الأخذ بمبدأ التثليث الأسمى . غير ان قديسى عصر آريوس الأكثر الخذا بالجديد مثل اثناسيوس الجرىء وجريجورى نازيانزى العالم وغيرهم من عمد الكنيسة الذين كانوا يؤيدون عقيدة « نيقيا » . فقد بدا انهم يعتبرون كلمة « المادة » على انها مرادف لكلمة « الطبيعة » ، وكان لديهم من الجراءة ما يدفعهم الى توضيح المعنى الذى يقصدونه بتأكيدهم ان ثلاثة رجال ينتمون الى جنس واحد مشترك هم فى واقع الأمر من مادة واحدة او من طبيعة واحدة . ومما يؤدى ، من ناحية ، الى اتساق هذا التساوى الخالص توحيداً لا يقبل الانفصال ويؤدى اليه ، ومن الناحية الأخرى ، سمو الآب الذى كان مسلماً به ما دام متمشياً مع استقلال الابن . وفى داخل هذه الحدود فان العقيدة الصحيحة المتأرجحة التى لا يكاد يغطن اليها أحد استطاعت ان تتذبذب فى أمان . وعلى جانبى هذا المجال الذى كان موضع تقديس من الجميع ، وبمعناى عنه ، كمن الهرطقة من ناحية . وأشباه القديسين من ناحية اخرى للانقضاض على الضمالات الخمسة والتهامه . ولما كان مبلغ الكراهية اللاهوتية انما يتوقف على روح



القتال لا على أهمية الخصومة، فان الهراطقة الذين انحط مركزهم عموماً  
معاملة أشد وأقسى من معاملة أولئك الذين حطموا شخص الابن . ولقد  
استنفدت حياة أثناسيوس فى مقاومة لا تلين ولا تهدأ شئنا على الجنون  
الضال الذى اتصف به أتباع آريوس ، ولكنه دافع أكثر من عشرين عاماً  
عن مذهب «النسابلية» الذى نادى به «ماركلوس» الأنسىرى **Marcellus**  
of Ancyra وعندما أرغم فى نهاية الأمر على الانسحاب من عضوية  
الكنيسة ، ظل يذكر فى ابتسامة غامضة الأخطاء العريضة التى ارتكبها  
صديقه المبجل .

ولقد نشئت سلطة المجلس العام، الذى اضطر أتباع آريوس أنفسهم  
الى الخضوع اليه ، على ألية الفريق الأورثوذكسى ( صاحب العقيدة  
الصحيحة ) تلك الحروف الغامضة لكلمة « الطبيعة الواحدة » التى  
أسهمت أساساً ، ورغم بعض الخلافات الغامضة ، فى المحافظة على  
وحدة الايمان ، أو على الأقل وحدة التعبير ، وفى دوام هذه الوحدة  
ومن ثم فان أتباع هذا الفريق الذى نادى بمذهب « الطبيعة الواحدة »  
أو « المادة الواحدة » ، والذى أكسبه نجاحه الحصول على اسم  
« الكاثوليك » ، أخذوا ينفخون ببساطة وثبات عقيدتهم ، ويسبون  
تقلب خصومهم الذين كانوا يفتقرون الى أى مبدأ معين من مبادئ  
الايمان . أما رؤساء آريوس ، فان إخلاصهم أو دهاءهم وخوفهم من  
القوانين أو من الناس ، وتقديسهم للمسيح ، وكراهيتهم لأثناسيوس ،  
وجميع الأسباب الالهية والبشرية ، مما يؤثر فى آراء أى حزب لاهوتى  
ويزعجها ، كل أولئك بعث فى أبناء هذه الطائفة روح التنافر والتخلخل  
التي خلقت فى مدى سنوات قلائل ثمانية عشر نموذجاً دينياً ، وانتقلت  
للجرح الذى أصاب كرامة الكنيسة ، وانك لقرى الرجل المتحمس  
« هيلارى » Hilary الذى دفعته المحن الخاصة التى أحاطت بمركزه  
الى التخفيف من أخطاء رجال الدين الشرقيين لا الى تضخيمها ، ترى  
هذا الرجل يعلن أنه فى المدى الفسيح للولايات العشر الآسيوية التى  
نفى اليها لا تستطيع أن تجد الا قلة قليلة من كبار رجال الدين احتفظت  
بمعرفة الاله الصحيح . ولقد أدى الظلم الذى شعر به والفوضى التى  
شاهدها وكان فريسة لها ، الى تهدئة مشاعر الغضب التى احتدمت  
فى نفسه ، فى فترة وجيزة . وفى القطعة التالية التى سوف أنقل منها  
سطوراً قليلة ينصرف أسقف بواتييه دون حذر الى أسلوب فيلسوف  
مسيحى ، فيقول : « انه لمن المؤسف والخطير على السواء أن هناك من  
العقائد بين الناس بقدر ما يعتنقون من آراء ، ومن المذاهب بقدر ما لهم من  
اتجاهات وميول ، وأن هناك من نواعى الكفر بقدر ما نرتكب من

أخطاء ، وذلك لأننا نصنع العقائد على هوانا ونفسرها بالطريقة عينها . فالجامع المتعاقبة تنبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم تقلبها ثم تهون من شأنها . وقد أصبح التشابه الجزئى أو الكلى بين الآب والابن موضع جدل ونقاش فى هذه الأيام التعسه . وفى كل سنة ، بل وفى كل شهر ، نصنع عقائد جديدة لنفسر بها غوامض خفيفة . ونندم على ما فعلنا ، وندافع عن النادمين ، ثم نصب اللعنة على أولئك الذين دافعنا عنهم . وندين مذهب الآخرين ، ويمزق بعضنا بعضا ، ومن ثم فقد كان كل منا سببا فى هلاك الآخرين » .

ولا ينتظر أحد منى ، بل وربما لا يطيق ، أن أضخم هذا البحث اللاهوتى الخارج عن الموضوع بتمحيص دقيق للعقائد الثمانى عشرة التى نبذواضعوها فى أكثر الأحيان ذلك الاسم المكروه ، اسم أبيهم اريوس . وأنه ليلى للمدارس المجد أن يرسم شكلا لنبات غريب ويتتبع نموه ، غير أن التفاصيل المجددة التى تتناول وجود أوراق دون أزهار ، وغصون دون ثمار ، من شأنها أن تؤدى الى نفاذ صبره ومضايقته حبه للاستطلاع . ومع ذلك فهناك مسألة انبثقت تدريجيا من الجدل الدائر حول مذهب اريوس ، ويجدر بنا ملاحظتها لأنها خلقت وميزت الطوائف الثلاث التى لم يوحد صفوفها الا كراهيتها المشتركة لمذهب الطبيعة الواحدة الذى أقره مجمع نيقييا . ١ - فاذا ما سئلوا عما اذا كان الابن هو شبه الآب أجاب الهرطقة المتسكون بمبادئ اريوس ، أو قل بمبادئ الفلسفة ، اجابة قاطعة بان الأمر ليس كذلك ، لأن تلك المبادئ تقضى بوجود فرق لا نهائى بين الخالق وبين اسمى مخلوقاته . وقد أخذ بهذه النتيجة البييتة شخص اسمه ايتيوس Aetius أطلق عليه خصومه المتحمسون اسم « الملحد » . وهذا الرجل دفعته روحه القلقة المتطلعة الى مزاولة كل مهنة من مهن الحياة الانسانية تقريبا . فقد كان على التوالى رقيقا ، أو على الأقل فلاحا ، ثم مصلحا جوالا للأوائى . ثم صائغا ، ثم طبيبا ، ثم معلما ، ثم لاهوتيا ، وأخيرا أصبح رسولا لكنيسة جديدة لقيت رواجاً بفضل قدرات تلميذه يونوميوس Eunomius . ولقد كان ايتيوس مسلحا بنصوص من الانجيل وباقيسة منطقية مستمدة من منطق أرسطو ، ومن ثم فإن هذا الرجل الماكر اكتسب شهرة المجادل الذى لا يقهر ، والذى لا يستطيع اسكاته أو اقناعه . ولقد مكنته هذه المواهب من كسب صداقة اساقفة مذهب اريوس . الى أن اضطروا الى نبذ ، بل ومجافاة ، حليف خطير أثار رأى الشعب ضد قضيتهم بدقة محاجته ، واساء الى التقوى التى كان يتحصف بها أتباعهم المخلصون اكبر الاخلاص لذهبهم . ٢ - أن

القدرة على كل شيء التى يتصف بها الخالق أوحى بحل مقبول لمشكلة التشابه بين الآب والابن ، وفى مقدور الايمان أن يقبل ما لا يجزئ العقل على انكاره ، وهو أن الله العظيم يمكنه أن ينقل صفات كماله اللانهائى الى من يشاء ويخلق مخلوقا لا يماثل أحدا الا هو . وكان المسند القوى لأتباع آريوس ما هنالك من وزن وقدرات لزعمائهم الذين تولوا رعاية قضية يوسوبوس وجلسوا على العرش الرئيسى فى الشرق . ولقد كرهوا ، وربما فى شيء من التظاهر ، ذلك الضلال الذى اتصف به ايتيوس ، وقرروا أنهم يعتقدون ، اما دون تحفظ أو بناء على ما ورد فى الانجيل ، أن الابن يختلف عن كل المخلوقات الأخرى ، ولا يشبه أحد الا الآب . ولكنهم أنكروا أن الابن من مادة الآب نفسها أو من مادة شبيهة وفى بعض الأحيان كانوا يبررون فى جزاء هذا الخروج ، وفى أحيان أخرى كانوا يعترضون على استخدام كلمة « المادة » التى يبدو أنها تعطى فكرة مناسبة ، أو على الأقل فكرة مميزة ، عن طبيعة الاله الأعظم .

٣ - أما الطائفة التى كانت تقول بمذهب المادة الشبيهة فقد كانت أكثر الطوائف عدداً، على الأقل فى ولايات آسيا. وعندما اجتمع زعماء الطائفتين فى مجمع سلوقيا Seleucia ، تغلب رأى هذه الطائفة بأكثرية مائة أسقف وخمسة ضد ثلاثة وأربعين أسقفاً . أما الكلمة اليونانية التى وقع عليها الاختيار للتعبير عن هذا التشابه الغامض بين الآب والابن ، فانها وثيقة الشبه بالكلمة التى كان يستخدمها أصحاب المذهب الصحيح ( الأورثوذكس ) الى درجة أن غير العالمين بالدين فى كل عصر كانوا يسخرون من المشادات العنيفة التى احتدمت من جراء وجود اختلاف فى مقطع صوتى واحد بين كلمتى Homoiousians و Homoiousians وكثيراً ما يحدث أن الأصوات والحروف التى تشبه بعضها بعضاً أشد الشبه تمثل بمحض الصدفة أفكاراً أكثر ما يكون تعارضاً ، ومن ثم فإن هذه الملاحظة تصبح مضحكة فى حد ذاتها ، لو أنه كان ممكناً أن نقيين أى فرق حقيقى معقول بين مذهب أولئك الذين أطلق عليهم دون وجه حق اسم أشباه أتباع مذهب آريوس وبين مذهب الكاثوليك أنفسهم . أما أسقف بواتييه الذى كان يهدف فى كثير من الحكمة وهو فى منفاه فى ولاية « فريجيا » الى تحقيق ائتلاف بين الأحزاب ، فقد حاول أن يثبت أن التشابه بين الآب والابن Homoiousion ، يمكن أن يعنى أنهما من جوهر واحد إذا توخينا الاخلاص والتقوى فى التفسير . غير أنه يعترف بأن هذه الكلمة لها جانب غامض يثير الشبهة . ولما كان الغموض شيئاً يتناسب مع النزاعات اللاهوتية ، فإن أشباه أتباع آريوس الذين تقدموا نحو أبواب الكنيسة أخذوا يهاجمونها بأقسى ما يكون من الغضب .

## الأباطرة والجدل حول مذهب أريوس

كانت ولايات مصر واسيا التي احتضنت لغة اليونان وعاداتهم قد تناولت جرعات كبيرة من سموم الجدل الذي قام حول مذهب أريوس . وزودت الدراسة غير المألوفة لمذهب أفلاطون بما فيها من ميل عقين للنقاش وتوفر المصطلحات المرنة المطاطة ، كل أولئك زود الشعب ورجال الدين في الشرق بمعين لا ينضب من الألفاظ والتمييزات . وفي خضم نزاعاتهم الحادة ، نسوا في سهولة ذلك التشكك الذي تحبذه الفلسفة ، وذلك الخضوع الذي يحتمه الدين . أما أهل الغرب فقد كانوا أقل فضولا ، ولم تكن الأشياء غير المرئية لتثير عواطفهم بمثل تلك القوة ، كما أن عقولهم كانت أقل مرانا على عادات النقاش والجدل ، وكانت الكنيسة الغالية *The Gallican Church* على قدر من نعيم الجهل ، الى حد أن هيلاري نفسه بعد أكثر من ثلاثين عاما من المجلس العام الأول ، كان لا يزال غريبا على عقيدة نيقيا . وكانت أشعة المعرفة بالأمور اللاهوتية قد نفذت الى اللاتين عن طريق الترجمة ، وهو طريق غامض محفوف بالشك . فان لغتهم الوطنية الفقيرة الجامدة لم تستطع دائما أن تسعفهم بمصطلحات مناسبة تقابل المصطلحات اليونانية ، والكلمات الفنية الواردة في الفلسفة الأفلاطونية ، وهي مصطلحات وكلمات كانت موضع تقديس من الإنجيل او من الكنيسة ، بحيث تمكنهم من التعبير عن أسرار الايمان المسيحي . ولا شك في أن العجز عن التعبير قد أدخل في علم اللاهوت اللاتيني سلسلة من الخطأ والالتباس غير أن سكان الولايات الغربية كانوا ، لحسن حظهم ، قد استقروا دينهم من مصدر صحيح ، ومن ثم حافظوا في ثبات على المذهب الذي تقبلوه في لين ويسر ، وعندنا اقترب وباء مذهب أريوس من حدودهم كان لديهم في الوقت المناسب ما يقيهم من شره وهو ايمانهم بالطبيعة الواحدة تحت الرعاية الأبوية التي أهلهم بها بابا روما . ولقد ظهرت احساسيسهم وخلقهم في المجمع الشهير الذي انعقد في ريميني *Rimini* ، وكان أكثر عددا من مجلس نيقيا لأنه كان مكونا من أكثر من أربعمئة أسقف ينتمون الى ايطاليا وأفريقيا واسبانيا والنغال وبريطانيا والليريكوم *Illyrium* . وبدأ من المناقشات الأولى أن ثمانين أسقفا فقط كانوا يؤيدون فريق أريوس . رغم أن « هؤلاء » تظاهروا بانهم يلعنون اسم أريوس ونكراه . غير أن هذه القلة العددية عوضتها مزايا المهارة والتجربة والنظام ، وكان على رأس هذه الفئة القليلة أسقفان من الليريكوم هما فالنز *Valens* وأوراسكيوس *Ursacius* اللذان قضيا حياتهما في دسائس البلاط والمجالس ، وتدربا

تحت امره يوسوبوس في صراعات الشرق الدينية ، ومن ثم فقد استطاعتنا  
بمحتاجتهم وجدلهم أن يحرجا أساقفة اللاتين الأمناء البسطاء ، وتمكننا  
في نهاية الأمر من التمويه عليهم وخذاعهم . وقد شق على هؤلاء أن  
تنتزع من أيديهم مقاليد الايمان بالالصاح والخداع لا بالعنف السافر .  
ولم يسمح لمجلس ريمنى بأن ينفرد عقده حتى التزم الأعضاء دون تعقل  
أو روية بعقيدة متشككة أدخل فيها من التعبيرات التى تنم عن معنى  
الهرطقة ما يمس مذهب الطبيعة الواحدة . ولشد ما أدهش العالم فى  
تلك المناسبة أن يجد نفسه وقد أصبح يدين بمذهب آريوس ، على حد  
تعبير جيروم . ولكن ما أن وصل أساقفة اللاتين الى أسقفياتهم حتى  
اكتشفوا خطأهم وندموا على ضعفهم . وقبول هذا التسليم الشائن المهين  
بالرفض المشوب بالازدراء والكراهية . أما مذهب الطبيعة الواحدة ،  
الذى اهتز ولكنه لم يخلب على أمره ، فقد غرس من جديد فى كل كنائس  
الغرب بصورة أكثر صعوبة وقوة .

هكذا نشأت وتطورت تلك النزاعات اللاهوتية التى أزجعت سلام  
المسيحية فى عهود قسطنطين وأبنائه من بعده ، وهكذا كان شأن الثورات  
الطبيعة التى اعنورتها . ولما عمد هؤلاء الأمراء الى مد سلطانهم المطلق  
على الدين ، كما مدوه على حياة ومصائر رعاياهم ، فان ثقل تأييدهم  
كان فى بعض الأحيان يرجح كفة الكنيسة ، وأصبح الملك الدنيوى هو  
الذى يقرر حقوق ملك السماء أو يغيرها أو يعدلها .

ولا شك فى أن روح التيافر التمسعة التى سادت ولايات الشرق عاقت  
فوز قسطنطين ، غير أن الامبراطور ظل فترة من الزمن ينظر الى موضوع  
النزاع فى فتور وبدون اهتمام أو مبالاة . وبما أنه كان لا يزال يجهل  
الصعوبة القائمة فى طريق تهدئة الخلافات ، فقد أرسل الى الطرفين  
المتنازعين : الاسكندر وآريوس ، رسالة تدعو الى الاعتدال (١) ، ويمكن  
أن يعتبر ما جاء بها صادرا من وحى جندى وسياسى فج غرير أكثر من أن  
يكون مستمدا من فن مستشاريه الدينيين ، وهو فى هذه الرسالة يعزو  
أصل الخصومة كلها الى سؤال تافه غامض يتعلق بنقطة فى القانون  
لا يستطيع فهمها ، سؤال سألته الأسقف فى غياب وأجاب عنه القس فى  
حلق . وهو يرثى فيها لحال الشعب المسيحى الذى يعبد لها واحدا

(١) آسات مبادئ التسامح واللامبالاة الدينية التى تتضمنها هذه الرسالة الى  
بارونيوس وتلمونت Baronius - Tillemont الذين يمتقدان أن الامبراطور كان لديه  
مستشار شرير . هو الشيطان يوسوبوس .

ويدين بدين واحد ويمارس عبادة واحدة ، ومع ذلك يسمح لفروق تافهة أن تؤدي به إلى الانقسام . وبعد ذلك يوصى رجال الدين في الاسكندرية بأن يحدوا حدو فلاسفة اليونان الذين كان في مقدورهم أن يقرعوا الحجة بالحجة دون أن يطير صوابهم أو يفقدوا أعصابهم ، وأن يؤكدوا حريتهم دون تحطيم صداقتهم . وربما كان من الممكن لمسك قسطنطين الذي اتسم بالاحتقار واللامبالاة أن يكون له أعظم الفعالية في فض النزاع لو أن التيار الشعبي كان أقل اندفاعا وعنفا ، أو لو أن قسطنطين نفسه استطاع في خضم التعصب والتحزب أن يحتفظ بهدوء عقله ورباطة جأشيه . غير أن وزراء من رجال الدين سرعان ما استطاعوا أن يشنوا الحاكم عن موقفه غير المتحيز وأن يوقظوا حماس المرتدين . ولقد اثارته الاهانات التي وجهت إلى تماثيله ، وازعجه المدى الكبير الذي وصل إليه الشر المستطير فعلا وتخيلًا . ومنذ اللحظة التي جمع فيها ثلاثمائة أسقف داخل جدران قصر واحد قضى على كل أمل في السلام والتسامح . وكان حضور الملك لهذا الاجتماع ايذانا بأهمية النقاش كما أن شدة اهتمامه زادت من كثرة الحجج . ولقد ابرز شخصيته بشجاعة ثابتة راسخة أشعلت حماس المتصارعين وزادتهم قوة . ورغم ما قوبلت به فصاحة قسطنطين وحكمته من استحسان وتأييد ، فإنه في موقفه هذا لم يعد أن يكون قائدا رومانيسا لا تزال عقيدته موضع شك . ولا يزال ذهنه بعيدا عن الاستنارة بشيء من الدرس أو الإلهام ، تصدى تصديا مستهترا ليناقتش باللسنة اليونانية مسألة ميتافيزيقية أو ميحئا من مباحث الدين . وربما كانت مكانة صديقه الحميم أوزيس Osius - الذي يبدو أنه كان يرأس مجمع نيقيا - كقيلة بأن تكسب الامبراطور إلى جانب المذهب الصحيح . ثم أنه وقر في ذهنه في الوقت المناسب أن يوسوبوس Eusebius النيقوميدي نفسه ، الذي كان يحمى الآن الهرطقة ، كان منذ عهد قريب عونًا للطاغية ، الأمر الذي قد يثير سخطه على أعدائهم . ولقد اقر قسطنطين عقيدة نيقيا ، وأعلن في عزم وأصرار أن أولئك الذين يقاومون الحكم الإلهي الذي أصدره المجمع يجب أن يعدوا انفسهم للنفي من البلاد قورا . وكان من شأن اعلانه هذا أنه قضى على ما كان هنالك من اصوات ضعيفة معارضة ، فانخفض عدد الاساقفة المعارضين على النحو من سبعة عشر أسقفا إلى اثنين ، وأرغم يوسوبوس اسقف قيصرية مكرها على تأييد مذهب الطبيعة الواحدة في عبارات ملتبسة ، كما أن مسلك التردد الذي سلكه يوسوبوس النيقوميدي لم يترتب عليه الا تأخير نفيه والحق العار به فترة ثلاثة شهور . أما آريوس الضليل فقد نفى في إحدى مقاطعات الليريكوم النائية كما رسم شخصه وتلاميذه بحكم القانون بذلك الاسم المقوت « البرفيريون » .

Porphyrans ( أتباع الأفلاطونية الجديدة ) ، وكذلك أحرقت كتاباته وقررت عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات وهكذا سرت في الامبراطور روح الخصومة وصنفت مراسيمه بأسلوب ساخر قصد به أن يوغر صدور رعاياه بتلك الكراهية التي أضمرها لأعداء المسيح .

غير أنه يبدو أن الامبراطور كان في مسلكه هذا مدفوعا بنزعات الهوى بدلا من المبادئ ، ومن ثم فلم تكد تنقضى ثلاث سنوات على مجلس نيقيا حتى استشعر بؤادر الرحمة بل والتسامح نحو الطائفة المضطهدة التي كانت أخته الحبيبة ترعاها وتحميها في غير علانية فاستدعى المنفيون من منقاهم ، واسترجع يوسوبوس نفوذه وتأثيره على عقل قسطنطين ، ثم أعيد الى كرسى الأسقفية الذي كان قد عزل منه بصورة مهينة شائنة . أما آريوس نفسه فقد عومل في البلاط الامبراطوري كله بالاحترام الذي يستحقه رجل برىء وقع تحت نير الظلم . ثم وافق مجلس أورشليم على مذهبه ، وبدا أن الامبراطور كان يتعجل رفع الظلم الذي أوقعه به ، فأصدر أمرا قاطعا بأن يسمح له بتناول الأسرار المقدسة في كاتدرائية القسطنطينية ، غير أن القضاء المحتوم وافى آريوس في نفس اليوم الذي حدد لزيد اعتباره ، وثمة ظروف غريبة مزعجة مات فيها هذا الرجل ، وربما أثارت تلك الظروف شكوكا وريبيا في أن قديسى المذهب الصحيح لم يكتفوا بالأصلاة لانقاذ الكنيسة من ألد أعدائها ، بل حققوا ذلك بوسائل أشد فعالية (١) . ولقد وجهت اتهامات كثيرة الى الزعماء الثلاثة الكبار للكاثوليك ، اثناسيوس أسقف الاسكندرية ، ويوستانيوس أسقف انطاكية ، وبولس أسقف القسطنطينية ، فحكمت مجالس كثيرة عليهم بالعزل ، ثم صدر الأمر بنفيهم الى ولايات نائية . وكان الذى أصدر الأمر هو امبراطور مسيحي ، وهو الذى تلقى في اللحظات الأخيرة من حياته ، شعائر المعمودية على يد أسقف نيقوميديا التابع لمذهب آريوس . وليس في مقدورنا أن نخلى حكومة قسطنطين الدينية من أنها كانت ضعيفة طائشة غير أن ذلك الحاكم كان يصدق كل ما يقال له ، ولم يكن بارعا في مناورات الصراع اللاهوتى ، ومن ثم

(١) نستمد القصة الاصلية من اثناسيوس الذى يتورع بعض الشيء عن الاساءة الى ذكرى الميت . وقد يكون ميلنا ، غير أن الاتصال الدائم بين الاسكندرية والقسطنطينية كان كفيلا بأن يجعل اختراع هذه القصة أمرا خطيرا . وأولئك الذين يؤكدون القصة الحرفية لموت آريوس ( وهى أن أمعاء انفجرت فجأة في بيت الخلاء ) يجب أن يختاروا أمرا من اثنين - السم أو المعجزة .

فقد خدعه الهرطقة باقوالهم المناوضة النمقة ، ولم يستطع مطلقا أن يفهم أحاسيسهم فهما كاملا . ومع أنه كان يظل آريوس بحمايته ويضطهد اثناسيوس ، الا أنه كان ولا يزال يعتبر مجلس نيقيا حصنا للمديانة المسيحية ومفخرة اختص بها عهده .

ولا بد ان أبناء قسطنطين كانوا قد قبلوا منذ طفولتهم بين صفوف من يؤهلون للتعميد ، غير أنهم حذروا حذروا أبيهم في تأخير تعميدهم . وكانوا مثل أبيهم في الجراءة على اصدار حكمهم في اسرار وغوامض لم يدريوا على فهمها بصورة منتظمة ، واصبح مصير النزاع حول مذهب التثليث متوقعا الى حد كبير على مشاعر قسطنطيوس Constantius الذى ورث ولايات الشرق وامتلك الامبراطورية كلها . أما الأسقف الآريوسى ( التابع لمذهب آريوس ) الذى كان قد اخفى وصية الامبراطور الراحل ليستغلها لمصلحته فقد احسن الافادة من الفرصة المواتية التى اتاحت له أن يحظى بالفة امير كان ذرو الحظوة لديه والمقربون اليه يتخلبون دائما على مستشاريه الرسميين . ولقد نفت العبيد والخصيان سموم الأفكار الروحانية فى أرجاء القصر ، وانتقلت العدوى الخطيرة من الوصيفات الى الحراس ، ومن الامبراطورة الى زوجها الغر الغافل . وكان قسطنطين يعبر دائما عن محاباته لحزب يوسوبوس ، ونجحت براعة زعماء هذا الحزب فى تقوية هذه المحاباة بصورة غير محسوسة ، كما أن فوزه على الطاغية ماجننتيوس Magnentius زاد من ميله ، كما زاد من قدرته ، على استخدام اساليب القوة لنصرة مذهب آريوس . وبينما كان الجيشان يتقاتلان فى سهول مورسا Mursa ، ومصير المتنافسين معلقا على نتيجة الحرب كان ابن قسطنطين يقضى تلك اللحظات الحرجة فى كنيسة الشهداء تحت أسوار المدينة . ولقد عمد نديمه الروحى ، فالنز Valens ، الأسقف التابع لمذهب آريوس ، الى استخدام احتياطات اشد ما يكون دهاء للحصول على انباء مبكرة عن المعركة بحيث يكتسب لديه حظوة اذا انتصر أو يبسر له النجاة اذا خسر . ومن ثم فإنه استعان سرا بعدد من الرسل الذين تتوفر فيهم السرعة ، والثقة ، فكانوا يخبرونه بتقلبات سير المعركة . وبينما كان رجال البلاط يرتعدون حول سيدهم الذى تولاه الخوف والهلع ، اذا بالأسقف فالنز يؤكد له أن الجيوش

(١) يلاحظ المؤرخ ان الخمسينيات هم الاعداء الطبيعيون « لابن الله » قارن مؤلف الدكتور « جورتن » Remarks on Ecclesiastical History المجلد الرابع . بتسلسل الانساب الذى ورد فى كتاب Candide ( الفصل ٤ ) الذى ينتهى بواجده من اول رفاق كرسنوف كولب .



الغالية قد اندحرت ، وأشار ، فى شىء من حضور الذهن ، الى أن هذا الحدث الجيد قد كشفه له أحد الملائكة . فاستشعر الامبراطور عرفانا بالجميل ونسب فوزه هذا الى تأييد أسقف مورسا وما يتصف به من فضائل ، والى ايمانه الذى استجابت له السماء بصورة علنية ترقى الى درجة الاعجاز . أما أتباع أريوس الذين اعتبروا انتصار قسطنطين كأنه انتصار لهم ، فقد فضلوا مجده على مجد أبيه ، وسرعان ما قام كيرلس (١) Cyril أسقف أورشليم ( بيت المقدس ) بوصف صليب سماوى يحف به قوس قزح رائع ، وهو الصليب الذى كان قد ظهر فوق جبل الزيتون فى الساعة الثالثة من يوم عيد العنصرة Pentecost لتثبيت ايمان الحجاج وأهل المدينة المقدسة . وجاء فى هذا الوصف أن ذلك الشهاب السماوى قد ازداد حجما بصورة تدريجية ، وأكد المؤرخ الأريوسى فى جراءة أن الصليب كان واضحا أما الجيشين المتقاتلين فى سهول بانونيا Pannonia وأن الطاغية ماجنتيوس الذى مثله المؤرخ عمدا بأحد عباد الأصنام قد لاذ بالفرار أمام صليب المسيحية الصحيحة الذى كان ظهوره بشيرا بالفوز والانتصار .

وما لا شك فيه أن الأحاسيس التى يشعر بها رجل سليم الحكم تناول دون تعيز تطورات النزاع الأهلى والكنسى ، دون أن يكون طرفا فيه ، لهى أحاسيس يحق لنا دائما أن ندخلها فى اعتبارنا . وأنى لأسوق هنا قطعة قصيرة قد يكون كتبها اميانوس Ammianus ، الذى خدم فى جيوش قسطنطين ودرس أخلاقه ، وهى قطعة قد يكون لها من القيمة أكثر من صفحات مليئة بالطعون اللاهوتية : يقول : ذلك المؤرخ المعتدل : «أن الديانة المسيحية فى حد ذاتها واضحة بسيطة ، غير أن قسطنطيوس جعلها مهوشة معقدة بسخف خرافاته ، وبدلا من أن يستخدم ثقل سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب ، فقد شجع ونشر الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف والتى أذكت نارها النزاعات والمهاترات الكلامية . فامتألت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج الى الاجتماعات التى يسمونها مجالس كنسية ، ويعملون جاهدين على إخضاع الطائفة كلها الى أرائهم

---

(١) يقول كيرلس فى صراحة أن الصليب فى عهد قسطنطين قد وجد مدفونا فى باطن الأرض ، ولكنه اعتلى قمة السماء فى عهد قسطنطيوس . وهذا التناقض يوضح فى جلاء أنه كان يجهل كل شىء عن المعجزة المذهلة التى ينسب اليها تحول قسطنطين الى المسيحية . ويبدو هذا الجهل أكثر مدعاة الى العجب لأن أسقف قيصرية الذى جاء بعد يوسوبوس مباشرة ، منح كيرلس لقب أسقف أورشليم بعد فترة لا تزيد على اثنى عشر عاما من وفاته .

الخاصة ، ومن ثم فقد كاد الخراب ان يحل بكنائسهم العامة نتيجة لتكرار رحلاتهم الطائشة » . وان ما نعرفه معرفة وثيقة عن مجريات الأحداث الكنسية في عهد قسطنطينوس ، لهو خير تعليق على هذه القطعة ، وهذا الذى نعرفه يبرر المخاوف المعقولة التى كان يخشاها اثناسيوس من أن النشاط الدائب من ناحية رجال الدين الذين كانوا يجوبون أرجاء الامبراطورية بحثا عن العقيدة الصحيحة سوف يثير احتقار العالم غير المؤمن ويصبح مدعاة لسخريته ، وما أن استراح الامبراطور من فظائع الحرب الأهلية حتى كرس وقت فراغه الذى كان يقضيه فى أرل وميلان وسرميوم ، والقسطنطينية لمسرات الخصومة الدينية او متاعبها : ومن ثم فقد شهر سيف الحاكم ، او قتل سيف الطاغية لتنفيذ مبادئ رجال اللاهوت ، وبما أنه كان معارضا للعقيدة الصحيحة التى أقرها مجمع نيقيا ، فلا بد من الاعتراف بأن عجزه وجهله كانا مساويين لغروره وادعائه . وكان عقله الضعيف المغرور واقعا تحت تأثير الخصيان والنساء والأساقفة ، وهؤلاء جميعا اوحوا اليه بكارهية طاغية لمذهب الطبيعة الواحدة ، غير ان ظلال اتيروس - Aetius - كان يزعم ضميره الوجع الهيب ، وقد تضخم جرم هذا الملحد لأنه كان موضع محاباة مربية من جانب الشقى المنكود جالوس ( Gallus ) ، بل ان مقتل وزراء الامبراطور الذين ذبحوا فى انطاكية انما يعزى الى اىحاء ذلك السفسطائى الخطير . وكان تفكير قسطنطين من النوع الذى لا يلىنه التعقل ولا يثبتة الايمان ، ومن ثم فقد كان يندفع اندفاعا أعمى الى هذا الجانب من الزاوية المظلمة الخاوية أو ذاك خوفا وفزعا من الجانب المتطرف الآخر ، وكان مرة يرضى عن احاسيس احزاب اريوس واشباهاها . ثم يدينها مرة اخرى ، وطورا ينفى زعماء تلك الأحزاب ثم يعفو عنهم ويستأنس بهم . وفى موسم العمل العام أو موسم الاحتفالات كان يقضى أياما بأكملها ، بل وليالى كاملة فى انتقاء اللفاظ ووزن المقاطع التى تتألف منها عقائده المتذبذبة . وكان موضوع تفكيره يلاحقه فى نومه ويشغل باله . وكانت الأحلام المفككة التى يحلم بها الامبراطور تعتبر كأنها رؤى سماوية ، ولقد تقبل فى رضا وسرور لقب أسقف الأساقفة ، خلعه عليه رجال الكنيسة الذين نسوا مصلحة الطبقة التى ينتمون اليها ارضاء لشهواتهم وأموالهم . أما فكرة تحقيق وحدة مذهبية التى دفعته الى عقد مجالس دينية كثيرة فى النغال وايباليا والليريكوم وآسيا ، فقد أخفقت المرة بعد الأخرى ، وكان السبب فى ذلك طيشه وانقسام اتباع اريوس ومقاومة الكاثوليك ، ومن ثم فقد عقد العزم ، كمحاولة أخيرة حاسمة ، على اصدار مراسيم امبراطورية بعقد مجلس عام . غير ان الزلزال المدمر الذى

أصاب نيقوميديا ، وصعوبة العثور على مكان ملائم ، وربما أضيفت الى ذلك دوافع سياسية ، كل أولئك أحدث تغييرا فى مرسوم دعوة المجلس الى الانعقاد . فصدر الأمر الى أساقفة الشرق بالاجتماع فى سلوقيسا فى ايزوريا Isauria ، بينما عقد أساقفة الغرب اجتماعهم فى ريمنى على شاطئ البحر الادرياتي . وبدلا من ايفاد مندوبين أو ثلاثة من كل ولاية صدر الأمر بذهاب هيئة الأساقفة بأجمعها . وبعد أن استنفد المجلس الشرقى أربعة أيام فى مناقشة حامية غير مجدية انفرط عقده دون الوصول الى أية نتيجة حاسمة . أما المجلس الغربى فقد امتد انعقاده سبعة شهور ، وصدرت التعليمات الى الوالى البريطورى طوروس Taurus بالألا يسمح للأساقفة بالانصراف حتى تتفق كلمتهم جميعا على رأى واحد . وتأييدا لجهوده فى هذه المهمة منح من السلطة ما يمكنه من نفى خمسة عشر أسقفا كانوا أشد الأساقفة عنادا وجموحا ، ووعد بأن يرقى الى منصب القنصلية اذا حقق تلك المهمة العسيرة . وفى نهاية الأمر تضافرت توسلات الوالى وتهديداته ، وسلطة الحاكم ، وسفسطة الأسقف فالنز وزميله أوراسكيوس ومحنة البرد والجوع ، والتفكير المحزن فى نفى لا يتسرب اليه أمل . كل أولئك أرغم أساقفة ريمنى على الاتفاق والقبول . وتوجه مندوبو الشرق والغرب الى حضرة الامبراطور فى قصر القسطنطينية ، وهناك كان من دواعى سرور الامبراطور ومعتته أنه فرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون اشارة الى أنهما من مادة واحدة . غير أن هذا الفوز الذى أحرزه مذهب آريوس كان قد سبقه ابعاد رجال الدين المنتمين الى المذهب الصحيح الأرثوذكسى الذى استحال على الامبراطور اربابهم أو افسادهم ، وكان تعذيب اثناسيوس العظيم تعذيبا ظالما عقيما ، وصمة عار لطلخت عهد قسطنطين .

### أخلاق اثناسيوس ومغامراته

قلما تتاح لنا الفرصة ، فى الحياة العلمية أو فى حياة التأمل ، أن نلاحظ الأثر الذى تحدثه قوة عقل واحد ، أو العقبات التى يتغلب عليها هذا العقل ، اذا ما انصرف فى عزم لا يثنى ولا يلين الى السعى وراء تحقيق هدف واحد . وان اسم اثناسيوس الخالد لا يمكن أن ينفصل أبدا عن مذهب التثليث الكاثوليكي الذى كرس لمادفاع عنه كل لحظة من حياته وكل قدرة عقلية فى كيانه . وبما أنه تعلم وتربى فى أسرة الاسكندر فقد عارض فى عنف وقوة سير هرطقة آريوس فى أوائل عهدهما . وكان يشغل وظيفة أمين سر المطران العجوز . ويمارس أعباءها الهامة . وكان

حزبه ، أن يظهر طابع المرونة والتسامح الذى يتصف به زعيم عاقل  
 حصيف . ولم ينج انتخا ب أثناسيوس من اللوم على أنه كان انتخا ب  
 شابه التهور وعدم التزام القواعد ، غير أن مسلكه الرقيق المهذب أكسبه  
 محبة الشعب ورجال الدين سواء بسواء ، وكان أهل الاسكندرية يتلهفون  
 على امتشاق الحسام دفاعا عن راعيهم فصيح اللسان كريم الخلق .  
 وكان فى محنته يجد سندا ، أو على الأقل عزاء ، فى ولاء رجال الدين  
 التابعين لأسقفية . ومن ثم فقد تمسك أساقفة مصر المائة فى حماس  
 لا يفتر ولا يهتز بقضية أثناسيوس . وكثيرا ما كان يقوم بزيارة الأقاليم  
 التابعة له فى حاشية متواضعة توحى بالأنفة والكياسة معا ، يجوب بها  
 البلاد من مصب النيل الى حدود أثيوبيا ، ويتحدث فى الملة مع أدنى  
 طبقات الشعب ، ويلقى السلام فى تواضع ودعة على نساك الصحراء  
 وقديسيها ولم يتجل سمو عبقرية أثناسيوس فى الاجتماعات الكنسية  
 فحسب ، ولا بين أتباعه ممن يشبهونه علما وخلقا فحسب ، بل انه كان  
 يبدي فى مجالس الأمراء حزما مقرونا باللين والاحترام . وفى مختلف  
 تقلبات حظه ، يسرا أو عسرا ، لم يفقد لحظة واحدة ثقة أصدقائه أو حسن  
 تقدير أعدائه .

ولقد قاوم هذا الأسقف إبان شبابه الامبراطور العظيم قسطنطين  
 الذى طالما عبر عن رغبته فى أن يعاد أريوس الى حظيرة الكاثوليكية ،  
 واحترم الامبراطور هذا العزم الذى لا يلين من جانب أثناسيوس ، وربما  
 تجاوز عنه ، أما أعضاء الفريق الذى كان يعتبر أثناسيوس الد أعدائه  
 فقد اضطروا الى كتمان كراهيتهم وضعموا على أعداد هجوم غير  
 مباشر . ومن ثم فقد روجوا حوله الأشاعات ونثروا الشكوك . وصوروه  
 طاغية ظالما عاتيا متكبرا ، واتهموه فى جراءة بأنه خرق الاتساق الذى  
 عقده مجمع نيقيا مع المنشقين من أتباع مياثيوس Miletius ، وكان  
 أثناسيوس قد اعترض فى صراحة على ذلك الصالح الشائئ ، واعتقد  
 الامبراطور أن أثناسيوس قد أساء استغلال سلطته الكنسية والمدنية  
 لكى يضطهد أبناء تلك الطوائف المكروهة ، وأنه تد حلام كأس القربان  
 المقدس فى إحدى كنائسهم بمريوط ، وبذلك أنتهك قدسية تلك الكنيسة ،  
 وأنه جلد أو سجن ستة من أساقفتهم ، وأنه قتل أو على الأقل شوه  
 أسقفا سابعيا اسمه أرسينيوس Arsenius دون رحمة أو شفقة .  
 وأحال قسطنطين هذه الاتهامات التى لطخت برف أثناسيوس ، وأثرت  
 فى حياته الى أخيه دلماتيوس الذى كان رقيقا يقيم فى انطاكية ، ثم انعقدت  
 مجالس الكنائس فى قيصرية وصور ، وصدرت التعليمات الى أساقفة

الشرق بأن ينظروا قضية اثناسيوس قبل تدشين كنيسة القيامة الجديدة في اورشليم . وكان الأسقف اثناسيوس يدرك أنه برىء ولكنه كان يحس أيضا أن روح الحق التي أملت الاتهام هي نفسها التي سوف توجه المحاكمة وتنتطق بالحكم عليه . ومن ثم فقد أوحى حكمته أن يبتدئ محكمة تتألف من خصومه وتجاهل أمر الحضور الذي أصدره إليه مجمع قيصرية . وبعد ملاحظة ماكرة طويلة خضع للأوامر القاطعة التي أصدرها الامبراطور وهدد فيها بأن يعاقبه على عصيانه الاجرامى اذا رفض الحضور امام مجلس صور . وقيل أن يرسل اثناسيوس من الاسكندرية على رأس خمسين أسقفا مصريا ، كان قد توصل في حرص الى ضمان تحالف أتباع ميليتيوس ، وأخفى بين حاشيته الأسقف أرسينيوس ، ضحيته الموهومة وصديقه السرى . ولقد أدار يوسوبوس أسقف قيصرية مناقشات مجلس صور في كثير من الانفعال وقليل من الدهاء مما لم يكن متوقعا من علمه وخبرته . وكرر أعضاء حزبه اتهامات لأثناسيوس بالقتل والطغيان ، وشجعهم على الضجيج والصراخ ما كان يبدو على وجه اثناسيوس من غلائم الصبر . على حين أنه كان ينتظر اللحظة الحاسمة ليظهر أرسينيوس حيا لم يمسسه سوء ، في وسط الاجتماع ، أما الاتهامات الأخرى فلم تكن في طبيعتها من النوع الذي يقبل مثل هذه الردود الواضحة المقنعة ، ومع ذلك فقد استطاع كبير الأساقفة أن يثبت أن القرية التي اتهم بأنه حطم فيها كأس القربان المقدس كانت خلوا من أية كنيسة أو مذبح أو أية كأس للقربان . أما أتباع آريوس الذين كانوا فيما بينهم قد قرروا ادانة عدوهم وحددوا الحكم عليه ، فقد حاولوا رغم كل هذا اخفاء ظلمهم باصطناع تشكيلات قانونية : فعين المجلس لجنة أسقفية مؤلفة من ستة مندوبين لجمع الأدلة من موطن الجريمة نفسه . وهذا الاجراء الذى عارضه ستة من الأساقفة المصريين معارضة قوية كان فاتحة لمشاهد جديدة من العنف : الزور والبهتان .

وبعد عودة المندوبين من الاسكندرية أصدرت أغلبية المجلس حكما على أسقف مصر بالتجريد والنفى . ثم أرسل القرار الى الامبراطور والكنيسة الكاثوليكية بعد أن صيغ في لغة تتم عن القسوة والحق وروح الانتقام ، وفور ذلك عاود الأساقفة مظهر البعثة والتقى الذى يتناسب مع حجم القدس الى ضريح السيد المسيح .

غير أن هذا الظلم الذى أوقعه القضاة الدينيون بأثناسيوس لم يلقى منه استكانة وخضوعا ، بل انه لم يبق في المدينة كلها انتظارا لمصيره .

أبناء الكنيسة فى مجمع نيقيا يرفيون فى دهشة واجلال ما كان يتحلى به الشماس الشاب من فضائل نامية . ويحدث أحيانا ، اذا ما لاح خطر عام ، أن يتجاوز عن شرط السن أو سمو الرتبة ، ولهذا فإنه لم تنصرم فترة خمسة شهور على رجوع الشماس اثناسيوس من نيقيا حتى منح كرسى كبير أساقفة مصر . وقد شغل ذلك المنصب الرفيع أكثر من ستة وأربعين عاما ، وقضى فترة ادارته الطويلة هذه فى صراع دائم ضد مذهب اريوس . ولقد طرد اثناسيوس من هذا المنصب خمس مرات ، وقضى عشرين عاما منقيا أو هاريا لاجئا . ولقد شهدت كل ولاية تقريبا من ولايات الامبراطورية الرومانية ، واحدة بعد الأخرى ، بما كان يتحلى به من فضائل وبما كان يعانيه من آلام فى سبيل قضية «الطبيعة الواحدة» التى كان يعتبرها سفله الشاغل ولذته الوحيدة ، ويرى فيها واجبا لا بد من ادائه ومجدا يتوج به حياته . ووسط عواصف الاضطهاد التى تعرض لها اسقف الاسكندرية كان دائما وصبوراً على العمل والجهاد ، زاهدا فى الشهرة ، مستهينا بأمنه وسلامته ، ورغم أن تفكيره كان مشوبا بالمتعصب الا أنه أظهر سموا فى الأخلاق والقدرات كان كفيلا بأن يؤهله لحكم مملكة عظيمة ، أكثر بكثير من أبناء قسطنطين ذوى الأخلاق المنحلة . وكان علمه أقل عمقا واتساعا من علم يوسويوس اسقف قيصرية ، اما فصاحته الفجة فلا يمكن مقارنتها بالخطابة المصقولة التى اشتهر بها جريجورى اسقف بازل Gregory of Basil ولكن كلما كان يطلب من اسقف مصر هذا أن يبرر آراءه او سلوكه ، فقد كان أسلوبه المرتجل ، سواء فى الحديث أو فى الكتابة ، أسلوبا واضحا قويا مقنعا ، وكان فى المدرسة الأرثوذكسية موضع اجلال دائم كأستاذ اللاهوت المسيحى ، وكان المقول عنه أنه يتقن علمين دنيويين أقل تلاؤما مع الطابع الأسقفى - الفقه القانونى وعلم الغيب . وثمة تكهنات صادقة عن أحداث المستقبل ، كان ينسبها العقلاء غير المتحيزين الى خبرة اثناسيوس وسلامة حكمه على الأمور ، على حين كان اصداقائه ينسبونها الى الالهام السماوى ، ويعزوها أعداؤها الى السحر الجهنمى .

ولما كان اثناسيوس منشغلا بصورة مستمرة بتحيزات واهواء كل طائفة من طوائف الناس ، من الراهب الى الامبراطور ، فان معرفة الطبيعة البشرية كانت اول دراساته وأهمها . وكان فى مقدوره أيضا أن يدرك الى أى مدى يستطيع أن يصدر أمرا جريئا ، ومتى يتحتم عليه أن يلجأ الى لياقة الإيحاء ، وإلى أى حد يستطيع مجابهة القوة ، ومتى ينبغي عليه أن ينسحب من الكفاح . وبينما كان يواجه تحذيرات الكنيسة وتهديداتها ضد الهرطقة والتمرد ، كان فى مقدوره ، وهو وسبط

فقد عقد العزم على القيام بتجربة جريئة خطيرة لكي يرى ما اذا كان صوت الحق لا يستطيع طرق اذان العرش الامبراطورى . وقبل أن يصدر الحكم النهائى فى صور اعلى الأسقف الجسور ظهر سفينة كانت على أهبة الابحار الى المدينة الامبراطورية . ولم يحاول اثناسيون أن يلتمس مقابلة الامبراطور مقابلة رسمية خوفا من أن يقابل التماسه بالرفض أو المراوغة ، ولكنه أخفى نبأ وصوله ، وراقب لحظة عودة الامبراطور من قرية مجاورة ، وتقدم فى جراًة نحو مليكه الغاضب حين كان يمر على ظهر جواد فى الشارع الرئيسى لمدينة القسطنطينية : وقد أثار ظهوره المفاجئ هذا دهشة الامبراطور وسخطه ، وصدر الأمر الى الحراس بابعاد ذلك الرجل اللجوج الملح فى طلبه ، الا أن جلالاته لا اراديا لمصاحب الحاجة هذا تغلب على سخط الامبراطور واستيائه ، وأخذ الامبراطور المتسامخ الغطريس بشجاعة وفصاحة الأسقف الذى جاء يلتمس عدالته ويوقظ ضميره . وأصغى قسطنطين الى شكوى اثناسيوس بانتباه مشبع بروح الانصاف بل وبروح الرحمة ، ثم استدعى أعضاء مجلس صور لكي يبرروا ما قاموا به من اجراءات . ولولا أن فريق يوسوبوس ضخم الذنب الذى اقترفه الأسقف بتوجيه اتهام مآكر اليه بأنه ارتكب جرماً لا يمكن العفو عنه - وهو أنه وضع خطة لاعتراض وتعويق أسطول القمح السكندرى الذى يمد العاصمة الجديدة بالغذاء ، لولا أنه فعل ذلك لانكشف خبئه وارتيكت خطته الماكرة (١) . وقد أقتنع الامبراطور بأنه اذا أبعاد عن الديار المصرية زعيمها الشعبى ضمن بذلك أمنها وسلمها ، ولكنه رفض أن يشغل كرسي الأسقفية برجل آخر ، وبعد تردد طويل أصدر اثناسيوس حكماً يتسم بالغيرة ، وهو الابعاد ، وأبى له النفى المشين . ورحل اثناسيوس الى ولاية الغال حيث قضى ما يقرب من ثمانينة وعشرين شهراً ضيفاً كريماً فى معية والى تريف Treves . ثم مات الامبراطور وتغيرت بذلك صورة الشئون العامة ، وفى خضم التساهل الذى اقتزن بمجيء العهد الجديد أعيد الأسقف الى بلاده بترسوم كريم أصدره قسطنطين الأصغر الذى عبر عن شعوره ببراءة ضيقه المجل وفضله .

(١) يسوق يونابوس Eunapius مثلاً عجيباً يدل على قسوة قسطنطين وسرعة تصديقه لما يقال ، نى مناسبة مماثلة . ذلك أن الفيلسوف السورى سوباتر Sopater كان يحظى بصداقة الامبراطور ، وأثار بذلك سخط أباليوس ، والوالى البريتورى . وحدث أن أسطول القمح تأخر فى طريقه لعدم هبوب الرياح الجنوبية ، فاستاء لذلك أهل القسطنطينية ، وأمر الامبراطور بقطع رأس سوباتر بتهمة أنه قيد الرياح بقوة سحره . ويضيف سويدان Suidas أن قسطنطين أراد أن يثبت بهذا الحكم أنه نذ خرافة الكفار نبذا مطلقاً . . .

غير أن موت ذلك الأمير عرض اثنا سيوس للاضطهاد مرة ثانية ، وسرعان ما انضم قيسنطين ، حاكم الشرق ، الى حزب يوسوبوس وتواطأ معه سرا . ثم اجتمع فى أنطاكية تسعون أسقفا من أساقفة تلك الطائفة أو ذلك الحزب تحت ستار الإدعاء بتدشين الكاتدرائية . وهناك صاغوا عقيدة مبهمة تصطبغ صبغة خفيفة بلون مذهب أشباه الأريوسيين Semi-Arianism ، ووضعوا خمسا وعشرين قاعدة دينية ما تزال تسيير عليها عقيدة اليونان الأرثوذكس . وتقرر ، فى شيء من مظهر العدالة ، أن الأسقف الذى يصدر مجلس كنسى أمرا يفصله ، يجب ألا يباشر مهامه الأسقفية مرة ثانية الا اذا برأه حكم صادر من مجلس كنسى آخر . وطبق القانون فى الحال على قضية اثناسيوس ، وحكم مجلس أنطاكية ، أو قل أكد الحكم بتجريدته من رتبته الدينية : ثم عين أسقفا غريبا اسمه جريجورى على كرسى الأسقفية ، وصدر الأمر الى فيلاجريوس والى مصر بأن يؤيد الأسقف الجديد بما للولاية من سلطات مدنية وعسكرية . وعندئذ شعر اثناسيوس بالظلم الذى حاق به من جراء مؤامرة الأساقفة الآسيويين ، رحل عن الاسكندرية وقضى ثلاث سنوات منفيا يعيش فى كنف أعتاب الفاتيكان المقدسة . وهناك ثابر على دراسة اللغة اللاتينية ، واستطاع بذلك أن يفاوض رجال الدين الغربيين ، كما تمكن بشيء من الاطراء والملق المهذب من أن يؤثر فى الحبر الأعظم المتشامخ « يوليوس » ويوجه تفكيره ، ثم استماله الى وضع ظلامته موضع اهتمام خاص من الكرسى البابوى وانتهى الأمر الى أن مجلسا يتألف من خمسين أسقفا من أسقفية ايطاليا أعلن على الملأ براءته بالاجماع . وبعد ثلاث سنوات استدعى الامبراطور قونستانتز Constans الأسقف اثناسيوس للتوجه الى بلاط ميلان . ورغم انغماس الامبراطور فى ملذاته غير المشروعة فانه كان لا يزال يجهر باحترامه للعقيدة الأرثوذكسية الصحيحة . واستخدم تأثير المال لتأييد قضية الحق والعدالة ، ونصح وزراء قونستانتز مليكهم بأن يعقد جمعية كنسية تمثل الكنيسة الكاثوليكية . وبناء على ذلك تقابل أربعة وتسعون أسقفا من الغرب وستة وسبعون من الشرق فى مدينة سرديكا ( صوفيا ) الواقعة على حدود الامبراطوريتين والداخلية فى أراضي الامبراطور حامى اثناسيوس . وسرعان ما انحطت مناقشتهم الى مستوى المهاترات العدوانية ، فانسحب الآسيويون ، خوفا على سلامة أشخاصهم ، الى مدينة فيليبو فى تراقيا ، وصبت الجامع الدينية المتنافسة غضبها الروحانى بعضها على البعض الآخر ، ورمى كل فريق منها الفريق الآخر ، بدافع من الورع والتقوى ، بأنه عدو الرب الصحيح . ثم أعلنوا قراراتهم ،



بعد التصديق عليها ، كل مجمع فى ولايته ، أما أثناسيوس الذى كان  
يعتبر فى الغرب فى مصاف القديسين وكان موضع التبجيل والاحترام ،  
فقد أصبح موضع كراهية الشرق ، وشهر به كرجل مجرم وقد أظهر مجلس  
سردىكا ( صوفيا ) أول أعراض التنافر والانشقاق بين الكنائس اليونانية  
والكنائس اللاتينية التى كان عامل الانفصال بينها خلفا عرضيا من حيث  
المذهب ، وفارقا دائما من حيث اللغة .

وخلال فترة نفى أثناسيوس الثانية فى الغرب كثيرا ما كان يسمح  
له بالمثل أمام حضرة الامبراطور ، فى كابوا ولويدى وميلان وقيرونا  
ويادوا وأكويليا وتريف ، وجمت العبادة أن يحضر هذه المقابلات أسقف  
الإبرشية كما أن رئيس الديوان كان يقف أمام سائر الغرفة المقدسة ،  
ومن ثم كان فى مقدور هذين الشاهدين الجليلين أن يشهدا باعتدال  
أثناسيوس اعتدالا ثبت عليه ولم يجد عنه ؛ ومما لا شك فيه أن الحكمة  
كانت تقتضى أن يتوخى أثناسيوس لهجة الاعتدال والإجلال التى تلائم  
مركزه كأسقف وكواحد من الرعية . وفى هذه الاجتماعات التى كان  
يعقدها جاهل الغرب وكانت تسودها الألفة ، كان أثناسيوس يأسف لخطأ  
قسطنطيوس ، ولكنه كان يهاجم فى جرأة كل ما اقترفه خصيائه  
وأساقفته الأريوسيون ، ويرثى محنة الكنيسة الكاثوليكية والخطر  
وعظمته . ولقد أعلن الامبراطور عزمه على استخدام جيش أوربا  
المصدق بها ، ويحفظ قونستانتز على أن يحذو حذو أبيه فى حماسه  
وأمواله لنصرة القضية الأرثوذكسية الصحيحة ، وأرسل إلى أخيه  
قسطنطيوس رسالة وجيزة خاسمة ذكر له فيها أنه إذا لم يوافق على  
إعادة أثناسيوس ، فإنه هو نفسه ستوف يحضر على رأس جيش وامبيطول  
ليجلس رئيس الأساقفة على كرسى الاسكندرية . وقد بادر قسطنطيوس  
إلى قبول طلب أخيه ، وتفضل امبراطور الشرق بتحقيق الصلح مع فرد من  
رعيته كان قد ألحق به الأذى ، وبذلك حال دون اشتعال حرب دينية  
بين شقيقين ، كان نشوبها أمرا عظيما يجافى الطبيعة ، وأنظر  
أثناسيوس فى عزة نفس كريمة حتى تسلم من الامبراطور ثلاث رسائل  
مثالية تفيض بأقوى التأكيدات بأنه سوف يكون فى حماه وموضع  
رعايته وتقديره . ودعا الامبراطور فى هذه الرسائل إلى الرجوع إلى  
كرسى أسقفية ، وأضاف إلى تلك الدعوة احتياطا مذلا بأنه كلف وزراءه  
بضمان صدق نواياه . وقد دلت الامبراطور على حسن نواياه هذه  
بصورة أكثر علانية بأن أصدر أوامره إلى مصر بأن تستدعى كل أنصار  
أثناسيوس ، وتعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم ، وتعلن براءتهم ، وتمحو  
من السجلات العامة تلك الاجراءات غير المشروعة التى دونت فيها حين

كان حزب يوسوبوس هو سيد الموقف . بعد أن منح الأسقف أثناسيوس كل أنواع الترضية والضمان التي تتطلبها العدالة ، يل وتقتضيها الكياسة ، بدأ رحلاته البطيئة الى مصر مارا بتراقيا وآسيا وسوريا ، وقد تميزت رحلاته هذه بما أيداه أساقفة الشرق من خضوع مهين أثار احتقاره لهم دون أن يخدع بصيرته النافذة . وفي مدينة أنطاكية قابل الامبراطور قسطنطين ، وتقبل في حزم متواضع مجاملات مولاه واعتراضاته ، وتهرب من اقتراح الامبراطور الذي طلب فيه بأن يسمح لأتباع آريوس بكنيسة واحدة في الاسكندرية بأن طلب أن يسمح لأتباعه هو في مدائن الامبراطورية الأخرى بالمعاملة نفسها ، وهو مطلب يدا عادلا ومعتدلا من رئيس أساقفة مستقل الرأى لا يحايى ولا ينحاز . ودخل أثناسيوس عاصمته في موكب المنتصرين ، وسط مظاهر ترحيب أهل الاسكندرية الذين ازدادوا تعلقا به بعد غيبته واضطهاده ، ثم مارس سلطته بقوة وصلابة فازدادت رسوخا وثباتا ، وذاعت شهرته من أثيوبيا الى بربرانيا في طول العالم المسيحي وعرضه .

غير أن التابع الذي أجبر مليكه على المראה والتظاهر لا يمكن أن يتوقع منه تسامحا مخلصا دائما ، وسرعان ما حل المصير المحزن بالامبراطور قونستانز ، فحرم أثناسيوس بذلك من ظهير قوى كريم . ثم نشبت بين قائل قونستانز وبين شقيق الامبراطور الوحيد الذي بقى على قيد الحياة حرب أهلية كانت بلاء شغل الامبراطورية أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها اتاحت للكنيسة الكاثوليكية فترة راحة وأصبح الفريقان المتنازعان راغبين في كسب صداقة الأسقف أثناسيوس الذي يستطيع بقوة سلطانه الشخصى أن يقرر القرارات المتقلبة التي تصدرها ولاية لها أهميتها ، واستقبل أثناسيوس سفراء البلاطية الذي قتل قونستانز ، واتهم من جراء ذلك فيما بعد بأنه كان على اتصال سرى به . غير أن الامبراطور قسطنطيوس أكد مرارا لأبيه الروحي أثناسيوس ، أجل الآباء وأقربهم الى قلبه ، بأنه رغم الاشاعات الخبيثة الحقودة التي كان يروجها أعداؤهما المشتركون ، فإنه قد ورث عن أخيه الراحل عواطفه نحو أثناسيوس كما ورث عرشه . وكان حريا بعرفان الجميل والعاطفة الانسانية أن يدفع أسقف مصر الى الرثاء للمصير المحزن الذي حل بالامبراطور قونستانز قبل أوامه وان يستقطع جرم قاتله ماجنتيوس Magnentius غير أنه كان يدرك في جلاله أن مخاوف قسطنطيوس هي ضمانه الوحيد ، ومن ثم فقد رأى أن يخفف من حرارة صلواته من أجل نجاح القضية العادلة . ولم تعد محاولة القضاء على أثناسيوس وقفا على فئة قليلة من الأساقفة الغاضبين المتعصبين

الذين يضمرون له الحقد والكراهية، بل أن الملك قسطنطينوس نفسه اعتزم  
أمرا طالما كفته وأخفاه وهو الانتقام لما لحق بشخصه من أذى . وفي  
أول شتاء قضاه في مدينة آرل بعد انتصاره ، أخذ يستغل الوقت في  
مناهضة عدو يضمرد له في نفسه كراهية أشد وأقسى من تلك التي كان  
يضمرها لطاغية اقليم الغال الذي قهره .

### مجالس آرل وميلان

لو أن الامبراطور كان قد أوحى له مزاجه وهواه أن يقرر قتل  
أعظم مواطني الجمهورية مقاما وأنيلهم خلقا ، لما تردد وزراؤه من أنصار  
العنف السافر أو الظلم المستتر في تنفيذ هذا القرار المتسم بالقسوة .  
غير أن الصعوبة التي لقيها الامبراطور في اداة وعقاب الأسقف المحبوب ،  
بالاضافة الى ما تورخاه من حرص وتأخير في هذا الشأن ، كل أولئك  
أظهر للعالم أن حقوق الكنيسة قد أحييت في الحكومة الرومانية شعورا  
بالنظام والحرية . ولم يكن قد صدر صراحة ما يلغى الحكم الذي أصدره  
مجمع صور وأيديته أغلبية كبيرة من الأساقفة الشرقيين ، وبما أن  
أثناسيوس ، بمقتضى ذلك الحكم الصادر من اخوته الأساقفة ، كان قد  
أنزل من مقامه الأسقفى ، فان أى إجراء تال لذلك الحكم كان يمكن  
اعتباره إجراء شاذا ، بل واجراميا . غير أن نكرى التأييد القوى  
الفعال الذى لقيه أسقف مصر من اتصاله بالكنيسة الغربية أجبرت  
قسطنطينوس على إيقاف تنفيذ الحكم حتى يحصل على موافقة الأساقفة  
اللاتين . وانصرم عامان في مفاوضات كنسية ، ونوقشت القضية الهامة  
القائمة بين الامبراطور وأحد أفراد رعيته مناقشة جدية في مجمع آرل  
أولا ، ثم في مجمع ميلان الكبير الذى انتظم ثلاثمائة من الأساقفة .  
وتداعت نزاهة هؤلاء الأساقفة شيئا فشيئا أمام حجج أنصار أريوس ،  
ومهارة الخصيان ، ووسائل الاغراء والضغط التى مارسها الامبراطور  
الذى روى ظلما انتقامه على حساب كرامته ، وأفصح عن أهوائه  
الشخصية بالطريقة التى اتبعها فى التأثير على أحاسيس رجال الدين .  
ولجأ كذلك ، وبصورة ناجحة ، الى أسلوب الافساد ، وهو أشد أعراض  
الحرية الدستورية فعالية ، فعرض الهدايا والحصانات وصنوف التكريم  
ثمنا للحصول على أصوات الأساقفة (\*) ، وصادف هذا العرض قبولا من

(\*) ورد ذكر الهدايا والولائم وأساليب التكريم التى أغرت كثيرا من الأساقفة ، نرى  
أقوال أولئك الأساقفة الذين أبى عليهم كبرياؤهم أو نقاؤهم أن يقبلوها ، وكانت كلها  
موضع سخطهم وازدرائهم . يقول هيلارى أسقف بواتييه : « اننا نقاتل قسطنطين عدو  
المسيح ، الذى يداعب البطون بدلا من أن يلهب الظهور بالسياط » .

الأساقفة ، وصورت ادانة أسقف الاسكندرية بطريقة ماكرة على أنها  
الأجراء الوحيد الذى يمكنه ان يرد الى الكنيسة الكاثوليكية سلامها  
ووحدها . غير أن اثناسيوس لم يعدم الاصدقاء الذين كانوا على استمهداد  
للموقوف الى جانبه والى جانب قضيتهم ، فثبتوا فى المناقشات العامة  
وفى أحاديثهم الخاصة مع الامبراطور على الالتزام الأبدى بالدين والعدالة  
تحفزهم على ذلك روح الرجولة والشهامة التى قلل من خطورتها ما كانوا  
يتصفون به من طابع القدسية . وأعلنوا أنه لا الأمل فى حظوة الامبراطور  
ولا الخوف من غضبه يمكن ان يرغمهم على الاشتراك فى ادانة أخ  
غائب برىء له احترامه . وأكدوا على أساس ظاهر من الحق ان القرارات  
العقيمة غير المشروعة التى أصدرها مجلس صور قد أصبحت فى حكم  
المفاعة ضمنا بفعل المراسيم الامبراطورية ، وبحكم اعادة كبير الأساقفة  
الى كرسي الاسكندرية بصورة مشرفة ، وبسكوت أكثر أعدائه صخبنا  
أو بانكارهم أقوالهم السابقة عنه . وقالوا ان أساقفة مصر جميعا قد  
شهدوا ببراعته ، كما أقرتها مجالس روما وسردىكا ( صوفيا )  
بمقتضى حكم الكنيسة اللاتينية غير المتحيزة . ثم أبدأ أسفهم لدقبة  
موقف اثناسيوس الذى يطلب اليه الآن ان يدحض أشنع الاتهامات التى  
لا أساس لها يعد ان تمتع سنوات عدة بمركزه وبسمعته وبما كان يبديها  
مليكه من ثقة فيه . ولقد كانت لغتهم منمقة مهذبة ، ومسلكهم شريفا ،  
غير ان الصراع كان طويلا عنيدا ، وكان من شأنه ان تركزت أبيضان  
الامبراطورية كلها على أسقف واحد ، ومن ثم فان مختلف الأحزاب  
الكنسية كانت على استعداد للتضحية بالحق والعدالة فى سبيل هدف  
أكثر أهمية لهم ، وهو الدفاع عن ذلك النصير الجريء لعقيدة نيقيا  
بالنسبة لبعض الأحزاب أو التخلص منه بالنسبة للبعض الآخر . ولقد  
راى أتباع آريوس انه من الحكمة ان يخفوا احساسيتهم وخطابهم الحقيقيين  
فى لغة ملتبسة ، غير ان أساقفة المذهب الصحيح الأرثوذكسى ، المزودين  
بحظوة الشعب وبقرارات صادرة من مجلس عام ، أصروا فى كل مناسبة ،  
وخاصة فى ميلان ، على ان خصومهم يجب عليهم ان يظهروا انفسهم  
من شبهة الهرطقة قبل ان يجرؤوا على اتهام مسلك اثناسيوس العظيم .

غير ان صوت الحق ( اذا كان الحق فى جانب اثناسيوس فعلا )  
اسكنته اصوات صاخبة رفعتها أكثرية مغرضة أو أكثرية باعت ضمائرهما .  
ولم تنفض مجالس اربيل وميلان حتى صدر حكم الكنيسة الغربية  
والكنيسة الشرقية على السواء بادانة أسقف الاسكندرية وعزله من  
منصبه . ودلل الى الأساقفة الذين كانوا فى صفوف المعارضة ان يقرؤا

الحكم ، وأن يتحدوا فى مشاركة دينية مع زعماء الفريق المضاد الذين كانوا موضع شبهتهم . أما الأساقفة الذين لم يحضروا الاجتماع فقد حمل اليهم رسل الدولة اقرارات للتوقيع عليها بالموافقة ، أما الأساقفة الذين رفضوا التنازل عن آرائهم الخاصة والخضوع للمقرارات الحكيمة الملهمة التى أعلنتها مجالس أرل وميلان ، فقد أصدر الامبراطور أمرا بنفيهم مباشرة ، متظاهراً فى ذلك بأنه إنما ينفذ قرارات الكنيسة الكاثوليكية . ونخص بالذكر ، من بين أولئك الأساقفة الذين تزعموا الفريق الشريف التمسك بعقيدته ، والذين صدر الأمر بنفيهم ، ليبريوس أسقف روما ، أوزيوس أسقف قرطبة ، بولينوس أسقف تريف ، ديونيسيوس أسقف ميلان ، يوزيميلوس أسقف فرسيلي ، لوستيفر أسقف كاليينارى وهيلارى أسقف بواتييه . وكان الأسقف ليبريوس يتعنت بمكانة رفيعة ويتحكم فى عاصمة الامبراطورية ، كما أن الأسقف المنجل أوزيوس كان يتصف بميزات شخصية وخبرة طويلة ، وأصبح موضوع الاحترام والتبجيل بفضل ما كان له من حظوة لدى قسطنطين العظيم ، ويحكم كونه وأضع عقيدة نيقيا وراعيا . كل تلك الصفات وضعت هذين الأسقفين على رأس الكنيسة اللاتينية ، ومن ثم فقد كان من المحتمل أن يسير جمهور الأساقفة وراءهما اذا استسلما أو اذا قاوما . غير أن المحاولات المتكررة التى بذلها الامبراطور لاغراء أو ارهاب أسقف روما وأسقف قرطبة ظلت عديمة الجدوى فترة من الوقت . فأعلن الأسقف الأسباني أنه على استعداد لتحمل الآلام تحت حكم قسطنطينوس كما تحملها منذ ستين عاما تحت حكم جده ماكسيميان . أما أسقف روما فقد أكد فى حضرة مليكه براءة اثناسيوس وأصر على أنه من ناخية الشخصية حر غيبا يرى ويعتقد . وعندما نفى الى مدينة بريا Beraea فى تراقيا ، أعاد الى الامبراطور مبلغا كبيرا من المال كان قد منحه اياه لتيسير رحلته ، وطفن بلاط ميلان بملاحظة ابدائها قائلا ان الامبراطور وخصيانه قد يكونون فى حاجة الى ذلك الذهب للانفاق على جنودهم وأساقفتهم . غير أن محسن الأسر والنفى التى قاساما ليبريوس وأوزيوس أرغمتها فى نهاية الأمر على التخلي عن عزمها وتصميمها . فاشترى أسقف روما عودته بشتى صنوف الامتثال المشين ، ثم كفر عن ذنبه بعد ذلك بما يناسب الذنب من نعم وتوبة . أما أسقف قرطبة ، وهو الشيخ المتداعى ، فقد استخدم معه الامبراطور وسائل الاغراء والعنف حتى أكرهه على التوقيع بالموافقة ، وكان قد وهن العظم منه وانتاب العجز قدراته ومواهبه تحت وطأة مائة من سنوات العمر . وكان هذا الفوز الدنى الذى ناله أتباع أريوس حافزا لبعض أبناء

المذهب الصحيح على أن يعاملوا شخص هذا الرجل اليأس الهرم ، أو قل ما كان له من ذكرى ، معاملة قاسية وحشية ، رغم أن المسيحية نفسها كانت مدينة لخدماته الجليلة السابقة أثقل الدين .

ولقد أضفى استسلام ليبيروس وأوزيوس بريقا أكثر توهاجا على صعود أولئك الأساقفة الذين ظلوا متمسكين في ولاء لا يلين ولا يتزعزع بقضية اثناسيوس وبالحقيقة الدينية . وكان الحقد الخبيث الذى ملا صدور أعدائهم قد أوحى اليهم أن يحرموهم من تبادل النصح والسلوى ، فباعدوا بين هؤلاء الأساقفة اللامعين بنفيهم الى ولايات نائية ، وحرصوا على أن ينتقوا لهم أكثر بقاع الامبراطورية وحشة واقلها ترحيبا بالموافدين (\*) . غير أن الأساقفة سرعان ما وجدوا أن صعراوات ليبيا وأشد بقاع كابادوكيا وحشة كانت أكثر حذبا عليهم من المقام في تلك المدن التى يستطيع أن يشيع فيها اسقف من اتباع اريوس ، دون قيد أو حد ، ذلك الحقد المحموم الذى تنفثه الكراهية الدينية . وكان يشد من عزائمهم شعورهم بصواب مسلكهم وباستقلالهم فى الرأى ، وتأييد زيارات أنصارهم ، وما كان يبعثه اليهم هؤلاء الأنصار من خطابات وصدقات سخية . وكذلك كانوا يستمدون العزاء من تلك الراحة التى سرعان ما أحسوا بها عندما وضحت لهم الانقسامات الداخلية القائمة بين أعداء عقيدة نيقيا . ولقد كان الامبراطور قسطنطين حاد المزاج شديد التقلب ، وسرعان ما كان يستشيط غضبا اذا لمس اتفه انحراف عن مبدأ العقيدة المسيحية المرسوم فى خياله ، وقد دفعه هذا الخلق الى مسب نغمته ، وبالحماس نفسه ، على القائلين بأن الآب والابن من مادة واحدة ، وعلى المؤيدين لفكرة انهما من مادة مماثلة ، وعلى أولئك الذين ينكرون التشابه بينهما . وكان يحدث أن يجتمع فى منفى واحد ثلاثة أساقفة ، جردوا من رتبهم وأبعدوا الى المنفى لاعتناقهم هذه الآراء المتضادة ، فكان الواحد منهم ، حسبما تولى عليه طباعه وخلقه ، يرثى لما يتصف به خصومه من حماس أعمى ، أو يندد بذلك الحماس الذى سبب لهم جميعا من الآلام اذ ذاك ما لا يمكن أن تعوضهم عنها أية سعادة مستقبلية .

(\*) نفى قساوسة الغرب تباعا الى صعراوات بلاد العرب أو طيبة ، وإلى البقاع الراحشة بجبال طوروس ، وإلى قفار اقليم فريجيا التى كانت فى يد الزنادقة « النصابون » ( انصار منتانوس ) . وعندما عرمل ايتيوس Aetius الخارج على الدين معاملة طيبة أكثر مما ينبغي فى مويسوستيا فى قيليقيا ، نصح اكاسيوس بتغيير مناهج التعليم ، وهو اقليم يقطنه المتوحشون وتسوده الأوبئة والحروب .

وكان القصد من نفي الأساقفة أصحاب المذهب الصحيح والحق العار بهم أن يكون هذا كله خطوات تمهيدية للقضاء على أثناسيوس نفسه . وكانت قد انقضت ستة وعشرون شهرا جاهد فيها البلاط سرا وبأخبت أنواع الحيل لخلعه من الاسكندرية وحرمانه من المنحة التي كان ينفق منها يسخاء على الشعب . وعندما تخلت الكنيسة اللاتينية عن أسقف مصر ووافقت على ابعاده ، وأصبح من جراء ذلك محروما من أى سند أجنبي أرسل قسطنطين اثنين من أمراء سره بتكليف شفوي أن يعلنوا الأمر بنفيه ويقوما بتنفيذه . ولما كان فريق الأساقفة كله قد أقر علانية عدالة الحكم على أثناسيوس فإن الدافع الوحيد الذى منع قسطنطينوس من اعطاء رسله تفويضا كتابيا بتنفيذ الحكم هو شكه فيما سوف يحدث وشعوره بالخطر الذى قد تتعرض له المدينة الثانية فى الامبراطورية وأكثر ولاياتها خصبا إذا ما أصر الشعب على الدفاع بقوة السلاح عن براة أبيهم الروحى . وهذا الحرص الزائد من جانب الامبراطور أتاح لأثناسيوس فرصة الادعاء بأنه فى كثير من الاحترام يشك فى صحة هذا الأمر الصادر بنفيه والذى يتنافى مع عدالة مليكه الكريم ومع تصريحاته السابقة . أما السلطات المدنية فى مصر فقد وجدت نفسها عاجزة من القيام بمهمة حث أو ارغام الأسقف على التخلي عن كرسى الأسقفية ، واضطرت الى عقد معاهدة مع زعماء شعب الاسكندرية اتفق فيها على ايقاف كل الاجراءات والأعمال العدوانية حتى تتأكد لهم مشيئة الامبراطور فى وضوح أكثر . وقد انخدع الكاثوليك بهذا الاعتدال الظاهرى وأحسوا بأمان لم يكن الا أمانا زائفا مميتا ، على حين كانت جيوش مصر العليا وليبيا قد صدرت اليها الأوامر سرا بالمتقدم على عجل لمحاصرة أو قتل لمباغثة عاصمة درجت على التمرد والعصيان واشتعلت بالحماس الدينى . وكان موقع الاسكندرية ، بين البحر وبحيرة مريوط ، عاملا سهول على الجيوش أن تقترب منها وتدخل قلب المدينة قبل أن تتخذ اية خطوات لغلاق الأبواب أو احتلال مراكز الدفاع الهامة . وفى منتصف اليوم الثالث والعشرين بعد توقيع المعاهدة شن سيريانوس أمير مصر ، على رأس خمسة آلاف من الجنود المسلحين المتأهبين للقتال ، هجوما فجائيا على كنيسة سانت ثيوتاس حيث كان الأسقف مع فريق من القساوسة والشعب يؤدون صلواتهم الليلية . وتداعت أبواب المعبد المقدس تحت وطأة الهجوم الذى اقترن بكل فظائع الشغب واراقة الدماء . وبقيت جثث القتلى وبقايا الأسلحة الحربية الى اليوم التالى دليلا قاطعا فى حوزة الكاثوليك ، ومن ثم فان مغامرة سيريانوس يمكن أن تعتبر غارة ناجحة أكثر منها غزوة كاملة . وقد

انتهكت حرمة الكنائس الأخرى فى المدينة باعتمادات مماثلة ، وتعرضت مدينة الاسكندرية خلال أربعة شهور على الأقل الى امانات جيشن اباحى خليع يلقى تشجيعا من رجال الدين المنتمين الى حزب معاد . وقتل فى هذه الأحداث كثير من المؤمنين الذين يمكن أن يكونوا أهلا لاسم الشهداء على فرض أن موتهم لم يحدث نتيجة اشارة ولم ينتقم له . وعومل الاساقفة والقساوسة بقسوة مهينة ، وجردت العذارى الأطهار من ملابسهن ، ثم ضربن بالسياط واعتدى عليهن ، وكذلك نهبت منازل المواطنين الأثرياء . وتحت ستار من الحماس الدينى ، أشبع الجنون شهواتهم وأطماعهم وكراهيتهم الشخصية دون أن ينالوا عقابا ، بل قل أن فعالهم هذه كانت موضع الاستحسان . أما وثنيو الاسكندرية ، الذين كانوا إذ ذاك يكونون فريقا كبيرا متذمرا ، فقد أمكن اغراؤهم فى سهولة التخلّى عن أسقف كانوا يخشونه ويقدرونه ، وكان أمل الحصول على بعض المزايا الخاصة ، والخوف من أن تنالهم العقوبات العمامة المفروضة على الثوار ، من العوامل التى دفعتهم الى الوعد بتأييد خليفة اثناسيوس المنتظر المشهور ، جورج من أهل كبادوكيا .

ويعد أن رسم المغتصب بمعرفة مجلس دينى من أتباع آريوس ، اقامه على كرسى الاسقفية الوالى سيباستيان الذى كان قد عين اميرا على مصر لتنفيذ تلك الخطة الهامة . وفى استحوان هذا الطاغية جورج على السلطة ، وفى استخدامه لياها ، لم يابه بقوانين الدين ومبادئ العدالة والانسانية ، فتكررت فى أكثر من تسعين مدينة اسقفية من مدائن مصر نفس مناظر الفضائح واعمال العنف التى شهدتها العاصمة . ولقد شجع النجاح قسطنطيوس على تحييد مسلك وزرائه والموافقة عليه فى رسالة علنية عاطفية بعث تهنئته على انقاز الاسكندرية من طاغية شعبي كان يخدع ناخبه العميان بسحر فصاحته ، وأطلب فى مدح ما يتحلى به الأب الأقدس والأسقف المنتخب جورج من فضائل وتقوى ، وأعرب عن أمله ، بوصف كونه راعى المدينة وسيدها ، فى أن يبرز شهرة الاسكندر نفسه ، وأعلن فى حزم وجدية عن عزمه الأكيد على أن يتتبع بالسيف والنار أولئك المتمردين من انصار اثناسيوس الذى يعتبر تملصه من العدالة اعترافا منه بذنبه ، وهربا من الموت المشين الذى كان يستحقه .

وفى الحق أن اثناسيوس نجا من اشد الأخطار احدافا به ، ولا شك فى أن مغامراته تسترعى انتباهنا وتستحق اهتمامنا . وفى تلك الليلة المشهودة التى هاجمت فيها قوات سيرانيوس كنيسة سانت ثيونس .



كان رئيس الأساقفة جالسا على عرشه ينتظر مجيء الموت فى وقار هادىء جرىء . وعندما قطعت صيحات الغضب وصرخات الفزع حبل الصلاة العامة ، وارتعدت فرائص المصلين ، طلب منهم أن يعبروا عن ثباتهم الدينى بانشاد أحد مزامير داود الذى يذكر فيه انتصار رب اسرائيل على طاغية مصر الضال المتشامخ . وأخيرا حطم العدو الأبواب وأطلق سيلاً من السهام على الناس ، واندفع الجنود بسيوفهم المسلولة نحو الهيكل المقدس ، وكانت المصابيح المقدسة المشتعلة حول المذبح تعكس بريق دروعهم الخيف . وظل أثناسيوس يرفض لجاجة الرهبان والقساوسة المحيطين به الذين ألحوا عليه فى ورع وتقوى أن يغادر المكان ، وأبى عليه نبه أن يترك مكانه الأسقى حتى يخرج آخر فرد من المصلين . ثم وأتته فرصة الظلام والجبلة ومكنته من الانسحاب . ومع أن الجمهور المرتبك المضطرب كاد يدهمه ويغطي عليه ، ورغم أنه وقع على الأرض وفقد الحس والحركة ، إلا أنه استرد شجاعته التى لا تقهر وتسلل من الجنود الذين كانوا يجدون فى البحث عنه ، والذين كان أتباع آريوس قد أوحوا اليهم بأن رأس أثناسيوس سوف تكون أحب هدية الى الامبراطور ، ومنذ تلك اللحظة غاب أسقف مصر عن عيون أعدائه ، وظل أكثر من ست سنوات يحف به ظلام دامس لا تنفذ اليه الأبصار .

ولقد كان عدو أثناسيوس الحقود الذى لا يرحم يتمتع بسُلطان ملاً ربوع العالم الرومانى كله ، وحاول الملك الحائق الغاضب فى رسالة عاجلة ملحة بعث بها الى أمراء أثيوبيا المسيحيين ، أن يطردوا أثناسيوس من أكثر بقاع الأرض بعدا وعزلة ، واستخدم الأمراء والولاة والتربيونات جيوشا بأكملها لطاردة الأسقف الهارب . ولقد أثارت المراسيم الامبراطورية يقظة السلطات المدنية والعسكرية ، كما خصصت مكافآت سخية وغد بها أى رجل يجرىء بالأسقف حيا أو ميتا ، وأنذر كل من يجزؤ على حماية هذا العدو العام بأشد العقوبات . غير أن صحراوات طيبة كانت إذ ذاك موطناً لقوم من المتعصبين يعيشون على الفطرة ولكنهم يتصفون بسهولة الانقياد ، وهؤلاء كأثوا يفضلون أوامر الراهب أثناسيوس على قوانين منيكرهم . واستقبل العديدون من أتباع أنطون وباخوم ذلك الأسقف الهارب كأبيهم الروحى وأعجبهم فيه تمسكة بأشد نظمهم حرامة فى صبر وتواضع ، وتلقفوا كل كلمة نطق بها كأنها حكمة ملهمة أصيلة تنسكب من فمه ، واقنعوا أنفسهم بأن ضلواتهم وصومهم وسهرهم كانت كلها أقل شأنا من الحماس الذى أظهروه والأخطار التى واجهوها فى الدفاع عن الحق

والبراءة . وكانت الأديرة المصرية قائمة فى أماكن موحشة مقفرة ، على رؤوس الجبال أو فى جزر نهر النيل ، وكان البوق المقدس فى تابن Tabenne هو الإشارة المعروفة لجمع عدة آلاف من الرهبان الأقوياء ذوى العزم ، الذين كان أكثرهم من فلاحى الريف المجاور . وعندما كانت الأماكن النائية التى يلجئون إليها تتعرض لغزو قوة عسكرية يستحيل مقاومتها ، كانوا يقدمون رقابهم فى سنكون وصمت الى الجلال ، مظهرين بذلك طابعهم القومى وهو أن التعذيب لا يستطيع أن ينزع من مصرى أى اعتراف بسر عقد العزم على عدم افشائه . ولقد كرسوا حياتهم فى غيرة وحماس لسلامة أسقف الاسكندرية الذى غاب عن الأنظار وسط جمهور منظم متحد ، وعندما كان يقترب الخطر ، كانت أيديهم الرحيمة تبادر الى إبعاده من مخبأ الى مخبأ حتى وصل الى الصحراوات النيعية التى انتشر حولها من الخرافات المخيفة ما أدخل فى روح الناس أنها موطن للشياطين والوحوش الكاسرة . وظل أثناسيوس فى عزله هذه حتى انتهت حياة قسطنطيوس ، ولقد قضى أغلب هذه الفترة فى صحبة الرهبان الذين خدموه باخلاص كحراس ورسول وأمناء سر . ولكنه كان تواقا الى توطيد صلة وثيقة بالفريق الكاثوليكي ، وقد أغراه هذا ، كلما كانت تخف حدة المطاردة ونشاطها ، على الخروج من الصحراء والذهاب الى الاسكندرية حيث كان يلجأ الى فطنة أصدقائه وأنصاره ويأتمنهم على شخصه . وان مغامراته المختلفة لتكون فى مجموعها موضوعا لقصة رومانسية شائقة ، فقد حدث له ذات مرة أن اختبأ فى خزان ماء جاف ، وما كاد يغادره حتى وشت به امرأة من العبيد ، وفى مرة أخرى اختبأ فى ماوى أكثر غرابية ، وكان ذلك الماوى منزل عذراء لم تتجاوز العشرين من عمرها ، وتشتهر فى المدينة كلها بجمالها الرائع الفتان . ولقد قصت هذه الفتاة قصتها بعد سنوات من حدوثها ، فقالت انها فوجئت عند منتصف الليل بظهور الأسقف فى رداء عادى فضفاض ، ثم تقدم نحوها فى خطوات سريعة ، متوسلا إليها أن تأويه تحت سقف دارها المضياف ، وقال لها انه جاء يفتد حمايتها بناء على رؤيا سماوية تجلت له وقبلت العذراء التقية أن تحافظ على الرهينة المقدسة التى عهد الى حكمتها وشجاعته برعايتها وحمايتها . ولم تبح بهذا السر لأحد ثم قادت أثناسيوس على الفور الى حرم مخدعها الأمين وتولت السهر على سلامته بحذب الصديق الوفى ومثابرة الخادم الأمين . وطالما كان الخطر قائما كانت تزوده بالكتب والمؤن ، وتغسل قدميه ، وتدبر رسائله ، وحرصت فى براعة ومهارة على أن تخفى عن عيون الشبهات تلك الصلة الأليفة المنعزلة القائمة

بين  
أخ  
الأذ  
وين  
لنا  
كما  
ومز  
فى  
الخ  
مع  
أعم  
الأر  
مها  
الفر  
الام  
كان  
حاً  
الكن  
على  
وقه  
خفيا  
أو  
ك  
واقه

ازء  
مؤد

تقدم  
وليسر  
بصه

بين قديس تتطلب أخلاقه أظهر عفة وانقاها ، وبين فتاة قد تثير مفاتها  
أخطر العواطف (\*) . وخلال السنوات الست التي قضاها اثناسيوس في  
الاضطهاد والنفى ، لم ينقطع عن زيارته لرفيقته الحسناء المخلصة .  
وبناء على ما أعلنه رسميا من أنه شاهد اجتماعي ريمنى وسلوقيا ، لا يد  
لنا من أن نعتقد أنه كان موجودا بطريقة سرية في مكان انعقادهما وزمانه ،  
كما أن المزايا التي كان يحصل عليها من التفاوض الشخصي مع أصدقائه ،  
ومن مراقبة وتشجيع الانقسامات القائمة بين أعدائه ، كل أولئك كان يبرر  
في نظر رجل سياسى حصيف كذلك الأسقف مثل تلك المعارضة الجريئة  
الخطيرة ، هذا بالاضافة الى أن الاسكندرية كانت تتصل ملاحيا وتجاريا  
مع كل ميناء من موانئ البحر الأبيض . ولقد شن الأسقف الجريء من  
أعماق مخبئه المنيع حربا هجومية مستمرة ضد الامبراطور حامي  
الاريسوسيين . وكان يتحين الأوقات المناسبة فيكتب آراء يروجها في  
مهارة ويطلبها الناس في شغف ، وأسهمت كتاباته هذه في توحيد  
الفريق الأرثوذكسى وتقويته . وكان في اعتذاراته العلنية التي يوجهها الى  
الامبراطور يصطنع بين الحين والحين مديحا لروح الاعتدال ، بينما  
كان في الوقت عينه يوجه اليه سرا عبارات القدح المريرة ويرميه بأنه  
حاكم خبيث ضعيف ، وبأنه جلد أسرته ، وطاغية الجمهورية وعدو  
الكنيسة المسيحية . أما الملك المنتصر ، الذى عاقب جالوس Gallus  
على تهوره ، وقمع ثورة سلفانوس ، وانتزع التاج من رأس فترانيو ،  
وقهر في ميدان القتال جحافل ماجنثيوس ، هذا الملك بعينه تلقى من يد  
خفية ، هى يد الأسقف اثناسيوس ، جرحا بليغا لم يستطع البرء منه  
أو الانتقام له . وكان ابن قسطنطين هذا أول ملك مسيحي يحس بقوة  
الك المبادئ التي استطاعت ، في سبيل القضية الدينية ، أن تقاوم أشد  
وأقسى أعمال السلطة المدنية .

### الطابع العام للطوائف المسيحية

ان القصة البسيطة التي تقص ابناء تلك الانقسامات الداخلية التي  
ازعجت سلام الكنيسة والحقت العار بانتصارها ، انما تؤكد وجهة نظر  
مؤرخ وثنى ، وثيرر شكوى أسقف مسيحي مجل . فقد اقتنع أميانوس

(\*) تحدث بالاديسوس . المؤلف الاصيل لهذه الرواية ، مع تلك الفتاة بعد أن  
تقدم بها العمر . وكانت لا تزال تذكر في غبطة وسرور تلك العلاقة الصالحة الشريفة .  
وليس في مقدورى أن اجيز كياسة بارونيوس وفاليسيوس وتلموند وغيرهم ممن لا يؤمنون  
بصحة هذه الرواية التي يرون أنها لا تتناسب مع جدية التاريخ الكنسى .

Amnianus ، نتيجة تجربته الخاصة ، بأن العداوة القائمة بين المسيحيين كانت أشد من هياج الوحوش الكاسرة ضد الانسان : أما جريجورى نازيانزن فإنه يرى فى أشد ما يكون من الحزن لما آلت اليه حل الملكة المسيحية ، ملكة الله ، التى مزقتها الخلافات وحولتها الى صورة للفوضى ، ولعاصفة تهب فى الظلام ، بل وجعلتها صورة من الجحيم نفسه . أما كتاب ذلك العصر الذين اتصفوا بالقسوة والتحيز ، فقد كان كل فريق منهم ينسب الفضائل كلها الى نفسه ، ويلقى الذنب كله على أكتاف خصومه ، ومن ثم فقد صوروا الوضع على أنه معركة بين الملائكة من جانب والشياطين من الجانب الآخر . غير أننا اذا توخينا التفكير الهادىء السليم ، فلا بد لنا من أن نأبى مثل هذا التصوير الذى يمثل فريقاً بأنه الرذيلة الكاملة الخالصة ، ويمثل الفريق الآخر بأنه القدسية البحتة التى لا تشوبها شائبة ، وأن ننسب الى كل من الطائفتين المتخاصمتين قسماً متساوياً ، أو على الأقل قسماً غير متميز من الخير والشر معاً . هاتان الطائفتان هما اللتان اتخذت واحدة منهما لنفسها اسم الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على الأخرى اسم الهرطقة . ولقد تعلمت الطائفتان ديانة واحدة ونشأنا فى مجتمع مدنى واحد ، وكانت آمالهما ومخاوفهما فى حاضر الزمان ، أو فى حياة مستقبلية ، متوازنة بنسبة واحدة . وقد يكون الخطأ فى هذا الجانب أو ذاك خطأ بريئاً ، والايمان مخلضاً صابحاً ، أما التصرف فقد يكون فاسداً أو صالحاً . وكانت عواطفهما تندفع نحو أهداف مماثلة ، كما أن كلا منهما كانت تسيء استغلال حظوة تنالها لدى البلاط أو لدى الشعب . ولم تستطع الآراء الميتافيزيقية التى كان يعتنقها أتباع أثناسيوس وأتباع آريوس أن تؤثر فى طابعهم الخلقى ، وكانوا جميعاً وعلى السواء مدفوعين بروح عدم التسامح التى استخلصوها تغنتنا من تفسيرهم للمبادئ النقية البسيطة الواردة فى الانجيل المقدس .

وثمة كاتب حديث ، رأى فى ثقة صائبة أن يصف التاريخ الذى كتبه هو بصفتين كريمتين هما أنه تاريخ سياسى وفلسفى ، هذا الكاتب يتهم الفيلسوف مونتسكيو Montesquieu بالحرص والتعصب لأنه لم يضم الى أسباب اضطلال الإمبراطورية قانوننا أصدره قسطنطين وألقى بمقتضاه الغاء تاماً ممارسة العادة الوثنية ، وترتب على ذلك أن أصبح جزء كبير من رعاياه مسروماً من الكهنة والمعابد ومن أية ديانة علنية . ومن الواضح أن حماس هذا المؤرخ الفيلسوف لحقوق الانسان قد أغراه على قبول الأقوال المبهمة التى قالها بعض رجال الكنيسة ونسبوا فيها الى بطلم المحبوب قسطنطين أنه شن حملة اضطهاد عامة ، معتبرين

ذلك ميزة فيه . ونحن لا نريد أن نوكد هذا القانون المزعوم الذى ، لو أنه صدر فعلا ، لتألق واحتمل مكان الصدارة بين القوانين الامبراطورية فلا تخطئه الأبخار . وبدلا من ذلك ففى مقدورنا دون خوف من الزلل أن نرجع الى الرسالة الأصلية التى وجهها قسطنطين الى أتباع الديانة القديمة فى وقت لم يعد يخفى فيه تحوله هو الى الديانة المسيحية الجديدة أو يخشى من كانوا ينافسونه على العرش . وهو فى هذه الرسالة يحث رعايا الامبراطور ويحضهم بأقوى العبارات على احتذاء مثل ملكهم ، ولكنه يعلن أن أولئك الذين لا يزالون يرفضون فتح أبصارهم لأضواء السماء فى مقدورهم أن يتمتعوا بمعابدهم وبآلهتهم الموهومة . ومما ينقض القول بأن الاحتفالات الوثنية قد أوقفت أن الامبراطور نفسه كان من الحكمة بحيث يقرر أن مبدأ تسامحه واعتداله انما يقوم على أساس أنه يأخذ فى اعتباره قوة العادة التى لا يمكن التغلب عليها ، وقوة التحيز وقوة الخرافات . ولم ينقض الامبراطور البارغ قدسية وعده ، ولم يثر مخاوف الوثنيين ، ولكنه اتخذ خطوات بطيئة حريصة لتقويض صرح تعدد الآلهة الذى كان صرحا مزعزعا متداعيا . أما القليل من أعمال العنف التى كان يلجأ اليها بين الحين والآخر ، فمع أن الباعث الخفى عليها كان حماسه المسيحى ، الا أنه كان يصطنع لها أرق الألوان ، ويدعى أنه مدفوع فى ذلك بدافع العدالة والصالح العام . وفى الوقت الذى كان قسطنطين يعمل فيه على تقويض أسس الديانة القديمة ، كان يتظاهر بأنه يهذب من مساوئها . ولقد سار على نهج أقل أجداده وأكثرهم حكمة فإدان أساليب الكهانة السرية الضمالة ، وتزويد أصحابها بأشيد العقوبات واقسامها لأنها أساليب كانت تثير فى الساخطين على أجوالهم الخاصة آمالا كاذبة ، وتغريهم فى بعض الأحيان على ارتكاب الجرائم والمواقات . ثم أخرج أصوات الكهان وفرض عليهم صمنا مشينا واتهمهم علانية بالغش والزيغ ، وكذلك ألغى وجود الكهنة المخنثين الذين كانوا يقيمون فى وادى النيل وأخذ على عاتقه القيسام بأعمال رقيب رومانى ، فأجبر أمره بهدم عدة معابد فينيقية كانت تمارس فيها كل ضروب الدعارة فى وضج النهار تكريما لربة العشق والجمال ، فينوس . وفى الحق أن المدينة الامبراطورية القسطنطينية - قامت الى حد كبير على حساب المعابد الفخمة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان وفى آسيا ، وزينت بما أخذ منها من أسلاب . . . وقد صودرت الممتلكات المقدسة ، ونقلت تماثيل الآلهة والأبطال دون احترام أو تجميل ، على مرأى من شعب كان لا يعتبرها موضع عبادة واجلال بل موضع طرافة واستطلاع ، وأعيد الذهب والفضة الى التداول ، واستغل الحكام والأساقفة والخصيان

هذه الفرصة السعيدة المواتية في ارضاء حماسهم وطمعهم واستيائهم .  
غير ان عمليات النهب هذه اقتصر على جزء صغير من العالم الرومانى  
ودرجت الولايات زمتا طويلا منذ ذلك الوقت على تحل مثل هذا السلب  
وتدنيس الأماكن المقدسة من جانب حكام الرومان وولاتهم الذين كانوا  
يعيدون عن شبهة القيام بأى عمل لتقويض الديانة القائمة .

وجرى أبناء قسطنطين على منوال والدهم بمزيد من الحماس وفى  
حرص أقل ، فازدادت (\*) أعمال النهب والظلم دون أن يستشعر مرتكبوها  
خجلا ولقى مسلك المسيحيين غير المشروع كل تغاض وتسامح بينما كان  
كل شك فى مسلك الوثنيين يفسر ضد مصلحتهم ، وأصبح هدم المعابد  
من الأحداث السعيدة التى يحتفل بها فى عهد كونستانتز وقسطنطيرس .  
وقد صدر قانون باسم قسطنطيرس لم يجعل هناك حاجة لاصدار أى حظر  
جديد فى المستقبل . يقول القانون :

« فلتكن مشيئتنا أن تغلق المعابد على الفور فى كل الأماكن وفى  
جميع المدن ، وتوضع تحت حراسة مشددة ، حتى لا يستطيع أحد أن  
يرتكب أية اساءة . ولتكن مشيئتنا أيضا أن يمتنع كل رعايانا عن تقديم  
الذبائح ، واذا اقترف أى انسان مثل هذا الذنب ضربنا رقبته بسيف  
نقمتنا ، وصودرت أملاكه بعد قتله لصالح المنفعة العامة . واذا أهمل  
حكام الولايات معاقبة المجرمين حل بهم القصاص نفسه » .

غير أن هناك من أقوى الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المرسوم  
الرهيب كتب دون أن ينشر، أو نشر دون أن ينفذ. فالدليل الحقائق، والآثار  
الرخامية والنحاسية التى ما تزال قائمة انما تثبت أن الوثنيين ظلوا  
يمارسون عباداتهم طوال عهد أبناء قسطنطين . وفى الشرق وفى الغرب  
على السواء ، وفى المدن كما فى الريف ظل عدد كبير من المعابد موضع  
الاحترام ، أو ترك كما هو على الأقل دون أن يمسه سوء . واستمرت  
الجاهير المتعبدة تتمتع بترف تقديم الذبائح ، وبالاحتفالات والمواكب  
بانن من الحكومة المدنية ، أو بالتغاضى من جانبها . وبعد انقضاء أربع  
سنوات على هذا المرسوم الدموى المزعوم قام قسطنطيرس بزيارة معابد

(\*) يتحدث أميانوس عن أن بعض خصيان البلاط كانوا يهبون خبز المعابد ،  
ويقول لبيانيوس أن الامبراطور كان يتخلص من المعبد كما لو كان كلبا أو حصانا أو  
عبدا أو كائنا ذمبية . غير أن الفيلسوف التقي يحرص على القول بأن هؤلاء الأخصاء  
الأرجاس قلما كان النجاح والتوفيق نصيبهم .

روما ، وكان مسلكه الرقيق المهذب موضع اطراء وثناء فى خطاب القساه  
 وثنى ووصفه بأنه مثل جدير بأن يحتديه الملوك من بعده . يقول سيمباخوس  
 Symmachus : « لقد أقر ذلك الامبراطور بحق العذارى العفيفات فى  
 البقاء مكرمات مصونات ، وأنعم على نبلاء روما بالقاب التكريم الكهنوتية ،  
 ومنح المال المعتاد منحة للوفاء بنفقات الشعائر والذبائح العامة ، ورغم  
 أنه قد اعتنق ديننا مختلفا ، الا أنه لم يحاول أبدا أن يحرم الامبراطورية  
 من العبادة القديمة المقدسة » . وظل السناتو يقدس ، بقرارات مهيبه  
 ما كان الملوك البلاد من ذكرى « آلهة » بل ان قسطنطين نفسه أدرك  
 اسمه بعد وفاته مع أولئك الآلهة الذين كان أثناء حياته يتبرأ منهم ويحقر  
 من شأنهم . ولقد قبل سبعة من الأباطرة المسيحيين دون تردد لقب  
 « الحبر الأعظم » وأعلامه وامتيازاته ، وهو لقب كان قد سنه الامبراطور  
 « نوما » Nums . واتخذة لنفسه الامبراطور أرس . بنس ، وأصبح  
 الأباطرة يمارسون سلطة مطلقة على الديانة التى تخلوا عنها تفوق سلطتهم  
 على الديانة التى اعتنقوها .

وأوقفت انقسامات المسيحية هلاك الوثنية (\*) ودمارها ، وهون

(\*) نظرا لأنى استخدمت كلمتى « الوثنية » ، « الوثنيون » فى كثير من المواضع ،  
 فسوف أتتبع الآن تطورات هاتين الكلمتين :

- ١ - كلمة Ilayn فى اللهجة الدورية المألوفة لدى الإيطاليين ، تعنى « نافورة » . ويسمى  
 الريفيون الذين يترددون على النافورة نفسها باسم Pagus Pazans .
- ٢ - وبانتشار استخدام كلمة Pagan ( وثنى ) أصبحت فى وكلمة « ريفى »  
 مترادفتين ، واكتسب القرويون البسطاء هذا الاسم الذى أصبح يعنى « فلاحين » فى  
 اللغات الأوربية الحديثة .
- ٣ - وبزيادة عدد رجال الحرب زيادة منمعة ظهرت ضرورة استخدام كلمة تتصل بهذا  
 الموضوع فدمغ كل الناس غير العاملين فى خدمة الحاكم بصفة حقيرة هى صفة  
 تعنيها كلمة Pagans .
- ٤ - كان المسيحيون جنود المسيح ، أما خصومهم الذين رفضوا تناول قربانه المقدس ،  
 أو قسم التجنيد بالمعمودية ، فإنهم يستحقون الاسم المجازى Pagaas وقد ادخل  
 هذا الاسم الذى يحمل معنى اللوم والتقريع منذ عهد فالنتينيان Valentinian  
 ( ٣٦٥ بعد الميلاد ) فى القوانين الامبراطورية والكتابات اللاهوتية .
- ٥ - ثم ملأت المسيحية مدائن الامبراطورية ، وانكشفت الديانة القديمة ابان عهد  
 يرودينتيوس فى القرى المجهولة ، ورجعت كلمة Pagaus ( وثنيين ) بمعناها  
 الجديد الى أصلها البدائى .
- ٦ - ومنذ أن انتهت عبادة جوبيتر Jupiter واسرته ، أصبح لقب « الوثنيون » يطلق  
 تباعا على عبدة الأصنام والآلهة المتعددة فى العالم القديم والعالم الجديد .
- ٧ - أطلق المسيحيون اللاتين هذه الكلمة ، دون اعتبار ، على أعدائهم المسلمين ، ودمغوا  
 أنقى المرعدين بالله بهذا التقريع الظالم الذى تحمله كلمة الوثنية .

الحكام والأساقفة من حريهم المقدسة ضد الكفار لأن خطر الثورة الداخلية وما كان يقترب فيها كان خطرا مباشرا أكثر تهديدا وازعاجا لهم . ولقد كان من الممكن تبرير القضاء على العبادة الوثنية بمقتضى مبادئ التعصب القائمة ، غير أن الطوائف المتنازعة التى تبادلت السيطرة على البلاط الامبراطورى كانت تخشى ابعاد أو اغضاب حزب قوى وان كان حزبا متهاويا . وكانت الدوافع كلها تقف الى جانب المسيحية فى كفاحها ضد الوثنية - دوافع السلطة والمصلحة والتعقل ، ودوافع الاتجاهات الحديثة ، غير أن جيلين أو ثلاثة أجيال انقضت قبل أن تنتصر تلك الدوافع ويشعر بتأثيرها العالم أجمع . ولقد ظل أناس كثيرون يجلبون تلك الديانة التى استقرت تلك المدة الطويلة والى زمن متأخر فى الامبراطورية الرومانية ، رغم أنهم كانوا يتعلقون بالعرف القديم أكثر من تعلقهم بالمتفكير النضر . وكانت امتيازات الدولة والجيش تمنح لكل رعايا قسطنطين وقد طنطوريوس سواء بسواء ، كما أن قدرا كبيرا من العلم والثروة والبأس ظل يستخدم فى خدمة الوثنية . وكان شيوخ السناتو والفلاحون والشعراء والفلاسفة يستمدون خرافاتهم من مصادر مختلفة ، غير أنهم كانوا يلتقون جميعا فى معابد الآلهة مدفوعين بالولاء نفسه . وكان انتصارهم الممتزج بالأزدراء والاحتقار مع أنهم طائفة مبعدة مضطهدة ، شيئا يثير حماسهم دون وعى منهم ، كما أن آمالهم قد انتعشت بفضل ثقتهم الأكيدة فى أن ولى عهد الامبراطورية وحاكمها المرتقب ، وهو بطل شاب شجاع أنقذ بلاد الغال من أيدي البرابرة قد اعتلق سرا ديانة أجداده .

انتهى الجزء الأول ويليه

الجزء الثانى



## أقرأ فى هذه السلسلة

- احلام الاعلام وقصص اخرى  
 الالكترونيات والحياة الحديثة  
 نقطة مقابل نقطة  
 الجغرافيا فى مائة عام  
 الثقافة والمجتمع  
 تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج )  
 الأرض الغامضة  
 الرواية الانجليزية  
 المرشد الى فن المسرح  
 آلهة مصر  
 الانسان المصرى على الشاشة  
 القاهرة مدينة الف ليلة وليلة  
 الهوية القومية فى السينما العربية  
 مجموعات النقود  
 الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق  
 عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى  
 ديالان توماس  
 الانسان ذلك الكائن الفريد  
 الرواية الحديثة  
 المسرح المصرى المعاصر  
 على محمود طه  
 القوة النفسية للأهرام  
 فن الترجمة  
 تولستوى  
 ستندال
- برتداند رسل  
 ى • رادونسكايا  
 الدس مكسلى  
 ت • و • فريمان  
 رايموند وليامز  
 ر • ج • فوريس  
 ليسترديل راى  
 والتر المن  
 لويس فارجاس  
 فرانسا دوماس  
 د • قدرى حفى وأخرون  
 أولج فولكف  
 هاشم النحاس  
 ديفيد وليام ماكذوال  
 عزيز الشوان  
 د • محسن جاسم الموسوى  
 اشراف س • بى • كوكس  
 جون لويس  
 جول ويست  
 د • عبد المعطى شعراوى  
 أنور المعداوى  
 يل شول وأدينيت  
 د • صفاء خلوصى  
 رالف تى ماتلو  
 فيكتور برومبير

- رسائل واحاديث من المنفى  
الجزء والكل محاورات فى مضمون  
الفيزياء الذرية ( )  
التراث القامض ماركس والماركسيون  
فن الادب الروائى عند تولستوى  
ادب الاطفال  
احمد حسن الزيات  
اعلام العرب فى الكيمياء  
فكرة المسرح  
الجحيم  
صنع القرار السياسى  
التطور الحضارى للانسان  
هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال  
قريبة الدواجن  
الموتى وعائلهم فى مصر القديمة  
التصل والطب  
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى  
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء  
مصر ١٩٠ - ١٩١٤  
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة  
المسحافة  
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن  
التشكيلى  
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية  
وبعدها  
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير  
الفكر الاوربى الحديث ( ٤ ج )  
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن  
العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥
- فيكتور هوجو  
فيرنز هيزنبرج  
سدىنى هوك  
ف . ٠ ع ادنيكوف  
هادى نعمان الهيتى  
هادى نعمنة رحيم العزاوى  
د . فاضل احمد الطاشى  
جلال العشرى  
هنرى باربوس  
السيد عليوة  
جاكوب برونوفسكى  
د . روجر ستروجان  
كاتى ثير  
ا . سبنسر  
د . ناعوم بيتروفيتش  
جوزيف داموس  
د . لينوار تشامبرز رايت  
د . جون شندلر  
بيير البير  
د . غريال وهبة  
د . رمسيس عوض  
د . محمد نعمان جلال  
فرانكلين ل . باومر  
شوكت الربيعى

لهيبرويين والإيدز

تجيب محفوظ على الشاشة

صور أفريقية

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية

وظائف الأعضاء من الألف الى الياء

الهندسة الوراثية

تربية أسماك الزينة

الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )

الفكر التاريخي عند الاغريق

قضايا وملاحم الفن التشكيلي

التغذية في البلدان النامية

بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات في مصر الإسلامية

حوار حول النظامين الرئيسيين

للكون

الارهاب

أختاتون

القبيلة الثالثة عشرة

التوافق النفسي

الدليل البيليوجرافي

لغة الصورة

الثورة الاصلاحية في اليابان

العالم الثالث غدا

الانقراض الكبير

تاريخ النقود

التحليل والتوزيع الأوركسترالي

الحياة الكريمة ( ٢ ج )

روى روبرتسون

هاشم النحاس

دوركاس ماكينتوك

بيتر لسورى

بوريس فيدروفيتش سيرجيف

ويليام بينز

ديفيد الدرتون

جمعها : جون ر . بورر

وميلتون جولد ينجر

أرنولد توينبى

د . صالح رضا

م . ه . كنج وآخرون

جورج جاموف

د . السيد طه أبو سديرة

جاليليو جاليليه

أريك موريس وآلان هو

سيريل الدريد

آرثر كيستلر

توماس ا . هاريس

مجموعة من الباحثين

روى أرمز

ناجى متشيو

بول هاريسون

ميخائيل البى ، جيمس لفلوا

فيكتور مورجان

اعداد محمد كمال اسماعيل

بيرتون بورتر

الفرندوسى الطرسى  
محمد فؤاد كوبريلى  
ادوارد ميرى  
اختيار / د. فيليب عطية  
اعداد / موني براخ وآخرون  
نادين جورديمر وآخرون  
آدامز فيليب  
زيجمونت هينر  
ستيفن أوزمنت  
جوناثان ريلى سميت  
ثونى بار  
بول كولنر  
موريس بير براير  
الفريد ج. بتلر  
رودريجو فارتيماس  
فانس بكارد  
اختيار / د. رفيق الصبان  
بيتر نيكوللز  
برتراند راصل  
بينارد دودج  
ريتشارد شاخت  
ناصر خسرو علوى  
نفتالى لويس  
جاك كرابس جونيور  
سربرت شيلر  
اختيار / صبرى الفضل  
احمد محمد الشنوانى  
اسحق عظيموف  
لوريتو تود

الشاهنامه ( ٢ ج )  
قيام الدولة العثمانية  
عن النقد السينمائى الأمريكى  
قرانيم زرادشت  
السينما العربية  
دليل تنظيم المتاحف  
سقوط المطر وقصص اخرى  
جماليات فن الاخراج  
التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ ج )  
الحملة الصليبية الاولى  
التمثيل لالسينما والتليفزيون  
العثمانيون فى اوربا  
صناع الخلود  
الكنايس القبطية القديمة فى مصر ( ٢ ج )  
رحلات فارتيماس  
انهم يصنعون البشر ( ٢ ج )  
فى النقد السينمائى الفرنسى  
السينما الخيالية  
السلطة والفرد  
الأزهر فى الف عام  
رواد الفلسفة الحديثة  
سفر قامة  
مصر الرومانية  
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر  
الاتصال والهيمنة الثقافية  
مختارات من الآداب الآسيوية  
كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٥ ج )  
الشموس المتفجرة  
مدخل الى علم اللغة

اعداد/ سوريال عبد الملك  
د . ايرار كريم الله  
اعداد/ جابر محمد الجراد  
هـ . ج . و . ل . ز  
ستيفن رانسيمان  
جوستاف جرونيياوم  
ريتشارد بيرتون  
ادمز متنز  
ارنولد جنزل  
يادى اونيمود  
فيليب عطية  
جلال عبد الفتاح  
محمد زينهم  
مارتن فان كريفلد  
سوندارى  
فرانسيس ج . برجين  
ج . كارفيل  
توماس ليههارت  
الفين توفلر  
ادوارد ويونو  
كريستيان سالين  
جوزيف . م . بوجز  
يسول وارد  
جورج ستاينز  
ويليام هـ . ماثيوز  
جارى . ناش  
ستالين جين سولومون  
عبد الرحمن الشيخ  
جوزيف نيدهام

حديث النهر  
من هم القطار  
ماس تريخت  
معالم تاريخ الانسانية ( ٤ ج )  
الحمالات الصليبية  
حضارة الاسلام  
رحلة بيرتون ( ٣ ج )  
الطفل ( ٢ ج )  
الحضارة الاسلامية  
افريقيا الطريق الآخر  
السحر والعلم والدين  
الكون ذلك المجهول  
تكنولوجيا فن الزجاج  
جرب المستقبل  
الفلسفة الجوهرية  
الاسلام التطبيقي  
تبسيط المفاهيم الهندسية  
فن المايم والباتوميم  
تحول السلطة ( ٢ ج )  
التفكير المتجدد  
السيناريو فى السيتما القرسية  
فن الفرجة على الافلام  
خفايا نظام النجم الأمريكى  
بين تولستوى ودستوفسكى ( ٢ ج )  
مناهى الجيولوجيا  
الحممر والبيض والسود  
انواع الفيصل الأمريكى  
رحلة الامير رودلف ( ٢ ج )  
تاريخ العلم والحضارة فى الصين

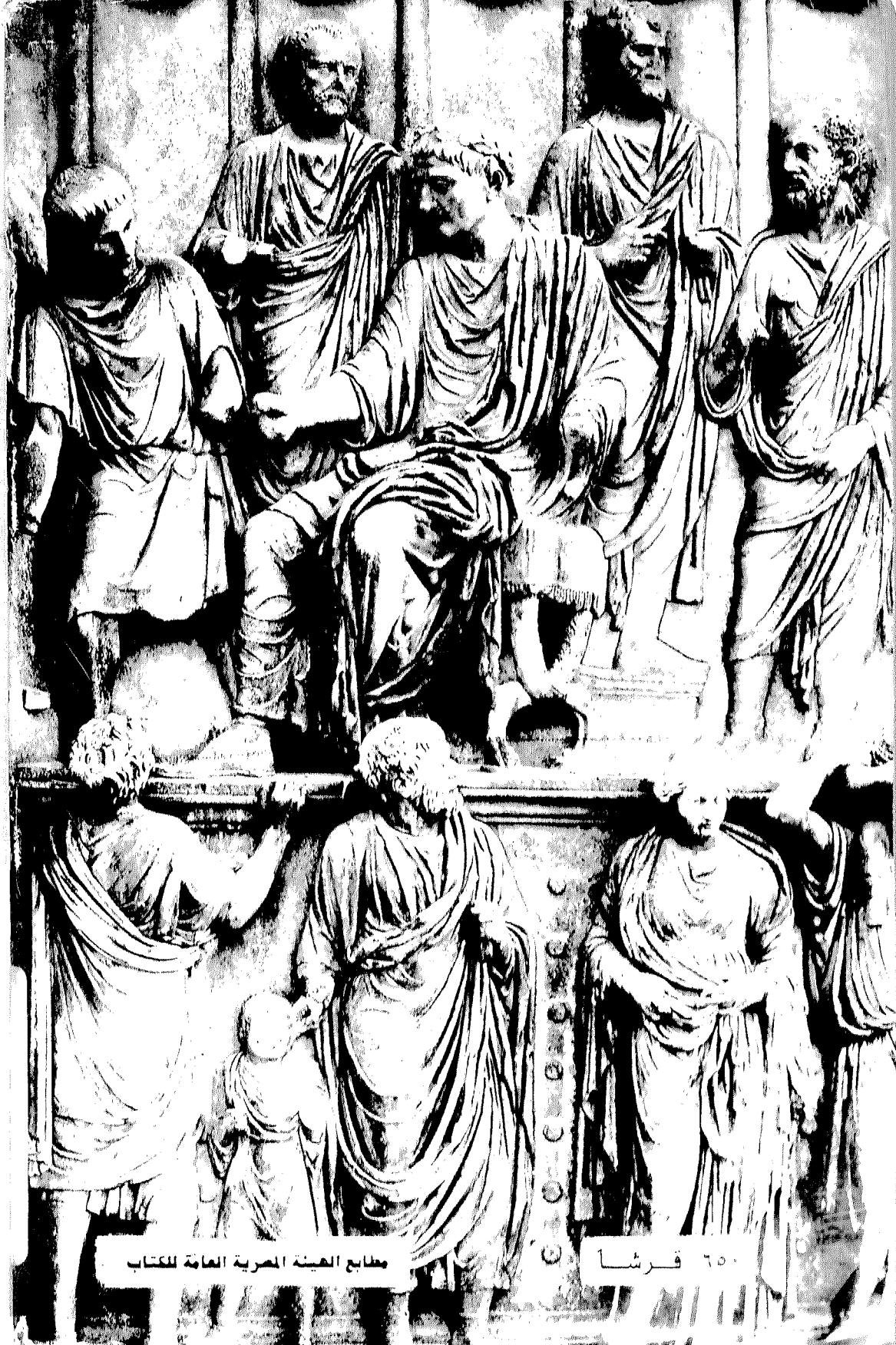
|                     |                                     |
|---------------------|-------------------------------------|
| كريستيان دديروش     | المراة الفرعوية                     |
| ليوناردو دافنشى     | نظرية التصوير                       |
| مربرت ريسد          | التربية عن طريق الفن                |
| وليم بينز           | معجم التكنولوجيا الحيوية            |
| روبرت لافو          | البرمجة بلغة السي                   |
| رولاند جاكسون       | الكيمياء فى خدمة الانسان            |
| ايفور ايفانوس       | مجملى تاريخ الادب المعاصر           |
| ديفيد بوشبندر       | نظرية الادب المعاصر                 |
| يوسف شرارة          | مشكلات القرن الحادى والعشرين        |
| ت . ج . ه . جيميز   | كنوز الزراعة                        |
| د . ممدوح حامد عطية | البرنامج النووى الاسرائيلى          |
| كارل بوير           | بحثا عن عالم افضل                   |
| اسحق عظيموف         | العلم وفاق المستقبل                 |
| ايفرى شاتزمان       | كوتنا التمرد                        |
| نورمان كلارك        | الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٢٤/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 5058 — 4





مطابع الهيئة العربية العامة للكتاب

٦٥٠ قرشاً